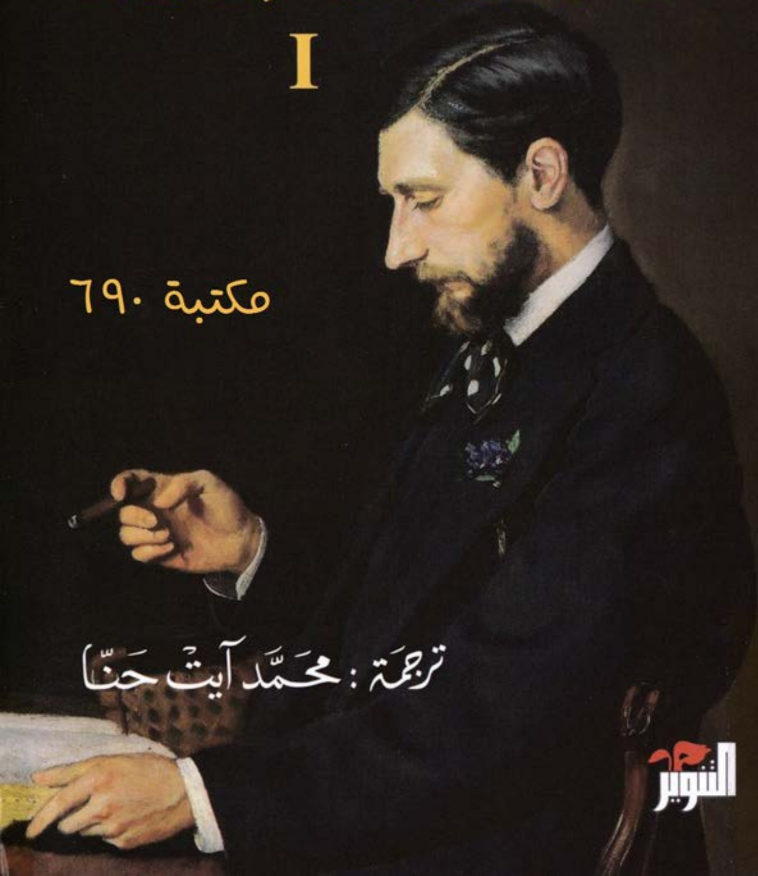
أَلكسَندر دوما

كونت مونت كريستو

I



مكتبة ٦٩٠

ترجمة: محمّد آيت حنّا

التنوير

إلى

ماري

رسول السلام

ألكسندر دوما

كونت مونت كريستو

المجلد الأول

مكتبة | 690
سُر مَن قرأ

الكتاب: كونت مونت كريستو، المجلد الأول
تأليف: ألكسندر دوما
ترجمة: محمّد آيت حنا
عدد الصفحات: 592 صفحة
الترقيم الدولي: 978-614-472-151-3
الطبعة الأولى: 2021

الترجمة الكاملة لرواية
Le Comte de Monte Cristo
Alexandre Dumas

الناشر


دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت - بئر حسن - بناية فارس قاسم (سارة بنما) - الطابق السفلي
هاتف: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
مصر: القاهرة 2- شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي
هاتف: 002022795557
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.daraltanweer.com

ألكسندر دوما

مكتبة 690
سُر مَن قرأ

كونت مونت كريستو

المجلد الأول

ترجمة : محمّد آيت حنّا



1

مارسيليا - الوصول

في يوم 24 فبراير من سنة 1815، أعطى مرصد نوتْرُدام دو لا غارد إشارةً بوصول السفينةِ الثلاثيةِ الصواري المسمّاة **الفرعونَ**، بعد رحلةٍ عبرت فيها موانئَ إزمير، وإسطجانكو[1]، ونابولي.

وكالعادة، ما لبث أن ظهر من الميناء ربّانُ ساحلٍ[2]، وسارَ بمحاذاةِ قلعة إيف، قاصدًا لقاء السّفينة بين رأس مورجيون وجزيرة ريون.

وعلى الفور، وكالعادة دائمًا، امتلأ رصيف سان جان بالفضوليّين؛ ذاك أنّ قدوم باخرةٍ يملكها أحد التّجار أرباب السُّفن بالمدينة، يعدُّ دومًا في مارسيليا حدثًا عظيمًا، خاصّة إذا ما كان الأمر يتعلّق بسفينةٍ، مثل **الفرعون**، شُيّدت وجُهّزت ورُصّت حمولتها داخل وُرَش فونسيا (حاليًا تركيا) العتيقة، ويملكُها تاجرٌ من أبناء المدينة.

على أنّ السّفينة؛ وقد اخترقت المضيق الذي شقّته الهزّاتُ البركانية ما بين جزيرة كالازاريني وجزيرة جاروس، وجاوَزت جزيرة بوميجا؛ كانت، وإن نشرت أشرعتها، تتقدّم ببطءٍ شديد وعليها سيماءُ حزنٍ مهيب، حتّى إنّ الفضوليّين، بحسّهم الذي يستشعر المصائبَ، أخذوا يتساءلون أيّ حادثٍ يمكن أن يكون قد وقع على متنها. بيد أنّ من خَبروا الملاحةَ منهم، كانوا يعرفون أنّ المصيبةَ -إن كانت توجد مصيبةٌ- لا يمكن أن

(1) مدينة تريّيستي الإيطالية. كذلك سمّاها قدماء الجغرافيّين العرب. (جميع الحواشي من وضع المترجم ما لم ترد إشارة إلى خلاف ذلك).
(2) ربّانٌ مسؤول عن توجيه السّفن وتنظيمها في الميناء.

تكون قد لحقت بالسّفينة نفسِها، ذلك أنّها كانت تتقدّم كما ينبغي لسفينةٍ تُقادُ وفق أمثل الشّروط: - مرساتُها مُلقاة، وشراعُ قيدُومِها[1] مطويٌّ؛ وبجانب موقع القبطانِ شابٌّ يهمُّ بتوجيهها عبر مدخل ميناء مارسيليا الضيّق. وكان الشّابُّ سريعَ الحركة دَرِبَ العينِ، يراقبُ حركاتِ السّفينة كلِّها ويصدر أوامر القبطانِ جميعها.

كانت موجة القلق التي غمرت الحشدَ الذي يتابع المشهدَ، قد أغرقت على وجه التخصيص أحدهم، لدرجة أنّه لم يستطع انتظار السّفينة حتّى تدخل الميناء، فقفزَ إلى قاربٍ صغيرٍ، وأصدر أمرًا بالتجديف صوبَ مقدّمة **الفرعون**.

وإذ رأى البحّارُ الشّابُّ الرّجلَ قادمًا، ترك مكانَه قرب موقع القبطان، وقصد جدارَ السّفينة يستند إليه، حاملًا قبّعته في يده.

كانَ شابًّا، سنّه ما بين الثامنة عشرة والعشرين، طويلَ القامة، رشيقًا، بعينين سوداوين جميلتين وشعرٍ فاحم. وفي شخصه تتجلّى كلّ سيماءِ الهدوء والحزم التي تميّزُ الرّجالَ الذينَ عُركوا منذ طفولتهم على مجابهة الأخطار.

صاح الرّجل على متن الزورق:

- هذا أنت يا دانتِس! ما الذي حدث؟ ولمَ يخيّم جوّ الحزن هذا على متن سفينتكم؟

أجابه الشّابُ:

- مصيبةٌ عظيمةٌ، سيدي موريل! مصيبةٌ عظيمة حقّت بيَ أنا على وجه التّخصيص: - حين بلغنا مستوى تشيفيتا فيكيا[2] (إيطاليا) فقدنا القبطان الباسل لوكلير.

(1) قيدوم السّفينة: مقدّمُها والكوثُلُ مؤخّرها.
(2) «جبت بكّة» في كتب الجغرافيّين العرب القدامى.

سأل التاجر بلهفةٍ:
- والحمولة؟
- لقد وصلت سالمةً، سيّدي موريل، أعتقد بأنّك ستكون مسرورًا بهذا الصّدد؛ لكنّ المسكينَ القبطان لوكلير...
سأل التّاجر وقد بدا أنّ أساريره انفرجت:
- ما الذي حدث له؟ ما الذي وقع للقبطانِ المسكين لوكلير...
- لقد مات.
- هل سقط في البحر؟
-كلاّ يا سيّدي، لقد مات بسبب التهاب السّحايا، ماتَ وهو يكابد آلامًا فظيعة.
ثمّ استدار الشّاب صوبَ رجاله، وصاح فيهم:
- هيّا! كلّ إلى موقعه، سنرسو!
نفّذ الطّاقم الأوامرَ. وعلى الفور تحرّك البحارّة الثمانية أو العشرة الذين يتألّف منهم الطّاقم، فمنهم من انطلق إلى حبال الأشرعة، وآخر إلى حبال الضّبط، وغيره إلى حبال الرّفع، ومنهم من اتّجه صوبَ شراع الزّاوي، وأخيرًا من قصد حبالَ القلوع.
ألقى البحّار الشابُّ نظرة هادئة على بداية العمل، وإذ رأى أنّ أوامره ستنفَّذ، عاد إلى محاوِره الذي استعاد الحوار من حيث كانا قد أوقفاه:
- وكيف وقعت هذه المصيبة؟
- يا إلهي، لقد وقعت، يا سيّدي، بآخر طريقةٍ يمكن أن نتوقّعها: - لقد غادر القبطان لوكلير مدينةَ نابولي شديدَ الهياج؛ وبعد أربع وعشرين ساعةً أصابته الحمّى؛ وبعد ذلك بثلاثة أيّام توفي... لقد أقمنا له الجنازةَ المعتادةَ، وهو الآن يرقد على مقربة من جزيرة إلجيليو، كما يليق به، متلفّعًا بثوبِ أرجوحةٍ، وقد عُلّقت برأسه وقدميه قذيفتان من عيار ستة وثلاثين. وسنحمل إلى زوجته وسام شرفه وسيفَه. (ثمّ واصل الشّابُّ

كلامَه وقد علت وجهه ابتسامةٌ مريرة) إنّه لأمرٌ مؤسفٌ أن يقضي المرء عشر سنين في محاربة الإنجليز ثمّ ينتهي به المطاف ميّتًا، كسائر الخلق، على سريره.

قال التّاجر، الذي بدت نفسه ترتاح أكثر فأكثر:

- وما العمل؟ كلّنا فانون، وينبغي أن يُخلِيَ السّابقون أماكنهم للّاحقين، وإلاّ ما حصلَ تقدّمٌ؛ وبما أنّك تؤكّد أنّ الشُّحنَةَ...

- إنّها سليمة يا سيّدي موريل، أؤكّد لك. هي حمولةٌ أنصحُك بأن لا تحسمها [بأقلّ من] خمسة وعشرين ألف فرنك ربحًا صافيًا.

ثمَّ وقد جاوزت السّفينةُ القلعةَ المستديرة، صاح الشّابّ:

- اطووا أشرعة الصاري والزّاوي والإبحار! هيّا يا معشر الكسالى!

نُفّذت الأوامرُ بدقّةٍ تكادُ تطابقُ دقّةَ ما يُنفَّذُ على البوارج الحربيّة.

- تحرّكوا، واطووا كلّ الأشرعة!

بعد الأمر الأخير، طُويَت الأشرعةُ جميعها، وصار المركب يتقدّم بشكلٍ يكاد لا يُلحظ، سائرًا بقوّة الدّفع لا غير.

قالَ دانتِس وقد لاحظ نفاد صبر التّاجر: - هوذا محاسِبُنا، السّيّد دانغلار، يخرجُ من مقصورتِه، وسيعطيك المعلومات التي ترغب في معرفتِها. أمّا أنا فينبغي أن أُشرفَ على رسُوّ السّفينة، وأن أعلن الحِدادَ على متنها.

لم يزد التّاجر كلمةً. تلقّفَ حبلًا رمى به إليه دانتِس، وببراعةٍ كان ليفخرَ بها رجُل بحرٍ، تسلّق السّلالم المثبتة على جانب المركب؛ بينما انصرف دانتِس عائدًا إلى موقعه نائبَ قبطانٍ، تاركًا موضعَه في المحادثة إلى الرّجل الذي كان قد أعلنَ عن قدومه باسم دانغلار، والذي كان بالفعل قد خرج من مقصورته قاصدًا التّاجر.

كان القادمُ رجلًا سنّه ما بين الخامسة والعشرين والسّادسة والعشرين، وجهه داكنٌ، شديد التزلّف لرؤسائه، ومتكبّرًا على مرؤوسيه؛ فضلًا عن أنّه كان مُحاسبًا، وهي مهنةٌ لا يحبُّ البحّارةُ أصحابَها. لذا كانَ الرّجلُ،

على وجه العموم، غير محبوبٍ من طرف طاقم السّفينة، بقدرِ ما كان إدمون دانتِس محبوبًا.

قال دانغلار:

- أنت على علم بالمصيبة يا سيّدي موريل، أليس كذلك؟

- بلى، المسكينُ القبطان لوكلير! لقد كانَ رجلًا شجاعًا وشريفًا!

أجاب دانغلار:

- وكان، على وجه التّخصيص، بحّارًا ممتازًا، كبُر وشاخَ بين السّماء والماء، كما يليق برجلٍ مكلَّفٍ بالحرص على مصالح مؤسّسةٍ بالغةِ الأهميّة، أقصد مؤسّسةَ موريل ووَلدِه.

أجابَ التّاجر، متابعًا بعينيه دانتِس وهو يُرسي السّفينة:

- لكن، يبدو لي أنّ ليس من الضروريّ أن يكون المرء بحارًا قديمًا حتّى يتقنَ مهنتَه، ولنا مَثَلٌ في صديقِنا دانتِس الذي يتقن عملَه بلا حاجةٍ لأن يرشدَه أحدٌ.

عقّب دانغلار، وهو يرمق دانتِس بطرفٍ خفيّ يلمع فيه بريق كراهيّة:

- أجل، إنّه لا يزال صغيرًا، لا شكّ في ذلك. وما إن ماتَ القبطان حتّى تولّى دانتِس زمام القيادة، من دون أن يستشيرَ أحدًا، حتّى إنّه كلّفنا ضياع يوم ونصف يومٍ في جزيرة إلبا (إيطاليا)، بدلًا من أن يعود مباشرةً إلى مارسيليا.

قال التّاجر:

- أمّا تولّي قيادة السّفينة فكان واجبَه، ما دام هو نائب القبطان؛ أمّا بالنّسبة إلى تضييع يوم ونصف على جزيرة إلبا، فقد أخطأ، ما لم يكن دافعه إلى ذلك إصلاحَ عطبٍ.

- المركب كان على ما يرام، مثل حالي أنا، ومثلما أرجو أن تكون أنت يا سيّد موريل؛ أمّا اليوم ونصف اليوم فقد ضاعا بباعثٍ من نزوةٍ لا غير، لقد رغبَ في أن ينزل إلى البرّ، وهذا كلّ ما في الأمر.

صاح التّاجر مستديرًا شطرَ الشّابّ:

- تعالَ يا دانتِس!

أجابه دانتِس: - لحظة يا سيّدي وألبّي نداءك! (ثمّ موجّهًا كلامَه إلى الطّاقم): - ارسوا!

وعلى الفور أُلقيت المرساة، وانسحبت سلسلتُها صارّةً بصخب. ظلَّ دانتِس في موضعه، على الرّغم من حضور القائد، إلى أن أُنجِزَت المهمّة؛ ثمّ صاح بالبحّارة: - نكّسوا العلم إلى المنتصف، واقلِبوا خشبات الصاري!

قال دانغلار: - أرأيت! إنّه يعتبر نفسه من الآن قبطانًا.

أجابَه التّاجر: - وإنّه لكذلك بالفعل!

- نعم، لا ينقصه سوى توقيعِك وتوقيع شريكك، يا سيّد موريل.

- وما الذي يمنعنا من أن نتركه؟ أعرف أنّه صغير السنّ، لكنّه يبدو لي مناسبًا جدًا لشغل هذا المنصب، ومحنّكًا على حداثة سنّه.

اغتمَّ جبينُ دانغلار.

قال دانتِس وهو يدنو من الرّجلين: - عذرًا سيّدي موريل؛ الآن وقد رسا المركب، ها أنا ذا تحت أمرك: - لقد ناديتني، أليس كذلك؟

تراجع دانغلار خطوة إلى الوراء.

- أردتُ سؤالَك لمَ توقّفت في جزيرة إلبا؟

- لا أعلم السبب يا سيّدي؛ وإنّما فعلت ذلك تنفيذًا لآخر أوامر القبطان لوكلير الذي كلّفني، بينما كان يحتضر، بأن أوصل طردًا للماريشال الأكبر برتران.

- هل قابلته إذًا يا دانتِس؟

- من؟

- الماريشال الأكبر؟

- نعم.

التفت موريل حواليه، ثمّ انتحى بدانتِس جانبًا. وسأله بحماسة:
- وكيف هو الإمبراطور؟
- بخير؛ على حسب ما رأت عيناي.
- رأيت إذًا حتّى الإمبراطور؟
- لقد دخل على الماريشال حينما كنت عنده.
- وكلّمته؟
أجاب دانتِس باسمًا: - الحقّ أنّه هو من كلّمني، يا سيّدي.
- ماذا قال لك؟
- لقد سألني عن السّفينة، متى غادرت مارسيليا، والطّريق التي سلكَتها، والشّحنة التي تحملُها. أحسب أن نيّته كانت شراء السّفينة، لو أنّها كانت قد أُفرغت من شحنتِها وكنت أنا مالكها؛ لكنّي أخبرتُه بأنّي لست سوى نائب القبطان، وأنّ السفينة ملك للسيّد موريل وابنه. فقال لي: - آه! آه! إنّي أعرفهما. آلُ موريل تجّارٌ أبًا عن جد؛ وحين كنت بالحامية في فالانسيا، كان معي بنفس السّرية أحدهم.
صاح التّاجر مبتهجًا: - الحقّ قال! إنّه يقصد بوليكار موريل، عمّي، الذي صار قبطانًا. دانِتس، ستقول لعمّي إنّ الإمبراطور قد تذكّره، وسترى كيف ستغرق عيناه دمعًا. (ثمّ أضاف وهو يربّت بودٍّ على كتف الشّاب) حسنًا، حسنًا فعلت إذ اتّبعتَ تعليمات القبطان لوكلير، وإن كان حمْلُكَ طردًا إلى الماريشال وحديثك إلى الإمبراطور، قد يعرّضانك للخطر.
- عن أيّ خطر تتحدّث يا سيّدي؟ أنا لا أعرف حتّى ماذا كنت أحمل. والإمبراطور لم يسألني سوى الأسئلة التي كان ليسألنيها أوّلُ عابر. لكن، عفوًا، هو ذا مفتّش الصّحة ومسؤول الجمارك قادمان؛ أتسمح ليَ؟
- تفضّل، تفضّل، عزيزي دانِتس.
وإذ ابتعد الشّاب، اقترب دانغلار من التّاجر متسائلًا:
- يبدو أنّه قد أعطاكَ أسبابًا مقنعةً لرسوّه ببورتو فيرايو (إيطاليا)؟

- أسبابًا وجيهةً يا عزيزي دانغلار.
- آه! جيّد إذًا، لأنّ من المؤسف دومًا رؤية زميل لا يقوم بواجبه.
- لقد قام دانتِس بواجبه، لا جدال في ذلك. إنّ القبطان لوكلير هو من طلب منه الرّسوَ هناك.
- على ذكر القبطان لوكلير، أوَلَم يسلّمكَ رسالةً منه؟
- من تقصد؟
- دانتِس.
- رسالةً إليّ أنا؟ كلاّ! أوَكان يحمل رسالةً إليّ؟
- أظنّ أنّ القبطان لوكلير قد عهد إليه، فضلًا عن الطّرد، برسالةٍ.
- عن أيّ طردٍ تتحدّث يا دانغلار؟
- عن ذاك الذي سلّمه دانتِس أثناء مرورنا ببورتو فيرايو.
- وكيف علمت أنّه يحملُ طردًا عليه تسليمه ببورتو فيرايو؟
احمرّ وجه دانغلار، وقال: - كنت مارًّا من أمام باب القبطان وكان مواربًا، فلمحتُه يعهد إلى دانتِس بالطّرد والرّسالة.
قال التّاجر:
- لم يحدّثني البتّة عن ذلك، لكن إذا كان يحمل إليّ رسالةً، فسيسلّمني إيّاها.
فكّر دانغلار قليلًا، ثمّ قال:
- أرجوك سيّدي موريل، لا تخبر دانتِس بشيءٍ ممّا دار بيننا؛ لا ريب في أنّي مخطئ.
في تلك اللّحظة عاد الشّاب، فابتعد دانغلار.
سأل التّاجر:
- حسنًا! هل فرغت يا عزيزي دانتِس؟
- نعم، سيّدي.
- لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا.

- كلاّ، لقد سلّمتُ الجماركَ لائحةَ بضائعنا؛ أمّا الاستعلامات فقد أرسلوا مع ربّانِ الشّاطئ رجلًا سلّمتُه أوراقَنا.
- لم يبقَ لديك ما تفعلُه هنا إذًا؟
ألقى دانتِس نظرةً سريعةً حوله، ثمّ أجاب:
- كلاّ، كلُّ شيءٍ كما ينبغي أن يكون.
- تستطيع إذًا أن تأتيَ للعشاء معنا.
- اعذرني يا سيّدي مورِيل، لكنّ أولى زياراتي ينبغي أن تكون لوالدي؛ وهذا لا يعني أنّني لا أقدّر ما تخصّني به من شرفٍ.
- نِعمَ الفعل! أعرف أنّك ابنٌ بارٌّ.
سأله دانتِس في شيءٍ من التردّد: - وهل تدري ما إذا كان والدي بخير؟
- نعم، إنّه بخير يا عزيزي دانتِس، وإن كنتُ لم أرَه.
- أجل، إنّه يقضي أيامَه لائذًا بغرفته.
- وهذا يعني على الأقل، أنّه لم يحتجْ شيئًا في غيابك.
ابتسم دانتِس قائلًا: - إنّ والدي رجلٌ عزيز النّفس، حتّى وإن أعوَزَه كلّ شيءٍ، فلن يسألَ أحدًا سوى الربّ.
- حسنًا. بعد الزّيارة الأولى، نعتمد عليك.
- اعذرني مرّة أخرى، سيّدي موريل، لكن لديّ زيارة أخرى لها في قلبي موقعٌ ليس بأقلَّ من موقع الزيارة الأولى.
- آه! صحيح؛ كدت أنسى أنّ في حيّ الكَتالان من ينتظرك بصبر لا يقلّ نفادًا عن صبر والدك: - أقصد الحسناءَ مِرسيدس.
ابتسمَ الشّابُّ، فأردف الرّجلُ:
- آه! لستُ مندهشًا من كونِها أتتني ثلاثَ مرّاتٍ تستقصي أخبارَ الفرعون. حقًا إنّ لكَ عشيقةً جميلةً يا إدمون، ولا مجالَ عندك للشكوى!
قال البحّار الشّابُّ بنبرةٍ حادّة:
- إنّها ليست عشيقتي، وإنّما هي خطيبتي.

فأجابه التّاجر ضاحكًا: - أحيانًا يكون الأمران شيئًا واحدًا.
قال دانتِس: - ليست تلكَ حالُنا.
- هيّا يا إدمون، لا أؤخرنّكَ إذًا أكثر؛ لقد أحسنتَ تدبير شؤوني، فحقَّ عليَّ أن أتركك تنصرف إلى شؤونك. هل تحتاج مالًا؟
- كلاّ يا سيّدي، لقد حصلت على مستحقّات الرّحلة كاملةً، أي ما يُعادل تقريبًا راتب ثلاثة أشهر.
- أنت فتىً حريصٌ يا إدمون.
- زد على ذلك أنّي ابنُ رجلٍ فقير يا سيّد موريل.
- بلى، بلى، أعرف أنّك ولدٌ بارٌّ. هيّا، إلى أبيك؛ فأنا أيضًا لي ولدٌ، وسألوم من يؤخّره عن لقائي بعد سفرٍ طويل.
قال الشّاب محيّيًا:
- هل تسمح لي إذًا يا سيّدي؟
- نعم، إذا لم يكن لديك ما تضيفه.
- كلاّ، ليس لديّ.
- ألَم يعهد إليك القبطان لوكلير، بينما يحتضر، برسالةٍ توصلها إليّ؟
- لم يكن بمقدوره أن يكتب يا سيّدي؛ لكن سؤالك ذكّرني بأنّ عليّ أن أطلُب منك إجازة خمسة عشر يومًا.
- لكي تتزوّج؟
- أوّلًا؛ ثمّ لكي أذهب إلى باريس.
- حسنًا، حسنًا! خُذ الإجازة التي تريد يا دانتِس؛ سيكلّفنا تفريغُ شحنة السّفينة ستّة أسابيع، ولن نركب البحر قبل ثلاثة أشهر؛ لذا عليك أن تكون هنا قبل ثلاثة أشهر. (ثمّ ربّت على كتف البحّار الشّاب) لا يمكن أن تنطلق **الفرعون** من دون قبطانِها.
صاح البحّار الشّاب وقد برقت عيناه فرحًا:
- قبطانها؟ تروَّ في ما تقولُه الآن يا سيّدي، فأنت تعبّرُ عن رجاء قلبيَ الأعظمِ. هل تنوي أن تعيّنني قبطانًا على **الفرعون**؟

- لو كنتُ وحدي صاحبَ القرار، لمددت إليك يدي يا عزيزي دانتِس، قائلًا: «قُضيَ الأمرُ»، لكنّ لي شريكًا، وأنت تعرف المثل الإيطاليّ: «من لديه شريك، لديه رئيس[1]». لكن نصف رجائك على الأقلّ قد تحقّقَ، ما دمتَ قد حُزتَ صوتًا من الصّوتَيْن الاثنين؛ أمهلني إذًا حتّى آتيك بالصّوت الثاني، وسأبذل وُسعي في سبيل ذلك.

صاح دانتِس ممسكًا يدَ التّاجر، وقد دمعت عيناه:

- أوه، يا سيّدي موريل! أشكرك، باسم والدي، وباسم مرسيدس.

- حسنًا يا إدمون، إنّ للشّرفاء في السّماء ربًّا، أكثر ممّا لهم شيطانٌ! اذهب لرؤية أبيك، واذهب لرؤية مرسيدس، ثمّ ارجع إليّ.

- ألا تريد أن أوصلَك إلى البرّ؟

- كلاّ، شكرًا؛ سأبقى هنا لأدقّق الحسابات مع دانغلار. هل كنت راضيًا عنه أثناء الرّحلة؟

- الجواب يتوقّف على المعنى الذي تضمّنُه سؤالَك يا سيّدي؛ كرفيق، كلاّ، لأنّي أحسبُ أنّه لا يحمل لي مودّةً، منذ اليوم الذي تشاجرنا فيه شجارًا بسيطًا فارتكبت حماقةَ دعوته إلى النّزول على جزيرة مونت كريستو لتصفية الشّجار؛ دعوةٌ أخطأتُ فيها، وأحسن هوَ إذ رفضها. أمّا كمحاسبٍ، فالرّجل لا قولَ فيه، وستكون راضيًا عن الطريقة التي أنجز بها شغله.

- ما أقصدهُ يا دانتِس هو: - في حال ما إذا صرتَ قبطانًا على **الفرعون**، فهل ستبقي دانغلار؟

- سواء كنتُ قبطانًا أم نائب قبطان، يا سيّدي، سأحترم دومًا من يحوزون ثقةَ ربّ عملي.

- حسنًا يا دانتِس، أرى أنّك فتىً شهمٌ في كلّ شيء. هيا، لا أريد أن أؤخّركَ أكثر، فأنت تبدو لي كالقابض على الجمر.

---

(1) بالإيطالية في الأصل.

- أنا في إجازةٍ إذًا؟
- نعم، هيّا.
- أتسمح لي بأن آخذ قاربك؟
- خذه.
- إلى اللقاء يا سيّدي موريل، وشكرًا ألف مرّة.
- إلى اللّقاء يا عزيزي إدمون، وحظًّا طيّبًا!

قفز البحّار الشّاب إلى القارب، وأمر بالتّجديف باتّجاه جادّة كانبيير. وعلى الفور مال نوتيّان على المجاديف وبدآ في شقّ الطّريق بأسرع ما يمكن، بين القوارب الألف التي كانت تعرقل ما يشبه الزقاقَ الضيّق الذي يمضي، بين صفّين من السفن، من مدخل الميناء إلى رصيف أورليون.

تابع التّاجر الشّابّ باسمًا، حتّى بلغ البرّ، ورآه يقفز إلى بلاط الرّصيف، ويضيع وسط الحشد المتنافر الذي تغصُّ به جادة كانبيير الشّهيرةُ من الخامسة صباحًا إلى التّاسعة مساءً؛ كانبيير التي يفخر بها فونسيُّو[1] هذا العصر، ويقولون عنها بكلّ الجديّة الممكنة، وبنبرةٍ تزيدُ قولهم ثِقلًا: «لو أنّ باريس كانت بها كانبيير، لكانت باريسُ مارسيليا صغيرةً».

وإذ استدارَ التّاجرُ ألفى خلفَه دانغلار الذي بدا في ظاهرِه واقفًا ينتظر الأوامر، لكنّه في الواقع كان يتابع بدوره البحّارَ الشّابّ.

على أنّ بونًا شاسعًا في التّعبير كان بين النّظرتين اللّتين تشيّعانِ الرّجل نفسَه.

(1) نسبةً إلى فونسيا، وتقع حاليًّا بتركيا.

2

الأب والابن

لنترك دانغلار لحقدِه يحرِّكه ويدفعه إلى نفث بعض الظّنون الخبيثة في أذن التّاجر، ولنتبع دانتِس الذي، بعدما قطع طولَ جادة كانبيير، سلك شارع نُواي، ثمّ دخل بيتًا صغيرًا يسارَ ممشى مييون، وارتقى مسرعًا الطبقات الأربع لسلمّ معتم، ثمّ مُمسكًا الدرابزين بإحدى يديه، وكابسًا بالأخرى على دقّات قلبه، توقّف أمام بابٍ موارب يكشفُ عن غرفةٍ صغيرة.

تلك الغرفةُ كانت الغرفةَ التي يسكنُها والد دانتِس.

لم يكن خبر وصول **الفرعون** قد تناهى إلى الشّيخ الذي كان يعتلي كرسيًا ليعتني، مرتعِش اليَدين، ببعض زهرات أبو خنجر التي كانت تتسلّق سياج النّافذة.

وفجأةً شعر بجسدٍ يحتضنه وصوتٍ يصيح خلفه:

- أبي، أبي العزيز!

صاح الشيخ واستدار؛ وإذ ألفى ولده، استسلم لعناقه وقد تملّكه الشحوب والرجفة.

صاح الشّاب قلقًا: - ماذا بك يا أبي؟ أأنتَ مريضٌ؟

- كلاّ يا عزيزي إدمون. يا بنيّ، كلاّ، لستُ مريضًا لكنّها مفاجأةُ رؤيتِكَ، وما حملَته لي من فرحة... آهٍ يا إلهي! أحسّ بأنّي سأموت!

- تماسك يا أبي! هذا أنا، حقًّا أنا! يقال دائمًا إنّ الفرحة لا تؤذي أحدًا، ولذلك دلفت إلى البيت بلا ترتيبٍ مسبق. هيّا ابتسم وانفض عنك هذه النّظرة الذّاهلة. ها قد عُدت، وسنكون سعداء.

- كيف سنكون سعداء؟ هل ستبقى هنا دومًا؟ هيَّا قصَّ عليَّ خبرَ سعادتك.

أجاب الشّاب: - ليُسامحني الرّب لأنّ سعادتي أتت في طيّاتِ حزنِ عائلةٍ مكلومة! لكن الرّب يعلم أنّي ما اشتهيتُ قطّ هذه السّعادة؛ لكنّها وقعت، ولست أملك القوّة لأحزنَ عليها. لقد توفيَ القبطان لوكلير، يا أبتِ، ويبدو أنّني سأحلّ محلّه، بمباركةٍ من السيّد موريل. أوَتدرك معنى هذا يا أبي؟ أن أصير قبطانًا وأنا بعدُ في العشرين من عمري! وأحصل على راتبٍ يساوي مائة لويسيّة[1]، فضلًا عن نسبة من الأرباح! أليس هذا أكثر ممّا كان ليحلم به نوتيٌّ مسكينٌ مثلي؟

- بلى يا بنيّ، إنّه لأمرٌ باعثٌ على السعادة.

- أريد أن أشتري لك بأولّ النّقود التي أكسبها منزلًا جديدًا، منزلًا بحديقة تزرع فيها أشجارك: الظيّان، وأبو خنجر، والعسلة... لكن ما الخطبُ يا أبي، تبدو مريضًا؟

- صبرًا، صبرًا! لن يكون الأمر هيّنًا.

ثمّ إنّ قوى الشّيخ خارت فانقلب على ظهره.

قال الشّاب: - بعض النّبيذ يا أبي؛ بعض النّبيذ سينعشك؛ أين تضع نبيذك؟

أجاب الشّيخ محاولًا ثنيَ وَلده عن البحث: - كلاّ، شكرًا، لا داعي إلى البحث؛ لا حاجة لي به.

- بلى، بلى يا أبي، أرِني أين تضعه.

وفتح الشّاب الخزنتين أو الثلاث، فقال الشّيخ:

- عبثًا تبحث، لم يبق عندنا نبيذ.

(1) اللّويسية، نسبةً إلى لويس الثالث عشر الذي أمر بضربها، وكانت هي العملة الشائعة في فرنسا بين سنتي 1640 و1792.

صاح الشّاب وقد انتقلَ الشّحوب إليه بينما ينقلُ تواليًا نظره بين خديّ الشّيخ الضّامرين والخزانات الفارغة:

- كيف لم يبقَ عندنا نبيذ! هل أعوزَتك النّقود يا أبي؟

- لم ينقصني شيءٌ، ما دمتَ قد عدتَ إليّ.

غمغم دانتِس وهو يمسح العرق السائل على جبينه:

- مع أنّي تركت لك مائتي فرنك، منذ ثلاثة أشهر، قبل ذهابي.

- أجل، أنت محقٌّ يا إدمون، لكنّك تركت دينًا لجارنا كادروس؛ وقد طالبني به، وهدّدني بأن يطلبه من السيّد موريل إن رفضتُ إعطاءه إيّاه، فخشيتُ أن يتسبّب لك الأمر بمشكلات...

- ثمّ؟

- ثمّ كان أن أعطيتُه مالَه.

صاح دانتِس - ولكنّي كنت مدينًا لكادروس بمائة وأربعين فرنكًا!

أكدّ الشّيخ مغمغمًا: - أجل.

- وقضيتَها أنتَ من المائتين فرنك التي تركتُها لك؟

هزّ الشيخ رأسه موافقًا، فغمغم الشابُّ:

- ممّا يعني أنّك قضيت ثلاثة شهورٍ بستّين فرنكًا!

- أنت تعرف أنّ احتياجاتي بسيطة.

ارتمى الابن عند قدميّ أبيه وقال متوسّلًا:

- آه يا إلهي، سامحني!

- ما الذي تفعلُه يا بنيّ؟

- لقد مزّق كلامك قلبي.

أجابَ الشّيخُ باسمًا: - كلّ شيء قد مضى، وها أنت الآن هنا، وكلّ شيءٍ على أفضل ما يرامُ.

- نعم، إنّي هنا، وها أمامي مستقبلٌ باهرٌ وملك يدي بعض المال. خُذ، خُذ واذهب فورًا لشراء ما تحتاجه.

ثمّ إنّه أفرغ جيوبَه، ونثر ما كان بها من قطع نقدية فوق الطاولة، دستة قطع ذهبية، وخمس أو ستّ قطعٍ من فئة خمسة فرنكاتٍ، وبعض الفكّة البخسة.

تهلّل وجهُ الشيخ دانتِس، وقال: - لمن هذه النّقود؟

- إنّها لي!... لكَ!... لنا!... خذ منها، واشترِ مؤونةً، واسعد، فغدًا يكون لدينا غيرُها.

أجابه الشّيخُ باسمًا: - على رسلِك يا بنيّ، على رسلك. بعد إذنك سأصرف هذه النّقود بتعقّلٍ، وإلاّ ظنّوا، وهم يرونَني أشتري أشياء كثيرة في وقتٍ واحدٍ، أنّي كنتً مضطرًا إلى انتظار عودتك حتّى أتمكّن من شرائها.

- افعل كما تشاء؛ لكن اتّخذ لك أوّلًا خادمةً يا أبي؛ لا أريدك أن تبقَى وحيدًا. عندي بنٌّ مُهرّب، وتبغٌ من النّوع الممتاز، خبأْتُهما في إحدى خزنات السّفينة، وسأجلبهما لك غدًا. لكن اخفض الصّوت! أحدهم يقترب.

- لا شكّ في أنّه كادروس، قد سمع بعودتك وأتى يهنّئك على السّلامة.

همسَ إدمون: - هو ذا شخصٌ آخرُ ممّن تقولُ شفاههم الشّيءَ وتُضمرُ قلوبُهم عكسَه؛ لكن، لا يهمّ، إنّه جارٌ أسدى لنا في ما مضى معروفًا، فأهلًا به وسهلًا.

وما إن أكمل إدمون جملته التي قالها بصوتٍ خفيض، حتّى ظهرَ عند الباب، وجه كادروس الأسود الملتحي. كانَ رجلًا بين الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين من عمره؛ وكان يحمل في يده قطعةَ قماشٍ يتهيّأُ، بوصفه خيّاطًا، إلى أن يحوّلها ثيابًا. قال بلهجةٍ مارسيلية وابتسامةٍ واسعةٍ تكشفُ عن أسنان ناصعة كالعاج:

- أوه، لقد عدت يا إدمون!

ردّ دانتِس محاولًا ما أمكنه إخفاء بروده تجاه كادروس:

- أجل، ومستعدٌ لأيّ خدمة.

- شكرًا، شكرًا؛ لحسن الحظّ لا أحتاج إلى أيّ خدمة، بل إنّ الآخرين هم من يحتاجون إلى خدماتي أحيانًا (وهنا ندّت عن دانتِس حركة). لا أقصدك بالطّبع، فأنت قد اقترضت المال منّي وأعدتَه، وتخالصنا؛ وكذلك يحدث بين الجيران الأخيار.

أجابه دانتِس: - لا يسع المرءَ أبدًا ردُّ جميل من ساعدَه؛ لأنّ ديْنَ النقودِ يردُّ، ويبقى دينُ العرفان.

- أيّ فائدة في الخوض في هذا الأمر! ما مضى قد مضى. ولنتحدّث عن عودتك الميمونة يا فتى. لقد ذهبت صدفةً إلى الميناء لأجلب منه قماشًا بنيًّا، وهناك التقيت صديقنا دانغلار، فجرى بيننا الحوارُ التالي:

- أنت، في مارسيليا؟

- أي، نعم.

- ظننتُك في إزمير.

- كان من الممكن أن أكون هناك، لأنّي من هنالك عدتُ.

- والصّغير دانتِس، أينَه؟

أجابني دانغلار: - لا شكّ في أنّه ببيت أبيه».

وإذّاك أتيت أصافحُ صديقي وأهنّئه بالسّلامة.

قال الشّيخ دانتس:

- إنّ جارنا كادروس، يحبّنا كثيرًا.

أجابَ الجارُ الخيّاط:

- أجل، أحبّكم، وأقدّركم كثيرًا في زمن عزّ فيه الشّرفاء! (ثمّ أضافَ وهو يرمق حفنة القطع النقديّة بطرفٍ خفيّ) لكن يبدو أنّك قد صرتَ غنيًا يا فتى؟

رمق الشّابُّ بريق الحسد الذي أشعل عينَي جاره، فأجابه بلا مبالاةٍ:

- أوه! هي ليست نقودي. قلت لوالدي إنّي أخشى من أن يكون قد عرف العوزَ في غيابي، فإذا به يُفرغ حافظة نقوده على الطاولة، لطمأنتي. هيّا يا والدي لمْلِم نقودَك. إلاّ إذا كان جارنا كادروس يريد بعضًا منها؛ فإنّ نقودنا طوع أمره في جميع الأحوال.

قال كادروس: - أشكرك يا عزيزي، لستُ بحاجة إلى أيّ شيء. الدّولة تعول رجُلَها ولله الحمد. ادَّخِر نقودَك، فالنقود دائمًا تعوز المرءَ. لكنّ هذا لا يمنعني من أن أقول إنّ عرضَك يساوي عندي العطاءَ.

قال دانتِس: - هو عطاءٌ عن طيب خاطر.

- لا شك عندي في ذلك. وإذًا، ها أنت ذا وقد ازدادت مكانتُك رفعةً عند السيّد موريل؟

- لطالما عاملني السيّد موريل بطيبةٍ.

- في جميع الأحوال، قد أخطأت برفضك دعوتَه إلى العشاء.

تدخّل الشّيخ دانتِس: - ما قصّةُ الرّفض هذه؟ أوَدعاكَ السيّد موريل إلى العشاء؟

أجاب دانتِس موافقًا وهو يبتسم للدّهشة التي خلّفها في نفس الشّيخِ التّشريفُ الذي خصَّ به السيّد موريل وَلَدَه.

سأل الشّيخ ابنَه: - ولمَ رفضتَ دعوَتَه إذًا؟

- لكي أعود إليك بأسرع ما يكون؛ فقد اشتقت إليك.

استأنفَ كادروس الكلام: - إنّ من شأن ذلك أن يخيّبَ ظنّ السيّد الطّيبَ موريل؛ وحين يسعى المرء إلى أن يصير قبطانًا، لا ينبغي له أن يخيّبَ ظنّ ربّ سفينته.

- لقد شرحتُ له سببَ رفضي، وقد تفهّم ذلك، على ما أرجو.

- آه! أنا أقصد أنّ على المرء، إن هوَ أرادَ أن يصير قبطانًا، أن يداهنَ رؤساءَه قليلًا.

أجابَه دانتِس: - إنّي لأرجو أن أصير قبطانًا من غير حاجةٍ إلى ذلك.

- خيرٌ لك، خير لك! وإنّ ذلك سيُسعد جميع أصدقائك القدامى، وتحديدًا شخصًا بعينِه، خلف قلعة سان نيكولا.

تساءل الشّيخ:

- أتقصدُ مرسيدس؟

فأجابَه دانتِس:

- أجل يا أبي، والآنَ وقد رأيتُك، وتيقّنت أنّك بخير ولستَ تحتاج شيئًا، أستأذنُك في أن أذهب لزيارة الكتالان.

- اذهب يا بُنيَّ، وليباركك الرّب في امرأتِكَ، كما باركني في ابني.

قال كادروس: - امرأتُه! ألست تستبق الأمور يا عم دانتِس! أحسب أنّها ليست كذلك بعد!

أجابه إدمون: - أجل، ليست كذلك بعد، لكنّ الأمر على الأرجح لن يتأخّر.

قال كادروس: - أيًّا كان، فقد أحسنت صنعًا باستعجالك الأمر.

- ولمَ؟

- لأنّ مرسيدس فتاةٌ حسناء، والحسناوات لا يعوزهنّ خطّابُ الودّ؛ وفتاتُك تحديدًا، يتبعونَها بالعشرات.

قال إدمون: «حقًا!»، وقد ارتسمَت على شفتيه ابتسامةٌ يُلمح منها طيفُ قلقٍ خفيف.

استطرَد كادروس: - أوه! أجل، بل ويلاحقُها رفيعو مقامٍ؛ لكن، وكما تعلمُ، فأنت ستصير قبطانًا، ولن تجد سببًا لرفضك!

استأنف دانتِس بابتسامةٍ لم توفّق في إخفاء قلقه:

- ممّا يعني أنّني لو لم أكن قبطانًا...

اكتفى كادروس بإشارة تأكيد. فقال الشابّ:

- أقول لك إنّي أخبرُ منك بأحوال النّساء عامّة، وبمرسيدس خاصّةً، وإنّي لمتيقّنٌ من أنّها ستخلص ليَ العهد سواء كنت قبطانًا أو لم أكن.

قال كادروس: - خيرٌ لك! من الجيد دائمًا أن يتحلّى المرء بالثّقة حين يقدمُ على الزّواج؛ لكن، مهما يكن، ثق بي يا بنيَّ، ولا تُضع الوقت، اذهب إليها فورًا فاعلمها بوصولك وأخبرها بأمانيك.

- إنّي ذاهبٌ.

قبّل الولد أباه، وحيّا كادروس بإشارة، ثمّ انصرفَ.

ظلّ كادروس برهةً بعد انصراف دانتِس، ثمّ ما لبث أن استأذنَ الشّيخَ وانصرفَ بدوره. مُلتحقًا بدانغلار الذي كان ينتظره عند ناصية شارع سِناك.

قال دانغلار:

- وإذًا؟ هل قابلتَه؟

- تركتُه لتوّي.

- هل حدّثك عن أمله في أن يصبح قبطانًا؟

- بل إنّه يتحدّث كما لو أنّه صارَ قبطانًا بالفعل.

- صبرًا! يبدو لي أنّه متعجّلٌ قليلًا.

- اللعنة! يبدو أنّ السيّد موريل قد وعدَه بالمنصب.

- بحيثُ يبدو سعيدًا؟

- بل بحيث يبدو صلفًا؛ حتّى إنّه عرض عليّ خدماته، وكأنّما قد صار شخصيّةً مرموقة؛ لا بل عرض عليّ إقراضي بعض النّقود، وكأنّما هو مصرفيٌّ.

- ورفضتَ عرضَه؟

- طبعًا؛ مع أنّه كان بإمكاني قبول عرضه، ما دمت أنا من أعطاه أوّل النّقود الفضيّة التي أمسكتها يداه. لكن من الآن فصاعدًا لن يعود السيّد دانتِس بحاجةٍ إلى أحد: سيصير قبطانًا.

قال دانغلار: - لكنّه لم يصر قبطانًا بعدُ.

- يا إلهي، سيكون أمرًا رائعًا ألا يصير كذلك، وإلا فلن يستطيع أحدٌ أن يكلّمه بعدها.

قال دانغلار: - إذا ما أردنا، بوسعنا أن نُبقيه كما هوَ، لا بل نستطيع أن نجعله أدنى ممّا هو عليه الآنَ.

- ماذا تقول؟

- لا شيء. أحدّث نفسي فقط. أما زالَ مُغرمًا بالكتالانيّة الحسناء؟

- هائمٌ بعشقها. وقد ذهبَ يزورها؛ لكنّي أحسبُ أنّه لن يكون مرحّبًا به في حيّ الكتالان.

- أفصِحْ!

- فيمَ يهمّك ذلك؟

- إنّه أهمّ ممّا تعتقد. أنت لا تحبّ دانتِس، أليس كذلك؟

- أنا لا أحبّ المتغطرسين.

- وإذًا، أخبرني بما تعرفه بخصوص علاقته بالكتالان.

- لا أعرف الشّيء الكثير، فقط رأيتُ أشياء تجعلني أعتقد بأنّ القبطان القادمَ سيتعرّض لمضايقاتٍ في ضواحي طريق المشفى القديم.

- ماذا رأيتَ؟ هيّا قُل!

- في كلّ مرّةٍ تنزل فيها الجميلة مرسيدس المدينةَ، يكون برفقتها شابٌ كاتالانيّ صنديد، أسود العينين، أحمر البشرة، شديد السّمرة، حادُّ الطّبع، وتُناديه هيَ: - **ابن عمّي**.

- آه! وتحسبُ أنّ ابن عمّها مغرمٌ بها؟

- أفترض ذلك، وإلاّ ما الذي يمكن، بحقّ الشّيطان، أن يجمع شابًا قويًا في الحادية والعشرين من عمره وصبيّة جميلةً في السّابعة عشرة؟

- وتقول إنّ دانتِس قد ذهبَ صوبَ الكتالان؟

- لقد ذهب أمامي.

- أحسب أنّنا إذا ما ذهبنا في الاتّجاه نفسه الذي ذهب فيه دانتِس، فإنّنا سوف نتوقّف عند الحانة، ونتصيّدُ الأخبارَ بينما نحتسي شيئًا من نبيذ مالقة.

- ومن ذا الذي سيأتينا بالأخبار؟
- سنكون على الطّريق، فنقرأ على وجه دانتِس ما حدث.
قال كادروس: - شرطَ أن تدفَع أنت ثمن الشّراب يا دانغلار.
أجابه دانغلار: - بالتّأكيد.
ثمّ إنّ الرّجلَين حثّا الخطى صوب المكان المعلوم. وإذ بلغا الحانَة أُوتيا بقنينةٍ وكأسين.
وكان الأب بامفيل قد لمح دانتِس مارًا قبل أقلّ من عشر دقائق.
وإذ أيقنا من أنّ دانتِس كان عند الكتالان، جلسا في ظلال الأوراق اليافعة، أوراق النباتات وأشجار الجمّيز التي كانت على أغصانِها عصافير تزقزقُ متغنيّةً بيومٍ من أيام بدايات الرّبيع الجميلة.

3

الكَتالان

على بعد مائة متر من المكان الذي كان فيه الصديقان، يحتسيان نبيذ مالقة الفائر، عيونهما تحدّق في الأفق وآذانهما مرهفة، كانت تقع قرية الكَتالان خلفَ كثيبٍ عارٍ قرضته الشّمسُ وريحُ الشّمال.

ذات يوم، في ما مضى من الزّمان، انطلقت من إسبانيا جماعةٌ غامضةٌ وأتتً تستقرّ في قطعة الأرض التي لا تزال تحتلّها حتى اليوم. لقد أتت الجماعة من حيثُ لا ندري، وكانت تتحدّث لغةً نجهَلُها. أحد قادة الجماعة، وكان يعرف اللّغة البروفانسالية، سأل بلديّة مارسيليا أن تمنحهم قطعة الخليج العارية الصّلبة التي كان [المارسيليون]، على شاكلة البحّارة القدامى، يأتون إليها ليرسوا بسفنهم. وافقت البلدية على طلبهم، وما هي إلا ثلاثة أشهر حتى ارتفعت، حولَ الاثني عشر أو الخمسة عشر مركبًا التي حملت أولئك البويهيميّين في البحر، قريةٌ صغيرة.

إنّها قريةٌ بُنيَت على نحو غريب ومتنوّع، نصفها موريسكيّ ونصفها إسبانيّ؛ واليوم نراها مأهولةً بسلالة أولئكَ الرّجال، سلالتهم التي لا تزال تتحدّث لغة الأجداد. منذ ثلاثة قرونٍ أو أربعة لا يزالون مخلصين لهذه القطعة الأرضية التي حطّوا عليها، كعصبةٍ من طيور البحر، من دون أن يختلطوا مع السّاكنة المارسيلية بأيّ شكلٍ من أشكال الاختلاط، فظلّوا يتزوّجون من بعضهم بعضًا، محافظين على قيمٍ وملابس وطنهم الأمّ، كما حافظوا على لغتهم.

وينبغي أن يتبعنا القرّاء عبر الشّارع الوحيد في هذه القرية الصّغيرة، وأن يلجوا معنا أحدَ البيوت التي منحتها الشّمسُ، من الخارج، لونَ أوراق الشّجر الميّتة الذي يميّز مباني هذا البلد؛ ومن الدّاخل طبقة من الطلاء الأبيض الذي لا تتّخذ البيوتُ الأسبانية زُخرفًا سواهُ.

وبالبيت شابّةٌ حسناء، شعرها فاحمٌ كالكهرمان الأسود، وعيناها عذبتان كعينيّ ظبية، تقف مسندةً إلى مشربيّة، بين أناملها الرفيعة زهرةُ خلنج[1] بريئةٍ تنتف أوراقها، وقد امتلأ بلاط الأرضيّة ببقاياها؛ ذراعا الشّابّة العاريتان حتّى المرفق، الملوّحتان، واللّتان تبدوان كأنّما قد قُدَّتا على مثال فينوس آرل[2]، ذراعاها تانك كانتا ترجُفان بنفاد صبرٍ محموم، وكانت تضرب الأرض بقدمها المرنة المقوّسة، بحيث كان بالإمكان أن نستشفّ هيئة قدمها الصافية والمعتدّة بنفسها والجَسورَ، السجينة تحت سروالٍ من قطنٍ أحمرَ ذي حواشٍ رمادية وزرقاء.

وعلى بعد ثلاث خطواتٍ من الصبيّة الحسناء، كان شابٌ سنّه بين العشرين والثانية والعشرين، يجلس متأرجحًا على كرسيٍّ بحركة متشنّجة، ساندًا مرفقَه على أثاثٍ قديم نخره السّوس، وينظرُ إليها نظرةً يتصارع فيها القلق والخيبة؛ عينا الشّابّ تستنطقان الصبيّة، لكنّ نظرتها الحازمة الثابتة تسيطرُ عليه.

كان يقول: – هوذا عيد الفصح سيحلّ مجدّدًا يا مرسيدس، وهو الوقت المناسب للزّفاف، أجيبيني!

– لقد أجبتُكَ مائة مرّة يا فِرنان، ولا يمكن أن تسألني مرّة أخرى إلاّ إذا كنتَ تُعاند نفسَك!

– حسنًا، أعيدي القولَ مرّة أخرى، رجاءً أعيديه، حتّى أتمكّن من

---

(1) نباتٌ عطريّ ذو أزهار وردية وأوراق رقيقة.

(2) تمثال فينوس المكتشف في مدينة آرل.

تصديقه. قولي لي للمرّة المائة إنّكَ ترفضين حبّي، حبّي الذي كانت أمّك تباركه. أخبريني أنّك لا تكترثين لسعادتي، وأنّ حياتي وموتي سيّان عندك. آه! يا إلهي، يا إلهي! بعدما أنفقتُ عشر سنين أحلمُ فيها بأن أكون زوجك، يا مرسيدس، يضيع الأمل الذي كان غاية حياتي الوحيدةَ!

– لست أنا من شجّعك على التعلّق بهذا الأمل يا فِرنان. لا يمكن أن تتهمني بالتلاعب. لطالما قلت لك: «إنّي أحبّك مثل أخي، وألا تنتظر منّي شيئًا آخر غير مشاعر الأخوّة، لأنّ قلبي معلّقٌ بشخصٍ آخرَ. أَلَم أقل لك ذلك يا فِرنان؟

– بلى، أعلم يا مرسيدس، لقد أبديتِ لي دومًا فضيلةَ الصّراحةِ القاسيةَ. لكن ألا تعلمين أنّ زواج الكَتالان بينهم يعدّ قانونًا مقدّسًا؟

– إنّكَ مُخطئ يا فِرنان، هو ليس قانونًا، وإنّما هو عادةٌ فحسب. ولا ينبغي لك أن تحتميَ بالعادة. لقد أفلتَّ من التجنيد الإجباريّ؛ لكنّهم تساهلوا معك فقط. قد يتمّ استدعاؤك في أيّ لحظةٍ لخدمة العلَم. وما الذي يمكنك أن تفعله لأجلي آنذاك، لأجل فتاةٍ مسكينةٍ يتيمة، حزينة، بلا مالٍ، لا تملك غير هذا الكوخ الذي يكاد يكون خَربًا، وقد عُلّقت به بعض الشباك البالية؛ التركة البائسة التي أورثَها أبي لأمّي، وأورثَتها هيَ لي؟ أوَتُدرك أنّي مذ ماتت أمّي، أي منذ سنةٍ، أكاد أعيش على المعونة! أحيانًا تتظاهرُ بأنّك تحتاج معونتي، كي تجعلها حجّة لتقتسم معي ما تصيدُه؛ وأنا أقبلُ لأنّك ابن عمّي، ولأنّنا تربّينا معًا، وأقبل خاصّةً لأنّ رفضي سيؤذيك. لكنّي أحسّ بأنّ هذا السمك الذي أبيعه كي أشتري بثمنه ما ألبسه، ليس سوى صَدَقة.

– وما همّني يا مرسيدس، إذا كنتِ، وأنت الفقيرة والوحيدة، بالنّسبة إليّ أفضل من ابنة أرفع التّجار أو أغنى المصرفيّين في مارسيليا! ما الذي نحتاجه نحن معشر الرّجال؟ امرأةً وفيّةً، وربّة بيتٍ صالحةً. وأنّى لي بامرأةٍ تفوقك في هذين الخصلتين؟

أجابته مرسيدس وهي تهزّ رأسها:

- إنّ المرأة تصير ربّة بيت سيئّةً، ولا تظلّ زوجةً وفيّةً، حينَ تحبّ رجلًا آخرَ غير زوجها. أكرّر عليك القولَ: - اقنَع بصداقتي، لأنّها الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أعدَك به، وأنا لا أعدُ إلا بما أستطيع أن أعطيه.

- أجل، فهمت. إنّك تصبرين على بؤسِك، بينما تخافين بؤسي. لكن، إن أحببتِني، سأسعى إلى الغنى؛ ستجلبين ليَ السّعد، وسأصير غنيًا. أستطيع أن أوسّع نشاطَ الصّيد، كما أستطيع أن أدخل في شِرْكة تجارة، ولربّما صرت أنا نفسي تاجرًا!

- ليس في مُكنتِك السّعي إلى شيءٍ من ذلك يا فرنان؛ أنت جنديٌّ، وإذا ما كنت قد بقيت هنا في حيّ الكتالان، فإنّما لأنّ ليس ثمّة حربٌ. اقنع إذًا بالصّيد، وكفَّ عن الأحلام كي لا يبدوَ لك الواقع أسوأ، وحسبُك صداقتي، لأنّني لا أستطيع أن أعطيك غيرها.

- حسنًا يا مرسيدس، سأصير بحارًا؛ وسأستبدل بثياب أجدادنا التي تحتقرينها، قبّعةً برّاقة وقميصًا مخطّطًا وسترةً زرقاء أزرارها على شكل مَراس. أليس هكذا ينبغي أن ألبسَ لأنالَ إعجابك؟

سألته مرسيدس وهي ترميه بنظرةٍ جبّارة:

- ما الذي تقصده؟ ما الذي تقصده؟ لست أفهم.

- أقصد أنك لا تعاملينني بهذه القسوة، سوى لأنّك تنتظرين أحدًا يرتدي ملابسَ كالتي ذكرتُها. لكنّ الذي تنتظرينه، لا يستقرُّ على حالٍ، وحتّى إن استقرّ، فإنّ البحر لا يستقرّ به.

صاحت مرسيدس:

- كنت أحسبك طيّبًا يا فرنان، وأخطأتُ التّقدير! قلبك مليء بالحسد، حتّى ليستدعي غضبَ الآلهة! حسنًا، ليس لديّ ما أخفيه: أنا فعلًا أنتظر وأحبّ ذاك الذي تقصده بكلامك. وإن لم يعد، فإنّي بدلًا من أن أصبّ اللّومَ على هذا التقلّب الذي ذكرتَه، فإنّي سأقول إنّه مات على حبّه لي.

ندّت عن الكتالانيّ الشّاب حركة سخطٍ، فقالت مرسيدس:

- إنّي لأفهَمك يا فرنان، أنت تلومُه هوَ على عدم حبّي لك؛ تُشهر مُديتَك الكتالانية في وجه خنجره! وإلى أين سيوصلكَ هذا؟ إلى خسارة ودّي إن انتصرتَ، إذ سينقلب الودُّ الذي أمحضُك إيّاه إلى كرهٍ، إذا ما هزمتَه. صدّقني، إنّها لوسيلةٌ سيّئةٌ أن يخطب المرء ودَّ امرأة عبر مبارزة الرّجل الذي تهواهُ. كلاّ يا فرنان، لا تدع نفسك تنساقُ خلف هذه الفِكَر المريضة. وإن لم تستطع اتّخاذي امرأةً، فاقنع بيَ صديقةً وأختًا؛ (ثمّ أضافت وعيناها ترتجفان مبلّلتين بالدّموع) ولكن، مهلًا، مهلًا يا فرنان، لقد قلتَها أنت نفسك: - إنّ البحر لغدّار؛ وقد انقضى على سفره أربعة شهور؛ ومنذ شهور أربعة أحصيتُ عددًا من العواصف!

ظلّ فرنان جامدًا لا يتحرّك؛ ولم يحاول حتّى أن يمسح الدّمع الذي يسيل على خدَّيْ مرسيدس؛ على الرّغم من أنّه كان مستعدًا أن يقايض كلّ دمعةٍ من دمعاتها بكأسٍ من دمه؛ لكنّها دموع تسيل لغيره.

قام، ولفّ حول الكوخ، ثمّ عادَ ووقف أمام مرسيدس بعينين كئيبتين وقبضتين متشنّجتين.

- هيّا يا مرسيدس، أجيبيني مرّةً أخرى: - هل هوَ قولٌ فصْلٌ؟

أجابته الصبيّة ببرود:

- أحبُّ إدمون دانتِس، ولن أقبلَ غيرَه زوجًا.

- وستداومين على حبّه؟

- ما حييتُ.

خفَض فِرنان رأسَه خفْضَ رجلٍ مهزوم، وأطلق زفرةً كالأنين؛ ثمّ بغتةً رفع جبينَه، قاضمًا أسنانه ومشرعًا منخاريه، قال:

- وإن ماتَ؟

- إن ماتَ، أموت.

- وإن نسِيَك؟

وإذّاك ارتفعت صيحةٌ فرِحةٌ خارج المنزل: «مرسيدس! يا مرسيدس!». فصاحت الفتاة وقد تضرّج وجهها حمرةً من الفرح:

- أرأيتَ! إنّه لم ينسَني، وها قد أتى!

ثمّ اندفعت نحو الباب، وفتحته صائحةً:

- إليَّ يا إدمون! ها أنا ذي!

شاحبًا متشنّجًا، تراجع فِرنان إلى الخلف، كمن صادفَ في طريقه ثعبانًا، وتهاوى على مقعده.

إدمون ومرسيدس متعانقَيْن. شمس مارسيليا الحارقة، تتسلّل من فتحة الباب وتغرقهما في لجّةٍ من نور. في البداية لم يريا شيئًا ممّا يحيط بهما؛ سعادةٌ هائلةٌ عزلتهُما عن العالم، فما كانا يتحدّثان إلا بكلماتٍ متقطّعة، هيَ زخمُ فرح عظيم، حتّى إنّها لتكادُ تبدو تعبيرَ ألم.

ثمّ فجأةً لمح إدمون هيئةَ فرنان الكالحة، ترتسم في الظلّ، شاحبةً متوعّدة؛ ذاك أنّ الكتالانيَّ، بحركةٍ لم ينتبه إليها هو نفسُه، كان يشدّ على سكّينه المعلّقة في حزامه.

قال دانتِس مقطّبًا بدوره حاجبه: - آه! آسف، لم أنتبه إلى أنّنا ثلاثة.

ثمّ وجّه نظره إلى مرسيدس قائلًا: - من السيّد؟

- السيّد سيكون أخلص أصدقائك يا دانتِس، لأنّه صديقي، وابن عمّي، وأخي؛ إنّه فرنان؛ أي إنّه، بعدك يا إدمون، الرّجل الذّي أحبّه أكثر من أيّ رجلٍ سواه؛ ألا تعرفه؟

- آه! حسنًا.

ومن دون أن يترك يدَ مرسيدس التي كان يمسكها بإحدى يديه، مدّ يده الثانية إلى الكتالانيّ بتحيّة مودّةٍ. غير أنّ فرنان بدلًا من أن يردّ التحيّة الودودَ بمثلها، ظلّ ساكنًا وصامتًا مثل صنم. إذّاك أخذ إدمون ينقل نظرته المتفحّصة بين مرسيدس، المرتجفة المضطربة، وفرنان، الكالح المتوعّد.

وكانت النّظرة وحدها كافية كي يُدرك إدمون كلّ شيء. صعد الغضب إلى جبينه. وقال:

- ما كنت أحسب يا مرسيدس أنّني سآتي مهرولًا إلى بيتك، كي أجد في انتظاري عدوًا!

صاحت مرسيدس، وهي ترمي ابن عمّها بنظرة حانقة:

- عدوّ! عدوّ لك في بيتي يا إدمون! لو علمتُ ذلك، لأخذتك تحت جناحي وذهبت معك إلى مارسيليا، تاركةً بيتي إلى الأبد.

رمت عينُ فرنان بشرر، وواصلت الشّابةُ كلامها بالنبرة الحازمة نفسها، تلك النبرة التي كانت تؤكّد لفرنان أنّ ابنة عمّه قد أحاطت تمام الإحاطة بأفكاره السوداء: - ولو أنّ مكروهًا أصابك لصعدت رأسَ مورجيون فرميت نفسي من أعلاه إلى الصّخور، لرميتُها ورأسي إلى أسفل.

صار فرنان شاحبًا شحوبًا مرعبًا، لكنّ الشّابة واصلت القول: - ولكنّك مخطئ يا إدمون، ليس ثمّة من عدوّ لك هنا، ليس هنا سوى أخي فرنان، الذي سيصافحك كصديق وفيّ.

بعد هذا الكلام حدّقت الشّابة مثبتة نظرتها الجبارة في الكتالانيّ الذي وكأنّما أصابه سحر نظرتها، اقترب من إدمون باسطًا يدَه.

كراهيته، التي كانت مثل موجةٍ عاجزةٍ رغم عنفها، اندحرت أمام السّلطة التي مارستها عليه هذه المرأة. لكن، ما إن لمست يدُه يدَ إدمون حتّى شعر بأنّه قد بلغ منتهى حيلته، فانطلق خارجًا من المنزل.

وصاح وهو يركض كأحمق، غارزًا يديه في شعره:

- آه! من ذا الذي يخلّصني من هذا الرّجل؟ ما أشقاني! ما أشقاني!

صاح به صوتٌ:

- أنت! أيّها الكتالانيّ! يا فرنان! إلى أين تركض؟

توقّف الشّاب، نظر حواليه، فلمح كادروس جالسًا مع دانغلار تحت تعريشة.

قال كادروس:

- لمَ لا تأتي إلى هنا؟ أأنت مستعجلٌ إلى درجة أنّك لا تستطيع أن تحيّي صديقَيك؟

وأضاف دانغلار:

- خاصّة إذا كانت لا تزال بحوزتهما قنينة شبه ممتلئة!

نظر فرنان إلى الرّجلين مبهوتًا، ولم يحر جوابًا. فقال دانغلار وهو يلكز ركبة كادروس:

- يبدو صاحبنا مذهولًا تمامًا. لعلّنا أخطأنا التّقدير، وعلى عكس ما توقّعنا، دانتِس هو من سينتصر؟

أجابه كادروس:

- اللّعنة! ينبغي أن نرى ذلك.-ثمّ أضافَ وهو يستدير جهةَ الشّاب: وإذًا، أيّها الكتالاني، هل عزمتَ أمركَ؟

مسح فرنان العرق الذي كان يلمع فوق جبينه، ثمّ انزلق ببطء تحت التعريشة التي بدا أنّ ظلّها قد هدّأ قليلًا أعصابَه، وأراحَ جسدَه المرهق. قال:

- صباح الخير، لقد نادَيتماني، أليس كذلك؟

قال كادروس مقهقهًا:

- لقد ناديتُك لأنّك كنت تركض كالممسوس، فخشيت أن تكونَ ذاهبًا لتلقي بنفسك في البحر. بحقّ الشّيطان، حين يكون لدينا أصدقاء، لا ندعوهم لاحتساء كأس نبيذ فقط، وإنّما أيضًا نمنعهم من أن يشربوا ثلاثة لترات من الماء أو أربعة.

أطلق فرنان أنّةً كأنّها نشيجٌ، وترك رأسه يتهاوى فوق ذراعيه الموضوعتَين على الطّاولة في شكلٍ متقاطع.

قال كادروس، مستأنفًا الكلام بتلك الفظاظة الملازمة للسُّوقة والتي تجعل فضولهم ينسيهم كلّ لباقة: - حسنًا يا فرنان، إنّك تبدو كعاشقٍ مصدوم!

وأرفق دعابتَه الفظّة بقهقهة عظيمة.

قال دانغلار: - ماذا تقول! إنّ شابًّا حسن الجسم كهذا، لم يُخلق ليشقى في الحبّ؛ لا بدّ أنّك تمزح يا كادروس!

- كلاّ، لست أمزح، واسمع إليه كيف يتنهّد! هيّا يا فرنان، ارفع رأسك وأجبنا؛ ليس من اللّطف ألا يجيب المرءُ أصدقاء يسألونَه عن أحوال صحّته.

أجابه فِرنان وهو يشدّ قبضتيه من دون أن يرفع رأسه:

- صحّتي بخير.

قال كادروس وهو يغمز إلى صديقه:

- آه! سأبسط لك الأمر يا دانغلار: إنّ فرنان، الماثل أمامك، والذي هو كاتالانيّ طيّب وشجاع، وأحد أمهر الصيادين بمارسيليا، مغرمٌ بالشّابة الحسناء التي تسمّى مرسيدس؛ لكن يبدو أنّ الشّابة الحسناء تحبّ نائب قبطان **الفرعون**؛ و**الفرعون** رست اليوم في الميناء.. أَفهمت؟

أجابه دانغلار: - كلاّ لم أفهم.

- إنّ المسكين فرنان قد سُرِّحَ.

أجابه فرنان رافعًا رأسه، ومحدّقًا في كادروس كأنّما يبحث عمّن يصبّ عليه غضبه:

- حسنًا، ما المشكلة؟ مرسيدس ليست تابعةً لأحد؟ أليس كذلك؟ هي حرّة في أن تحبّ من تشاء.

قال كادروس: - أه! إذا ما كنت تأخذ الأمر على هذا النحو، فتلك مسألة أخرى! أنا كنت أحسبك كاتالانيًا؛ وقد قيل لي إنّ الكاتالان ليسوا ممّن يتركون منافسيهم ينتصرون؛ لا بل قد قيل لي إنّ فرنان على وجه التخصيص شديدُ العقاب.

ابتسم فرنان مشفقًا وقال: - العاشق لا يكون أبدًا قاسيًا.

واصل دانغلار، محاولًا طعنَ الشّابّ في سويداء قلبه:

- ماذا تريد؟ يا للفتى المسكين! لم يكن يتوقّع أن يأتي دانتس هكذا على حين غرّة؛ لربّما حسبه مات، أو خانَ العهد! من يدري؟ إنّ مثل هذه الأمور تحدث فجأةً.

قال كادروس الذي كان يشرب بينما يتحدّث، وقد بدأ نبيذ مالقة الدّاكن يفعل فيه فعله: - آه! يا إلهي، في جميع الأحوال، ليس فرنان الوحيد الذي ساءته عودة دانتس، أليس كذلك يا دانغلار؟

- بلى، إنّك محقّ، وأزعم أنّ في هذا شقاؤه!

واصل كادروس كلامه وهو يصبّ كأسَ نبيذ لفرنان، ويصبّ لنفسه الكأسَ الثامنة أو العاشرة، بينما بالكاد كان دانغلار يمّس كأسَه:

- المهم، في انتظار ذلك، سيتزوّج مرسيدس، الحسناء مرسيدس؛ فلأجل ذلك عاد على الأقل.

أثناء ذلك كان دانغلار يحيط بنظرة ثاقبة الشّاب الذي بدا أنّ كلمات كادروس تنصبّ عليه كالفولاذ المصهور. ثمّ سأله: - ومتى العرس؟

همس فرنان: - أه! لم يحدث ذلك بعد!

وقال كادروس: - نعم، لكنّه سيحدث، خاصّة أنّ دانِتس سيصير قبطان الفرعَون، أليس كذلك يا دانغلار؟

انتفض دانغلار لهذه الطّعنة غير المنتظرة، واستدار شطر كادروس يستكشف في وجهه ما إذا كانت الطّعنةُ مقصودةً، لكنّه لم يقرأ في الوجه الذي أخذته الثمالةُ سوى الحسد؛ فقال وهو يملأ الكؤوس:

- لنشرب إذًا نخب القبطان إدمون دانِتس، زوج الكتالانية الحسناء!

رفع كادروس الكأس إلى فمه بيدٍ متثاقلةٍ وعبَّه دفعةً واحدة، بينما ضرب فرنان بكأسه الأرض.

قال كادروس: - أوه! ماذا أرى هناك، عند التل باتّجاه الكتالان؟ أُنظر يا فرنان، فبصرك أَحَدُّ من بصري؛ والخمر، كما تعلمُ، تلعب بالبصر. يبدو كأنّهما عاشقان يمشيان متلاصقين يدًا بيدٍ. ليسامحني الربّ! لا يشكّان في أنّنا ننظر إليهما، وها هما يتبادلان القبل!.

ولم يكن دانغلار يُفلتُ ولا لحظة تعابير القلق التي تعلو وجهَ فرنان.

قال: - هل عرفتهما يا سيّد فرنان؟

أجابه بصوتٍ مخنوق: - أجل، إنّهما السيّد إدمون والآنسة مرسيدس.

قال كادروس: - آه! كيف لم أتعرف عليهما! مرحى دانتِس! مرحى الشّابة الحسناء! اقترِبا، واخبِرانا متى موعد العرس، لأنّ السيّد فرنان العنيد لا يريد إخبارنا به.

نهرَ دانغلار كادروس الذي صار يتصرّف على شاكلة السكارى، وبدأ يميل خارج التعريشة: - هلاّ صمتَّ! تمالك نفسَك، واترك العاشقين يتحابّان في هدوء. انظُر إلى السيّد فرنان، واتّخِذهُ مثلًا: - إنّه لرجلٌ عاقلٌ.

كاد فرنان ينطلق، وقد بلغ منتهى غضبه، بعدما حرّضه دانغلار كما يُحرَّض بالوخز الثورُ الهائج؛ إذ كان قد قام وبدا كأنّما استجمع قواه وتأهّب للانقضاض على غريمه؛ لكنّ مرسيدس، ضاحكةً وواثقةً، رفعت رأسها وأشعّت بنظرتها الصافية؛ فتذكّر فرنان تهديدها بأن تموت إذا مات إدمون، وإذّاك تهاوى على مقعده مثبط العزيمة.

حدّث دانغلار نفسه وهو يجيل بصره بين الرّجلين اللذين صيّرت الخمرُ أحدهما أحمقَ، وسلب الحبُّ إرادة ثانيهما: «لا شكّ في أنّ إدمون سينتصر؛ سيتزوّج الحسناءَ، ويصير قبطانًا، ويسخر منّا جميعًا، إلاّ إذا... -وإذّاك ارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة- إلاّ إذا تدخّلتُ في الأمر!».

كان كادروس لا يزال يصيح، وقد وقف مستندًا بقبضتيه إلى الطّاولة:

- هولا! هولا! ألا ترى أصدقاءك يا دانتِس؟ هل بلغ بك الكبْر حدّ ألا تكلّمهم؟

أجابه دانتس: - ليس الكبر يا عزيزي كادروس، إنّما أنا سعيد، والسعادة تعمي المرء أكثر ممّا يعميه الكبْرُ!

قال كادروس: - السّعادة، هوذا سبب مقنع! مرحبًا يا سيّدة دانتِس.

ردّت مرسيدس التحيّة بحرارة، ثمّ قالت: - لم أحمل الاسم بعدُ، وفي بلدي يعدّ شؤمًا أن تحملَ الصبيّةُ اسمَ خاطبها قبل أن تصير زوجَه؛ نادني إذًا فضلًا باسم مرسيدس.

قال دانتِس: - اعذري جارنا الطيّبَ كادروس، فهو قلّما يخطئ في حقّ الآخرين!

قال دانغلار وهو يحيّي الشّابين: - عرسُكما قريب إذًا يا سيّد دانتِس؟

- في أقرب موعدٍ يا سيّد دانغلار؛ اليوم نأخذ موافقة الجميع ببيت الأب دانتِس، وغدًا أو بعد غد، على أبعد تقدير، نقيم حفل الخطبة، هنا بالمَشْرب. سيحضر الأصدقاء، كما أرجو؛ ولا أحتاج أن أدعوكَ يا سيّد دانغلار لأنّك واحدٌ منهم؛ وأنت أيضًا يا كادروس!

قال كادروس وهو يضحك ضحكةً بلا معنى: - وفرنان، هل فرنان أيضًا مدعوٌّ؟

قال إدمون: - إنّ أخا زوجتي هو أخي، ولشدّ ما سيؤسفنا، أنا ومرسيدس، عدمُ مشاركته لنا لحظةً كهذه.

فتح فرنان فاه كي يجيبَ، لكنّ صوتَه انطفأ في حلقه، ولم ينبس بكلمة.

قال دانغلار: - اليومَ الموافقات، وغدًا أو بعد غدٍ الخطوبة... يا إلهي! لشدَّ ما أنتَ مستعجلٌ يا قبطان.

فأجابَه إدمون باسمًا: - سأقول لك يا دانغلار مثل قولِ مرسيدس لكادروس: - لا تمنحني لقبًا لم أحصل عليه بعد، فإنّ في ذلك شؤمًا.

استطرد دانغلار: - عفوك؛ إنّما قصدتُ أنّك تبدو مستعجلًا؛ بينما لا يزال لديك ما يكفي من الوقت: - إنّ **الفرعون** لن تستأنف الإبحار قبل ثلاثة أشهر.

- إنّ المرء دائمًا ما يستعجل السّعادة يا سيد دانغلار؛ ذاك أن من جرّب طول المعاناةِ، لا يكاد يصدّق السّعادة. لكن ليس هذا بالسبب الوحيد الذي يجعلني أستعجل؛ عليّ أن أذهب إلى باريس.

- أه! حقًا! إلى باريس. وهل هي المرّة الأولى التي تقصد فيها هذه المدينة يا دانتِس؟

- نعم.

- لديك فيها عمل؟

- ليس عملًا لحسابي. وإنّما هي مهمّة أخيرةٌ كان قد كلّفني بها القبطان لوكلير المسكين؛ أنت تعلم أنّه أمر لا يردّ. لكن لا تقلق، لن أستغرق سوى الوقت اللازم للذهاب والعودة.

قال دانغلار بصوت مرتفع: - أجل، أجل، أفهمك.. ثمّ أضاف بصوتٍ هامس: - سيذهب إلى باريس، كي يوصل الرّسالة التي أودعه إيّاها الماريشال الأكبر. يا إلهي! لقد أوحت إليّ هذه الرسالة بفكرة ممتازة! آه! دانتِس، يا صديقي، أنت لم تُقيَّد بعدُ في سجلّ **الفرعون** باعتبارك الرّجلَ الأوّل.

ثمّ التفت نحو إدمون الذي كان قد بدأ يبتعد، فصاح به: - رحلة طيّبة!

أجابه دانتِس «شكرًا»، مُصاحبًا حركته بإشارةٍ ودودٍ.

ثمّ أكمل العاشقان سيرهُما، هادئين فرحَيْن، كأنّهما مصطفَان يصعدان إلى السّماء.

4

المكيدة

شيّع دانغلار العاشقين بعينيه حتّى اختفيا عند إحدى زوايا حصن سان نيكولا؛ ثمّ استدار، فوقع بصره على فرنان وقد تهاوى على مقعده شاحبًا مرتجفًا، بينما يتهته كادروس كلماتِ أغنية من أغاني السكارى.

قال دانغلار لفرنان: - أوه يا سيّدي العزيز! هو ذا زواجٌ يبدو أنّه لا يرضي الجميع!

أجابه فرنان: - إنّه زواجٌ يتعسُني.

- أتحبّ إذًا مرسيدس؟

- أعشقها!

- منذ زمن؟

- منذ عرفتُها وعرفتني، ما كففتُ عن حبّها.

- وتظلّ ها هُنا تندب حظّك، بدلًا من أن تبحث عن علاج للوضع! اللعنة! ما كنتُ أحسبُ أنّ رجالَ شعبك يتصرّفون على هذا النَّحو.

- وماذا بوسعي أن أفعل؟

- وما يدريني؟ هل الأمر يعنيني؟ لست أنا، على ما أحسبُ، من يحبّ الآنسة مرسيدس، وإنّما أنت. يقول الإنجيل: - ابحث، وستجد.

- كنت قد وجدت.

- ماذا وجدت؟

- كنت سأطعن *الرّجل*، لكنّ المرأة قالت لي إنّها ستقتل نفسها لو أصابَ خطيبَها مكروه.

- وبعد؟ تلك تهديداتٌ تقال ولا تنفَّذُ.
- إنّك لا تعرف مرسيدس يا سيّدي: - إن توعّدَت، نفّذت!
همس دانغلار لنفسه: «غبي! لتقتل نفسها إن شاءت، المهمّ ألاّ يصير دانتِس قبطانًا».
استأنفَ فرنان بصوتٍ حازمٍ: - وقبل أن تموت مرسيدس سأموت أنا نفسي.
قال كادروس بصوت تعْتَعَهُ السُّكْرُ: - هوذا الحبّ! هوذا الحبّ الذي ما كنت أعرفه!
قال دانغلار: - تبدو لي فتى طيّبًا يا فرنان، وليأخذني الشيطان إن لم أكن أرغب في انتشالك من عذابك؛ لكن...
قال كادروس: - نعم، هيّا.
فأجابه دانغلار: - إنّك قد بلغتَ ثلاثة أرباع السُّكْر. أكمل القنينة، وستبلغ تمامَه. اشرب ولا تتدخّل في ما نفعلُه، فلكي تشارك في ما نفعله ينبغي أن تكون تامَّ الصّحو.
قال كادروس: - أنا سكرت؟ أتمزح! بوسعي أن أشرب أربع قنيناتٍ أُخَر، من قنيناتك هذه التي لا يزيد حجمها على قنينات ماء الكولونيا! أيّها الأب بامفيل، إليّ بالنّبيذ!
ولكي يقوِّم الطّلبَ بالحجّةِ، ضربَ كادروس بكأسه على الطاولة.
قال فرنان لدانغلار متحرِّقًا لمعرفة بقية الجملة التي قطعها كادروس:
- ماذا كنتَ تقول إذًا؟
- ماذا كنت أقول؟ لستُ أذكر. لقد قطع هذا السّكير كادروس حبل أفكاري.
أجابَه كادروس: - قل عنّي سكيرًا ما شئتَ؛ لا يخشى الخمر إلا من كانت خباياه سيّئة، وخشيَ أن يفضحه السّكر.
ثمّ انطلق كادروس يغنّي الشطرين الأخيرين من أغنية كانت رائجة جدًا آنذاك:

كلّ الأشرار شرّابو ماءٍ،
وذاك ما برهنَ عليه الطّوفان.

استأنف فرنان الكلام: - كنت تقول يا سيّدي، إنّك تريد انتشالي من ألمي؛ لكن، هلاّ أفصحت أكثر...

- أجل، أجل، كنت أقول: - لكي تغادر ألمك يكفي ألّا يتزوّج دانتِس بحبيبتك، ويمكن أن يُلغى الزواج، من دون حاجة إلى موت دانتِس.

قال فرنان: - وحده الموت يمكن أن يفرّقهما.

فأجابه كادروس: - أنت تفكّر كأنّك محارة جوفاء يا صديقي، وها هو دانغلار الدّاهية، دانغلار الماكر، دانغلار الإغريقي، سيبرهن لك أنّك مخطئ. برهن له يا دانغلار. فقد تكلّمتُ بلسانك. قل له إنّه ليس ضروريًا موتُ دانتِس. ثمّ إنّه لمن المحزن أن يموت دانتِس. دانتِس فتى طيّب، وأنا أحبّه. في صحّة دانتِس.

قام فرنان وقد عيل صبره.

استأنف دانغلار الكلام موجّها حديثَه إلى الشّاب: - دعك منه. ثمّ إنّه، وإن بلغ به السّكرُ منتهاه، لم يخطئ التقدير. إنّ الغياب يفرّق بقدر ما يفرّق الموتُ. وهَبْ مثلًا أنّ بين إدمون وبين مرسيدس سورَ سجنٍ، سيفترقان بقدر ما قد تفرّقُهما حجارة قبر.

قال كادروس، محاولًا نشب نفسه في الحوار بما تركت له الخمرُ من فطنة: - لكنّ المرء يخرج من السّجن. وحين يخرج المرء من السّجن، ويكون اسمه دانتِس، فإنّه يسعى إلى الانتقام...

- وليكن! (همس فرنان).

واستأنف كادروس كلامَه: - ثمّ لماذا سيُلقى بدانتِس في السّجن؟ لا هو سَرق، ولا هو قَتل!

قاطعه دانغلار: - صه!

قال كادروس: - لا أريد أن أصمت. أريد أن أعرف لمَ سيدخل دانتِس

السّجن. أنا أحبّ دانتِس. في صحّتك يا دانتِس!. وعبَّ كأسًا أخرى من الخمر.

تابع دانغلار تقدّم الثمالة في عيني الخياط المنطفئتين، ثمّ استدار شطر فرنان قائلًا: - فلتفهم إذًا أنّ لا حاجة إلى قتله.

أجاب فرنان: - بالتّأكيد. إذا ما كانت ثمّة طريقة لاعتقال دانتِس. لكن هل لديك علم بها؟

قال دانغلار: - من يبحث يجد. لكن بحقّ الشيطان! ما دخلي أنا بهذا الأمر؟

أجابه فرنان وهو يمسك بذراعه: - لا أدري ما إذا كان الأمر يعنيك. لكنّ الذي أعلمه، هو أنّ لديك سببًا لتمحض دانتِس كُرهًا خاصًا. من يكره لا يخطئُ تمييزَ مشاعر الآخرين.

- أنا، لديّ سبب لأكره دانتِس؟ أقسم أنّ ذلك غير صحيح. وإنّما فقط رأيتُك تعيسًا، فأثّرت فيّ تعاستك، وهذا كلّ ما في الأمر. لكن ما دمتَ تحسبني أقوم بهذا لغايةٍ في نفسي، فإنّي أقول لك: - وداعًا يا صديقي، دبّر أمورك بنفسك.

ثمّ تظاهر دانغلار بأنّه يهمّ بالمغادرة، فاستبقاه فرنان قائلًا: - كلاّ، لا تُغادر. فلست أهتمّ، في نهاية المطاف، إذا ما كنتَ تريد شرًّا بدانتِس، أم لم تكن. أمّا أنا فأريد به شرًّا، وأقولها بملء الصّوت. جِدِ الطّريقةَ المناسبة وعليَّ أنا التنفيذ، شرط ألّا يكون في الأمر موتُ الرّجل، لأنّ مرسيدس تقول إنّها ستقتل نفسها إن قُتل دانتِس.

رفع كادروس، الذي كان قد ترك رأسَه يتهاوى على الطاولة، جبهتَه، وقال وهو يحدّق في فرنان ودانغلار بعينين ثقيلتين بلهاوين:

- أن يُقتل دانتِس! من يتكلّم هنا عن قتل دانتِس؟ أنا لا أريدُه أن يموت. إنّه صديقي؛ وقد عرض عليّ اليوم اقتسامَ ماله معي، مثلما اقتسمتُ مالي معه. لا أريد أن يُقتل دانتِس.

قاطعه دانغلار: - من ذكر القتلَ يا غبيّ! هي مجرّد دعابةٍ؛ اشرب نخبَه، واتركنا وشأننا.

صاح كادروس وهو يُفرغ كأسه في جوفه: - نعم، نعم، نخب دانتِس!.. نخبه!

سأل فرنان دانغلار: - ماذا عن الوسيلة؟ الوسيلة!

- أما وَجدتَها بعدُ؟

- كلاّ، لقد تكفّلتَ أنت بإيجادها.

- بلى، إنّ الفرنسيّين يتفوّقون على الإسبان في هذه المسائل. الإسبان يتأمّلون، والفرنسيون يبتكرون.

قال فرنان بنفاد صبر: - ابتكر إذًا!

صاح دانغلار: - أيّها النّادل، إليّ بيراعٍ وحبرٍ وورقٍ!

غمغم فرنان: «يراع وحبر وورق!».

- أجل، أنا محاسِبٌ. اليراع والحبر والورق هي أدواتي؛ ومن دون أدواتي لا أستطيع صنع شيء.

صاح فرنان بدوره: - يراع وحبر وورق!

قال النّادل وهو يومئ بيده إلى الأشياء التي طلباها:

- إنّ ما تطلبانِه على تلك الطّاولة.

- هاتِها إذًا.

أخذ النادلُ الورقَ والحبر واليراعَ ووضعها على الطاولة بالتعريشة.

قال كادروس وهو يرخي يده فوق الورق: - هاهُنا لعمري ما يضمن قتلَ رجلٍ، أكثر ممّا لو أنّنا كمنّا له عند زاوية أو في غابةٍ لنغتاله! لطالَما خشيتُ اليراع والورق والحبر أكثر من خشيتي سيفًا أو مسدسًا.

قال دانغلار: - إنّ المهرّج لم يبلغ بعد حدّ الثمالة؛ صبّ له المزيد يا فرنان.

ملأ فرنان كأسَ كادروس، فرفع يدَه عن الورقة وحمل بها الكأس.

وظلّ الكتالانيّ يصبّ الكؤوس تباعًا إلى أن هُزمَ كادروس وأفلت الكأسَ من يده.

إذّاك واصل الكتالانيّ استفساره وهو يرى بقيّةَ رُشدِ كادروس تتبدّد بتأثير من الكأس الأخيرة: - ثمّ؟

- ثمَّ، أقول، لو أنّه، على سبيل المثال، بعد رحلةٍ شبيهةٍ بالرحلة التي قام بها دانتِس، فعرّج فيها على نابولي وجزيرة إلبا، ماذا لو أنّ أحدهم وشى به لدى وكيل الملك، متهّما إيّاه بالعمالة للبونابرتيّين...

قال الشّاب بحماسة: - أنا أستطيع أن أشيَ به.

- نعم، تستطيع، لكن إذّاك سيجعلونك توقّع على تصريحك، وسيواجهونك بمن تشي به. سأعطيك ما تدعم به اتّهامَك؛ لكنّ دانتِس لن يقضي الدّهرَ محبوسًا، ولا بد أن يخرج في يومٍ من الأيام، وآنذاك الويل كلّ الويل لمن كان سببًا في دخوله السجن!

أجابه فرنان: - وأنا لا أطلب سوى شيء واحدٍ، أن يأتي دانتِس فيطلب مبارزتي!

- أجل. لكن ماذا بخصوص مرسيدس! مرسيدس التي يكفي أن تخدش بشرة حبيبها دانتِس لكيّ تكرهك!

- أنت محقّ!

استأنف دانغلار الكلام: - كلّا كلّا! إذا ما كان لا بد من القيام بأمر مماثل، فيستحسن أن يتمّ ذلك على هذا النحو: - يؤخذ هذا اليراع، ويُغطس في الحبر، ويكتب باليد اليسرى، كي لا يُتعرّف على الخطّ، وشايةً على هذا النّحو: - ...

وصار دانغلار إلى تطبيق ما قاله، كاتبًا بيده اليسرى، بخطّ مُحَوَّر، لا يشبه في شيء خطّه، السطورَ الآتية، التي مرّرها إلى فرنان، فقرأها بصوتٍ خفيض:

إلى السيّد وكيل الملك: يُعلمكم أحد الأوفياء للعرش، بأنّ المدعو

إدمون دانتِس، نائبَ قبطان سفينة فرعون، التي وصلت اليوم من إزمير، بعدما عبرت ميناءي نابولي وبورتو فيرّايو، قد كُلّف من طرف مورات، بحمل رسالةٍ إلى غاصبِ الحُكم، ثمّ رسالةٍ من طرف غاصب الحُكم إلى جماعة البونابرتيّين في باريس.

وستجدون دليل إدانته عند توقيفه، لأنّه لا بد أن يحمل الرسالة معه، أو في دار أبيه، أو في مقصورته بالفرعون.

بعد ذلك واصل دانغلار حديثه قائلًا: - هكذا ستكون قد انتقمت، ويتّخذ انتقامك طابعًا عموميًا، إذ لن يستدلّ دانتِس عليك أبدًا، وسيمضي الأمر تلقائيًا؛ لن يكون عليك سوى أن تطوي هذه الرّسالة، مثلما أفعل الآن، وأن تكتب على ظهرها: «إلى السيّد وكيل الملك». ويكون الأمر قد قُضي.

وكتب دانغلار العنوان لاهيًا.

كان كادروس قد بذل جهدًا أنفق فيه آخر ما بقي لديه من قدرة على التركيز، فتابع قراءة الرّسالة، وفهم ما تنطوي عليه وشايةٌ مماثلة من مصائب، فقال: - أجل، ويكون الأمر قد قُضي؛ لكنّه سيكون أمرًا مُخزيًا.

ومدّ يده يبتغي أخذ الرّسالة. لكن دانغلار أبعدها عن مرمى يد الخيّاط، وهو يقول: - إنّ ما أقوله الآن، وما أفعله، ما هو إلا مزاحٌ؛ إذ سيحزنني أن يصيب دانتس مكروهٌ، دانتس الطيّب! لذا ها...

ثمّ إنّه أخذ الرسالة، فكرمَشَها بيديه ورمى بها عند ركن من أركان التعريشة.

أمّنَ كادروس على صنيعه قائلًا: - خيرًا فعلتَ، فلا أريد أن يحلّ بدانتس مكروه.

نهضَ دانغلار، وقال وهو يرمق الشّاب الذي ظلّ جالسًا، وعينه الشّاردة تحرس خطاب الوشاية الملقى عند إحدى الزوايا: - ومَنْ بحقّ الشيطان يريد ذلك؟ لا أنا ولا فرنان!

قال كادروس: - في هذه الحال، إلينا بالنّبيذ. أريد أن أشرب في صحّة إدمون والحسناء مرسيدس.

أجابه دانغلار: - لقد شربت بما يكفي أيّها السّكير، وإن زدت على ذلك، ستضطرّ إلى النّوم هنا، إذ لن تستطيع الوقوف على قدميك.

قال كادروس وهو يقف مدّعيًا ادّعاء السكارى؛ أنا، لن أستطيع الوقوف على قدميّ! أراهنُك على أنّي أستطيع أن أصعدَ جرس كنيسة أكوول، لا بل ومن دون أن أترنّح!

أجابه دانغلار: - فليكن ذلك، أراهنُك، لكن غدًا وليس اليوم: - فاليوم قد حان وقت العودة إلى البيت؛ هات ذراعك ولنعُد أدراجنا.

قال كادروس: - لنعُد، لكن دونما حاجةٍ إلى ذراعك. هل ستأتي معنا يا فرنان؟ هل ستذهب معنا إلى مرسيليا؟

أجابه فرنان: - كلّا، إنّي عائدٌ إلى قرية الكَتالان.

- إنّك مخطئ! هلمّ معنا إلى مارسيليا، هيا!

- لا أحتاج الذّهاب إلى مارسيليا ولا أرغب في ذلك.

- كيف تقول ذلك؟ لا تريد أيها الفتى! حسنًا، كما شئت! كلّ امرئٍ حرّ! هيّا بنا يا دانغلار، ولنترك السيّد يذهب إلى قرية الكَتالان ما دام يريد ذلك.

استغلّ دانغلار فرصة إذعان كادروس لكي يقوده صوب مارسيليا؛ لكن، كي يفتح طريقًا قصيرةً وميسّرةً أمام فرنان، سلك طريق باب سان فكتور، بدلًا من العودة عبر رصيف ريف نوف. ومضى يتبعه كادروس متعثّر الخطى، متعلّقًا بذراعه.

وحين خطا دانغلار ما يقارب عشرين خطوةً، التفت فلمح فرنان يهرع إلى الورقة المكرمشة، ويضعها في جيبه؛ ثمّ على الفور انطلقَ مغادرًا الحانة، وانعطف ناحيةَ بيون.

قال كادروس: - وإذًا، ما الذي يفعله؟ لقد كذب علينا. لقد أخبرنا

أنّه ذاهبٌ إلى قرية الكَتالان، فإذا به يقصد المدينة! هولا! فرنان! إنّك مخطئ يا ولدي!

قال دانغلار: - أنت الذي لم تعد ترَى بوضوحٍ، إنّه يسلك مباشرةً طريق المشفى القديم.

قال كادروس: - حقًّا! كنتُ لأقسمَ إنّه ينعطف يمينًا؛ قطعًا إنّ الخمرَ لغدّارٌ.

غمغم دانغلار هامسًا: - حسنًا، حسنًا، أحسب الآن أنّ الأمور قد انطلقت، وما عليّ سوى تركها تسير من تلقائها.

5

وليمة الخطوبة

كان اليوم الموالي نهارًا جميلًا، فالشّمس أشرقت صافيةً برّاقةً، وبدأت أوّل خيوطِ أشعّةٍ حمراء قانية تلوّن بلونها القرمزيّ قمَمَ الأمواج المزبدة.

وكانت الوليمة قد أُعدّت في الطّابق الأوّل من الحانة المعلومة، تلك التي سبق أن تعرّفنا على تعريشتِها. وكان الفضاءُ عبارةً عن غرفةٍ تضيئُها خمس نوافذ أو ستّ، فوق كلّ نافذةٍ منها (وليشرح لنا الظّاهرةَ من يستطيع!) خُطَّ اسمُ مدينةٍ من مدن فرنسا الكبرى. وفوق النّوافذ، على امتداد البناية بأكملها، درابزينٌ.

وعلى الرّغم من أنّ موعد الوليمة كان قد حُدّدَ بعد الظُّهر، إلا أنّه منذ الحادية عشرة صباحًا، بدأ الدارابزين يعجّ بالزوّار المستعجلين. كان أولئك هم بحارة **الفرعون** المعتبرُون، بالإضافة إلى بعض الجنود، أصدقاءَ دانتِس. وجميعهم قد أخرجوا، تشريفًا لصديقهم، أجملَ ما في دواليبهم من ثيابٍ.

وقد سرى خبرٌ أنّ ربَّي سفينة **الفرعون** سيشرّفان بحضورهما وليمةَ عرس نائب قبطان سفينتهما؛ وكان ذاك منهما تشريفًا لدانتِس ما كان بوسع أحدٍ تخيّلُه. على أنّ دانغلار، وقد أتى برفقةِ كادروس، أكّد الخبرَ. إذ كان قد التقى صباحًا بالسيّد موريل نفسِه، فأخبره أنّه آتٍ إلى الوليمة في الحانة.

ولم تكد تمرّ لحظةٌ على وصولهما، حتّى وصل السيّد موريل،

فاستُقبل بتصفيق حارٍ من طرف بحارة الفرعون جميعهم. وكان حضور التاجر، بالنّسبة إليهم، تأكيدًا للإشاعة التي كانت سائرة في الانتشار، إشاعة أنّ دانتِس سيُعيَّنُ قبطانًا؛ وبما أنّ دانتِس كان محبوبًا من طرف الجميع، فقد شكر أولئك البواسلُ، بتصفيقهم، القبطانَ الذي كان اختيارُه متوافقًا مع رغبتِهم. وما إن دخل السيّد موريل حتّى هرع دانغلار وكادروس إلى الخاطِب، إذ كانا يضطلعان بمهمّة إخطاره بوصول الشّخصيات المهمّة، تلك التي يخلّف مجيئُها حماسةً كبيرةً، فيستعجلان حضُورَه.

انطلق دانغلار وكادروس مهرولَيْن، لكنّهما ما كادا يخطوان مائة خطوةٍ حتّى لمحا الزُّمرة الصّغيرة قادمةً. وكانت الزمرة مؤلّفةً من صبايا أربعٍ، هنّ صديقاتُ مرسيدس، كتالانيّات مثلها، وكنّ يُحطن بالخطيبة وهيَ تتأبّط ذراع إدمون. بجانبِ الزوجة المقبلة كان يمشي دانتِس الأب، وخلفَهُم فرنان راسمًا على شفتيه ابتسامةَ شرّ.

لا مرسيدس ولا إدمون، كانا يريان ابتسامةَ فرنان. فالصّغيران المسكينان كانا من السّعادة بحيث ما كانا ليريا إلا نفسَيهما والسّماءَ الصّافية التي تغمرهما ببركتها.

صار كادروس ودانغلار في حِلٍّ من مهمّتهما كسفيرَين؛ وبعد أن صافحا إدمون مصافحةً قويّةً وودودًا، انصرفا عنه؛ فأخذ دانغلار مكانًا بالقرب من فرنان، بينما اتّخذ كادروس موضعًا بجانب دانتِس الأب الذي كان مركز انتباه الجميع.

كان الشّيخ قد ارتدى لباسَه الأنيقَ المصنوع من حريرِ التّافتا المعقود، تزيّنُه أزرارٌ كبيرةٌ من الفولاذ، منحوتة عند جوانبها. قدماه النحيفتان، النافرتَا العروق، ترفلان في سراويل بديعة من القطن مرقّطة، تشي من على بُعدِ فرسخٍ بأنّها بضاعةٌ إنجليزية. وعلى قبّعته ذاتِ الأطراف الثلاثة علّقت حزمةٌ من الأشرطة البيضاء والزّرقاء. وختامًا، كان يتّكئ

على عصًا من الخشب لُفّت وأُحنيَت عند رأسِها كعصيّ الأزمنة العتيقة. فكان النّاظر إليه يحسبه أحد أولئك الرّجال الأنيقين الذين كانوا سنة 1796 يجوبون الحدائق التي جُدّدت حديثًا، نقصد حدائق لوكسمبورغ وتويلريه.

إلى جانبه، كما أسلَفنا، انزلق كادروس، كادروس الذي تكفّل رجاؤه في وليمة طيّبة بإكمال مصالحته مع آل دانتِس، كادروس الذي كان يحتفظ بذكرى غائمة عمّا وقع أوّل أمس، كمن يستيقظ صباحًا فيُلفي في نفسه ظلَّ الحلم الذي رآه في منامه.

أمّا دانغلار، وقد دنا من فرنان، فقد رمى العاشق بنظرةٍ عميقة. وكان فرنان، العاشق التعيس، يسير خلف العريسين المستقبليّين، وقد أغفلت مرسيدس وجوده تمامًا، إذ لم تكن عيناها، في خضمّ فرحة العرس الأنانية، ترى غير حبيبها إدمون. كان فرنان شاحبًا، ما ينفك وجهه يغرق في دفقاتٍ متقطّعة الحمرة، ما تلبث أن تتبدّد ليحلَّ محلّها الشّحوب المتعاظمُ. وبين الفينة والأخرى كان ينظرُ جهة مارسيليا، فترُجِّفُ أعضاءَه رعدةٌ عصبية لا إرادية. كان يبدو كأنّما ينتظر، أو أقلّه، يتوقّع حادثًا جللًا.

كان دانتِس قد ارتدى ملابس كأبسط ما يكون. إذ تزيّا على هيئة البحّارة التّجار، هيئةٍ وسطٍ ما بين البدلة العسكرية والزيّ المدنيّ. وتحت زيّه كانت هيئتُه مثلى، زادها إشعاعًا جمالُ خطيبته وسعادتُها.

كانت مرسيدس جميلةً، كأنّها إحدى يونانيات قبرص أو جزيرةِ كيا (بحر إيجه)، شعرها من أبنوس، وشفتاها من مرجان. وتمشي مِشيةً واثقةً كمشية الأندلسيات ونساء آرل (فرنسا). لعلَّ فتاةً من فتيات المُدن كانت لتخفيَ فرحتها، أقلّه تحت مخملِ أجفانِها؛ أمّا مرسيدس فقد كانت تبتسم وتنظرُ إلى من هم حولها، ولسانُ نظرتها وابتسامتها يقول بصريح العبارة: «إن كنتم أصدقائي، فشاركوني بهجتي، لأنّي حقًا سعيدة!».

وما إن صار الخطيبان في مرمى الحانة، حتّى نزل السيّد موريل وتقدّم بدوره نحوَهم، يتبعه البحّارة والجنود الذين كان قد بقيَ برفقتهم، وجدّد لهم وعده بأن يُعيَّن دانتِس خلَفًا للوكلير. وإذ رآه إدمون قادمًا نحوهما، تركَ ذراع خطيبته وأسلمَه لذراع السيّد موريل. إذّاك تقدّم التاجر والشّابةُ وارتقيا أولى درجات السلّم المفضي إلى الغرفة حيثُ سيقدَّم العشاء، ذاك السلّم الذي أَنَّ خمسَ دقائق تحت ثقل خطوات المدعوّين.

توقّفت مرسيدس عند منتصف المائدة، وقالت: - أبي، أرجوك اجلس عن يميني؛ وعن شمالي سأُجلِس ذاك الذي كان لي أخًا. وكانت نبرتُها عذبةً عذوبةً اخترقت كطعنة سكينٍ قلبَ فرنان حتّى بلغت أعماقَه.

شحُبت شفتاه، وتحت بشرة وجهه الملوَّحة كان بالإمكان أن نستشفّ مرّةً أخرى الدّم ينسحبُ شيئًا فشيئًا، كي يغمرَ بدفقِه قلبَه.

في أثناء ذلك كان إدمون قد حذا حذو خطيبته؛ فوضع عن يمينه السيّد موريل وعن شماله دانغلار؛ ثمّ بإشارةٍ من يدّه دعا الجميع إلى أن يجلسوا حيث شاؤوا.

وكانت تدور، أصلًا، على المائدة نقانق آرل السمراء الهيئة واللاذعة الرّائحة، وجراد البحر ذو القشور اللامعة، ومحار الكتوم ذو الصدفات الوردية، وقنافذ البحر التي تبدو كأنّها ثمار كستناء متلفّعة بغطائها الشّائك، والمحارات الرخويّة التي يدّعي ذوّاقةُ المتوسّط أنّها تستطيع أن تعوّضَ، بكفاءةٍ، محار الشّمال؛ وأخيرًا، كلّ تلك المقبّلات الطيّبة التي تجرّها الأمواج على ساحلها الرّملي، والتي يشير إليها الصيّادون العارفون تحت المسمّى العام: فواكه البحر.

قال الشّيخ وهو يتذوّق كأس نبيذ أصفر كحجر التوباز، كان الأب بامفيل قد وضعه بنفسه أمام مرسيدس: - قليلٌ من الصّمت رجاءً! يبدو أنّ ثمّة ثلاثين شخصًا هنا، لا يريدون إلا الضّحك.

قال كادروس: - أوه! لا يبدو المرَح على العريس!

أجابَه دانتِس: - الحقّ أنّي في هذه اللّحظة سعيدٌ لدرجةٍ ينعدمُ أمامَها المرح. وإذا ما كان هذا هو معنى قصدك يا جاري، فإنّك محقّ! إنّ الفرح ليتصرّف أحيانًا في أثرٍ غريبٍ، إذ يقبض النّفسَ قبضَ الألم.

وكان دانغلار يتفحّص فرنان الذي كانت طبيعتُه الحسّاسة تمتصّ كلّ الأحاسيس وتعيد بثَّها. فقال: - مهلًا، أتخشى شيئًا؟ يبدو لي أنّ الأمور على خلاف ذلك، وكلّ شيءٍ يسير وفق هواك!

قال دانتِس: - وذاك ما يثقل عليّ، إذ يبدو لي أنّ الإنسان لم يُخلق لتتيسّر سعادتُه على هذا النّحو! إنّ السّعادة أشبه ما تكون بتلك القصور على الجزر المسحورة التي تحرس أبوابَها التنانين. على المرء أن يصارع كي يفتَحها، وأنا لا أدري أنّى ليَ استحقاق سعادة أن أكون زوج مرسيدس.

قال كادروس ضاحكًا: - زوج! لست بعد زوجًا سيّدي القبطان؛ وحاول أن تتصرّف كأنّك زوج، وانظر أيّ معاملةٍ ستلقى!

تضرّج وجه مرسيدس بالحمرة.

كان فرنان يتعذّب في مقعده، ويرتعد لأدنى صوتٍ، وبين الفينة والأخرى يمسح قطراتٍ كبيرةً من العرق تتلألأ فوق جبينه كأنّما هي أولى القطرات المنذرة بالعاصفة.

قال دانتِس: - رجاءً أيّها الجار كادروس، لا تنقُض قولي بسبب خطأٍ بسيط. إنّ مرسيدس ليست بعد زوجتي، وهذا حقّ... (أخرج ساعتَه). لكنّها ستصير كذلك بعد ساعة ونصف!

ندّت عن الجميع صيحة مفاجئةٍ، باستثناء دانتِس الأب الذي افترّ ثغره عن ضحكة أبرزت أسنانه التي لا تزال تحتفظ بجمالها. ابتسمت مرسيدس وما عاد وجهها محمرًّا. أمّا فرنان فأمسك قبضة سكينه بيد متشنّجةٍ.

قال دانغلار وقد شحُب بدوره: - بعد ساعةٍ! وكيف ذلك؟

أجاب دانتِس: - أجل يا أصدقائي، لقد تذلّلت كلُّ الصّعاب بفضل قرضٍ منحنِيه السيّد موريل، أكثر رجلٍ أدين إليه بالفضل بعد أبي. لقد دفعنا رسوم الزّواج، وبعد ساعةٍ ونصفٍ سيكون عمدة مرسيليا بانتظارنا في مبنى البلدية. وبما أنّ السّاعة الواحدة والنّصف قد دقّت قبل قليل، فلست إذًا مخطئًا في القول إنّ مرسيدس بعد ساعةٍ ونصف ستحمل لقب السيّدة دانتِس.

أغمض فرنان عينيه. أحرقت جفنيه سحابةٌ من نار؛ استند إلى الطّاولة كي لا يهوي، ومع ذلك لم يتمكّن من أن يمسك آهةً مكتومةً ضاع صداها وسط ضجيج الضحك والتهاني.

قال الأب دانتِس: - هكذا تُستغلّ الفرصُ، أليس كذلك؟ هل ترونَ أنّه أخذ الوقت الكافي؟ صباح أمس فقط وصل، واليومَ يعقد قرانَه في السّاعة الثالثة! هكذا هم البحارةُ: - سرعةٌ في التنفيذ.

قاطعه دانغلار سريعًا: - لكن ماذا عن الأمور الشّكلية: - العقد والتوثيق؟

قال دانتِس ضاحكًا: - إنّ العقد جاهز: مرسيدس لا تملك شيئًا، ولا أنا أملك شيئًا! وسنتزوّج تحت نظامِ العشيرة، وهذا كلّ ما في الأمر! لم تتطلّب الكتابةُ وقتًا طويلًا، ولن ندفعَ مبلغًا كبيرًا.

أثارت دعابَته موجةً جديدةً من الفرح والتهليل.

قال دانغلار: - وبالتّالي، فإنّ ما نحسبُه وليمةَ خطبةٍ هو في الحقيقة وليمة عُرس.

قال دانتِس: - كلّا، لن تضيّعوا شيئًا، فاطمئنَّ. غدًا صباحًا سأنطلق إلى باريس. أربعة أيام ذهابًا، ومثلها إيّابًا، ويومٌ واحدٌ لكي أنفّذ المهمة التي أوكلت إليَّ، وفي الفاتح من مارس سأعود؛ وعليه تكون وليمة العرس الفعلية يومَ الثاني من مارس.

ضاعفَ هذا الوعدُ بوليمةٍ أخرى الهتاف لدرجة أنّ دانتِس الأبَ،

الذي كان يشكو في البداية من الصّمت، صار الآن يبذل مجهوده سدىً، وسط صخب المحادثات، كي يعلن عن أمنيته بالرّفاء للعروسين.

خمّن دانتِس خواطر والده فأجابه بابتسامة مُفعمةٍ بالحبّ. بدأت مرسيدس تراقب السّاعةَ في بندول الصالة، وأومأت إلى دانتِس بإيماءة خفيّة.

كانت تحفّ الطّاولةَ تلك الحماسةُ الصّاخبة، وذاك التحرّر الفرديّ اللّذان يصاحبان، لدى النّاس من الطّبقات الدُنيا، نهايةَ الوجبات. فالذين لم ترُقهم أماكنهم، كانوا قد قاموا، وصاروا إلى التماس مجاورة آخرين. وصار الجميع يتحدّثون في وقتٍ واحدٍ، ولا أحد يحفلُ بالردّ على مخاطبه، وإنّما يهتمّ فقط باستعراض خواطره.

وكان شحوب فرنان قد انتقل تقريبًا إلى وجنتَي دانغلار؛ أمّا فرنان ذاتُه، فقد كان كمن فارقته الحياة، وصار يبدو كالملعون في بركة نار. وكان من بين أوّل من قاموا من مقامهم، وصار يذرع الصالةَ طولًا وعرضًا، ساعيًا إلى عزل أذنه عن ضجيج الأغاني وتراشق الكؤوس.

وفي اللحظة التي التحق به فيها دانغلار عند أحد أركان الصّالة، اقترب منهما كادروس، الذي كان يبدو أن دانغلار يتحاشاه.

قال كادروس، الذي بدا أنّ حفاوة دانتِس به، ثمّ خاصّة نبيذ الأب بامفيل، قد نزعا من صدره كلّ بذور الغلّ التي ألقتها في نفسه الغيرةُ من السّعادة التي هبّت فجأةً على جاره: - الحقّ يقالُ، إنّ دانتِس ولدٌ طيبٌ؛ وحين أراه جالسًا بجانب خطيبته أقول لنفسي إنّه كان سيكون من المؤسف أن تنفّذا فيه المقلب الشرّير الذي كنتما تدبّرانِه أمس.

قال دانغلار: - لكنك رأيتَ أنّنا لم نكمل الأمر؛ إنّ هذا المسكين فرنان كان مكسورًا لدرجة أنّي أشفقت عليه في البداية؛ لكن ما إن رأيت أنّه سلّم بالأمر، حتّى إنّه قَبِل بأن يكون إشبين منافِسه، ما عاد لي ما أقوله.

نظر كادروس إلى فرنان، وكان هذا باهتًا.

واستأنف دانغلار الكلام: - والتّضحية تزداد عِظمًا حين نعتبر جمال الفتاة. اللعنة! ما أسعد قبطانيَ المقبل؛ لكم أودّ أن أُسمّى دانتِس اثنتَي عشرة ساعةً فقط!

تساءلَ صوتُ مرسيدس العذب: - أنذهب؟ ها هي ذي السّاعةُ الثانية تدقّ، وهم ينتظرون وصولنا في الثانية والرّبع.

أجابها دانتِس وهو يقف بسرعة: - أجل، أجل، هيا بنا!

ردّد وراءه المدعوون كأنّهم جوقةٌ كورال: - هيا بنا!

وفي اللّحظة نفسها رأى دانغلار، الذي ما كان يغيبُ عن ناظره فرنان؛ رآهُ جالسًا عند حافة النّافذة، وقد اتّسعت عيناه مذهولتَيْن، ووقف بحركة شبه متشنّجةٍ، ثمّ تهاوى جالسًا؛ وفي اللحظة ذاتها تناهى من السلّم ضجيجٌ مكتوم؛ همهماتُ أصواتٍ مبهمةٍ تختلط بقرقعة أسلحةٍ، ممّا أثار تساؤلات المدعوّين، وبغضّ النّظر عن حجم الضّجيج، فقد أثار انتباه الجميع، وتجلّى ذلك في اللّحظة نفسها عبر صمتٍ قلق.

اقترب الضّجيج. قَرعت لافتةَ الباب ثلاثُ طرقاتٍ؛ ونظر كلّ واحدٍ إلى جاره نظرةَ دهشة.

«بِاسم القانون!»، صاح صوتٌ رنّانٌ، لم يُجبه أيّ صوتٍ.

وعلى الفور انفتح الباب، ودخل الصالة ضابط شرطة، يتمنطق بوشاحه، يتبعه أربعة عساكر مسلّحون، يقودهم عريفٌ. وأخلى القلق مكانَه للرّعب.

وقف التاجر أمام الضّابط الذي كان يعرفُه، وسأله: - ماذا هناك؟ لا بدّ أنّ ثمّة خطأً.

أجابَه الضّابط: - إن كان ثمّة خطأ يا سيّد موريل، فتيقّن أن الخطأ سيُصلح؛ وفي انتظار ذلك أنا أحمل مذكّرة توقيف؛ وبغض النّظر عن الأسف الذي أشعر به وأنا أنفّذها، فإنّه لا بديل لي عن تنفيذها: - أيّكم يا سادة إدمون دانتِس؟

استدارت الأنظار كلّها صوبَ الشّاب الذي كان بالغ الانفعال، لكنّه، بقي محافظًا على كبريائه، خطا خطوةً إلى الأمام، وقال:
- إنّه أنا يا سيّدي، ما الذي تريده منّي؟
أجابه الضّابط: - إدمون دانتِس، باسم القانون، أوقِفُك!
قال دانتِس، وقد علاه شيء من شحوب: - توقفني! لكن لمَ؟
- لا علم لي بالسّبب يا سيّدي، لكن في التّحقيق الأوليّ معك ستعرف السّبب.
أدرك السيّد موريل أنّ ليس بالإمكان شيء أمام هذا الوضع المتشنّج:
- حين يرتدي ضابطٌ وشاحَه لا يظلّ إنسانًا، وإنّما يتحوّل إلى تمثالِ القانون البارد الأصمّ الأخرس.
أمّا الشّيخُ، بالمقابل، فقد هرع صوبَ الضّابط؛ ذاك أنّ ثمّة أشياء تعجز عن فهمها قلوب الآباء والأمّهات.
رجاه وتوسّل إليه! دموع وصلواتٌ بلا جدوى؛ على أنّ يأسَه كان عظيمًا، إلى درجة أنّه أثّر في الضابط، فقال:
- اهدأ يا سيّدي، فلعلّ ابنك قد أهمل إحدى الشكليات المتعلّقة بالجمارك أو مكتب الصحّة؛ والرّاجح أنّنا سنخلي سبيله ما إن نعلم منه المعلومات التي نريدها.
سأل كادروس دانغلار الذي كان قد رفع حاجبيه مصطنعًا الدّهشة:
- أوه! ما الذي يعنيه هذا؟
فأجابه دانغلار: - وأنّى لي أن أعرف؟ إنّي مثلك، أتابع ما يحدث، ولا أفهمه، ولا تزال الأمور مختلطةً عليّ.
بحث كادروس بعينيه عن فرنان: - كان قد اختفى.
إذّاك تمثّل في ذهن الخياط مشهد أوّل أمس بوضوح مرعب. وكأنّما الكارثة قد رفعت الحجاب الذي كان قد ضربه السُّكْر علّى ذاكرته.
قال بصوتٍ أجشّ: - آه! آه! هل ما نشهدُه هو تتمّةُ المزحة التي كنتما

تتحدّثان عنها أمس يا دانغلار؟ إذا كان الأمر كذلك، فالويل لمن أكملَها، لأنّها مزحة شنيعة.

صاح دانغلار: - كلاّ قطعًا! فأنت تعلم أنّي قد مزّقتُ الورقة.

قال كادروس: - لم تمزّقها، وإنّما ألقيت بها إلى أحد الأركان، وهذا كلّ ما في الأمر.

- صه، أنت لم ترَ شيئًا، لقد كنتَ ثملًا.

- وأين فرنان؟

أجاب دانغلار: - وما أدراني! لا بدّ أنّه ذهب يقضي مصالحه: - لكن، بدلًا من أن نشغل نفسينا به، هلّمَ إلى نجدة هؤلاء المصابين المساكين.

والحال أنَّه، أثناء تلك المحادثة، كان دانتِس قد صافح جميع أصدقائه باسمًا، ثمّ سلّم نفسه قائلًا:

- اطمئنّوا، لا بدّ أنّ الخطأ سيُحلّ، ولن أضطرّ إلى الذّهاب حتّى السّجن.

وكان دانغلار آنذاك يقترب من الجماعة الرئيسة، كما رأينا، فقال مؤكّدًا: - بلى! وسأشهد لك.

نزل دانتِس السلّم، يسبقه الضّابط ويحفُّه الجنود. وكانت بانتظارهم عند الباب عربةٌ بابُها مُشرَع، ركب العربةَ وركبَ بعدَه جنديّان ثمّ الضّابط؛ أُغلق الباب، وانطلقت العربة باتّجاه مارسيليا.

هرعت مرسيدس إلى الدرابزين وهي تصيح: الوداع يا دانتِس! الوداع يا إدمون!.

تناهت إلى سمع السّجين الصيحةُ التي انطلقت كالحشرجة من قلب خطيبته المكلوم؛ أخرج رأسَه من الباب وصاح: إلى اللقاء يا مرسيدس!، ثمّ اختفى عند إحدى زوايا قلعة سان نيكولا.

قال التاجر: - انتظروني هنا، سأستقّل أوّل عربة أصادفُها، وأنطلقُ إلى مارسيليا ثمّ آتيكم بالأخبار.

صاح الجميع في صوتٍ واحدٍ: «هيّا! هيّا! وعُد إلينا بسرعةٍ!»

أعقبت رحيلَه لحظةُ ذهولٍ عمّت وجوه جميع من بقوا.

ظلّ العجوز ومرسيدس لحظاتٍ معزولَين؛ كلّ واحدٍ منهما يجترّ ألَمَه؛ ثمّ ما لبثت العيون أن التقت؛ التقت عيونُهما كأنّهما ضحيّتان أصابتهُما ضربةٌ واحدةٌ، فارتميا في حضنَي بعضهما بعضًا.

أثناء ذلك كان فرنان قد عاد، فصبّ لنفسه كأس ماءٍ، وشربَه، ثمّ جلس على مقعد.

وشاءت الصدفة أن تتهاوى مرسيدس على كرسيٍّ مقابلٍ وهي تترك حضن الشّيخ.

وبحركةٍ غريزية نحّى فرنان كرسيّه.

قال كادروس لدانغلار وهو يتابع الكتالانيّ: إنّه هو.

قال دانغلار: - لا أعتقد! إنّه أغبى من أن يفعل ذلك؛ وفي جميع الأحوال على الباغي تدور الدّوائر.

قال كادروس: - أراكَ تُغفل من نصَحَه.

أجابه دانغلار: - آه! إلهي، كأنّما الإنسان مسؤولٌ عن كلّ كلمةٍ يلقيها في الهواء!

- أجل حين يُنفّذ ما ننطق به تنفيذًا حرفيًا.

أثناء ذلك كانت زُمرَ الحضور تعلّق على الحادث كلّ تعليقٍ.

قال أحد الأصوات: - وأنت يا دانغلار، ما رأيُك في ما حدث؟

أجاب دانغلار: - أنا اعتقد بأنّه قد أحضر بعض السلع الممنوعة.

- لكن إن كان الأمر كذلك، فلا شكّ في أنّك ستعرفُه ما دمت أنت محاسب السّفينة.

- نعم، أنت محقّ؛ لكنّ المحاسب لا يحيط علمًا إلا بالبضائع التي يعلِمُونه بها. كل ما أعرفه هو أننا نحمل قطنًا؛ قطن حمّلناه في الإسكندرية، من عند السيّد باستريه، وفي إزمير من عند السيّد باسكال؛ لا تسألني أكثر.

غمغم الأب المسكين: - أوه! تذكّرت الآن أنّه كان قد أخبرني أمس بأنّه قد أحضر لي علبة بنّ وصندوق سجائر.

قال دانغلار: - أرأيتم، هوذا، لا بد أنّ الجمارك قاموا، في غيابنا، بزيارة تفتيش على متن الفرعون، فاكتشفوا المحظور.

لم تكن مرسيدس تصدّق ما يجري؛ وما فتئ حزنُها المكظوم أن انفجرَ دفعةً واحدةٍ في شكل شهيق.

قال لها دانتِس الأب، من دون أن يعيَ فعلًا ما يقوله: - صبرًا يا بنيّتي، تحلَّي بالأمل!

ردّد دانغلار: - بالأمل!

وجاهد فرنان كي يغمغم: «بالأمل!».

لكنّ تلك الكلمة كانت تخنقها؛ شفتاها ظلّتا ترتجفان، ولم تخرج من فمها كلمة.

صاح أحد الضيوف، وكان قد بقي واقفًا على الدرابزين: - سيداتي، سادتي، عربةٌ تقتربُ! آه! إنّه السيّد موريل! تحمّسوا! فلا ريب في أنّه يحمل إلينا أخبارًا سعيدة.

هرعت مرسيدس والشّيخ صوب التاجر، الذي استقبلهما عند الباب؛ وكان الشحوب قد بلغ منه كلّ مبلغ.

صاحوا جميعًا بصوتٍ واحد: - وإذًا؟

فأجابهم التاجر هازًّا رأسَه: - وإذًا يا أصدقاء، إنّ المسألة أخطر ممّا كنّا نعتقد.

صاحت مرسيدس: - أوه! يا سيّدي، إنّه بريء!

أجابها السيّد موريل: - ذلك ما أعتقده، لكنّهم يتّهمونه...

تساءل الشّيخ دانتِس: - بمَ؟

- يتّهمونه بالعمالة لبونابرت.

ولا بدّ أنّ قرائيَ ممّن عاشوا الفترةَ التي تجري فيها حوادث قصّتنا،

يذكرون أيّ تهمةٍ رهيبةٍ كانت في ذلك الزمن التهمةُ التي نطقها السيّد موريل.

أطلقت مرسيدس صرخةً؛ وتهاوى الشيخ على كرسيّ.

غمغم كادروس: - آه! لقد خدعتني يا دانغلار، ونفّذت المقلبَ؛ لكنّي لن أترك هذا العجوز وهذه الصبيّة يموتان كمدًا، سأخبرهما بكلّ شيء.

صاح دانغلار وهو يمسك يد كادروس: - صه أيّها الشقيّ! وإلا شهدت ضدّك أنت نفسك؛ فمن يدريك أنّ دانتِس ليس حقًّا مذنبًا؟ لقد رست السّفينة على جزيرة إلبا، ونزل منها، وظلّ يومًا بأكمله في بورتو فرايو؛ وإذا ما وجدوا عنده رسالةً تدينُه، فإنّ كلّ من يدعمه سيُعتبر شريكًا له.

وبفطرة الأنانية السّريعة، أدرك كادروس صلابة هذا الاستدلال؛ رمق دانغلار بعينين تملأهما الرهبة والألم، وبعدما كان قد تقدّم خطوةً إلى الأمام، ها هو ذا ينكص خطوتَين إلى الوراء. وغمغم: - لننتظر إذًا!

أجابه دانغلار: - أجل، لننتظر؛ إذا كان بريئًا فإنّهم سيفرجون عنه؛ وإذا كان مذنبًا، فلا فائدة من التعاطف مع خائن.

- هيا لننصرف، لم أعد أتحمّل البقاء هنا.

أجابه دانغلار، وقد سعد بأن وجد من يصاحبه في الانسحاب: - نعم، هيّا بنا، لننصرف وندع البقيّة يتسلّلون من هنا كيفما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا.

وانصرفوا جميعًا. أما فرنان وقد صار سندَ الصبيّة، فقد أمسكها من يديها وقادها إلى قرية الكتالان. وأوصل أصدقاءُ دانتِس إلى ممشى ميبون الشّيخَ الذي كان شبه مغشيّ عليه.

ثمّ ما لبثت أن انتشرت في المدينة شائعة القبض على دانتِس باعتباره عميلًا بونابرتيًا.

سأل السيّد موريل محاسبَه: - هل تصدّق هذا يا عزيزي دانغلار؟ هل تصدّقه؟

وكان قد لحقَه وكادروس، إذ كان يهرع بدوره إلى المدينة ساعيًا إلى

تقصّي أخبار إدمون من وكيل الملك، السيّد دو فيلفور مباشرةً، إذ كان يعرفه معرفةً بسيطةً.

أجابَه دانغلار: - اللعنة يا سيّدي! لقد قلت لك إنّ دانتِس قد رسا على جزيرة إلبا، وهذا الرّسو بدا لي مريبًا.

- لكن هل عبّرت عن شكوك لأحد؟

أجاب دانغلار هامسًا: - لقد احترزت من ذلك أيّما احتراز؛ فأنت تعرف يا سيّدي أنّه بسبب عمّك بوليكار موريل، الذي خدم الجانبَ الآخر ولم يُخفِ ولاءَه، يشكّون في أنّك تتأسّف على حكم نابليون؛ لقد خشيت أن أظلم إدمون، وأظلمَك بعده؛ ثمّة أمور على نائب القبطان أن يخبر بها تاجره ويخفيَها عن الآخرين.

قال التاجر: - حسنًا، حسنًا يا دانغلار، إنّك فتى شهم؛ لكنّي كنت قد فكّرت فيك مسبقًا في حال صار المسكين دانتِس قبطان **الفرعون**.

- كيف يا سيّدي؟

- نعم، لقد سألت دانتِس عن رأيه بك، وعمّا إذا كان يرى مانعًا في بقائك في منصبك؛ ذاك أنّي، لا أدري لمَ، كنت قد لاحظتُ فتورًا بينكما.

- وبمَ أجابَك؟

- أجابني بأنّه فعلًا، ضمن ملابساتٍ لم يخبرني بها، قد أخطأ في حقّك، وبأنّ كلّ شخص يحوز ثقة ربِّ سفينته يحوز ثقته هو أيضًا.

غمغم دانغلار: - المنافق!

وقال كادروس: - المسكين دانتِس! لقد كان حقًّا فتىً رائعًا.

قال السيّد موريل: - نعم، لكن في الانتظار، ها هي **الفرعون** قد صارت بلا قبطانٍ.

قال دانغلار: - أوه! ينبغي ألاّ نقطع الرّجاء، فنحن لن نبحر قبل ثلاثة أشهر، ومن الآن إلى ذلك الحين سيكون قد أُطلق سراحُ دانتِس.

- بلا ريب، لكن إلى ذلك الحين؟

قال دانغلار: - إلى ذلك الحين ها أنا ذا بالخدمة يا سيدي؛ أنت تعلم

أنّ معرفتي بتسيير السّفن لا تقلّ عن معرفة قبطانٍ، لا بل إنّ في اختياري فائدةً إضافية لك؛ لأنّه حين يغادر إدمون السّجن، لن تضطرّ إلى تسريح أحد: - هو سيعود إلى منصبه وأنا إلى منصبي، وهذا كلّ ما في الأمر.

أجابه التاجر: - شكرًا يا دانغلار؛ إنّه اختيار يريح الجميع. لتتسلّم إذًا قيادة السّفينة، إنّي أمنحُك موافقتي، ولتحرص على إتمام عملية الرّسو. فمهما أصاب الأفراد من مصائب لا ينبغي أن تتأثّر الأعمالُ.

- اطمئنّ يا سيّدي؛ لكن أخبرني، هل بوسعنا على الأقلّ زيارة إدمون المسكين؟

- سأخبرك بالأمر لاحقًا يا دانغلار؛ سأسعى إلى الحديث مع السيّد دو فيلفور والتوسّط للسّجين عندَه. أعلم أنّه ملكيٌّ متعصّبٌ، لكن بحقّ الشيّطان! حتّى وإن كان السيّد دو فيلفور ملكيًا ووكيلَ ملكٍ، فإنّه يظلّ إنسانًا، ولا أحسبُه إنسانًا سيّئًا.

- كلاّ، لكنّي سمعتُ أنّه شخصٌ طموحٌ، والقبض على دانتِس يلائم طموحَه.

قال السيّد موريل متنهّدًا: - سنرى؛ هيّا إلى السّفينة، وسألحقُ بك.

ثمّ إنّه ترك الصّديقَيْن كي يسلك طريق قصر العدالة.

قال دانغلار مخاطبًا كادروس: - أرأيتَ أيّ منقلبٍ انقلبت الأمور؟ هل لا تزال ترغب في مساندة دانتِس؟

- كلاّ مطلقًا، لكن هذا لا يمنع من أنّ ما وقع أمرٌ رهيب، كيف لدعابة أن تتّخذ هذه التّبعات!

- اللّعنة! من صاحب الدّعابة؟ لستُ أنا، ولا أنت، أليس ذلك؟ إنّه فرنان. أنت تعلم أنّي رميتُ الورقة في أحد الأركان: - لا بل إنّي كنت أحسب أنّي مزّقتُها.

قال كادروس: - كلّا، كلّا. أوه! إنّي متأكّد من ذلك؛ إنّي لأرى الورقة مكرمشةً عند ركن التعريشة؛ وما زلت آملُ في أن أجدها باقيةً هناك!

- وما العمل؟ ربمّا حملها فرنان، وربّما نسخها أو طلب من أحدهم

نسخها، أو لربّما لم يتجشّم حتّى عناء ذلك؛ وحين أفكّر بذلك... يا إلهي! ربّما يكون قد أرسل رسالتي نفسها! لحسن الحظّ أني قد قنَّعتُ خطّي.

- لكن، هل كنت على علم بأنّ دانتِس متآمرٌ؟

- أنا ما كنتُ على علم بشيء. وكما قلتُ، فقد كنت أحسبها مجرّد دعابةٍ، ولا شيء سوى ذلك. يبدو أنّني، مثل أرلوكان[1]، قد نطقت الحقيقة بينما أمزح.

- سيّان! أمّا أنا فكنتُ لأعطي الكثير مقابل ألاّ يحدث شيءٌ، أو على الأقل ألاّ تكون لي علاقةٌ بالموضوع. سترى وبال ذلك علينا يا دانغلار!

- إذا كان ثمّة من وبالٍ، فإنّه سيقع على المذنب الفعليّ، والمذنب الفعليّ فرنان وليس نحن. أيّ وبالٍ يمكن أن يحيق بنا؟ ما علينا إلاّ أن نستكين، فلا ننطق حرفًا عمّا جرى، وستمرّ العاصفة من دون أن يضربَ الرّعدُ.

«آمين!»، قالها كادروس وهو يشير إلى دانغلار مودّعًا، ويتّخذ طريق ممشى ميّون، هازًّا رأسَه ومحدّثًا نفسه، على عادة النّاس المهمومين.

وقال دانغلار مخاطبًا نفسَه: «حسنًا! هي ذي الأمور تسير كما خطّطتُ لها؛ وها أنا ذا مؤقّتًا قبطانٌ، وإن صمت هذا الغبيّ كادروس فسأصير قبطانًا دائمًا. لن يمنعني عن ذلك إلا أن يُخلى سبيل دانتِس؟ (وأضاف مبتسمًا)، لكنّ العدالةَ هي العدالة، وأنا أثق بها».

ثمّ إنّه قفز إلى أحد القوارب، وأمر المُجذّفَ بأن يقوده إلى **الفرعون**، حيث كان التاجر، كما أسلفنا، قد ضرب له موعدًا.

---

(1) شخصيّة من المسرح الهزليّ الإيطالي، ظهرت إبّان القرن الـ 16.

6

نائبُ وكيل الملك

في شارع غران كور، مقابل نافورة قناديل البحر، وفي منزلٍ من المنازل العتيقة التي بناها بوجيه[1] على الطراز الأرستقراطي، كانت تقامُ في اليوم نفسه، والسّاعة نفسها، وليمةُ خطوبةٍ أخرى.

لكن على خلاف أولئك الذي أثّثوا مشهد الوليمة السابقة، أي أناس من عامّة الشّعب وبحّارة وجنود، فإنّ حضورَ هذه الوليمة كانوا من عليّة المجتمع بمرسيليا: - كانوا زمرة من القضاة السّابقين، ممّن استقالوا من مناصبهم أثناء حكم الغاصب؛ وضبّاطًا سابقين كانوا قد انشقّوا عن صفوفِنا والتحقوا بصفوف جيش كوندي[2]؛ وشبابًا رفيعي المقام بنَسَبهم، وإن كانوا لا يزالون غير مطمئنّين على وضعهم، على الرّغم من البدلاءِ الذين اشتروا خدمتهم[3]، في هذا الجو من الكراهية تجاه الرّجل الذي ستجعل منه خمس سنواتٍ من المنفى شهيدًا، وخمس عشرةَ سنةً من الرّجوع إلهًا.

كانوا جلوسًا إلى المائدة، والنقاش يدور، حارقًا تتنازعُه كلّ الأهواء، أهواء العصر، أهواء صارت في الجنوب أشدّ رعبًا وحرقةً وحماسةً منذ خمس سنواتٍ، أي منذ أن انضافت الأحقاد الدينية إلى الأحقاد السياسية.

---

(1) المقصود بيير بوجيه (1694-1620)، معماريّ ونحاتٌ ورسام فرنسيّ شهير، لقّبه النّقاد بمايكل أنجلو فرنسا.

(2) جيش مهاجرين أسّسه لويس الخامس جوزيف البوربوني-الكوندي (ابن عمومة الملك) ليحارب الثورة الفرنسية.

(3) كان أبناء الميسورين يدفعون لبدلاء يؤدّون عنهم الخدمةَ العسكرية.

كان الإمبراطور قد صارَ ملكًا على جزيرة إلبا، بعدما كان يسود قسمًا من العالم؛ وصار يحكم شعبًا مؤلّفًا من خمسة آلاف إلى ستّة آلافِ نَفْسٍ، بعدما كان يسمع هتاف: «يحيا نابوليون!» من فم مائة وعشرين مليون مواطن، وبعشر لغاتٍ مختلفة؛ كان يُتحدّثُ عنه هنا بوصفه رجلًا ضاع وأضاع إلى الأبد عرشَه. كان القضاة يبيّنون أخطاءَه السياسية؛ والعسكريون يتحدّثون عن موقعتَي موسكو ولايبزغ؛ والنّساءُ عن طلاقه وجوزفين. كان يبدو لهؤلاء النّاس الملكيّين السعيدين والمنتشين، ليس بسقوط الرجل وإنّما بتقوّض المبدأ، أنّ الحياة تبدأ بالنّسبة إليهم من جديد، وأنّهم يخرجون من حُلم منغِّصٍ.

قام مسنٌّ، موشّحٌ بصليب سان لويس، واقفًا واقترح على ضيوفه رفع نخبٍ في صحّة الملك لويس الثامن عشر؛ كان الشيّخ هو الماركيز دو سان مران.

لهذا النّخب، الذي كان يذكّر في آنٍ بمنفيٍّ هارتويل والملكِ صانع السّلام بفرنسا، ثارت جلبةٌ كبيرةٌ؛ رفعت الكؤوس على الطريقة الإنجليزية، وفكّت النّساء باقات أزهارهنّ ونثرنها على فرُش المائدة. كانت حماسة تكاد تكون شعريةً.

قالت الماركيزة دو سان مران، وكانت امرأةً حادةَ النّظرة، دقيقة الشّفتين، ذات مظهرٍ أرستقراطيّ، ولا تزال أنيقةً، رغم أنّها تعدّ من السنوات خمسينَ:

– كلّ أولئك المتمرّدين قد طردونا، وما زلنا نسمح لهم بأن يحيكوا المؤامرات، آمنين، في قلاعنا القديمة التي اشتروها برخص التراب، أيامَ **التيرور**[1]؛ وهذا يعني أنّ الإخلاص الحقّ هو ذاك الذي أبديناهُ نحنُ،

---

(1) التيرور (حرفيًا الرّعب) وهي إحدى فترات الثورة الفرنسية، تحديدًا (بين يونيو 1793 ويوليو 1794).

إذ تمسّكنا بمساندة الملكيّة الآفلة، بينما هم، بالمقابل، كانوا يهلّلون للشّمس الصاعدة، ويغتنمون الفرصة للاغتناء، في حين نخسرُ نحنُ ثرواتنا؛ وبالتّالي فإنّ ملكنا نحن كان حقًّا لويس المحبوب، بينما ملكهم الغاصب لم يكن سوى نابليون الملعون؛ أليس كذلك يا سيد فيلفور؟

- ماذا قلتِ، سيدّتي الماركيزة؟.. آسف، لم أكن أتابع الحديث.

قال الشّيخُ الذي كان قد رفع النّخب: - اتركي الشابّين وشأنهما أيّتُها الماركيزة؛ إنّهما سيتزوّجان، وبالطّبع لديهما أمورٌ أخرى أهمّ من السّياسة يتحدّثان فيها.

قالت شابةٌ حسناء، لها شعر أشقر وعينين مخمليّتين تسبحان في ماءٍ لؤلؤي:

- عذرًا يا أمّي؛ ها أنا ذي أعيد إليكم السيّد فيلفور، بعدما استأثرت به برهةً. سيّد دو فيلفور، إنّ أمّي تخاطبُك.

قال السيّد دو فيلفور: - إنّي تحت تصرّفك سيّدتي، ومستعدٌّ للإجابة عن السؤال الذي لم أسمعه جيّدًا.

قالت الماركيزة بابتسامةٍ عذبةٍ كان من المفاجئ رُؤيتُها تُزهر على وجهها القاسي:

- عذركِ مقبولٌ يا رينيه؛ لكنّ قلب المرأة هكذا! مهما قسا بفعل الأحكام وما تفرضه قواعد الإتيكيت، فإنّه يظلّ فيه دائمًا ركنٌ خصبٌ ومبتهج. إنّه الرّكن الذي خصّه الرّب للحبّ الأموميّ. عذرك مقبول... والآن يا سيّد فيلفور، كنت أقول إنّ البونابرتيّين لم يتحلّوا بإيماننا، ولا بحماستنا، ولا بإخلاصنا.

- أوه! يا سيّدتي، لديهم على الأقلّ شيءٌ يعوّضون به كلّ ذلك: إنّه التعصّب. إنّ نابوليون هو محمّد الغرب؛ فهو بالنّسبة لهؤلاء النّاس العوّام، ذوي الطموحات الكبرى، ليس فقط مُشرّعًا أو معلّمًا، وإنّما هو أيضًا مثالٌ يُحتذى، مثالٌ يحتذى في العدالة.

صاحت الماركيزة: - في العدالة! نابوليون مثالٌ يحتذى في العدالة! ماذا يمكن أن تقول إذًا عن روبسبيير؟ يبدو لي أنّك تسرق منه مكانتَه كي تمنحها للكورسيكيّ؛ وإنّ في ذلك كلّ ملامح الغصب على ما أحسب.

قال فيلفور: - كلّا يا سيّدتي، إنّي أحفظ لكل واحدٍ قاعدةَ نُصبه: - روبسبيير، بساحة لويس الخامس عشر، على سقالة إعدامه؛ ونابليون، بساحة فوندوم، على مسلّتِه؛ الفرق أنّ أحدهُما صنع العدالة التي تُخفِض والآخر العدالةَ التي ترفَع؛ أحدهما أنزل الملوك إلى درك المقصلة، والآخر رفع الشّعب إلى درجة العَرش. (ثمّ أضاف ضاحكًا)، لكنّ هذا لا يعني أنّ كلاهما لم يكُن ثوريًا شائنًا، وأنّ التاسع من شهر ترميدور[1] والرّابع من أبريل 1814 لم يكونا يومَيْن سعيدَين بالنّسبة لفرنسا، وجديرَين بأن يحتفل بهما أصدقاء النّظام والملكيّة؛ لكنّ هذا يفسّر أيضًا لمَ احتفظ نابليون بأتباعه رغم سقوطه سقوطًا لا نهوض بعدَه، كما أتمنّى. ما العمل يا سيّدتي الماركيزة؟ إنّ كرومول[2]، الذي لم يبلغ نصف مبلغ نابوليون، قد كان له أتباعٌ!

- أوَتدري يا فيلفور، إنّ ما نطقت به الآن يفوح برائحة الثورة من على بعد فرسخ؟ لكنّي أعذرك، فلا يمكن للمرء أن يكون ابنًا لجيرونديّ[3]، ولا يحتفظَ بذوق فلّاح.

عبرت جبهةَ فيلفور حمرةٌ شديدة؛ وقال:

---

(1) الشّهر الحادي عشر بحسب التقويم الجمهوري الفرنسي.

(2) أوليفر كروموِيل (1658-1599)، سياسي وقائد عسكري إنجليزي، اشتهر بوقوفه ضدّ الملكيّين، وهزمهم في الحرب الأهليّة.

(3) جيرونديّ: يُقصد بها إلى اليوم ساكن منطقة لا جيروند التي تعدّ بوردو أهمّ مدنّها، لكنّها كانت تعني، بين سنتي 1791 و1793، تحديدًا شخصًا منتميًا إلى حزبٍ ثوريّ أُنشئ بمنطقة لا جيروند. وقد كان الجيرونديّون معروفين بكونهم جمهوريّين، وإن كانوا أكثر اعتدالًا من سكّان المناطق الجبلية.

- لقد كانَ والدي جيرونديًّا يا سيّدتي، أنت محقّة. لكنّه لم يصوّت لموت الملك؛ والدي نفاه **عهد الإرهاب**[1] نفسه الذي نفاكم، وكاد رأسه يمرّ من تحت نفس المقصلة التي قطعت رأسَ والدكم.

لم تحدث الذكرى الدمويّة أدنى تغيير في ملامح الماركيزة، وقالت:

- بلى، لكنّهما كانا ليصعدا سقالة المقصلة لمبادئ متعارضةٍ تمامًا، والدّليل أنّ عائلتي ظلّت متشبّثةً بالأمراء المنفيّين، بينما هرع والدك إلى التحالف مع الحكومة الجديدة، وبعد أن كان المواطنُ نوارتييه جيرونديًّا، فقد صار الكونت نوارتييه عمدةً.

قالت رينيه:

- أمّي، أنت تعلمين أنّه من غير اللائق الحديث عن هذه الذكريات السيّئة.

قال فيلفور: - سيّدتي، أضمّ صوتي إلى صوت الآنسة دو سان ميران، وأطلب منك فضلًا أن تنسَي الماضي. لمَ الجدال في هذه الأمور التي تعجز أمامها حتّى إرادة الربّ؟ إنّ بمقدور الربّ أن يغيّرَ المستقبل، لكنّه لن يغيّر الماضي. وليس لنا نحن البشر إلا أن ننكرَ هذا الماضي، أو على الأقلّ، أن نحجُبه بستارٍ. وأنا لم أقطع مع توجّه والدي فحسب، وإنّما انفصلت حتّى عن اسمه. والدي كان، وربّما لا يزال، بونابرتيًّا، واسمُه نوارتييه؛ أمّا أنا فمَلكِيٌّ واسمي دو فيلفور. ذَرِي إذًا يا سيّدتي السعفةَ الثوريّة التي بقيَت في الجذع القديم تموت، ولا تعتبري سوى الفرع الذي ينتحي عن الجذع، من دون أن يَتمكّن من ذلك فعلًا، بل وأقول من دون أن يرغب في الانفصال عنه تمامًا.

قال الماركيز: - برافو يا فيلفور، برافو، لقد أحسنتَ الردّ! أنا أيضًا

---

(1) عرفت الثورة الفرنسية حقبتَين تحت هذا المسمّى، أشهرهُما حقبة 5 سبتمبر 1793 - 28 يوليو 1794، وهي فترةٌ تميّزت بالإعدامات الجماعية.

لطالما دعوت الماركيزة إلى النّسيان، من دون أن أجد عندها لدعوتي صدىً؛ أتمنّى أن يحالفك الحظّ الذي خانني.

قالت الماركيزة: - بلى. لقد أحسنتَ قولًا، لننسَ الماضي، فأنا لا أطلب أكثر من ذلك؛ لكن ليكُن السيّد فيلفور أقلّ تعنّتًا في مُقبل الأيّام. لا تنسَ أنّنا سعينا لك عند جلالة الملك، وأنّ جلالته قبل أَنَ يطويَ صفحةَ الماضي بطلبٍ منّا (مدّت يدَها)، مثلما أقبل أن أَطويَها برجاء منك. لكن إذا ما وقع بين يديك أحد المتآمرين، فاعلم أنّ العيون مفتوحةٌ عليك، خاصةً وأنّك من عائلةٍ ربّما تجمعها علاقةٌ بالمتآمرين.

قال فيلفور: - للأسف يا سيّدتي! إنّ قناعتي، وأيضًا الزمن الذي نعيش فيه، يفرضان عليّ أن أكون قاسيًا. وسأكون كذلك. لقد سبق أن عُهد إليّ بالتّحقيق في بعض الاتّهامات السّياسية، وقد فعلت ما كان عليّ فعله. لكن للأسف، لا يزال أمامنا الكثير.

قالت الماركيزة: - هل تعتقد ذلك؟

- أخشى ذلك. إنّ نابليون في جزيرة إلبا، وقريبٌ جدًا من فرنسا؛ ووجوده تقريبًا على مرمى البصر من شواطئنا، يغذّي الأمل في نفوس أتباعه. وإنّ مارسيليا مليئةٌ بضبّاط النّصف-راتب(1)، الذين يفتعلون كلّ يوم ذريعةً للشجار مع الملكيّين؛ ومن ثمّة نشهد تحدّياتٍ بين رجال الطّبقة العليا، واغتيالاتٍ في صفوف الشّعب.

قال الكونت دو سالفيو، وكان صديقًا قديمًا للسيّد دو سان مران وحاجبًا لكونت أرتوا: - نعم، لكنّ التحالف المقدّس(2)عازمٌ على إبعاده(3).

---

(1) ضبّاط كانوا ينتمون للإمبراطورية الأولى، وتمّ عزلهم بعد عودة الملكيّة، ولأنّهم صاروا لا يؤدّون نشاطًا، فإنّ رواتبهم قد قُلّصت للنّصف، وذاك سبب تسميتهم.

(2) التحالف المقدّس تحالفٌ أُبرم سنة 1815 بعد هزيمة نابليون.

(3) يقصد نابليون.

أجابه السيّد دو سان مران: - نعم لقد سمعت بذلك أثناء سفرنا إلى باريس، وإلى أين يعتزمون إرسالَه؟

- إلى جزيرة القديسة هيلينا.

تساءلت الماركيزة: - هيلينا! أي جزيرة هذه؟

أجابَها الكونت: - جزيرة تقع على بُعد ألفَي فرسخٍ من هنا، فيما وراء خطّ الاستواء.

- ذاك خيرٌ عظيم! فكما يقول فيلفور، إنّها لحماقةٌ كبيرةٌ أن يُترك رجلٌ مثل ذاك، بين كورسيكا، مسقط رأسِه، ونابولي، حيث لا يزال يحكم صهرُه، وقبالةَ إيطاليا التي يريدُها مملكةً لابنه.

قال فيلفور: - للأسف نحن ملزمون بمعاهدات 1814، ولا نستطيع أن نمسّ نابليون من دون أن نخلّ بها.

قال السيّد دو سالفيو: - للأسف. وهل اكترثَ هو لتلك المعاهدات حين أقدم على إعدام المسكين دوق إنيين رميًا بالرّصاص؟

قالت المركيزة: - نعم، اتّفاق ناجزٌ: التحالف يخلّصنا من نابليون، وفيلفور يخلّص مارسيليا من أتباعه. إمّا أن يحكم الملك وإمّا أن لا يحكم. وإن كان يحكم، فينبغي أن تكون حكومته قويّة ورجاله حازمين؛ تلكم هي الطريقة الوحيدة لاتّقاء الشرّ.

قال فليفور باسمًا: - للأسف يا سيّدتي، دومًا يُستدعى نائب وكيل الملك حين يكون الشرّ قد وقع.

- وإذًا، إنّ مهمّته إصلاحُ ما فسد.

- يمكنني أن أقول لك يا سيّدتي إنّنا لا نصلح ما فسد، وإنّما نقتصُّ من المفسد، وهذا كلّ ما في الأمر.

قالت شابّة جميلة، هي ابنة الكونت دو سالفيو وصديقة الآنسة دو سان مِران: - أوه! احرص إذًا يا سيّدي على أن تشرف على قضيّة مهمّة أثناء إقامتنا بمارسيليا. فأنا لم يسبق ليَ أن حضرتُ محاكمةً، ويقال لي إنّه أمرٌ جديرٌ بالاهتمام.

قال النائب: - مثيرٌ حقًا يا آنستي؛ فبدلًا من تراجيديا وهمية، نكون أمام مأساةٍ واقعية؛ وبدلًا من معاناةٍ مشخَّصةٍ نشهد معاناة معيشةً حقًا. وبدلًا من ممثّلٍ يعود بعد نزول السّتارة إلى بيته، كي يتعشّى مع أسرتِه وينام مطمئنّ البال، كي يعاودَ التمثيل في الغد، فإنّ صاحبنا يُقاد إلى السّجن حيث ينتظره الجلاد. ترين إذًا أنّه بالنّسبة إلى الأشخاص المستثارين، أولئك الذين يسعون خلف الإثارة، لا وجود لعرضٍ يضاهي عرضَنا. اطمئنّي، آنستي، إذا ما سنحت الفرصة، سأدعوك لمتابعة العرض.

قالت رينيه وقد علاها الشّحوب: - إنّه يرعبُنا... ويضحك!

- وما العمل... إنّه صراعٌ... إلى الآن قد أصدرت خمس مراتٍ أو ستًا أحكامًا بالإعدام على متّهمين سياسيّين أو غيرهم... ومن يدري، كم خنجرًا في هذه الأثناء يُشحذُ في الظّلام، أو ربّما يلتمس طريقَه صوبي؟

قالت رينيه وهي تزداد شحوبًا أكثر فأكثر: - أوه! يا إلهي! هل أنت جادٌ يا سيّد فيلفور؟

أجابها القاضي الشّاب، وعلى شفتيه ابتسامةٌ: - كلّ الجدّ. ومع هذه المحاكمات التي تريد الآنسة أن تشبع بها فضولها، وأريد أنا أن أحقّق بها طموحي، لن تزداد الأمور إلا خطورةً. كلّ هؤلاء الجنود البونابرتيّين، المعتادين على السّير الأعمى صوب العدوّ، هل تعتقدين أنّهم سيتردّدون وهم يحرقون خرطوشًا، أو يمشون رافعين حربةً؟ لا بل، هل سيتردّدون في قتل رجلٍ يحسبونَه عدوًّا شخصيًا، إلا بالقدر الذي سيتردّدون به في قتل [جنديّ] روسيٍّ أو نمساويٍّ أو مجريٍّ لم يسبق لهم رؤيَتُه؟ ثمّ إنّه أمرٌ ضروريٌّ، ولولاه ما كان لمهنتنا ما يشفع لها. وأنا نفسي حين أرى في عين المتّهم بريق الغضب يلمع، تأخذني الحماسة، فلا يعود الأمر مجرّد قضيّة، وإنّما معركةً؛ أصارعه، فيصارعُني، فأزيد الضّغط، ثمّ تنتهي المعركة، شأنَ كلّ معركةٍ بالنّصر أو بالهزيمة. هوذا ما نسمّيه ترافعًا! إنّ الفصاحةَ ابنةُ الخطر! متّهمٌ يبتسم بعد مرافعتي، سيدفعني إلى

الاعتقاد في أنّي لم أحسن قولًا، في أنّي كنت باهتًا، بلا بأس، ناقصًا. لك إذًا أن تتخيّلي شعور الغطرسة الذي يغمر وكيل الملك، المقتنع بأنّ المتّهم مذنبٌ، حينَ يرى خصمَه يشحُب وينهارُ بفعلِ فصاحتِه وتحتَ ثقل الأدلّة التي تسوقُها مرافعتُه! يخفضُ رأسَه ثمّ يتهاوى.

صاحت رينيه صيحةً خفيفة. وقال أحد الضيوف: - هذا ما نسمّيه حُسنَ تكلّم.

وأضافَ آخر: - هو ذا الرّجل المناسبُ لأزمنتنا!

وزاد ثالث: - لقد كنت مذهلًا في قضيّتك الأخيرة يا سيّد فيلفور. أقصد قضيّة الرّجل الذي اغتالَ أباه؛ الحقّ أنّك قتلتَه حرفيًا قبل أن تعهد إلى الجلاّد بذلك.

قالت رينيه: - أوه! بالنّسبة إلى من يقتل أباه، فلا أرى له من عقابٍ سوى ذلك، يا عزيزي فيلفور؛ أمّا أولئك المساكين معتقلي السياسة!...

- أولئك جرمُهم أشدّ يا رينيه، لأنّ الملك هو أب الأمّة، ومن يسعى إلى الإطاحة بالملك أو قتله، فكأنّما يسعى إلى قتل أب اثنين وثلاثين مليون إنسان.

أجابته رينيه: - أوه! قولُك عدلٌ يا سيّد فيلفور، لكن هل تعدني بأن تكون متسامحًا مع من أوصيك به؟

أجابها فليفور بأعذب ابتسامة: - اطمئنّي، سنكتب معًا خطاب الاتّهام.

قالت الماركيزة: - أولى لك يا عزيزتي أن تهتمّي بكلابك السبنيليّة[1]، وطيورك الطنّانة، وبأثوابك، وأن تتركي زوجك المستقبليّ يقوم بواجبه. فاليوم تستريح الأسلحة ويعمل الزيُّ؛ ثمّة عبارةٌ لاتينية تؤدّي ما قُلتُه بغاية العمق.

---

(1) السبنيليّ، كلب صيد إنجليزيّ أَوْبَر.

قال فيلفور وهو ينحني: - Cedant arma togae[1]

فأجابته: - لم أجرُؤ على الحديث باللاتينية.

واستأنفت رينيه الكلام: - كنت أفضّل لو أنّك كنت طبيبًا؛ فملاك الموت، وإن كان ملاكًا، لطالما أرعبتني صورتُه.

همس فيلفور وهو يغمر الشّابة بنظرة حبّ: - يا رينيه الطيّبة!

وقالت الماركيزة: - إنّ السيّد دو فيلفور يا ابنتي سيضطلع بدور الطبيب الأخلاقي والسياسي في هذا الإقليم؛ وصدّقيني، إنّه لدورٌ حسنٌ.

ثمّ ما لبثت أن استأنفت بحدّتها غير القابلة للإصلاح: - وسيجد في ذلك وسيلة لينسينا الدّور الذي لعبه والده.

قال فيلفور وعلى وجهه ابتسامةٌ حزينةٌ: - سيّدتي، لقد سبق أن تشرّفتُ بأن أقول لكم إنّ والدي، وهذا ما أرجوه، قد كفّر عن أخطاء ماضيه؛ وأنه قد صار صديقًا غيورًا للدِّين والنّظام، ولربّما هو ملكيّ أكثر منّي أنا نفسي؛ لأنّه اعتنق الملكية عن توبةٍ، فيما أنا اعتنقها حماسةً.

وبعدما ردّ فليفور القول بعبارته تلك، أخذ ينظر إلى وجوه الضيّوف محاولا تبيُّن تأثير طلاقته عليهم؛ مثلما يفعل عادةً في المحكمة بعد أن يطلق عبارةً مماثلةً.

قال الكونت دو سالفيو: - وهذا تحديدًا، يا عزيزي فيلفور، ما أجبت به أوّل أمس بقصر تويلري وزيرَ شؤون المَلك، حين سألني عن هذا الارتباط الفريد الذي يوشك يجمع بين ابنِ جيرونديّ وابنة ضابطٍ في جيش كوندي؛ وقد فهم الوزير كلامي جيّدًا. إنّ نظام الدّمج هذا هو ما انتهجه لويس الثامن عشر. ثمّ إنّ الملك الذي كان ينصت إلى حديثنا، من دون أن ننتبه، قد قاطعنا قائلًا: «فيلفور، (ولتنتبه إلى أنّ الملك لم ينطق

---

(1) باللاتينية في الأصل، وترجمتُها الحرفية «الأسلحةُ تخلي مكانَها للتُوجَة»، والتّوجة الرّداء الذي كان يرتديه في روما القديمة المواطنون ما خلا العبيد، ومقصد العبارة أنّ حكم العساكر يخلي مكانَه لحكم المدنيّين.

اسم نوارتييه، وبالمقابل شدّد على اسم فيلفور؛) فيلفور إذًا سيكون له مسارٌ ناجح؛ إنّه رجلٌ ناضجٌ، رجلٌ ينتمي إلى عالمي. لقد طابت نفسي إذ قبل المركيز والمركيزة آل سان مِران باتّخاذه صهرًا لهما، ولو أنّهما أتيا يسألانني الرّأيَ لنصحتُهما بذلك».

صاح فيلفور صيحة رضًا: - أحقًا قال الملك هذا؟

- إنّي لأنقل لك كلماتِه حرفيًا، ولو أنّ المركيز أراد الصّراحة، لاعترف بأنّ كلامي هذا يتوافق تمام التّوافق مع ما كان قد قاله له الملك، منذ ستّة أشهر، حين حدّثه في شأن مشروع زواجك بابنته.

قال الماركيز: - كلامك حقّ.

- أوه! إنّي إذًا مَدين لجلالته بكلّ شيء. ولن آلوَ جهدًا في خدمته.

قالت الماركيزة: - هكذا أحبّك. ليأت الآنَ متآمرٌ إن شاءَ، على الرّحب والسّعة.

قالت رينيه: - وأنا، يا أمي، أدعو الله ألّا يستجيب لك، وألا يبعث إلى السيّد دو فليفور إلا لُصوصًا صغارًا، ومفلسين لا حولَ لهم، ونصّابين خجولين؛ هكذا أنامُ مطمئنّةَ البال.

ردّ عليها فيلفور ضاحكًا: - وكأنّما تتمنّين لطبيب ألا يأتيه إلاّ المصابون بالصّداع ومن لذعتهم الزنابير، وكلّ تلك الأدواء التي لا تصيب سوى البشرة. إن كنت تريدين لي أن أصير وكيلَ ملك، فتمنّي لي تلك الأمراض الرّهيبة التي ترفع قدر الطّبيب الذي يشفيها.

وفي هذه اللّحظة، وكأنّما القدر قد سمع دعاء فيلفور وأراد أن يستجيب له، دخلَ خادمٌ، وهمس في أذن السيّد فيلفور بكلمات، غادر السيّد على إثرها المائدة مُعتذرًا، ثمّ ما لبث أن عادَ بعد لحظاتٍ بأسارير منشرحة وشفاه باسمة.

نظرت إليه رينيه بحبّ؛ لأنّه، وهو بمنظره ذاك: - عيناه الزرقاوان، وبشرته الكامدة، وجانبَا لحيته الطويلان، اللّذان يحدّان وجهه؛ كان يبدو

حقًا رجلًا أنيقًا ووسيمًا؛ وكان عقل الشّابة متعلّقًا كلّ التعلّق بشفتيه، منتظرةً أن يفصح عن سبب غيابه القصير.

قال فيلفور: - حسنًا، لقد تمنّيت قبل قليل يا آنستي أن يكون زوجُك طبيبًا، وها على الأقلّ يجمعني بتلامذة إسقلبيوس (هكذا كان النّاس يتحدّثون سنة 1815) أنّ وقتي ليس ملكي، وبالإمكان أن أُطلَب حتّى وأنا راقدٌ بجانبك، بل حتّى يوم وليمة خطوبتي.

سألته الشّابة الحسناء بقلق خفيف: - وما السبب الذي جعلهم يأتون في طلبك؟

- للأسف! بسبب مريض، حاله حرجةٌ على ما يبدو؛ إنّ وضعه خطيرٌ جدًا، وربّما تقوده إلى المقصلة.

صاحت رينيه شاحبةً: - يا إلهي!

قال الجمع بصوتٍ واحد: - صدقًا!

- ببساطةٍ، يبدو أنّنا اكتشفنا للتوّ مؤامرة بونابرتيّة.

سألته الماركيزة: - أهذا ممكن؟

- هي ذي رسالةُ الوشاية.

ثمّ شرع يقرأ:

إلى السيّد وكيل الملك: يُعلمكم أحد الأوفياء للعرش، بأنّ المدعو إدمون دانتِس، نائبَ قبطان سفينة الفرعون، التي وصلت اليوم من إزمير، بعدما عبرت ميناءي نابولي وبورتو فيرّايو، قد كُلّف من طرف مورات، بحمل رسالةٍ إلى غاصبِ الحُكم، ثمّ رسالةٍ من طرف غاصب الحُكم إلى جماعة البونابرتيّين في باريس.

وستجدون دليل إدانته عند توقيفه، لأنّه لا بد أن يحمل الرسالة معه، أو في دار أبيه، أو في مقصورته بالفرعون.

قالت رينيه: - ولكنّها مجرّد رسالةٍ، بل ورسالةٌ مجهولة، وليست حتّى مرسلةً إليك وإنّما إلى السيّد وكيل الملك.

- نعم، ولكنّ وكيل الملك غائب؛ وفي غيابه وصل الخطاب إلى سكرتيره المخوّل له فتح الرّسائل؛ وقد فتحها، وبحث عنّي، وإذ لم يجدني أصدر قرار التوقيف.

قالت الماركيزة: - وقد قبضوا إذًا على المذنب؟

عقّبت رينيه: - بل هو متّهم.

قال فيلفور: - أجل، ومثلما تشرفت بالقول قبل قليل للآنسة رينيه، إذا ما وجدنا لدى المذنب الرّسالةَ المعلومةَ، فإنّه حقًّا مذنب.

سألته رينيه: - وأين هو هذا الشقيّ الآن؟

- في مكتبي.

قال الماركيز: - هيّا يا صديقي، لا تهمل واجبك لتظلّ معنا، الأولوية لنداء الملك؛ اذهب إذًا حيثما نادتك خدمة الملك.

قالت الآنسة رينيه وهي تشبك يديها:

- سيّدي، كُن رحيمًا، فاليوم يومُ خطوبتك!

دار فيلفور حولَ الطّاولة، إلى أن دنا من مقعد الشابّة، فاستند إلى ظهره، وقال:

- اطمئنّي يا رينيه، إكرامًا لحبّك سأفعل كلّ ما يجب؛ لكن إذا ما كانت القرائن ثابتة والاتّهام صحيحًا، فلا مناص من قلع هذه العشبة البونابرتية الفاسدة.

ارتجفت رينيه وهي تسمع كلمة «اقتلاع»، لأنّ للعشبة التي ينبغي اقتلاعها رأسٌ.

قالت الماركيزة: - لا تنصت إلى هذه الفتاة الصّغيرة يا سيّد فيلفور، ستعتاد الأمر.

ثمّ مدّت إلى فيلفور يدًا جافّةً، قبّلها وهو ينظر إلى رينيه قائلًا بعينيه:

- إنّ يدك هي ما أقبّلُ؛ أو هي ما أريد أن أقبّل في هذه اللحظة.

غمغمت رينيه: - ما أحزنَه من وضع!

قال الماركيزة: - الحقّ أنّك ذات طبع طفوليّ لا رجاء إلى إصلاحه. إنّي لأسألك لمَ على مصلحة الدّولة أن تهتمّ لنزواتك العاطفية وحساسيات قلبك.

غمغمت رينيه: - أوّاه يا أمّي!

قال دو فيلفور: - اغفري للملكيّة السيّئة يا سيّدتي، وإنّي أعدك بأن أمارس مهمّتي نائبًا لوكيل الملك بكلّ ما يفرضه الضّمير، أي بقسوةٍ رهيبة.

لكن في الوقت نفسه الذي كان فيه رجل القضاء يوجّه إلى الماركيزة تلك الكلمات، كان الخاطب يرمي لخطيبته بنظرة مختلسة، نظرةٍ تقول: «اطمئنّي يا رينيه، إكرامًا لحبّك سأكون رحيمًا».

ردّت رينيه النّظرةَ بأعذب ابتسامة، فغادر فيلفور وفي صدره تورق الجنّة.

7

التحقيق

ما إن صار فيلفور خارج صالة الطّعام حتّى ألقى عن وجهه قناع البهجة ليتّخذ السحنة الجادّة، سحنة رجل مدعو إلى أخطر المهمات، مهمّة تقرير حياة واحدٍ من بني جنسه. لكن، على الرّغم من حركيّة سحنتِه، حركيّة كان قد تمرّن عليها غير ما مرّة أمام المرآة، مثلما هو حريٌّ بممثل بارع، إلا أنّه ألفى هذه المرّة مشقّة كبيرة في تقطيب حاجبيه وإلباس قسماته لبوس العبوس. فبصرف النّظر عن ذاك الخطّ السياسيّ الذي ينتهجه والده، والذي يتهدّده هو بقلب مستقبله، إن هو لم يبتعد عنه كلّ الابتعاد؛ قلنا بصرف النّظر عن ذلك، كان جيرار دو فيلفور، في هذه اللّحظة رجلًا سعيدًا، وُسعَ ما يستطيعه رجلٌ؛ ففضلًا عن كونه أصلًا ثريًّا، صار يشغل، وهو بعدُ في السابعة والعشرين من عمره، منصبًا مهمًا في سلك القضاء، وها هو على وشك الزّواج من شابّةٍ جميلة يحبّها، حبًا متّزنًا بلا إفراط، الحب الذي يقدر عليه نائب وكيل ملك؛ وفضلًا عن جمالها اللافت، كانت الآنسة سان مران تنتمي إلى عائلةٍ من أكثر العائلات قربًا إلى البلاط في عصرها؛ وعدا النّفوذ الكبير الذي يتمتّع به أبواها، والذي قد يخصّان به كليًّا صهرهُما، ما داما لم ينجبا غير رينيه، فإنّ الشّابة ستحمل إلى زوجها عطيّةً مبلغُها خمسون ألف قطعةٍ فضيّة[1]وقد يتضاعف المبلغ يومًا ما، بفضل الآمال المعقودة، ويا لها من عبارةٍ فظيعةٍ اخترعها مدبّرو الزّيجات، قلنا قد يتضاعف المبلغ بإرثٍ يناهز نصفَ مليون.

(1) كلّ قطعةٍ تساوي خمسة فرنكاتٍ.

كلّ تلك العناصر إذًا مجتمعةً كانت تشكّل بالنّسبة إلى فيلفور رضًا غامرًا، إلى درجة أنّه حين يتأمّل طويلًا حياته السّابقة بعين الرّوح، يخيّل إليه أنّه يرى بقعًا تشوّه الشّمس.

وعند الباب ألفى مفتّشَ الشرطة ينتظره. وقد هوى به مرأى الرّجل اللابس السّوادَ من علياء السّماء الثالثة إلى الأرض المادية التي نمشي فوقها؛ جهّمَ وجهه -كما أسلفنا- واقترب من ضابط القضاء قائلًا:

- ها أنا ذا يا سيّدي؛ لقد قرأت الرّسالة التي بعثتَ بها إليّ، وحسنًا فعلتَ إذ قبضت على هذا الرّجل؛ والآن أخبرني بكلّ التّفاصيل التي جمعتها عنه وعن المؤامرة.

- لا نعرف بعد شيئًا عن المؤامرة يا سيّدي، كل الأوراق التي وُجدت في حوزته حُزمت في حزمةٍ واحدة، وإنّها موضوعةٌ على مكتبك. أمّا المشتبه به، فكما علمتُم من رسالة الوشاية، يُدعى إدمون دانتِس، وهو نائب قبطان **الفرعون** السفينة الثلاثية الصواري، التي تتاجر بالقطن مع الإسكندرية وإزمير، وتملكها مؤسّسة موريل وابنه بمرسيليا.

- وقبل الخدمة بالبحرية التّجارية، هل عمل الرّجُل بالبحرية العسكرية؟

- أوه! كلاّ يا سيّدي؛ إنّه شابٌ لا يزالُ يافعًا.

- كم عمرُه؟

- تسعة عشر أو عشرون عامًا على الأكثر.

في تلك اللحظة، كان فيلفور قد وصل زاوية شارع المجالس، بعدما قطع شارع لاغراند، فبادره رجلٌ كان يبدو أنّه ينتظره: - كان ذلك السيّد موريل. وإذ لمح النائبَ صاح الرّجلُ الشّهم:

- آه! يا سيّد فيلفور! إنّي لسعيدٌ بلقائك. هل تتصوّر بأنّه قد وقع سوء فهم لا يصدّق، لقد قُبضَ على نائب قبطان سفينتي، السيّد إدمون دانتِس.

أجابَه فيلفور: - أعلم ذلك، فقد جئتُ أحقّق معه.

واصل موريل كلامه، وقد أخذته حماسة صداقته للشّاب:

- أوه يا سيّدي! إنّك لا تعرف المتّهم، لكنّي أعرفه حقّ المعرفة: تصوّر أشدّ الرّجال لُطفًا وأكثرهم استقامة، لا بل إنّي لأستطيع أن أزعم أنّه أعلم البحّارة التّجار بواجبه. يا سيّدي فيلفور، صراحةً إنّي أوصيك به من كلّ قلبي.

وكما قد رأينا فإنّ فيلفور ينتمي إلى طبقة النّبلاء من المدينة، بينما السيّد موريل من العامّة؛ وقد كان الأوّل ملكيًا متطرّفًا، بينما يتّهم الثاني باعتناق البونابرتية سرًّا. نظر فيلفور بتعالٍ إلى موريل، وأجابه ببرود:

- أنت تعلم يا سيّدي أنّ بوسع المرء أن يكون لطيفًا في حياته الشّخصية، وصادقًا في معاملاته التجارية، وعالمًا بمهنته، ومع ذلك مذنبًا كبيرًا على المستوى السياسي؛ أنت تعرف هذا، أليس كذلك يا سيد؟

وضغط القاضي على الكلمات الأخيرة، كأنّما يرمي بها إلى التاجر نفسه؛ بينما بدت نظرتُه المتفحّصة كأنّما هي تسعى إلى النّفاذ حتّى أعماق قلب هذا الرّجل الذي بلغت به الجرأة حدّ السّعي في خلاصٍ شخصٍ آخر، في حين هو نفسه بحاجةٍ إلى خلاص.

احمرّ وجه موريل، إذ لم يكن يحسّ ضميره صافيًا في ما يخصّ التوجّهات السياسية؛ ثمّ إنّ ما أسرّ به إليه دانتِس بخصوص لقائه مع الماريشال الأعظم والكلمات التي كان قد قالها الإمبراطور في حقّه، كانت تهزّ نفسَه بعض الشّيء، ومع ذلك أضاف بنبرةٍ حمّلها أعمق اهتمام:

- أرجوك يا سيّدي كُن عادلًا كما ينبغي لك، وطيبًا كما عهدناك دائمًا، **وأعد لنا** سريعًا المسكينَ دانتِس!

وقعت عبارة **أعد لنا** في أذن نائب وكيل الملك وقعًا ثوريًا، فقال بصوت خافت: «...هل يكون دانتِس هذا مرتبطًا بإحدى جماعات

الكاربوناري[1]، حتّى يستعمل حاميه، من دون أن ينتبه صيغة الجمع؟ لقد قال لي الضّابط، إن لم أخطئ، إنّهم قد قبضوا عليه في كباريه؛ وكان بصحبته جمع غفير: ربّما هو اجتماع».

ثمّ أضاف بصوتٍ عالٍ:

- يا سيّدي، تستطيع أن تطمئنّ تمامًا، إذا ما كان المتّهم بريئًا، فأنت لم تلتمس عدالتي عبثًا؛ أمّا إن كان مذنبًا، فنحن نعيش في زمن صعب، زمن سيكون فيه الإفلات من العقاب إجراءً مُهلكًا، ولا مناصَ، إذّاك، من أن أقوم بواجبي.

وعند هذا الحدّ، كان قد وصل إلى بيته الملاصق لقصر العدالة، دخل فيلفور بأبّهةٍ، بعدما حيّا الرّجل الشقيّ تحيّةَ أدبٍ باردةً، وخلّفه وراءَه ساكنًا كالمصعوق.

كانت الرّدهة مليئةً برجال الدرك والشّرطة؛ وفي الوسط كان المعتقلُ واقفًا ساكنًا وهادئًا، تحوطه نظراتُ الكره الصّاعقة.

قطع فيلفور الرّدهة، ورمى دانِتس بنظرة جانبية، وبعدما أخذ حزمة أوراقٍ ناوله إيّاها أحد رجاله، مضى قائلًا:

- أحضروا المعتقل!

وعلى الرّغم من أنّها كانت نظرةً خاطفةً جدًا، تلك التي ألقاها فيلفور على دانِتس، إلا أنّها مكّنته من تكوين فكرةٍ عن الرّجل الذي يوشك أن يحقّق معه: لقد استشفّ الفطنة في الجبهة العريضة المنبسطة، والشّجاعة في العين الثابتة والحاجب المقطّب، والصّراحة في الشّفتين المكتنزتين والمواربتين، بحيث تكشفان عن صفّين من الأسنان البيضاء بياض العاج.

---

(1) نسبة إلى الكاربوناريا «أو ومشعلي الفحم»، وهم جماعة سريّة إيطالية تأسّست في بدايات القرن التّاسع عشر لأغراض تحرّرية.

كان الانطباع الأوّل إذًا في صالح دانتِس؛ لكنّ فيلفور كان قد سمع كثيرًا، كحكمة سياسية بليغة، أنّه لا ينبغي أن ينقاد **للحركة** الأولى، وأن ينتظر **الحركة** المناسبة؛ وقد طبّق هذه القاعدة على **الانطباع**، من دون أن يكترث لما بين الكلمتين من اختلاف.

وكان أن كتم النوازع الطيّبة التي أوشكت أن تغمُر قلبَه، لتنقضّ على عقله، فعدّل أمام المرآة ملامحه، متّخذًا الملامح التي يتّخذّها في الأيام الجلَل، ثمّ جلس إلى مكتبه مكفهرًّا متوعّدًا.

لحظةً بعد دخوله، دخل دانتِس.

كان الشّابُ لا يزال شاحبًا، لكن هادئًا وباسمًا؛ وقد حيّا قاضيَه بأدبٍ طبيعي، ثمّ بحث بعينيه عن مقعد كأنّما هو في صالون التاجر موريل.

وإذّاك فقط التقت نظرتُه بنظرة فيلفور الكامدة، تلك النّظرة التي تميّز رجال القصر الذين لا يرغبون في أن يقرأ المرء ما يجول بفكرهم، ويجعلون من عيونهم زجاجًا غير صقيل. وقد أنبأته تلك النّظرة أنّه كان أمام العدالة، أمام الوجه ذي الملامح المظلمة.

«ما اسمك؟»، سأله فيلفور، وهو يقلّب المذكّرات التي سلّمه إيّاها الشرطيّ أثناء دخوله، والتي كانت قد صارت، منذ ساعةٍ، ضخمةً، لفرط ما يستغلّ الجواسيس الفرصة ويولون اهتمامًا بهذا الكيان الشقيّ الذي نسمّيه المستدعَى.

أجابه الشّاب بصوت هادئ ورنّان:

- اسمي إدمون دانتِس، يا سيّدي، وأنا نائب قبطان سفينة **الفرعون**، التي تعود ملكيّتها إلى السيّد موريل وابنه.

واصل فيلفور التحقيق:

- وسنّك؟

- تسع عشرة سنةً.

- ما الذي كنت تفعله حين قُبض عليك؟

أجاب دانتس بصوت شابه التأثّر، لفرط ما كان مؤلمًا التباينُ ما بين لحظات الفرح تلك، والمراسم الكئيبة التي تتشكّل الآن، وبقدر ما كان وجه السيّد فيلفور المظلم يجعل وجهَ مرسيدس يشعّ في كامل ألقه:

- كنت في وليمة خِطبتي.

قال النّائب منتفضًا رغمًا عنه:

- أَقلتَ وليمة خطبتك؟

- أجل يا سيّدي، إنّي على وشك الزّواج من امرأةٍ أحبّها منذ ثلاث سنوات.

وعلى الرّغم من أنّ فيلفور كان ذا طبع باردٍ، إلا أنّه لم يستطع كبح الأثر الذي خلّفته عليه هذه المصادفة؛ وقد أيقظت النبرةُ المتأثّرة لدانتِس الذي بوغتَ وسط فرحه خيطًا، جذوةً من التّعاطف في نفسه. هو أيضًا كان سعيدًا، فأتوا ينغّصون سعادته طالبين منه أن يساهم في تقويض فرح رجلٍ مثله كان يوشك أن يبلغ السّعادة.

فكّر في خاطره، أنّ هذه المقاربة الفلسفية سيكون لها بالغ الأثر على الحضور حين يعود إلى صالون السّيد دو سان مران؛ وكان قد انخرط، بينما ينتظرُ دانتِس أسئلةً أخرى، في تنظيم الكلمات الطباقية التي بفضلها يبني الخطباء تلك الجمل الطّامحة إلى تحصيل التّصفيق، والتي توهم أحيانًا في وجود بلاغة فعلية.

وحين أكمل تنظيم خطبته الدّاخلية، ابتسم فيلفور متأثّرًا بذلك، ثمّ عاد نحو دانتس قائلًا: - واصل يا سيّدي.

- ماذا تريدني أن أواصل؟

- واصل تنويرَ العدالة.

- لتُبيّن لي العدالةُ أيّ نقطةٍ تريد منّي تنويرَها بخصوصها، وسأقول كلّ ما أعرفُه؛ (ثمّ أضاف مبتسمًا) على أنّها ينبغي أن تعلم أنّي لا أعرف الشّيء الكثير.

- هل خدمتَ الغاصبَ؟

- كنت على وشك الالتحاق بالبحرية العسكرية حين سقط.

قال فيلفور: - يُقال إنّ لك آراء سياسية متطرّفة (ولم يكن قد قيل له شيء من ذلك، إلا أنّه لم يجد غضاضة في أن يطرح السؤال في شكل اتّهام).

- آرائي السياسية؟ وا أسفًا، يا سيّدي! أكادُ أخجل ممّا سأقوله، لكنّي لم يكن لديَّ يومٌ ما يسمّى رأيًا. سنّي لا يتجاوز التاسعة عشرةَ، مثلما تشرّفت بالقول لك. ولا أعلم شيئًا، لستُ مؤهّلًا للعبِ أيّ دور؛ وما القليل الذي بلغتُه أو سأبلغه إلاّ ممّا تفضّل عليّ به السّيّد موريل. أمّا آرائي، التي لن أسمّيها سياسيّةً، فتتلخّص كلّها في ثلاثة مشاعر: - أحبّ والدي، وأقدّر السيّد موريل، وأعشق مرسيدس. هوَذا يا سيّدي كلّ ما أستطيع أن أقولَه لعدالتكم؛ وأنت ترى أنّه ليس بالشّيء الذي قد يثير اهتمام السياسة.

وبقدر ما كان دانتِس يوغل في الكلام، بقدر ما كان فيلفور يتأمّل وجهه العذب والمنشرح في آن، فتعود إلى ذاكرته كلمات رينيه التي، من دون أن تعرف المتّهم، التمست له الرّحمة. وبالدّربة التي اكتسبها النّائب من مخالطة الجريمة والمجرمين، أخذت تتشكّل أمامه دلائل براءة دانتِس. الواقع أنّ هذا الشّاب، بل بوسعنا تقريبًا أن نقول هذا الطّفل، البسيط، الطبيعي، ذي القلب الفصيح تلك الفصاحة التي لا نبلغها قطّ حين نسعى خلفها، المفعم بالعطف تُجاه الجميع، لأنّه كان سعيدًا، ومن شأن السّعادة أن تقلبَ الأشرارَ أنفسهم خيّرين، يغمر حتّى قاضيَهُ نفسه بالدماثة العذبة التي تفيض من قلبه. إدمون لم يكن يحمل في نظرته، أو صوته، أو حركاته، مهما أبدى تُجاهه فيلفور من قسوة وعنفٍ، إلا لُطفًا وطيبةً لذاك الذي يحقّق معه.

قال فيلفور في نفسه: «إلهي، يا له من شاب ودود! ولن أواجه عناءً

في أن ألبيَ لرينيه أوّل التماس تلتمسه منّي وسأفوز منها بمصافحة أمام الجميع، وبقبلةٍ عذبةٍ حين نختلي في مكانٍ ما».

وأشرق وجه فيلفور لتلك الخاطرة السّابقة؛ حتّى إنّه حين عاد إلى النّظر نحو دانتِس، كان دانتِس، الذي تابع تغيّر تعابير القاضي كلّها، يبتسمُ ابتسامَ خواطِره.

قال فيلفور: - وهل لديك أعداءٌ يا سيّد؟

أجابه دانتِس: - أعداءٌ لي! إنّي محظوظ بأن لا أتبوّأ مكانةً تجعلُ لي أعداءً. أمّا طبعيَ الحاد، فلطالما سعيت إلى التخفيف من حدّته تُجاه مرؤوسيَّ. إنّ تحت إمرتي عشرة نواتيّة أو اثني عشر، فلتسألوهم يا سيّدي، وسيخبرونكم أنّهم يحبّونني ويحترمونني، لا كما يُحترمُ الأبُ، فأنا أصغر سنًا من ذلك، وإنّما كأخ أكبر.

- لكن، إن غاب الأعداء، فقد يحضرُ الحسّاد. أنتَ مُقبل على أن تصير قبطانًا وأنت بعدُ في التاسعة عشرة من عمرك، وإنّه لَمركزٌ رفيع بالنّسبة لأمثالك؛ وستتزوج امرأة جميلةً تحبّك، وهو حظٌّ قلّما يصيبُه المرء. لربّما كان هذا الحظّ المزدوج الذي أصابك سببًا في أن يصير لديك حسّادٌ.

- أجل، أنت محقٌّ. أنت أخبَرُ بالنّاس منّي، وما قلتَهُ ممكنٌ؛ لكن إذا ما كان هؤلاء الحسّادُ من أصدقائي، فإنّي أفضّل ألا أعرفهم، لئلاّ أضطرّ إلى كرههم.

- أنتَ مخطئٌ يا سيّدي. ينبغي للمرء دائمًا أن يسعى ما أمكنَه إلى النّظر بوضوح حوله؛ والحقّ، إنّي لأرى فيك شابًا شهمًا، إلى درجة أنّي سأبيّن لك بعضَ قوانين العدالة الاعتيادية، وأعينك على توضيح الأمور بجعلك ترى الوشاية التي ساقتك إلى هنا: - هاكَ الورقةَ التي كُتب عليها صكّ اتّهامك؛ هل تبيّنتَ الخطّ؟

ثمّ إنّ فيلفور أخرج الرّسالة من جيبه وقدّمها إلى دانتِس. نظر فيها دانتِس وقرأ. اغتمّ جبينُه، وقال:

- كلاّ يا سيّدي، لم أتعرّف الخطّ؛ إنّه خطٌّ مموّه، ومع ذلك كتب بطريقةٍ واضحة. لقد كتبته يدٌ دربةٌ على أيّة حالٍ. (ثمّ أضافَ وهو ينظر إلى فيلفور بامتنانٍ) والحقّ أنّي سعيدٍ لأنّ الرّسالة انتهت إلى رجلٍ مثلك، لأنّ حاسدي عدوٌّ فعليّ.

وفي البريق الذي عبَر عيني الشّاب وهو ينطق تلك الكلمات، استطاع فيلفور أن يستشفّ ما يتوارى خلف الرّقَة الظّاهرة من طاقةٍ عنيفة.

قال النّائب: - والآن أجبني صراحةً، لا كما يجيبُ متّهمٌ قاضيَه، وإنّما كرجلٍ في وضعية خطإٍ يجيبُ رجلًا آخر يهتمّ لأمره: - ما الحقيقي في هذه الوشاية المجهولة؟

ونظر فيلفور باشمئزازٍ إلى الرسّالة الموضوعة على المكتب، التي أعادها إليه دانتِس منذ لحظة.

- كلّ ما فيها حقيقيٌّ، ولا شيء فيها حقيقي يا سيّدي. وها هيَ الحقيقة خالصةً، أقسمُ عليها بشرفِ البحّار، وبحبّي لمرسيدس، وبحياة أبي.

قال فيلفور بصوت عالٍ: - هيّا تكلّم! (ثمّ أضاف بصوتٍ خفيض) لو كان بإمكان رينيه أن تراني، فأرجو أن ترضى لفعلي، وتكفَّ عن نعتي بِقطّاعِ الرّؤوس!

- حسنًا، أثناء مغادرتنا نابولي، أُصيب القبطان لوكلير بالتهاب السّحايا؛ ولأنّه لم يكن ثمّة طبيبٌ معنا على السّفينة، ولرفضه الرسوّ على أيّ من المناطق التي عبرناها، إذ كان متعجّلًا بلوغ جزيرة إلبا، فقد تفاقم مرضه، حتّى إنّه عند نهاية اليوم الثالث، وقد أحسّ بدنوّ أجله، طلب رؤيتي، وقال لي: - عزيزي دانتِس، أقسم لي بشرفك أنّك ستفعل ما أطلبه منك. فهو أمرٌ بالغ الأهميّة.

وأجبتُه: - أقسمُ لك يا قبطان.

فقال: - بما أنّ قيادة السّفينة ستؤول إليك بعد موتي، بصفتك نائبًا للقبطان، فقدها إلى جزيرة إلبا، وانزل ببورتو-فرّايو، واطلُب هناك

الماريشال الأكبر، وأعطِه هذه الرّسالة. ولربّما كلّفك هو بحمل رسالة أخرى. لقد كنتُ منذورًا للقيام بهذه المهمّة، والآن ستقوم بها أنت بدلاً منّي، وتفوز بالشّرف كلّه.

- سأنفّذ أوامرك يا قبطان، لكن لربّما لن يكون من السّهل مقابلة الماريشال الأكبر كما تقول.

فقال لي القبطان: - هاك خاتمًا توصلُه إليه، فيكون مفتاحًا لكلّ الأبواب.

ثمّ أعطاني خاتمًا.

وكان وقتُه قد حان. فما هي إلا ساعتين حتّى ركبَه الهذيانُ، وفي اليوم التالي توفي.

- وماذا فعلتَ؟

- فعلت ما يمليه عليّ واجبي يا سيّدي، وما كان ليفعله أيٌّ كان، لو أنّه وجد نفسَه مكاني. في جميع الأحوال، طلبات المحتضر مقدّسة؛ وفي شِرعة البحّارة تُعدُّ طلبات الرئيس أوامر ينبغي أن تُنفّذَ. وجّهت السّفينة إذًا شطرَ جزيرة إلبا، فوصلتُها في اليوم التالي، وهناك نزلت البرَّ وحدي بعدما أمليت على جميع من بالسّفينة التّوجيهات. وكما توقّعتُ، واجهتُ صعوبات في الوصول إلى الماريشال الأكبر؛ لكنّي أرسلت إليه بالخاتم الذي كان من المفروض أن يكون علامةً تعرّفه بي، ففُتحت أمامي كلّ الأبواب. استقبلني، وسألني عن ملابسات موت المسكين لوكلير. وكما توقّع القبطان، سلّمني رسالةً كلّفني أن أوصلَها بنفسي إلى باريس. وعدتُه بأن أفعل تنفيذًا لوصيّة قبطاني. ثمّ لمّا نزلت البرّ أنجزتُ سريعًا كلّ أمور السّفينة؛ ثمّ هرعت إلى زيارة خطيبتي، فوجدتُها أجمل وأشدّ تولّهًا من ذي قبل. وبفضل السيّد موريل تجنّبنا كلّ التّعقيدات الكنسيّة؛ وفي الأخير كنت أحضرُ، كما أخبرتكم، وليمة خِطبتي. كنت سأتزوّج بعد ساعةٍ، وأنوي السّفر إلى باريس غدًا، فإذا بي أُعتقل بسبب هذه الوشاية التي يبدو أنّكم الآن تحتقرونَها قدرَ احتقاري إيّاها.

قال فيلفور همسًا:

- بلى، كلّ هذا يبدو لي منطقيًا، وإذا ما كنتَ مذنبًا، فجريمتُك هي المشاركة بغير قصد؛ بلِ إنّ مشاركتُك نفسها مشروعةٌ لأنّها أوامر قبطانِك. سلّمنا الرّسالةَ التي أُعطيتها في جزيرة إلبا، وتعهّدْ بأنّك ستحضر ما إن تُستدعى، وسيكون بمستطاعك العودة إلى أصدقائك.

صاح دانتِس وقد غمره الفرح:

- أنا إذًا حرّ يا سيّدي!

- أجل، فقط سلّم الرّسالةَ.

- لا بدّ أنّها أمامك يا سيّدي؛ فقد أُخذت مع أوراقي الأخرى، وأستطيع تبيّن بعضها في هذه الحزمة.

قال النّائب لدانتِس الذي همّ بأخذ قبّعته وقفّازَيه:

- حسبُك! لمن كانت الرّسالةُ موجَّهةً؟

- إلى السيّد نوارتييه، شارع كوك إيرون، في باريس.

ولو أن صاعقةً نزلت على رأس فيلفور لما كان أثرها بهذه المفاجأة والسّرعة. تهاوى على مقعده الذي كان قد قام منه، نصفَ واقفٍ، كي يبلُغ حزمة الأوراق التي حُرّزت من عند دانتِس، وإذ تفحّصها سريعًا، استلّ منها الرّسالة الخطيرة وألقى عليها نظرةً يهيمنُ عليها رعبٌ لا يوصف.

كرّر هامسًا ولونه يزداد شحوبًا: - شارع كوك إيرون، رقم 13.

أجابه دانتِس دهشًا: - أجل سيّدي، أوَتعرفُه؟

أجاب فيلفور، وهو يواصل القراءة والشّحوب: - كلّا، لا أعرفه. إنّ خادمًا مخلصًا لا يمكن أن يعرف المتآمرين.

قال دانتِس وقد بدأ يغشاه رعبٌ أشدّ من رعبه الأول، من بعد ما كان قد ظنّ نفسه نجا: - أهيَ مؤامرةٌ؟ على أيّة حالٍ يا سيّدي، أنا لم أكن أعلم فحوى الرّسالة التي كنت أحملها، كما سبق وأخبرتكم.

استطردَ فيلفور بصوتٍ أبكم: - أجل، لكنّك تعرف اسمَ المرسل إليه!

- كان ينبغي أن أعرف لأستطيع إيصالها إليه من دون غيره.

قال فيلفور وهو يواصل قراءة الرّسالة فيزداد شحوبًا: - هل أريتَ الرّسالةَ أحدًا؟

- لم يرها أحدٌ يا سيّدي بشرفي!

- والجميع يجهلُ أنّك كنت تحمل رسالةً من جزيرة إلبا إلى السيّد نوارتييه؟

- الجميع يا سيّدي، باستثناء من كلّفني بحملها.

غمغم فيلفور: «وهذا أصلًا كثير!».

ظلّ جبينُ فيلفور يكفهرّ بقدر ما كان يتقدّم في القراءة نحو النّهاية؛ وكانت شفتاه الشّاحبتان، ويداه الرّاجفتان، وعيناه المتّقدتان، تزرع في نفس دانتِس أشدّ المخاوف إيلامًا.

وبعد أن فرغ من القراءة، ترك رأسَه يهوي على يديه، وبقيَ لحظةً كالمنكوب.

سأله دانتِس بتردّد: - يا إلهي! ماذا هنالك يا سيدي؟

لم يحر فيلفور جوابًا؛ لكنٍ بعد لحظاتٍ رفعٍ رأسه شاحبًا متغيّرًا. ثم ما لبث أن استأنفَ الكلام: - أَقُلتَ إنّك لا تعرفُ فحوى الرّسالة؟

- بشرفي، أكرّر: - إنّي لا أعرف. لكن يا إلهي، ما بك يا سيّدي! يبدو أنّك لست على ما يرام؛ هل تودّ أن أقرع الجرس، أو أنادي أحدًا؟

أجابه فيلفور وهو يقوم من مقعده بحركّة سريعة: - كلا يا سيّدي، لا تتحرّك من موضعك، ولا تقُل كلمة: أنا هنا من يعطي الأوامرَ وليسَ أنتَ.

قال دانتِس وقد شعر بالإهانة: - إنّما أردتُ المساعدة، وهذا كلّ ما في الأمر.

- لا أحتاجِ مساعدة؛ ما هي إلا دوخة عارضةٌ، ولا شيء غير ذلك: اهتمّ لشؤونكَ وليسَ لأمري، وأجب.

ظلّ دانتِس يترقّب الاستجواب الذي يفترض أن يجيب عنه، ولكن سدىً. لقد تهاوى فيلفور مجدّدًا على مقعده، ومرّر يدَه المتجمّدة على جبينِه المتصبّب عرقًا، وعاد يقرأ الرّسالةَ مرّة ثالثة.

غمغم في سرّه: «أوّاه! لو أنّه اطّلع على فحوى الرّسالة، فعلمَ أنّ نوارتييه هو والدي، لضعتُ، لضعتُ إلى الأبد!».

وبين الفينة والأخرى كان ينظرُ إلى دانتِس، نظرةً كأنّما يسعى بها إلى كسر الطّوق اللامرئيّ الذي يخفي في القلب الأسرار التي يسكت عنها الفمُ.

وفجأةً صاح: «أوه! لنقطع الشكّ باليقين!».

فصاح الشابّ الشقيّ: - بحقّ السّماء يا سيّدي! إن كُنتَ تشكّ فيّ، وتشتبه في أمري، فاسألني، إنّي جاهزٌ للإجابة.

ضغط فيلفور على نفسه ما وسعه، وبنبرة سعى إلى جعلها واثقةً قال:

- سيّدي، إنّ التهمَ الأثقل بالنّسبة إليك، هي تلك التي ظهرت أثناء التحقيق، لذا لستُ أنا سيّد القرار كما كنتُ أرجو في البداية، لا أستطيع اتّخاذ قرار إطلاق سراحك قبل أن أراجعَ قاضي التحقيق. في انتظار ذلك، أنت ترى الطّريقة التي عاملتُك بها.

صاح دانتِس: - أوه! نعم يا سيّدي، إنّي لأشكُرك لأنّك كنتَ ليَ صديقًا أكثر من قاضٍ.

- وعليه يا سيّدي، أنا مضطرٌ إلى استبقائك محبوسًا معنا لبعض الوقت، وسأحرص ما أمكنني على جعله أقصرَ وقتٍ ممكن؛ إنّ الشيء الوحيد الذي قد يدينُك هو هذه الرّسالة، وها هي ذي كما ترى...

ثمّ دنا فيلفور من المدفأة، وألقى فيها بالرّسالة، واستمر يراقبها إلى أن صارت رمادًا.

واستأنفَ كلامَه: - كما ترى، ها قد أعدمتُها.

صاح دانتِس: - أوه يا سيّدي! أنت لست العدالةَ فحسب، وإنّما أنت الطّيبةُ!

واصل فيلفور الكلام: - لكن اسمع، بعد ما قمتُ به، هل أدركتَ أنّك تستطيع الوثوق بي؟

- وكيف يا سيدي! مُرني وسأنفّذ!

قال فيلفور وهو يقترب من الشّاب: - كلّا، هي ليست أوامرَ وإنّما نصائح.

- أخبرني، وسأنفّذها كما لو كانت أوامرَ.

- سأستبقيك حتّى المساء هنا، في قصر العدالة؛ ولربّما أتى غيري يحقّق معك: - قل له كلّ ما قلت لي، لكن لا تذكر أبدًا أمرَ الرّسالة.

- أعدك بذلك يا سيّدي.

كان يبدو أنّ فيلفور هو من يرجو، وكان المتهّم هو من يطمئنُ القاضي.

قال النّائب وهو ينظر جهة الرّماد حيث كانت لا تزال تتطايرُ بعض الشّرارات: - هل تفهم؟ الآن صارت الرّسالة عدَمًا، وأنا وأنت وحدنا نعلمُ أنّها كانت موجودة؛ لن يعرضها عليك أحدٌ بعد. أنكِر وجودها إذًا إن سُئلتَ عنها، أنكر وستنجو.

أجابه دانتِس: - سأنكر يا سيدي، اطمئنّ.

قال فيلفو وهو يهمّ بقرع جرس: - حسنًا، حسنًا!

ثمّ ما لبث أن توقّف لحظةَ القرع، وسأل: - هل كانت تلك الرّسالة الوحيدة التي بحوزتك؟

- الوحيدة.

- أقسِم!

رفع دانتِس يده وقال: - أُقسم.

قرع فيلفور الجرس. فدخل ضابط الشّرطة.

اقترب فيلفور من الضّابط وأسرّ في أذنه بكلمات؛ أجابه الضّابط بإيماءة من رأسه.

ثمّ قال فيلفور لدانتِس: - رافق السيّد.

انحنى دانتِس، وألقى نظرةَ امتنانٍ أخيرةً لفيلفور، ثمّ غادر.

وما إن انغلق الباب خلفَه، حتّى خارت قوى فيلفور، وهوى فوق المقعد مغشيًا عليه.

ثمّ بعد برهة قال مغمغمًا: «أوه يا إلهي! ما أوهى حبالَ الحياة والحظّ! لو أنّ وكيل الملك كان في مرسيليا، أو أنّ قاضيَ التّحقيق استدعيَ بدلًا منّي، لكنتُ ضعتُ؛ تلك الورقة، تلك الورقة الملعونة كانت لتُلقي بي إلى الهاوية. آه! يا أبي، هل ستظلّ إلى الأبد حجرة عثرةٍ في طريقي؟ وهل قيّض لي أن أصارع ماضيك ما حييتُ!».

ثمّ فجأةً، عبرَ ذهنَه شعاعُ نورٍ غير متوقّع، فأضاء وجهه؛ وارتسمت ابتسامةٌ على فمه الذي كان لا يزال متشنّجًا، وصارت عيناه ثابتتين كأنّما هما قد توقّفتا لفحص فكرةٍ ما.

قال لنفسه: «هوذا؛ لعلّ تلك الرّسالة التي كانت ستقضي عليّ، هي ما ينبغي أن يكون بابَ سعدي. هيّا يا فيلفور، إلى العمل!».

وبعدما تأكّد من أنّ المتّهم لم يعُد في الرّدهة، غادر نائب وكيل الملك بدوره المكتبَ، وهرع إلى منزل خطيبته.

8

قلعة إيف

أثناء المرور بالرّدهة، أومأ ضابط الشّرطة بإشارةٍ إلى شُرطيّين، فاتّخذا موضعهما، واحدٌ عن يمين دانتِس والثّاني عن شماله؛ فتحوا بابًا يصل مقرَّ نائب الملك بقصر العدالة، وساروا مدّةً في تلك الأروقة المعتمة التي تجعل من يمرّ فيها يرتعد، حتّى وإن لم يكن لديه جريرةٌ تستحق أن يرتعد لها.

ومثلما كان هنالك ممرٌّ يصل مقرَّ نائب الملك بقصر العدالة، كان ثمّة ممرّ يصل قصر العدالة بالحبس، تلك البناية المظلمة الملاصقة لقصر العدالة، والتي ينظر إليها بفضولٍ، من كلّ فتحاتها المشرعة، جرسُ كنيسة أكوول الذي ينتصب أمامها.

وبعدما لفّوا مرّاتٍ عديدة في الرّدهة التي يقطعونَها، رأى دانتِس بابًا يفتحُ، وكان بالباب شبّاكٌ حديدي؛ طرق الضّابط البابَ بمطرقةٍ حديدية ثلاث طرقاتٍ أحسّها دانتِس كأنّما طُرقت على قلبه؛ انفتح البابُ، ودفع الشّرطيانِ برفقٍ السّجينَ الذي كان لا يزالُ متردّدًا. خطا دانتِس العتبة الرهيبة، وانغلقَ الباب بعنفٍ خلفَه. استنشقَ هواءً مغايرًا، هواءً نتنًا وثقيلًا. لقد صار في السّجن.

اقتادوه إلى زنزانةٍ نظيفة، لكنّها كانت مسيّجةً ومقفلة؛ فكان أن طمأنَته هيئةُ مُقامِه. ثمّ إنّ كلمات نائب وكيل الملك، التي كان قد نطقها بنبرةٍ بدت لدانتِس مفعمةً بالاهتمام، كانت تتردّد في أذن دانتِس مثل وعدِ أملٍ عذب.

كان الوقت قد بلغ الرّابعة حين اقتيدَ دانتِس إلى غرفتِه. وكان التاريخ، كما أسلفنا، فاتحَ مارس، لذا سرعانَ ما ألفى السّجينُ نفسَه في الظّلام.

وإذّاك ارتفع عنده حسُّ السّمَع، بقدر ما خمد حسّ البصر. ومع أدنى صوتٍ يتناهى إليه، كان يوقنُ في أنّهم قادمون يخلّصونه، فيقوم بسرعة، ويخطو خطوةً نحو الباب؛ لكن سرعان ما يمضي الصوت ذاويًا في اتّجاهٍ آخر، فيتهاوى دانتِس على مصطبته.

ثمَّ حوالى العاشرة مساءً، وفي الوقت الذي بدا فيه دانتِس يفقد الأمل، سُمع صوت جديدٌ، بدا هذه المرّة أنّه يتقدّم صوبَ غرفته. وبالفعل، سُمع وقع أقدامٍ في الرّدهة، ثمّ توقّفَ عند الباب؛ دار مفتاحٌ في القفل، وصرّت المغاليقُ، ثمّ انفتح الحاجز العظيمُ المصنوع من خشب السّنديان، شاقًّا عن مصباحين يلمعان بوهجٍ في عتمة الغرفة.

وفي ضوء المصباحينً تبيّن دانتِس بريق سيوف وحراب أربعة دركيّين.

تقدّم خطوتين إلى الأمام، ثمّ لبث ساكنًا حين رأى عدد القواتِ الكبيرَ. سألهم:

– هل أتيتم تأخذونني؟

فأجابه أحد الدركيّين: – نعم.

– أرسلكم السيّد نائبُ وكيل الملك؟

– أظنُ ذلك.

– حسنًا، أنا جاهزٌ لأتبعكم.

طغى يقينُ الشّاب التعيس في أنّ السيّد فيلفور قد أتى يطلبُه، على كلّ خوف. فتقدّم هادئَ النّفس، متحرّر الخطى، وتمَوْضعَ بنفسه وسط حرّاسه.

كانت عربةٌ تنتظر عند مدخل الشارع، وكان الحوذي يجلس على مقعده، وبجانبه ضابط حرّ[1].

سأل دانتِس الدركيّين: – أهذه العربةُ لأجلي أنا؟

---

(1) الضّابط الحرّ: كان في ما مضى رتبةً عسكرية، وظيفتُه تعويض النقيب والملازمين في حال غيابهم، ويسمّى حرّ لأنّه غير ملزمٍ بأيّ التزامٍ عسكريّ.

فأجابه أحدهم: - أجل، إنّها لأجلك، هيا اركب!

أراد دانِتِس أن يُعلّق، لكنّ باب العربة فُتح، وأحسّ بهم يدفعونه، وهو لم تكن لديه إمكانية، ولا حتّى نيّةُ، المقاومة. وما هي سوى بُرهة حتّى ألفى نفسه جالسًا داخل العربة، محشورًا بين دركيّين، بينما جلس الاثنان الآخران في المقعد أمامه، ثمّ انطلقت الآلة الثقيلة مصدرةً ضجيجًا كئيبًا.

ألقى السّجينُ نظره على فتحاتِ العربة، كانت مسيّجة. لم يحدث سوى أنّه بُدِّلَ السّجنَ؛ لكنّ هذا الحبس الجديد، كانَ حبسًا متحرّكًا، حبسًا يحمله إلى وجهةٍ مجهولة. وعبر القضبان الضيّقة التي بالكاد تمرّ بينها اليدُ، عرف دانِتِس أنّهم يسيرون على امتداد شارع كِيسري، وعبر شارعَي سان لوران وتارامي يهبطون صوبَ الرّصيف.

ثمّ ما لبث أن لمح، عبر قضبان العربة، وقضبان البناية التي كان بالقرب منها، أضواء الحجز تلمع.

توقّفت العربة، نزل الضابط الحرّ واقترب من الحرس؛ خرجت دستةُ جنودٍ وانتظمت في صفّين. وفي ضوء مصابيح الرّصيف رأى دانِتِس بنادقهم تلمع.

تساءل في نفسه: «أمن أجلي حشدوا كلّ هذه القوّة العسكرية؟».

أجابه الضابط الحرّ من دون أن ينطق كلمةً، إذ فتح البوابة التي كانت مغلقة بالمفتاح، فرأى دانِتِس الصّفَّين ينفرجان عن طريقٍ أُعدّت وللعربة، طريقٍ تصل إلى الميناء.

نزل من العربة أوّلًا الدركيّان اللذان كانا يجلسان في المقدّمة، ثمّ أُنزلَ هوَ ولحق به الدّركيّان اللذان كانا يحفّان به. ساروا باتّجاه مركب كان يمسكه أحد بحّارة الجمارك مقيّدًا بسلسلة إلى الرّصيف. تابع الجُندُ دانِتِس وهو يمرّ بينهم بعيون يملأها فضول ذاهل. وفي لحظة أُركبَ دانِتِس في مؤخّر المركب، بين أربعة دركيّين، بينما اتّخذ الضّابط الحرّ موضعه في مقدّم المركب. رجّةٌ هائلةٌ أبعدت المركب عن الرّصيف،

وصار أربعة مجدّفين إلى التّجديف، فأطلقت السلسلة التي كانت تشدّه إلى الميناء، ووجد دانِتس نفسه في المنطقة التي تسمّى فريولي، أي خارج الميناء.

وكانت أوّل ردّة فعل تندّ عن السّجين إذ استنشقَ مجدّدًا هواء الحريّة، هي الفرحُ. الهواء يكادُ يساوي الحريّة؛ لذا عبَّ الهواءَ مِلءَ رئتيه من ذاك النّسيم الحيوي الذي يحمل على أجنحته كلّ روائح الليل والبحر المجهولة. لكنّه لم يلبث أن زفرَ متحسّرًا، إذ مرّوا من أمام الحانة التي كان فيها سعيدًا صباح اليومَ نفسه، إبّانَ السّاعة التي سبقت توقيفه، ومن خلال فرجةٍ متوقّدة بين نافذتين، تناهى إليه ضجيج حفلٍ راقصٍ صاخب.

ضمّ دانِتس يديه، ورفع عينيه إلى السّماء وصلّى.

كان القارب يواصل طريقه؛ وقد تجاوزَ رأس الموت، وصارَ قبالةَ جَوْنِ[1] فارو؛ وكان يستعدُّ لتجاوز السّارية العسكرية، وتلك عمليةٌ استعصى على دانِتس فهمُها.

سأل أحدَ الدركيّين: - إلى أين تأخذونني؟

- ستعرفُ بعد حين.

- لكن...

- يمنع علينا إخبارُك بأيّ شيء.

كان دانتِس نصفَ عسكريّ؛ وقد أدرك أنّه من العبث أن يسألَ من هم أعلى منه رُتبةً، خاصّةً وأنّه قد مُنع عليهم الإدلاء بأيّ شيء، فسكتَ.

إذّاك عبرت ذهنَهُ أغربُ الخواطر: - لمَ يقطعونَ رحلةً بهذا الطّول في قارب كهذا؟ وبما أنّه لم يكن في الجانب الذي يقصدونَه، أيّ سفينةٍ راسية، فقد فكّر في أنّهم سينزلونَه عند نقطة بعيدة من الشاطئ، ويقولون له: - أنت حرّ؛ لم يكن مقيّدًا، وما حاولوا أبدًا أن يصفّدوا يديه، بدا له

---

(1) الجَونُ هو الخليج الصّغير.

ذلك أمرًا مريحًا؛ ثمّ ألم يقل له النّائب، الذي كان رفيقًا به، إنّه لا ينبغي أن يخشى شيئًا ما دام لم ينطق بالاسم الرّهيب، اسم نوارتييه؟ ألم يعدم فيلفور أمامه الرّسالةَ الخطيرة، القرينة الوحيدة التي كان من الممكن أن تدينه؟

ظلّ إذًا يترقّب، صامتًا متفكّرًا، محاولًا أن يخترق عتمة الليل بعينِه، عين البحّار الدّربة على الظلمات والمعتادة على الفضاء.

كانوا قد تركوا عن يمينهم جزيرة راتونو، حيث يتّقدُ فنارٌ، وأخذوا يسيرون بمحاذاة الساحل تقريبًا، حتى بلغوا مستوى جَونَ الكَتالان. وهناك ضاعفت عينا السّجين طاقتهما. فهناك كانت مرسيدس، وقد خُيّل إليه في كلّ لحظةٍ أنّه يلمح على الشّاطئ البهيم هيئةَ امرأةٍ مبهمةً وغيرَ واضحة المعالم.

كيف لا ينتابُ مرسيدس شعورٌ بأنّ حبيبها يمرّ على بعد ثلاثمائة قدمٍ منها؟

كانَ في حيّ الكتالان ضوءٌ واحدٌ يلمع. وقد عرفه دانتِس من موقعه. كانَ ضوءَ غُرفة خطيبته. وحدها مرسيدس كانت ساهرةً في حيّ الكتالان كلّه. ولو أنّه أطلق صيحةً عظيمةً لأمكنها أن تسمعه.

لكنّ خوفًا زائفًا من العار لجمَه. ماذا عساهم يقولون عنه، هؤلاء الرّجال، إن رأوه يصرخ كالممسوس؟ فكان أن ظلّ صامتًا وعيناه مثبتتان على ذلك النّور.

أثناء ذلك كان القاربُ يواصل المسير؛ بينما بالُ السّجين مشغولٌ عن القارب، مشغولٌ بمرسيدس.

ثمّ ما لبث الضوء أن اختفى خلف أحد التضاريس. فاستدار دانِتس وتنبّه إلى أنّ القارب يسير في عرض البحر.

بينما كان ينعم النّظرَ، غارقًا في فكَره، أرخوا القلوع، وصار الزورق يمخُر العبابَ مدفوعًا بالرّيح بدلًا من المجاذيف.

وعلى الرّغم من النّفور الذي يحسّه دانتِس في نفسه من سؤال الدركيّ سؤالًا آخر، إلّا أنّه اقترب منه وأمسك بيده قائلًا:

– أيّها الرّفيق. باسم ضميرك وانتمائك العسكريّ، أستحلفك أن تجيبني. أنا القبطان دانتِس، فرنسيٌّ شريفٌ ومخلِص، مُتّهمٌ بخيانةٍ لست أدري ما هي! إلى أين أنتم ماضون بي؟ أخبروني، وأقسم لكم، بشرف البحّارة، أنّي سأسلّمُ بمصيري.

حكّ الدركيّ أذنه، ونظر إلى زميله. فردّ عليه ذاك بإيماءة مفادُها تقريبًا: – بالنّظر إلى أين صرنا الآن، لا أرى مانعًا من أن تُخبره، فاستدار الأوّل شطر دانتِس وقال:

– أنت بحّار مرسيليٌّ، وتسألني إلى أين مسيرُنا؟

– نعم، لأنّي بشرفي لا أعلمُ.

– ألا تشكّ في شيء؟

– بالمرّة.

– مستحيل.

– أقسم لكم بأقدس ما في الوجود. أجيبوني، رأفةً!

– والتعليمات؟

– إنّ التعليمات لا تمنعكم من أن تطلعوني على ما سأعرفه بعد عشر دقائق، أو نصف ساعةٍ، أو ربّما ساعة. فقط ستجنّبونني الآنَ وهُنا، قرونًا من القلق. أسألك، وكأنّما أسأل صديقًا، انظُر: إنّي لا أنوي لا التمرّد ولا الهرب؛ ثمّ كيف لي أن أقدر! إلى أين نحن ذاهبون؟

– المفروض أن تعرف إلى أين نحن ذاهبون، اللهم إلاّ إذا كانت عيناك معصوبتين أو كنت ممّن لم يغادروا ميناء مارسيليا قطّ؟

– كلاّ.

– اُنظر حولَك.

وقف دانتِس، ووجّه بصرَه تلقائيًا إلى الاتّجاه الذي كان يبدو أنّ

المركب يقصده،على بعد مائة متر أمامهم كانت ترتفع شامخةً الصّخرةُ السوداءُ الكأداء، وفوقها كانت تنتصبُ كقطعة صوانٍ نائئة قلعةُ إيف المظلمة.

تلك الهيئة المنكرة، ذاك السّجنُ الذي يحوم حوله رعبٌ مهول، تلك القلعةُ التي منذ ثلاثمائة سنةٍ ومرسيليا تعيش على تقاليدها الكالحة، انبثقت فجأةً أمام دانتِس في حين لم يكن هو يفكّر فيها بالمرّة، فكان أثرُها عليه كأثر المشنقة على المحكوم بالإعدام.

صاح: - آه يا إلهي! قلعةُ إيف! ما الذي سنفعله هناك؟

ابتسم الدركيّ، وواصل دانِتس الكلام:

- لستُم تأخذونني لكي أُسجَن هناك، أليسَ كذلك؟ إنّ قلعة إيف سجنٌ من سجون الدّولة المقصورة على كبار المحكومين سياسيًا. أمّا أنا فلم أرتكب أيّ جرم. هل في سجن إيف قُضاةٌ أو قُضاةُ تحقيق؟

أجابه الدركيّ: - ليس هناك، على حدّ علمي، سوى مدير، وسجّانين، وحامية عسكرية، وجدران. لا تمثّل دور المذهول يا صاح؛ الحقّ، أنّك ستجعلني أعتقد في أنّك تقرّ بتعاوني، إذ تسخرُ منّي.

شدّ دانِتس على يد الدركيّ حتّى كاد يكسرها.

- أتدّعي إذًا، إنّكم تقتادونني إلى قلعة إيف لأسجن فيها؟

- هذا أمرٌ محتمل، لكن على أيّ حال لا فائدة في أن تشدّ على يدي بهذه القوّة يا صاح.

سأله الشّاب: - تفعلون ذلك، بدون إشعارٍ أو حتّى أوراق رسمية؟

- الأوراق الرّسمية قد مُلئت، والإشعار قد تمَّ.

- هكذا، على الرّغم من الوعد الذي قطعُه لي السيّد فيلفور؟...

أجابَه الدركيّ: - لستُ أدري شيئًا عن وعد السيّد فيلفور. كلّ الذي أعرفه أنّنا ذاهبون إلى قلعة إيف... لكن؟! ماذا تصنع! تنبّهوا يا رفاق!

كان دانِتس قد أراد القفز إلى الماء بحركةٍ مباغتةٍ كالبرق، وإن

حدَستها عينُ الدركي الدربة؛ لكنّ أربع أكُفّ شديدةٍ أمسكته في اللحظة التي همّت فيها قدماه بترك القارب.

سقط في قعر الزورق وهو يصرخ غضبًا.

صاح به الدركيّ، وهو يضع ركبتَه على صدره: - حسنًا، هكذا إذًا تُخلص للكلمة التي قطعتَها، كلمة الشّرف من بحار. على المرء أن يحذر الهادئين! والآن، حاول أن تتحرّك حركةً واحدةً فقط، وسترى كيف سأزرع رصاصةً في رأسك. لقد خرقتُ أولى التعليمات، لكنّي أؤكّد لك، لن أخرق الثانية.

ووجّه بالفعل بندقيته صوبَ دانتِس الذي أحسّ فوهتها تضغط على صدغه.

لوهلةٍ فكّر في أن يُصدِر تلك الحركة المحظورة، ويهرب سريعًا حاملًا معه المصيبة اللامتوقعة التي نزلت عليه واختطفته كمخالب نسر. لكن تحديدًا لأنّ هذه المصيبة لم تكن متوقّعةً، فقد فكّر دانتِس أنّها لن تدوم؛ ثمّ إنّ وعد السيّد فيلفور قد عاودَه. زد على ذلك أنّ ميتةً في قعر مركبٍ، على يد دركيّ، بدت له ميتةً بشعةً ومهينةً.

فكان أن تهاوى على لوح القارب وهو يصيح صيحة غضبٍ ويعضّ يديه ساخطًا.

في اللحظة نفسِها تقريبًا، رجّ الزورق اصطدامٌ عنيف. وقفز أحد المجدّفين إلى الصّخرة التي لمسها المركب الصّغير، وصرّ حبلٌ وهو يجري حول بكرةٍ، فأدرك دانتِس أنّهم وصلوا، وأنّهم يُرسون الزورَق.

بالفعل، أجبره حرّاسه، الذين كانوا يمسكونه من ذراعيه وياقة ملابسه، على النّهوض ونزول اليابسة، وسحبوه على الدّرجات التي تقود إلى باب القلعة، بينما الضّابط الحرُّ يتبعهم من خلف حاملًا بندقية-حربَة.

لم يبدِ دانتِس مقاومةً، إذ لا طائل من المقاومة. وكان بطؤه عطالةً أكثر منه رفضًا؛ فقد كان دائخًا ومترنّحًا مثل رجلٍ ثملٍ. ورأى مرّةً أخرى

الجنود ينتظمون على المنحدر السّريع، أحسّ بأدراج فرضت عليه رفع قدميه، وانتبه إلى أنّه كان يمرّ من تحت بوابّة، وأنّ البوّابة تنغلق خلفَه. لكنّه كان يلحظ كلّ ذلك بطريقة آليةٍ، كأنّما يلحظُه عبر ضباب، من دون أن يكون فاعلًا فيه. حتّى إنّه ما كان يرى البحر، إذ أخذه شعور الألم الهائل الذي كان يأخذ المساجين إذ ينظرون إلى الفضاء وهم محمّلون بإحساس العجز الرّهيب، العجز عن اختراقه.

أتت لحظةُ توقّف، حاول فيها استجماع أفكاره. نظر حواليه: – وجد نفسه في بهوٍ مربّع، تحدُّه أربعة جدرانٍ، وكانت تتناهى إلى الأسماع خطوات الخفر الثقيلة الرتيبة؛ وكلّما مرّوا من أمام انعكاس ضوءين أو ثلاثةٍ صادرةٍ من داخل القلعة، كانوا يلمحون مواسير بنادق الخفر تبرق.

انتظروا هناك عشر دقائق تقريبًا؛ وإذ صار الدركيّون واثقين من استحالة فرار دانتِس فقد تركوه. وبدوا أنّهم في انتظار أوامرَ، وقد أتت تلك الأوامرُ.

سألَ صوتٌ: – أين السّجين؟

فأجابه رجال الدرك: – ها هو.

– ليتبعني، سأقوده إلى مقرّه.

قال الدركيون وهم يدفعون دانتِس: – تحرّك!

تبع المسجون قائدهُ، الذي اقتاده بالفعل إلى غرفةٍ تكادُ تكونُ مدفونةً في الأرض، غرفةٍ جدرانُها العارية العرقانة، تبدو كأنّما تغطّيها غلالةٌ من دمع. ضربٌ من فانوس موضوع على سلّم قصير، فتيلُه يسبحُ في زيتٍ نتن، كان يضيء جدرانَ الغرفة الرّهيبة، ويبيّن لدانتِس وجهَ قائدِه، وكانَ سجّانًا وضيع الرّتبة، رديء الملبس، قميء المنظر.

قال السجّان: – هذه غرفتُك لهذه الليلة. الوقت الآن متأخّر، والحاكمُ قد نامَ. ربّما نغيّرُ مكانك غدًا، حين يستيقظ ويصدر أوامرَه بخصوصك.

في انتظار ذلك، ها هُنا خُبزٌ، وفي ذلك الكوز ماءٌ، وهناك في الزّاوية بعض القشّ. هذا كلّ ما يمكن أن يشتهيه مسجون. عِم مساءً.

وقبل أن يخطُر ببالِ دانتِس فتحُ فمه لكي يجيبَ، وقبل حتّى أن يتمكّن من تبصّر الموضع الذي وضعَ فيه السجّانُ الخبزَ، أو المكان الذي وُضع فيه كوز الماء، وقبل حتّى أن يدير عينيه شطرَ الرّكن الذي ينتظره فيه القشّ الذي سيتّخذه سريرًا، كان السجّان قد أخذ الفانوس، وأغلق البابَ خلفَه، حارمًا المسجون من الشّعاع الشّحيح الذي كان قد كشف له، مثلما يكشف البرقُ الخاطفُ، جدرانَ سجنه التي ترشح عرقًا.

وجدَ نفسَه إذًا وحيدًا وسط الظّلمات والصّمت، صامتًا ومظلمًا قدرَ صمتِ وظلامِ هذه الأقبية التي كان يحسّ برودها الجليديّ ينزل على جبينه المحمومِ.

حين ظهرت أولى أشعّة النّهار حاملةً معها قليلًا من الضياء إلى هذا الوِجار، عاد السّجانُ ومعه أمرٌ بترك المسجون حيث هو. كان يبدو أنّ يدًا من حديد قد سمّرته في الموضع ذاته حيث أوقِفَ اللّيلةَ الماضية. على أنّ عينه العميقة كانت تختفي خلف التهابٍ سببته دموعه الحارقة. كان ساكنًا يتأمّل الأرض.

كان إذًا قد قضى ليلته بأكملها مستيقظًا لم يغمض له جفن ولا لحظةٍ.

دنا منه السجّانُ، ودار حولَه، لكنّ دانتِس كان يبدو أنّه لا يراه.

لكزه على كتفه، فارتجف وهزّ رأسَه.

سألَه السّجانُ: – هكذا إذًا، لم تنَم.

فأجابه: – لا أدري.

نظرَ إليه السجّان مندهشًا، وواصل أسئلتَه: – ألستَ جائعًا؟

أجابه دانتِس مرّةً أخرى: – لا أدري.

– هل تريدُ شيئًا؟

– أريد مقابلة الحاكم.

هزّ السجّانُ كتفيه وانصرف.

تابعه دانتِس بعينيه، مادًّا يده إلى البابِ الموارب، ولكنّ البابَ انغلق.

إذّاك بدا أنّ صدره يتمزّق فيِ صراخِ طويل. انطلقت الدّموع التي كانت تتردّد في صدره، مثل جدولي ماءً ألصق جبينَه بالأرض وانخرط في دعاء طويل، مسترجعًا في ذهنه كلّ حياته الماضية، متسائلًا أيّ جريمةٍ ارتكبها في هذه الحياة، حياته القصيرة، وتستوجبُ هذه العقوبة القاسية.

مرّ نهارُه على هذا النّحو. بالكاد أكل لقيماتٍ من الخبز، وشربَ جرعاتٍ من ماء. أحيانًا كانَ يظلُّ جالسًا مستغرقًا في أفكاره؛ وأطوارًا كان يذرع زنزانته مثلما قد يفعلُ حيوانٌ بريٌّ سُجنَ في قفصٍ من حديد.

فكرةٌ بالتّحديد كانت تخطر له فيهتزّ لها: - أثناء رحلة عبورهم، وبينما يجهلُ الوجهةَ التي كانوا يقصدونَها، كان هادئًا مطمئنًا، وقد عرضت له عشراتُ الفُرص السّانحة كي يقفز في الماء، وما إن يصير في الماء، سيكون بمقدوره، بفضل تمرّسه على السّباحة، ودربته التي تجعل منه أحد أمهر غطّاسي مارسيليا، أن يختفيَ تحت الماء ويُفلت من حرّاسِه، ويسبح إلى الضّفة الأخرى، ثمّ يهربَ، ويعيش متواريًا في خلاءٍ ما، وينتظر ظهورَ سفينة كتالانيّة أو جنوية تقلُّه إلى إيطاليا أو إسبانيا، ومن هناك يكتب إلى مرسيدس لتلحقَ به. وأينما اختار المقامَ ما كان ليقلق البتّة على عيشه، ففي كلّ بلدٍ يعَدُّ البحارةُ الجيّدون نادرين؛ وهو يتحدّث الإيطاليّة مثلما يتحدّثها توسكانيٌّ، والإسبانية مثل أحد أبناء قشتالة العتيقة، كانَ ليعيشَ حرًّا وسعيدًا، مع مرسيدس ووالده، لأنّه كان سيرسل يستقدمُ والدَه؛ بينما هو الآن سجينٌ، محبوسٌ في قلعة إيف، هذا الحبس المنيع، لا يعلمُ ما صنعت الظّروف بأبيه، ولا بمرسيدس، وكلّ ذلك لأنّه وثق بكلام فيلفور. إنّ في هذا ما يُفقد المرء صوابَه؛ لذا ظلّ دانتس يتلوّى سخطًا فوق القشّ النديّ الذي حمله إليه السجّان.

في اليوم التالي أتاه السجّانُ في السّاعة نفسها. سأله: - حسنًا، هل أنت اليومَ أكثرُ رزانةً من أمس؟

لم يحر دانتِس جوابًا.

فأردف السجّانُ: - تحلَّ بقليلٍ من الشّجاعة! هل ترغبُ في شيءٍ ممّا في مُكنَتي؟ هيا، قُل.

- أرغبُ في الحديث إلى الحاكم.

أجابه السجّانُ بنفاد صبرٍ: - لقد سبق أن أخبرتك. أمرٌ مستحيل.

- ولمَ هو أمرٌ مستحيل؟

- لأنّ نظامَ السّجن يمنع السجناء من طلبِ أمرٍ مماثل.

سأله دانتِس: - وما المسموح به هنا إذًا؟

- إذا ما دفعتَ نقودًا، تُمنح طعامًا أفضل، ويحقّ لك التجوّل، وبعض الكتب.

- لا أحتاج كتبًا، ولا أرغب في التجوّل وأجد الطّعام جيدًا؛ لست إذًا أرغب إلا في شيء واحد: - مقابلة الحاكم.

قال السّجانُ: - إذا ما أصررت على إزعاجي بهذا الطلب، فسأكفّ عن تقديم الطّعامِ إليك.

فـجابه دانتِس: - حسنًا، إذا ما كففتَ عن تقديم الطّعام إليّ، فسأموت جوعًا، وهذا كلّ ما في الأمر.

النّبرةُ التي نطق بها دانتِس كلامه جعلت السجّانَ يوقن بأنّ سجينَه سيكون سعيدًا بالموت؛ ومثل أيّ سجّانٍ يحسب حساباته ويعرف أنّ السّجينَ يعود عليه بمدخولٍ يوميّ يساوي عشرة قروشٍ تقريبًا، فإنّ سجّانَ دانتِس حسب الخسارة التي سيتكبّدها بموت سجينه، فاستأنف الكلام بنبرةٍ أقلَّ حدّةً:

- اسمع: ما ترغبُ فيه مستحيل؛ فلا تلحَّ في طلبه؛ لأنّه لم يسبق قطّ أن لبّى الحاكمُ طلبَ مسجونٍ وأتاه يزوره في زنزانته؛ وإنّما أقول لك: كن مطيعًا، وسنسمح لك بالتجوّل، ولربّما صادفَتْ إحدى جولاتك مرورَ الحاكمِ؛ سَلهُ آنئذٍ مسألتك، فإن أراد الإجابة، ذاك شأنُه.

قال دانتِس: – لكن، كم يلزمُ من الوقت حتّى تعرض هذه المصادفةُ؟

– آه! شهرٌ، أو ثلاثة أشهر، أو ربّما ستّة، وحتّى سنة.

أجابه دانتِس: – إنّها مدّةٌ طويلة، وأنا أريد مقابلته فورًا.

قال السجّان: – آه لا تتعلّق هكذا بأمنية وحيدةٍ مستحيلة، وإلّا فقدتَ عقلك قبل أن تُكمل هنا أسبوعَين.

– آه! تظنُّ ذلك؟

– نعم، ستفقدُ عقلك. هكذا دومًا يبدأ الجنون؛ وعندنا مثالٌ حيٌّ هنا: لقد ظلّ الرّاهب الذي كان يسكن قبلك هذه الزنزانة، يعرض على الحاكم مليون فرنكٍ إن هوَ أعتقَه؛ إلى أن فقدَ عقلَه.

– وكم مضى على تركه هذه الزنزانة؟

– عامان.

– هل أُطلق سراحُه؟

– كلاّ لقد وُضعَ في المحبَس.

قال دانتِس: – أصغ إليَّ. أنا لستُ راهبًا، ولا أنا بمجنون؛ لربّما صرتُ كذلك؛ لكنّي الآنَ، ولحسن الحظّ، ما زلتُ سليمَ العقل، وسأعرضُ عليكَ عرضًا آخر.

– أيّ عرض؟

– لن أعرض عليك مليونَ فرنكٍ لأنّي لا أملكُها؛ لكنّي سأعطيك مائة فضيّة، إن قبلتَ، في أوّل مناسبةٍ تذهب فيها إلى مارسيليا، أن تنزلَ حيّ الكتالان، وتحمل رسالةً إلى شابّة تُدعى مرسيدس... ليست حتّى رسالةً، وإنّما فقط سطرين.

– إذا ما حملت سطرَيكَ، وكُشف أمري، فسأفقدُ عملي الذي يُدرُّ عليّ ألف جنيه سنويًا، فضلًا عن الامتيازات والطّعام؛ ألا ترى إذًا أنّ من الحمق أن يغامر المرء بألف جنيه كي يكسب ثلاثمائة.

– وإذًا، اسمع كلامي جيّدًا واحفظه: إن رفضتَ إعلام الحاكم بأنّي

أرغبُ في مقابلته؛ ورفضت أن تحملَ السّطرين إلى مرسيدس، أو على الأقلّ تُخطرها بمكان وجودي، فإنّي سأكمن لك يومًا ما خلف بابي، وحين تدخل سأهشّمُ رأسكَ بهذا المقعد.

صاح السجّانُ: - تُهدّدُني! لا شكّ في أنّ صوابك قد بدأ يفلت منك؛ لقد بدأ الرّاهب مثل بدايتك، ومثلَه لن تمضيَ عليك ثلاثة أيام حتّى تكون قد فقدت عقلك؛ لحسن الحظّ أنّنا نملك محابِسَ في قلعة إيِّف.

حمل دانتِس المقعد، ودار به خلف رأسه.

قال السّجانُ: - حسنًا! حسنًا! ما دمت تريد لهذه الدّرجة، فسنخبر الحاكمَ.

قال دانتِس: «عزُّ الطلب!»، وهو ينزلُ المقعد أرضًا ويجلس عليه، خافض الرّأس شارد العين، كأنّما هو حقًا على وشك الجنون.

خرج السجّانُ، ثمّ عادَ بعد لحظةٍ صحبة أربعة جُندٍ وعريف.

قال السجّانُ: - بأمرٍ من الحاكم، أنزلوا هذا السّجين إلى دركٍ تحتَ هذا.

قال العريف: - نُنزلُه إلى المحبس إذًا؟

- إلى المحبس، ينبغي وضع المجانين مع المجانين.

انقضّ الجنود الأربعة على دانتِس، الذي سقط فيما يشبه الشلل، وتبعهم دونما مقاومةٍ.

أنزلوه خمس عشرة درجةً، ثمّ فتحوا بابَ محبسٍ، فدخل إليه وهو يتمتم: «إنّه محقٌّ، ينبغي وضع المجانين مع المجانين».

انغلق البابُ، فتقدّم دانتس إلى الأمام باسطًا يديه أمام جسمه حتّى لمس الجدارَ؛ إذّاك جلس في إحدى الزوايا وظلّ ساكنًا لا يتحرّك، بينما أخذت عيناه تعتادان الظلام شيئًا فشيئًا، فبدأتا في تمييز الأشياء.

كان السجّانُ محقًا، لقد كان دانتِس على وشك الجنون.

9

مساء يوم الخطوبة

كان فيلفور، كما سبق أن رأينا، قد اتّخذ طريق العودة عبر ساحة غران-كور، وإذ عاد إلى منزل السيّدة سان ميران، وجد الضيوف، الذين تركهم جالسين حول المائدة، قد انتقلوا إلى الصالون وشرعوا في احتساء القهوة.

كانت رينيه تنتظره بنفاد صبرٍ، يشاطرها فيه جميع الحضور. لذا استقبله الجميع متسائلين:

فهذا يقول: «وإذًا، يا سيّدي قاطع الرّؤوس، يا دعامة الدّولة، يا بروتوس الملكيّة! أخبرنا: - ماذا يجري؟».

وذاك يتساءل: «يتهدّدُنا نظامٌ إرهابيّ جديد؟».

وثالث يزيد: «هل خرج غول كورسيكا من مغارته؟».

قال فيلفور، وهو يدنو من حماته المستقبلية:

- سيّدتي الماركيزة، لقد جئتكِ أعتذر عن اضطراري ترككم على هذا النّحو... سيّدي الماركيز، هل أتشرّف بالحديث إليك على انفراد؟

قالت الماركيزة، وقد لمحت الغمامة التي أعتمت جبهةَ فيلفور:

- الأمر إذًا خطير!

- خطير إلى درجة أنّني مضطرٌ إلى أن أغيب عنكم أيامًا. (ثمّ أضاف وهو يلتفت شطرَ رينيه) هذا ما تفرضه خطورة الموقف.

صاحت رينيه عاجزةً عن إخفاء التأثر الذي خلّفه فيها الخبر غير المتوقّع: - هل ستسافر يا سيّدي؟

فأجابها: - للأسف يا آنسة! يلزم ذلك.
سألته الماركيزة: - وإلى أين أنت ذاهب؟
- ذاك من أسرار العدالة يا سيّدتي؛ في المقابل، إذا ما كان لدى أحد الحضور هنا إرسالية يودّ إرسالها إلى باريس، فإنّ ليَ صديقًا سيسافر إلى هناك هذا المساء، وبوسعه أن يتكلّف بإرسالها مسرورًا.
تبادل الجميع النظر.
قال الماركيز: - ألم تطلب الانفراد بيَ لحظات؟
- بلى، لنذهب إلى مكتبك فضلًا.
أخذ الماركيز دو سان مِران ذراع فيلفور وخرجا معًا. وإذ صارا في مكتب الماركيز سألَه: - ما الخطبُ؟ هيا قُل!
- أمور أحسب أنّها في أعلى درجات الخطورة، وتتطلّب ذهابي فورًا إلى باريس. والآن، فلتغفر لي سؤالي المتطفّل: هل لديك سنداتٌ؟
- ثروتي كلّها سندات؛ ما بين ستمائة وسبعمائة ألف فرنك تقريبًا.
- إذًا بِع يا سيّدي الماركيز، بِع أو ستُفلس.
- لكن، كيف تريدُني أن أبيع من هنا؟
- لديك مدير أعمالٍ هناك، أليس كذلك؟
- بلى.
- سلّمني رسالةً إليه، تخبره فيها بأن يبيع من دون أن يتأخّر دقيقةً، ولا حتّى ثانية؛ لا بل قد يكون الوقت قد فات.
قال الماركيز: - اللّعنة! لا ينبغي أن نضيّع الوقت.
ثمّ إنّه جلس إلى الطاولة، وكتب رسالةً إلى مدير أعماله يطلب فيها إليه أن يبيع كلّ شيءٍ مهما كان السّعر.
قال فيلفور: - الآن وقد صارت هذه الرّسالة في محفظتي، تلزمني رسالةٌ ثانية.
- رسالةٌ إلى من؟

- إلى الملك.

- إلى الملك؟

- أجل.

- لكنّني لا أجرؤ على تحمّل تبعة الكتابة إلى جلالته.

- لذا لستُ أطلبها منك، وإنّما أسألك أن تطلبها من السيّد دو سالفيو. ينبغي أن يعطيني رسالةً تعينني على بلوغ جناب الملك، من دون أن أضطرّ إلى اتّباع الشّكليات التي قد تكلّفني ضياع وقتٍ ثمين.

- لكن، ألست تستطيع الاستعانة بوزير العدل الذي له أن يدخل البلاط متّى شاءَ، ويمكنه أن ييسّرَ لك أمر الدّخول؟

- بلى، لكن لا ينبغي أن أقتسم مع غيري فضل الخبر الذي أحمله. هل تفهمني؟ إنّ وزير العدل سيدفع بي إلى الصّف الثاني ويحرمني كلّ فائدة يمكن أن أجنيها من الأمر. ليس لديّ ما أقوله لك، سيّدي الماركيز، سوى أنّ مستقبلي مضمونٌ إن أنا وصلتُ أوّلًا إلى قصر التويلري[1]، لأنّني سأسدي للملك خدمةً لن ينساها أبدًا.

- إذا كان الأمر كذلك، يا عزيزي، فابدأ بتحضير أمتعتك؛ وأنا سأدعو الكونت دوسالفيو، وأطلب منه كتابة الرّسالة التي توصلك إلى الملك.

- حسنًا، لا تُضيّع الوقت، لأنّني بعد ربع ساعةٍ من الآن ينبغي أن أكون قد انطلقت.

- أوقف عربتك أمام الباب.

- سأفعل قطعًا؛ ستعتذر إلى الماركيزة نيابةً عنّي، أليس كذلك؟ وإلى الآنسة سان مران التي أتركُها، في يوم كهذا، وأنا في غاية الأسف.

- ستجدهما معًا في مكتبي، وإذّاك تستطيع توديعهما.

- شكرًا مائة مرّة؛ أرجو أن تهتم بأمر رسالتي.

---

(1) قصرٌ كانت فيه الإقامة الملكية قديمًا، وكان يقع بجانب موقع متحف اللوفر.

قرع الماركيز جرسًا، فدخل أحد الخدم.

قال الماركيز: - أخبر الكونت دو سالفيو بأنّني أنتظرُه... (ثمّ أضافَ موجّها كلامه إلى فيلفور) اذهب الآن.

- حسنًا، لن أتأخّر.

غادر فيلفور ركضًا؛ لكنّه ما لبث أن فطنَ إلى أنّ نائب وكيل الملك شوهدَ وهو يركض على ذاك النّحو، فإنّه بلا شكّ، سيثير اضطراب المدينة بأكملها؛ فكان أن استعاد سرعته الاعتيادية، التي تلائم رجل القانون كلّ الملاءمة.

عند بابه لمح، في الظلام، شبحًا أبيضَ ينتظره، واقفًا ساكنًا.

ولم يكن الشّبح سوى الكتالانيّة الحسناء التي، إذ لم تصلها أخبارٌ عن إدمون، خرجت في اللّيل تستقصي بنفسها أسباب توقيف حبيبها.

وإذ اقترب منها فيلفور، تركت الحائط الذي كانت تستند إليه وأتت تعترض طريقه. كان دانتِس قد حدّث نائب الوكيل عن خطيبته، فلم تكن مرسيدس تحتاج أن تعرّف بنفسها كي يتعرّف عليها فيلفور. أذهله جمال المرأة وعزّتُها، وحين سألته عن مصير حبيبها، انتابه شعورٌ بأنّه هو المذنب، وهي القاضي.

أجابها فيلفور بقسوة: - إنّ الرّجل الذي تتحدّثين عنه مُذنبٌ خطير، ولا أملك له شيئًا يا آنسة.

سألته: - لكن، أين هو على الأقل، هل أستطيع أن أعرف ما إذا كان حيًّا أم ميّتًا؟

فأجابها: - لا أدري، لم يعد أمرُه من اختصاصي.

منزعجًا من النظرة الفاحصة والموقف المتوسِّل، صدَّ النائبُ مرسيدس ثمّ دخل منزله مُغلقًا الباب خلفه بقوّة، وكأنّما يسعى إلى أن يترك في الخارج ذاك الألم الذي يشعر به.

لكنّ الألمَ لا يمكن أن يُدفع بهذه البساطة. إنّه كالسّهم القاتل، الذي

يتحدّث عنه فرجيليوس، يحمله المرء معه[1]. دخل فيلفور إذًا، وأغلق البابَ خلفَه، لكنّه ما إن صار في صالونه حتّى خانتهُ رُكَبُه؛ فأطلق زفرةً تحاكي صرخةً وتهاوى على مقعدٍ.

إذّاك نبت في قلبه المريض بذرة قرحةٍ قاتلة. بدا له باهتًا متوعّدًا شبحُ الرّجل الذي ضحّى به في سبيل طموحه وإنقاذًا لرأس أبيه؛ بدا له شاحبًا يمدّ يده إلى خطيبته، وكانت مثله شاحبةً، يجرُّ خلفَه مرارة، مرارةً لا تشبه في شيء تلك المرارة التي تجعل المريض ينبعث من مرضه انبعاثَ قوى الغضب في الأساطير القديمة، وإنّما تلك المرارة ذات الوقع الصّامت والمؤلم، المرارة التي تضربُ القلبَ أحيانًا إذ تغتالُه ذكرى حدثٍ مضى، فيمضي القلب في أوجاع ما تنفكّ تتعاظم حتّى تنتهي إلى الموت.

إذّاك اعترت نفس فيلفور لحظة تردّد. لقد سبق له مرّاتٍ ومرّاتٍ أن طالب بإعدام متّهمينَ، ولم يكن آنذاك مدفوعًا إلا بشعور المغالبة الذي يجمع القاضي بالمتّهم؛ وأولئك المتّهمون الذين اقتيدوا إلى المقصلة بتأثيرٍ من بلاغته التي فعلت فعلها في القضاة والمحلّفين، أولئك المتّهمون لم يخلّف أحدٌ منهم أدنى أثر غمّ في نفسه، لأنّهم كانوا مذنبين، أو على الأقلّ ذلك ما كان يحسبه هو.

لكنّ الأمر مختلفٌ هذه المرّة: - لقد حكم على بريء بالسّجن المؤبّد، سجينٍ كان على وشك أن ينال السّعادة؛ فهو إذًا لم يحرم بريئًا الحريّةَ فحسبٍ، وإنّما أيضًا دمّر سعادَته: - هذه المرّة لم يكن يلبس ثوب القاضي، وإنّما ثوبَ الجلّاد.

إذ فكّر في ذلك، أحسّ ذاك النّبض الصّموت الذي سبق أن وصفناه، والذي لم يسبق أن عرفه حتّى ذلك الحين؛ أحسّه يتردّد في قلبه، فيملأ

(1) في مواضع كثيرة من إنياذة فرجيليوس تتردّد صورة أبطال مصابين بسهامٍ يسيرون حامليها.

صدرَه بانطباعاتٍ متضاربة. هكذا، بآلامٍ غريزية شديدة، علِمَ المجروحُ بجرحه، وأدرك أنّه لن يستطيع أن يقرِّب أصابعه من جرحه الدّامي المفتوح من دون أن يرتعش، وذلك إلى أن يقدَّر للجرح الاندمال.

على أنّ الجرح الذي تلقاه فيلفور كان من طينة الجروح التي لا تندمل، أو التي لا تندمل إلا لتتفتّق أشدّ إيلامًا ودمويّةً من ذي قبل.

ولو أنّ صوتَ رينيه العذب تردّد في أذنه، في تلك اللّحظة، يسأله العفوَ؛ أو أنّ الحسناء مرسيدس دخلت عليه قائلةً: «باسم الربّ الذي يرانا ويقضي بيننا، أعِد إليّ خطيبي»، فإنّ هذا الجبين الذي انحنى للضّرورة، كان لينطويَ تمامًا، وبتلك اليدين الباردتين كالثلج، كان ليوقّع أمرًا بإخلاء سبيل دانتِس، مهما كانت عواقب قراره وخيمةً عليه؛ لكن لا صوتَ تردّد وسط ذلك الصّمت، ولم يُفتح البابُ إلاّ ليُفصح عن خادمه وقد أتى يعلمُه أنّ خيولَ المراسَلة[1] قد قيِّدَت إلى عربة السّفر.

قام فيلفور، أو بالأحرى قفز من مكانه، مثل رجل ينتصر على صراع داخليّ، وهرول إلى مكتبه، وهناك أفرغ في جيوبه كلّ الذّهب الموجودَ في أحد الأدراج، وجال برهةً في الغرفة مضطربًا، يده على جبينه، يتهته بكلامٍ غير واضح؛ ثمّ أخيرًا، حين شعر بخادمه يضع على كتفيه المعطف، خرجَ وقفز إلى العربة، مصدرًا أوامره بالذّهاب صوب شارع غراند كور، إلى بيتِ السيّد دو سان مِران.

لقد أُصدر الحكم على الشقيّ دانتِس وانقضى الأمر.

وكما وعدَه السيّد دو سان مِران، وجد فيلفور الماركيزة ورينيه تنتظرانه في المكتب. ولمرأى رينيه، ارتجف الشّابُّ؛ إذ كان يحسبها ستسأله عن أخبار دانتِس. لكن، واأسفًا! ينبغي الإقرار بأنّه، بكلّ العار الذي تنطوي

---

(1) خيولٌ توضع، عند مسافةٍ محدّدة، على امتداد طريقٍ طويلةٍ، لتبدل خيولاً أخرى متعبة، وكانت تنقل المسافرين والبريد.

عليه أنانيّتنا، لم تكن الشّابة الجميلة مشغولة إلا بشيء واحد: - رحيل فيلفور.

لقد كانت مغرمة بفيلفور، وكان فيلفور يغادر في اللّحظة التي كان فيها على وشك أن يتزوّجها. لم يكن بوسع فيلفور أن يحدّد وقت رجوعه، وكانت رينيه، بدلًا من أن تنشغل بمصير دانتِس، تلعن الرّجلَ الذي، بسبب جُرمه، فرّقَ بينها وبين حبيبها.

ما بالك إذًا بحالِ مرسيدس!

لقد صادفت المسكينة، عند ناصية شارع لا لوج، فرنان الذي كان قد تبعها؛ عادت إلى حيّ الكَتالان وارتمت، محتضرةً يائسةً، على سريرها. وجثا فرنان على ركبتيه، شادًّا على يدها المتجمّدة، يغرقها قُبلًا حارقةً، ما كانت هي تحسّ بها.

كذلك قضت ليلتها. انطفأ مصباحُها لما انقضى زيته: - ولم ترَ العتمة، كما لم ترَ النّورَ، ثمّ طلع النّهار من غير أن ترى النّهارَ.

لقد عصب الألم عينيها بعصابة، فما عادت ترى غير إدمون.

ثمّ كان أن استدارت، في نهاية الأمر، جهةَ فرنان، وقالت: - آه! أنت هنا!

أجابها فرنان بزفرةٍ موجعة: - منذ أمس، ما تركتك.

لم يستسلم السيّد موريل؛ إذ علمَ أنّ دانتِس قد اقتيد إلى السّجن بعد التّحقيق معه؛ فكان أن هرع إلى أصدقائه جميعهم، وطرق أبواب ذوي النّفوذ في مارسيليا، لكنّ الإشاعة كانت قد سرت تقول إنّ الشّاب قد قبض عليه لأنّه كانَ عميلًا بونابرتيًا؛ ولأنّ في ذلك الوقت كان حتّى أشدّ المتفائلين يرون أنّ عودة نابوليون إلى اعتلاء العرش لا يمكن أن تعدو درجة الأماني، فإنّ السيّد موريل حيثما حلّ لم يجد إلاّ برودةً أو خشيةً أو رفضًا، فعاد أدراجه محبطًا، ومقتنعًا بأنّ الوضع خطير ولا أحد يستطيع أن يفعل شيئًا.

أمّا كادروس، الذي كان شديد القلق والعذاب، وبدلًا من أن يخرج، كما فعل السيّد موريل، فيلتمس لدانتِس مساعدةً، وإن لم يكن يستطيع إليها سبيلًا، فقد غلق على نفسه أبواب بيته، مصاحبًا قنينَتين من نبيذ كاسيس، محاولًا إغراق قلقه في السُّكر. لكن، مع الحالة التي كان قد بلغها، ما كانت تكفيه قنينتا نبيذ كي ينطفئَ إدراكُه؛ ظلّ الرّجل إذًا في منزلة بين منزلتين: - درجةُ ثمالته أعلى من أن تسمح له بأن يخرج باحثًا عن المزيد من النبيذ، وأدنى من أن تبلّغَه مرتبة انطفاء الذكريات؛ فكان أن ظلّ متّكئًا على منضدةٍ عرجاءَ، إزاءه القنينتان الفارغتان، تتراءيان له على ضوء الشّمعة ذات الذّبالة الطّويلة، كغبارٍ أسودَ عجيب، كلّ تلكُ الأشباح التي نثرها هوفمان في مخطوطاته المبلّلة بشراب البنّش[1].

وحده دانغلار لم يكن حائرًا ولا قلقًا، لا بلَ كانَ مبتهجًا، إذ تأتّى له في آنِ الانتقام من عدوّ، وضمان الاحتفاظ بوظيفته على متن **الفرعون**، بعدما كان يخشى ضياعها. فقد كان دانغلار أحد أولئك الذين يحسبون كلّ شيء، أولئك الذين يولدون وعلى أذنهم قلمٌ، ومكانَ قلوبهم محبرةٌ؛ كلّ ما في هذا العالم كان في مذهبه إمّا طرحًا أو ضربًا، وإنّ رقمًا في ملّتِه لأثمنُ قيمةً من إنسانٍ، ولا ضيرَ في أن يرتفع الرّقم على حساب انخفاض الإنسان.

خلد إذًا دانغلار إلى فراشه في ساعته المعتادة، ونامَ مطمئنّ البال.

وبعدما تسلّم فيلفور رسالة الماركيز دو سالفيو، وقبّل رينيه على وجنتَيها، وكذلك قبّل يد السيّدة دو سان مِران، وصافح الماركيز، هرع إلى نقطة المراسلة على طريق آيكس.

بينما والد دانتِس يموت ألمًا وحيرةً.

أمّا دانتِس فقد وقفنا على ما جرى له.

---

(1) شرابٌ مسكرٌ قوامه الرُّم وعصير الفواكه.

10

بلاط التويلري

لنترك فيلفور يطوي المسافات إلى باريس، بفضل الأدلّاء الثلاثة الذين ابتاع خدماتهم؛ ولندخل، عبر القاعتين أو القاعات الثلاث التي تستقبلنا، إلى بلاط التويلري ذي النافذة المقوّسة، والذي اشتهر بكونه كان البلاط المفضّل لدى نابوليون ولويس الثامن عشر، وكذلك هو اليوم بالنّسبة إلى لويس-فليب[1].

هناك، في ذلك البلاط، كان يجلس الملك لويس الثامن عشر أمام طاولة من خشب الجوز، قد جاء بها من هارتويل، وكان يتعلّق بها تعلّقًا خاصًا، على طريقة الشّخصيات البارزة. وكان الملك لويس الثامن عشر يصغي باستخفاف واضح إلى رجلٍ، ما بين الخمسين والثانية والخمسين من عمره، ذي شعر رماديٍ ووجهٍ أرستقراطي وهيئةٍ مرتّبة؛ يصغي إليه ويتصفّح، في آنٍ، أحد مجلّدات الشّاعر هوراتيوس، بطبعة غريفيوس، تلك الطبعة غير الدّقيقة لكن المعتبرة مع ذلك، والتي كان جلالته ينهل منها الكثير من ملاحظاته الفلسفية الحصيفة.

قال الملك: - ماذا تقول إذًا يا سيّد...؟

- أقول سيّدي، إنّي قلقٌ أشدّ ما يكون القلق.

- حقًّا؟ هل رأيتَ في حلمك سبعَ بقراتٍ سمانٍ يأكلهنّ سبعٌ عجاف؟

(1) ينبغي الانتباه هنا إلى زمن الحكي، فلويس-فليب آخر ملوك فرنسا هو سيّد بلاط تويلري زمن كتابة أو نشر الرّواية، لا زمنَ وقوع الحوادث التي تسردُها.

- كلاّ يا سيّدي، لو رأيت ذاك الحلم لكان تعبيرهُ سبع سنواتٍ من الرّخاء وسبعًا أُخرَ من القحط، وبوجود ملك حصيفٍ مثلك، لسنا نخشى القحط.

- أيّ كارثةٍ إذًا تلك التي تخشاها يا عزيزي بلاكاس؟

- سيّدي، إنّ عندي من الدّلائل ما يكفي لأعتقد في أنّ عاصفةً تتشكّل جنوبًا.

- حسنًا يا عزيزي الدّوق، أظنُّ أنّك أخطأتَ الاستقصاء، وإنّي لأعلم أنّ الوضع، على خلاف ما تقوله، إيجابي جدًا، وأنّ الطّقس هناك أبدعُ ما يكون.

وعلى الرّغم من أنّ جلالة الملك كان رجلًا عاقلًا أشدّ ما يكون التعقّل إلاّ أنّه كان يحبّ الدعابات اليسيرة.

قال بلاكاس: - سيّدي، هل لخادمك، الذي يريد أن يطمئنّ، أن يطمع في أن تتكرّم جلالتكم بإرسال رجالٍ ثقاة إلى لانغدوك وبروفانس ودوفيني، فيخبروننا عمّا يكون من أمر هذه الأقاليم الثلاثة؟

أجابه الملك وهو يواصل تدوين الملاحظات على مجلّده، مجلّد هوراتيوس: «Conimus surdis»[1]

أجاب رجل البلاط ضاحكًا، ليوهم بأنّه فهمَ شطرَ شاعرٍ فينوزا:
- بإمكان جلالتكم أن يثق كلّ الثقة في الوضع العام بفرنسا؛ لكنّي لا أحسب نفسي مخطئًا إن أنا خشيت بعض المحاولات اليائسة هنا أو هناك.

- محاولات من طرف من؟

- من طرف بونابرت، أو على الأقل من طرف حزبه.

- عزيزي بلاكاس، إنّك تمنعني من العمل بسبب مخاوفك.

---

(1) باللاتينية في الأصل: لا تغنِّ للطُّرشان.

- وأنت يا سيّدي تمنع عنّي النوم بسبب طمأنينتك.

- انتظر، يا عزيزي، انتظر ريثما أدوّن ملاحظةً موفّقة من كتاب Pastorquum trahert[1]؛ انتظر، وستواصل بعدها الكلام.

خيّمَت لحظةُ صمتٍ، كان لويس الثامن عشر أثناءها يدوّن، بأحرفٍ يجعلها صغيرةً قدر ما يستطيع، حاشيةً أخرى على كتاب هوراتيوس؛ ثمّ إذ دوّن الحاشية، رفع رأسَه وعلى وجهه سيماء الرضا الذي يعلو وجه من يحسبُ نفسه قد وجدَ فكرةً بينما يعلّقُ على فكرةِ غيره، وقال:

- واصل كلامك، يا عزيزي بلاكاس، هيّا، إنّي أستمع إليك.

قال بلاكاس، وقد ظنّ لوهلةٍ أنّ بوسعه الإفادة من معلومات فيلفور واستغلالها لحسابه الخاصّ: - سيّدي، إنّي مضطرٌ أن أقول إنّ ما يقلقني ليس مجرّد إشاعاتٍ لا أساسَ لصحّتها، أو مجرّد أخبار زائفةٍ تتناقلها الأفواه. إنّ رجلًا حصيفًا، يحوز كامل ثقتي، رجلًا كلّفتُه بمراقبة الجنوب (وهنا تردّد الدّوق وهو ينطق العبارة السّابقة)، قد أتى بخيول المراسلة يخبرني أنّ خطرًا عظيمًا يتهدّد جلالة الملك، فهرعت أخبرك يا سيدي.

واصل الملك مدوّنًا ملاحظاته: - maladucis avi domum

أكمل بلاكاس: - هل تأمرني جلالتك بأن أكفّ عن الإلحاح في هذا الموضوع؟

- كلاّ، يا عزيزي الدّوق، لكن مُدَّ يدك.

- أيّهما؟

- أيًّا شئتَ، مُدّها هناك، يسارًا.

- أمدّها هنا يا سيّدي؟

- أقول لك يسارًا، وأنت تبحث يمينًا؛ يساري أنا أقصدُ: - نعم هناك، ها أنت ذا؛ ستجد تقريرًا رفعه إليّ أمس وزير الشّرطة... وها هو السيّد

---

(1) من أعمال هوراثيوس.

داندريه بنفسه قد أتى... (ثمّ موجّهًا كلامه إلى الحاجب الذي كان قد أعلن وصول وزير الشرطة). أليس السيّد داندريه من أعلنتَ وصوله؟

أجابه الحاجب: - بلى يا سيّدي، إنّه البارون داندريه.

استأنف الملك كلامه، وعلى شفته ابتسامةٌ خفيةٌ: - ادخُل أيّها البارون، وأخبر الدّوق آخر ما علمتَ من أخبار بونابرت. لا تُخفي شيئًا مهما بلغت درجة خطورته. حسنًا، هل جزيرة إلبا تغلي فوق بركانٍ، وعلينا أن نعدّ لها الحربَ الضّروس: - bella, horrida bella[1]؟

استند السيّد داندريه بأريحية على مقعدٍ كان يضع عليه يديه، وقال:

- هل قرأَ جلالتكم التقرير الذي رفعته إليكم أمس؟

- بلى، بلى، لكن أخبر الدوق بنفسك بما يحتويه التقرير الذي شقَّ عليه أن يجده؛ أعطِه تفاصيل ما يفعله الغاصب على الجزيرة.

قال البارون موجّهًا كلامه إلى الدّوق: - سيّدي، على جميع رعايا جلالة الملك الأوفياء، أن يبتهجوا للأخبار القادمة من جزيرة إلبا. إنّ بونابرت...

نظر السيّد داندريه إلى الملك، فألفاه مشغولًا بتدوين ملاحظةٍ، لا يرفع حتّى رأسه، فواصلَ الكلام: - إنّ بونابرت يموت من السّأم. يقضي أيامه في مراقبة رجاله ببورتو-لونغونِي (بجزيرة إلبا) يشتغلون.

قال الملك: - ويتسلّى بحكّ بدنه.

تساءل الدّوق: - يحكّ بدنه؟ ماذا تقصد جلالتك؟

- تمامًا، يا سيّدي الدّوق، هل نسيت بأنّ ذاك الرّجل العظيم، ذاك البطل، نصف-الإله، مصابٌ بمرضٍ جلديّ يفترسُه: - الحكّة؟

واصل وزير الشرطة الكلام: - ونحن على يقين، يا سيّدي الدّوق، من أنّ الغاصب لن يصمد سوى أيامٍ قليلة قبل أن يُجنَّ.

---

(1) «الحربُ، الحربُ الرّهيبة» (فرجيليوس).

- يجنَّ؟

- نعم، يجنّ. إنّ عقله يفلت منه، فتارةً يبكي دموعًا حارّة، وطورًا يضحك وُسع حنجرته؛ وأحيانًا يصرف ساعاتٍ على السّاحل ملقيًا حصىً في الماء، وحين يثب أحد الأحجار التي يلقي بها خمس أو ستّ وثبات في الماء، يبدي فرحًا غامرًا، كأنّما ربح مجدّدًا معركة مارنغو أو أوسترليتز. ولن تخالفني الرّأي في أنّ تلك أمارات الجنون.

قال لويس الثامن عشر ضاحكًا: - أو قد تكون أمارات الحكمة، يا سيّدي البارون. ألم يُكن عظماء قادة العصور القديمة يولدون بإلقاء أحجار في البحر؛ واقرأ ما كتبه في ذلك بلوتارك عن حياة سيكبيو الإفريقي.

ظلّ السيّد دو بلاكاس شاردًا بين الرّجلين غير المباليَيْن. ومع أنّ فيلفور لم يكن قد أخبره بكلّ التفاصيل، خشية أن يجنيَ الفائدةَ بدلًا منه، فإنّه قال له مع ذلك ما يكفي لكي يبثّ في نفسه القلق.

قال لويس الثامن عشر: - هيّا، هيّا يا سيّد داندريه، يبدو أنّ بلاكاس لم يقتنع بعد، مرّ إذًا إلى مسألة تحوُّل الغاصب.

انحنى وزير الشرطة؛ وظلّ الدّوق ينقل بصره بين الملك وداندريه، اللذين كانا يتعاقبان الكلامَ مثل راعيَيْن من رُعاة فرجيليوس، وهو يغمغم: «تحوّل الغاصب! هل تحوّل الغاصبُ عن مذهبه؟».

- قطعًا يا عزيزي الدّوق.

- تحوّل إلى صوابِ الرّأي؛ وضّح أيّها البارون.

قال البارون بصوتٍ حمّله كلّ الجديّة: - إليك ما وقَع يا سيّدي الدّوق: - مؤخّرًا أصدر نابليون مذكّرة، وبما أنّ اثنين أو ثلاثة من المتذمّرين، كما يسمّيهم، قد أبدوا رغبةً في أن يعودوا إلى فرنسا، فإنّه أجازهم بعدما حضّهم على خدمة ملكهم الطيّب؛ تلكم كانت كلماته، يا سيّدي الدّوق، وإنّي على يقين من ذلك.

قال الملك بنبرة المنتصر، وقد توقّف لحظةً عن معاينة المجلّد الضّخم بين يديه: - وإذًا، ما قولك يا عزيزي بلاكاس؟

- يا سيّدي، أقول إنّنا، أنا ووزير الشّرطة، بشرٌ خطّاؤون؛ لكن ما دام يستحيل أن يرتكب خطأً وزيرُ الشّرطة، وهو الموكول بالسّهر على سلامة وشرف جلالتكم، فالرّاجح أنّي أنا المخطئ. على أنّي يا سيّدي أرغب في أن أستجوب الرّجل الذي حدّثتكم عنه، لا بل إنّي ألح في طلب أن تشرّفوه جلالتكم بأن تستجوبوه بنفسكم.

- على الرّحب والسّعة، بحضورك سأستقبل من تشاء؛ لكنّي أودّ أن أستقبله وسلاحي في يدي. سيّدي الوزير، هل لديك تقرير أحدث من هذا؟ ذاك أنّ هذا التقرير يرجع إلى تاريخ 20 فبراير، واليوم الثالث من مارس!

- لا يا سيّدي، لكنّي أترقّب وصول تقرير بين ساعةٍ وأخرى. لقد خرجت منذ الصباح، ولعلّه يكون قد وصل أثناء غيابي.

- اذهب إلى الولاية، فإن لم تجد (وهنا واصل الملك الكلام مقهقهًا)، ألِّف واحدًا، أليس هكذا تجري الأمور؟

قال الوزير: - أوه! سيّدي! حمدًا للربّ، على هذا الصّعيد، لا نحتاج إلى أن نختلق شيئًا؛ فكلّ يومٍ تُغرق مكتبنا الوشايات طازجةً، وشاياتٌ يأتي بها حشدٌ من التعساء الذين يطلبون بعضًا من الاعتراف على خدمةٍ لم يسدوها، ولكنهم يأملون في أن يسدوها. يعوّلون على الصّدفة، ويتمنّون أن يأتي يومٌ يقع فيه حادثٌ يصبغ على تخميناتهم صبغة الواقعية.

قال لويس الثامن عشر: - حسنًا، هيا يا سيّدي، ولا تنسَ أني بانتظارك.

- سأذهب وأعود من فوري يا سيّدي؛ عشر دقائق وأكون قد عدتُ.

قال بلاكاس: - وأنا، يا سيّدي، سأذهب لأحضر رسولي.

فأجابه لويس الثامن عشر: - مهلًا، مهلا يا بلاكاس، عليّ أن أُغيّرَ

أسلحتَك؛ سأعطيكَ نسرًا ناشرًا جناحَيه، ممسكًا بمخالبه فريسةً تستميت في الإفلات منه، وأزيدك هذه الإشارة: - Tenax[1].

قال بلاكاس وهو يقضم أصابه من نفاد الصّبر: - كلّي آذانٌ صاغيةٌ يا سيّدي.

أريد أن أستشيرك بخصوص هذا المقطع: - Molli fugiens anhelitu[2]؛ تعرفُ أنّه يقصدُ الأيّل الهاربَ من الذّئب. ألستَ صيّادًا عظيمًا وعضوًا بارزًا في جمعيّة الذّئبيّين[3]؟ كيف تجدُ، انطلاقًا من وضعك الاعتباري المزدوج، هذه الـ: - Molli anhelitu[4]؟

- رائعة يا سيّدي؛ لكن رسولي، مثله مثل الأيّل الذي تتحدّثُ عنه، قد تجشّم عناء قطع مسافة مائتين وعشرين فرسخًا[5]، بواسطة خيول المراسلة، في وقتٍ لا يتجاوز ثلاثة أيام.

- أيّ مضيعةٍ للجهد، وتبديد للقلقّ، يا عزيزي الدّوق، حين يفكّر المرء بأنّ لدينا التلغراف الذي لا يستغرق سوى ثلاث ساعات أو أربع، ودون أن يجهدَ أنفاسَ أيّ كان.

- آه يا سيّدي إنّك لا تكرم جُهدَ هذا الشّاب، الذي أتى من بعيد جدًا، كي ينبّه جلالتكم إلى أمرٍ جلل؛ أرجوك أن تستقبله يا سيّدي، ولو إكرامًا للسيّد دو سالفيو؛ فقد توصّى به لديّ.

- السيّد دو سالفيو، حاجب أخي؟

- هو عينه.

- إنّه في مرسيليا.

---

(1) لا مبالٍ، هادئ.
(2) النّفسُ العذبة تُولّي هاربةً.
(3) جمعية أسّسها شارلمان سنة 813، وكانت تهدف إلى القضاء التّام على الذّئاب.
(4) النّفس العذبة.
(5) أكثر من ثمانمائة كيلومتر.

- ومنها كتب إليَّ.

- هل كلّمك هو أيضًا عن هذه المؤامرة؟

- كلاّ، لكنّه كتب إليّ توصيّة بالسيّد دو فيلفور، وطلب منّي أن أدخله عليكم.

صاح الملك: - السيّد دو فيلفور؟ هل هذا الرّسول يدعى دو فيلفور؟

- أجل يا سيّدي.

- وهو من أتى من مارسيليا؟

- أتى بنفسه.

قال الملك، وقد بدأت ترتسم على وجهه أمارات القلق: - لمَ لم تُعلن عن اسمه من البداية؟

- حسبتُ اسمَه مجهولًا عندَ جلالتكم يا سيّدي.

- كلاّ يا بلاكاس، كلاّ؛ إنّه شخصٌ جادٌّ، مهذّب، والأهمّ من كلّ ذلك أنّه طموح؛ ثمّ إنّك تعرفُ أباه بالاسمِ.

- أباه؟

- أجل، نوارتييه.

- نوارتييه الجيروندي؟ نوارتييه السيناتور؟

- هو بعينه.

- وكيف قبل جلالتكم توظيف ابن رجلٍ مثل هذا؟

- إنّك لا تُصغي إلى الكلام يا عزيزيً بلاكاس. لقد قُلتُ لك إنّ فيلفور رجُل طموح: لكي يصل لن يتوانى عن التّضحية بأيّ كان، حتّى لو كان أباه!

- هل أُدخله إذًا يا سيّدي؟

- في الحين، يا دوق. أين هو؟

- إنّه ينتظر هناك، في عربتي.

- اذهب واِتِني به.

- حالًا.

خرج الدّوق بسرعةٍ رجلٍ شابٍّ، ذاك أنّ حميَّة انتمائه الملكيّ الصّادق جعلته يتقهقر إلى سنّ العشرين.

ظلّ لويس الثامن عشر بمفرده، ينظر إلى مجلّد هوراثيوس المفتوح جزئيًا، هامسًا:

.Justumet tenacem propositi virum(1)

صعد بلاكاس بالسّرعة نفسِها التي كان قد نزل بها؛ لكن حين وصل إلى بهو القصر اضطرّ إلى التوقّف وطلب إذن الملك. حيّا فيلفور الملك، وتقدّم خطواتٍ، ثمّ توقّف منتظرًا أن يبدأ الملك في مساءلته. وكان لباسُ فيلفور المعفّر، وبدلته التي لا تناسبُ بالمرّة مقام البلاط الملكيّ، قد أثارَا حفيظة السيّد جو بريزيه، الذي ذهل من جرأة الشّاب في أن يمثل بين يدي الملك بمظهرٍ مماثل. لكنّ الدوق ذلّل كلّ الصّعاب بجملة واحدة: إنّها أوامرُ جلالته؛ وعلى الرّغم من التّحفّظات التي واصل مسؤول التشريفات الملكية إبداءها، إلاّ أنّ فيلفور أُدخلَ البلاط.

كان الملك لا يزال جالسًا حيث تركَهُ الدّوق؛ وبالتّالي، لما فُتح البابُ ألفى فيلفور نفسَه أمامَه مباشرةً. وكان أوّل ردّ فعلٍ للقاضي الشّاب هو التوقّف.

قال الملك: - أُدخُل يا سيّد فيلفور أُدخل.

حيّا فيلفور الملكَ، وتقدّم خطواتٍ إلى الأمام، منتظرًا أن يستجوبَه الملك.

استطرد لويس الثامن عشر: - إنّ السيّد الدّوق بلاكاس، الحاضر بيننا، يدّعي أنّ لديك أمرًا خطيرًا تخبرني به.

- إنّ سيّدي الدّوق محقٌّ يا سيّدي، وآملُ في أنّ جلالتكم ستدرك ذلك بنفسك.

---

(1) عادلٌ، حازمٌ في تصميمه.

- أخبرني أوّلًا، هل ترى الأمرَ بالخطورة التي يريدون إقناعي بها؟

- سيّدي، أعتقد بأنّ الخطر وشيك، لكن بفضل ما أبديتُه من حرصٍ، فإنّني أحسب أنّ الأمور لا تزال تحت السيطرة.

قال الملك وقد بدأ ينقاد إلى الانفعال المرسوم على محيّا بلاكاس والذي زادَه انفعالًا صوتُ فيلفور: - تكلّم، وأطل القولَ ما شئتَ؛ تكلّم، لكن احرص على أن تبدأ من البداية، فأنا أحبّ أن تأتيَ الأشياء منتظمةً.

أجابَه فيلفور: - سيّدي، سأعطي جلالتكم تقريرًا مفصّلًا وأمينًا، لكّني أرجوكَ أن تغفر لي إذا ما أصابَ بعض كلماتي قليلٌ من غموضٍ، بسبب الاضطراب الذي يعتملني.

بعد تصديره اللّامع ألقى النّائبُ نظرةً على مخاطبه المهيب فاطمأنَّ إلى لطفه، وأكمل:

- سيّدي، لقد قدمت إلى باريس بأسرعَ ما أمكنني كي أبلغ جلالتكم، أنّي كشفتُ، ضمن دوائر وظيفتي، مؤامرةً؛ مؤامرةً ليست من تلك المؤامرات التّافهة التي لا تخلّف أثرًا، أقصد تلك المؤامرات التي تحدث يوميًا في صفوف الشّعب والجيش، وإنّما مؤامرةً فعلية، عاصفةً تهدّد عرش جلالتكم. لقد سلّح الغاصبُ ثلاث بوارج، وهو يخطّط لمشاريع خطيرة لفرط ما أصابه من جنون. وفي هذه اللحظة، التي نتحدّث فيها، سيكون قد غادر جزيرة إلبا. إلى أين؟ لست أدري. لكن المؤكّد أنّه سيسعى للنّزول إمّا في نابولي، وإمّا في سواحل توسكانا، ولربّما نزل في فرنسا نفسها. وجلالتكم على علمٍ بأنّ حاكم جزيرة إلبا قد حافظ على بعض العلاقات في إيطاليا وفرنسا.

قال الملك وقد بلغ به التأثّر مبلغًا: - أجل يا سيّد، أعرف ذلك، ومؤخّرًا علمنا أنّ بعض الاجتماعات البونابرتية قد عُقدت في شارع سان جاك؛ لكن أكمل رجاءً، كيف عرفت تلك التفاصيل؟

– لقد عرفتُها، يا سيّدي، من رجُل استنطقته في مارسيليا، بعد أن راقبتُه طويلًا، وألقيت عليه القبض في نفس اليوم الذي انطلقت فيه صوبكم؛ إنّ هذا الرّجل، وهو بحّار مشاغب كنت أشكّ في توجّهه البونابرتيّ، كانَ قد نزل جزيرة إلبا سرًّا؛ وهناك التقى الماريشال الكبير، الذي حمّلَه رسالةً شفهيةً إلى أحد بونابرتيّي باريس، لم أستطع انتزاع اسمه منه؛ لكنّ المهمّة التي تضمّنتها رسالتُه تتجلّى في حفز النّفوس إلى عودةٍ (ولاحظ يا سيّدي أنّي أنقل إليك ما دار في الاستنطاق)، عودة تكادُ تكون وشيكة.

سأله لويس الثامن عشر: – وأين هذا الرّجل؟

– في السّجن يا سيّدي.

– وهل بدا لك الأمر خطيرًا؟

– خطيرًا إلى درجة أنّه فاجأني يوم حفل خطوبتي، فتركت كلّ شيءٍ، وأتيت أعرض على أعتاب جلالتكم مخاوفي وأؤكّد لكم إخلاصي.

قال لويس الثامن عشر: – صحيح؛ أليس ثمّة مشروع ارتباطٍ بينك وبين الآنسة دو سان مِران؟

– بلى، بنت واحدٍ من أخلص رعاياكم يا سيّدي.

– نعم، نعم؛ لكن لنعد إلى محاولة الانقلاب يا سيّد فيلفور.

– سيّدي أخشى أنّ الأمرَ لم يعد مجرّدَ محاولة انقلابٍ، وإنّما مؤامرة فعليّة.

قال الملك باسمًا: – لقد صارت المؤامرةُ في زمننا هذا أمرًا يسهلُ التّفكير فيه، لكن يصعبُ جدًا إيصالُها إلى غايتها؛ خاصّة وأنّنا ما إن عدنا إلى اعتلاء عرش أسلافِنا حتى صرنا نراقبُ الماضيَ بعينٍ ونحرسُ المستقبلَ بالأخرى؛ منذ عشرة شهورٍ ووزرائي يضاعفون جهودهم لكي تصيرَ السّواحلُ أشدَّ مراقبةً. ولو أنّ بونابرت هبط نابولي لقام التّحالُف كلّه على قدمٍ وساقٍ قبل أن يبلغ بويمبينو (إيطاليا)؛ وإن هبط توسكانا

سيكون قد وضع قدمه في أرض أعدائه؛ وإن هبط فرنسا، فسيصل ومعه حفنةٌ من الرّجال، فنستطيع القضاء عليه بسهولةٍ، خاصّة وأنّ السّاكنةَ تمقته. اطمئنّ إذًا يا سيّد فيلفور، لكن لا تحسبنّ أنّ فعلكم هذا هيّنٌ في ميزان امتنانِنا.

صاح بلاكاس: - أه! هوذا السيّد داندريه!

وفي تلك اللحظة ظهر عند عتبة الباب السيّد وزير الشّرطة، شاحبًا مرتعدًا، زائغ النّظرة، كأنّما أصابه الذّهول.

تراجع فيلفور خطوةً استعدادًا للانسحاب؛ لكنّ شدّةً من يد السيّد بلاكاس استبقته.

11

غول كورسيكا

لمرأى ذاك الوجه المصدوم، دفع لويس الثامن عشر الطاولةَ التي كانت أمامه، وصاح:

- ماذا بك، أيّها البارون؟ تبدو مصدومًا: هل لرعدتك وتردّدك هذين علاقةٌ بما كان يقوله السيّد بلاكاس، والذي أكّده السيّد دو فيلفور؟

دنا السيّد بلاكاس من البارون سريعًا، بيد أنّ رعبَ رجل البلاط منع انتصارَ غطرسة رجل الدّولة؛ فالواقع أنّه في مثل هذه الظّروف، وإزاء موضوع مماثل، كان ليفضّل أن يهينَه حاكم الشّرطة على أن يهينَ هو حاكم الشّرطة.

قال البارون متأتئًا: - سيّدي...

فأجابه لويس الثامن عشر: - حسنًا، تكلّم!

ندّت عن وزير الشّرطة إذاك حركة يأس، إذ هرع مرتميًا عند قدمَي لويس الثامن عشر، الذي تراجعَ خطوةً مقطّبًا حاجبيه:

- هل ستقُول ما عندك؟

- أوّاه! يا سيّدي، أيّ مصيبةٍ هي! هل اللّومُ يكفي؟ ذاك أنّي لن أسلُوَ أبدًا!

قال لويس الثامن عشر: - أيّها السيّد، إنّي آمرك بأن تتكلّم.

- حسنًا يا سيّدي، لقد غادر الغاصب جزيرة إلبا في الثامن والعشرين من شهر فبراير ورسا في الفاتح من مارس.

سأله الملك بعنفٍ: - أين؟

- في فرنسا يا سيّدي، في ميناءٍ صغير قرب أنتيب، في خليج جوان.

- الغاصب هبط فرنسا، قرب أنتيب، في خليج جوان، على بعد مائتين وخمسين فرسخًا من باريس، وذلك يوم الفاتح من مارس، ولم تعرف هذا الخبر إلا اليوم، الثالث من مارس!... إنّ ما تقوله لي الآن يا سيّد مستحيل. إمّا أنّهم أرسلوا إليك تقريرًا خاطئًا وإمّا أنّك مجنون.

- للأسف يا سيّدي، إنّ الأمر صحيح!

ندّت عن لويس الثامن عشر حركة غضب ورعب متعذّرة الوصف، ووقف منتصبًا بكامل جسده، وكأنّما تلقّى ضربةً غير متوقّعةٍ في قلبه وعلى وجهه في آن.

صاح: - في فرنسا! الغاصب في فرنسا! لم يكن الرّجل إذًا مراقَبًا؟ ومن يدري؟ ربّما تكونون متواطئين معه؟

صاح الدّوق بلاكاس: - أوه يا سيّدي، ليس السيّد داندريه بالرّجل الذي يتّهمُ بالخيانة. سيّدي، لقد كنّا جميعًا في عمىً، وما فعل وزير الشّرطة إلا أن يشاركنا العمى العامَّ، وهذا كلّ ما في الأمر.

قال فيلفور: - لكن... (ثمّ ما لبث أن توقّف وتراجع معتذرًا) عفوك يا صاحب الجلالة، لقد انسقت وراء حماستي، فلتسامحني أرجوك.

قال الملك: - تكلّم يا سيّدي، تكلّم كما شئت؛ أنت وحدك نبّهتنا إلى الخطر، فلتعنّا على إيجاد حلّ.

قال فيلفور: - سيّدي، إنّ الغاصبَ مبغوضٌ في الجنوب؛ ويبدو لي، إن هو توغّل جنوبًا، سيكون بمقدورنا تهييج إقليمَي بروفانس ولانغدوغ ضدَّه.

قال الوزير: - نعم، بلا شك، لكن ماذا إن زحف عبر غَب وسيستيرون.

قال لويس الثامن عشر: - وإن زحف عبرهما؛ هل يعني ذلك أنّه يسير باتّجاه باريس؟

لاذ وزير الشّرطة بصمت يكافئُ الإقرارَ التّامَ.

سألَ الملكُ فيلفور: - ودوفيني، هل تعتقد أنّ بإمكاننا تهييجُها على غرار البروفانس؟

- سيّدي، إنّي لآسِفٌ إذ أقول لك هذه الحقيقة الشّائنة؛ لكنّ روحَ سكان دوفيني أبعد من أن تكافئَ أرواحَ البروفانس ولانغدوغ. إنّ سكّان الجبال بونابرتيون يا سيّدي.

غمغم لويس الثامن عشر: - إنّ الرّجلَ حقًا على اطّلاع. (ثمّ أضافَ بصوتٍ أعلى) وكم رجلًا معه؟

أجابه وزير الشرطة: - لست أدري يا سيّدي.

- كيف لا تدري؟ هل نسيت أن تستعلم عن هذا الأمر؟ -ثمّ أضاف بابتسامة ثقيلة- صحيحٌ أنّه أمرٌ تافه لا يستحقّ.

- سيّدي، لم يكن بوسعي أن أعرف؛ إنّ البرقية لم تكن تحمل سوى تاريخ النّزول في فرنسا، والطّريق التي اتّخذها الغاصبُ.

- وكيف وصلتكم تلك البرقية إذًا؟

طأطأ الوزير رأسَه، وقد اجتاحت جبينَه حمرةٌ ضاجّة، وقال متلعثمًا:

- بالتلغراف، يا سيّدي.

خطا لويس الثامن عشر خطوةً إلى الأمام، وشبّك ذراعيه، مثلما كان ليفعل نابليون، ثمّ قال ولونه يمتقع من الغضب:

- هكذا إذًا، سبعةُ جيوشٍ متحالفةٍ أسقطت الرّجلَ؛ وبمعجزةٍ إلهية عدتُ إلى اعتلاء عرش أسلافي، بعد خمس وعشرين سنةً من المنفى؛ وقد أنفقت تلك الخمس وعشرين سنةً في دراسة وتحليل أناسٍ وأمورِ فرنسا التي كنت موعودًا بها، وحين أبلغ غاية آمالي، تنفجر قوّة كنت أمسكها بين يديَّ وتتشظّى!

غمغم الوزير: «إنّه القدَر» شاعرًا أنّ ثقلًا كذاك، ثقلًا خفيفًا في ميزان القدر، يكفي لكي يسحقَ رجلًا.

- صحيح إذًا ما يقوله عنّا أعداؤنا: لا نتعلّمُ شيئًا، ولا ننسى شيئًا؟

لو أنّني تعرّضت للخيانة مثلما تعرّض لها هو، لهان عليّ الأمر؛ لكن أن أكون وسط رجالٍ ربيّتهم بنفسي، رجالٍ يفترض أن يحرصوا عليّ أكثر من حرصهم على أنفسهم، لأنّ مُلكي هو ملكهم، رجالٍ قبلي ما كانوا شيئًا يذكر، وبعدي لن يعودوا شيئًا يذكر، أن أكون وسطهم فأهلَكُ بئسَ الهلاك، بسبب عجزهم وانعدام كفاءتهم! آه! يا سيّدي، إنّك محقّ، هو القدَر.

ظلّ الوزير كالمنكسر تحت الغضب الرّهيب. مسح بلاكاس جبينه الناضح عرقًا؛ بينما كان فيلفور يبتسم في قرارة نفسه، إذ أحسّ شأنَهُ يعلو.

واصل لويس الثامن عشر الكلامَ، وكان قد سبر بنظرةٍ واحدةٍ الهاويةَ المعلّقة على حافتها الملكيّةُ:

- أن أسقط، وأعلم بسقوطي عبر التلغراف! آه! إنّي لأفضّل أن أصعد المقصلة التي صعد إليها أخي لويس السّادس عشر، على أن أنزل درجات قصر تويلري، مطرودًا من طرف التّافه... التّافه، سيّدي، لا تعرفُ ماذا يعني في فرنسا، ومع ذلك ينبغي أن تعرف.

قال الوزير همسًا: - سيّدي، سيّدي، رجاءً!...

واصل الملك كلامه، موجّهًا حديثَه إلى الشّاب الذي كان يقف ساكنًا في الخلف يتابع سير الحديث الذي يتأرجح فيه مصير المملكة:

- اقترِبْ، يا سيّد فيلفور، اقترب علّنا نعرفُ كلّ ما لم يعرفهُ وزير الشرطة.

قال فيلفور: - سيّدي، لقد كان، من النّاحية المادية مستحيلًا تخمين المشاريع التي كان هذا الرّجل يخفيها عن الجميع.

- مستحيل من النّاحية الماديّة! بلى، هي ذي كلمةٌ كبيرة يا سيّدي؛ على أنّه مثلما توجد كلمات كبيرة، يوجد رجالٌ كبارٌ، وقد خبرتُ ذلك بنفسي. وزير، يملك إدارةً بأكملها، وجلّادين، وعملاء، وبصّاصين، وجواسيس، ومائة وخمسين ألف فرنكٍ ميزانيةً غير معلنة، مستحيل عليه

من النّاحية الماديّة أن يعلم ما يجري على بعد ستّين فرسخًا من سواحل فرنسا! حسنًا، هاكُم رجلًا، ليس سوى قاضٍ بسيطٍ، ومع ذلك يعرف أكثر ممّا تعرفه أنت ورجال شرطتك أجمعينَ؛ وقد كان يمكن أن يُنقذَ عرشي لو كان له أن يدير تلغرافًا مثلما تفعل أنت.

استدارت نظرة وزير الشّرطة، وملامح وجهه تقطرُ حسدًا وغضبًا، شطرَ فيلفور الذي أحنى رأسَه بتواضع المنتصر.

واصلَ الملك كلامَه: - لن أقول الشّيء نفسَه فيك أنت يا بلاكاس، لأنّك وإن لم تكتشف شيئًا، إلا أنّك امتلكت حصافةَ البقاءِ رهنَ الشّكوك: غيرك ربّما كان ليحسب تصريح فيلفور مجرّد هراءٍ، أو ربّما اعتبره مجرّد اختلاقٍ يسعى به إلى التّملّق.

كانَ الملك بكلامه ذاك يلمحّ إلى ما نطق به رئيس الشّرطة ساعةً قبل ذلك.

أدرك فيلفور لعبةَ الملك. ولو أنّ أحدًا غيرَه كان في موضعه، لترك نفسه ينقاد وراء فتنة الكلام؛ لكنّه خاف من أن يجعل من وزير الشرطة عدوًّا مميتًا، وإن كان يشعر بأنّ الرّجلَ قد ضاعَ ضياعًا لا عودة منه. والحال أنّ الوزير الذي لم يستطع وهو في عزّ قوّته أن يعرف سرّ نابوليون، يستطيع وهو في لحظات احتضاره أن ينفذ إلى سرّ فيلفور: يكفيه أن يستنطق دانتِس. هكذا انتهى إلى أن يمدَّ يد العون للوزير بدلًا من أن يُمعن في إغراقِه.

قال: - سيّدي، إنّ السّرعة التي وقع بها الأمرُ تؤكّد لجلالتكم أنّ الربّ وحدَه كان يستطيع أن يوقفه بعاصفةٍ من عواصفه؛ إنّ ما تحسبونَه نتيجةَ تبصّر عميقٍ منّي، ما هو في حقيقة الأمر سوى ثمرة الصّدفة؛ وقد استغللت الفرصةً كأيّ مواطنٍ مخلص، وهذا كلّ ما في الأمر. لا تمنحني أكثر ممّا أستحقّه يا سيّدي، لكَي لا أخيّبَ يومًا الصورةَ التي رسمتَها عنّي أوّل مرّة.

شكَر وزير الشّرطة الشّابَ بنظرةٍ بليغة، فأدرك فيلفور على الفور أنّه نجح في خطّته: أي إنّه من دون أن يخسر شيئًا من عرفان الملك، كسبَ للتوّ صديقًا يمكنُه التعويل عليه.

قال الملك: - حسنًا! (ثمّ واصل كلامه محوّلًا نظرَه إلى بلاكاس ورئيس الشّرطة) والآن، يا سادة، ما عدتُ بحاجةٍ إليكما، تستطيعان الانصراف، فما تبقّى هو شأنُ وزير الحرب.

قال السيّد بلاكاس: - لحُسن الحظّ، يا سيّدي، يمكننا الاعتماد على الجيش. جلالتكم تعلمون أنّ التقارير تشير إلى مدى استعدادهم للدّفاع عن حكومتكم.

- لا تُحدّثني عن التقارير أيّها الدّوق. فقد بتّ الآن أُدرك إلى أيّ درجة ينبغي أن نثق فيها. لكن، بالمناسبة، ماذا علمت من جديدٍ، أيّها البارون، بخصوص قضيّة شارع سان جاك؟

لم يتمالك فيلفور نفسه وهو يسمع ما تفوّه به الملك، فصاح: - بخصوص قضيّة شارع سان جاك!

لكنّه على الفور لجم نفسه، وقال: - عفوك يا سيّدي، إنّ إخلاصي لجلالتكم لا ينفكّ ينسيني، ليس الاحترامَ الواجبَ لكم، ذاك أنّه احترامٌ محفورٌ عميقًا في قلبي، وإنّما ينسيني قواعدَ اللّياقة.

أجابَه لويس الثامن عشر: - قُل وافعل ما شئتَ؛ لقد حُزتَ اليومَ حقّ أن تُسائِلَ.

قال وزير الشرطة: - سيّدي، لقد وضعتُ اليومَ بين أيدي جلالتكم آخر المعلومات التي جمعتُها بخصوص هذا الحدث، لكنّ مصيبةَ الخليج الرّهيبةَ صرفت انتباهكم؛ والآن لن يعود لهذه المعلومات أيّ أهميّةٍ.

قال لويس الثامن عشر: - بالعكس، يا سيّد، إنّ هذه القضية تبدو لي

وثيقة الصّلة بالقضية التي تشغلُنا، لربّما وضعنا موتُ الجنرال كيسنل[1] على درب انقلابٍ داخليّ كبير.

ارتجفَ فيلفور لسماع اسم الجنرال كيسنل.

استأنفَ وزير الشّرطة الكلَام: - الواقع، يا سيّدي، إنّ كلّ الدلائل تشير إلى أنّ موته أتى اغتيالًا، وليس انتحارًا كما حسبنا أوّلَ الأمر. لقد كان الجنرال كيسنل يغادر أحد الأندية البونابرتية، حين اختفى. لقد أتاه رجلٌ مجهولٌ صبيحة اليوم نفسِه، وضرب له موعدًا في شارع سان جاك؛ وللأسف، تمكّن الخادمُ، الذي كان يمشّط شعرَ الجنرال حين دخل عليه الغريب، من أن يسمع شارع سان جاك، لكنّه لم يلتقط الرّقم.

وبقدر ما كان وزير الشّرطة يمضي في عرض التّفاصيل على الملك، كان فيلفور، الذي بدا كالمتعلّقِ بشفتَيه، يشحبُ ويحمَرّ.

استدار الملك صوبَه وقال: - ألا تُشاطرني الرّأيَ يا سيّد فيلفور، في أنّ الجنرال كيسنل، الذي كان يُعتقد في ارتباطه بالغاصبِ، بينما هو في الواقع أحد رجالي، قد ماتَ ضحيّة كمين نصبَه له البونابرتيون؟

قال فيلفور: - إنّه أمرٌ واردٌ، لكن ألا تعرفون معلوماتٍ أخرى؟

- نحن في آثار الرّجل.

كرّر فيلفور: - في آثار الرّجل؟

- نعم، فقد أعطانا الخادم وصفَه: إنّه رجلٌ بين الخمسين والثانية والخمسين، أسمر، عيونُه سوداء تعلوها حواجب كثيفة، وله شارب؛ وقد يرتدي كنزة زرقاء، ويتقلّد وسام جوقة الشّرف. ولقد تبعنا أمس شخصًا يطابقُ تمامًا المواصفات التي ذكرتُها، لكنّنا فقدنا أثره عند ملتقى شارعَي جوسيين وكوك إيرون.

اتّكأ فيلفور على مسند أحد المقاعد؛ إذ بقدر ما كان الوزير يمضي

---

(1) الجنرال كيسنل: جنرال جيش نابليون.

في كلامه، بقدر ما كان يحسّ هوَ بقدميه تتقوّضان تحتَه؛ لكن حين علمَ أنّ الشّخص المجهول قد أفلت من الشرطيّ الذي كان يتعقّبه، تنفّس الصّعداء.

قال الملك لوزير الشّرطة: - اِبحثوا عن الرّجل؛ لأنّ كلّ المؤشرات تفيد بأنّ الجنرال كيسنل، الذي كان مفيدًا جدًّا لنا، قد ماتَ غيلةً، وسواءً كان قاتلوه بونابرتيّين أم لا، فإنّني أريد أن يُقتَصَّ منهم شرّ قصاص.

وقد احتاج فيلفور أن يستجمع كلّ صلابة أعصابه، حتّى لا ينفضح الرّعب الذي قذفَه في نفسِه أمرُ الملك.

واصل الملك الكلام بنبرة فكهة: - ما أغربَه من وضع! الشّرطة تحسبُ أنّها قالت كلّ شيء حين قالت: «لقد وقعت جريمةٌ»؛ وتحسبُ أنّها فعلت كلّ شيء حين أضافت: «إنّنا نقتفي أثر المذنبين».

- سترى ما يسرّك يا سيّدي من هذه النّاحية، هذا ما أرجوه.

- طيب، سنرى؛ بإمكانك الانصراف أيّها البارون؛ وأنت يا سيّد فيلفور،لا بدّ أنّك متعب بعد سفرك الطّويل، اذهَب لترتاحَ. لا بد أنّك قد نزلتَ في بيت والدك؟

توهّجت عينا فيلفور، وقال:

- كلاّ يا سيّدي، لقد نزلت في نزل مدريد بشارع تورنون.

- ألم تزُرهُ إذًا؟

- سيّدي، لقد توجّهت مباشرةً إلى منزل الدّوق بلاكاس.

- لكنّك على الأقلّ ستزوره؟

- لا أظنّ ذلك يا سيّدي.

قال لويس الثامن عشر مبتسمًا ابتسامةً تقطع في أنّ كلّ تلك الأسئلة لم تكن مجانيّة:

- آه! أجل، لقد نسيت أنّ علاقتك بالسيّد نوارتييه فاترة، وأنّ تلك تضحية أخرى منك لأجل الملكيّة، وعليَّ أن أعوّضكَ عنها.

- سيّدي، إنّ شهادتك هذه لهي خير مكافأةٍ، مكافأة تتجاوز بكثيرٍ كلّ ما يمكن أن أطمح فيه، وليس لي أن أطلب أكثر من جلالتكم.

- لن ننساك يا سيّدي، وفي انتظار ذلك (وهنا نزع الملك وسام جوقة الشّرف الذي يرتديه بالعادة فوق ملابسه الزرقاء، جنبَ صليب سان-لويس، وفوق وسام الشرف نوتردام مون كارميل وسان لازار، وأعطاه فليفور)، خُذ هذا الوسام إلى الأبد.

قال فيلفور: - سيّدي، أخشى أنّكم مخطئون، هذا الوسام الرّسمي.

- خُذه، بحق السّماء، ليس عندي الوقت لصنع آخر. يا سيّد بلاكاس، احرص على أن يتوصّل السيّد فيلفور بشهادة حيازة الوسام.

تلألأت في عين فيلفور دمعةُ فرح؛ وأخذ الوسامَ فقبَّلَه، ثمّ قال: - والآن، أيّ أوامر تشرّفونني بها جلالتكم؟

قال الملك: - الآنَ، خُذ ما تحتاجُه من راحةٍ، وضع ببالك أنّك ستكون مفيدًا جدًا لي في مارسيليا.

أجاب فيلفور وهو ينحني: - سيّدي، بعد ساعةٍ سأكون قد غادرت باريس.

قال الملك: - تفضّل يا سيّدي، وإن نسيتُك -لأنّ ذاكرة الملوك قصيرة- فلا تجد حرجًا في أن تذكّرني... سيّدي البارون، أرسل في طلب وزير الحرب. وأنت يا بلاكاس، اِبقَ.

وعند خروجهما من قصر تويلري، قال وزير الشرطة لفيلفور: - لقد دخلت من الباب المناسب، وضمنتَ مكانتك.

«لكن، هل سيدوم ذلك؟» (غمغم فيلفور وهو يحيّي الوزير، الذي كانت أيّامُه قد انقضت، ويبحثُ بعينيه عن عربةٍ تقلّه إلى بيته).

مرّت على الرّصيف عربة أجرة. أشار إليها فيلفور، فاقتربت. أعطى فيلفور الحوذيَ عنوانَه، ثمّ ارتمى بداخلها، وأسلم نفسه إلى خيالات طموحه. بعد ذلك بثماني عشرة دقيقة كان فيلفور قد عاد إلى غرفته؛ وقد أمر بتجهيز الخيول في ساعتين، وطلب الغداء.

كان يتهيأ للجلوس إلى مائدته حين قرعت الجرسَ يدٌ صريحةٌ وصارمة:
- ذهب الخادم يرى من الطّارق، ثمّ سمع فيلفور صوتًا يردّد اسمَه.

تساءل الشّاب: - من ذا الذي لديه علمٌ بوجودي هنا؟

وفي تلك اللّحظة دخل الخادم.

سأله فيلفور: - ماذا هناك؟ من الذي قرع الجرسَ؟ من يسأل عنّي؟

- غريبٌ لا يريد الإفصاح عن اسمه.

- كيف غريبٌ لا يريد الإفصاح عن نفسِه؟ وما الذي يريده منّي هذا الغريب؟

- يريد الحديث إليك يا سيّدي.

- يتحدّث إليَّ أنا؟

- نعم.

- هل ذكرني بالاسم؟

- بالاسم.

- وما صفةُ هذا الغريب؟

- إنّه رجلٌ خمسينيّ يا سيّدي.

- قصيرٌ؟ طويل؟

- في طولكم تقريبًا يا سيّدي.

- أسمر أم أشقر؟

- أسمر، شديد السّمرة، أسود الشّعر والعينين والحاجبين.

سأله فيلفور بحدّة: - وماذا يرتدي؟

- يرتدي معطفًا أزرقَ طويلًا، مزرّرًا من أسفله إلى أعلاه؛ ويتقلّد وسام جوقة الشّرف.

غمغم فيلفور شاحبًا: - إنّه هو!

ثمّ إنّ الشّخص الذي أشرنا إليه مرّتين في معرض كلامنا السّابق، برزَ عند الباب، قائلًا:

- يا لها من لباقة! هل من العادة في مارسيليا أن يترك الابن أباه عند صالة الانتظار؟

صاح فيلفور: - أبي! لم أخطئ التقدير إذًا... وكنت أعلم أنّه أنت.

قال الزائر، وهو يضع عصاه في أحد الأركان، ومعطفَه على أحد الكراسي: - طيب إذًا، طالما كنت تظنُّ أنّ القادم هو أنا، فاسمح لي أن أقول لك يا جِيرار إنّه ليس لطيفًا منك تركي أنتظر على هذا النّحو.

قال فيلفور: - اتركنا الآن يا جرمان.

وخرج الخادم تعلو وجهه أماراتُ الدّهشة واضحةً.

12

الأب والابن

نوارتييه، لأنّ الدّاخل بالفعل كان هو نوارتييه، تبع بعينيه الخادم إلى أن أقفل الباب خلفَه؛ ثمّ، إذ خشيَ أن يتنصّت عليهما من الرّدهة، ذهب خلفه، ففتح البابَ. ولم يكن احتياطهُ عبثًا، ذلك أنّ السّرعة التي انصرف بها جرمان تُؤكّد أنّه لم يكن براءً من الخطيئة التي أضاعت أبوَينا الأوَّلين[1]. تجشّم السيّد نوارتييه إذّاك بنفسه عناء إغلاق باب الرّدهة، ثمّ عاد إلى باب الغرفة فأغلقه، ووضع الأقفال، ثمّ عاد يمدّ يدَه إلى فيلفور الذي كان يتابع كلّ ذلك بذهولٍ لم يستفق منه.

قال نوارتييه مخاطبًا الشّاب الذي كان ينظر إليه بابتسامةٍ يصعبُ سبر معناها:

- أوّاه! هل تدري يا عزيزي جيرار بأنّ ملامحك تشي بأنّك غير سعيد لمرآيَ؟

- كلاّ يا أبي، إنّي سعيدٌ بلقائك، لكنّني لم أكن أنتظر زيارتَك، حتّى إنّ الأمر أذهلني.

قال نوارتييه وهو يجلس:

- يبدو لي أنّني أنا أيضًا أستطيع أن أزعم ذلك. كيف تبلغني بخطبتِك في مارسيليا يوم 28 فبراير، وفي الثالث من مارس تأتي إلى باريس؟

أجابَه فيلفور وهو يقترب منه:

- لا تتذمّر، فلعلّ سفري هذا هو ما أنقذك.

---

(1) يقصد آدم وحواء، وخطيئة الفضول.

قال نوارتييه وهو يتمدّد غيرَ مبالٍ على الأريكة التي كان يجلس فوقها: - آه! حقًّا؛ حقًّا! أخبرني بما لديك إذًا يا سيّدي القاضي، لا بدّ أنّه أمرٌ مثير للاهتمام.

- أبي، هل سمعتَ بنادٍ بونابرتي يُعقَدُ في شارع سان جاك؟

- هل تقصدُ الرقم 53؟ نعم، وأنا نائب رئيسه.

- أبي، إنّ برودة أعصابك تجعلني أرتعد.

- وماذا تنتظر يا عزيزي؟ من لاحقَه الجبليُّون، من خرج من باريس متخفيًا في عربة تبن، مَنْ لاحقته كلابُ روبسبيير عبر أراضي بوردو، فإنّه يكسب مناعةً ضدّ عديد من الأشياء. واصل كلامك إذًا. حسنًا ما الذي حدث في نادي شارع سان جاك المذكور؟

- حدث أن استدرجوا إليه الجنرال كيسنل، وأنّ الجنرال كيسنل خرج من بيته في التّاسعة مساءً، وفي اليوم التالي وُجدت جثّته ملقاةً في نهر السّين.

- من حكى لك هذه الحكاية الجميلة؟

- الملك بنفسه يا سيّدي.

- وإذًا فإنّي سأقايض حكايتك بحكاية أخرى جديدة.

- أبي، أعتقد بأنّني على علم مسبقٍ بما تريد إخباري به.

- آه! أنت على علم بنزول جلالة الإمبراطور؟

- اصمت يا والديَ رجاءً؛ اصمت لمصلحتك أوّلًا، ثمّ لمصلحتي ثانيًا. نعم، علمت بذلك، لا بل إنّي علمت به قبل أن تعلم به أنت. ومنذ ثلاثة أيّام وأنا أحرق المسافات حرقًا، من مارسيليا إلى باريس، ساعيًا إلى أن أقّذف مسافةَ مائتي فرسخ أمامي بالفِكَر التي يحترق لها دماغي.

- منذ ثلاثة أيّام! هل جننت؟ منذ ثلاثة أيامٍ، لم يكن الإمبراطور بعدُ قد نزل.

- أيًا يكن، لقد كنت على علمٍ بنيّته.

- وكيف علمت؟
- من رسالةٍ كانت مرسلةً إليك من جزيرة إلبا.
- مرسلةً إليّ أنا؟
- أجل، ولقد عثرت عليها في حافظة الرّسول. ولو أنّ الرّسالة وقعت في يد غيري، لربّما كنتَ قد أعدمتَ رميًا بالرّصاص.
أخذ والد فيلفور يضحك، ثمّ قال:
- مهلًا، مهلًا، أظنُّ أنّ الدّولة المعاد تنصيبُها قد تعلّمت من الإمبراطورية حلّ الأمور بشكلٍ أرقى... أُرمى بالرّصاص! لقد ذهبتَ بعيدًا يا عزيزي! والرّسالةُ، أينَ هي؟ أعرفك حريصًا، ولا بد أنك لم تدعها عرضةً للضياع.
- لقد أحرقتُها، خوفًا من أن يبقى منها أيّ أثر، لأنّ فيها دليل إدانتك.
عقّب نوارتييه ببرود:
- وفيها أيضًا نهاية مستقبلك؛ أجل إنّي لأفهمك، لكن ليس لديّ ما أخشاه ما دُمتَ تحميني.
- لا بل أكثر من الحماية. أنا أنقذك.
- أوه! يا للهول! إنّ الأمور تتّخذ منحى دراماتيكيًا؛ أفصِح إذًا.
- أعود إلى الحديث عن نادي سان جاك المذكور، يا سيّدي.
- يبدو أنّ هذا النّادي ذا حظوةٍ خاصّة لدى السّادة رجال الشّرطة. لِمَ لمْ يجدّوا في طلبه إذًا؟ لو أنّهم جدّوا في بحثهم عنه لكانوا وجدوه.
- لم يجدوه، لكنّهم يقتفون أثرَه.
- تلكم هي العبارة التي يلجأ إليها رجال الشرطة حين يعيون الجوابَ، يقولون إنّهم يقتفون الأثرَ، فتركن الحكومة تنتظر إلى أن يحين الوقت الذي يأتون فيه قائلين إنّهم قد فقدوا الأثر.
- أجل، لكنّهم وجدوا جثّةً. إنّ الجنرال كيسنل قد قُتل، وفي جميع بلدان العالم تُسمّى تلك جريمة قتل.

– جريمة قتل تقول؟ لكن، لا دليل على أنّ الجنرال اغتيل. إنّنا نجد طيلة الوقت أناسًا بنهر السين، ارتموا فيه بدافع اليأس، أو غرقوا لأنّهم لا يحسنون العومَ.

– أبي، أنت تعلم علم اليقين أنّ الجنرال كيسنل لم يرم نفسه في النّهر يأسًا، وأنّ لا أحد يسبح في نهر السّين إبّانَ شهر يناير. كلّا، لا توهم نفسك، إنّها ميتةٌ تصنّفُ في خانة جرائم القتل.

– ومن ذا الذي صنّفها كذلك؟

– الملك نفسه.

– لقد ظننتُه فيلسوفًا بما يكفي ليدرك أنّ في السياسة لا وجود لجرائم قتل. كلانا نعلم يا عزيزي أنّ في السياسة ليس ثمّة رجالٌ وإنّما أفكارٌ؛ لا عواطف وإنّما مصالح؛ في السياسة لا نقتل إنسانًا، وإنّما نزيح من طريقنا عقبة، وهذا كل ما في الأمر. هل تريد أن تعرف ما الذي وقع؟ حسنًا سأخبرك: كنّا نحسب أنّ بوسعنا الاعتماد على الجنرال كيسنل، إذ أتت التوصية به من جزيرة إلبا؛ فذهب أحدنا إلى بيته، ودعاه إلى شارع سان جاك، حيث يحضر اجتماعًا مع أصدقاء؛ وكان أن جاء، فبسطنا أمامه الخطّة بأكملها، بدءًا من مغادرة جزيرة إلبا، وحتّى الوصول المتوقّع؛ وبعدما استمع إلى كلّ شيء، أخبرنا بأنّه ملكيٌّ؛ فأدرنا الأعين بعضنا في بعض؛ ثمّ إنّنا جعلناه يقسمُ، فأقسَم، لكن بسوء نيّة. ومع ذلك، تركناه يغادر حرًا سليمًا. لكنّه لم يقصد بيته. ماذا تنتظر إذًا؟ لقد خرج من عندنا، ولعلّه أخطأ الطّريق، وهذا كلّ ما في الأمر. جريمة قتل؟ إنّك لتدهشني يا فيلفور، وأنت نائبُ وكيل الملك، إذ تبني اتّهامك على براهين واهية لهذه الدّرجة. هل حدث مثلًا، وأنت تمارس مهامك الملكية، فتأمر بقطع رأس تابع من أتباعي، أن خاطبتُك قائلًا: «لقد ارتكبتَ جريمة قتل يا بنيَّ!». كلّا، وإنّما أقول: «حسنًا، لقد حاربتُم فانتصرتم يا سادتي؛ وغدًا نضربُ لكم موعد انتقام».

- فاحذر إذن يا والدي، فإنّ انتقامًا سيكون رهيبًا حين تراه.
- لا أفهم!
- هل تعوّل على عودة الغاصب؟
- أقرّ بذلك.
- إنّك مخطئ في تعويلَك يا أبي، إنّه لن يتقدّم داخل فرنسا أكثر من عشرة فراسخ من دون أن يُلاحَق، سيحاطُ ويوقَع به كما يوقَع بالحيوان الضاري.
- عزيزي، إنّ الإمبراطور في هذه اللحظة، على طريق غرونوبل، وفي العاشر أو الثاني عشر من هذا الشّهر سيوافي ليون، ثمّ ينزل باريس في العشرين أو الخامس والعشرين.
- سينتفض الشّعب...
- سينتفض لنصرته.
- ليس معه إلا قليلون، وسترسَلُ لمواجهته جيوشٌ.
- جيوش تحميه إلى أن يدخل العاصمة. الحقّ يا عزيزي جيرار، إنّك لا تزال غرًّا؛ تحسب نفسك على بيّنةٍ فقط لأنّ برقيّةً وصلتك، ثلاثة أيّام بعد النّزول، تقول: «إنّ الغاصب قد نزل مدينة كان صحبة بضعة رجالٍ؛ وإنّنا نلاحقه». لكن أين هو؟ وماذا يفعل؟ لست تدري. إنّه ملاحقٌ، هذا مبلغُ علمك. وأنا أقول لك إنّه سيظلُّ ملاحَقًا حتّى يدخل باريس، من دون أن تُطلق شرارةٌ واحدة.
- إنّ غرونوبل وليون مدينتان مخلصتان، وستضعان أمامَه حاجزًا منيعًا.
- غرونوبل ستفتح أمامَه أبوابَها بحماسة، وليون ستخرج لنصرته عن بكرة أبيها. ثق بنا، نحن نعلم قدرَ علمكم، وشرطتنا لا تقلّ كفاءةً عن شرطتكم. أتريد دليلًا على ذلك؟ لقد سعيتَ إلى إخفاء أمر سفرك، ومع ذلك علمتُ به بعد نصف ساعةٍ من اجتيازك الحدود؛ لم تُعطِ عنوانَك

أحدًا سوى سائقكَ، ومع ذلك حصلت على عنوانك، ولا أدل على صدق قولي من أنّني جئتُك في اللحظة التي كنت تستعدّ فيها للجلوس إلى المائدة؛ اقرع الجرسَ إذًا واطلب أوانيَ إضافية؛ سنتعشّى معًا.

أجاب فيلفور وهو ينظر إلى والده نظرة ذهول: - الحقّ أقول إنّك تبدو لي على بيّنة.

- يا إلهي! إنّ الأمر غايةٌ في البساطة: أنتم، يا من بإيديكم السّلطة، لستم تملكون من وسيلة إلا المال؛ أمّا نحن، السّاعين إلى السّلطة، فإنّ لنا الوسائل التي يمنحها التفاني.

علّق فيلفور ضاحكًا: - التفاني؟

- أي نعم، التفاني؛ فهكذا يسمّى صدقًا، الطموح المفعم بالأمل.

ثمّ إنّ والد فيلفور مدّ يدَه بنفسه صوب مقبض الجرس كي ينادي الخادم بعدما لم يفعل ابنُه.

لكنّ فيلفور أوقف ذراعَه، قائلًا: - مهلًا يا أبي، أمرٌ آخر.

- قُل!

- مهما كانت الشرطة الملكيّة سيّئة، فإنّها تعرف أمرًا رهيبًا.

- أيّ أمر؟

- أوصاف الرّجل الذي جاء بيت الجنرال صبيحة اليوم الذي شهد اختفاءَه.

- أوه! تعرفُ هذا، تلك الشّرطة الماهرة؟ وما أوصاف الرّجل؟

- رجلٌ أسمر البشرة، شعرُه وحواشي لحيته الكثّة وعيناه كلّها سوداء، يرتدي سترة زرقاء مزرّرة من أسفلها إلى أعلاها، ويضع وردة ضبّاط جوقة الشّرف، ويعتمر قبّعةً عريضة الحواشي، ويحمل عصًا من نبات الأسل.

- أوّاه! أتعلم كلّ هذا؟ ولمَ إذن لم تمسك بالرّجل حتّى اللحظة؟

- لأنّها فقدت أثره أمس، أو أوّل أمس، عند ناصية شارع كوك إيرون.

- علمتَ إذًا لما أقول إنّ شرطتكم مغفّلة؟
- أجل، لكنّها تستطيع إلقاء القبض عليه في أيّ لحظة.
أجاب نوارتييه وهو يجيل بصرَه حواليه: - نعم، إن لم يُعلَم هذا الرّجل بذلك. وها قد أُعلِمَ؛ (ثمّ أضافَ مبتسمًا) والآن سيغيّر وجهه ولباسَه.
بعد ذلك، قام نوارتييه واقفًا، ونزع كنزته وربطة عنقه، ثمّ قصد طاولةً كان قد وُضع فوقها كلّ ما يخصّ زينة ابنه الأساسيّة، فأخذ موسى، ودهن وجهه بالصّابون، وبيدٍ ثابتة حلق حواشي لحيته المشبوهةَ التي كانت لتشكّل قرينةً ثمينةً بالنّسبة للشرطة.
وكان فيلفور يراقبُه برعبٍ لا يخلو من إعجاب. وبعدما فرغ من حلق حواشي لحيته، انتقل إلى شعره فجزّ بعضه. ثمّ استبدل بربطة عنقه السّوداء ربطة عنقٍ ملوَّنة لاحت من حقيبةٍ مفتوحة؛ وبدلًا من كنزته الزرقاء المزرَّرة ارتدى كنزة من كنزات ابنه، بُنيّة اللّون، واسعة الأطراف؛ وجرّب أمام المرآة قبّعة الشّاب ذات الحواشي المثنية، فبدا راضيًا عن مظهرها عليه؛ وبدلًا من عصاه المصنوعة من نبات الأسل، والتي كان قد تركها عند حافة المدخنة، حمل بيده المعروقة عصًا صغيرةً طيّعةً من قصب البامبو، أضافت إلى مشية الرّجل الأنيق مسحة التهكّم التي كانت إحدى صفاته الأساس.
وبعدما أنهى تحوّلَه استدار صوب ابنه الذي كان يراقبُه مذهولًا، قائلًا:
- والآن، هل لا تزال تعتقد أنّ الشّرطة ستتعرّف عليّ؟
غمغم فيلفور: - كلّا يا أبي، ذاك ما أرجوه على الأقلّ.
واصل نوارتييه: - والآن يا عزيزي جيرار، أعوّل على حرصك في أن تتخلّص من كلّ الأشياء التي أتركها في عهدتك.
- أوه! اطمئنّ يا أبي.
- نعم، نعم! والآن بتُّ أعتقد أنّك محقّ، وأنّك بالفعل قد تكون

أنقذت حياتي؛ لكن لتطمئنّ، إنّه دينٌ عليَّ وسأوفيه قريبًا.

هزّ فيلفور رأسَه. فقال نوارتييه: - ألست مقتنعًا؟

- آملُ، على الأقلّ، أن تكون مخطئًا.

- هل سترى الملك مرّةً أخرى؟

- ربّما.

- هل تريد أن تبدو في عينيه نبيًا؟

- إنّ أنبياء الشؤم ليس مرحبًا بهم في البلاط يا أبي.

- أجل، لكن، وإن طال الزمن لا بد أن يُنصفوا يومًا؛ توقّع رجوعًا ثانيًا، وسيرفعون مقامَك.

- حسنًا، ما الذي ينبغي أن أقوله للملك؟

- قُل له هذا: «سيّدي إنّنا مخطئون في تقدير استعدادات فرنسا، وميول المدن، وحالة الجيش؛ إنّ من تسمّونه في باريس غول كورسيكا، من لا يزال يسمّى في نُفير الغاصبَ، صاروا يسمّونَه في ليون بونابرت، وفي غرونوبل الإمبراطور. تحسبونَه ملاحقًا، محاطًا، هاربًا؛ في حين أنّه يتقدّم سريعًا كالنّسر الذي يحمله. الجنود الذين تظنّونهم ميّتين من الجوع، مسحوقين من التّعب، متأهّبين للانشقاق، يتعاظمون وتتزايد أعدادهم كذرات الثلج التي تلتصق بالكرة المتدحرجة سريعًا. سيّدي، ارحل؛ اترك فرنسا لسيّدها الفعليّ، اتركها للّذي لم يشترِها، وإنّما فتحَها؛ ارحل، ليس لأنّ خطرًا يهدّدُك، فخصمك عظيمٌ ليغفر لك، وإنّما لأنّها مهانةٌ أن يصير حفيد سان لويس تحت رحمة رجلِ أركول ومرنغو وأوسترليتز[1]». قُل له هذا يا جيرار؛ أو بالأحرى، لا تقُلَ له شيئًا؛ ارحل، واكتُم خبر سفرك؛ لا تفتخر بما أتيت تفعله وبما فعلتَه في باريس؛ استقلّ

(1) كلّها أسماء أماكن شهدت معارك انتصر فيها نابوليون، الأوّلان من أعمال إيطاليا، والثالث في منطقة مورافيا بجمهورية التشيك.

المراسلة، وإن كنتَ قد حرقت الطريق آتيًا، فانهَبْها عائدًا؛ ادخُل مرسيليا ليلًا، تسلّل إلى بيتك من باب خلفيّ، وقرّ هادئًا، وديعًا، متكتّمًا، وخاصّةً مسالمًا، لأني أقسم لك أنّناً، هذه المرّةَ، سنتصرّف كرجالٍ قساةٍ يعرفون أعداءهم. هيا يا بنيّ، هيا يا جِيرار، ولتحسب طاعتك هذه انصياعًا إلى أوامر أبيك، أو، إن أحببتَ، انقيادًا إلى نصائح صديق. سنتركك في منصبك. (ثمّ أضاف باسمًا) وستكون تلك وسيلة في يدك تنقذني بها مرّة أخرى إن شاءت تقلّبات السيّاسة أن ترفعك إلى أعلى وتنزلني إلى أسفل. وداعًا عزيزي جيرار؛ وفي سفْرَتك القادمة، انزل عندي.

وإذ أتمّ نوارتييه كلامَه، خرج بالهدوء نفسه الذي لم يفارقه لحظةً طيلةَ المحادثة الشّاقة.

هرع فيلفور إلى النّافذة، شاحبًا مضطربًا، واربَ السّتارَ، فرأى والده يعبرُ، هادئًا لا مباليًا، بين رجلين أو ثلاثة ذوي هيئةٍ لا تطَمئِن، كانوا واقفين عند ملتقى الشّوارع، ربّما كامنين للرّجّل ذي حواشي اللّحية السّوداء، والكنزة الزرقاء والقبّعة ذات الحواشي الواسعة.

ظلّ فيلفور كذلك، واقفًا يلهث، إلى أن اختفى والده عند ملتقى طرق بوسيه. إذّاك هرع إلى الأشياء التي خلّفها نوارتييه، فوضع في حقيبته عميقًا ربطة العنق السّوداء والكنزة الزّرقاء، ولفّ القبّعة وحشرها تحت أحد الأدراج، وكسر عصا الأسل إلى ثلاث وألقى بها إلى النّار؛ ثمّ اعتمر قبّعة سفر، ونادى خادمه، وبنظرةٍ واحدة منعه من طرح أيّ سؤال من الأسئلة الألف التي كانت تعتمل في ذهنه، دفع ما عليه من نقود، ثمّ قفز إلى عربته التي كانت تنتظره جاهزةً. وحين وصل إلى ليون علِم أنّ بونابرت قد دخل مدينة غرونوبل؛ وواصل الشّاب طريقه وسط الهياج الذي يعتري الطريق بأكملها، حتّى وصل مارسيليا ونفسه نهبٌ لكلّ الآمال التي تخترق قلب رجلٍ طموح وضع قدمه على أولى درجات التّشريف.

13

الأيامُ المائة

كان نوارتييه أشبه بمتنبّئ، فقد سارَت الأمور سريعةً، مثلما تنبّأ. وجميعنا نعرف ذاك الرّجوع من جزيرة إلبا، الرّجوع الغريب، المُعجز، الذي لم يسبق له مثيل، ولربّما لن يكون له مثيلٌ في المستقبل.

لم يحاول لويس الثامن عشر، إلا محاولةً ضعيفةً، تفاديَ تلك الضّربة القاصمة، ذاك أنّ قلّةَ ثقته في الرّجال نزعت منه الثقة في الحوادث. إنّ الملكيّة، أو لنقُل النّظامَ الملكيَّ، الذي كان بالكاد قد أعاد بناءَه، اضطربَ فوق أسسه التي لم تكن قد تقوّت بعدُ، وكانت حركةٌ واحدةٌ من الإمبراطور كافية لكي ينهار البناء بأكمله، ذاك البناء الذي قوامُه خليطٌ غير متجانسٍ من الأحكام العتيقة والأفكار الجديدة. ولم يغنم فيلفور إذًا من مَلكِه سوى اعترافٍ، ليس معدوم الفائدة في حينه فحسب، وإنّما ينطوي على خطر؛ ووسام جوقة الشّرف، الذي احتاط من إظهاره، على الرّغم من أنّ السيّد بلاكاس كان قد حرص على أن يرسله إليه تنفيذًا لتعليمات الملك.

وكان نابليون ليعزل فيلفور لولا تمتّعه بحماية والده نوارتييه الذي تقوّت شوكته في ظلّ حكومة المائة يوم. وعليه، فقد أوفى جيرونديّ سنة 1793، بعدما صار عضوًا في مجلس الشيوخ سنة 1806، بالوعد الذي كان قد قطعه، وحمى ذاك الذي كان قد حماهُ من قبل.

وركّز فيلفور قوّته كلّها، أثناء محاولة بعث الإمبراطورية التي كان

من السّهل عليه توقّع فشلها، قلنا ركّز قوّته كلّها في كتم السرّ الذي كان دانتِس على وشك كشفه.

وحدَه وكيل الملك عُزِل من منصبه، للاشتباه في عدم حماسته للبونابرتية. على أنّه، ما إن أُعيد إرساء قواعد الإمبراطورية، أي ما إن استقرّ بونابرت في قصر تويلري الذي تركه لويس الثامن عشر، وبدأ في إصدار أوامره العديدة والمختلفة من البلاط الذي كنّا قد أدخلنا إليه قرّاءَنا، مع فيلفور، ومن أمام طاولة خشب الجوز التي لا تزال بها مفتوحةً ونصف ممتلئةٍ علبة سَعوط[1] الملِك، حتّى بدأت تدبّ في مرسيليا، بالرّغم من حرص قضاتِها، بوادر الحرب الأهلية التي دومًا ما كان يصعب إخمادها في مدن الجنوب؛ وكان يلزم القليل فقط لكي تذهب الأمور أبعد من بعض الجلبة التي حوصر بها الملكيّون في إقاماتهم الجبرية، والمواجهات العامّة التي وُوجه بها بعضٌ ممّن حاولوا الخروج منهم.

وكتحوّل مباغتٍ طبيعي ألفى التاجر الشّهم، الذي كنّا قد عيّنا انتماءَه إلى الحزب الشّعبيّ، نفسَه -لن نقول قادرًا كلّ القدرة، ما دام الرّجلُ كان ذا طبعٍ حذرٍ وخجولٍ بعض الشّي، شأنه شأنَ كلّ من صنعوا ثروةً تجارية بالعَمل الشّاق الدّؤوب-؛ وإنّما سنقول: - ألفى نفسه، رغم وضعه المتأخّر قياسًا إلى البونابرتيّين الحماسيّين الذين كانوا يصفونَه بالمعتدل، في وضعٍ يسمح له بأن يرفع من صوته ليُسمعَ شكاية؛ وتلكم الشّكايةُ يسهلُ التخمينُ أنّها متعلّقة بدانتِس.

وقد ظلّ فيلفور صامدًا على الرّغم من سقوط رئيسه. أمّا زفافُه فقد أُجِّل إلى أوقات أصفى. فإذا ما احتفظ الإمبراطور بالعرش، سيلزم فيلفور تحالفُ نسبٍ جديد، وسيتولى والدُه أمرَ إبرامه؛ أمّا إن أعادت

(1) يسمّى أيضًا نشوقًا، وهو كلّ تبغٍ يستنشق.

المُجريات لويس الثامن عشر إلى حُكم فرنسا، فإنّ نفوذ السيّد سان مِران سيتضاعفُ، مثله مثل نفوذه هو، وإذّاك تصير المصاهرةُ ملحّةً أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

هكذا إذًا، تحوّل نائبُ وكيل الملك، مؤقتًا، إلى قاضي مرسيليا الأوّل. وذات يوم فُتح بابُه، وأُخطِرَ بقدوم السيّد موريل.

ولو أنّ الأمر كان يتعلّق بأحد آخر غير فيلفور، لكان سارع إلى استقبال التاجر، فيفصح بذلك عن ضعفه؛ ولكنّ صاحبنا كانَ رجلًا مهيبًا يملك دربةً، أو على الأقل، حدسًا تجاه كلّ شيء. لذا جعل السيّدَ موريل ينتظره في بهو الاستقبال، وإن لم يكن عندَه أحدٌ، وإنّما فقط اتّباعًا لسنّة نوّاب الملك في جعل زوّارهم ينتظرون؛ ثمّ، بعد ربع ساعةٍ أنفقها في قراءة جريدتين أو ثلاثٍ مختلفة التّوجه، أمرَ بأن يُدخَل عليه التاجر.

كان السيّد موريل ينتظر أن يجد فيلفور منكسرًا، لكنّه وجده مثلما كان قد تركه منذ ستّة أسابيع، أي هادئًا، وحازمًا ومفعمًا بذاك الأدب البارد الذي يمثّل أمنع الحواجز الفاصلة ما بين الإنسان المهذّب والسّوقيّ.

دخل إلى مكتب فيلفور وكلّه قناعةٌ بأنّ القاضي سيضطرب لمرآهُ، وإذا به يجد نفسَه هو المرتجف المنفعل أمامَ هذا الشّخص المُحقِّق الذي كان ينتظره مُسنِدًا ذراعيه إلى المكتب.

توقّف بالباب. نظر إليه فيلفور كأنّما يجد مشقّة في التّعرف عليه. وأخيرًا، بعد لحظاتٍ من الفحص والصّمت، ظلّ أثناءها التاجر الشّهم يقلّب قبّعته بين يديه، قال فيلفور:

- أنت السيّد موريل على ما أعتقد؟

أجابه التاجر: - نعم يا سيّدي، أنا بعينه.

قال رجل القضاء وهو يشير بيده إلى راعي دانتِس: - اقترب إذًا، وأخبرني عن دواعي تشريفي بزيارتك.

قال موريل: - أليست لديك أدنى فكرةٌ عن ذلك؟

- كلاّ، لكن هذا لا يمنع من أنّي لن آلوَ جهدًا في خدمتك، شرط أن يكون الأمرُ بمقدوري.

أجابه موريل: - الأمر يتوقّف عليك كلّيًا يا سيّدي.

- أفصح إذًا.

قال التاجر وثقته تتعاظم بقدر ما يمضي في الكلام، خاصّة وأنّه مطمئنٌّ إلى عدالة قضيّته وصدق موقفه: - تذكُر يا سيّدي أنّني كنت قد أتيتك أسألك العطفَ على شاب مسكين، بحّار، كان نائب القبطان على سفينتي؛ اتُهم بأنّه على اتّصال بجزيرة إلبا، ذاك الاتّصال الذي كان جريمةً في وقته، قد صار اليوم مبعث فخر. إذّاك كنت في خدمة الملك لويس الثامن عشر يا سيّدي، فلم تعفُ عن الشّاب؛ وكان ذلك من واجبكَ. لكنّك اليوم في خدمة نابليون، وواجبُك أن تحميَ الشّابَ. وهذا واجبُك. لقد أتيتك إذًا أستقصي مصيرَ الشّاب.

جاهدَ فيلفور نفسَه بكلّ ما أوتي من جُهد، وقال:

- اسمُ الشّاب؟ هلاّ تكرّمت فذكّرتني باسمِه.

- إدمون دانتِس.

بالطّبع كان فيلفور ليفضّل، ضمن مبارزة، أن يتلقّى طلقةً من خصمه من على بعد خمسٍ وعشرينَ قدمًا، على أن يسمعه ينطق هذا الاسم من على مسافةٍ قريبة؛ ومع ذلك لم يطرف له جفن.

وقال مخاطبًا نفسَه: «هكذا لن يتهّمني أحدٌ بأنّي اعتقلت الشّابَ لاعتبارات شخصيّة محض». ثمّ أعاد مكرّرًا السؤال على مخاطبه: - دانتِس؟ أقُلتَ إدمون دانتِس؟

- أجل يا سيّدي.

فتح إذّاك فيلفور سجلًا ضخمًا كان موضوعًا في درج قريب، وقصد طاولةً، ومن الطّاولة إلى ملّفاتٍ، ثمّ عاد إلى التاجر، وقال له بصوتٍ لا تشوبه أيّ غرابة:

- أمتأكّدٌ أنت من أنّك لم تخطئ يا سيّدي؟

ولو أنّ موريل كان رجلًا أشدّ فطنةً، أو أحوطَ معرفةً بملابسات القضيّة، لكان استغرب كيف يجيبُه نائب وكيل الملك بهذه الطريقة الغريبة عنه؛ ولكانَ قد تساءل لمَ لم يوجّهه فيلفور إلى سجلّات المساجين، أو إلى كشوف الحبس، أو المحافظ. بيد أنّ موريل، وقد بحث عبثًا عن الخوف في فيلفور، فلم يرَ منه شيئًا. لم يجد إلا التّعالي: لقد وجد فيلفور ما كان يبحث عنه.

قال موريل: - كلّا يا سيّدي، لست مخطئًا؛ ثمّ إنّي أعرف الفتى المسكين منذ عشر سنين، وهو في خدمتي منذ سنواتٍ أربع. وكنت قد أتيتُك، أتذكر؟ منذ ستّة أسابيعَ أسألك أن ترفق به، مثلما آتيك اليومَ أسألك العدالة للولد المسكين، فاستقبلتني أسوأ استقبالٍ وأجبتني بنبرةِ مستاءٍ. آه! لشدّ ما كان الملكيّون آنذاك قساةً على البونابرتيّين!

أجابَ فيلفور وقد بلغ صلب الموضوع بسلاسته وبرودة أعصابه المألوفتَيْن:

- سيّدي، كنتُ ملكيًا إذ كنت أحسب البوربونيّين ليسوا الورثة الشّرعيّين للعرش فحسب، وإنّما أيضًا المنتخبينَ من طرف الشّعب؛ بيد أنّ الرّجوع المعجز الذي كنّا شهودًا عليه برهنَ لي أنّي كنتُ على خطأ. لقد انتصرت عبقرية نابوليون: الحاكم الشرعيّ هو الحاكم المحبوبُ.

صاح موريل بصراحة فاضحة: - خير وبركة! إنّ كلامك يسعدني، ويبشّرني خيرًا بمصير إدمون.

استأنفَ فيلفور الكلام وهو يقلّب سجلًا آخرَ: - مهلًا، ها قد وجدتهُ: هو بحّارٌ، كان على وشك الزّواج من كَتالانيّة؟ بلى، بلى؛ أوه! تذكّرتُه الآن. لقد كانت قضيّته غايةً في الخطورة.

- كيف ذلك؟

- تعلم أنّه خرج من عندي مقتادًا إلى سجن المحكمة.

- نعم، ثمّ ماذا؟

- ثمّ إنّي رفعت تقريري إلى باريسَ، وأرسلتُ مع التقرير الوثائق التي وجدت بحوزته. كان ذلك واجبي، فما العمل... وبعد توقيفه بثمانيةِ أيّامٍ نُقلَ.

صاح موريل: - نُقل! ما الذي حدث للفتى المسكين؟

- أوه! اطمئنّ. لقد نُقل إلى فنيستريلّي، أو بينيرولّو، أو جزيرة سانت مارغوريت، أي إنّه تعرّض لما نسمّيه باللّغة الإدارية نفيًا؛ ولا بد أن تراه قريبًا يعود لقيادة سفينته.

- متى ما عادَ سيكون مُرحَّبًا به، فمكانه محفوظ. لكن، لمَ لم يعُد حتّى الآن؟ لقد حسبت أنّ أوّل ما حرص عليه البونابرتيّون هو العفو عن من حبسهم القضاء الملكيّ.

- لا ترمِ التّهم جزافًا يا سيّدي موريل، ينبغي أن نسلك طريق القانون في كلّ شيءَ. لقد أتى قرارُ الحبس من فوق، ومن فوق إذًا ينبغي أن يأتيَ قرارُ العفو. والحال أنّ نابوليون لم يستعد السّلطة إلا منذ خمسة عشر يومًا؛ وبالكاد ستكون رسائل العفو قد أُرسلت.

سأله موريل: - لكن أما من طريقةٍ لتسريع الإجراءات، خاصّة وأنّنا الآن منتصرون؟ لديَ بعض الاصدقاء، بعض المعارف، وأستطيع أن أحصل على قرار إبطال الحكم.

- لم يكن ثمّة حكم.

- إبطال السّجن إذًا.

- سياسيًا لا وجودَ لسجلّ حبس؛ أحيانًا ترتأي الحكومات أنّ من مصلحتها تصفية رجلٍ من دون أن تخلّفَ في طريقها أثرًا. وجود سجلّات حبس سيهدي التّقصّيات.

- ربّما كان ذلك في عرف البوربونيّين، أمّا الآن...

- ذاك هو العرف في كلّ العصور يا سيّدي موريل؛ الحكومات

تتعاقب وتتشابه؛ الجهاز السّجني الذي كان قد وضعه لويس الرّابع عشر لا يزال ساري المفعول إلى يومنا هذا. ولطالما كان الإمبراطور حريصًا على احترام القواعد الصّارمة في سجونه، أكثر حتّى من حرص الملك العظيم نفسه؛ وعدد المسجونين الذين لا تحفظ السّجلات أيّ أثر لهم أكبر من أن يحصى.

إنّ كمّ اللّطف الذي أبداه فيلفور كان كافيًا ليبدّد أيّ شكوك، وموريل لم يكن يشكّ أصلًا.

قال: - بمَ تنصحني إذًا يا سيّد فيلفور استعجالًا لرجوع المسكين دانتِس؟

- نصيحةٌ واحدة فحسب يا سيّدي: - اكتب ملتمسًا لوزير العدل.

- أوه! يا سيّدي، كلانا نعرف ما تعنيه الملتمساتُ: - تصل الوزير مائتان منها يوميًا، وبالكاد يطّلع على شيء منها.

- أنت محقّ، لكنّه سيقرأ بالتّأكيد ملتمَسًا يصله منّي، ملتمسًا أذيّلُه بنفسي وأرسله إليه مباشرة.

- وستتكلّف برفع الملتمس إليه يا سيّدي؟

- بكلّ سرور. ربّما كان دانتِس مذنبًا في ما مضى، لكنّه اليوم بريء. ومن واجبي أن أعيد الحريّة إلى من كان من واجبي أن أسجُنه.

وكان فيلفور بذلك يتّقي شرّ تحقيق ليس بالمؤكّد، لكنّه يظلّ ممكنًا، تحقيق يقف عائقًا دون طموحه.

- لكن كيف نكتُب إلى الوزير؟

أجابه فيلفور وهو يخلي له مجلسه: - تعال اجلس هنا، سأملي عليك.

- ستتكرم عليّ بذلك يا سيّدي؟

- طبعًا يا سيّدي، فأنا أفكّر في أنّ الفتى المسكين قد يكون الآن ينتظر متألّمًا وربّما يائسًا.

رجف فيلفور لخاطرة أن يكون السّجين في تلك اللّحظة يلعنه وسط

الصّمت والظلام؛ لكنّه كان قد توغّل بعيدًا وجاوز كثيرًا خطّ الرّجوع: - لا مجال إلا التّضحية بدانتِس تحت عجلات طموحه.

قال التاجر الجالسُ على مقعد فيلفور حاملًا يراعًا في يده: «إنّي أنتظر يا سيّدي».

أملى فيلفور إذًا طلبًا، لغايةٍ رفيعةٍ، ما من شكّ في ذلك، إذ بالغ في إظهار وطنيّة دانتِس والخدمات التي أسداها للقضيّة البونابرتية؛ حتّى إنّ دانتِس صار في رسالة الملتمس أحد الرّجال الذين كان لهم بالغ الفضل في رجوع نابوليون؛ فكان بيّنًا أنّ الوزير، إن اطّلع على رسالةٍ مماثلة، فإنّه سينفّذ حكم العدل فورًا، هذا إن لم يكن الحكم قد أُنفذ أصلًا.

ما إن فرغ التاجر من خطّ الرّسالة حتّى قرأها فيلفور بصوتٍ عالٍ.

قال: - الآن وقد فعلت ما عليك، اترك الباقي عليّ.

- وهل سترسل الملتمس قريبًا يا سيّدي؟

- أرسلها اليومَ.

- موقّعة من طرفك؟

- أفضل تذييل ممكن، وسأصادق فيه على كلّ ما قلتَه في الملتمَس.

ثمّ إنّ فيلفور جلس بدوره، وعند إحدى حواشي الرّسالة وضع توقيعه.

قال موريل: - والآن يا سيّدي، ما الذي يتعيّن فعله؟

أجابه فيلفور: - الانتظار وكفى، سأتكفّل بما تبقّى.

بعثت تلك الطمأنَةُ الأمل في نفس موريل، فترك نائب وكيل الملك طيّبَ السّريرة تجاهه، وقصد بيت الشّيخ دانتِس، يبشّرُه بقرب خروج ابنه من السّجن.

أمّا فيلفور، فبدلًا من أن يرسل الملتمس إلى باريس، احتفظ به بعناية بين يديه؛ ذاك أنّ الملتمس الذي يمكن أن ينقذ دانتِس في تلك اللّحظة،

يمكن أن يكون صكّ اتّهام رهيب ضدّه هو، إن افترضنا حصول ما تشفّ عنه معالم أوروبا ومنعطفاتُ الحوادث، أي رجوعًا ثانيًا للملك.

وهكذا ظلّ دانتِس سجينًا، ضائعًا في غَيابة زنزانته، فما تناهى إليه الخبر الرّائع، خبر سقوط عرش لويس الثامن عشر، ولا الخبر الرّهيب، خبر سقوط الإمبراطورية.

بيد أنّ موريل كان يتابع كلّ شيء بعينٍ حذرة، ويصيخ لكلّ شيء بأذن متيقّظة. ومرّتين، أثناء العودة القصيرة للإمبراطورية التي نسمّيها المائة يوم، عادَ موريل يستقصي الأخبار، ويلح في طلب الحريّة لدانتِس، وفي كلّ مرّة كان موريل يصبّره بالوعود والآمال؛ ثمّ أتت معركة واترلو. ولم يعد موريل مرّة أخرى إلى مكتب فيلفور، فقد استنفد التاجر في سبيل صديقه الشّاب كلّ ما يمكن أن يُفعلَ إنسانيًا؛ أمّا أن يحاول محاولاتٍ أخرى تحت حكم الملك، فذاك يعني تعريض نفسه للخطر مجانًا.

لقد عاد لويس الثامن عشر إلى اعتلاء العرش. وصارت مارسيليا بالنّسبة إلى فيلفور مليئة بالذّكريات التي تحوّلت إلى حسرات، فطلب منصب وكيل الملك الذي كان شاغرًا بمدينة تولوز، وحصل عليه. وبعد خمسة عشر يومًا من تقلّده منصبه الجديد، تزوّج الآنسة رينيه دو سان مِران، وكان أبوها قد زاد تمكينًا في البلاط أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

كذلك ظلّ دانتِس، إبّان الأيام المائة وبعد واترلو، وراء القضبان، منسيًا من البشر، إن لم نقل من الربّ.

وأدرك دانغلار، حين شهد رجوع نابليون، أهميّةَ الضّربة التي وجّهها إلى دانتِس. لقد أصابت وشايتُه الحقّ؛ وعلى غرار جميع النّاس ذوي النّزوع الإجراميّ والذّكاء المحدود، سمّى المصادفة الغريبةَ: **تصاريف القدر**.

وإذ دخل نابليون باريس، وعاد يُسمع صوتَه قويًا جبّارًا، تلبّس دانغلار الخوفُ، إذ كان يترقّب عودة دانتس في أيّ لحظةٍ، عودته وهو عالمٌ بكلّ

ما جرى ومتعطّشٌ للانتقام أيّما انتقام؛ لذا عبّر للسيّد موريل عن رغبته في ترك الخدمة البحريّة، فأوصى به التاجر عند تاجرٍ إسباني، اشتغل عنده وكيلًا تجاريًا أواخرَ شهر مارس؛ غادر إذًا إلى مدريد، وانقطع خبره.

أمّا فرنان، فما كان يفهم شيئًا ممّا يجري. لقد غاب دانتِس، ولم يكُن يحتاج غير ذلك. ما الذي وقع له؟ لم يسعَ البتّة إلى معرفة ذلك. على أنّه، طيلة الفترة التي تلت غيابَ دانتِس، تفنّن في تصوير دواعي غيابه لمرسيدس، فكان ينسج لها قصص الهجرةِ أو الاختطاف؛ وبين الفينة والأخرى كان يعرض له، وتلكَ كانت أحلكَ ساعات حياته، أن يجلس على قمّة رأس فارو، أي عند تلك النّقطة التي نستطيع أن نبصر منها في آنٍ مارسيليا وقرية الكتالان، فيمضي وقتَه، حزينًا ساكنًا كطيرٍ جارحٍ، يراقبُ الطّريقين متوقّعًا أن يرى الشّاب يعود من إحداهما بمشيته الحرّةً، ورأسه المرفوع؛ عودةً كانت تحمل إليه هو أيضًا إنذارًا بالقصاص. إذّاك يتّخذ قرارًا صارمًا: سيفجّر رأسَ دانتِس بطلقة بندقيّة، ثمّ يقتل نفسَه، كي يمنح ميتته صبغةً مميّزةً. بيد أنّ فرنان كان يشطّ في التخيّل، ذلك أنّ رجلًا مثله لا يقتل نفسَه لأنّه لا يقطع الرّجاءَ.

وعلى إثر ما شهدته البلاد من أحداث، وفي جوّ من التقلبات الموجعة، نوديَ على كلّ من يستطيع حمل السّلاح، ليهبّوا خارج فرنسا. وانطلق فرنان مع المنطلقين، تاركًا خلفَه كوخه ومرسيدس، ونفسه نَهبٌ لفكرةِ أنّ، في غيابه، سيعود منافسُه فيتزوّج حبيبَته.

ولو أنّ فرنان كان ليقتُل نفسَه، لكان دافعه الوحيد إلى ذلك إجبارُه على ترك مرسيدس. وكان اهتمامه بمرسيدس، والتّعاطف الذي أبداه مع مصيبتِها، وإسراعه إلى تلبية أدنى رغباتِها، قد خلّفَ في قلبها ما تخلّفه دومًا في القلوب النّبيلة مظاهرُ الإخلاص: لقد أحبّته الشّابةُ دومًا حبَّ الصّداقة؛ وها قد زادت صداقتُها له درجةً، هي درجة العرفان.

قالت له وهي تضع على كتفيه حقيبة المجنّد: «أخي، يا أخي، يا

صديقيَ الوحيد، احرص على ألا تموت، لا تتركني وحدي في هذا العالم، العالم الذي يبكيني، العالم الذي سأصير فيه وحيدةً ما إن تختفيَ منه».

وكانت تلك الكلمات التي تلقاها منها فرنان ساعةَ رحيله كافية لإيقاد جذوة الأمل في نفسه. إن لم يعد دانتِس فإنّ مرسيدس قد تكون يومًا ما من نصيبه.

بقيت مرسيدس وحيدةً في تلك الأرض القفر، التي لم تبدُ لها يومًا بتلك القسوة، وأمامها كان البحرُ الهائلُ أفقًا وحيدًا. غارقةً في دموعها، مثل تلك المرأة المجنونة التي تُقصّ علينا قصّتُها الأليمة، كانت تُرى هائمةً بلا توقّف حول قرية الكتالان. فتارةً تتوقّف تحت شمس الزّوال الحارقة، واقفةً، ساكنة، صامتةً كصنم، تنظرُ إلى مارسيليا؛ وطورًا تجلس على ضفّة السّاحل، مصيخة السّمعَ إلى أنين البحر الأبديّ كحزنِها، متسائلةً عمّا إذا لم يكن الأجدر بها أن تميل إلى الأمام، فتسلّمَ نفسها إلى ثقل جسدها، يلقي بها في الهاوية، فتغرقَ فيها، بدلًا من أن تظلّ تتوجّع مستهلكةً نفسها في ذاك الانتظار اليائس.

ولم تكن الشّجاعة هي ما يعوز مرسيدس لكي تنفّذ ما عزمت عليه، وإنّما الدّين هو من شدَّ عضدها وأنقذها من الانتحار.

واستُدعيَ كادروس إلى الخدمة العسكرية، مثلما استُدعيَ إليها فرنان، لكن بما أنّه كان يكبُر الكتالانيَّ بثماني سنوات، وكانَ متزوّجًا، فقد أرسل إلى السواحل.

وفقد الشّيخ دانتِس، بسقوط الإمبراطورية، كلّ رجاء.

وبعدما انقضت خمسة أشهر، بأيامها ولياليها، على فراق ابنه، وتقريبًا في نفس السّاعة التي اعتقل فيها إدمون، أسلم الرّوح بين ذراعَي مرسيدس.

وقد تكلّف السيّد موريل بمصاريف الدّفن، كما دفع الدّيون الصّغيرة التي تراكمت على الشّيخ في أثناء مرضه.

ولم يكن فعلُ موريل ينطوي على الكرم فحسب، وإنّما أيضًا على الشّجاعة. فجنوبُ فرنسا كان يغلي، وأن تساعد والدَ بونابرتيٍّ خطيرٍ خطورةَ دانتِس، حتّى وإن كان على فراش الموت، يعدُّ جريمةً.

14

السّجين الغاضب والسّجين المجنون

بعد عام تقريبًا على رجوع لويس الثامن عشر، زارَ السّجنَ مفتّشُ السّجون العامّ.

تناهت إلى سمع دانتِس، المتكوّم مسحوقًا في قعر زنزانتِه، أصواتُ الاستعدادات، التي كانت شديدة الضّجيج بالأعلى، بينما في الأسفل ما كانت لتلتقطها الأذن لو لم تكن أذن مسجون، تدرّب على أن ينصتَ، في اللّيل والصّمت، إلى العنكبوت تحيك بيتَها، وقطرة الماء تسقط دوريًا بعدما تقضي ساعةً تتشكّل في سقف محبسه.

خمّن أنّ ثمّة حدثًا غير معتاد يجري لدى الأحياء. وقد طال مكوثُه في قبرٍ حتّى صار يحسب نفسه من الموتى.

والحالُ أنّ المفتّش كان يزور تباعًا كلّ الغرف والزنازين والمحابس. وقد استُجوب العديدُ من السّجناء، أولئك الذين نالوا الحظوة لدى إدارة السّجن بباعثٍ من لطفهم أو غبائهم؛ سألهم المفتّش عن طعامهم، وعمّا إذا كان لديهم من مطالب.

وقد أجمعوا على أنّ الطّعام كان رديئًا، وأنّهم يطلبون الحريّةَ.

إذّاك سألهم المفتّش عمّا إذا كان لديهم ما يضيفونَه.

فهزّوا رؤوسهم. وأيّ شيء يمكن أن يطلبه السّجينُ غير حريّته؟

استدار المفتّش مبتسمًا، وقال للمدير:

– لا أدري لـمَ نقوم بهذه الجولات التفتيشية عديمةِ الفائدة. من يرى سجينًا كمن يرى مائةً؛ من يستمع إلى سجين كمن يستمع إلى ألف؛ إنّهم

يردّدون الشّيء نفسه على الدّوام: طعامهم سيّئٌ وهم بريئون. هل بقي سجناء آخرون؟

- أجل، ثمّة السّجناء الخطيرونَ أو المجانين الذين نضعهم في المحابِس.

قالَ المفتّش بنبرة تراخ - هيّا، لنُكمل عملنا؛ لننزل إلى المحابس.

قال المدير: - مهلًا؛ لنأخذ معنا رجلين على الأقل؛ إنّ المحبوسين يرتكبون أحيانًا أفعالًا يائسة لا طائل منها، فقط لقرفهم من الحياة أو رغبتهم في أن يُحكموا بالموت، وقد تقع ضحيّة فعلٍ من أفعالهم تلك.

- خُذ احتياطاتك إذًا.

وبالفعل أرسل المدير يطلب جنديّين، ثمّ نزلوا السّلم الذي كان من النّتانة والعفونة والاهتراء، بحيث كان يكفي أن يمرّ منه المرء مرورًا كي يؤذيَ عينيه وأنفَه وتنفّسه.

صاح المفتّش وهو يتوقّف عند منتصف السلّم: - أوه! من بحقّ الشّيطان يقدر أن يقيم هنا؟

- متآمرٌ على درجةٍ عاليةٍ من الخطورة، وقد أوصينا به على وجه التّخصيصِ باعتباره رجلًا قادرًا على فعل كلّ المصائب.

- رجلٌ واحدٌ فقط؟

- أجل.

- ومنذ متى وهو هنا؟

- منذ سنةٍ تقريبًا.

- وهل وُضع في هذا المحبَس منذ دخلَ السّجنَ أوّل مرّة؟

- كلاّ، وُضع فيه منذ أرادَ أن يقتل السّجان الذي كان يحمل إليه الطّعامَ.

- أرادَ أن يقتل السجّان؟

- نعم يا سيّدي، حاول أن يقتل هذا السجّان نفسَه الذي ينيرُ لنا الطّريق، (ثمّ توجّه بكلامه إلى السجّان) أليس كذلك يا أنطوان؟

- بلى يا سيّدي.

قال المفتّش: - هو إذًا رجلٌ مجنون؟

أجابه السجّان: - بل أفظع، إنّه شيطانٌ.

سألَ المفتّشُ المديرَ: - هل تريد أن ترفع شكوى؟

- لا فائدة في ذلك يا سيّدي، إنّه معاقبٌ بما يكفي هنا، ثمّ إنّه الآن على حافة الجنون، وبحسب الخبرة التي كسبناها من ملاحظاتنا، سيفقد عقله تمامًا قبل أن يدور عليه العام.

قال المفتّش: - ذاك لعمري خيرٌ له؛ حين سيفقد عقله بأكمله سيعاني أقلَّ.

كان إذًا الرّجلُ، كما لاحظنا، مفعمًا بالمشاعر الإنسانيّة، وكفؤًا لشغل المنصب الخيّر الذي وُضع فيه.

قال المدير: - معك حقّ يا سيّدي، ورأيك ينمّ عن اطّلاع واسعٍ بالمسألة. ولنا مثَلٌ في محبس آخر، يبعد عشرين قدمًا عن هذا، ننزلُ إليه بسلّم آخر، حيثُ يوجد راهبٌ مسنٌّ، كان فيما مضى رئيس حزب في إيطاليا، ودخل السّجن منذ سنة 1811، ثمّ فقد عقله حوالي سنة 1813، ومن حينها ما عاد بالإمكان الحكم عليه جسديًا: - يبكي، ويضحك؛ يهزل، ويسمن. هل ترغب في أن تراه بدلًا من هذا؟ إنّ جنونَه من النّوع الذي يرفّه النّفسَ، ولن يصيبَك بالغمّ.

أجابهُ المفتّش: - سأرى كلاهما؛ ينبغي للمرء أن يعمل وفق ما يمليه عليه الضّمير.

لقد كانت تلك أوّل جولة تفتيشية في مساره المهنيّ، وقد أراد أن يترك لدى السّلطاتِ صورةً طيّبة عنه.

أضاف: - لندخل إذًا أوّلًا عند هذا.

أجابه المدير: - حبًا وكرامة.

ثمّ إنّه أشار إلى السّجان ففتح البابَ.

وإذ سمع دانتِس صريرَ الأقفال الضّخمة واصطكاك الدواليب الصدئة، تقرفص عند إحدى زوايا محبسه، مستقبلًا بسعادةٍ لا توصف شعاع الضّوء الذي يتسلّل عبر النّافذة المشبّكة، ورفع رأسَه. ولمرأى رجلٍ غريبٍ، ينير له سجّانانِ حاملين قناديلَ، ويكلّمُه المدير ممسكًا قبّعتَه بين يديه، ويحفُّه جنديّان، خمّن دانتِس ما يجري؛ وإذ رأى الفرصة أخيرًا تلوحُ، فرصةَ أن يُناشدَ سلطةً عليا، فإنّه قفز إلى الأمام ضامًّا ذراعيه.

رفع الجنديان على الفور بندقيّتَيهما، إذ حسبا أنّ دانتِس يريد بالمفتّش شرًّا. لا بل حتّى المفتّش تراجع خطوةً.

أدرك دانتِس أنّهم قدّموه إلى المفتّش في صورة الرّجل الخطير. وكان أن استجمع في نظرته كلّ ما يمكن أن يحتويه قلب الإنسان من لطفٍ وتواضعٍ، وببلاغةٍ أدهشت الحاضرين، حاول أن يصيبَ روحَ زائره.

أنصتَ المفتّش إلى خطاب دانتِس بأكمله، ثمّ استدارَ نحو المدير قائلًا بصوت خافت: - لقد انقلب إلى الورع؛ صار عرضةً لأرقّ المشاعر. انظروا، إنّ الخوف يفعل فيه فعلَه؛ لقد تراجع حين واجهته حرابُ البنادق؛ والحالُ أنّ المجنونَ لا يتراجع أمام أيّ شيء؛ لقد كانت لي، بهذا الصّدد، ملاحظاتٌ مهمّة بشارُنتون.

ثمّ استدارَ صوبَ السّجين قائلًا:

- ما الذي تطلبه في المحصّلة؟

- أطلب معرفةَ أيّ جريمةٍ اقترفتُ؛ أطلب قضاةً؛ أطلب محاكمةً؛ وأطلب أخيرًا أن أرمى بالرّصاص إن ثبتت إدانتي، كما أطلب أن أستعيد حريّتي إن ثبتت براءتي.

سأله المفتّش: - هل يطعمونَك جيّدًا؟

- أجل، أظنّ ذلك، لا أدري. إنّه أمر بلا أهميّة؛ إنّ المهمّ بالنّسبة إليّ، كما بالنّسبة إلى كلّ موظفي العدل، بل بالنّسبة إلى الملك الذي يحكمنا نفسه، هو ألا يذهب بريءٌ ضحيّة لوشاية كاذبة، وأن لا يموت في السّجن لاعنًا القضبانَ.

قال المدير: - أنت اليوم شديد الوداعة؛ لم يسبق أن كنت هكذا. كنت تتحدّث بطريقةٍ مختلفة يا صاح يومَ أردتَ إرداء السجّان.

- أنت محقّ يا سيّدي، وأسأل العفو من هذا الرّجل الذي لطالما أحسن معاملتي... لكن ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ لقد كنت مجنونًا، كنت حانقًا.

- ولم تعد كذلك؟

- كلاّ يا سيّدي، إنّ الحبس روّضني، كسرني، دمّرني... مضى عليّ دهرٌ هنا!

سأله المفتّش: - مضى عليك دهر؟... متّى أوقفتَ؟

- يوم 28 فبراير 1815، في الثانية زوالًا.

عدّ المفتّش الأيامَ، ثمّ قال:

- اليوم 30 يونيو 1816؛ ما الذي تقوله؟ لم يمض على سجنك سوى سبعة عشر شهرًا.

عقّب دانتِس: - سوى سبعة عشر شهرًا! آه يا سيّدي، إنّك لا تعرف ما تعنيه سبعة عشر شهرًا في السّجن: سبع عشرة سنةً، سبعة عشر قرنًا؛ خاصّة بالنّسبة إلى رجلٍ مثلي، كان على وشك أن يصيبَ السّعادة، رجلٍ مثلي، كان يتأهّب للزّواج من حبيبته، رجلٍ كان يرى أبوابَ النّجاح تُفتحُ أمامَه، ثمّ فقد كلّ شيء. رجل من النّهار الأجمل يسقط في اللّيل الأحلك، يرى مستقبله يتهاوى، وما عاد يدري ما إذا كانت من أحبّته لا تزال تحبّه، ولا إن كان أبوه الشّيخ لا يزالُ حيًا. سبعة عشر شهرًا من الحبس لرجلٍ ألفَ الحياة في هواء البحر، واستقلال البحّارة، ألف الفضاء الواسعة والمساحات اللانهائية! سيّدي، إنّ سبعة عشر شهرًا حبسًا لا تستحقّها حتّى الجرائم التي تعيّنُها لغةُ البشر بأقذع الأسماء. ارأف بحالي إذًا يا سيّدي، ولا تلتمس ليَ الرّحمة وإنّما الشّدّة؛ لا تلتمس لي عفوًا وإنّما حكمًا؛ قضاةً يا سيّدي، لست أطلب إلا قضاةً؛ لا يمكن أن نرفض لمتّهم طلبَ قضاةٍ.

قال المفتّش: - حسنًا، سنرى ما يمكن فعله.

ثمّ استدار نحو المدير قائلًا: - الحقّ إنّ هذا الشّيطان الصّغير أحزنني. حين نصعدُ أطلعني على ملفّه.

- بكلّ تأكيد؛ لكنّي أظنّ أنّك ستجد في ملفّه أشياء كثيرةً ضدّه.

استأنف دانتِس الكلام: - سيّدي، إنّي أعرف أنّك لا تستطيع إخراجي من هنا بقرارك؛ لكنّك تستطيع أن توصل طلبي للسّلطة، تستطيع تحريك التحقيق، تستطيع إقامة محاكمة. محاكمة، هذا كلّ ما أطلبه؛ أن أعرف ما جريمتي، وأيّ عقوبةٍ تستوجبُ؛ ذاك أنّ عدم اليقين، كما تعرف، هو أسوأ العذابات.

قال المفتّش: - وضّح لي.

صاح دانتِس: - سيّدي، أدرك من نبرة صوتك أنّك قد تأثّرتَ. سيّدي، افتح لي بابَ الأمل.

- لا أستطيع أن أعدك بشيء، كلّ ما أستطيعه هو فحص ملفّك.

- أوه! إنّي إذن رجلٌ حرٌّ، لقد نجوتُ يا سيّدي.

سأله المفتّش: - من أمرَ باعتقالك؟

- السيّد دو فيلفور، فاذهب إليه وانظر الأمرَ معه.

- السيّد فيلفور لم يعد بمرسيليا منذ عام، لقد انتقل إلى تولوز.

غمغم دانتِس: - لا عجب إذًا، حاميَّ الوَحيدُ أُبعِدَ.

- هل كان للسيّد دو فيلفور أيّ داع لعداوتك؟

- كلاّ يا سيّدي، لا بل قد أحسن إلَيّ.

- أستطيع إذًا أن أثق في ما دوّنه عنك كيفما كان؟

- بكلّ تأكيد يا سيّدي.

- حسنًا، انتظر.

جثا دانتِس على ركبتيه ورفع يديه إلى السّماء هامسًا بصلاة يشكر فيها الربّ على هذا الرّجل الذي نزل إلى محبسه، مثلما ينزل المخلّص كي يعتق النّفوسَ من الجّحيم.

أُغلق البابُ، لكن الأمل الذي نزل مع المفتّش ظلّ رهين محبس دانتِس.

سأل المديرُ المفتّشَ: - أترغب في رؤية سجلّ السجن الآن، أم تفضّل المرور أوّلًا على محبس الرّاهب؟

- لننهي جولتنا على المحابس. فإن صعدتُ ربّما لن أوهب الشّجاعة مرّةً أخرى للنّزول وإكمال مهمّتي المحزنة.

- أوه! هذا يختلف تمامًا عن الآخر، وجنونه أقلّ مجلبةً للغمّ من فطنة جاره.

- وأيّ جنون هو؟

- أوه! جنون غريب: يحسب نفسه مالكًا لكنز هائل. في سنةَ حبسه الأولى، كان قد عرض على الحكومة مليونًا إن هيَ أطلقت سراحه؛ وفي السّنة الثانية زاد مليونًا، وفي الثالثة صار العرضُ ثلاثة ملايين، وهكذا دواليك. إنّها سنتُه الخامسة: - سيطلب الاختلاء بك، وسيعرض عليك خمسة ملايين.

- أوه! عجيب! وماذا تسمّون هذا السّجين؟

- الأب فاريا.

قال المفتّش: - الرّقم 27!

- إنّه هنا. افتح يا أنطوان.

نفّذ السّجانُ الأمر وغاصت نظرةُ المفتّش الفضولية في محبس الرّاهبِ المجنون. كذلك كانوا يسمّون السّجين عمومًا.

داخلَ الغرفة، وسط دائرةٍ رُسمت على الأرض بواسطة قطعة جصّ اقتُلعت من الحائط، كان يضطجعُ رجلٌ يكاد يكون عاريًا لفرط ما كانت ملابسه قد تحوّلت إلى مزقٍ متساقطة. ووسط الدّائرة كان الرّجلِ قد انخرطَ في رسم خطوطٍ هندسية شديدة الوضوح، وكان يبدو منهمكًا في حلّ مسألتِه انهمَاكَ أرخميدس حين قتَله أحد جنود مارسيليوس. لذا لم

يتحرّك حتّى حين صرّ بابُ المحبس، ولم يبدُ عليه الانتباه من غفوته إلا حين أضاءت القناديلُ، بضوء غير معتاد، الأرضيةَ الرّطبة التي كان يشتغل عليها. إذّاك استدارَ ورأى دهشًا الفرقة التي نزلت إلى محبسه.

وعلى الفور انتفض واقفًا، ثم أخذ غطاءً كان ملقىً عند قائمة سريره البائس، والتفع سريعًا ليبدُوَ في حالة لائقةٍ أكثرَ في عيون زواره الغرباء.

قال المفتّش من دون أن يغيّر عبارتَه: - ما الذي تطلبُه؟

أجابَه الرّاهب بنبرة دهشة: - أنا يا سيّدي! لا أطلب شيئًا.

استأنف المفتّش الكلام: - إنّك لم تفهم. أنا من رجال الحكومة، ومهمّتي أن أمرّ على السّجون، فأسمع إلى شكايات المساجين.

صاح الرّاهب متحمّسًا: - إن كان الأمر كذلك، فهذه مسألةٌ أخرى، وأرجو أن يحصل بيننا تفاهم.

قال المدير للمفتّش: - أرأيت! ألا تسير الأمور كما أخبرتُك؟

واصل المسجون الكلام: - سيّدي، أنا الرّاهب فاريا، وُلدت في روما، وقضيتُ عشرين سنةً سكرتيرًا عند الكاردينال روزبليوزي؛ قُبض عليَّ، لسبب أجهله، حوالى سنة 1811، ومنذ تلك اللّحظَة وأنا أطالب السّلطات الإيطالية والفرنسية بإطلاق سراحي.

سأله المدير: - لمَ تطلب ذلك من السّلطات الفرنسية؟

- لأنّي ألقيَ عليّ القبضُ ببيومبينو، وأفترض أنّ بيومبينو قد صارت، شأنها شأن ميلانو وفلورنسا، مركزًا لمقاطعة فرنسية.

تبادل المفتّش والمدير النّظر ضاحكَين.

قال المفتّش: - اللّعنة! إنّ معلوماتك عن إيطاليا تفتقر إلى التحيين.

- إنّها تعود إلى السّنة التي قُبض فيها عليَّ؛ وبما أنّ جلالة الإمبراطور كان قد خلق مملكة روما ليحكمها الغبن الذي رزقته السّماءُ إيّاهُ، فإنّي أفترض أنّه، مُكمّلًا مسيرةَ فتوحاتِه، قد حقّقَ حلم ماكيافيللي وسيزار بورجا، حلم جعل إيطاليا بأكملها مملكةً واحدةً موّحدة.

قال المفتّش: - إنّ القدر، يا سيّدي، قد شاء لحسن الحظّ أن يحدث تغييرًا في هذه الخطّة المهولة التي يبدو لي أنّك من المدافعين الأشاوس عنها.

أجابه الرّاهب: - تلك هي الطّريقة الوحيدة التي يمكن بواسطتها جعل إيطاليا دولةً قويّة مستقلّةً وسعيدة.

قال المفتّش: - ممكن، لكنّي لم آتِ إلى هنا كي أخوض معك في درسٍ حولَ السيّاسة فيما وراء الجبال، وإنّما لأسألك ما سألتك إيّاهُ قبل قليلٍ، إذا كانت لديك بعض الشّكاوى ترفعها حول الطّعام والمأوى هنا.

أجابه الرّاهب: - إنّ الطّعامَ نفسه في كلّ السّجون، أي طعامٌ رديء؛ أمّا المأوى، فكما ترى، رطبٌ وغير صحيّ، لكنّه مناسبٌ كمحبس. والآن، ليس هذا هو المهمّ، وإنّما المهمّ اعترافاتٌ على أعلى درجة من الخطورة والأهميّة أوّد الإدلاء بها إلى الحكومة.

قال المدير للمفتّش: - ها قد وصلنا مربطَ الفرس.

واصل الرّاهب الكلام: - هذه الاعترافات هي السّبب في سعادتي لرؤيتك، حتّى وإن كنت قد قطعت عليّ التّفكير في مسألةٍ حسابية مهمّة، مسألة إن حللتُها فقد أغيّر نظامَ نيوتن بأكمله. هل تتكرّم عليَّ بحديث على حدة؟

همس المدير للمفتّش: - أرأيت! ماذا قلنا!

فأجابَه ضاحكًا: - إنّك على دراية بنزلاء سجنك.

ثمّ استدارَ إلى فاريا قائلًا: - سيّدي، إنّ ما تطلبه منّي مستحيل.

فأجابَه الرّاهب: - ماذا لو كان في الأمر مكسب كبيرٌ للحكومة: خمسة ملايين على سبيل المثال؟

التفت المفتّش إلى المدير قائلًا: - يا إلهي، لقد قدّرتَ حتّى المبلغ الذي سيقولُه.

استأنف الرّاهب الكلام، إذ لاحظ أنّ المفتّش يهمّ بالمغادرة: - ليس ضروريًا أن نكون وحدنا، يمكن أن يحضر المديرُ حديثَنا.

أجابَه المدير: - للأسف يا سيّدي، نحن نعرف مسبقًا ما ستقوله. ستحدّثنا عن كنوزك، أليس كذلك؟

نظر فاريا إلى الرّجل المتهكّم بعينين لو أنّ مُلاحظًا محايدًا نظرَ فيهما لرأى، قطعًا، بريقَ الحصافة والصّدق.

قال: - قطعًا، وعمَّ تريدني أن أتحدّث إن لم أتحدّث عن هذا؟

قال المدير: - سيّدي المفتّش، أستطيع أن أحكي لك هذه القصّة وكأنّك تسمعها من الرّاهب، لأنّي منذ أربع سنواتٍ أو خمس وأنا أسمعها.

قال الرّاهب: - وهذا يعني يا سيّدي، أنّك مثل أولئكَ الذين يقول عنهم الكتابُ: لهم عيونٌ ولا ينظرون، ولهم آذان ولا يسمعون.

قال المفتّش: - سيّدي، إنّ الحكومة غنيّة؛ وحمدًا للربّ هي لا تحتاج أموالَك؛ احتفظ بأموالك إذًا إلى حين خروجك من السّجن.

جحظت عينا الرّهب، وأمسك بيد المفتّش قائلًا:

- ماذا لو لم أخرج من السّجن! ماذا لو أُبقيت في هذا المحبس ضدًا على كلّ عدالةٍ، ومتُّ من دون أن أبوح بسرّي لأحدٍ! سيضيع الكنزُ هباءً! أليس من الأفضل أن تفيد منه الحكومة وتعمّني الفائدة معها؟ سأرفعُ عرضي إلى ستّة ملايين يا سيّدي؛ أجل، سأتخلّى عن ستّة ملايين وسأقنع بما تبقى، إن رغبتم في منحي الحريّة.

قال المفتّش هامسًا: - أقسم أنّي لو لم أكن أعرف أنّ الرّجل مجنونٌ، لصدّقته؛ لفرط الثقة في نبرة صوته يخال للمرء أنّه يقول الحقيقة.

استأنف فاريا الذي، بفضل حدّة السّمع التي تميّز المساجين، لم تفلت منه كلمة ممّا همس به المفتّش: - لستُ مجنونًا يا سيّدي. إنّ الكنز الذي حدّثتك عنه موجود حقًا، وعرضي هو أن أوقّع معكم عقدًا ينصّ على أن تقودوني إلى المكان الذي سأعيّنُه لكم؛ وهناك ستُنبش الأرضُ أمام أعيننا، فإن ظهر لكم كذبي، أو تبيّنَ جنوني كما تدّعونَ، أعيدوني إلى هذا المحبس، حيث سأبقى أبد الدّهر، وحيث سأموت من دون أن أطلب بعدها أيّ طلبٍ لا منكم ولا من غيركم.

شرع المدير يضحك، وسأله:

- أبعيدٌ كنزُك هذا؟

أجابه فاريا: - على بعد مائة فرسخ من هنا تقريبًا.

قال المدير: - إنّها فكرةٌ متعوبٌ عليها! لو أنّ كلّ المساجين أرادوا اقتياد حرّاسهم مسافة مائة فرسخ، وأذعن الحرّاس إليهم، لوجدوا فرصةً مثلى للفرار؛ فلا بد أن تسنح فرصة الفرار في رحلة كهذه.

قال المفتّش: - إنّها طريقةٌ معروفة، وليس للسيّد حتّى براءةُ ابتكارها.

ثمّ التفت إلى الرّاهب قائلًا: - لقد سألتك عمّ إذا كان الطّعام جيّدًا؟

فأجابَه: - سيّدي، أقسم لي بحقّ المسيح أنّك ستطلق سراحي إن كان كلامي صادقًا، وسأرشدُك إلى مكان الكنز.

كرّر المفتّش سؤاله: - هل الطّعامُ جيّد؟

- سيّدي إنّك لن تخسَر شيئًا، وها أنت ترى أنّي لا أسعى إلى الهرب، ما دمت سأبقى هنا في السّجن حين تذهبون إلى المكان المعلوم.

قال المفتّش بصبرٍ نافد: - أنت لا تجيب عن سؤالي.

فصاح الرّاهب: - ولا أنت تجيب على طلبي! لتحِق بك اللّعنة إذًا، كما حاقت بغيرك، أولئك الحمقى الذين رفضوا تصديقي! راغبون أنتم عن ذهبي، سأحتفظ به إذًا لنفسي؛ ترفضون لي الحريّة، سيرسلها إليّ الربُّ. هيّا، ليس لي ما أقولُه بعدُ.

ثمّ إنّه ألقى عن ظهره غطاءَه، وتناول من جديد قطعة الجصّ، وعاد إلى الجلوس وسط دائرتِه مواصلًا رسمَ خطوطه وحساباته.

قال المفتّش منسحبًا: - ما الذي يفعله؟

فأجابه المدير: - إنّه يحصي كنوزه.

ردّ فاريا على هذا التّهكّم بنظرة تحمل أعلى درجات الاحتقار.

خرجوا جميعًا، وأقفل السّجانُ البابَ خلفَهم.

وأثناء صعودهم قال المفتّش: - في الواقع لا بد أن يكون قد امتلك ثروةً.

أجابه المدير: - أو لعلّه حلُم بامتلاكها، وغداة ذلك استيقظ مجنونًا.

فقال بالسّذاجة التي يفرضُها الفساد: - معك حقّ، لو أنّه كان غنيًا، لما دخل السّجن.

هكذا انتهت الرّحلة بالنّسبة إلى السيّد فاريا. بقيَ سجينًا، وزادت، بعد هذه الزّيارة، سمعته كمجنونٍ مضحك.

ولو أنّ الأمر تعلّق بكاليغولا أو نيرون، أحد أولئك الباحثين الكبار عن الكنوز، السّاعين إلى معانقة المستحيل، لكان أعطى كامل اهتمامه لهذا الرّجل المسكين، ولمنحه الهواء الذي يطلبه، الفضاء الذي يقايضه بسعرٍ باهظٍ، والحريّة التي يريد شراءها بأغلى الأثمان. لكنّ ملوك هذا الزّمان، وقد صاروا سجناء حدود الممكن، عَدِموا جسارة الإرادة؛ يتوجّسون من الأذن التي تنصت إلى أوامرهم، والعين التي تتفحّص أفعالهم؛ ما عادوا يحسّون تفوّق جوهرهم الإلهيّ؛ إنّهم رجالٌ متوّجونٌ، وهذا كلّ ما في الأمر. فيما مضى كانوا يحسبون أنفسهم، أو على الأقل يدّعون أنّهم، أبناء الإله جوبيتير، ويحفظون في أنفسهم شيئًا من صفات أبيهم الإله: ليس من السّهل على المرء أن يتحكّم في ما يجري خلف السّحاب؛ أمّا اليومَ فصار من اليسير بلوغ مرتبة الملوك. لكن، ما دام مستقبحًا في ملّة حكومات الطّغيان إظهارُ آثار السّجن والتّعذيب؛ وما دام ندُر أن شهدنا أحد ضحايا محاكم التّفتيش يخرج منها، ولو بعظام مسحوقة وجروحٍ نازفة؛ فإنّ الجنونَ-تلك القرحةُ التي تنشأ في غياهب السّجن، نتيجةً للتّعذيب النّفسيّ-، بالمِثل، تتوارى دومًا بعنايةٍ في المكان الذي تولَد فيه، وإذا ما خرجت منه، فإنّما يكون خروجًا إلى مستشفىً مظلم، حيث الأطباء يعجزون عن إدراك الإنسانِ أو الفكر المختفي بين الأنقاض الذي بعث بها إليهم السّجّانُ المرهقُ.

إنّ الرّاهب فاريا، الذي فقد عقله في السّجن، قد حكم عليه بسجنٍ مؤبّدٍ، هو سجن جنونه.

أمّا دانتِس، فقد صدَقَه المفتّشُ الوعدَ. وما إن صعدوا إلى مكتب المدير حتّى طلب منه إحضار سجلّ السّجن. وكانت المذكّرة المرفقة بسجلّ المسجون تتضمّن ما يأتي:

بونابرتي متعصّب: - ساهم مساهمةً فعالة في الرّجوع من جزيرة إلبا.

إدمون دانتِس.

تُضربُ عليه سريّةٌ تامّة، ويخضع لمراقبةٍ صارمة.

كانت تلك المذكّرة مكتوبة بخطّ مغاير، وبحبر مختلف عن ذاك الذي دوّنت به باقي المعلومات في السّجلّ، ممّا يدلّ على أنّها أضيفت بعد دخول دانتِس السّجن.

كان الاتّهام أشدّ من أن يحاول المرء مقارعتَه. فما كان على المفتّش إلا أن دوّن: «لا شيء»

وباستطاعتنا القول إنّ تلك الزّيارة قد أحيت دانتِس؛ فبعدما كان قد نسيَ عدّ الأيّام، أعطاهُ المفتّش تاريخًا جديدًا، لم ينسَه. كتب في الحائط خلف سريره، بقطعة جصّ اقتُلعت من السّقف، 30 يوليو 1816، ومذّاك دأبَ على رسم خطٍّ على الحائط كلّما مرّ يومٌ، لكي لا يُضيع حساب الزّمن.

ومرّت الأيّام، فالأسابيع، ثمّ الشّهور، ودانتِس ينتظر. وكان قد وضع في البداية تاريخًا محدّدًا لخروجه: خمسة عشر يومًا. ذاك أنّ المفتّش لو صرف في متابعة قضيّته نصف الحماس الذي أبداه، فإنّ خمسة عشر يومًا تكفيه. وإذ مرّت الخمسة عشر يومًا قال لنفسه إنّ من الحمق تصوّر أنّ المفتّش سيصرف اهتمامَه إلى معالجة قضيّته قبل عودته إلى باريس؛ والحالُ أنّ عودته إلى باريس لا يمكن أن تكون مقرّرة قبل الفراغ من جولته، وجولتُه قد تدوم شهرًا أو شهرين؛ فكان أن جعل الخمسة عشر يومًا السّابقةَ ثلاثةَ أشهر. وإذ انقضت أشهر ثلاثةٌ، عنَّ له تعليلٌ آخرُ جعله يمدّها إلى ستّة أشهر. لكنّها انقضت، وإذ عدّ الأيامَ وجد نفسه قد انتظر

عشرة أشهر ونصف. وأثناء تلك الشّهور العشرة لم يطرأ تغيير على نظام السّجن؛ ولًا بلغه خبرٌ يريحه؛ والسّجانُ، كعادته، ظلّ أخرسَ لا يجيب عن استفساراته. ثمّ صار دانتِس يشكّ في حواسّه، صار يظنّ أنّ ما كان يحسبه ذكرى من بناتِ ذاكرته، ما هو إلا هلوسةٌ من بناتِ عقله، وأنّ ملاك العزاء الذي ظهر في محبسه قد نزل إليه على جناح حُلم.

وإذ انقضى عامٌ غُيّرَ مدير السّجن، وأُرسل المدير القديم لإدارة سجن قلعة هام (شمال فرنسا)؛ وقد أخذ معه العديد من مرؤوسيه، وبينهم سجّان دانتِس. جاء إذًا مديرٌ جديد؛ وقد شقّ عليه حفظ أسماء المساجين، فاكتفى بأرقامهم. لقد كان النزل الرّهيب يضمّ خمسين غرفةً؛ فسُميَّ النزلاءُ بأرقام الغرف التي كانوا يسكنونها، وما عاد الشّابُّ التعيس يُدعى باسمه إدمون أو لقبه دانتِس، وإنّما الرّقمَ 34.

15

الرّقم 34 والرّقم 27

مرّ دانتِس من كلّ درجات الشّقاء التي يعانيها السّجناء المنسيّون في الزنازين.

بدأ أوّلًا بالغطرسة الملازمة للأمل ولثّقة المرء في براءته؛ ثمّ صار إلى مرحلة الشكّ في براءته، ممّا يشهد لما قاله مدير السّجن بخصوص الجنون الذي يصيب السّجناء؛ ثمّ هوى من علياء غطرسته متوسّلًا، ليس إلى الربّ، وإنّما إلى البشر؛ الربّ آخر من يُلجأ إليه. فالشقيّ، الذي ينبغي أن يبدأ بالربّ، لا يبلغ مرحلة التوسّل إليه إلا بعد أن يستنفد كلّ رجاء.

توسّل دانتِس إذًا كي يغيّر محبسه، أن يوضع في محبس آخر، حتّى وإن كان أحلكَ وأعمق. إنّ تغييرًا، حتّى وإن كان إلى الأسوإ، يظلّ تغييرًا، وبإمكانه أن يمنح دانتِس تسليةَ أيّام. توسّل كي يُسمح له بالتّجول، باستنشاق الهواء، بالكتب، أو الآلات. ولَم يُسمح له بشيء من ذلك؛ وما همَّه، ظلّ مواظبًا على الطّلب. وقد دأب على الحديث إلى سجّانِه، وإن كان هذا السّجان أشدّ خرسًا من سابقه؛ بيد أنّ الحديث إلى إنسانٍ، حتّى وإن كان هذا الإنسانُ أخرسَ، يظلُّ متعةً. كان دانتِس يتكلّمُ لكي يسمع جَرْسَ صوتِه. وقد جرّب أن يتكلّم حين يكون بمفرده في الزّنزانة، لكنّه كان يصاب بالخوف.

أيامَ كان دانتِس ينعم بالحريّة، لطالما شكّلت فزّاعةً بالنّسبة إليه فيالقُ المساجين المؤلّفة من المشرّدين، وقطّاع الطّرق والقتلة، أولئك الذين يجمع فرحُهم الدّنيء كلّ ضروب العربدة اللامعقولة والصداقات

المرعبة. وها قد صار يتمنّى أن يلقى به في إحدى تلك الحُفر، حتّى يرى وجوهًا أخرى غير وجه هذا السّجّان متبلّد الإحساس الذي يرفض أن يبادله أيّ حديث؛ صار يأسف لعدم وجوده في السّجن، يرتدي البدلة المهينة، يجرّ السّلسلة مقيّدة إلى قدمه، ويحمل الخزي على كتفيه. على الأقلّ المحكومون يوجدون بين أشباههم، يتنفّسون الهواءَ، يرَون السّماء؛ المحكومون سعداء.

ذات يوم توسّل إلى الحارس كي يأتيَه برفيق سجن، أيّا كان هذا الرّفيق، حتّى لو كانً ذاك الرّاهب المجنون الذي سمع به. ومهما قسا السّجانُ، يظلّ تحت لحائه شيءٌ من الإنسان. وسجّانُنا هذا كان كثيرًا ما يُشفق في قلبه، وإن لم يُبن وجهُه، لحال الشّاب الذي يعاني قساوة الحبس؛ وقد نقل طلب السّجين رقم 34 إلى المدير؛ بيد أنّ المدير، بحذر يشبه حذر السياسيين، تصوّر أنّ دانتِس يريد حشد السّجناء، والتّخطيط لانقلاب، أو أن يستعين بسجينٍ آخرَ على الهرب، فكانَ أن رفضَ الطلب.

أُيئِس دانتِس من كلّ عونٍ بشريّ؛ وكما أسلفنا القولَ، فإنّ ذلك كان مآله لا محالة، فكان أن رجع إلى الرّب.

إذّاك أينعت في ذهنه كلّ أفكار الورع المتناثرة في العالم، والتي يلُمّها الأشقياء ممّن أحنى ظهورهم القدَر؛ تذكّر الصّلوات التي كانت أمّه تلقّنُه إيّاها، والتي كان يجهل في ما مضى معناها. ذلك أنّ الصّلاة تظلّ، بالنّسبة إلى الإنسان السّعيد، تجميعًا من العبارات الرّتيبة الخالية من كلّ معنى، إلى أن يأتيَ اليوم الذي يبيّن فيه الألمُ للشقيِّ جلالَ اللّغة التي يكلّم بها الربَّ.

صلّى إذًا، ليس بحماسة، بل بغضب. وإذ كانت صلاته ترتفع بصوتٍ عالٍ، ما عادَ يشعر بالخوف من كلامه؛ فسقط في ما يشبه الوجدَ؛ كان يرى الربّ يتفتّق في كلّ كلمةٍ ينطقُها؛ كلّ وقائع حياته المتواضعة الضّائعة، كان يرجعها إلى إرادة الربّ القدير، يستخلص منها العبرَ، وينذر على

نفسه أفعالًا يقوم بها، وعند نهاية كلّ صلاةٍ كان يردّد الدّعاء الذي كثيرًا ما يقوله البشر بعضهم إلى بعض، أكثر ممّا يتوجّهون به إلى الربّ: «واغفر لنا ذُنوبنا، كما نغفر نحنُ أيضًا للمذنبين إلينا[1]».

وعلى الرّغم من صلواته الحارقة، ظلّ دانتِس رهين السّجن.

اِسودَّت روحه، وتكاثفت الغيوم أمام عينيه. كان دانتِس رجلًا بسيطًا يفتقر إلى التّعليم؛ وقد ظلّ الماضي محجوبًا عنه بتلك الحجب القاتمة التي ترفعُها المعرفة. فما كان بوسعه، في وحدة محبسه وقفرِ فكره، أن يعيد بناء الأزمنة الخوالي، وبعث الشّعوب المنقضية، وإقامة المدن القديمة، التي تعظّمُها وتُشَعرِنُها المخيّلةُ، والتي تمرُّ أمام البصر مهولةً تضيئها نار السّماء، كأنّما هي إحدى اللوحات البابليّة التي صوَّرتها ريشةُ جون مارتن؛ هو لم يكن يملك إلا ماضيَه القصير جدًا، وحاضره المظلم جدًا، ومستقبله الملتبس جدًّا: - ربّما تكون تسع عشرةَ سنةً من ضوءٍ يتأمّلُها في ليلٍ أبديّ! وما عادت له إذًا سلوى تعينُه. ذهنُه المتّقد، الذي ما كان ليحبَّ سوى التحليق عبر الأزمنة، ألفى نفسَه مجبرًا على البقاء حبيسًا مثل نسرٍ في قفص. فكان أن تشبّث بفكرةٍ وحيدة، فكرة سعادته التي دَمّرها، بلا سببٍ ظاهرٍ، قدرٌ لا رادّ له. قبض على هذه الفكرة قبضًا، فأخذ يقلّب وجوهها ويعيدُ، يفترسها -إن جاز لنا التّعبير- افتراسًا بأسنانه، مثلما كان أوغولينو عديم الرّحمة، في جحيم دانتي، يفترس جمجمة رئيس الأساقفة رودجيري. لم يعرف دانتِس سوى إيمانٍ عابرٍ، إيمانٍ يرتكز على القوّة؛ وقد فقده مثلما يفقده غيره بعد أن يفقدوا النّجاح. جاء الإيمانُ ورحل من دون أن يُفيدَ منه.

ثمّ إنّ الزّهد أخلى مكانَه للغضب. فصار إدمون يطلق من اللّعنات ما يجعل سجّانه يتراجع رعبًا؛ وصار يضرب بجسده عرضَ جدران محبسه؛

---

(1) إنجيل متّى (6: 12).

ويبدي جانب السّخط لكلّ ما يحيط به، بدايةً من نفسه؛ يسخط على أدنى حبّة رملٍ تزعجه، أو عود تبنٍ أو هبّة هواء. إذّاك برقت في ذهنِه رسالة الوشايةً، تلك الرّسالة التي رآها، التي أراها له فيلفور، ولمسها: - كان كلّ سطرٍ منها يلمع على الجدار، مثلما لمعت عبارةُ بيلشاصر[1]Mane, Thecel, Phares. وقال لنفسه إنّ حقد البشر، وليس انتقام الربّ، هو ما ألقى به إلى الهاوية التي يغوص فيها؛ وأخضع أولئك البشرَ المجهولين، الذين هم سبب محنته، إلى كلّ أنواع العذاب التي أسعفته بها مخيّلَتُه الملتهبة، ورأى أنّ أشدّ أشكال العذاب تظلّ لطيفةً، وقصيرةَ الأمد بالنّسبة إليهم؛ لأنّ بعد العذاب يأتي الموت، وفي الموت إمّا الرّاحةُ وإمّا انعدام الإحساس الذي يُشابه الرّاحةَ.

ولفرط ما كان يقول عن أعدائه، إنّ في موتهم راحةً لهم، وأنّ من يريد أن يعذّبَ حقًا، عليه أن يختار أساليبَ أخرى غير الموت، قلنا لفرط ما كان يردّد ذلك بدأ هو نفسُه يسقط في أفكار الانتحار السوداوية؛ ويلٌ لمن، على منحدر الشّقاء، توقّفَ عند هذه الأفكار السّوداء! إنّها كالبحار الميتة التي تمتدُّ زُرقةً من لُجج صافية، لكن من يَنزلُها يحسُّ بقدميه تغوصان شيئًا فشيئًا في صهريج من القارّ يجذبُه إليه، يمتصّه، ويغمره. وما إن تطبق على المرء، ولا يأتيه العونُ الإلهي، حتّى يكون الأمر قد قضي، وكلّما جاهَد في الخروج إلا وزدادَ غوصًا في الموت.

على أنّ حالة الاحتضار المعنوي هذه، تظلّ أقلّ رعبًا من الألم الذي سَبقها والعقاب الذي قد يليها؛ إنّها أشبه بعزاءٍ مدوّخ يريكَ النّفقَ مشرعًا، لكن عند طرف النّفق ثمّة العدم. وإذ وصل إدمون إلى هذه النّقطة وجد

---

(1) أثناء احتفال، يرى الملك بيلشاصر، حفيدُ نبوخذنصّر، يدًا في الهواء ترسم عبارة: «منا، منا، تقيل وفرسين»، يُستدعى دانيال فيفسّرها كما يلي: «منا تعني أن الله أحصى أيام مملكتك وأنهاها. تقيل تعني أنك وُزنتَ بالموازين فوُجدتَ غير صالح. فرسين تعني أن مملكتك تُعطى للماديين والفرس».

في الفكرة شيئًا من عزاء؛ فبدا كأنّ كلّ آلامه وعذاباتِه، وموكبَ الأشباح التي تجرّه معها، قد تبخّروا جميعًا مفلتين من ذاك الرّكن من سجنِه الذي منهُ سينزل ملك الموتِ واضعًا قدمه الصّامتة. صار دانتِس ينظر بهدوء إلى حياته السّابقة، وبرعبٍ إلى حياته المقبلة، واختار الإقامة بينهما، في تلك النّقطة الوسط التي بدت له خيرَ ملاذٍ.

وصار يحدّث نفسَه قائلًا: «لقد عرض لي أحيانًا في ما مضى، أثناء رحلاتي البعيدة، حين كنت ما أزالُ إنسانًا، وكان الإنسانُ الذي كنتُه، حرًّا وقويًا، يلقي بالأوامر إلى رجالٍ آخرين، فينفّذونَها، عرض لي أن أرى السّماءَ تتلبّدُ بالغيوم، والبحر يزمجر ويزأر، والعاصفة تولَد في ركنٍ من السّماء كنسرٍ عملاقٍ يضرب الأفق بجناحَيه؛ إذّاك كنتُ أشعر بأنّ سفينَتي ليست سوى مأوىً واهٍ، لأنّ سفينتي كانت ترتعد وتضطربُ كأنّها ريشةٌ في كفّ ماردٍ. ثمّ ما يلبثُ مظهرُ الصّخور الحادّة، وسط هدير الأمواج الرّهيب، أن يبديَ لي وجهَ الموت، وإذّاك كان الموت يرعبني؛ وكنت أبذل وُسع جهدي لكي أفلت منه، كنت أستجمع كلّ ما فيَّ من قوّة الرّجل وذكاء البّحار، لكي أستطيع مقارعةَ الربّ!... لأنّي كنت سعيدًا آنذاك، ولأنّ العودة إلى الحياة كانت تعني لي العودة إلى السّعادة؛ ولأنّ ذاك الموتَ لم أكن أنا من يطلبه، لم أكن أنا من اختاره؛ وكان يبدو لي قاسيًا النّومُ [الأبديّ] فوق سرير الطّحالب والحصى. كان يسخطني أن أصير بعد موتي، أنا المخلوق على صورة الربّ، طعامًا للنّوارس والعقبان. لكن اليومَ أمرٌ آخر: لقد فقدت كلّ ما كان يمكن أن يربطني إلى الحياة، اليومَ يبتسم الموت لي كابتسامةِ المرضعة للطّفل الذي تهدهدُه؛ اليومَ أموت برغبتي، أرقد متعبًا مكسورًا، مثلما كنت أنام بعد إحدى تلك الأماسي التي أعدّ فيها ثلاثة آلاف دورةٍ في زنزانتي، أي ثلاثون ألف خطوة، أي ما يقارب عشرةَ فراسخ».

وما إن نبتت في نفس الشّاب بذرة تلك الفكرة، حتّى صار أهدأ،

وأكثر ابتسامًا، وما عاد يحفل بسريره القاسي وخبزه الأسود، فغدا يأكل أقل، ولا يكاد ينام، وبدأ يتحمّل على نحوٍ أفضل فُضلة الوجود التي كان متأكّدًا من أنّه يستطيع أن يتخلّى عنها متى شاء، مثلما يتخلّى المرء عن لباسٍ بالٍ.

كان ثمّة سبيلان للموت: أحدُهما ميسَّرٌ، وهو أن يعلّق منديلَه إلى قضبان النافذة، ويشنق نفسَه؛ والثّاني، أن يتظاهر بالأكل، ويستسلم للموت جوعًا. شعر بالتّقزز من الاحتمال الأوّل، لأنّه تربّى على احتقار طريقة إعدام القراصنة، وكانوا يُشنقون على صواري السُّفن. كان الشّنق إذًا بالنّسبة إليه عقابًا شائنًا، لم يُرد أن يُطبّقه على نفسه؛ فاختار إذًا ثانيةَ السّبيلين، وبدأ فورًا بتنفيذ الحُكم.

وكانت قد مرّت أربع سنواتٍ على ما سردناه آنفًا. وعند نهاية السّنة الثانية، توقّف دانتِس عن حساب الأيام، وسقط مجدّدًا في تجاهل الزّمن الذي كان قد أخرجَه منه مفتّش السّجوّن فيما مضى.

قال دانتِس: «أريد أن أموتَ»؛ واختار الميتة التي يريدُها؛ كان إذًا قد عزم عليها، وخشيةَ أن يتراجع عن قراره، أقسَم لنفسه بأن يموت على النّحو الذي قرّرَه. فكّرَ: «حين يقدّمون لي وجبتَي الصّباح والمساء، سألقي بالطّعام من النّافذة، وسأتظاهر بأنني أكلتُه».

ونفّذ الوعد الذي قطعه على نفسه. مرّتين في اليوم، كان يلقي بطعامه، عبر الفتحة المسيّجة التي ما كان يرى منها إلا السّماء. وكان يفعل ذلك في بداية الأمر بمرح، ثمّ صار إلى فعله بعد تردّد وتفكير، وانتهى إلى فعل ذلك بأسفٍ؛ لكن استنجدَ بالقسَم الذي أقسمه على نفسه، لكي يتشجّع على إكمال قراره الرّهيب. وصارت الأطعمة، التي كان يقرف منها فيما مضى، يبديها له، الجوعُ الضاري، شهيّةَ المنظر طيّبةَ الرّائحة؛ أحيانًا كان يظلّ واقفًا ساعةً حاملًا بيده صحن الطّعام، وعينه مسمّرةٌ على قطعة اللّحم الفاسدة، أو السّمكة النّتنة، وكسرة الخبز السمراء العفنة. كانت

تلكم آخر غرائز الحياة فيه تقاومُ، وبين الفينة والأخرى تصارع عزيمَته. وإذّاك يبدو له محبسه أقلّ ظلمةً وحالته أقلّ يأسًا؛ كان لا يزال شابًا؛ سنّه خمس وعشرون أو ستّ وعشرون، لا يزال أمامه ما يقارب خمسين سنةً يحياها، أي تقريبًا ضعف ما عاشه حتّى الآن. وأثناء تلك البرهة الزمنية المهولة، تبدو الحوادث قادرة على كسر الأبواب، وهدّ أسوار قلعة إيف وإطلاق سراحه! إذّاك يقرّبُ أسنانه من الوجبة، ثمّ لا يلبث أن يبعدها عنها، كأنّه تانتالوس[1]. آنئذٍ كان يتذكّر القسَم الذي أقسمه على نفسه، وكانت نفسه الأبيّة تخشى احتقار ذاتِها إن هي أخلفت قسَمها. هكذا استنفد، بصرامة، وحزم، النزر القليل من الوجود الذي كان متبقيًا له، وأتى اليوم الذي لم يجدْ فيه من القوّة ما يسعفه لينهض ويلقي عبر الكوّة بالطّعام الذي حُمل إليه.

وفي اليوم التالي، فقد القدرة على النظر، وبالكاد كان يستطيع السّمع. وظنّ الحارس أنّ مرضًا خطيرًا ألمّ به؛ بينما هو يرجو ميتةً وشيكةً.

هكذا انقضى النّهارُ: - إدمون يشعر بخدر مبهم يجتاحه، خدرٌ فيه شيء من راحة. وكانت تقلّصاتُ معدته العصبيّةُ قَد خمدت؛ وحرقة عطشه هدأت؛ وحين كان يغمض عينيه، كان يرى حزمةً من أشعةٍ لامعةٍ أشبهَ ما تكون بتلك الأضواء البرّاقة التي تُرى راكضةً ليلًا فوق الأراضي الموحلة. كان ذاك غسقَ البلاد المجهولة التي تسمّى الموتَ. وفجأةً، حوالى السّاعة التاسعة مساءً، تناهى إلى سمعه صوت مكتوم آتٍ من خلف الجدار الذي أسند إليه رأسه.

عديد من الحيوانات القذرة كان يضجّ بأصواتها محبَسُ إدمون، حتّى إنّه اعتاد، شيئًا فشيئًا، على أن لا يهبّ من نومه لأدنى ضجيجٍ؛ لكن

---

(1) تانتالوس: ابن الإله زيوس، في الميتولوجيا اليونانية، يبتلى بعذاب أبديّ: قدماه في الماء ويده ممدودة إلى ثمار شجّرة، كلّما اقتربت يده من الثمار ابتعدت، وكلّما همّ بشرب الماء انحسرَ تحت قدميه.

هذه المرّة، إمّا أنّ حواسَه قد صارت مستثارةً بباعثٍ من الصّوم، أو أنّ الضّجيج أعلى من المعتاد، أو لربّما في لحظة السموّ هذه يتّخذ كلّ شيء أهميّةً. رفع إدمون رأسَه كي يسمع على نحوٍ أفضل.

كان صوتَ خدشٍ منتظم، يبدو أنّه يحكّ حجارةً بمخلبِ عظيم أو نابٍ قويّ أو أداةٍ ما. وعلى الرّغم من وهن قواه، إلا أنّ عقل الشّابِ قد استحضر تلك الفكرةَ البسيطة دائمة الحضور في أذهان السّجناء: الحريّة. لقد أتاه هذا الصوتُ في الوقت الذي كان يوشك أن ينخمد عنده كلّ صوتٍ، حتّى بدا له أنّ اللّه قد رفق بحاله أخيرًا، فبعث إليه بهذا الصّوت ينبّهه أن يقف عند حافة القبر الذي كانت قدمه قد بدأت تتأرجح باتّجاهها. من يدري، لعلّ أحد أصدقائه، أحد أحبابه ممّن فكّر فيهم حتّى أعياه التفكير، منهمك الآن في محاولة تقريب المسافة التي تفصلهما؟

كلاّ، إنّه يحلم، وما الصّوت إلا من بنات الأحلام التي تطوف عند باب الموت.

على أنّ الصوت لم ينقطع، وظلّ دانتس يسمعه نحو ثلاث ساعاتٍ، ثمّ سمع ما يشبه الانهيار، وبعدئذ انقطع الصّوت.

ساعاتٍ بعد ذلك، عاد الصّوت أقوى وأقربَ. وكان دانِتس قد بدأ يهتمّ بهذا الصّوت الذي آنسه في وحشته؛ وإذا بالسجّان يدخل عليه فجأةً.

منذ ثمانية أيام كان قد قرّر الموت، ومنذ أربعة أيام بدأ في تنفيذ قراره، وطيلة تلك المدّةً لم يكن قد تحدّث إلى هذا الرّجل، ولا حتّى كان يجيبه حين يحدّثه أو يسأله عمّا إذا كان يعرف أيّ مرضٍ ألَمَّ به، وكان يستدير شطر الحائط حين يمعن السّجانُ في النّظر إليه. لكن اليومَ، بوسع السّجان أن يسمع الصّوتَ المكتومَ، ينتبه إليه، فيضع حدًّا له، ويقضي على آخر رجاءٍ ما، رجاءٍ وحدها فكرتُه ما زالت تُزينُ أيامَ دانِتس الأخيرة.

جاءَه السّجانُ بالفطور. فنهض دانِتس من سريره، ومفخّمًا صوتَه،

أخذ يتحدّث في كلّ المواضيع الممكنة، تحدّث في سوء الطّعام الذي يُؤتى به، وعن البرد الذي يعاني منه. كان يتحدّث مغمغمًا ومتذمّرًا حتّى يكون من حقّه الصرّاخ أعلى، ومستنفدًا صبرَ السجّانِ الذي كان قد طلب ذاك اليوم، تحديدًا، حساءً ساخنًا وخبزًا طريًا للمسجون المريض، وجاءَه بهما.

ولحسن الحظّ ظنَّ صاحبُنا أن دانِتس يهذي؛ فوضعَ الطّعامَ على الطّاولة المهترئة العرجاء، حيث دأب على وضعه، ثمّ انصرفَ.

وإذ ألفى نفسَه وحيدًا من جديد، عادَ دانِتس يتسمّعُ الصّوتَ متهلّلًا. وصار الصّوتُ واضحًا إلى درجة أنّ الشّاب صار قادرًا على أن يسمعه من دون أن يبذل جهدًا يذكَر.

قال دانِتس في نفسه: «قُطع الشّكُ باليقين. بما أنّ الصوت لا يزال مستمرًّا رغم أنّ الوقتَ نهارٌ، فلا ريب في أنّه أحد المساجين الأشقياء، يحاولُ مثلي الخلاص من حبسِه. آه لو كنت بقربه، أيّ عونٍ كنتُ لأمنَحُه!».

ثمّ فجأةً غطّت غيومٌ سوداء فجر الأمل الذي كان أشرق في الذّهن الذي اعتاد الشّقاءَ، حتّى صار يشقّ عليه استعادة الأفراح البشريّة؛ وانبثقت في نفسه فورًا فكرةُ أن تكون الحكومة قد استخدمت بعض العمّالِ يرمّمونَ المحبَسَ المجاور.

كان من السّهل عليه فحصُ حقيقة الصّوت؛ لكن أيّ مجازفةٍ تلك؟ قطعًا يستطيع ببساطة أن ينتظر قدوم السّجان، وحين يأتي يدفعه إلى سماع الصّوت وينظر أيّ انطباع ستتّخذه ملامحه، ومنها يعرف الحقيقةَ؛ لكن ألن يكون في ذلك إرضاءٌ لفضولٍ عابر، مقابلَ هدم غاياتٍ أسمى؟ للأسف كان رأسُ إدمون كجرسٍ فارغٍ أصمَّهُ طنينُ الفكرة؛ كان واهنًا جدًا، وذهنُه يتماوجُ غير قادرٍ على التّركيز في فكرةٍ معيّنة. ولم يجد إلا طريقةً واحدةً يستعيد بها صفاء ذهنه وسدادَ حكمِه؛ التفت إلى الحساء

السّاخن الذي وضعه السّجانُ على طاولته، قصد الطاولة مترنّحًا، وهناك حمل الطّبق، أدناهُ من شفتيه، وابتلع الشّراب الذي كان يحتويه شاعرًا براحةٍ لا توصف.

وقد واتته الشّجاعة كي يتوقّف عند هذا الحدّ، إذ سمع في ما مضى أنّ الغرقى الأشقياء ممّن أُنقذوا، بعدما كادوا يهلكون جوعًا، كانوا يموتون لإفراطهم في التهام الطّعام. وضع إذًا دانتِس قطعة الخبز التي كان قد رفعها إلى فمه، ثمّ ذهب يضطجع. لم يعد إدمون راغبًا في الموت. وما لبث أن أحسّ النّهارَ يشرقُ على عقله؛ كلّ الأفكار الضبابية التي كانت بالكاد تُدرك، عادت لتنتظمَ متّخذة موضعها المناسبَ فوق قطعة الشّطرنج الرّائعة، حيث تكفي خانةٌ واحدةٌ زائدةٌ لكي يُعلِن الإنسانُ تفوّقه على سائر الحيوان. تمكّن دانتِس إذًا من التّفكير وشدّ أودِ أفكاره بالاستدلال العقليّ.

قال: «ينبغي أن أختبر الأمر، لكن من دون أن أفسدَ على أحدٍ خطّتَه. إذا ما كان صاحبُ الصّوت أحدَ العمّال، فليس عليّ إلا أن أضرب الحائط، وعلى الفور سيوقف عملَه ويسعى إلى معرفة من يضرب الحائط، وما غايتُه من ضربه. لكن بما أنّ عمله ليس قانونيًا فحسب، وإنّما هو مأمورٌ به فوق ذلك، فإنّه سرعان ما سيعاود الاشتغال. أمّا إن كان الأمر يتعلّق بمسجون يحاول الفرار، فإنّ الصّوتَ الذي سأصدِره سيرعبه؛ سيخشى انكشاف أمره، فيوقف عمله حتّى اللّيل حين يظنُّ أن الجميع قد أووا إلى مضاجعهم وناموا».

وعلى الفور قام دانتِس. لم تعد أقدامه ترتعد، وزالت عن عينيه الغشاوة. قصد ركنًا من أركان زنزانته، وانتزع حجرًا من موضع ليّنَته الرّطوبةُ، ودقّ به على الجدار في الموضع حيثُ الصوت أقلّ تردّدًا.

ضرب ثلاث دقّات. ومن الدّقة الأولى توقّف الصّوت كأنّما بفعل سحر.

أصخى دانتِس السّمع بجُماع كيانِه. مرّت ساعةٌ، ثمّ ساعتان، من دون أن يُسمع صوت؛ لقد خلق إدمون صمتًا مطبقًا في الجهة المقابلة من الجدار.

مُفعمًا أملًا، أكل دانتِس لقيماتٍ من خُبزه، وشرب قليلًا من الماء، وبفضل البنية القويّة التي حبته بها الطّبيعةُ، عادَ تقريبًا كما كانَ من قبل.

انقضى النّهار والصّمت لا يزالُ متواصلًا.

وحلّ الليل من دون أن يعود الصّوت.

قال دانتِس لنفسه بفرحٍ لا يوصف: «إنّه أحد السّجناء».

وعلى الفور توهّج رأسه، وعادت إليه الحياة عنيفةً لفرط نشاطه.

مرّ اللّيل من دون أن يُسمعَ صوتٌ.

أغمض إدمون عينيه ونام اللّيلةَ.

ثمّ عاد النّهارُ؛ وأتى السجّانُ حاملًا الطّعامَ. وكان دانتِس قد التهم الطّعامَ الذي حُمل إليه من قبلُ؛ وكذلك التهمَ الطّعامَ الجديدَ، متسمّعًا بلا توقّفٍ الصّوتَ الذي لم يسمع مرّةً أخرى، متوجّسًا من أن يكون قد توقّف إلى الأبد، متمشيًا عشرة أو اثني عشر فرسخًا داخل محبسه، راجًّا لساعاتٍ طوال قضبان حديد نافذة محبسه، ساعيًا إلى أن يعيد إلى أطرافه مرونتها عبر تمارين نسيها منذ زمن طويل، مستعدًا لمقارعة مصيره المقبل، مثلما يفعل المصارع إذ يدلّك ذراعيه ويدهن بدنَه بالزّيت قبل دخول الحلبة. وبين فقرات نشاطه المحموم ذاك، كان يصيخ السّمع ملتمسًا الصّوتَ، نافدَ الصّبر إزاء حذر هذا السّجين الذي لم يكن يدري أنّ من قطع عمله إنّما هو سجينٌ آخر متحرّق للحريّة قدر تحرّقه هو.

وانقضت ثلاثة أيام، اثنتان وسبعون ساعةً قاتلةً، عدّها دقيقةً دقيقة!

وأخيرًا، ذات مساءٍ، وبعدما مرّ السجّان مروره الأخير على الزّنازين، ألصق دانتِس أذنه على الجدار، للمرّة المائة، وبدا له أنّ دبيبًا، لا يكاد يُدرَك، يتردّد مكتومًا في رأسه عبر الحجارة الصّماء.

تراجع دانتِس كي يعيد ترتيب أفكار رأسه المشوّشة، دار في محبسه دوراتٍ، ثمّ عاد يلصقُ أذنَه بالمكان نفسه.

قطع الشّك باليقين: ثمّة شيء ما يجري في الجهة المقابلة؛ لقد أدرك السّجينُ خطورة عمله، فتبنّى طريقة أخرى لكي يكمل اشتغاله، قطعًا، في أمانٍ أكبر، لقد استبدل بالعتلة الإزميلَ.

متشجّعًا باكتشافه ذاك، قرّرَ إدمون أن يمدّ العون للعامل الذي لا يكَلُّ. بدأ أوّلًا بإزاحة السّرير بعيدًا عن الجدار الذي بدا له أنّ السّعي إلى الخلاص يجري خلفه. والتمسَ بعينيه شيئًا يعمل به في الجدار، كي يسقط قطعة أسمنت رطبةٍ، ويستخرج في النّهاية حجرًا.

لم يلُح لناظره شيء؛ فلا سكينَ هناك ولا أداةَ حادّة؛ لا حديد سوى في القضبان، وقد جرّب غير ما مرّة صلابته، لدرجة أنّه مقتنع بلا جدوى محاولة إزالتها.

كلّ أثاثه كان سريرًا، وطاولة وكرسيًا وسطلًا وجرّةً.

في السّرير كانت قضبانٌ، لكنّها قضبان شدّت إلى الخشّب ببراغٍ، ولا بد من مفكّ براغ إن هو أرادَ انتزاع هذه القضبان.

في الطّاولة والكرسيّ: لا شيء؛ والسّطلُ كان له في ما مضى مقبض، لكنّ المقبض انتُزِعَ وضاعَ.

لم يعد أمام دانتِس سوى حلّ واحدٍ، أن يكسر جرّته، فيأخذ إحدى شظاياها، ويعمل بها.

أسقط الجرّة على البلاط، فتناثرت أجزاءً. اختار منها قطعتين أو ثلاثًا، وأخفاها داخل سريره، وترك البقيّة متناثرة على الأرض. وكان انكسار جرّته حدثًا أبسط من أن يوقظ الشّكوك.

كان لدى دانتِس اللّيلُ بأكمله للعمل؛ لكن في العتمة كان العمل يسير سيرًا سيئًا، إذ كان يخبط خبط عشواء، وسرعان ما أدرك أنّه كان يستهلك الأداة غير المناسبة في مقارعة جدارٍ أقسى منها. فكان أن أعاد سريره إلى موضعه ومكث منتظرًا طلوعَ النّهار. ومع الأمل عاودَه الصّبر.

قضى ليلته بأكملها يترصّد ويصغي إلى المنجميّ المجهول الذي كان مستمرًّا في عمله التحت-أرضيّ.

طلع النّهار، وأتى السّجان. قال له دانتس إنّه أمس، بينما يشرب من جرّته أفلَتها، فسقطت وتهشّمت قطعًا. ذهب السجّان متذمّرًا يأتيه بجرّة أخرى، من دون أن يتكلّف عناء لمّ قطع الجرّة القديمة.

عاد بعد لحظةٍ، وطالب السّجين بأن ينتبه أكثرَ، ثمّ انصرف.

أنصت دانِتس بفرح لا يوصف لصرير القفل، ذاك الصّرير الذي كان في ما مضى يعصر قلبَه. ثم أصغى إلى وقع الخطوات يبتعد، وحين انكتمَ الوقعُ، قفز إلى سريره، فأزاحَه واستطاع أن يرى، في ضوء النّهار الشّحيح الذي يتسلّل إلى محبسه، العمل العبثيّ الذي أفنى فيه ليلته، إذ كان يحفر في الصّخرة بدلًا من أن يحفر في الجصّ الذي يحفّ جوانبها.

لقد صيّرت الرّطوبة الجصّ واهنًا.

وبقلبٍ ينبض فرحًا لاحظَ دانِتس أنّ الجصّ كان يتفتّت أجزاءً؛ صحيح تلك الأجزاء تكاد تكون في حجم ذرّاتٍ، لكن ما هي إلا نصف ساعةٍ حتّى كان دانتس قد جمع منها ما يقارب حفنةً. ولو أنّ رياضيًا كان يحسب الأمرَ، لخلُص إلى أنّه بعد سنتين من عملٍ مماثلٍ، مع افتراض ألا يواجه المرء صخرة في طريقه، سيكون بمقدوره أن يحفر ممرًّا قطرُه قدمانِ، وطوله عشرونَ قدَمًا.

لام السّجين نفسَه على عدم انخراطه في هذا العمل من قبل، حيث كان بإمكانه أن يصرف فيه ساعاته الطّويلة، التي كانت تمرّ بطيئةً، والتي أضاعها بين الرّجاء والصّلاة واليأس.

لو أنّه بدأ العملَ منذ ستّ سنواتٍ تقريبًا، أي منذُ سُجن في هذا المحبس، لكان أنهاهُ مهما كان اشتغاله بطيئًا! وقد زادته هذه الخاطرة حماسةً.

وفي ثلاثة أيّام، مع كامل الاحتياطات، تمكّن من أن يزيح كلّ

الأسمنت ويعرّي الصّخرة بأكملها: - كان الجدار مبنيًا من الطّوب، ومن حين إلى آخر، كانت تضاف إليه، زيادةً في الصّلابة صخرةٌ عظيمة. وكانت إحدى تلك الصّخرات العظيمة هي ما عزلَه المسجونُ تقريبًا، وصار بوسعه الآن زعزعتها داخل نُقبها.

حاول دانتِس بأظافره، لكنّ أظافره لم تكن كافية لذلك. وكانت قطع الجرّة المهشّمة تتكسّرُ كلّما حاول إدخالها في الفجوات لإخراج الصّخرة.

وبعد ساعةٍ من المحاولات غير المُجدية، قام دانتِس، ومسح العرق عن جبينه ومعه القلقَ.

هل سيتوقّف إذًا بعدما بالكاد بدأ، وهل عليه أن ينتظر، ساكنًا بلا فائدة، جارَه، إن لم يكلّ، كي يقوم بالعمل بأكمله!

ثمّ برقت في ذهنه فكرةٌ. فظلّ واقفًا يبتسم؛ وجبينه المعرقّ جفّ بمفرده.

لقد كان السّجان يحمل كلّ يوم حساء دانتِس في مرجل صفيح. وكان المرجل يحتوي حصّتين من الحساء، حصّته وحصّة سجين آخر، إذ لاحظ دانتِس أنّه بالعادة يكون ممتلئًا أو نصف ممتلئ، بحسب ما إذا اختار السّجان البدء به أوّلًا أو البدء بصاحبه.

ذاك المرجل كانت له قبضةٌ من حديد؛ وقبضة الحديد تلك هي ما كان يهمّ دانتِس، وكانَ ليقايضها بعشر سنواتٍ من عمره لو عرض عليه الأمر.

كان السّجّان يُفرغ محتوى المِرجَل في صحن دانتِس. وبعد أن يتناول الحساء بواسطة ملعقة خشبية، كان دانتِس يغسل صحنه ليستعملَه يوميًا.

مساءً، وضع دانتِس صحنَه أرضًا، بين الباب والطّاولة؛ ولمّا دخل السجّان الزنزانةَ داس الصّحن، فهشّمه قطعًا.

لم يكن ثمّة ما يُلام عليه دانتِس هذه المرّة: - صحيح أنّه أخطأ في ترك صحنِه أرضًا، لكن السّجّان أيضًا أخطأ إذ لم ينظر أين يضع قدمه.

اكتفى السّجان إذًا بالغمغمة.

أجالَ بصره باحثًا عمّا يمكن أن يسكب فيه الحساء. لم يكن في الزنزانة غير ذلك الصّحن، فما كان من خيار أمامَه.

قال دانتِس: – اترُكْ المرجَل، وخُذه غدًا حين تحمل ليَ غذائي.

دغدغ هذا الاقتراح مشاعر الكسل لدى السجّان، إذ صار في حلٍّ من الصّعود فالنزول مرّة أخرى، ثمّ الصعود مجدّدًا.

ترك المرجَل.

ارتجّ دانتِس فرحًا.

هذه المرّة تناول بشراهةٍ الحساء واللحم الذي كان، بحسب تقاليد السّجن، يوضع في الحساء. ثمّ، بعد انتظار دامَ ساعةً، حتّى يتأكّد من أنّ السجّان لن يعود، أزاحَ سريرَه، وأخذ المرجل، أدخل قبضتَه بين الصّخرة التي يريد انتزاعها والطّوب المقابل، وأخذ يحرّك رافعًا.

هزّةٌ خفيفة أكّدت لدانتِس أنّ المهمّة تسير على ما يُرام.

والحال أنّه بعد ساعةٍ من العمل، استطاع انتزاع الصخرة من الجدار، مخلّفًا فيه ثقبًا قطره يفوق قدمًا ونصفًا.

لمَّ دانتِس كلّ الجصّ بعناية، وحمله إلى زوايا محبسه، حيث نبش الأرض بإحدى قطع الجرّة، وذرّى هناك الجصّ.

وحتّى يفيد ما أمكنَه من ليلته التي شاء فيها القدرُ، أو بالأحرى شاء تدبيره الحكيمُ، أن يضع بين يديه أداةً ثمينةً جدًا، واصل الحفرَ باستبسالٍ.

مع انبلاج الفجر أعاد الحجر إلى مكانِه في الفتحة، وأعاد السّرير إلى موضعه لصق الحائط، ونامَ.

كان طعام الصّباح قطعةَ خُبز لا غير. وقد دخل السّجان ووضع القطعة على الطّاولة. سأله دانتِس: – ألَن تأتيني بصحن آخر؟

فأجابه: – كلّا، فأنت تكسر كلّ شيء، لقد حطّمت جرّتَك، وكنتَ السّبب في أنّي كسرتُ الصّحن. لو أنّ كلّ المساجين تسببوا في مثل هذه

الخسائر، لن تستطيع الحكومة تحمّل مصاريفهم. سنترك لك المرجَل؛ وفيه سنسكب لك الحساء؛ لعلّك، هكذا، لن تكسر آنيتك مرّة أخرى.

رفع دانتِس بصره إلى السّماء، وقد ضمّ يديه تحت الغطاء علامةَ نصر.

قطعة الحديد تلك قد ولّدت في صدره زخمَ عرفانٍ تجاه السّماء، أشدّ ممّا ولدته فيه كلّ الخيرات التي عرفها في حياته السّابقة.

على أنّه انتبه إلى أنّه مُذ شرع في العمل توقّف السّجين الآخر عن العمل.

ليكن إذًا، ليس ذلك بالسّبب الكافي لمنعه من إكمال مهمّته؛ إن لم يأتِ جاره إليه، فإنّه هو من سيقصدُ جارَه.

عمل اليوم كلّه بلا كلَل؛ وما إن حلّ المساء، حتّى كان قد استلّ من الحائط ما يقارب عشر حفنات من حطام الطوبِ والجصّ والأسمنت.

وحين حان موعد الدّورية، قوّمَ مقبض المرجل المعوجّ ما أمكنَه، ووضعه في مكانه المعتاد. صبّ السجّانُ الحصّة المعتادة من الحساء واللّحم، أو بالأحرى من الحساء والسّمك، إذ كان اليومُ يومَ صوم، وثلاثَ مرّاتٍ في الأسبوع كان يفرض على السّجناء الصّوم. وكانت تلكَ طريقةٌ أخرى لحساب الوقت، إذ مضى زمنٌ طويلٌ مُذ كفّ دانتِس عن حسابه.

ما إن صبّ السجّانُ الحساء حتّى انصرفَ.

وهذه المرّة أراد دانتِس أن يتأكّد ممّا إذا كان جاره قد توقّف فعلًا عن العمل.

تسمّعَ. كان كلّ شيء صامتًا كما هي العادة طيلة الثلاثة أيّام التي توقّفَ فيها العمل.

تنهّد دانتس؛ لقد صار جليًا أنّ جاره يحذر منه.

على أنّهُ لم ييأس، وواصل العمل طيلة اللّيل؛ لكن، بعد ساعتين أو ثلاث من العمل واجَهه عائقٌ. لم يعد الحديد يفعل فعله، وصار ينزلق على واجهة ملساء.

لمس دانتِس الحاجز بيديه، فعرف أنّه بلغ إحدى العارضات.

كانت العارضة تقطع، أو بالأحرى تُغلق مساحة الحفرة التي حفرها دانتِس بأكملها.

كان عليه الآن أن يحفرَ إلى أعلى أو إلى أسفل. ولم يكن الشّابّ الشقيّ قد وضع في الحسبان مصادفة عائق من هذه العوائق.

صاح: - آه! ربِّ، يا ربِّ! ألم أصلِّ لك حتّى ملأني الأمل في أنّك استمعت إلى دعائي! ربِّ! بعدما حرمتني حريّة الحياة، يا ربِّ! بعدما حرمتني راحة الموت، يا ربِّ! بعدما أعدتني إلى الوجود، يا ربِّ! رحماك ربِّ، لا تتركني أموت يأسًا.

- من ذا الذي يناجي الربّ؟ أجابَه صوتٌ كأنّه قادمٌ من أغوار الأرض، صوتٌ كتمته الظلمات، فبدت للشّاب نبرتُه كأنّما هي آتية من وراء قبر.

أحسّ دانتِس بشعر رأسه يقف، وتراجع على ركبتيه.

همس قائلًا: «أوّاه! إنّي أسمع صوتَ إنسان».

وكانت قد انقضت على دانتِس أربع سنواتٍ أو خمس لم يسمع فيها إلا صوت سجّانه، الذي ليس إنسانًا: إنّه بابٌ حيٌّ أضيفَ إلى باب السّنديان؛ إنّه قضبانٌ من لحم زيدت على قضبان الحديد.

صاح دانتِس: - بحقّ السّماء! أنت يا من كلّمتني، تكلّم مرّة أخرى، وإن كان صوتُك قد أرعبني؛ قل لي: من أنت؟

أجابه الصوت بسؤال: - بل قل لي من أنت؟

قال دانتِس، الذي لم يبدِ، من جهته أيّ امتناع عن الإجابة: - سجين شقيٌّ.

- من أيّ بلد؟

- فرنسا؟

- واسمك؟

- إدمون دانتِس.

- ومهنتك؟
- بحّارٌ.
- منذ متى وأنت هنا؟
- منذ 28 فبراير 1815.
- وجريمتك؟
- أنا بريء.
- ما تُهمتُك؟
- التآمر كي يعود الإمبراطور إلى العرش.
- ماذا تقول! عودة الإمبراطور! هو لم يعد إذًا على العرش؟
- لقد تنازل عنه بفونتينبلو[1] سنة 1814، ونُفيَ إلى جزيرة إلبا. لكن، منذ متى وأنت هنا، أنت الذي تجهل كلّ هذا؟
- منذ العام 1811.
ارتجف دانِتس؛ إنّ هذا الرّجل قد سُجن قبله بأربعة أعوام.
قال الصوت بنبرة سريعة: - حسنًا، توقّف عن الحفر؛ وقًل لي على أيّ ارتفاعٍ يوجد النقب الذي حفرتَه.
- علىً مستوى الأرض.
- وكيف تخفيه؟
- بواسطة سريري.
- هل سبق أن حرّكوا سريرك من موضعه، منذ دخلتَ السّجنَ؟
- كلاّ، بالمرّة.
- على ماذا يُطلّ باب غرفتُك؟
- على أحد الأروقة.
- والرّواق؟

(1) جنوب شرقيّ باريس.

- يفضي إلى السّاحة.

أجاب الصوت هامسًا: - للأسف!

فصاح دانتِس: - يا إلهي! ماذا هنالك؟

- لقد أخطأتُ التقدير، خدعني عدم دقّة تصاميمي، عازني البركار فضعتُ، خطٌّ بالخطأ على تصميمي كلّفني خمسة عشر قدمًا في الواقع، فحسبتُ أنّ الجدار الذي تحفر فيه هو جدار القلعة!

- لو أنّه كان جدار القلعة لكنت خرجت جهة البحر!

- ذاك ما كنت أصبو إليه.

- ولو أنّك لم تُخطئ التقديرَ؟

- كنت سأقفز في البحر، أسبح إلى أن أبلغ إحدى الجزر المحيطة بقلعة إيف، إمّا جزيرة دوم أو جزيرة تيبولن، أو لربّما بلغتُ السّاحل ذاتَه، ومن هناك أفرّ.

- وهل كنت تستطيع أن تسبح حتّى تصل إلى هناك؟

- كان الرّبُّ ليمنحني القوّة؛ لكن الآن ضاع كلّ شيء.

- كلّ شيء؟

- أجل. أعد سدّ نقبك بعناية، وتوقّف عن الحفر، ولا تفعل شيئًا، انتظر فقط أن أعود إليك.

- قل لي على الأقلّ من أنت؟... من أنت!

- أنا... أنا الرّقم 27.

سأله دانتِس: - أنت لا تثق بي إذًا؟

ظنّ إدمون أنّه سمع ضحكة مريرة تخترق القبو حتّى تصعد إليه.

صاح دانتِس وقد أوحت إليه فطرته بأنّ الرّجل يفكّر في التّخلي عنه:

- أوه! إنّي مسيحيّ مؤمنٌ يا سيّدي؛ وأقسم لك بأنّي أفضلّ الموت على أن أوحي لجلاديك أو جلاديَّ ولو نتفة من الحقيقة؛ لكن، بحقّ السّماء، لا تحرمني من حضورك، لا تحرمني من صوتك، وإلاّ فإنّي أقسم لك

بأن أهشّمَ رأسي عرضَ الحائط، لأنّي بلغتُ مدى قدرتي على الاحتمال، وستزُر أنتَ وزري.

– ما سنّك؟ يبدو صوتُك صوت رجلٍ شابّ.

– لا أعرف سنّي، فمُذ دخلت السّجنَ ما عدتُ أحسبُ الزمن. كلّ الذي أعرفه هو أنّني كنت على وشك بلوغ التاسعة عشرة من عمري حين اعتُقلت يومَ 28 فبراير 1815.

قال الصوت هامسًا: – لم تبلغ بعد السادسة والعشرين. اعتُقلتَ في سنّ لا يكون فيها المرء بعدُ خائنًا.

– أوه! كلّا! كلّا! أقسم لك بأنّي لست كذلك. لقد قلت لك، وأكرّر قولي، لن أخونك ولو قطّعوا جسمي إربًا.

– أحسنت إذ تحدّثت إليّ. أحسنت إذ توسّلت إليّ؛ إذ كنتُ على وشك وضع تصميم آخر، والابتعاد عنك. بيد أنّ سنّك يطمئن؛ أنا آتٍ إليك، فانتظرني.

– متى ذلك؟

– ينبغي أن أحسبَ فُرصَنا؛ أمهلني، وسأعطيك الإشارةَ.

– لكنّك لن تتخلّى عنيّ، لن تتركني وحيدًا، ستأتي إليّ، أو تسمح لي بأن آتي إليك؟ سنهرب معًا، وإن لم نستطع الهروبَ، فنتحدّث، ستحدّثني عن أحبابك وأحدّثك عن أحبابي. لا بد أنّ لك أحبابًا؟

– أنا وحيدٌ في هذا العالم.

– ستحبّني أنا إذًا. إن كنتَ شابًا صرتُ لك صديقًا، وإن كنتَ شيخًا صرتُ لك ابنًا. والدي سيكون قد بلغ السّبعين من عمره، إن كان لا يزال حيًا؛ لا أحباء لي سواهُ، وصبيّة تدعى مرسيدس. والدي لم ينسَني، أنا متأكّد من هذا؛ أمّا هيَ، فالربّ وحدَه يعلم ما إذا كانت لا تزال تذكرني. سأحبّك مثل حبّي أبي.

أجابه المسجون: – حسنًا، إلى الغد.

قال الرّجل كلماته القليلة تلك بنبرة طمأنت دانتِس؛ ولم يكن يطلب أكثر من ذلك. وعلى الفور قام، وأخفى الحطام الذي استخرجه من الجدار، ثمّ دفع السّرير ليغطّي به النقب.

مذّاك ارتمى دانتِس بأكمله في السّعادة؛ لن يكون بمفرده بعد الآن، لا بل قد يفوز بحريّته؛ لو بقيَ سجينًا، في أسوأ الأحوال فسيكون قد فاز برفيق سجن؛ ذاك أنّ الأسر المشترك هو نصف أسر. الشكاوى التي نعلنُها على مسمع غيرنا تكاد تكون صلوات؛ والصلوات التي نصلّيها معًا، تكاد تكون أفعالَ شكر.

قضى دانتِس سحابة يومه يذرع المحبس جيئةً وذهابًا، وقلبه يثب فرحًا؛ وبين الفينة والأخرى، يشعر بالفرحة تخنقه، فيجلس على سريره ويشدّ بيده على صدره. وكان يقفز إلى الباب ما إن يتناهى إلى سمعه أدنى ضجيج في الرّدهة. مرّتين أو ثلاثًا عبرت ذهنه الخاطرة المرعبةُ، خاطرة أن يفرّقوا بينه وبين هذا الرجل الذي صار يحبّه كصديق. فكان أن اتّخذ قراره: في اللّحظة التي سيزيح فيها السجّان السّرير وينحني ليفحص النّقب، سيهشّم رأسَه فوق البلاط الذي وضع عليه الجرّة.

سيحكمون عليه بالموت. يعلم ذلك علم اليقين؛ لكن، ألم يكن سيموت ضجرًا ويأسًا قبل أن يعيده ذاك الصّوت المعجز إلى الحياة؟

مساءً عاد السّجانُ؛ كان دانتِس مستلقيًا على سريره، فقد بدا له أنّه من موضعه ذاك سيخفي على نحوٍ أمثلَ النّفق غير المكتمل. ولا بد أنّه قد نظر إلى زائره المزعج نظرةً غريبةً، لأنه قال له:

– هل سيُعاودك الجنون؟

لم يجبه دانتِس خشية أن تفضحه حماسة صوته.

انصرف السجّانُ هازًّا رأسَه.

وإذ حلّ اللّيل، ظنّ دانتِس أنّ جاره سيستغلّ الصّمتَ والعتمة ليعيد وصل طرفَي الحديث معه، لكنّه كان مخطئًا؛ مرّ الليل من دون أن يجيب

أيّ صوتٍ انتظارَه المحمومَ. لكن في اليوم التالي، وبعد مرور السجّان صباحًا، وإذ أزاح السّرير عن الحائط سمع ثلاث طرقات متواترة؛ هرع على ركبتيه.

قال: - أهذا أنت؟ إنّي هنا!

أجابه الصّوت متسائلًا: - هل انصرف سجّانُك؟

- نعم، ولن يعود إلاّ مساءً، لدينا اثنتا عشرة ساعةً.

- أستطيع التحرّك إذًا؟

- نعم، نعم، من دون إبطاءٍ، الآن فورًا، أرجوك!

وعلى الفور بدا أنّ مساحةَ الأرض التي يستند إليها دانتِس بذراعيه، تنهار تحته؛ ألقى بنفسه إلى الخلف، بينما كتلة من التراب والأحجار تتناثر من حفرة انفتحت أسفل النقب الذي حفره بنفسه. ثمّ أبصر، من الحفرة المعتمة العميقة، رأسًا يُطلّ، ثمّ كتفين، إلى أن خرج منها جسدُ رجلٍ بأكمله، خرجَ برشاقةٍ تشي بطول تمرّس على الحفر.

16

علَّامةٌ إيطاليٌّ

ضمَّ دانتِس إليه هذا الصّديق الجديد، الذي طال انتظاره واشتدّ، ثمّ سحبه باتّجاه النّافذة كي يراه في النّور اليسير الذي يتسلل إلى الزنزانة.

كان شخصًا قصير القامة، شاب شعرُه هَمًّا لا سِنًّا، عيناه ثاقبتا النّظرة، تختفيان تحت حاجبين كثيفين ينضمّان إلى لحية لا تزال تحتفظ بسوادها وطالت حتّى صدره؛ وكان في ضمور وجهه الذي حفرته التجاعيدُ عميقًا، وحروف وجهه المميّزة، علاماتٌ تشي بأنّه رجل تمرّس على استخدام ملكاتِه العقلية أكثر ممّا يستخدم قدراته البدنيّة. وكان جبين القادمِ الجديدِ يتفصّد عرقًا.

أمَا ملابسهُ، فكان يستحيل تخمين الشّكل الذي كانت عليه في ما مضى، لأنّها كانت تتساقطُ مِزقًا.

كان يبدو في الخامسة والسّتين من عمره على الأقل، وإن كانت الصّرامة في حركاته تشي بأنّه أصغر سنًا، ولربّما كانت شيخوخة مظهره من آثار طولِ الأسر.

استقبل بشيءٍ من البهجة حماسةَ الشّابِ؛ حتّى إنّ روحَه المتجمّدة بدت لوهلةٍ، كأنّما استعادت دفءها، وأخذت تنصهر بباعثٍ من لقائها بهذه الرّوحِ الحارقة. شكر لطفَه بشيءٍ من الحفاوة، وإن كانت خيبته عظيمةً لأنّه ألفى نفسه في محبسٍ آخر، وهو الذي كان يحسب نفسه سيعانق الحريّة.

قال: - لنرَ أوّلًا السّبيل إلى إخفاء آثار مروري من هنا عن سجّانِك. أمانُنا في مُقبل الأيامِ رهينٌ بجهلهم ما يجري.
ثمّ إنّه انحنى إلَى الحفرة، وتناول الصخرة التي تمكّن من رفعها بسهولةٍ رغم ثقلها، وحشرها في الحفرة.
وقال هازًّا رأسَه: - لقد استُخرجت هذه الصّخرةُ بطريقة سيئة. ليست لديك إذّان أدوات للحفر؟
سأله دانتِس متعجّبًا: - وأنت؟ ماذا لديك؟
- أنا صنعت بعض الأدوات. باستثاء مبردٍ، لديّ كلّ ما أحتاجه: إزميل، وملقط، وعتلة.
قال دانتِس: - أوه! لشدّ ما يتملّكني الفضول لرؤية هذه الأدوات التي هي صنيعُ صبرك ومهارتك.
أجابه: - هاك أوّلًا هذا الإزميل.
وأبدى له نصلًا قويًا حادًّا جُعلَ لَهُ مقبضٌ من خشب الزّان.
- ممَّ صنعتَ هذا؟
- صنعته من أحد أعمدة سريري. وهذه هي الأداة التي حفرت بها كلّ الطّريق التي أوصلتني إليك؛ خمسون قدمًا تقريبًا.
صاح دانتِس بما يشبه الرّعب: - خمسون قدمًا!
- تكلّم بصوت خافت أيّها الشّاب، تكلّم بصوت خافت، إنّهم يتجسّسون على السّجناء.
- يعرفون أنّني وحيد.
- وإن يكن.
- وتقول إنّك حفرتَ خمسين قدمًا كي تصل إلى هنا؟
- أجل، تلك تقريبًا المسافةُ التي تفصل محبسي عن محبسك؛ على أنّي أخطأت رسمَ المنحنى، بسبب عدم توفّري على الأدوات الهندسية

اللازمة لكي أضع مقياس الرّسم[1]؛ فبدلًا من إهليج أربعين قدمًا، حسبت خمسينًا؛ فظننت بالتّالي أنّي وصلت حتّى السّور الخارجي، وأنّ ما عليّ سوى أن أثقبه وألقي بنفسي إلى البحر. لقد سرت بمحاذاة الرّواق الذي يطلّ عليه محبسك، بدلًا من أن أمرَّ تحتَه؛ وهكذا ضاع جهدي كلّه، لأنّ هذا البهو يفضي إلى ساحةٍ مليئة بالحرس.

قال دانتِس: - أنت محقٌّ؛ لكنّ هذا البهو لا يحاذي إلا جهةً من محبسي، ومحبسي له أربع جهاتٍ.

- أجل، دونما شكّ، لكن هي ذي واجهةٌ ثانيةٌ جدارها صخرةٌ؛ ويلزم عشر سنواتٍ من العمل المتواصل، يقوم به عشرة حفّارين متسلّحين بكامل عتادهم، كي تُخترق هذه الصّخرة؛ وهذه الواجهة الثالثة، لا بد أنّها تفضي إلى أسفل سكن المدير؛ سنجد أنفسنا في الأقبية، ويلقى علينا القبض؛ والجهة الرابعة تفضي إلى... مهلًا، إلى أين تُفضي الجهة الرّابعة؟

كانت تلك الجهةُ هي الجهةَ التي حُفرت فيها الفتحة التي منها يأتي ضوء النّهار. تلك الفتحة التي كانت تأخذ في التقلّص إلى أن يحلّ ضوء النّهار، والتي من المؤكّد استحالة أن يمرّ منها حتّى طفل صغير، كانت فضلًا عن ضيقها تتوفّر على ثلاثة قضبانٍ من حديد إمعانًا في طمأنة أكثر السجّانين ريبةً.

وإذ طرح القادمُ سؤالَه السّابقَ، سحب الطاولة من تحت النافذة، وقال لدانِتس:

- اِصعد فوق الطاولة.

نفّذ دانِتس الأمر، وصعد فوق الطاولة، وإذ كان يعرف مقصد رفيقه، أسندَ ظهره إلى الحائط وبسط يديه أمامه.

---

(1) المقياس الذي يوضّح التناسب بين الأبعاد على الخريطة أو التصميم والأبعاد على أرض الواقع.

تسلّق الرّجل، الذي قدّم نفسه برقم غرفته، والذي كان دانتِس لا يزال يجهل اسمه الحقيقيّ، الطاولةَ بطريقة أرشقَ ممّا في وسع من هو في سنّه، تسلّق بمهارة قطّ أو سحلية، ثمّ من الطّاولة إلى كفَّي دانتِس، ومن كفّيه إلى كتفَيه؛ ثمّ منحنيًا بجسم مطويّ -إذ كان السّقف يمنعه من أن ينتصب واقفًا- أدخل رأسه من بينٍ صفّ القضبان الأوّل، وتمكّن بالتّالي من النّظر من أعلى إلى أسفل.

وبعد هنيهةٍ، أعاد رأسه إلى الزنزانة بسرعة.

- أوه! أوه! لقد شككت في الأمر.

ثمّ ترك نفسه ينزلق على جسد دانتِس، فالطّاولة، ومنها قفز إلى الأرض.

سأله الشّاب قلِقًا، بعدما قفز بدوره قربَه: - فيمَ شككتَ؟

غرق السّجين المُسنُّ في التأمّل.

- بلى، بلى؛ إنّ الجهة الرّابعة من زنزانتك تفضي إلى رواقٍ خارجيّ، شيءٌ يشبه طريقًا دائريّةً تمرّ منها دوريات المراقبة، ويحرسُها الخفر.

- أمتأكّدٌ أنتَ؟

- لقد رأيتُ قبّعة الحارس، وطرف بندقيّته، وانسحبت بسرعةٍ خشيةَ أن يراني كما رأيتُه.

- وإذًا؟

- كما ترى: - يستحيل الهرب من محبسك.

واصل دانتس بنبرته المتسائلة: - وإذًا؟

- إذًا، لتكُن مشيئةُ الربّ!

وانطبعت على سحنة الشّيخ مسحة استسلام.

كان دانتِس ينظُر بذهولٍ يخالطُه الإعجابُ إلى الرّجل الذي يتخلّى بحكمةٍ بالغةٍ عن أمل ربّاهُ زمنًا طويلًا. ثمّ ما لبث أن سألَه:

- هلاّ أخبرتني الآن من تكون؟

- أوه! طبعًا، إن كان لا يزال يهمّك الأمر الآنَ بعد أن علمتَ أنّي ما عدتُ لأنفعك بشيء.

- ما زال بمقدورك أن تواسيني وتشدّ أزري، لأنّك تبدو لي من أشدّاء الرّجال.

ابتسمَ الرّاهب بأسىً، ثمّ قال:

- أنا الأب فاريا، سجين في قلعة إيف، كما تعلم، منذ العام 1811؛ لكنّي كنت قبل ذلك بثلاث سنواتٍ حبيس حصن فِنِسترِلّي (إيطاليا). وفي سنة 1811 نُقلت من بْيِمانتي (إيطاليا) إلى فرنسا. آنذاك علمت أنّ القدر، الذي كان يبدو خاضعًا لنابوليون، قد وهبَه ابنًا عيّنَه في المهدِ ملكًا على روما. وكنت آنذاك أبعد ما أكون عن تخيّل وقوعِ ما أخبرتَني به قبل قليل؛ أقصد أنّي ما تخيّلت أن تنقلبَ الموازين بعد أربَع سنواتٍ. ومن إذًا يحكم فرنسا اليوم؟ هل هو نابليون الثاني؟

- كلاّ، يحكُمها لويس الثامن عشر.

- لويس الثامن عشر، أخو لويس السّادس عشر! إنّ تدابير السّماء غريبةٌ وعجيبة. أيّ مقصد للقدر إذًا في خَفْض الرّجل الذي كان قد رفَعَه، ورَفْع الرّجل الذي كان قد خَفضَه؟

ظَلّ دانتِس يحدّق في هذا الرّجل الذي نسيَ مؤقّتًا مصيرَه الشخصيَّ، ليهتمّ بمصير العالم.

واصل الشّيخ الكلام: - بلى، بلى، الأمر أشبهُ بما حدث في إنجلترا:

- بعد شارل الأوّل، أتى كروموِيل، وبعد كروموِيل، شارل الثاني، وبعد جاك الثاني ربّما يأتي أحد أبناء أو أقارب أو أمراء أورانج؛ سيأتي ستاتهاوتر[1] ويعلن نفسه ملكًا؛ ثمّ تنازلات جديدة من طرف الشّعب، ثمّ

(1) كلمة هولندية الأصل تعني حرفيًا حاكم المدينة، وهي وظيفة سياسية وعسكرية إبّان القرون الوسطى.

دستورٌ، ثمّ الحريّة! (ثمّ أضافَ وهو يلتفت شطرَ دانتِس، ناظرًا إليه بعينين برّاقتين وعميقتين، كعينَي نبيّ) سترى بأمّ عينيك ذلك، أيّها الشّاب، لا تزال صغيرًا، وستعيش حتّى تشهد ذلك.

- أجل، إن خرجت من هذا السّجن.

- أجل، أنت محقّ، نحن سجينان؛ تأتي عليّ أحيانٌ أنسى فيها ذلك، أو ربّما لأنّ عينيّ تخترقان الجدران التي تحبسنا، فأحسبُ نفسي حرًّا.

- لكن، لمَ سُجنتَ؟

- أنا؟ سُجنتُ لأنّي حلمت سنة 1807 بما سعى نابليون إلى تحقيقه سنةَ 1811؛ لأنّي على مذهب مَكيافيللي، بدلًا من تلك الإمارات الصغيرة التي جعلت إيطاليا عُشًا من الممالك المتناحرة الضّعيفة، أردتُ إمبراطوريّة واحدةً، متلاحمة وقويّة؛ لأنّي توهّمتُ أنّي وجدتُ تشيزاري بورجا[1] الذي كنت أنشدُه، توهّمتُ أنّي وجدتُه في مغفَّلٍ تظاهرَ بأنّه يفهمني متحيّنا الفرصة ليغدر بي. كذلك كان مشروع إسكندر السّادس، ومن بعده كليمنت السّابع[2]؛ وإنّه لمشروع منذور للفشل، ما داموا عجزوا عن المضيّ فيه، وما استطاع نابليون إتمامَه؛ قطعًا، إنّ إيطاليا بلدٌ ملعون!

ثمّ خفض الشّيخ رأسه.

ولم يكن دانتِس يفهم كيف لإنسانٍ أن يجازف بحياته في سبيل أهدافٍ كتلك؛ صحيح أنّه كان يعرف نابوليون معرفةَ من قابلَه وكلّمَه، لكنّه يجهل كلّ الجهل المدعوَّين إسكندر السّادس، وكليمنت السّابع.

---

(1) تشيزاري أو سيزار بورجا، كان كبير أساقفة الكاثوليك بإيطاليا. يعدّ شخصية سياسية معتبرة أعادت الاستقرار إلى المنطقة، ويُقال إنّ من شخصيّته استلهم مكيافيللي كتاب «الأمير».

(2) إسكندر بورجا، وكليمنت ميديتشي، كلاهما تقلّد منصب البابا وية، وعُرف عن فترتيهما عدم الاستقرار.

قال دانتِس، وقد بدأ يتماهى مع رأي الجلاد، الرأيَ الذي يعتنقُه سائر من في قلعة إيف: - ألست أنت الرّاهب الذي يحسَبونَه... مريضًا؟

- تريد أن تقولَ يحسبونَه مجنونًا. أليس كذلك؟

أجاب دانتِس مبتسمًا: - لم أجرؤ على قول ذلك.

واصل فاريا الكلام وهو يضحك ضحكة مريرة: - بلى، بلى، إنّه أنا ذاك الذي يحسبونَه مجنونًا؛ إنّني أنا من صارَ منذ مدّة تسليةَ القائمين على هذا السّجن. والذي كان ليبهج الأطفال، لو كان ثمّة أطفالٌ في نزل الألم اليائس.

لاذ دانتِس بالصّمت برهةً، ثمّ ما لبث أن قال:

- وهكذا، تتخلّى عن فكرة الهرب؟

- إنّي أرى الهربَ مستحيلًا؛ أرى فيه تحدّيًا لإرادة الله، ووقوفًا أمام ما قدَّره الله لنا.

- لمَ الاستسلام؟ لا يمكن أن نطلب من القدر مطاوعتَنا من أوّل محاولة. ألا تستطيع الحفرَ مرّة أخرى، في اتّجاهٍ غير ذاك الذي حفرتَ فيه من قبل؟

- تقولُ أعاود المحاولة، لكن هل تدري كم كلّفتني المحاولة الأولى؟ هل تدري أنّي استغرقت أربع سنواتٍ كي أصنع أدوات الحَفر؟ وهل تدري أنّي منذ سنتين وأنا أحفر وأنبش في أحجار صلبة كالصوّان؟ وهل تدري أنّه كان عليّ انتزاع صخور ما كنت أظنّني في ما مضى أستطيع زحزحتها، وأنّي أنفقتُ أيّامًا بأكملها في هذا الشّغل الجبّار، لكي أفرح مساءً لمجرّد نجاحي في انتزاع بوصةٍ واحدة من هذا الاسمنت العتيق الذي صار أقسى من الحجارة نفسها؟ وهل تدري أنّي، لكي أُواريَ الرّكامَ الذي كنت استخرجه، احتجت أن أحفر قبوَ سُلّم؛ وفي تلك الحفرة كنتُ أدفن الرّكامَ شيئًا فشيئًا إلى أن امتلأت الحفرة تمامًا، وما عاد بالإمكان

أن أدفنَ فيها حفنةً من ترابٍ؟ وهل تدري أخيرًا أنّي كنت على بعد خطوةٍ من أن أحقّق غايةَ عمَلي، بحيث ما عدت أملك من القوّة إلا ما يكفيني لذلك، وها هو الربّ لا يؤجّلُ ليَ بلوغَ غايتي فحسب، وإنّما ينقُلها إلى موضعٍ آخرَ أجهله؟ آه! أقول، وأُعيد، لن أفعل بعدُ شيئًا في سبيل حريّتي، ما دامت إرادة الربّ شاءت أن أُسلبَ هذه الحريّةَ إلى الأبد.

خفض إدمون رأسَه كي لا يبيّن أنّ فرحةَ العثور على رفيقٍ تطغى عندَه على واجب التّعاطف مع الألم الذي يحسُّه الشّيخُ لفشله في الهروب.

تمدّد الأب فاريا على سرير إدمون، بينما ظلّ إدمون واقفًا.

لم يسبق للشّاب أن فكّر في الهرب. ثمّة أشياء تبدو مستحيلة إلى درجة أنّنا لا نفكّر حتّى في محاولتها، ونتجنّبُها غريزيًا. أن تحفر خمسين قدمًا تحت الأرض، وتنفق ثلاث سنواتٍ في ذلك، ثمّ -إن نجحتَ- تجد نفسك عند شفا هاويةٍ إلى البحر؛ تلقي بنفسك في المهوى الذي يبلغ خمسين أو ستّين، أو ربّما مائة متر، فيتهشّم رأسُك على صخرة، إن لم تُرديك رصاصةُ حارسٍ قبل ذلك؛ وأن تكون مضطرًا، إن نجحتَ في كلّ ما سبق، إلى أن تسبحَ ما يقارب فرسخًا؛ كلّ ذلك كفيلٌ بأن يجعل المرء يضرب صفحًا عن المحاولة، وقد رأينا كيف أنّ دانتِس بلغ في ذلك حدّ الشّروع في قتل نفسه.

لكن الآن، وقد قابل الشّابُ الشّيخَ، ورأى فيه مثال التشبّث بالحياة والتّصميم اليائس، بدأ يعيد التّفكير في الأمر ويقيس مدى شجاعته. لو أنّ أحدًا غيرَه، كان في مكانِه، لكان حاولَ ما لم يفكّر فيه هو حتّى مجرّد تفكير؛ وها غيرُه، أقلّ فتوّةً منه، وأوهنُ قوّة، وأدنى براعةً، قد استطاع أن يحصّلَ، بفرط الاشتغال والصّبر، الأدوات اللازمة للقيام بهذه العملية المذهلة، ولولا خطأ بسيط في التخطيط لكان نجح: - بما أنّ غيرهُ قد فعل كلّ هذا، فلا ينبغي أن يقف مستحيلٌ في وجه دانتِس. لقد

حفر فاريا خمسين قدمًا، هو إذًا يستطيع أن يحفر مائةً؛ وقد أنفقَ فاريا في الاشتغال ثلاث سنواتٍ، وبما أن عمرُه هو نصفُ عمر الشّيخ، فهو يستطيع أن ينفق في الحفر ستًّا؛ فاريا، وهو الرّاهبُ العالمُ رجلُ الكنيسة، لم يخشَ المجازفة التي ينطوي عليها العبور من قلعة إيف إلى جزيرة دوم أو راتونو أو لومير؛ كيف له هوَ إذًا أن يتردّد في قطع فرسخٍ سباحةً، وهو البحّارُ المتدرّبُ على الغوص، الذي طالما ألقى بنفسه في الماء ملتمسًا غصنَ شعابٍ من أعماق البحر؟ كم يلزم لعبور فرسخ عومًا؟ ساعة؟ حسنًا، ألم يسبق له غير ما مرّةٍ أن قضى ساعاتٍ بطولها في الماء من دون أن تطأ قدمه السّاحل! كلّا، كلّا، دانتِس لم يكن ينقصه سوى مثالٍ يحتذيه. كلّ ما استطاع غيره أن يفعله، أو بوسعه أن يفعله، يمكن له هو أن يفعله.

غرق الشّاب في التأمّل لحظةً. ثمّ قال مخاطبًا الشّيخ:

- لقد وجدتُ ما تبحثُ عنه.

انتفض فاريا، ورفع إلى مخاطبه عينين تحملان نظرةً مفادُها أنّه إن صدق القول، فإنّ إحباطه لن يدوم طويلًا. قال:

- أنت؟ هات، لننظر ماذا وجدت؟

- إنّ الممرّ الذي حفرتَه كي تصل إلى هنا، يمتدّ في المنحى نفسه الذي تمتدّ فيه الرّدهة الخارجية، أليس كذلك؟

- بلى.

- ولن يكون بعيدًا عنها بأكثر من خمس عشرة خطوة؟

- على أقصى تقدير.

- حسنًا، عند منتصف الرّدهة سنحفر طريقًا يكون بمثابة عمود صليب. هذه المرّة ستحسبُ حساباتك بدقّة، وسنخرج إلى البهو الخارجيّ. سنقتل الحارس ونهرب. نجاح خطّة كهذه لا يتطلّبُ إلا

الشّجاعة، ولديك منها؛ ويتطلب القوّة، وهي ما لا ينقصني؛ ولن أضيف الصّبرَ، لأنّك أبَنتَه، وكذلك سأفعلُ.

أجابه الرّاهب: - مهلًا؛ أنت لا تعرف، يا رفيقي العزيز، أيّ شجاعةٍ أملك، ولا كيف أنوي تصريف قوّتي. أمّا الصّبرُ، فقد صبرتُ ما يكفي إذ كنتُ أبدأ صباحًا مهمّة المساء، ومساءً مهمّة الصّباح. لكن أصغي إليّ يا فتى، لقد فعلت كلّ ذلك لأنّي كنت أحسبني أخدم الربّ إذ أحرّر مخلوقًا من مخلوقاتِه سُجنَ ظُلمًا.

- حسنًا، والآن وقد قابلتني، هل أعدت النّظر وصرت تعتبر نفسَك مُذنبًا؟

- كلاّ، لكنّني لا أريد أن أصبح كذلك. إلى حدود اللّحظة لم أكن أجابهُ إلا الأشياء، وها أنت ذا تقترح عليّ مجابهة النّاس. لقد استطعت أن أثقب جدارًا وأن أهدم سلّمًا، لكنّي أبدًا لن أثقب صدرًا أو أهدمَ وجودًا.

ندّت عن دانتِس إيماءة دهشة خفيفة.

قال: - كيف، وأنت على باب الحريّة، تتوقّف بسبب وخز ضميرٍ كهذا؟

- أسألكَ أنت نفسك: لمَ لم تعمد ذاتَ مساءٍ إلى قتل سجّانكَ برجل طاولتك، ثمّ ترتدي ملابسه وتحاول الهرب؟

- لأنّ الفكرة لم تخطر ببالي.

- هذا لأنّ فطرتَك تنفر من مثل هذه الجرم؛ تنفر منه إلى درجة أنّه لم يخطر ببالك حتّى؛ لأنّه عندما يتعلّق الأمر بالأشياء البسيطة المباحة، غرائزنا تنبّهنا إلى ألّا نحيد عن الصّراط القويم. النّمرُ، الذي يريق الدّماء بطبعه، لا يحتاج إلا لشيء واحدٍ: أن تنبّهه حاسّةُ الشّم إلى أنّ ثمّة فريسةً طوعَه. وعلى الفور يقفز صوبَ فريسته، يقع عليها ويمزّقها. تلكم غريزتُه، وإليها يخضع. أمّا الإنسان، فعلى خلاف ذلك، ينفر من الدّم؛ ليست القوانين الاجتماعية هي ما ينفّرنا من القتل، وإنّما القوانين الطّبيعية.

ظلّ دانتِس متحيّرًا. فقد كان ذلك فعلًا تفسيرَ ما حدث في غفلةٍ منه داخلَ عقله، أو بالأحرى داخل نفسه، ذاك أنّ من الأفكار ما يأتي من الرّأس، ومنها ما يأتي من القلب.

واصل فاريا الكلام: - ثمّ، إنّي، مذ سجنت قبل اثنتي عشرة سنةً، راجعت في رأسي كلّ قصص الهروب الشّهيرة، فلم أرَ إلا نادرًا هروبًا ينجح. الهروب السّعيد، الهروب المكلّل بالنّجاح، هو ثمرة تأمّل عميق وتحضير طويل؛ كذلك هربَ دوق بوفور[1] من قلعة فانسين؛ والأب دوبوكواً من سجن فور-ليفيك، ولاتود من سجن الباستيل. وثمّة الهروب الذي تدبّره الصّدفة، وهو أفضل هروب؛ لننتظر أن تلوح فرصةٌ، ثِق بي، وعندما تلوح الفرصة سنغتنمُها.

أجابه دانتِس بزفرةٍ متحسّرة:

- أنت استطعتَ الانتظار؛ لقد منحك شغلُك الطّويل تسليةً قضيت فيها وقتكَ، وحين لم تكن تشتغل، كنت تسلّي نفسك بالأمل.

- زِد على ذلك أنّي ما كنت أنفق وقتي في ذلك فقط.

- ما الذي كنتَ تفعله؟

- كنت أكتب أو أدرس.

- أَيُعطونَك الورق والأقلام والمداد؟

- كلاّ، لكنّي أصنعُها.

صاح دانتِس: - تصنَع ورقًا وأقلامًا ومدادًا!

- نعم.

أخذ دانتِس ينظرُ إلى الرّجل بإعجاب؛ على أنّه كان لا يزال يجد صعوبةً في تصديق ما يقولُه. وقد تنبّه فارياً إلى طيف الشّك الذي يعتمل في نفس الشّاب، قال له:

---

(1) هو فرانسوا دو فُندوم (1616-1669)، نبيل وعسكريّ فرنسي. ظهر في أعمال أدبية أخرى لألكسندر دوما: «عشرون سنةً بعد ما وقع»، و«فيكونت براجلون».

– عندما تأتي عندي سأريك مؤلّفًا بأكمله، هو عصارة فكري وأبحاثي وتأمّلي طيلة حياتي، كتابٌ فكّرت فيه في ظلّ الكولوسيوم في روما، وأسفل مسلّة سان ماركو في البندقيّة، وعلى ضفاف نهر أرنو في فلورنسا، ولم أعتقد يومًا في أنّ سجّانيَّ سيسمحون لي بتأليفه بين جدران قلعة إيف الأربعة. الكتابُ **رسالةٌ في إمكان قيام دولةٍ تحت حكم موحّد بإيطاليا**. سيكون في حجم مجلّد كبير.

– وهل كتبتَها؟

– كتبتُها على قميصين. لقد اخترعت وصفةً تجعل النّسيج ناعمًا وموحّدًا كالقرطاس.

– أنتَ إذًا كيميائيّ؟

– شيئًا ما. لقد عرفتُ لافوازييه، وتربطني علاقةٌ بكابانيس[1].

– لكن، لكي يكتب المرء كتابًا مماثلًا، ينبغي أن يقوم بأبحاث تاريخية. لديك كُتب إذًا؟

– في روما، كان عندي مكتبةٌ قوامُها نحو خمسة آلاف مجلّد. ولفرط ما قرأتُها وأعدت قراءَتها اكتشفتُ أنّ مائة وخمسين كتابًا مختارةً بعناية، تمنحُنا عصارة المعرفة البشرية بأكملها، أو على الأقلّ تمدّنا بالمعرفة الضرورية لرجل العلم. وكان أن وقفت ثلاث سنواتٍ على قراءة الكتب المائة والخمسين، وإعادة قراءتها، لدرجة أنّي حين اعتُقلت كنت أحفظها تقريبًا عن ظهر قلب. وفي حبسي، مع القليل من الجهد استطاعت ذاكرتي أن تستعيدها تمام الاستعادة. وعليه أستطيع أن أستظهر عليك أعمال: توسيديدس، وكسينوفون، وبلوتارخس، وتيتوس-ليفيوس، وتاسيتس، وسترادا، ويوردانِس، ودانتي، ومونتاني،

(1) بيير جان جورج كابانيس (أو كاباني) (1757-1808) طبيب وفيلسوف ونائبٌ فرنسي، تأثّر بفكر الأنوار، وساهم في إصلاح مناهج التّعليم الطبيّ بفرنسا.

وشكسبير، واسبينوزا، وماكيافيللي، وبوسويه. طبعًا لم أذكر لك إلا الأهمَّ.

- أنت تعرف إذًا العديد من اللغات؟

- أتكلّم خمس لغاتٍ: الألمانية، والفرنسية، والإيطالية، والإنجليزية، والإسبانية. وبفضل اليونانية القديمة، أستطيع فهم اليونانية الحديثة؛ على أنّي أتحدّثها بشكل سيئ، وأنا أدرسها الآن.

- تدرسُها؟

- أجل، لقد وضعت معجمًا من الكلمات التي أعرفُها، وأخذت أركّبها، وأؤلف بينها، وأديرها، بحيث تصير كافية للتعبير عن فكري. أعرف تقريبًا ألف كلمة، وهي تكفيني كحدّ أدنى، وإن كانت الكلمات في الواقع تبلغ نحو مائة ألف، على ما أظنّ، في القواميس. على أنّي لن أصير بليغًا، لكنّي سأتمكّن من إيصال فكرتي، وحسبي ذلك.

وإذ صار إعجابُه بالرّجل يمضي متصاعدًا، أوشك دانتِس يعتقد في أنّ الرجل الغريب يملك قوى تكاد تكون خارقةً. وأراد أن يجد فيه نقطةَ ضعفٍ، كيفما كانت، فقال:

- لكن، وأنتَ لم تُعطَ أقلامًا، بماذا كتبتَ كتابك الضّخم هذا؟

- لقد صنعت أقلامًا ممتازةً من غضاريف أسماك القدّ (المرلان) العظيمة التي يعطوننا إيّاها بين الفينة والأخرى، أيّامَ الصّوم، أقلامٌ كانت لتُفضّل على الأقلام العادية لو أنّ مادة صنعها كانت معروفةً. لذا كنت أنتظر أيّام الصّوم، أيّام الأربعاء والجمعة والسّبت بفرح غامرٍ لأنّها كانت تعدني برفع ذخيرتي من الأقلام؛ وعليّ أن أعترف بأنّ أعمالي التّاريخية هي أعذب انشغالاتي. حين أغوص نازلًا في الماضي، أنسى الحاضرَ؛ وحين أسير حرًّا مستقلًّا في التّاريخ، لا أتذكّر أنّي سجينٌ.

- ماذا عن الحبر؛ أنّى لك الحبر؟

أجابه فاريا: - وجدت أنه كان ثمّة في ما مضى مدخنةٌ في محبسي؛ وقد أُغلقت تلك المدخنة قبل مجيئي بمدّة قطعًا، وقد ترسّب في قاعها الكثير من السّخام. كلّ ما أفعله هو إذابة السّخام في قليل من النّبيذ الذي يعطونه لي كلّ يوم أحد، فأحصل على حبر ممتاز. أمّا الإشارات المميّزة التي أريد أن أشد لها النظر، فأكتُبها بدمي بعد أن أشكّ إصبعي.

سأله دانتِس: - ومتى أقدر أن أرى كلّ هذا؟

- متى ما أردتَ.

صاح الشّاب: - الآن فورًا!

قال الرّاهب: - اتبعني إذًا!

ثمّ ولج الممرّ الأرضيّ واختفى فيه. وتبعُه دانتِس.

17

غرفة الرّاهب

بعدما سلك الممرّ الأرضيّ، مُنحنِيًا، لكن بسهولة، بلغ دانِتس طرفَه الآخرَ الذي يفضي إلى غرفة الأب فاريا. هناك كان الممرّ يضيق بحيث بالكاد يمنح لرجلٍ المساحة الكافية لكي يلج منه زحفًا. كانت غرفة الرّاهب مبلّطةً؛ وبرفعِ إحدى البلاطات الموجودة في الرّكن الأكثر عتمةً من الغرفة، كانَ قد بدأ عمليّته الشّاقة التي شهدَ دانِتس نهايتَها.

وما إن وصل الشّابُ وانتصب عوده، حتّى شرع في تفحّص الغرفة العجيبة بعناية بالغة. من الوهلة الأولى لا تبدو الغرفة مميّزة في شيء.

قال الرّاهب: - حسنًا، السّاعة الآن منتصف النّهار وربع، ولا تزال أمامنا ساعاتٌ.

جال دانِتس ببصره باحثًا عن السّاعة التي مكّنت الرّاهب من أن يحدّد الوقتَ بتلك الدقّة.

قال الرّاهب: - انظر إلى شعاع النّافذة هذا الذي يتسلّل عبر النّافذة، وتأمّل على الحائط الخطوط التي رسمتُها. بفضل هذه الخطوط، والحركة المزدوجة للأرض والإهليج الذي ترسمه حول الشّمس، أستطيع تحديد الوقت بدقّة أفضل ممّا لو كنت أمتلك ساعةً، لأنّ السّاعة قد تخطئ، بينما الشّمس والأرض لا تخطئان حركتهُما.

لم يفهم دانِتس شيئًا من هذا الشّرح، لطالما ظنَّ، وهو يرى الشّمس تشرق من وراء الجبال، وتغيب في البحر الأبيض المتوسّط، أنّها هي ما يتحرّك، وليس الأرض. بدت له إذًا هذه الحركة المزدوجة للكوكب

الذي يعيش فوقَه، والتي لا يحسّ بها، شبهَ مستحيلة؛ وفي كلّ عبارة ينطقها محدّثُه، كان يرى أسرارَ علومٍ بديعة تنتظر أن يُنقّبَ فيها، شأنَ مناجم الذّهب والماس التي كان قدً زارَها إبّان سفَرٍ قام به طفلًا إلى كَجرات وكَلكندة (الهند).

قال: - هيّا، إنّي مستعجلٌ رؤيةَ ما تخفيه من كنوز.

توجّه الرّاهب صوبَ المدخنة، وبواسطة النصل الذي كان لا يزال يمسك به، زحزح الحجرة التي كانت فيما مضى موقدًا، والتي تغطّي ثقبًا عميقًا؛ وفي ذلك الثقب كان يخفي الأشياء التي حدّث دانتِس عنها.

سألَه: - ماذا تريد أن ترى أوّلًا؟

- أرِني كتابَك الضّخمَ عن الملكية في إيطاليا.

أخرج الرّاهبُ من الدّولاب القيّم ثلاث أو أربع لفافاتٍ من الثوب، ملمومةً كورق بردي. كانت قطع نسيج، عرضها أربع بوصات تقريبًا، وطولها ثماني عشرة. وكانت القطع المرقّمة مليئة بكتابةٍ استطاع دانتِس أن يقرأها، لأنّها كانت مكتوبةً بلغة الرّاهب الأمّ، أي بالإيطالية، وهي لغةٌ كان دانتِس، لأنّه بروفنساليّ، يفهمها تمامَ الفهم.

قال الرّاهبُ: - انظر، كلّ شيء هنا؛ منذ ثمانية أيّام تقريبًا دوّنت كلمة «تَمّ»، أسفلَ القطعة رقم ثمانية وستّين. لقد استهلكت في شغل هذا الكتاب قميصين من قمصاني وكلّ ما مرّ عليّ من مناديل؛ لو أنّي أستعيد حريّتي، وأجد في إيطاليا طابِعًا يقبل أن يطبع كتابي، فسأضمن شهرةً مؤكّدةً.

أجابه دانتِس: - أجل، أعتقد ذلك. والآن، أرِني الأقلام التي كتبت بها هذا العمل.

- هاكَها.

ثمّ أشارَ إلى عودٍ صغير بطول ستّ بوصاتٍ، سُمكُه كَسُمك مقبض يراع، وفي طرفه رُبطت إحدى العظمات التي كان قد حدّث دانتِس عنها، وعليها آثار الحبر لم تمحَ بعد. كان رأسُها مائلًا ودقيقًا كيراعٍ عاديّ.

فحصه دانتِس، وعيناه تفتّشان عن الأداة التي توسّل بها الشّيخ ليبرده بردًا بتلك الدّقّة.

قال فاريا: - آه! تبحث عن المدية، أليس كذلك؟ إنّها أعجوبةٌ؛ لقد صنعتُها هي وهذه السّكين من شمعدان حديد قديم.

كانت المدية قاطعة كموسى. أمّا السّكين فكان يمتاز بخاصية مزدوجة، إذ بالإمكان استخدامه كسكين وكخنجر في آنٍ.

تفحّص دانتِس مختلف تلك الأشياء، بنفس التمعّن الذي كان يتفحّص به في بازارات مارسيليا الأشياء الذي صنعها البدائيون وأتى بها قباطنة السّفن من بحار الجنوب بعد رحلات طويلة.

قال فاريا: - أمّا بالنّسبة إلى الحبر، فإنني آخذ منه كلّ مرّة بقدر حاجتي.

قال دانتِس: - الآن شيءٌ واحدٌ يثير دهشتي: - أنّى للأيام أن تكفيك لصنع كلّ هذا!

أجابه فاريا: - كانت لديّ اللّيالي أيضًا.

- اللّيالي! أنت إذن كالقطّ، تستطيع الرّؤية في الظّلام؟

- كلاّ، لكنّ الرّب حباني من الذّكاء ما أستعيض به عن ضعف الحواس: - لقد حصلت على الإنارة.

- وكيف ذلك؟

- عن اللّحم الذي كانوا يأتونني به، كنتُ أفصل الدّهن، ثمّ أذيبه فأحصل على زيت متماسك. انظر، هي ذي شمعتي.

وأشار الرّاهب إلى ما يشبه فانوسًا، شبيها بذاك الذي يُستعمل عادةً في الإضاءات العمومية.

- ماذا عن النّار، وأعواد الثقاب؟

- تظاهرت بأنّي مصابٌ بداءٍ جلديّ، وطلبت كبريتًا أعالج به نفسي، فأُعطيتُ.

وضع دانتِس الأشياء التي كان يحملها على الطّاولة وخفض رأسَه، مندحرًا أمام مثابرة تلك الرّوح وقوّتها.

واصل الرّاهب فاريا الكلام: - ليس هذا كلّ شيء؛ ذاك أنّه لا ينبغي أن يخفيَ المرء كنوزه كلّها في مخبأ واحد؛ لنقفل هذا.

أعادا البلاطة إلى موضعها؛ ونثر الرّاهب قليلًا من الغبار فوقها، ومسح بقدمه كي يمحوَ كلّ أثر، ثمّ اتّجه إلى سريره فزحزحه.

خلف المرتبة كانت ثمّة حفرةٌ تخفيها حجَرةٌ تنغلق عليها بإحكام يكاد يبلغ الكمال، وفي الحفرة كان ثمّة سلّمٌ من حبالٍ طولُه ما بين خمسة وعشرين وثلاثين قدمًا.

فحصه دانتس: - كان صلبًا صلابةً تصمد أمام كلّ التّجارب.

سألَ الرّاهبَ: - من أعطاكَ الحبال اللازمة لإبداع هذا الصُّنع الرّفيع؟

- بدأت ببعض القمصان التي كنت أملكها، ثم أتيت على أغطية سريري التي نتّفت خيوطها على امتداد سنوات أسري الثلاث بفنِستريلي. وحين نُقلت إلى قلعة إيف استطعت نقلها معي؛ وهنا أكملت العمل.

لكن، ألَم ينتبهوا إلى أنّ أغطية سريرك فقدت هدبها؟

- كنت أرفوها.

- بواسطة ماذا؟

- بواسطة هذه الإبرة.

ثمّ شقَّ الرّاهب أحد الأسمال التي كان يرتديها، وأخرج منها شوكةَ سمكةٍ كبيرة حادةً ما يزال الخيط معلّقًا بها.

واصل فاريا الكلام: - كما ترى، لقد فكّرت أوّل ما فكرتُ في أن أبرد هذه القضبان وأهرب من هذه النّافذة التي هي أوسع قليلًا من نافذتك، والتي كنت أنوي أن أزيد توسعتها ساعة هروبي؛ لكنّي انتبهت إلى أنّ هذه النّافذة تفضي إلى ساحةٍ داخلية، فتخلّيت عن مشروعي الذي ينطوي على قدرٍ كبير من المجازفة. بيد أنّي احتفظت بالسلّم تحسبًا لأن يعرض عارض غير متوقّع، أقصد هروبًا من ذاك النّوع الذي حدّثتك عنه، الهروب الذي تدبّره الصّدفة.

وبينما يتفحّص دانتِس السلّم، كان هذه المرّة يفكّر في شيء آخر، يقلّب فكرةً خطرت بباله. خطر له أنّ هذا الرّجل الذكيّ، الشديد الفطنَة، والنّافذَ البصيرة، قد يستطيع أن يبصر بوضوح في ظلمات شقائه هو، تلك الظلمات التي لم يستطع هو يومًا أن يميّز فيها شيئًا.

قال الأب باسمًا، وهو يؤوّل ذهول دانتِس إلى إعجابٍ رفعَه إلى أعلى قدر:

– فيمَ تُفكّر؟

– أفكّر في أنّك قد رويت لي حياتَك، في حين أنّك لا تعرف حياتي.

– إنّ حياتَك يا صغيري أقصر من أن تنطوي على حوادث جسام.

قال دانتِس: – إنّ في ثناياها شقاءً هائلًا، شقاء لم أستحقّه؛ وأنّي أريد، بدلًا من أن أجدِّف على الله كما فعلتُ أحيانًا، أن أهاجم الرّجال الذين كانوا سببًا في شقائي.

– أنت إذًا تدّعي البراءة ممّا اتُهمتَ به؟

– كلّ البراءة، أقسم على ذلك بحياة الإنسانين الغاليَيْن عندي: – والدي ومرسيدس!

أغلق الأب المخبأ، وأعاد السّرير إلى محلّه، وقال:

– هيا، ارو لي حكايتَك!

روى دانتِس ما أسماهُ قصّةَ حياتِه، والتي تتلخّص في رحلةٍ إلى الهند، ورحلتين أو ثلاثٍ إلى الشّام[1]؛ إلى أن بلغ رحلته الأخيرة، وموتَ القبطان لوكلير، والطّرد الذي عهِد به إليه كي يوصلَه إلى الماريشال الأعظم، ولقاءَه الخاطف بالماريشال الأعظم، والرّسالة التي عهد بها إليه ليوصلُها إلى السيّد نوارتييه؛ وأخيرًا عودته إلى مارسيليا، ولقاء والده، وغرامياته مع مرسيدس، ووليمة الخطوبة، وتوقيفه، والتحقيق

(1) بالمعنى الجغرافي القديم، الذي يضمّ معظم بلدان المشرق العربي.

معه، وسجنه المؤقت في المحكمة، ثمّ سجنه النهائيّ في قلعة إيف. بعد هذه النّقطة ما عاد دانتِس يعرفُ شيئًا، ولا حتّى المدّة التي قضاها سجينًا.

وما إن أتمّ دانتِس رواية قصّته حتّى أغرق الرّاهبُ في تفكير عميق؛ ثمّ بعد برهةٍ قال:

– ثمّة مسلّمةٌ قانونية بالغةُ العمق، تعيدُنا إلى ما كنتُ قد قلته لك قبل قليل، ومفادُها أنّه ما لم تنشأ الأفكار الخبيثة عن نظام شائهٍ، فإنّ الطّبيعة البشرية تأنفُ الجريمة. غير أنّ الحضارة قد خلقت فينا حاجاتٍ ورذائل وشهواتٍ زائفة هي ما يدفعنا أحيانًا إلى أن نخمدَ غرائزنا الطّيبة وننساقَ إلى الشرّ. من هنا هذه القاعدة: إذا ما أردت كَشف المجرم، ابحث عمّن له مصلحةٌ في الجريمة. من يمكنه أن يُفيد من اختفائك؟

– لا أحد، فلقد كنت رجلًا بلا أهميّة تذكر.

– لا تُجب على هذا النّحو، لأنّ إجابتك تفتقر إلى المنطق والحكمة في آنٍ؛ كلّ شيء نسبيّ يا صديقي، بدءًا من الملك الذي ينغّص على وريث عرشه، وصولًا إلى الموظّف الرّسمي الذي ينغّص على الأجير المؤقّت: إذا ما مات الملك سيؤول الحكمُ إلى وريث عرشه؛ وإن مات الموظّف سيخلفه الأجير المؤقّت ويرث راتبًا قدره ألفٌ ومائة جنيه. ألفٌ ومائة جنيه هي مخصّصاته السّنوية؛ إنّها ضروريّة لعيشه ضرورةَ الاثني عشر مليونًا المخصّصة للملك. كلّ فردٍ، من أدنى السلّم الاجتماعي إلى أعلاه، يضمّ حولَه عالمًا صغيرًا من المصالح، عالمًا له دوّاماتُه وعناصره الموافقة، تمامًا مثل عوالِم ديكارت. على أنّ هذه العوالم تمضي متّسعةً بقدر ما ترتفع. إنّه لولبٌ مقلوب يقفُ على قمّته بفضل لعبةِ توازن. فلنَعُد إلى عالمك أنت إذًا: ألم تكن على وشك أن تُرقّى قبطانًا على **الفرعون**؟

– بلى.

– وكنت على وشك الزواج بشابّة جميلة؟

– بلى.

- هل كان من مصلحة أحدٍ ألا تصبح قبطانًا على **الفرعون**؟ هل كان من مصلحة أحدٍ ألا تتزوّج مرسيدس؟ أجب أوّلًا عن السؤال الأوّل، الترتيب هو مفتاح المشكلات كلّها: هل كان من مصلحة أحدٍ ألا تصبح قبطانًا على **الفرعون**؟

- كلاّ؛ لقد كان الجميع على متن **الفرعون** يحبونني. ولو كان على البحّارة أن يختاروا رئيسًا، لاختاروني بالتّأكيد. رجلٌ واحدٌ فقط كان لديه ما يؤاخذني عليه، فقد تشاجرت معه من قبل، وعرضت عليه نزالًا، لكنّه رفضه.

- حسنًا إذًا، ما اسمُ هذا الرّجل؟

- دانغلار.

- وأيّ وظيفةٍ كان يشغل على متن **الفرعون**؟

- كان مُحاسبًا.

- ولو أنّك صرتَ قبطانًا، هل كنت لتتركه في منصبِه؟

- كلاّ، لو كان الأمر بيدي، لأنّني لاحظت عليه بعض الغشّ.

- حسنًا. وهل حضر أحدٌ حديثك الأخير مع القبطان لوكلير؟

- كلاّ، لقد كنا بمفردنا.

- هل من الممكن أن يكون قد سمع أحدٌ ما حديثكما؟

- نعم، لأنّ الباب كان مفتوحًا؛ لا بل.. مهلًا... بلى، بلى، لقد مرّ دانغلار في الوقت الذي كان القبطان لوكلير يسلّمني فيه الرّسالة إلى الماريشال.

- حسنًا، إنّنا على الدّرب الصّحيحة. هل رافقك أحدٌ حين نزلت على جزيرة إلبا؟

- لا أحد.

- هل أُعطيتَ رسالةً أخرى؟

- نعم، أعطانيها الماريشال.

- وماذا فعلت بها؟
- وضعتُها في محفظتي.
- كنت إذًا تحمل محفظتَك معك؟ كيف يمكن لبحارٍ أن يحمل في جيبه محفظةً فيها رسالةٌ رسمية؟
- أنت محقٌّ، محفظتي بقيت بالسّفينة.
- لم تضع الرّسالة في المحفظة إذًا إلا حين صعدت على متن السّفينة؟
- نعم.
- ومن بورتو فرايو إلى متن السفينة، ماذا فعلت بالرّسالة؟
- كنت أحملها في يدي.
- حين صعدت إذًا إلى السّفينة، لاحظ الجميع أنّك تحمل رسالةً في يدك؟
- نعم.
- ودانغلار كان بين من لاحظوها؟
- نعم، لا شك أن دانغلار كان من بين من لاحظوها.
- الآن انتبه جيّدًا إلى ما أقوله؛ حاول استجماع ذكرياتك كلّها: - هل تذكر العبارات التي صيغت بها رسالة الوشاية؟
- أوه! نعم؛ لقد قرأتُها ثلاث مرّات، وحُفرت عباراتُها في ذاكرتي.
- اُتلُها عليَّ إذًا.
- هي ذي بالضّبط:

«إلى السيّد وكيل الملك: يُعلمكم أحد الأوفياء للعرش والدّين، بأنّ المدعو إدمون دانتِس، نائبَ قبطان سفينة فرعون، التي وصلت اليوم من إزمير، بعدما عبرت ميناءَي نابولي وبورتو فيرّايو (إيطاليا)، قد كُلّف من طرف مورات، بحمل رسالةٍ إلى غاصبِ الحُكم، ثمّ رسالةٍ من طرف غاصب الحُكم إلى جماعة البونابرتيّين بباريس.

وستجدون دليل إدانته عند توقيفه، لأنّه لا بد أن يحمل الرسالة معه، أو في دار أبيه، أو في مقصورته بالفرعون».

هزّ الأب فاريا كتفيه: - المسألة واضحةٌ وضوح الشّمس، ينبغي أن تكون مُفرط السذّاجة والطّيبة لكي لا تدرك، منذ الوهلة الأولى، ما وقع.

- هل تظنّ ذلك حقًا؟ إنّه ظلمٌ!

- كيف كان خطّ دانغلار الاعتياديّ؟

- خطٌّ جميلٌ سلس.

- وكيف كان الخطّ الذي كُتبت به الرّسالة المجهولة؟

- خطٌّ معوجٌّ.

ابتسم الرّاهبُ، وقال: - خطٌّ مزوّرٌ، أليس كذلك؟

- خطٌّ أثبتُ من أن يكونُ مزوّرًا.

قال الرّاهب: - مهلًا، ثمّ إنّه أخذ يراعَه، أو بالأحرى أخذ ذاك الشّيء الذي يطلق عليه يراعًا، فغمسه في الحبر وكتب بيُسراه، الأسطر الثلاثة الأولى من رسالة الوشاية على قماش جهَّزه لهذا الغرض.

تراجع دانتِس إلى الوراء وهو يحدّق في الرّاهب في ما يشبه الرّعبَ، ثمّ صاح:

- أوّاه! يا للعجب! لشدَّ ما يشبهُ هذا الخطُّ الخطَّ الذي كُتبت به الرّسالة.

- ذاك أنّ رسالة الوشاية كتبت باليد اليسرى. لقد لاحظتُ شيئًا.

- ما هو؟

- كلّ الكتابات التي تُخطّ باليد اليمنى تختلف، بينما كلّ ما يُكتب باليد اليسرى يتشابَه.

- رأيتَ إذًا كلّ شيء، ولاحظتَ كلّ شيء؟

- لنواصل.

- أجل، أجل.

- لننتقل إلى السؤال الثاني.
- أستمع إليك.
- هل كان من مصلحة أحدٍ ألا تتزوّج مرسيدس؟
- نعم! شابّ كان مغرمًا بها.
- واسمُه؟
- فرنان.
- هذا اسم إسبانيّ.
- هو كتالانيّ.
- هل تعتقد بأنّه كان يقدر أن يكتب الرسالة؟
- كلاّ! هو كان ليطعنني بسكّين، وهذا كلّ ما في الأمر.
- أجل، تلكم طبيعة الإسباني: يقتُل، نعم. يجبُن، لا.
أكمل دانتِس كلامه: - ثمّ إنّه كان يجهل كلّ التفاصيل المذكورة في الوشاية.
- ألم تخبر أحدًا بتلك التّفاصيل؟
- أبدًا.
- ولا حتّى عشيقتك؟
- ولا حتّى خطيبتي.
- هو دانغلار إذًا.
- أوه! لقد تيقّنتُ الآن.
- مهلًا... هل كان دانغلار يعرف فرنان؟
- كلاّ.. بلى... لقد تذكّرت...
- ماذا؟
- في اليوم السّابق لزواجي، لمحتهما معًا جالسَين معًا في حانة الأب بامفيل. كان دانغلار ودودًا مرحًا، بينما فرنان شاحبًا مضطربًا.
- هل كانا وحدهما؟

- كلاّ، كان معهما نديم ثالث، وهو شخص أعرفه حقّ المعرفة، ولا شكّ في أنّه هو من عرَّفهما ببعض، إنّه كادروس الخيّاط؛ لكنّه كان ثملًا؛ مهلًا... مهلًا... كيف لم أتذكّر هذا؟ لقد كانت بقربهم على الطّاولة محبرةٌ وأوراق وأقلام. (ضرب دانتِس بيده على جبهته.) أوه! الفَجرة! الفجَرَة!

قال الرّاهبُ ضاحكًا: - ألا تزال ترغب في معرفة شيءٍ آخر؟

- نعم، ما دمت تستطيع تعميق البحثِ في كلّ شيء، أريد أن أعرف لمَ لم يُحقّق معي سوى مرّة واحدة، لمَ لم أُسلّم إلى القضاء، ولمَ حوكمت من دون قرار قضائي.

- أوه! هذه مسألةٌ أخطر؛ إنّ للعدالة مسالك مظلمة غامضة يصعبُ اقتحامُها. ما فعلناه مع صديقَيك ليس سوى لَهْوِ أطفال؛ ينبغي عليك الآن أن تعطيني توضيحاتٍ أدقّ.

- حسنًا، سَلني، فالحقّ أقول إنّك تبصر حياتيَ أوضح ممّا أبصرُها أنا نفسي.

- من الذي حقّق معك؟ وكيل الملك، أم نائبه، أم قاضي التحقيق؟

- نائب وكيل الملك.

- كان شابًا أم شيخًا؟

- شابًا في السّابعة والعشرين أو الثامنة والعشرين من عمره.

- جيد! لم يطَلهُ الفسادُ بعدُ، لكنّ الطّموح نالَ منه. كيف كانت معاملتُه لك؟

- لطيفة بالأحرى.

- هل حكيت له كلّ شيء؟

- كلّ شيء.

- وهل تغيّر تعامله معك أثناء سير التحقيق؟

- في لحظةٍ معيّنة، حين قرأ الرسالة التي تدينني؛ بدا كأنّما أثّرت فيه

مصيبتي.

– مصيبتك؟

– أجل.

– هل أنت متأكّد من أن مصيبتك هي التي أثّرت فيه؟

– لقد بدرت منه بادرةٌ لطيفةٌ، على الأقل.

– أيّ بادرةٍ؟

– لقد أحرق الدليل الوحيد الذي كان يمكن أن يدينني.

– أيّ دليل؟ رسالة الوشاية؟

– كلّا، الرّسالة التي كنت أحملها.

– أحرق الرّسالة؟

– نعم أحرقها أمام ناظريَّ.

– هذا أمرٌ آخر؛ قد يكون هذا الرّجل وغدًا أشدّ ممّا تعتقد.

– إنّك تجعلني أرتجف من مصيبتي! أوَيكون العالم مأهولًا بالنّمور والتّماسيح؟

– أجل، واعلم أنّ النّمور والتّماسيح التي تمشي على قدمين أشدّ خطرًا من غيرها.

– هيا اخبرني بما ترى أيضًا.

– حبًّا وكرامةً؛ تقول إنّه أحرقَ الرّسالة؟

– أجل، أحرقَها وهو يقول لي: «أترى، لا يوجد ضدّك سوى هذه الرّسالة، وها أنا ذا أحرقُها».

– إنّه تصرّف شديد النُّبل، لدرجة أنّه لا يمكن أن يكون طبيعيًا.

– أتظنُّ ذلك؟

– بل إنّي متيقّنٌ من ذلك. إلى من كانت الرّسالة مُرسلةً؟

– إلى السيّد نوارتييه، شارع كوك-إيرون، رقم 13، بباريس.

– هل من دافع لتفترض أنّ في اختفاء الرّسالة مصلحةً لهذا النّائب؟

– ربّما؛ لأنّه جعلني أقسم أكثر من مرّة بأن لا أحدّث أحدًا عن هذه الرّسالة، لمصلحتي كما زعم، وألا أنطق الاسم المذكور في العنوان.

ردّد الرّاهبُ الاسم: – نوارتييه؟ نوارتييه؟ لقد عرفت في ما مضى رجلًا يُدعى نوارتييه، عرفته في بلاط ملكة إترووريا[1] سابقًا، كان جيروندِيًا، وشارك في الثورة. ما اسم نائب الوكيل؟

– دو فيلفور.

أطلق الرّاهب العنان لضحكه، بينما دانتِس يتابعه بذهول.

سأله الشّاب: – ما بك؟

فأجابه بسؤال: – هلَ ترى شعاعَ النّهار هذا؟

– نعم.

– والحالُ إنّ كلّ شيء غدا عنديَ الآنَ أوضحَ من هذا الشّعاع الشّفاف اللامع. مسكينٌ يا ولد، مسكينٌ يا فتى! وهذا القاضي، هل كان طيّبًا معك؟

– أجل.

– هذا النّائبُ قد أحرق الرّسالة، دمّرها؟

– أجل.

– متعهّدُ الجلادين جعلك تُقسم بأنّك لن تنطق أبدًا اسم نوارتييه؟

– أجل.

– وهذا النوارتييه، هل تعرف من يكون أيّها الأعمى المسكين؟ إنّه والده!

ولو أنّ صاعقة ضربت دانتِس، فحفرت تحت قدميه هاويةً تلقي به إلى الجحيم، لكان وقعُها عليه أقلّ من وقع هذا الكلام الذي ما توقّعَه بالمرّة؛ قام واقفًا، وأمسك رأسه بين كفيه، ضاغطًا عليه كأنّما يخشى

---

(1) على الأرجح ماريا لويزا، دوقة لوكا، وإيترووريا كانت تغطّي جزءًا مهمًا من إقليم توسكانا بإيطاليا.

انفجاره. وراح يردد:

- والده! والده!

- نعم، والده المسمّى نوارتييه دو فيلفور.

إذّاك عبرت دماغ السّجين بارقة نورٍ وضاءة؛ كلّ ما كان حتّى تلك اللحظة غامضًا، صار واضحًا وضوحَ النّهار. كلّ مراوغات فيلفور أثناء التحقيق، وإحراقُ الرّسالة، والقسَمُ المفروض، وصوت القاضي المتوسّلُ، والذي بدلًا من أن يتوعّد بدا كأنّما يترجّى... استعادَت ذاكرتُه كلّ شيء؛ أطلق صرخةً، وترنّح لحظةً كالثَمِل، ثمّ قصد الفتحة التي توصل زنزانة الراهب فاريا بزنزانته، قائلًا:

- اعذرني، أريد أن أختلي بنفسي لأتمكنّ من التفكير في كلّ هذا.

وما إن صار في محبسه حتّى تهاوى على سريره، وهناك وجده السّجّان مساءً، جالسًا، عيونُه محدّقة وملامحه مضطربةٌ، لكنّه جامدٌ وصامتٌ كصنم.

وأثناء ساعات التأمّل، التي انقضت عليه كأنّها ثوانٍ، خلُص إلى قرار رهيبٍ وأقسم على نفسه قسَمًا مهيبًا.

وكان أن انتشله من تأمّله صوتٌ؛ صوت الراهب فاريا، الذي بعدما مرّ عليه السّجان بدوره، أتى إليه يدعوه إلى العشاء معه. فاليوم أحد، وسمعةَ السّجين المسنّ كمجنونٍ مؤكّدة، وعلى وجه التّخصيص مجنونٍ مُسلٍّ، جعلته يفيد من بعض الامتيازات، كأن يحصل على خبز أكثر بياضًا بقليل، وقنينة خمر صغيرة أيّامَ الأحد. والحال أنّ الرّاهبَ دعا صاحبَه الشّاب لمُقاسمته الخبز والخمر.

تبعه دانتِس وكان قد استعاد شيئًا من وضعه الطبيعيّ، وإن علا محيّاه برود وصرامةٌ، إن جاز لنا التعبير، برودٌ وصرامة يشيان بأن الرّجل قد اتّخذ قرارًا حازمًا.

قال الرّاهبُ وهو يحدّق فيه:

-إنّي لأشعرُ بالأسف أن ساعدتُك في تقصّيك، وقلت لك ما قلتُه.

- لم؟

- لأنّي زرعت في قلبك إحساسًا لم يعرفه من قبل، هو الانتقام.

ابتسم دانتِس، وقال: - لنغيّر الموضوع.

نظر إليه الأب مجدّدًا، ثمّ هرش رأسَه بحزن؛ وانتقل، كما رجاه دانتِس، إلى الحديث في موضوع آخر.

لقد كان الشّيخ السّجين من طينة الرّجال الذين، لفرط ما عركتهم الشدائد، تزخرُ أحاديثُهم بالنّصائح وتنطوي على فوائدَ جمّة؛ بيد أنّه لم يكن أنانيًا، فما كان يتحدّثُ البتّة عن مصائبه.

وكان دانتِس يصغي إلى أحاديثه كلّها بتقدير بالغ. بعضُها كان يوافقُ أفكارًا كان يحوزها أصلًا، ومعارفَ في متناول من كان بحّارًا مثله؛ وبعضها الآخرُ يلامس أمورًا مجهولةً. وشأنَ الشّفق القطبيّ الذي يضيء للملّاحين عند خطوط العرض جنوبًا، كذلك كانت تلك المعارف تبيّنُ للشّابِ مناظرَ وآفاق جديدة، يضيئُها وهجٌ عجيب. وقد أدرك دانتِس الخيرَ العقلي العميم الذي يمكن أن يصيبه إن هو تبع هذا العقل الرّفيع إلى الأعالي الأخلاقية والفلسفية والاجتماعية التي دأب على طرقِها.

قال دانتِس: - ينبغي أن تعلّمني قليلًا ممَّ عُلّمتَ، أقلّه كي لا تضجر منّي. فإنسانٌ مثلك قد يفضّل الوحدة على رفيق مثلي بلا علم وغير ذي شأنٍ. إن وافقت على طلبي فأعدك بأن لا أحدّثك بعدُ عن الهرًب.

ابتسم الأب، وأجابه:

- هيهات يا ولدي! إنّ المعرفة البشريّة محدودةٌ جدًا، وستتبيّن حدود علمي بنفسك، حين أعلّمك الرياضيات والفيزياء والتّاريخ واللّغات الثلاث أو الأربع التي أتحدّثها. على أنّه تلزمنا سنتان لكي أصبّ من عقلي في عقلك.

قال دانتِس: - سنتان! أتعتقدُ أنّ بوسعي تعلّم كلّ هذه الأشياء في

غضون سنتَين؟

– على المستوى التطبيقي، لا؛ لكن من حيث الأسس والمبادئ، ممكن. أن تتعلّم ليس هو أن تعرفَ؛ هنالك العارفون، وهنالك العلماء: ففريقٌ صنيعةُ الذّاكرة، وفريقٌ صنيعةُ الحكمة[1].

– لكن أليس بوسع المرء تعلّم الحكمة؟

– لا يمكن تعليم الحكمة؛ الحكمة هي اجتماع المعارف المكتسَبة والعقل الذي يطَبّقُها. الحكمة هي الغيمةُ المشرقة التي عليها وضع المسيح قدمَه صاعدًا إلى السّماء.

– حسنًا، ماذا ستعلّمني في البداية؟ لستُ أطيق على البدء صبرًا؛ أنا متعطّشٌ للعلم.

أجابه الأب: – سنبدأ بكلّ شيء!

ثمّ ما إن حلّ المساء، حتى وضع السجينَان خطّةً للتعلّم، شرعَا في تنفيذها بدءًا منَ اليوم الموالي. وقد وُهب دانتِس ذاكرة مذهلة، ويسرًا كبيرًا في القدرة على التصوّر: كان استعدادُ عقله رياضيًا يجعله قابلًا لأن يفهم كلّ شيء بواسطة الحساب، بينما شاعريةُ البحّارِ فيه تخفّفُ من حدّة الطّابع الماديّ الذي يطالُ الاستدلالات العقلية، حين تُختزلُ في أرقام جافّة أو خطوط متصلّبة؛ وكان أصلًا يعرف الإيطالية، وقليلًا من الرّومايك[2]، ممّا تعلّمه أثناء رحلاته إلى الشّرق. وبفضل تَينِك اللّغتين لم يلبث أن أدرك الميكانيزم المتحكّم في أيّ لغةٍ أخرى، وما كادت تنقضي ستّةُ أشهرٍ حتّى شرع في تكلّم الإسبانية والإنجليزية والألمانية.

ومثلما كان قدْ قال للرّاهب فاريا، لم يجرِ على لسانِه قطُّ ذِكرٌ للهرب، إمّا لأنّ التسرية التي تمنحه إيّاها الدّراسةُ قد حلّت محلّ الحريّة، وإمّا

(1) – يستعمل دائما هنا، وفي ما يلي ذلك، لفظ «فلسفة»، لكنّه يستعمله بمعنى «حكمة».

(2) – اليونانية الحديثة المستخدمة في التخاطب اليوميّ.

لأنّه كان ممّن يحفظون الوعودَ كلّ حفظٍ؛ فجرتِ الأيامُ سريعةً حافلةً بالمعارف. وما انقضى عامٌ حتّى كان قد تحوّل إلى رجلٍ آخر.

أمّا الأب فاريا، فقد لاحظ دانتِس أنّه كان يذوي يومًا عن يوم، على الرّغم من التسلية التي منحها له الشّاب في سجنِه. كان يبدو أنّ ثمّةَ سؤالًا مؤرقًا وأبديًا يحاصرُ روحه؛ كان يهوي في مناماتٍ عميقة، فيتنهّد عفويًا، ويقومُ من مقامه بغتة، فيشبك ذراعيه ويذرعُ كئيبًا محيط سجنه.

وذات يوم، توقّف بغتةً وسط إحدى تلك الدوائر المكرّرة مئات المرّات التي كان يقوم بها في محيط غرفته، وصاح:

«آه! لو لم يكن يوجد خفير!».

أجابه دانتِس الذي كان يتابع أفكاره عبر جمجمته كأنّما ينظر إلى دماغه عبر بلّور:

– لن يكون هناك خفير إلا بقدر ما تريد أن يكون.

– آه! لقد أخبرتك، نفسي تنفرُ الدمَ.

– مع أنّ تلك الجريمة إن تمّت، فيكون دافُعها غريزةَ الحياة، دفاعًا عن النّفس.

– مهما كان، لن أستطيع.

– غير أنّك تفكّر في الأمر؟

غمغم الرّاهب: – لا أكفّ عن التّفكير فيه، لا أكفّ.

قال دانتِس بحماسة: – وقد وجدتَ السبّيل، أليس كذلك؟

– بلى، وجدتُ السّبيل، شرط أن يضعوا في الرّواق خفيرًا أعمى أصمَّ.

أجابَ دانتِس بنبرة حازمة أرعبت الرّاهب: – سيكون أعمى، سيكون أصمَّ.

صاح الشّيخ: – كلّا، كلّا! مستحيل.

أراد دانتِس أن يبقيه في الموضوع، لكنّ الرّاهبَ هزّ رأسه ورفض أن

يخوض فيه أكثر.

مرّت ثلاثة أشهر.

وذات يوم سأل الرّاهبُ دانتس: - أقويٌّ أنت؟

ومن دون أن يحير دانتِس جوابًا، تناولَ الإزميل فَطَواه كحدوة حصانٍ، ثمّ أعادَهُ كما كان.

- هل تلتزم بأن لا تقتل الخفيرَ إلا في الحالة القصوى؟

- أجل، بشرفي.

- حسنًا إذًا، بوسعنا أن ننفّذ خطّتَنا.

- وكم يلزمنا من الوقت لتنفيذها؟

- سنةٌ، على الأقلّ.

- ومتى بوسعنا أن نبدأ العمل؟

- فورًا.

صاح دانتِس: - أوه! أرأيتَ، لقد أضعنا سنةً.

أجابه الرّاهب: - أوَترى أنّنا أضعناها؟

فصاح دانتِس وقد اعترته حُمرةٌ: - أوه! عفوك، عفوك!

قال الرّاهب: - صَه! ليس الإنسانُ في نهاية المطاف إلا إنسانًا؛ هذا وأنت من أفضل من عرفتُ. حسنًا، هاك خطّتي.

وأخرج الرّاهبُ لدانتِس تصميمًا كان قد رسمه: كان تصميم غرفته وغرفة دانتِس والرّواق الذي يجمعهما. وسط الرّواق أقام أخدودًا شبيهًا بذاك الذي يُجعَلُ في المناجم. وكان الأخدود يقود السّجينين أسفل السّاحة التي يجول فيها الخفير؛ وحين يصلان إلى هناك، سيحفران نفقًا واسعًا، ثمّ يقتلعان إحدى البلاطات التي تتشكّل منها أرضية الساحة؛ وفي لحظة ما، لا بدّ أن تنهار البلاطة تحت ثقل الجندي، الذي يهوي ويغور في النّفق؛ وإذّاك سيهرع إليه دانتِس، في غمرة ذهوله، حيث لا يمكنه أن يدافع عن نفسه، فيربطه ويكمّم فمه؛ ثم ينفذ السّجينان معًا عبر

إحدى نوافذ الرّواق، فينزلان على طولِ الجدار الخارجيّ عبر سلّمٍ من حبال، ومن ثمّ يهربان.

صفّق دانِتس بيديه، وعيناه تبرقان فرحًا؛ لقد كانت الخطّة من البساطة بحيث لا بدّ أن تنجح. وهكذا، في اليوم نفسه انطلق الحفّاران إلى العمل بحماسة، يذكيها ما يعقبها من استراحة طويلة، استراحة لا بدّ وأنّها تشهد استمرارًا للفِكَر الحميمة السريّة التي تعتمل في داخل كلّ منهما.

وما من شيء كان يقطع عملهما، اللهم إلّا تلك السّاعة التي يجبر فيها كلّ منهما على أن يعود إلى مرقده فيستقبل زيارة السّجان. ثمّ إنّهما كسبا عادة تمييز الصوت الذي لا يكاد يدرَك، أي صوت وقع خطوات السّجان وهو ينزل إليهما، فما أُخذ أحدهما ولا الآخر على حين غرّة. إنّ التراب الذي كانا ينزعانه من ممرّهما الجديد، والذي انتهى به المطاف إلى أن سدّ الرّواق القديم، قد صارا يلقيان به، شيئًا فشيئًا، وبحرص شديد، عبر نافذة محبس دانِتس أو نافذة محبس فاريا بعد أن يسحقانه بعناية، فتحمله ريح اللّيل بعيدًا من دون أن تخلّف له أثرًا.

ومرّت سنةٌ، وتزيد، على هذا العمل المُنجَز بإزميل، وسكّين، وعتلة من خشب، هي كلّ ما كان بحوزة الرّجلين من عتاد؛ وأثناء تلك السنة، ومن دونً أن يوقَف الاشتغال، واصلَ فاريا تعليم دانِتس، فكان يكلّمه طورًا بهذا اللّسان، وتارة بذاك، ويلقّنه تاريخ الأمم وسيَر الأعلام ممّن يخلّفون، من زمن إلى آخر، جذوةً من ذاك البريق الوهّاج الذي نسمّيه المجدَ. وكان الرّاهبُ، رجل النّخبة ونخبة النّخبة، قد حُبيَ، من بين ما حبيَ به من أدبٍ، بضربٍ من الجلال المهيب، جلال استطاع دانِتس، بفضل ما أوتيٍ من قدرةً استيعاب، أن يستخلص منه التهذيب الأنيق الذي كان ينقصه، وكذا تلك الأصول الأرستقراطية التي يكسبها المرء عادةً بمخالطة الطبقات الرّاقية أو المجتمع الرّفيع.

وبعد خمسة عشر شهرًا كان الحفرُ قد انتهى، والنفّق تحت السّاحة قد

تمّ؛ وصار بالإمكان سماعُ وقع خطى الحارس وهو يمرّ ويمرُّ؛ العاملان، اللذان صارا مضطرّين إلى انتظار ليلة حالكة الظّلام يغيبُ عنها القمر، كي يزيدا هروبهما ضمانًا، ما عادا يخشيان إلا أمرًا واحدًا: - أن تنهار الأرضية قبل موعدها، من تلقاء نفسها، تحت ثقل خطوات الجنود. وقد استدركا هذا العيبَ، بوضع دعامةٍ مّما يشبهُ ركيزة صغيرة كانا قد وجداها في الأساسات. وكان دانتِس منهمكًا في تثبيتها، حين تناهى إليه بغتةً صوتُ فاريا يستغيثه، وكان قد بقيَ هو في غرفة الشّابِ مشغولًا بشحذ إسفينٍ يفترض أن يمسك سلّمَ الحبال. عاد دانتِس إلى غرفته سريعًا، فأبصرَ الرّاهبَ واقفًا وسط الغرفة، شاحبًا، جبهته تتفصّد عرقًا ويداه متخشّبتان.

صاح دانتِس: - أوه! يا إلهي! ماذا بك، ممَ تشكو؟

- إليّ دون إبطاءٍ، إليّ، أصغ إليّ.

ظلّ دانتِس يطالع وجه فاريا الشّاحب، وعينيه المحاطتين بهالةٍ مزرقّة، وشفتيه البيضاوين، وشعره المنتفش؛ ولذهوله أوقعَ أرضًا الإزميل الذي كان يحمله بيده.

صاح: - ما بك؟

فأجابه الرّاهبُ: - إنّي هالك! أصغِ إليّ. سيتلبّسني داءٌ رهيبٌ، قد يكون فيه هلاكي. حانت النّوبة، وأنا أستشعرُ وصولها. وكنت قد أصبتُ في السّنة التي سبقت اعتقالي. دائيَ هذا ليس له سوى دواء واحد، سأخبرُك به: اهرع إلى زنزانتي؛ ارفع قائمة السّرير؛ سترى أنّ قائمته مجوّفةٌ؛ وفيها ستجد قارورة كريستال مملوءة إلى النّصف بسائل أحمر؛ هاتِها؛ أو، انتظر، ربّما يفاجئني السّجّان هنا؛ أعنّي على العودة إلى غرفتي ما دام لا يزال بي شيءٌ من حَيْلٍ. من يدري ما الذي يمكن أن يحدث، وكم من الوقت ستدوم النوبة؟

ومن دون أن يفقد دانتِس رجاحة عقله، على الرّغم من عِظَم المصيبة

التي حلّت به، نزل الممرَ، ساحبًا رفيقه المسكين خلفَه، إلى أن بلغا بشقّ الأنفسِ الطرفَ الآخر من الممرّ، حيثُ غرفة الأب، فمدّده على سريره.

قالَ الأب، وأطرافُه كلّها ترتجف كأنّما خرج من ماء مثلّج:

– شكرًا. لقد عاودني الدّاء، سيصيبني التخشّب؛ ربّما لن أقوم بحركةٍ أو أنبسَ بأنّةٍ؛ ولربّما أزبدتُ وانتفضتُ وصرخت؛ فاحرص على ألا تُسمعَ صرخاتي؛ هذا الأهمّ، لأنّهم إن سمعوا صراخي قد ينقلونني إلى غرفةٍ أخرى فنفترق فراقًا لا لقاء بعدَه. وحين تراني ساكنًا، باردًا وميّتًا، إن جاز لي التعبير، إذّاك فقط، افتح أسناني بالسّكين، واسكب في فمي ثماني إلى عشر قطرات من هذا السّائل، لعلّي أعود من غيبوبتي.

تنهّد دانتِس بحُزن: – لعلّك؟

صاح الأب: – إليّ! إليّ! إنّي... إنّي..

كانت النّوبة مباغتةً وشديدة القوّة، لدرجة أنّها لم تُمهل المسكينَ الوقتَ حتّى ليُكمل الكلمة التي بدأها؛ عبرت جبينَه غمامةٌ خاطفةٌ ومظلمة كزوابع البحر؛ أجحَظَت الأزمة عينيه، ولوت فمَه، وبهّتَت خدّيه؛ انتفض، وأزبد وأرغى؛ لكنّ دانتِس خنق صرخاتِه تحت غطائه. دام الأمر ساعتين. ثمّ صار الرّجل ساكنًا كحجرة، أشدّ شحوبًا وبرودةً من الرّخام، وتهاوى مثل زهرةٍ داستها الأقدام، تشنّج مرّةً أخيرةً، ثمّ فقد لونَه.

انتظر دانتِس أن يتمكّن الموت الظّاهري من الجسد الجامد تمام التمكُّن؛ ثمّ أخذ السّكين، وحشرها بين الأسنان، وبذل جهدًا لا يوصف في تحريك الفكّ المتصلّب، وأحصى قطرات السائل الأحمر واحدةً بعد أخرى، ومكث منتظرًا.

مرّت ساعةٌ من دون أن تندّ عن الشيخ أيّ حركة. خشي دانتِس أن يكون قد تأخّر في سكب الدّواء، وظلّ يراقب الشّيخ غارزًا يديه في شعره. أخيرًا استعادت خدودُ الشّيخ قليلًا من لونِها؛ واستعادت عيونه، الجاحظة الثابتة، نظراتَها؛ أفلتت من فمه زفرةٌ واهنة؛ وندّت عنه حركة.

صاح دانتِس: - لقد نجوتَ! لقد نجوتَ!

لم يكن المريض قادرًا على الكلام بعدُ، لكنّه مدّ يده نحو الباب بقلقٍ ظاهر. أصخى دانتِس السّمع، فتناهى إليه وقع خطوات السّجان: - كانت السّاعة توشك على السّابعة، ولم ينتبه دانتس لمرور الوقت.

لحظةً بعدَ ذلك، فُتح بابُه بدوره، فوجده السجّانُ كعادته جالسًا على السّرير.

وما كاد السّجانُ يوليه ظهرَه، ويختفي صوتُ خطواته في الرّواق، حتّى انطلق دانتِس، ونفسه نهبٌ للقلق، عائدًا من الطّريق الذي كان قد سلكَه قبل قليل، فرفع البلاطة برأسه، ودخل إلى غرفة الرّاهب.

وكان الرّاهبُ قد استعاد وعيَه، لكنّه لا يزال ممدّدًا على سريره بلا حركة أو قوّة.

قال لدانتِس: - ما ظننتُني أراكَ مرّةً أخرى.

فأجابه الشّابُ متسائلًا: - لمَ؟ أوَكنتَ تحسبُ نفسكَ ميتًا؟

- كلاّ، لكن الظّروف كلّها مهيّئةٌ للفرار، فحسبتُك ستفرّ.

اصطبغ خدّا دانتِس بحمرة الغضب، وصاح:

- أهربُ وأتركك! أحقًا ظننتني أفعلُ ذلك؟

أجابَ المريضُ: - والآن أرى أنّي مخطئ. آه! إنّي لشديد الوهن، محطّم ومدّمرٌ تمامًا.

قال دانتِس وهو يجلس قرب سرير فاريا ويمسك بيديه: - تشجّع، ستسترجع قِواك.

هزّ الرّاهب رأسَه.

قال الأب: - في المرّة الماضية، دامت النوبة نصف ساعةٍ، بعدها شعرتُ بالجوع ونهضت بمفردي؛ أمّا اليوم فلا أستطيع تحريك ساقي، ولا ذراعي اليمنى؛ رأسي دائخٌ، وهذا يعني أنّ الدّاء قد وصل إلى الدّماغ.

في المرّة الثالثة سيصيبني شلل تامٌ، أو ربّما أموت.

- كلّا، كلّا، اطمئنَّ، أنت لن تموت؛ وإن أتتك النّوبة ثالثةً، ستجدُك حرًّا. سأنقذك مثلما فعلت هذه المرّةَ، بل خيرٌ من هذه المرّة، إذ ستكون طوعَ أيدينا كلّ الإسعافات اللازمة.

قال الشّيخ: - لا تفرط في الأمل يا صاحبي، إنّ الأزمة التي فارقتني منذ حين، قد حكمت عليّ بسجنٍ مؤبّد. ولكي أهربَ ينبغي أن أقدر على المشي.

- إذًا، سننتظر ثمانية أيّام، بل شهرًا، بل شهرينِ إن لزم الأمرُ؛ وأثناء ذلك لا بد أن يشتدّ حَيلك؛ لَقد صار كلّ شيءٍ مهيّأً لهربنا، ونحن أحرار في اختيار ساعة هربنا. اليوم الذي تحسّ فيه نفسَك قادرًا على السّباحة، هو اليوم الذي سننفّذ فيه مشروع هروبنا.

- لن أسبح أبدًا. هذه الذّراع قد شُلّت، ليسَ شلل يومٍ واحدٍ، وإنّما شلل الأبد. فلترفعها وتنظر بنفسك.

رفع الشّاب ذراع الشّيخ، فسقطت بلا حركة. أطلق زفرةً.

قال فاريا: - هل اقتنعت الآن يا إدمون؟ صدّقني، أنا عارفٌ بما أقول: منذ أن ضربني هذا المرض أوّل مرّة، ما كففتُ عن التّفكير فيه. كنت أترقّبُه، لأنّه داء وراثيٌ، قضى منه أبي، عند النّوبة الثالثة، وجدّي كذلك. الطّبيبُ الذي أعدّ لي الدّواء، وهو الطّبيب الشّهير كاباني[1]، قد تنبّأ بمصيري.

صاح دانتِس: - إنّ الطّبيب مخطئٌ؛ أمّا شللك، فلا يزعجني في شيء، سأحملك على كتفيَّ، وسأسبح بك فوق ظهري.

قال الرّاهبُ: - بنيّ، أنت بحّارٌ، ولا بدّ أنّك تعرفُ أنّ إنسانًا يسبح

---

(1) هو بيير حورج كاباني (يكتب أحيانًا كابانيس)، (1757-1808) طبيب وفيلسوف فرنسيّ وعضو الأكاديمية الفرنسية.

وعلى ظهره ثقلٌ مماثلٌ لن يتقدّم خمسين ذراعًا في البحر. كفّ عن الانقياد لخيالات يوحي بها إليك قلبك الطيّبُ. سأبقى هاهُنا إلى أن تحين ساعة انعتاقي التي لا يمكن أن تكون الآن سوى الموت. أمّا أنت، فاذهب، اهرُب! أنت لا تزالُ صغيرًا، سديدًا وقويًا، لا تشغل بالك بي، إنّي أجعلُك في حلٍّ من العهد الذي قطعتَه.

– حسنًا إذًا، حسنًا، سأبقى أنا أيضًا هاهُنا.

ثمّ إنّه قامَ ومدّ يده بجديّة إلى الشّيخ، قائلًا:

– بدم المسيح أقسم ألا أتركك حتّى وفاتِك!

رأى فاريا في الشّاب نُبلًا وبساطةً ورفعةً، وقرأ في ملامحه، التي اعتراها تعبير تفانٍ خالصٍ، صدقَ عاطفتِه وولاء يمينِه. قال: – طيب، إنّي أقبل مبادرتك، شكرًا.

ثمّ بسط إليه كفّه قائلًا: – لربّما كوفئتَ على هذا الإخلاص ونكران الذّات؛ لكن ما دمتَ قد قرَّرت عدم الرّحيل، فمن الملحّ أن نسدّ النفق الذي حفرناه تحت السّاحة: – ذاك أنّ الجنديّ قد يكتشف، أثناء مشيه، اختلاف الوقع فوق في المكان المحفور، فيستدعي خبرةَ مفتّش، ويُكتشفُ أمرنا، ونُفرَّقَ. اذهب فأنجز هذه المهمّة التي لا أستطيعُ، للأسف، مساعدتك فيها؛ اقضِ ليلتك كلّها في إنجازها إن تطلّب منك الأمرِ ذلك، ولا تعُد إليّ إلّا صَباح الغد، بعد جولة السجّان، فلديّ شيءٌ مهمٌّ أُخبرك به.

أخذ دانتِس يد الرّاهب الذي طمأنه بابتسامةٍ، ثمّ خرج بتلك الطّاعة والاحترام اللذين كرّسهما لصديقه المسنّ.

18

الكنز

ولمّا دخل دانتِس، غداة ذلك اليوم، إلى غرفة رفيق سجنه، وجدَه جالسًا، ووجههُ هادئ.

وتحت شعاع الضوّء الذي يتسلّل من نافذة زنزانته الضيّقة كان يمسك بيده اليسرى، طرفه الوحيد الذي لا يزال يعمل، ورقةً مفتوحةً أورثها طولُ تخزينها ملتفّةً في حجم ضئيلٍ هيئةَ أسطوانة عصيةٍ على البسط.

قدّم الشيخُ الورقةَ إلى الشّابَ من دون أن ينبس بكلمة.

فسأله: - ما هذا؟

أجاب الرّاهبُ مبتسمًا: - اُنظُر مَليًا.

قال دانتِس: - إنّي لأنظُر وسع عينيَّ، ولا أرى سوى ورقةٍ نصف محروقةٍ، وعليها رُسمت حروفٌ قوطيّة بمدادٍ فريد.

قال فاريا: - لقد صار بوسعي الآن، وقد جرّبتُكَ، أن أعترف لك: إنّ هذه الورقة هي كنزي، كنزي الذي صرتَ منذ اليوم تملكُ نصفَه.

تغطت جبهةُ دانتِس بعرقٍ باردٍ. فهو إلى اليوم، وبعد زمانٍ غير يسير، تجنّبَ ذكرَ هذا الكنز الذي بسببه رُميَ الشّيخُ بالجنون؛ لقد أبت دماثةُ خلقه الفطرية أن تمسَّ هذا الوتر المؤلمَ؛ ومن جهته كان فاريا قد آثرَ الصّمتَ. فكان أن حسب دانتِس صمتَ الشّيخ علامةً على استعادته رشدَهُ؛ وهي ذي الآن كلماتٌ تفلتُ من فمّ فاريا، بعد تلك النوبةِ العصيبة، مُنذرةً بانتكاسة إلى الحُمق.

تمتم دانتِس متسائلًا: - كنزك؟

ابتسمَ فاريا. ثم قال: - نعم؛ إنّك حقًا لذو قلبٍ نبيل يا إدمون، وإنّي لأفهم، من شحوبك وارتجافك، ما يجول في خاطرك اللّحظةَ. كلّا، اطمئنّ، لستُ مجنونًا. إنّ هذا الكنز موجود فعلًا، وإن لم يكن مقدرًا لي امتلاكُه، فستمتلكه أنت. لم يُرد أحد سماعي أو تصديقي، لأنّهم حكموا عليّ بالجنون؛ أمّا أنت، يا من لا شكّ في أنك عليمٌ بسلامة عقلي، فَأنصِت إليَّ، ولك أن تصدّقني بعد ذلك، إن أردتَ.

غمغم إدمون في نفسه: «واأسفًا! هوذا قد انتكص! هذه المصيبة التي كانت تنقصني».

ثم قال موجّهًا كلامَه إلى فاريا هذه المرّة: - يا صاحبي، لا بدّ أنّ النّوبة التي أصابتك قد أرهقتك، ألا ترغبُ في أن ترتاح؟ غدًا، إذ شئتَ، سأنصتُ إلى قصّتك، أمّا اليوم فإنّني أريد أن أهتم بصحتك فقط. (وأضاف مبتسمًا) وهل الكنزُ حقًا أمرٌ مستعجلٌ بالنّسبة إلينا؟

أجابه الشّيخ: - مستعجل جدًا! من يدري، فقد تأتيني غدًا النّوبة الثّالثة! وفكّر أنّها ستكون نهاية كلّ شيء! أجل، صحيح أنّي كثيرًا ما فكّرتُ، بسعادةٍ مريرةٍ، في ضياع تلك الكنوز على هؤلاء الرّجال الذين يضطهدونني، وهي ثروة كبيرة. فكرة ضياعها كانت وسيلتي للانتقام، فكنتُ أتلمّظُ حلاوتَها في ليل محبسي، ويأس أسري. لكن الآنَ، وقد غفرتُ للعالم إذ منَّ عليّ بحبّك، الآنَ، إذ أراك شابًا مفعَمًا بالمستقبل، الآنَ، وأنا أفكّر في كمّ السعادة التي يمكن أن يغدقَ بها عليك هذا الكشفُ، فإنّي أرتجف لتأخّري، وأرتعد لأنّي لم أضمن لشخص في مثل نبلك حيازة كلّ تلك الكنوز الخبيئة.

أشاح إدمون بوجهه زافرًا.

واصل فاريا كلامَه: - ما زلتَ مصرًّا على عدم التّصديق يا إدمون، ألم يقنعك صوتي البتّة؟ أرى أنّك تحتاج براهينَ. حسنًا، فلتقرأ هذه الورقة التي لم أُطلع عليها أحدًا.

أجابه إدمون منزعجًا من فكرةِ الانسياق خلف جنون الشّيخ: - غدًا أفعلُ، أظنّ أنّنا اتّفقنا على ألا نتحدّث في هذا الأمر إلا غدًا.

- لن نتحدّث فيه إلا غدًا، لكن اليوم اقرأ هذه الورقة.

فكّر إدمون: «لنقطع أسباب الاهتياج».

ثمّ إنّه أمسك الورقة، التي ضاع نصفها بسبب حادثٍ ما قطعًا، وشرع يقرأ فيها:

الكنز، الذي قد تبلغ قيمته مليو
وفي أقصى زاوية من الثقب الثاني
الذي أهبه بكامله إلى

ريثي.
25 أبريل 149

وحين فرغ الشّابُ من القراءة، قال له فاريا: - وإذًا؟

أجابَه إدمون: - ولكنّي لا أرى هنا إلا أسطرًا مجتزأةً، كلماتٍ لا تتمّة لها؛ لقد قطعت النّارُ استرسال الحروف فصارت غير مفهومة.

- غير مفهومةٍ بالنّسبة إليك أنت يا صديقي، أنت الذي تقرأها لأوّل مرّة، أمّا أنا فلا، أنا الذي عكفت عليها لياليَ عديدة، فأعدتُ بناء كلّ جملةٍ منها، وأكملت كلّ فكرةٍ من أفكارها.

- وتحسب أنّك وجدت هذا المعنى المقصود؟

- إنّي لمتأكّد من ذلك، وستحكم بنفسك؛ لكن اصغِ أوّلًا إلى قصّة هذه الورقة.

صاح دانتِس: - اصمت! إنّي أسمع وقع خطى... شخصٌ ما يقترب... سأرحل... وداعًا!

ثمّ، سعيدًا بإفلاته من القصّة والشّروح التي لن تعمل إلا على تأكيد جنون صديقه، انسلَّ دانتِس كثعبان عبر الممرّ الضيّق؛ بينما فاريا، وقد حرّكه الرّعب، دفع بقدمه البلاطة وغطّاها بحصيرة كي يخفي عن العيون الآثار التي لم يسعفه الوقت في إزالتها.

كان الزّائرُ هو المديرَ الذي، بعدما أخبره السّجانُ بالحادث الذي أصاب فاريا، أتى يتفقّد بنفسه مدى خطورته.

استقبل فاريا المديرَ جالسًا، متجنّبًا أيّ حركةٍ مشبوهةٍ، واستطاع أن يخفي عنه الشّلل الذي ضرب نصف بدنه. وكانت أعظم مخاوفه أن ينقله المديرُ، بباعثٍ من الشّفقة، إلى محبس آخر بسبب وضعه الصحي، فيفرّقه عن رفيق سجنه؛ لكنّ ذلك لم يحدث لحسن الحظّ؛ وانسحب المديرُ مقتنعًا بأنّ السّجين، الذي كان يمحضه في أعماق قلبه عطفًا خاصًا، لا يعاني سوى من وعكةٍ خفيفة.

أثناء ذلك كان إدمون، جالسًا على سريره مستندًا برأسِه إلى يديه، محاولًا لمّ شتات أفكاره؛ مُذ عرف فاريا وكلُّ شيء فيه بالغ الحصافة والعظمة والمنطقية، إلى درجة أنّه لم يكن يستطيع أن يفهم كيف لهذه الحكمة الفائقة على جميع الأصعدة، أن تُخطئَ على صعيد نقطةٍ واحدة: هل فاريا هو المخطئ بخصوص الكنز، أم إنّ البشرَ مخطئون بخصوص فاريا؟

ظلَّ دانتِس سحابة يومه في محبسه، لا يجرؤ على العودة عند صديقه. كان يحاول بذلك تأخير اللحظة التي ستحمل إلى نفسه اليقين بأنّ الرّاهب قد فقد عقله. وإنّها لقناعةٌ رهيبةٌ بالنّسبة إليه.

لكن قبيل المساء، وبعد ساعة الزيارة المعتادة، حاول فاريا، بعدما لاحظَ غياب الشّاب، أن يعبر الفضاء الفاصلَ بينهما. انتفض إدمون لسماع المجهود الموجع الذي كان الشّيخ يبذله لكي يجرّ نفسَه. كانت ساقه مشلولة، ولا يستطيع الاتّكال على ذراعه. وكان دانتِس مضطرًا لأن يسحبه إليه، إذ كان يستحيل عليه أن يخرج بمفرده من الفتحة الضيّقة المُفضية إلى غرفة دانتِس.

قال بابتسامةٍ تشعُّ طيبةً: – ها أنا ذا أكدُّ في ملاحقتك. حسبتَ نفسكَ تنجو من فخامتي، لكنّ ذلك ما لن يحدث. أنصت إليّ إذًا.

أدركَ إدمون أنّ لا مهرب له؛ فأجلس الشّيخ على سريره، واقتعد هو المقعَدَ.

قال الرّاهب: - هل تعرف أنّي كنتُ سكرتيرَ ونجِيَّ وصديقَ الكاردينال سبادا، آخر من حمل هذا اللّقب من الأمراء. وإنّني مدين لهذا السيّد بكلّ ما عرفته في حياتي من ملذّات السّعادة. لم يكن ثريًا، وإن كان غنى عائلته صار مضربَ المثَل، فكانَ يقال: غنيٌّ مثل سباديٍّ. لكنّه كان يعيش على سمعة الترف تلك. قصرُه كان فردَوسيًّا. كنت أعلّمُ أبناء أخيه، الذين ماتوا في ما بعد، وحين صار وحيدًا في هذا العالم أرجعتُ له، بإخلاصي لأوامره، جزءًا من الدَّين الذي راكمتُه طيلة عشر سنوات.

ثمّ ما لبث منزل الكاردينال أن كشف لي عن أسراره كلّها؛ كثيرًا ما كنتُ أرى سيّدي منهمكًا في تصفّح كتب قديمة وتقليب مخطوطاتٍ عائلية وسط الغبار. ومرّةً إذ عاتبتُه على سهره تلك اللّيالي، وما يعقبه من إنهاكٍ، نظرَ إليّ مبتسمًا بمرارة، ثمّ فتح لي كتابًا هو تاريخ مدينة روما. وفيه، في الفصل العشرين المتعلّق بحياة البابا إسكندر السادس، خُطّت هذه الأسطر التي لم أنسَها قطّ. وراح يحكي:

«انتهت الحروب الرّومانية. وكان تشيزاري بورجا، وقد أكمل حملته، بحاجةٍ إلى المال ليشتري إيطاليا بأكملها. والبابا أيضًا كان بحاجة إلى المال كي ينتهي من أمر لويس الثاني عشر ملك فرنسا، الذي لا يزال مرعبًا على الرّغم من نكساته الأخيرة. كان ينبغي القيام إذًا بصفقات مالية جيّدة، وهو ما صار صعبًا في إيطاليا ذلك الوقت، إيطاليا المسكينة المنهكة.

«خطرت ببال قداسته فكرة أن يقوم بتعيين كاردينالَيْن. وذلك باختيار شخصيّتين بارزتين من روما، شخصيّتين غنيّتين على وجه التّخصيص، هو ذا ما فكّر فيه قداسة البابا: أوّلًا، سيبيع المناصب والمزايا التي كان يملكها الكاردينالان المعيَّنان؛ ثمّ سيحصل على مبلغٍ مهمٍ من بيع المنصبَيْن.

«وبقيت فائدة ثالثة، ستظهر قريبًا.

«عثر أوّلًا البابا وتشيزاري بورجا على الكاردينالَين المستقبليّين: وهما يوحنّا روسبيليوزي الذي كان يشغل لوحده أربعةً من مناصب الكرسيّ الرّسولي، ثمّ تشيزاري سبالدا، أحد أعظم نبلاء روما وأغنيائها. وكلاهما كان يقدّرُ الثّمن الذي تساويه هذه الالتفاتة البابوية. كانا طموحَين. ثمّ بعد أن وجدا الرّجلين، ما لبث تشيزاري بورجا أن عثر على ساعيينَ إلى مناصبهما.

«والنّتيجة: أن يدفع روسبيليوزي وسبادا لكي يصيرا كاردينالين، ثمّ يدفع ثمانيةٌ آخرون للحصول على المناصب التي كان يشغلها الرّجلان قبل ذلك. فأدخل إلى خزائنه ثمانمائة ألف قطعة ذهبية.

«ولننتقل الآن إلى الجزء الأخير من الصّفقة، فقد حان وقته. بعدما أغدق البابا بالعطف على روسبيليوزي وسبالدا، ومنحهما لقب الكاردينال، وتيقّن من أنّهما تقاربا وجمّعا ثروتَيهما ليعوّضا ما صرفاه في سبيل المنصب ويثبّتا أقدامهما في روما، دعاهما هو وابنه تشيزاري بورجيا إلى العشاء.

«وكان الأمر محلّ جدالٍ بين قداسة البابا وابنه: فتشيزاري كان يرى أنّ بإمكانهما أن يتوسّلا بواحدة من تلك الوسائل السريّة التي لا يزال يحتفظ بها طوع يده، وهي: أوّلًا، المفتاح الشّهير الذي يعهد به إلى بعض الأشخاص ويُطلب منهم أن يفتحوا به بعض الخزائن. كان المفتاح مدبّبًا برأس حديدٍ يبدو كأنما أهمله الصّانع. وحين يضغط الشخص على المفتاح ليفتح به القفل المنيع، كان يخز يده بذلك الرّأس المدبّب، فيموت غداة ذلك. وكان ثمّة أيضًا الخاتم برأس الأسد الذي كان يلبسه تشيزاري أحيانًا في يمناه متى ما أراد أن يصافح بعضهم. كان الأسد يعضّ الأيادي المقصودة، فيموت صاحب اليد بعد أربع وعشرين ساعةً.

«اقترح تشيزاري على والده إذًا: إمّا أن يرسلا الكاردينالين ليفتحا الخزنة، وإمّا أن يصافح كلّا منهما مصافحةً وديّةً، لكنّ أسكندر السادس أجابه:

– لنكتفِ بعشاءٍ ما دام الأمر يتعلّقُ بكاردينالين رفيعين. شيء ما يخبرني أنّنا سنفوز بهذا المال. ثمّ إنّك تغفل يا تشيزاري أنّ سوء هضم قد يفصح عن نفسه مباشرةً، أمّا اللدغة أو العضّة فتحتاج يومًا أو يومين.

«انساق تشيزاري لهذا الاقتراح، ووافق على دعوة الكاردينالَين. ومُدّت المائدة في بستان الكرم الذي كان يملكه البابا قرب سان بيير إس ليانس، وهو منزلٌ جميلٌ كان الكاردينالان يعرفانه بالسّمع.

«روسبيليوزي، وقد دوّخه المنصب الجديد، أعدّ بطنه للوليمة. أمّا سبادا، وهو الرّجل الحذر الذي لا يحبّ إلا ابن أخيه، القبطان الشّاب المعقودة عليه كلّ الآمال، فقد تناول ورقةً ويراعًا وسطّر وصيّته. ثمّ أرسل طلبًا إلى ابن أخيه بأن ينتظره نواحي بستان الكرم، لكن يبدو أنّ الخادم لم يتمكّن من إيجاده فوصل قبله.

«كان سبادا يعرف عادة العشاء تلك. فمنذ أن حملت المسيحيةُ، المتحضّرةُ، بعض التّقدّم إلى روما، لم يعد قائد المائة الرّوماني يأتيك مرسولًا من الحاكم فيقول لك: «سيزار يريدك أن تموت»؛ وإنّما يأتيك من البابا حاملُ رسائلَ، بفمٍ باسمٍ فيخبرك: «إنّ قداسته يريدك أن تتعشّى معه».

«انطلق سبادا حوالى السّاعة الثانية قاصدًا كروم سان بيير؛ وكان البابا بانتظاره هناك. وكان أوّل ما صدم سبادا هو وجود ابن أخيه غارقًا ثملًا في مداعبات تشيزاري بورجا. شحب وجه سبادا؛ وتشيزاري، الذي رمقه بنظرةٍ متهكّمة، أبان له فيها بأنّ كلّ شيء قد جُهّزَ، وأنّ الفخ قد أُحكمَ.

تعشّوا. ولم يستطع سبادا إلا أن يسأل ابن أخيه: «هل وصلتك رسالتي؟». أجابه ابن الأخ أن كلّا وقد أدرك تمامًا مدى قيمة هذا

السّؤال: كان الوقت قد فات، فقد شرب كأسَ خمرٍ رائعةً خصَّهُ بها نادل البابا. وفي اللّحظة نفسها لمح سبادا قنينةً تدنو منه ويُصَبُّ له منها بسخاء. ساعةً بعد ذلك أعلن الطّبيب أنّهما قد تسمّما بسبب الفطر، وقد مات سبادا عند عتبة بستان الكرم، بينما فاضت روح ابن أخيه عند عتبة بابه وهو يشير إلى زوجته بإشارة لم تفهمها.

«وعلى الفور هرع تشيزاري والبابا إلى الانقضاض على الميراث بدعوى البحث في أوراق المتوفّى. بيد أنّ الميراث كان يتلخّص في ورقةٍ كتب فيها سبادا: «أوصي لابن أخي العزيز بكتبي، ومن بينها كتاب الأدعية ذي الزّوايا الذهبيّة، آملًا أن يحفظ هذه الذكرى عن عمّه الودود».

«لعلّ الورثة سينبشون في كلّ مكانٍ، سيعجبون بكتاب الأدعية، ويضعون أيديهم على الأثاث فيذهلون من أنّ سبادا، الرّجل الثريّ، كان حقًّا الأكثر بؤسًا بين أقاربهم؛ فمن الكنوز لم يخلّف شيئًا، اللّهم إلاّ كنوز العلم المدفونة في المكتبة والمخبَر.

«كان ذلك كلّ شيء. وقد بحث تشيزاري ووالده وقلّبا وتجسّسا، فما وجدا شيئًا، أو وجدا القليل فقط: ألف قطعةٍ نقدية تقريبًا، وبعض الأواني المصوغة؛ على أنّ ابن الأخ قد تمكّن من أن يخبر زوجته حين عاد:

«ابحثي بين أوراق عمّي، ففيها الوصيّة الحقيقية».

«بحثَت أكثر ممّا بحث الوارثان المهيبان. لكن عبثًا: بقيَ قصران وبستان خلف هضبة بالاتين. لكن في ذلك الزّمن كانت الأملاكُ العقارية بخسة القيمة؛ فاحتفظت العائلة بالقصرين والبستان بعدما عافهما البابا وابنُه.

«انطوت الشّهور والسّنوات. ومات إسكندر السّادس مسمومًا، وأنت

تعلم بأيّ سخرية قدرٍ حدث ذلك[1]؛ وإذ تسمّم تشيزاري في نفس الوقت وأبيه فقد غيّر جلده كما ثعبانٍ، واكتسى فبُدّلَ غشاءً جديدًا تركَ عليه السمُّ بقعًا شبيهة بتلك التي توشّي فرو النّمر؛ وأخيرًا، إذ اضطُرّ إلى ترك روما، انتهى به المطاف مقتولاً في شجارٍ ليليّ لا يكاد التّاريخ يذكره.

«بعد وفاة البابا، وبعد نفي ابنه، كان يُنتظر أن تستعيد العائلة المسيرة الأميرية التي كانت تقودها زمن الكاردينال سبادا؛ لكن الأمر لم يسِر كذلك. لقد ظلّت عائلة سبادا تعيش في استكانةٍ مريبة، وظلّ اللّغز جاثيًا على القضية الغامضة، وصارت الشّائعاتُ تردّد أنّ تشيزاري، الذي كان في السياسة أبصر من أبيه، سلب البابا ثروتَي الكاردينالَين كليهما؛ أقول كليهما، لأنّ الكاردينال روسبيليوزي، الذي لم يتّخذ أيّ احتياط، قد جُرّدَ من كلّ أملاكه».

ثمّ قطع فاريا حديثه بابتسامةٍ وقال: - حتّى الآن، لا يبدو لك كلامي غير منطقيّ، أليس كذلك؟

أجابه دانتِس: - بل إنّي يا صديقي أحسّ بنفسي أقرأ كتاب وقائع مليئًا بالعبر. أكملْ رجاءً.

- سأُكملُ:

«لجأت العائلة إلى هذا الغموض. ومضت السّنون؛ ومن بين الذريّة كان ثمّة جنودٌ، وآخرون دبلوماسيّون؛ ورجال كنيسة، ومصرفيّون؛ بعضهم اغتنى وبعضهم أفلس. وهكذا أصلُ إلى الأخير في السّلالة، إلى من كنتُ سكرتيره، إلى الكونت سبادا.

«لطالما سمعته يشتكي من عدم توافق ثروته مع مرتبته الاجتماعية،

(1) توفي البابا إسكندر السادس إثر حمّى ألمّت به بعد وجبةٍ نظّمها، وتتضارب الروايات حول سبب وفاته، لكنّ دوما يبني هنا على الرّواية التي تقول إنّه توفي مسمومًا بالسّم الذي دسّه لمدعوّيه.

لذا كنت أنصحه بألّا يهتم، وبأن يدّخر ما لديه؛ فاتّبع نصيحتي، وتضاعف مدخوله.

«بقي كتاب الصّلوات الشّهير في حوزة العائلة، وكان يحتفظ به الكونت سبادا: ظلّ محفوظًا ينتقل من أب إلى ابن، ذاك أنّ البند الغريب الذي وُجد في الوصية الوحيدة جعلٍ منه إرثًا مهمًّا تحفظه العائلة بتبجيل خرافيّ؛ كان كتابًا منمنمًا بأجمل الصور القوطية، ووازنًا ذهبًا، لدرجة أنّ أحد الخدم كان يحمله دائمًا أمام الكاردينال أيامَ الاحتفالات الكبرى.

«وإذ رأيت كلّ تلك الأوراق، والكتب، والعقود، والرّقوق التي كان يُحتفظ بها في أرشيف العائلة، وكلّها موروثةٌ عن الكاردينال المسموم، عكفتُ بدوري، على نهج العشرين خادمًا، العشرين تاجرًا، العشرين سكرتيرًا، الذين سبقوني؛ قلت عكفتُ على التّدقيق في الرّزم الرّائعة: وعلى الرّغم من حدّة أبحاثي وتفانيها، لم أعثر للأسف على شيء. على أنّي استطعت أن أكتُب تاريخًا دقيقًا، يكاد يكون خاضعًا للتقويم الفلكيّ، لعائلة بورجا، متّخذًا هدفًا واحدًا: التحقّق ممّا إذا كانت العائلة قد حازت ثروةً إضافيةً بعد وفاة الكاردينال سبادا، فلم ألاحظ إلا إضافةَ أموال الكاردينال روسبيليوزي، رفيق سبادا التعيس، إلى ثروتهم.

«كنت إذًا شبه متيقّن من أنّ أموال الكاردينال لم تؤل إلى عائلته ولا إلى آل بورجا، وإنّما ظلّت بلا مالك، شأنها شأن تلك الكنوز في القصص العربية التي ترقد في جوف الأرض بأعيُن جنّيٍّ. بحثتُ، وحسَبتُ، وقدّرتُ آلاف المرّات إيرادات العائلة ومصاريفها منذ ثلاثمائة سنة: لكن عبثًا، ظللت على جهلي، وظلّ الكونت على بؤسه.

«ثمّ مات سيّدي. ومن أملاك معاشه استثنى أوراقه العائلية ومكتبته، وقوامها خمسة آلاف مجلّد، وكتاب الصلوات الشّهير. فأورثني كلّ ذلك، وفوقه ألف قطعةٍ نقدية رومانية كان يملكها نقدًا، شرطَ أن أقيم له

قدّاسًا سنويًا، وأن أضع شجرةً عائليةً وتاريخًا لأسرته، وهو ما حرصتُ على القيام به على أمثل وجه...

اطمئنَّ يا عزيزي إدمون، إنّنا ندنو من النّهاية.

«في سنة 1807، قبل توقيفي بشهر وخمسة عشر يومًا بعد وفاة الكونت سبادا، وكان اليومُ الخامسَ والعشرين من شهر ديسمبر، وستدرك بعد حين لمَ ظلّ هذا التّاريخ محفورًا في ذاكرتي، وكنتُ أقرأ للمرّة الألف الأوراق التي أرتّبُها إذ صار القصر الآن في ملكية غريب، وكنت أتأهّب لترك روما كي أستقرّ في فلورنسا، حاملًا معي مكتبتي وفيها آلاف من الكتب التي أملكها، وكتاب الصّلوات المعلوم، فإذا بي، وقد أنهكني التعب من العمل المضني ونغّصني عشاء ثقيل تناولتُه، أُرخي رأسي على يديّ وأنام: كان الوقت الثالثة زوالًا. واستيقظت على وقع البندول يدقّ معلنًا السّاعة السّادسة.

«رفعتُ رأسي، وكنت غارقًا في أحلك الظّلام. قرعت الجرس كي يأتوني بالنّور، لكن لم يستجب لندائي أحد؛ فقرّرت أن أخدم نفسي بنفسي. ثمّ إن تلك عادةٌ من عادات الفلاسفة كان عليّ اتّباعُها. أمسكت بيدي شمعةً جاهزةً، وباليد الأخرى صرت أبحث عن أعواد الكبريت، ولما لم أجدها نويت أن آخذ ورقةً أشعلها ممّا تبقى من شعلة تحت خشب الموقد؛ لكنّي خشيةَ أن أتناول في الظّلام ورقةً قيّمةً بدلًا من ورقة عديمة الفائدة، فقد ظللتُ متردّدًا، إلى أن تذكّرتُ أنّي سبق أن لمحتُ، في كتاب الصّلوات المعلوم الذي كان موضوعًا فوق الطّاولة بجانبي، ورقةً قديمةً مصفرّةً من أعلاها، وكان يبدو أنّها تستعملُ فاصلًا للكتاب، ورقةً عبرت القرون محافظةً على موضعها بباعثٍ من التوقير الذي يمحضها إيّاه الورثة. بحثتُ، متلمّسًا، الورقة عديمةَ الفائدة، فوجدتها، ففتلتُها ومددتها إلى النّار المحتضرة، وأشعلتها.

«لكن، بقدر ما كانت النّار تصعد، بقدر ما كنت أرى بين أصابعي،

كأنّما بفعلِ سحرٍ، الحروف المصفرّة تبرز على صفحة الورقة البيضاء؛ تملّكني الذّعر: - شددتُ على الورقة وأطفأت نارها، وأوقدتُ الشّمعة مباشرة من الموقد، وفتحتُ بانفعالٍ لا يوصف الورقةَ المكرمشة، وقد أدركت أنّ الورقة كُتبت بحبر سريّ عجيب لا يظهر إلا متى تعرّض للحرارة. وتلك الورقة هي الورقة التي قرأتَها هذا الصّباح يا دانتِس؛ فلتُعِد قراءتها؛ وحين تفرغ من ذلك سأتممُ لك أنا ما ينقص من جُمل ومن معنى».

ثمّ إنّ فاريا مدّ الورقة إلى دانتِس، الذي أعاد بالطّبع قراءة الكلمات الآتية المكتوبة بحبر أصهب، شبيه بالصّدأ:

«اليوم 25 أبريل 1498، إذ دُعيتُ إلى العـ
، لغضبه من أنّي اشتريتُ منصبَ كاردينـال،
لَين كابرارا وبِنتِفوليو اللذين ماتا مسموميـ
لّ ممتلكاتي، التي واريتُها في مكانٍ يعرفه
اور جزيرة مونتي كريستو حيث واريتُ كلّ
وأحجار كريمة، وجواهر وحليّ؛ وحْدي أعـ
ته مليونَي قطعة رومانية، وسيعثر عليه ابن
و قادمٌ في خطّ مستقيم من جهة الجَوْن
اور ثُقبانِ، وفي أقصى زاوية من الثّقب
به بكامله إلى ابن أخي بصفته وريثي الوحيد.
حرّر بتاريخ 25 أبريل 1498
تشيز

استأنفَ الرّاهبُ الكلامَ قائلًا: - والآن اقرأ هذه الورقة الأخرى.

ثمّ قدّم إلى دانتِس ورقةً ثانية فيها أجزاءُ أسطرٍ أخرى:

شاء عند قداسة الإسكندر السّادس، وخشية
أن يصادر أموالي، ويُنزل بي مصيرَ الكردنَا

ن.فإنّني أوصي لابن أخي غويدو سبادا، بكـ
هو، إذ زاره معي غير ما مرّة، أقصد فيمغـ
ما أملكه من قطع نقدية، وذهبٍ مسكوك،
رف موضع الكنز، الذي قد تبلُغ قيمـ
أخي إذا ما رفع الصخرة العشرين، وهـ
الصّغير شرقًا. لقد حُفر في تلك المغـ
الثاني يوجد الكنز؛ الكنز الذي أهـ
اري† سبادا.

وكان فاريا يتابع دانتِس بنظرةٍ حادّة. وحين رأى أنّه قد وصل إلى السّطر الأخير، قال: - والآن قرّب جُزأي الورقة واحكُم بنفسك.

نفّذ دانتِس الأمر؛ فكان حاصلُ تجميع جزأي الورقة هذا النّص:

اليوم 25 أبريل 1498، إذ دُعيتُ إلى العـ

شاء عند قداسة الإسكندر السّادس، وخشية...، لغضبه من أنّي اشتريتُ منصبَ كاردينـال،... أن يصادر أموالي، ويُنزل بي مصيرَ الكردنَا... لَين كابرارا وبنتِفوليو اللذين ماتا مسموميـ... ن.فإنّني أوصي لابن أخي غويدو سبادا، بكـ... لّ ممتلكاتي، التي واريتُها في مكانٍ يعرفه... هو، إذ زاره معي غير ما مرّة، أقصد في مغـ... اور جزيرة مونت كريستو حيث واريتُ كلّ... ما أملكه من قطع نقدية، وذهبٍ مسكوك،... وأحجار كريمة، وجواهر وحليّ؛ وحْدي أعـ... رف موضعَ الكنز، الذي قد تبلغ قيمـ... ته مليونَي قطعة رومانية، وسيعثر عليه ابن... أخي إذا ما رفع الصخرة العشرين، وهـ.. و قادمٌ في خطّ مستقيم من جهة الجَون... الصّغير شرقًا. لقد حُفر في تلك المغـ... اور ثُقبانِ، وفي أقصى زاوية من الثّقب... الثاني يوجد الكنز؛ الكنز الذي أهـ...بِه بكامله إلى ابن أخي بصفته وريثي الوحيد.

حرّر بتاريخ 25 أبريل 1498
تشيز... اري† سبادا

قال فاريا: – وإذا، هل فهمت؟

أجابه إدمون وهو لا يزال متشكّكًا: – أليست هذه وصيّة الكاردينال سبادا التي كان يجري البحث عنها منذ زمن؟

– بلى، وألف بلى.

– ومن الذي أعاد ترميمها على هذا النّحو؟

– أنا بنفسي، انطلاقًا من الجزء الباقي، خمّنتُ ما تبقّى عبر قياس طول الأسطر ومقارنتها بطول الورقة، وسبر المعنى الخفيّ من المعنى الظّاهر، مثلما يستهدي السّائرُ في نفقٍ مظلمٍ ببقيةٍ من نورٍ يأتيه من أعلى.

– وما الذي فعلتَه حين عرفتَ بهذا؟

– أردتُ الانطلاق، وبالفعل انطلقت من فوري، حاملًا معي عملي الضّخم حول توحيد مملكة إيطاليا؛ لكن منذ وقتٍ طويل كانت الشّرطة الإمبراطورية، ضدًا على إرادة نابليون، تريد تفتيت المقاطعات، فكانت عينُها عليّ. وكان لرحيلي المفاجئ، الذي تجهل سببه، أن أثار شكوكها. وفي الوقت الذي كنت أستعدّ فيه لنزول بيومبينو، قُبض عليّ.

ثمّ واصل الرّاهب كلامه وهو يغمر دانتِس بنظرةٍ تكاد تكون أبويّة: – والآن يا صديقي، ها أنت تعرف قدر معرفتي، فإذا ما استطعنا الهروب معًا، فلك نصف الكنز، أمّا إن متّ هنا، فالكنزُ كلّه لك.

سأله دانتِس متردّدًا: – لكن أليس لهذا الكنز ورثةٌ أحقّ به منّا؟

– كلاّ، اطمئنّ، لقد انقطعت سلالة العائلة؛ حتّى إنّ آخر كونت من آل سبادا قد جعلني وريثَه؛ فهو إذ وهبني هذا الكتاب، فقد وهبني ما يحتويه؛ اطمئنّ: إذا ما وصلنا إلى هذا الكنز فإنّ لك أن تتمتّع به دونما إحساسٍ بذنب.

– وتقول إنّ الكنز تساوي قيمتُه...

– مليونَي عملةٍ رومانية، أي ما يعادل تقريبًا 13 مليونًا من عملتنا.

صاح دانتِس وقد هاله الرّقم: – مستحيل!

- مستحيل! ولمَ سيكون مستحيلًا؟ إنّ عائلة سبادا كانت إحدى أعرق العائلات وأقواها نفوذًا إبّان القرن الخامس عشر. ثمّ إنّ في ذلك الزّمن، حيث كانت تغيب المضاربات والصّناعة، لم يكن غريبًا أن تتراكم تلك الكتل من الذّهب والجواهر، وحتّى يومنا هذا لا تزال بعض العوائلُ في روما تموت جوعًا ولها ما يقارب مليونًا من جواهرَ وألماسًا تنتقلُ بالوراثة من الأب إلى ابنه الأكبر، ولا سبيل للعائلة إليها.

ظنّ إدمون نفسَه يحلُم: - لقد كان يموج بين الذّهول والفرح.

واصل فاريا الكلام: - لقد كتمت السرّ عنك طويلًا لأختبرك أوّلًا، ثمّ لأفاجئك ثانيًا. وإذا ما قيّض لنا الهرب قبل أن تفاجئني النّوبةُ الثالثة، فسأقودك بنفسي إلى مونت كريستو؛ (ثمّ أضافَ متنهّدًا) أمّا الآن، فأنت من سيقودني. وإذًا يا دانتس! ألن تشكرني؟

أجابه دانِتس: - إنّ الكنز كنزُك يا صديقي، ملكك وحدك، ولا حقّ لي فيه؛ إذ لا قرابة تجمعني بك.

فصاح الشّيخ: - أنت ابني، يا دانِتس، أنت الولدُ الذي رُزقتُه في السّجن؛ كنتُ محكومًا بالعزوبة، فأرسلك الله تسلو في آنٍ الرّجل الذي حُرم الأبوّة، والسّجين الذي حرم الحريّة.

ثمّ مدّ فاريا إلى دانِتس اليدَ التي بقيت له، فارتمى الشّاب على عنق الشّيخ يحتضنه باكيًا.

19

النّوبة الثالثة

الآن، وقد صار الكنز الذي طالما غذّى تأمّلات الرّاهب، قادرًا على أن يضمن مستقبلًا سعادة ذاك الذي كان فاريا يحبّه كأنّه ابنه، فقد زادت قيمته في عينيه؛ كلّ يوم كان يركّز على حجم الكنز، فيبيّن لدانتس كلّ ما قد يستطيع إنسانٌ من زَمننا أن يفعله من خير لأصدقائه، بثلاثة عشر أو أربعة عشر مليونًا؛ وإذّاك كان وجه دانتِس يكفهرّ ذاك أنّ قسَم الانتقام الذي كان قد قطعه على نفسه يجعله يفكّر، من جهته، فيما يستطيع إنسانٌ أن يفعله، بأربعة عشر أو ثلاثة عشر مليونًا، من شرّ لأعدائه.

لم يكن الأب يعرف جزيرة مونت كريستو، لكنّ دانتِس كان يعرفها؛ فلطالما مرّ بقرب هذه الجزيرة الواقعة على بعد خمسة وعشرين ميلًا من جزيرة بيانوزا (إيطاليا)، ما بين كورسيكا وجريزة إلبا، لا بل إنه رسا فيها ذات مرّة. لقد كانت هذه الجزيرة، ولا تزال، خاليةً؛ إنّها حجرٌ يكاد يكون مخروطيَ الهيئة، ويبدو كأنّما دفعته بعض الحمم البركانية من المغاور السّحيقة إلى سطح البحر.

انطلق دانتِس يضع للأب فاريا خريطةً للجزيرة، بينما يضع له الأب خططًا توضّح السّبل الكفيلة بإيجاد الكنز.

على أنّ دانتِس كان أبعد من أن يكون في مثل حماسة الشّيخ، ولا -على وجه التّخصيص- في مثل ثقته. قطعًا، صار متيقّنًا الآن من أنّ الأب فاريا لم يكن مجنونًا، لا بل إنّ الطّريقة التي وصل بها إلى ما صار سببًا للاعتقاد في جنونه، قد رفع من درجة إعجابه به؛ لكنّه لم يكن يستطيع

التّصديق في أنّ مثل تلك الوديعة يمكن أن تكون لا تزال موجودةً، وحين لم يكن ينظر إلى الكنز كشيءٍ خيالي، كان ينظر إليه، على الأقلّ، كشيء ضاع.

ثمّ، وكأنّما القدرُ أراد أن ينزع من السّجينَيْن آخر أملٍ يتعلّقان به، ويُفهمَهُما أنّهما محكومان بسجن مؤبّد؛ أصابَت صاحبَينا مصيبةٌ جديدة: أعيدَ بناءُ الواجهة المقابلة للبحر، التي كانت منذ زمنٍ بعيد آيلةً للسّقوط؛ أُعدّت الدعائمُ وسُدَّ بجلاميد صخر هائلة النّفق الذي كان دانتِس قد أتمّ حفرَه إلى النّصف. ومن دون الاحتراز الذي أشار به الشّيخ على الشّاب، كانوا ليكتشفوا أمرَهما، فيفرّقونهما فراقًا بائنًا: أُضيفَ إذًا إلى الأبواب المغلّقة عليهما بابٌ أشدّ صلابةً من غيره.

قال الشّاب بصوتٍ يملأه أسىً لطيف: - أرأيتَ، إنّ الربَّ ليريد أن يرفع عنّي ما سمّيتَه إخلاصي لكَ. لقد عاهدتُك على أن أبقى معك إلى الأبد، وما عدت أملك حريّةَ التنصّل ممّا عاهدتك به؛ لن نحصل على الكنز، لا أنا ولا أنت، ولن نغادر هذا المكان أحياءً. على أنّ كنزيَ الحقيقي يا صاحبي ليس هو ما ينتظرني تحت حجارة مونت كريستو الصّماء، وإنّما هو حضورك. كنزي هو السّاعات الخمس أو الستُّ التي نقضيها معًا، رغم أنف سجّانينا؛ كنزي هو أشعّةُ الذّكاء التي صببتَها في ذهني، واللّغات التي زرعتها في ذاكرتي، فما لبثت تنمو متفرّعةً باشتقاقاتها. كلّ هذه العلوم المختلفة التي بسَطتَها لي بفضل عمق معرفتك ووضوح المبادئ الذي لخّصتها فيها، هوذا كنزي يا صاحبي، هوذا ما جعلتني بفضله غنيًا وسعيدًا. صدّقني، وطِب نفسًا، إنّ ما أعطيتنيه ليفوق عندي قيمة أطنان من الذّهب وصناديقَ من الجواهر التي لن تكون بأقلّ مدعاةً للريبة من تلك السّحب التي نراها صباحًا تموج على سطح البحر، فنحسبها يابسةً، لكن بقدر ما ندنو منها بقدر ما تتبخّر وتختفي. أن تظلّ بجانبي أطول زمنٍ ممكن، أن أسمع صوتك الودود يُزيّنُ نفسي،

ويغمر روحي، ويشحذ ملكاتي كلّها، أن تُفعم نفسي بحيث لا يعود فيها من مكانٍ لليأس الذي كنت أهوي فيه في ابتداء لقائنا، تلكم هي ثروتي أنا: وهذه ثروةٌ ليست البتّة بالخيالية؛ إنّي لأدين إليك بها وحقّ الدّين، ولن يُنسينِيها كلُّ ما على الأرض من كنوز، بما في ذلك كنز تشيزاري بورجا.

هكذا، انقضت على الشّقيَّيْن أيامٌ، وإن لم تكن سعيدةً فإنّها على الأقل مرّت سريعةً. وفاريا الذي كان قد لزمَ الصّمتَ طيلة السّنتين الماضيتَيْن، صار الآن يتكلّم عن الكنز كلّما لاحت له الفرصة. ومثلما قدَّرَ بنفسِه، فقد بقيت يده اليمنى وقدمه اليسرى على حالهما من الشّلل، فأضاع كلّ أملٍ في أن يتمتّع بكنزه؛ لكنّه ظلّ يحلم بأن يصيبَ رفيقُه الشّاب سراحًا من السّجن أو فرارًا، فكان يتمنّى له استمتاعًا بالكنز. وخشية أن تضيع الرّسالة، أجبر دانتِس على أن يحفظها عن ظهر قلب، فصار دانتِس يحفظها من أوّل كلمةٍ إلى آخر كلمة. فكان أن أفنى الجزء الثاني، متيقّنًا من أنّ لا أحد سيعرف تتمّة الجزء الأوّل إن وقع بين يديه. أحيانًا، كانت تنقضي على فاريا ساعاتٌ وهو يعطي دانتِس تعليماتٍ قد تنفعه في حال تمكّن من استعادة حريّته. وإذًا، ما إن يتحرّرَ، وفي يوم تحرّره وساعته وحينِه، لا ينبغي أن يكون في ذهنه إلا فكرة واحدةٌ: الذهابُ إلى جزيرة مونت كريستو بوسيلةٍ من الوسائل، وإذ يصير هناك، ويكون بمفرده، يبحث عن المغاور العجيبة، ويلامس المكان المعلوم. والمكانُ المعلوم، كما نذكره، هو الركن الأبعدُ من الفتحة الثانية.

وفي انتظار ذلك، كانت السّاعات تمضي، محتملةً وإن لم تكن سريعة. وكان فاريا، كما أسلفنا، مع خسارته وظيفة يده وقدمه، قد استعادَ حدّة ذكائه، فعلّم صاحبَه الشّابَ شيئًا فشيئًا، فضلًا عن المعارف الأخلاقية التي سبق أن بسطنا فيها القولَ، علّمه شيئًا فشيئًا فنّه الصّبور والرّفيع، نقصد فنّ صنع شيء من لا شيء. فكان الرّجلان ينهمكان في

الاشتغال طيلة الوقت: فاريا خشية أن تجتاحه الشّيخوخة أو تأتيه النوبة، ودانتس خوفًا من أن يتذكّر ماضيه الذي كاد يصير نسيًا منسيًا، وما عاد يأتيه إلا كذكرى تطفو من أعماق ذاكرته، كأنّما هي نورٌ بعيدٌ ضائعٌ في الظّلام؛ كان كلّ شيء يسير على هذا النّحو، شأن ما يحدث مع تلك الحيوات التي يضنيها الشّقاء، وتظلّ تمضي هادئةً تحت بصر القدر.

لكن تحت هذا الهدوء السطحيّ، كان قلب الشّاب، كما قلب الشّيخ ربّما، يغلي بهياجٍ مكبوت، وحسراتٍ مخنوقة، تفصح عن نفسها حين يبقى فاريا بمفردهٍ ويعود إدمون إلى محبسه.

وذات ليلة استيقظ إدمون مفزوعًا، وقد هُيِّئ إليه أنّه سمع من ينادي باسمه. فتح عينيه وحاول اختراق طبقات العتمة.

تناهى إليه اسمُه، أو بالأحرى تناهى إليه صوتٌ شاكٍ يحاول النّطق باسمه.

قام من سريره، وجبينه يقطر بعرق القلق، وأصاخ السّمع. لا شكّ في الأمر، إنّ الأنين آتٍ من محبس رفيقه.

وشوش دانتِس: - إلهي، هل....؟

ثمّ إنّه أزاح سريره، وحرّك الصّخرة، وانطلق في الممرّ حتّى بلغ طرفه الآخر؛ كانت البلاطة مرفوعةً.

وفي ضوء ذاك المصباح الشائه الذي أتينا على ذكره، رأى دانتِس الشّيخ شاحبًا، لا يزال مستيقظًا يحاول الوقوف متشبّثًا بخشب سريره. كانت ملامحه مضطربةً أشدّ الاضطراب بفعل تلك الأعراض الرّهيبة التي كان يعرفها حقّ المعرفة، والتي عذّبته أيّما عذاب حين ظهرت عليه أوّل مرّة.

قال فاريا حازمًا: - وإذًا يا صديقي! لقد فهمتَ، ولا حاجة بي إلى الشّرح. أليس كذلك؟

أطلق دانتِس صيحةً موجعة، وانطلق، فاقدًا السيطرة على صوابه تمامًا، نحو الباب يصيح:

«النّجدة! النجدة!».

كان لا يزال في فاريا بقيّة من جهد مكّنته من أن يوقفه من ذراعه.

قال: - صه! وإلا ضعتَ. لا ينبغي أن نفكّر من الآن إلا في أمرك يا صديقي، في أن نجعل أسرك محتملًا، أو في إمكانية هروبك. تلزمك سنواتٌ لكي تعيد بمفردك فعل ما فعلتُه أنا هنا، والذي سيدمّرُ ما إن ينتبه سجّانونا إلى دهائنا. ثمّ، فلتهدأ نفسُك، إنّ المحبس الذي سأتركه لن يطول به الوقت فارغًا: - فلن يلبث أن يملأ شقيٌّ آخر مكاني. ولهذا الآخر ستبدو أنت كملاكٍ مخلّص. ولرّبما كان هذا الآخر شابًا، قويًا وصبورًا مثلك، فيكون بمقدوره أنّ يعينك على فرارك الذي أعوقك عنه أنا. لن تكون معك جثّةٌ مربوطةٌ إليك تشلّ حركاتك كلّها. لا ريب في أنّ الربّ قد انتهى إلى الاستجابة لك. إنّه يعطيك أكثر ممّا أخذه منك، وقد حانت منيّتي.

لم يملك إدمون إلا أن يشبك يديه ويصيح:

- أوّاه! يا صديقي، يا صديقي، اصمت!

ثمّ، إذ استعاد قوّته التي زعزعتها للحظةٍ هذه الضربة غير المتوقّعة، وشجاعته التي طوتها كلماتُ الشّيخ، قال:

- أوه! لقد أنقذتُك مرّةً، وسأنقذك مرّةً أخرى!

ثمّ رفع قائمةَ السّرير، واستلّ منه القارورة التي كانت لا تزال مملوءة إلى الثلث بالسّائل الأحمر، وقال:

- هاك! لا يزال ثمّة القليل من هذا السّائل المنقذ. هيّا، بسرعةٍ، أخبرني ما عليّ فعله هذه المرّة؛ هل من تعليماتٍ جديدة؟ قُل يا صاحبي، إنّي أسمعك.

قال فاريا وهو يهزّ رأسه: - ما من أملٍ؛ لكن فيمَ يهمّ ذلك؛ لقد شاء الله للإنسان الذي خلقه، وفي قلبه زرع حبّ الحياة، أن يفعل وسع جهده للحفاظ على هذا الوجود المضني أحيانا، والعزيز دائمًا.

صاح دانتِس: - أوه! نعم، نعم، سأنقذك، أؤكّدُ لك!

- حسنًا، جرّب إذًا! إنّي أحسّ بالبرد يحتّلُ جسمي؛ أحسّ بالدّم يتدفّق إلى دماغي؛ وإنّ الرّجفة الرّهيبة التي تصطكّ لها أسناني، وتبدو كأنّما تفكّك أوصالي، قد بدأت تهزّ جسمي كلّه؛ بعد خمس دقائق سينبثق المرض، وبعد خمس دقائق لن يبقى منّي إلا جثة.

كان قلب دانِتس يعتصر من الألم.

واصل الشّيخ كلامه: - ستفعل مثل المرّة السّابقة، لكن لا تنتظر طويلًا هذه المرّة. كلّ ينابيع الحياة الآنَ قد نضبت، والموتُ (وهنا أشار إلى ذراعه وقدمه المشلولتين)، لن يحتاج إلى القيام إلا بنصف العمل. بعد أن تسكب في فمي اثنتي عشرة قطرةً، إن لم أعُد، صبَّ الباقي. والآن، احملني إلى سريري، لأنّي لا أستطيع الوقوف على قدميَّ.

حمل إدمون الشّيخ بذراعَيْه، ووضعه على السّرير.

قال فاريا: - والآن يا صديقي، أنت يا سلوتي الوحيدة في الحياة، يا من جادت عليّ به السّماءُ، وإن تأخّرت قليلًا، وأشكرها على عطائها؛ الآنَ، وأنا أستعدّ للرّحيل عنك إلى الأبد، أدعو لك بالسّعادة واليُمن الذي تستحقّه: - يا بنيَّ، إنّي أباركُك!

جثا الشّابُ على ركبتيه، ووضع رأسه لصقَ سرير الشّيخ.

واصل فاريا الكلام: - لكن اسمع جيّدًا ما أقوله لك في هذه السّاعة المهيبة: - إنّ كنز سبادا موجود؛ لقد كشف اللّه عنّي المسافات والعوائق، وإنّي لأرى الكنزَ مخفيًا أقصى المغارة الثانية؛ إنّ عينيَّ تخترقان أغوار الأرض وإنّهما لمنبهرتان بكلّ تلك الكّنوز. إن توفّقت في الهرب، فاذكُر أنّ الرّاهب المسكين الذي كان الجميع يعتبره مجنونًا لم يكن كذلك. اهرع إلى مونت كريستو، واغنم ثروتنا، اغنمها، فقد قاسيتَ ما فيه الكفاية.

قطعت كلام الشّيخ هزّةٌ عنيفةٌ. رفع دانِتس رأسَه فرأى عيني الشّيخ تغشاهما الحُمرة؛ كأنّما موجةُ دمٍ ارتفعت من صدره إلى جبهته.

همس الشّيخ، وهو يضغط بيدٍ متشنّجةٍ على يد الشّاب: - وداعًا! وداعًا!

صاح الشّابُ: - أوه! ليس بعد، ليس بعد! لا تتركني، بالله! النّجدة... أعينونا...

غمغم الشّيخ: - صه! صه! لا تدعهم يفرّقون ما بيننا في حال تمكّنتَ من إنقاذي!

- أنت محقّ. آه! بلى، بلى، اطمئنّ، سوف أنقذك! ثمَّ، مهما كانت آلامُك اللّحظة، فإنّها تبدو أدنى من آلام المرّة السّابقة.

- آه! لا توهم نفسكَ، إنّي أتألّم أقلّ من المرّة السّابقة، لأنّ فيّ قوّةً أقلّ للتألّم. عندما يكون المرء في سنّك يكون إيمانه بالحياة أقوى، لقد مُيّز الشّبابُ بالإيمان والأمل، لكنّ الشّيوخ يرون الموتَ أوضَح. آه! ها هو... إنّه آتٍ... قُضي الأمر... بصري يضيع... صوابي يرحل... هات يدك يا دانتِس!... وداعًا!... وداعا!

ثمّ وهو يحاول النّهوض بجهدٍ أخيرٍ وضع فيه جماع قواه أضاف: - مونت كريستو! لا تنسَ مونت كريستو!

وتهاوى على سريره.

كانت النوبة فظيعةً: أطرافٌ متخشّبة، بؤبؤان منتفخان، زبدٌ دام، جسدٌ هامد؛ ذاك ما بقي، فوق سرير الألم، من الكائن العاقل الذي كأن يرقد فيه قبل برهةٍ.

أخذ دانتِس المصباح، ووضعه جانب السّرير فكان ضوءُ المصباح متماوجًا فيضيء بانعكاسٍ غريبٍ وعجيب الوجه المتحوّل والجسد الهامد المتخشّب.

بعينين مسمّرتين ظلّ رابط الجأش يرقب اللّحظة المناسبة للتّدخل بالعلاج المنقذ.

وحين ظنّ أنّ الوقت قد حان، تناول سكّينه، فتح بها الفكّ، فألفى من

المقاومة أقلّ مّما كان قد واجهه في المرة السابقة، ثمّ قطّر في الفم اثنتي عشرة قطرة بالحساب، ومكث ينتظر؛ كانت القارورة لا تزال تحوي من السائل تقريبًا ضعف ما قطّره في فمّ الشّيخ.

انتظرَ عشر دقائق، ثمّ ربعِ ساعةِ، ولم يحدث شيء. مرتعدًا، متصلّبَ الشّعر، متجمّد الجبين متعرّقَه، ظلّ يعدُّ الثواني بدقات قلبه.

ثمّ أتت اللّحظة التي فكّر فيها في أنّ الوقت قد حان لتجريب آخر السّبل: - إذّاك أدنى القارورةَ من شفتيّ فاريا البنفسجيّتين، ومن دون أن يحتاج إلى فتح الفم الذي ظلّ مُشرعًا، صبّ فيه كلّ ما تبقّى من السّائل الأحمر.

أحدث العلاج فورةً كيميائيّة؛ إذ رجّت أطرافَ الشّيخ هزّةٌ عنيفةٌ، وانفتحت عيناه، وكان منظرهما مرعبًا، وأطلق زفرةً تحاكي صرخةً، ثمّ ما لبث جسده المنتفض أن غرق في السّكون.

وحدهما العينان ظلّتا مفتوحتين.

مرّت نصف ساعةٍ، فساعةٌ، ثمّ ساعةٌ ونصف. وطيلة مدّة القلق تلك التي دامت ساعة ونصفًا، ظلّ دانتِس منحنيًا على صاحبِه، واضعًا يده على قلبه، شاعرًا بالبرودة تسري في جسده شيئًا فشيئًا، وقلبه ينطفئ، فتخبو ضرباتُه وتصير أبعدَ وأصمتَ.

وفي نهاية المطاف لم يبقَ فيه شيءٌ حيّ، فالقلب توقّف نهائيًا، والوجه جمد، وظلّت العينان جاحظتين، لكن خبت فيهما النّظرةُ.

كان الوقت السّادسة صباحًا، والنّهار بدأ يشرق، وضوؤه الباهت يتوغّل في الغرفة، فيشحب ضوء القنديل الموشك على الانطفاء. مرّت فوق وجه الجثمان انعكاسات ضوءٍ غريبة، مصبغةً عليه من حين إلى آخر مظاهرَ حياةٍ. وطالما استمرّ الصّراع بين النّهار والليل، ظلّ الرّجاء يسكن دانتِس؛ لكن ما إن انتصف النّهار، حتّى أدرك الشّاب أنّه كان بمفرده في الزنزانة مع جثّة.

إذّاك تلبّسه رعبٌ عميقٌ لا يُقهَر؛ لم يعد يجرؤ على أن يشدّ على اليد المتدليّة من السّرير، ولا عاد يجرؤ على التحدّيق في العينين الجاحظتين البيضاوين اللتين حاولَ مرّاتٍ عبثًا إغلاقهما، إذ كانتا تنفتحان في كلّ مرّة. أطفأ القنديل وأخفاه بعناية، ثمّ انصرف، مُقفلًا الفتحة خلفَه قدر ما أمكنَه.

كان الوقت قد حانَ، ولن يتأخّر السّجان في المرور.

هذه المرّة، مرّ السّجان أوّلًا على زنزانة دانتِس؛ وبعده كان سيمرّ على زنزانة فاريا ليحمل له الفطور وبعض الملابسَ.

لا شيء لدى الرّجل كان يشي بأنّه ملمٌّ بالحادث الذي وقع. خرج.

سيطرت على دانتِس رغبةٌ لا تقاوم في معرفة ما سيجري في زنزانة صاحبه المسكين؛ ولج الممرّ، وبلغ طرفه الآخر في الوقت المناسب، لكي يسمع صيحات السّجان يطلبُ العونَ.

ولم يمضِ وقت طويلٌ حتّى حضر باقي السّجانين؛ ثمّ سُمع صوتُ خطو الجنودِ المعتاد، ذاك الخطو الثقيل والمنتظم. وخلف الجنود أقبل المدير.

سمع إدمون صوت السّرير الذي كانوا يرجّون السّجين المسجّى فوقه؛ وسمع صوت الحاكم يطلب منهم صبّ قليل من الماء على وجهه، ثمّ وهو يرى انعدام ردّ الفعل، يطلب منهم استدعاء الطّبيب.

غادرَ المديرُ؛ وتناهى إلى مسمع دانتِس بعض عبارات الشّفقة المختلطة بضحكات التّهكم.

قال أحدهم: – يبدو أنّ المجنون قد ذهب يلتحق بكنزه، سفرًا سعيدًا!

وقال آخر: – كلّ الملايين التي يملكها، ولن يستطيع شراء كفنه.

فأجابه ثالث: – أوه! إنّ أكفان قلعة إيف لا تكلّف الكثير.

قال الأوّل: – لأنّ الشّيخ من رجال الكنيسة، فلربّما خصّوه ببعض المصاريف.

- إذًا سيحوز شرفَ الكيس.

كان إدمون ينصت، لا يفلت كلمةً، لكن من دون أن يفهم حقًا ما يقولون. ثمّ ما لبثت الأصوات أن خمدت، وبدا له أنّ الحضور يغادرون الحجرة.

لكنّه مع ذلك لم يجرؤ على الدّخول، إذ يمكن أن يُترك خفيرٌ هناك لحراسة الجثمان.

ظلّ إذًا ساكنًا صامتًا، حابسًا أنفاسَه.

بعد ساعة تقريبًا رجَّ الصّمتَ ضجيجٌ خافت، ما انفكَّ يتعاظمُ.

كان ذاك المدير وقد عاد وبرفقته الطّبيب وعددٍ من الضّباط.

رانت لحظةُ صمت: - كان بديهيًا أنّ الطّبيب دنا من الجثّمان يفحصه.

وما لبثت الأسئلة أن بدأت.

حلّل الطّبيب المرض الذي أودى بالسّجين، وصرّح بأنّه قد مات.

كانت الأسئلة والأجوبة تتمّ بلا اكثرات اغتاض له دانتِس؛ كان يبدو له أنّ على الجميع أن يشعروا تجاه الرّاهب المسكين ببعضٍ من العطف الذي يحمله له هوَ.

قال المدير ردًّا على الموت المؤكّد الذي أعلنَه الطّبيب:

- إنّي ليحزنني ما قُلته؛ لقد كان سجينًا وديعًا، مسالمًا مستمتعًا بجنونه، وكان على وجه التّخصيص سهل الحراسة.

تدخّل السّجّان: - آه! كنا بالإمكان ألا نحرسَه البتّة، كان بالإمكان أن يظلّ هاهنا خمسين سنةً من دون أن يحاول الفرار ولا مرّةً واحدة.

استأنف المدير الكلام: - على أنّي، على الرّغم من يقينك، أرجو التأكّد من وفاة السّجين، ليس تشكيكًا في علمك وإنّما فقط التزامًا بمسؤوليّتي.

خيّمت لحظة صمت مطلق خمّن خلالها دانتِس، الذي كان لا يزال يتنصّت، أنّ الطبيب يفحص الجثمان ويجسّه مجدّدًا.

ثمّ قال الطّبيب: - بإمكانك أن تطمئنَّ، لقد مات، أتحمّل مسؤولية كلامي.

استأنف المدير الكلام: - أنت تعرف يا سيّدي أنّنا في الحالات المماثلة لا نكتفي بمجرّد فحص؛ على الرّغم ممّا توحي به المظاهر، عليك أن تكمل المهمّة وتنجز الشّكليات التي حدّدها القانون.

قال الطّبيب: - حسنًا، حمُّوا الحديدَ، وإن كان ذاك إجراءً بلا فائدة.

أمرُ إحماء الحديد ذاكَ رجَّفَ دانتِس.

سُمع صوتُ خطواتٍ مستعجلة، ثمّ صرير باب، أصواتُ ذهابٍ وإيّابٍ في الدّاخل؛ ولحظاتٍ بعد ذلك دخلَ سجّانٌ قائلًا:

- هو ذا الأتون وفيه حديد.

خيّم صمتٌ، وبعده سُمعَ صوت اختلاج لحم يحترق، احتراقًا كانت رائحتُه الكثيفة الغاثيةُ من القوّة بحيث اخترقت حتّى الجدار الذي يختبئ خلفه دانتِس منصتًا برعب لما يجري.

لرائحةِ اللّحم البشريِّ المتفحّم، تفصّدَ عرقُ الشّاب، فظنّ أنّه على وشك أن يسقط مغشيًا عليه.

قال الطّبيب: - أرأيت يا سيّدي، لقد ماتَ حقًا؛ هذا الحرقُ في الكعب حاسمٌ: - إنّ المجنون المسكين، قد انعتق من جنونه ومن أسره.

تساءلَ أحد الضّباط الذين كانوا يرافقون المديرَ: - ألم يكن يُدعى فاريا؟

- بلى يا سيّدي، بحسب ما يدّعيه، وهو اسمٌ قديمٌ؛ ثمّ إنّه كان علّامةً حصيف العقل إلا في ما يتعلّق بكنزه؛ لكن بخصوص الكنز ينبغي الاعتراف أنّه كان يستحيل علاجه.

قال الطّبيب: - تلكم أعراض المرض الذي نسمّيه الهوس الأحادي.

التفت المديرُ ناحية السّجّانَ الذي كان مكلّفًا بحمل الطّعام إلى الرّاهب: - هل سبق أن شكوت منه؟

أجابه السّجانُ: - مطلقًا يا سيّدي المدير، مطلقًا! بل على العكس،

في ما مضى كان يسلّيني بقصص يحكيها لي؛ وذات مرّة مرضت زوجتي فوصف لي وصفةً كان فيها شفاؤها.

قال الطّبيب: - آه! ما حسبت أنّي أتعامل مع زميلٍ في المهنة؛ (ثمّ أضاف ضاحكًا)، أتمنّى والحال هذه أن تعامله يا سيّدي المدير بما يليق.

- أجل، أجل، اطمئنّ، سنغلّفه برفقٍ في أنظفِ كيسٍ نستطيع العثور عليه؛ هل يرضيك ذلك؟

قال أحد السّجّانين: - هل علينا أن نقوم بهذا الإجراء الشّكليّ الأخير يا سيّدي؟

- بالتّأكيد، لكن أسرعوا، فإنّي لا أستطيع البقاء في هذه الزّنزانة طيلة اليوم.

سُمعت أصوات ذهاب وإياب، مجدّدًا؛ ثمّ، لحظةً بعد ذلك، تناهى إلى أذني دانتِس صوت قماش ينكمش، وصرَّ السّرير، ثمّ سُمع بعد ذلك وقع خطواتٍ متثاقلة كأنّها لرجلٍ يحمل ثقلًا ويستند إلى البلاطة، ثمّ صرّ السّرير مرّةً أخرى تحت الثقل الّذي أُلقيَ عليه.

قال المدير: - إلى مساء اليوم.

سألَ أحدُ الضّباط: - هل سيكون ثمّة قدّاسٌ؟

فأجابه المدير: - مستحيل؛ إنّ قسّيس القلعة أتى أمس يطلب منّي عطلةً يسافر فيها ثمانية أيّام إلى هييريس، فأعفيته من كلّ مهماته هذه المدّة؛ مسكينٌ الرّاهبُ، لولا أن تعجّلَ الموت لحصل على جُنّازه.

قال الطّبيب بالفجور المألوف في مَن يعتنقون اعتقاداته، إذ كان رجلَ كنيسة: - طيب! إنّ الربَّ سيأخذ الأمرَ في الاعتبار، ولن يمنح الجحيمَ المتعةَ الشّريرة المتمثّلة في أخذِ راهب.

أثارت تلك الدّعابة السّمجةَ عاصفةَ ضحك.

وأثناء ذلك كانت عملية التكفين متواصلة.

وحين انتهت العملية كرّر المدير: - إلى المساء!

سأله السجّان: - في أيّ ساعةٍ؟

- حوالى السّاعة العاشرة أو الحادية عشرة.

- هل سنسهر مع الميت؟

- ولمَ نفعل ذلك؟ سنغلق المحبسَ كأنّما هو لا يزالُ حيًا، وهذا كلّ ما في الأمر.

ثمّ إنّ الخطوات ابتعدت، والأصوات أخذت تخبو، وسُمع صوت الباب وصرير قفله المزعج، وساد صمتٌ أشدّ وطأةً من صمتِ الوحدة، صمتُ الموت، صمت غشيَ كلّ شيءٍ حتّى روحَ الشّاب المرعوبة.

إذّاك، رفع البلاطة ببطءٍ برأسه، وألقى نظرةً متقصّية على الغرفة.

كانت الغرفة فارغةً: - خرج دانتِس من الممرّ.

20

مقبرة قلعة إيف

على السّرير، بالطّول، وُضع كيسٌ من الخيش الخشن، وعبر النّافذة تتسلّلُ أشعّة نهار مُضبَّب، فتضيء إضاءةً خفيفة، الكيس الذي ترتسم تحت ثناياه هيئةٌ طويلةٌ متصلّبة. كان ذاك كفن فاريا، الكفن الذي، بحسب كلام السّجانين، لم يكن يكلّف شيئًا. هكذا إذًا انتهى كلّ شيء. وصار منذ الآن بين دانتِس وصديقه الشّيخ حاجزٌ مادّيّ، فما عاد بوسعه أن ينظر في عينيه اللتين ظلّتا مفتوحتين كأنّما تستشرفان ما وراء الموت، ولا عاد بمقدوره أن يشدّ على اليد التي رفعت له الحجُب التي كانت تغطّي الأشياء المخفية. فاريا، الصّاحبُ الطّيب والمعلّم، الذي ألفه أشدّ ما تكون الألفة، لم يعد الآن موجودًا إلا كذكرى. فكان أن جلسَ دانتِس على جانب السّرير الرّهيب، وغاص في سوداويّة ظلماءَ مُرّة.

وحيدًا! ها هو عاد وحيدًا! سقط مجدّدًا في الصّمت، وصار يواجه العدم!

وحيدًا، ليس له حتّى نظرةٌ، ولا صوتٌ. ذهب الإنسانُ الوحيدُ الذي كان لا يزال يربطه بالدنيا! أوَليس حريًّا به أن يسلك مسلك فاريا، فيقصد الرّبَ يسألُه عن لغز الحياة، حتّى وإن كان عليه أن يجازف، في سبيل ذلك، بالمرور عبر بوابة الآلام الحزينة!

وها هي فكرةُ الانتحار، التي كان قد طردها صديقُه، وأزاحَها حضوره بجانبه، عادت تنتصب واقفةً كشبحٍ بجانب جثمان فاريا.

قال لنفسه: «إن متُّ فسأذهبُ حيث ذهبَ، وسألتقيه قطعًا. لكن كيف

السّبيل إلى الموت؟ (وفكّر ساخرًا) الأمرُ غايةٌ في البساطة؛ سأكمن هاهُنا، فأرتمي على أوّل من يدخل الزنزانة، وأخنقه، فيكون مصيري المقصلة».

لكن بما أنّه في الفواجع العظام، كما في الزوابع الكبرى، يحدث أن تكون الهاوية بين قمّتين لجيّتين، فإنّ دانتِس طرد فكرة هذه الميتة المخزية ما إن عنّت له، وانتقل فورًا من اليأس إلى تعطّش حارقٍ للحياة والحريّة.

صاح: «الموت! أوه! كلّا! لم أعش كلّ ما عشته وأعاني كلّ ما عانيته، لكي أموت الآن! الموتُ، كان جيدًا في ما مضى، منذ سنواتٍ خلت، قبل أن أحزم أمري؛ لكن الآن سيكون في الموت إعانة لمصيري البئيس. كلّا، أريد أن أحيا، أريد أن أقاوم حتّى النّهاية؛ كلاّ، أريد أن أستعيد السّعادةَ التي سُلبتُ! قبل أن أموت، سأكون قد نسيت أنّ لي جلاّدين أعاقبهم، ومن يدري؟ بعض الأصدقاء الذين ينبغي أن أكافئهم. لكن إذا بقيت كما أنا الآن، سأُنسى هنا، ولن أغادر محبسي إلا كما يغادره فاريا».

ثمّ إذ نطق تلك العبارة، ظلّ دانتِس جامدًا، مسمَّر العينين، كمن أصابته فكرةٌ فجأةً، لكنّها فكرةٌ مرعبةٌ وأيّ فكرة؛ بغتةً، وقف، وضع يده على جبينه كأنّما أصابه الدّوار، ذرع المحبس في دورتين أو ثلاث، ثم عاد يتوقّف أمام السّرير...

غمغم: «أوه! من ذا الذي يهجس لي بهذا الخاطر؟ أأنت يا إلهي؟ بما أنّ الأمواتَ وحدَهم يغادرون هذا المكانَ، لنأخذ موضع الموتى».

ومن دون أن يضيع الوقت، فيرجع عن قراره، وكما لو أنّه يحاصر الزّمنَ، كي لا يقتل فيه القرار اليائس، مال على الكيس الخشن، وفتحه بالسّكين التي كان قد صنعها فاريا، وأخرج الجسد منه، وحمله إلى زنزانته، وسجّاه على سريره، وغطّى جسده بمزقة الثوب التي دأب على تغطية رأسه بها، وألقى عليه غطاءه، وطبع على جبينه المتجمّد آخر قبلة،

وحاولَ أن يغمض العينين المتمرّدتين، المفزعتين بسبب غياب التعبير، ثمّ أدارَ وجهه شطرَ الجدار، حتّى يظنّ السّجانُ، حين يحمل إليه وجبة المساء، أنّه نائمٌ. بعد ذلك دخل إلى الممر، ساحبًا السّرير خلفَه، حتّى ألصقه بالجدار، ثمّ ولج إلى الغرفة الأخرى، وأخرج من الخزانة إبرةً وخيطًا، ونضا عن نفسه ملابسه، كي يشعر من يحمل الكيس أنّ تحته بالفعل جسدًا عاريًا. انزلق داخل الكيس، واتّخذ الوضعية التي كان عليها الجثمان، وخاط الفتحة من الدّاخل.

ولو أنّ سوء الحظّ شاء أن يدخل أحدهم المكان في تلك السّاعة، لأمكنه سماع خفقان قلبه.

كان بإمكان دانتِس أن ينتظر حتّى المساء، لكنه خشيَ أن يغيّر المدير رأيَه أثناء ذلك، فيأخذون الجثمان.

وإذّاك سيكون قد ضيّع آخر آماله.

في جميع الأحوال، خطّته الآن معلّقةٌ.

وقد فعل ما كان عازمًا على فعله.

في حال اكتشف حفّارو القبر أنّهم يحملون حيًّا بدلًا من ميت، فإنّه لن يمهلهم الوقتَ؛ بضربةٍ حازمةٍ من سكّينه سيشقّ الكيس من أعلاه إلى أسفله، ويستغل رعبهم ليهرب؛ وإن حاولا إيقافَه، سيلجأ إلى السكّين.

وإن اقتادوه إلى المقبرة، فوضعوه في قبر، فسيتركهم يهيلون عليه التّرابَ، وسيجد طريقة لأنفاس يسرقها؛ ثمّ ما إن يولّي الحفارون ظهورهم، حتّى يحفر لنفسه طريقًا عبر التّراب اللدن ويفرّ: - كان يرجو أن لا يكون التراب شديدَ الثقل، بحيث يستطيع رفعَه.

فإن أخطأ التقدير، وكان التراب شديد الثقل، فسيموت مختنقًا، وليكن ما يكون!

لم يكن دانتِس قد أكل منذ اليوم السّابق، لكنّ الجوع لم يخطر له صباحًا، وما زال لم يخطر له حتّى تلك اللّحظة. كانت وضعيّته أدقّ من أن تجعله يفكّر في شيء آخرَ غيرها.

أوّل الأخطار التي كانت تتهدّد دانتِس، هو أن ينتبه السجّان، حين يحمل إليه عشاءه، إلى ما قام به؛ لكن لحسن الحظّ، عشرات المرّات، بدافعٍ من عصيانٍ أو تعبٍ، كان دانتِس قد استقبل السّجانَ راقدًا؛ وفي تلكَ الحال، كان الرّجلُ، عادةً، يضع الحساء والخبز على الطّاولة وينسحب من دون أن يكلّمه.

لكن هذه المرّة، قد يخرق السّجّانُ عادة صمته، فيكلم دانتِس، وإذ يلاحظ أن دانتِس لا يردّ، سيقترب منه، فيكشف كلّ شيء.

ومع اقتراب السّابعة مساءً، بدأت مخاوف دانتِس الفعلية. إحدى يديه كانت تضغط على قلبه، كأنّما تحاول كتم صوت ضرباته، بينما اليد الأخرى تمسح عن جبينه العرق الذي كان يقطر حتّى يبللّ صدغيه. من حين إلى آخر، كانت تسري في جسده رعدةٌ فتبلغ حتّى قلبه فتقبضه كقبّاضة جليدية، فيحسب إذّاك أنّه على وشك الموت. مرّت السّاعات من دون أن تحدث أيّ جلبة في القلعة، فأدرك دانتِس أنّه قد أفلت من أوّل الأخطار؛ كانت تلك بشرى خير. أخيرًا، وفي السّاعة التي كان قد حدّدها المدير، سُمع وقع خطوات على الدرج. أدرك إدمون أنّ الوقت قد حان، فاستجمع شجاعته كلّها، وحبس أنفاسه؛ وكم ود لو أمكنه، في الآن نفسه، كتم اندفاع شرايينه المتسارع.

توقّفت الخطوات عند الباب، وكانت خطوات رجُلَين. وخمّن دانتِس أنّهما حفارا القبر أتيا يأخذان الجثمان. وانقلب شكّه يقينًا حين سمع الصّوت الذي أحدثاه وهما يضعان النّعش أرضًا.

فُتح الباب، وبلغَ عيونَ دانتِس ضوءٌ مكتوم. وخلَال الكيس الذي يغطّيه، أبصر ظلّين يقتربان من سريره؛ فيما بقيَ رجلٌ ثالث عند الباب، يحمل بيده فانوسًا. أمسك كلّ واحدٍ من الرّجلُين، اللذين اقتربا من السّرير، بطرفٍ من الكيس.

قال من يمسك بجهة الرّأس: – كم هو ثقيل، قياسًا إلى جثّة شيخٍ نحيل.

فردّ المُمسك بجهة القدمين: - يُقال إنّ كل سنةٍ يعيشَها المرء تضيف إلى ثقل عظامه ربع رطل[1].

سأل الأوّلُ الثانيَ: - هل حملت معك حبلك؟

فأجابَه: - سيكون من الغباء أن يثقل المرء نفسَه بحملٍ لا فائدة منه، سأقوم بالأمر حين نصير هناك.

- أنت محقٌّ، هيّا إذًا.

تساءل دانتِس: «لمَ الحبلُ؟»

رُفع الجثمان، الذي يحسبونَه جثمان المتوفّى، من السّرير إلى النقّالة. وتصلّب دانتِس كي يُتقن دورَ الميّت. وُضع فوق النّقالة، وسار به الموكب، صاعدًا الدرج، يتقدّمه الرّجل الذي يضيء الدّرب بفانوسه.

وبغتة غمر دانتِس الهواء الباردُ اللاذع، فتعرّف فيه ريح المسترال[2]. كان إحساسًا ملتبسًا، مزيجًا من الملّذّات والقلق.

خطا الحمّالان عشرين خطوةً، ثمّ توقّفا ووضعا الحمالة أرضًا.

ابتعد أحدهما، وسمع دانتِس وقع خطواته على البلاطات.

تساءلَ دانتِس: «أين أنا إذًا؟».

قال الرّجلُ الذي بقيَ بقرب دانتِس، وقد جلس على حافة النّقالة: - أرأيتَ أنّه ليس خفيفًا بالمرّة!

وأوّل شعورٍ راود دانتِس، هو أن يفرَّ، لكنّه أمسك عن ذلك لحسن الحظ.

قال الحمّال الذي ابتعد: - أضئ ليَ المكانَ أيّها البهيمة، وإلا فلن أجد ما أبحث عنه.

---

(1) في النّص، ربع رطل إنجليزي، والرّطل الإنجليزي الواحد يساوي حوالى نصف كيلوغرام.

(2) ريحٌ شمالية عنيفةٌ وباردةٌ، تهبّ على الأقاليم الفرنسية الواقعة على البحر الأبيض المتوسّط.

نفّذ صاحب الفانوس الأمرَ، على الرّغم من أنّ الأمرَ، كما رأينا، قد صيغ بألفاظ غير لائقة.

تساءل دانتِس: «عمَّ يبحثُ إذًا؟ عن مجرفةٍ قطعًا».

ووشت صيحة فرح بأنّ الحفّار قد وجد ما كان يبحث عنه.

قال الحفّار الآخر: - أخيرًا، لم يحدث الأمر من دون عناء.

أجابه: - أجل، لكنّنا لم نخسر شيئًا بالانتظار.

وإذّاك اقترب الرّجل من دانتِس، الذي سمع قرب رأسه صوت ارتطام جسمٍ ثقيل. وفي الآن نفسه، التفّ حول قدميه حبلٌ كبّله بعنفٍ وشدّة موجعَين.

سأل الحفّارُ الذي ظلّ واقفًا لا يفعل شيئًا: - وإذًا، هل عُقد الحبلُ؟

أجابه الآخر: - عُقد، وعلى أكمل وجه.

- ما دام كذلك، هيّا بنا.

ثمّ استأنفت النّقالةُ المرفوعةُ طريقَها.

مشوا ما يقارب خمسين خطوةً، ثمّ توقّفوا ليفتحوا بابًا؛ وبعد ذلك عاودوا المسير. وبقدر ما كان الركب يتقدّم، كان صوت الأمواج المتكسّرة على الصخور التي بُنيَت فوقها القلعة، يزداد وضوحًا في أذني دانتِس.

قال أحد الحمّالين: - طقس اليوم سيئ! لن يكون جميلًا شعور من ينزل البحر هذه الليلة.

أجابه الآخر: - نعم، إنّ الأب يواجه خطر البلل.

وانفجرا ضاحكين.

لم يفهم دانتِس الدّعابة، ومع ذلك اقشعرّ شعرُ رأسه.

استأنف الأوّلُ الكلام: - حسنًا، ها نحن قد وصلنا!

أجابه الثاني: - أبعدَ، أبعدَ، فأنت تعلم علم اليقين أنّ الأخيرَ كان قد بقيَ معلّقًا في الطّريق، مسحوقًا على الصّخور؛ وتحمّلنا غضب المدير.

مشوا أربع أو خمس خطوات أخرى، صاعدَين دائمًا، ثمّ شعر دانتِس بأنّهما يمسكانه من رأسه وقدميه، ويؤرجحانه في الهواء.

قالا معا: - واحدٌ

- اثنان.

- ثلاثة!

وفي اللحظة نفسها أحسّ دانتِس أنه يهوي في فراغ سحيق، مخترقًا الهواءَ كطائر جريح، يهوي ويهوي، ورعبٌ كالجليد يجمّدُ قلبَه. ومع أنّ ثقلًا كان يجرّه إلى الأسفل ويسرّع سقوطه، إلّا أنّه أحسّ بأنّ السّقوط دامَ قرنًا من الزمن. وأخيرًا شقَّ، بصوتٍ رهيب، مثل سهم، الماءَ البارد جدًا، ما جعله يُطلق صيحةً مكتومة، في اللحظةً نفسها التيً غمره فيها الماء.

لقد أُلقيَ بدانتِس إلى البحر، تجرُّه إلى أغوارِه كرةٌ حديدية تزن ستّة وثلاثين كيلوغرامًا، كان الرّجلان قد علّقاها بقدميه.

البحرُ هو مقبرةُ قلعة إيف.

21

جزيرة تيبولن

على الرّغم من ذهول دانِتس، الذي كاد يختنق، فإنّ ذهنه ظلّ حاضرًا، فلم يغفل حبس أنفاسه، وبما أنّ يده كانت لا تزال ممسكة بسكينه، فقد فتق الكيس بسرعة، وأخرج يده ثمّ رأسه؛ ورغم ما بذله من جهد لرفع الكرة الحديدية، إلاّ أنّه ظلّ ينجرّ إلى القعر. فتقوّس باحثًا عن الحبل الذي يكبّل قدميه، وبجهدٍ خارق تمكّن من أن يقطعه في اللحظة نفسها التي كان يوشك فيها على الاختناق. وبحركةٍ قويّة من قدميه، استطاع أن يصعد إلى السّطح حرًا، بينما الكرة تسحب إلى القعر الكيس الذي كان يفترض أن يصير لهُ كفنًا.

لم يأخذ دانِتس من الوقت سوى ما يكفي ليستعيد نفَسَه، ثمّ عاود الغطس مرّة أخرى؛ إذ كان أوّل انشغالاته، تفادي الأنظار.

وحين صعد مرّة ثانية إلى السّطح، كان قد صار بعيدًا بخمسين قدمًا على الأقلّ عن موقع سقوطه. أبصر فوق رأسه سماءً مظلمةً وعاصفةً، على صفحتها بعض سحب سريعة تكنسها الرّياحُ، فتكشف من حين إلى آخر عن جانب من السّماء تؤثّثه نجمة؛ أمامَه يمتدّ المُنبَسَط المظلم المزمجرُ، الذي بدأت أمواجُه تغلي كأنّما تدنو منها عاصفةٌ، بينما خلفه، أحلكَ من البحر، أحلَك من السّماء، يرتفعُ، كشبح متوعّد، عملاقٌ، الصّوانِ الذي تبدو قمّتَه المعتمة مثل يدٍ تمتدُّ محاولةً إعادة الإمساك بفريستها؛ وعلى الصّخرة كان ثمّة فانوسٌ يضيء شبحَين.

بدا له أنّ الشّبحين يميلان صوب البحر بقلقٍ؛ والحالُ أنّ الحفّارَين

الغريبين كانا قد سمعا الصيحة التي أطلقها وهو يخترق الفضاء. فكان أن عاد دانتِس إلى الغوص، وقطع هذه المرّة مسافةً أطولَ؛ وكان ذلك فعلًا مألوفًا بالنّسبة إليه في ما مضى، وعادةً ما كان يجمع حوله، في جون فارو، العديد من المعجبين الذين كثيرًا ما صرّحوا بأنّه أمهر سبّاحٍ في مارسيليا.

حين عاد إلى سطح البحر، كان الفانوس قد اختفى.

كان عليه أن يحدّد اتّجاهه. ومن بين كلّ الجزر التي تحيط بقلعة إيف، كانت جزيرتا راتونو وبوميغ هما الأقرب، لكنّهما جزيرتان مأهولتان؛ وكذاك الأمر بالنّسبة إلى جُزَيْرة دوم؛ كانت آمنُ الجزر إذًا هي جزيرة تيبولن أو جزيرة لومير، وهما على بعد فرسخ من قلعة إيف.

حزم دانتِس أمرَه على أن يبلغ إحدى الجزيرتين؛ لكن أنّى يهتدي إليهما وسط الظلام الذي ما انفكّ يزدادُ حولَه كثافةً!

لمح في تلك اللحظة فنار بلانييه يلمع كنجم.

توجّه رأسًا صوب الفنار، تاركًا جزيرة تيبولن إلى يساره قليلًا؛ فبسباحته على هذا النّحو سينتهي به المطاف في تلك الجزيرة.

لكنّ الجزيرة، كما أسلفنا، كانت تبعد فرسخًا، على الأقلّ، عن قلعة إيف.

كثيرًا ما كان فاريا يردّد على مسامع الشّاب، كلّما رآه منهزمًا وخاملًا: «لا تستسلم لهذا الخمول يا دانتِس؛ ستغرق إن أنت حاولت الفرارَ، ولم تكن قد اعتنيت بقواك».

وتحت اللجج الثقيلة والمريرة، أتت كلماتُ فاريا ترنّ في أذنَي دانتِس، فتحرّق للصّعود، وشقّ الأمواج كي يتحقّق من أنّه لم يفقد قواه؛ ولعظيم فرحه اكتشف أنّ سكونَه القسريَّ لم يُفقده شيئًا من قوّته وبراعته، وأحسّ أنّه ملا يزالُ يتسيّدُ العنصرَ الذي طالما لعبَ فيه طفلًا.

ثمّ إنّ الخوفَ، ذاك المعذبُ الذي لا يمهل، قد ضاعف من بأس دانتِس؛ وظلّ يتسمّع ممدّدًا على قمّة الأمواج، ما إذا كان يتناهى إليه أيّ صوتٍ. وكلّما ارتفع أقصى موجةٍ، كانت نظرته السّريعة تمسح الأفق المرئيَّ وتحاول اختراق العتمة السّميكة؛ وكلّما ارتفعت موجةٌ أعلى من غيرها، حسبها قاربًا يلاحقُه، فضاعف جهوده، تلك الجهود التي كانت تبعده بلا شكّ، لكنّها لفرط ما تتكرّر تنهك قواه.

ظلّ يسبح على الرّغم من ذلك، وكانت القلعة قد غابت وسط الضباب اللّيلي: لم يعد يميّزها، لكنّه لا يزال يحسّ بوجودها.

انقضت ساعةٌ، ظلّ أثناءها دانتِس يشقّ الأمواج باتّجاه الهدف الذي حدّده لنفسه، مدفوعًا بإحساس الحريّة الذي تملّك كيانَه بأكمله.

قال لنفسه: «لنرَ إذًا، منذ ساعةٍ وأنا أسبح، لكن بما أنّي أسير ضدّ اتّجاه الرّيح، فقد أضعت ربع سرعتي؛ مع ذلك، إن لم أكن قد أخطأت مساري، فلن أكون الآن بعيدًا عن تيبولن... لكن، إذا كنت قد أخطأت!».

سرت في جسد السابح رجفة، وحاول أن يستلقي على الماء لحظةً لكي يرتاح؛ لكن البحر ما انفكّ يزداد هياجًا، وسرعان ما أدرك أنّ محاولة أخذ راحة بهذه الطريقة كانت مستحيلة.

«وإذًا، ليكن ما يكون، سأمضي إلى النّهاية، إلى أن تُنهك ذراعاي، إلى أن تجتاح جسدي التشنّجات، وإذّاك سأغوص غارقًا!».

فجأةً، بدا له أنّ السّماء، الذي كانت أصلًا مظلمةً، قد زاد ظلامُها، وأنّ غمامةً سميكةً، ثقيلةً، متراصّةً، تنقضّ عليه؛ وفي الآن نفسه أحسّ ألمًا عنيفًا بركبته: - فصوّرت له مخيّلته، مع سرعته الفائقة، بأنّها ضربةُ رصاصةٍ، وأنّه لن يلبث أن يسمع دويَ البندقية؛ بيد أنّ الدويَّ لم يُسمع. مدّ دانتِس يدَهُ فأحسّ مقاومةً، وجَرّ إليه قدمَه الثانية، فمسّ الأرضَ؛ فرأى إذّاك ما كان قد حسبَه سحابةً.

على بعد عشرين قدمًا منه ترتفع كتلة صخورٍ عجيبة الهيئة، قد يحسبها

المرء موقدًا هائلًا تحجّر في أشدّ لحظاته اضطرامًا: تلك الصخور هي جزيرة تيبولن.

وقف دانتِس، وخطا خطواتٍ إلى الأمام، ثمّ تمدّد، شاكرًا الرّبَ، على صخور الصّوّانِ التي بدت له في تلك اللّحظة أرقّ من أنعم الأسِرَّة.

ثمّ، على الرّغم من الرّياح، وعلى الرّغم من العاصفة، وعلى الرّغم من المطر الذي بدأ يهطل، نامَ منهكًا من التّعب، نومة الرّجل الذي تخدّر جسدُه لكن ظلّت روحه ساهرةً تعي سعادةً كانت قد يئست منها.

بعد ساعةٍ، استيقظ دانتِس على صوت هزيم رعدٍ هائل. كانت العاصفة قد انطلقت من عقالها ومضت في الفضاء تضربُ الجوَّ بطيرانها المزمجر؛ ومن حين إلى آخر كان يهبط من السّماء برقٌ كثعبانِ نارٍ، فيضيء اللّجج والغيوم التي يتقدّم بعضُها بعضًا مثل أمواج عَماءٍ هائلٍ.

بعينه، عين الملاح الدّربة، لم يكن دانتِس قد أخطأ التّقديرَ: - كانَ قد انتهى إلى أولى الجزيرتين، التي هي بالفعل جزيرة تيبولن. كان يعرف أنّها جزيرةٌ عاريةٌ، مكشوفةٌ ولا تمنح المرء أيّ ملجأ؛ لكن ما إن تهدأ العاصفة حتّى يعود البحر، فيسبح حتّى جزيرة لومير القاحلة مثل جزيرة تيبولن، لكنّها تفوقها مساحةً، وبالتّالي هي مضيافةٌ أكثر منها.

صخرةٌ بارزةٌ منحت دانتِس ملجأً مؤقّتًا، وما إن لاذ بها حتّى انطلقت العاصفة في كامل عنفها.

بدا لدانتِس أن الصّخرة التي يحتمي بها تهتزُّ؛ كانت الأمواج تصطدم بقاعدة الهرم الهائل، فيبلغ أثرها حتّى موضعه؛ وحتى من مأمنه، كان وسطَ ذاك الهدير العميق، وسط تلك البروق الباهرة، وقد أخذ به ضربٌ من الدوار، كان يبدو له أنّ الجزيرة تهتزّ تحت قدميه، وأنّها في أيّ لحظةٍ قد تقطع حبلَ مرساتها، على شاكلةِ سفينة، فتجرّه إلى وسط الدّوامة الهائلة.

وتذكّر إذّاك أنّه لم يأكل منذ أربع وعشرين ساعةً: كان جائعًا، وكان عطِشًا.

فانحنى بيديه ورأسه يشرب ماءَ العاصفة من تجويف صخرة.

وإذ نهض، أضاءَ الأفقَ برقٌ بدا أنّه يشقّ السّماء حتّى يبلغ قدمَ عرش الرّب المبهر؛ وفي ضوء هذا البرق، بين جزيرة لومير ورأس كرواسيه، على بعد ربع فرسخ من موضعه، لمحَ دانتِس، مثلَ شبحٍ ينزلق من أعلى موجةٍ إلى هاويةٍ، مركبَ صيدٍ صغيرًا تحمله في آنٍ اللُّججُ والعاصفةُ؛ ثانيةً بعد ذلك عاد الشبح إلى الظهور على قمّة موجةٍ أخرى، مقتربًا بسرعةٍ رهيبة. أراد دانتِس أن يصيح، أو أن يلتمس خرقة يحرّكها في الهواء لكي يبيّن لهم أنّهم ضائعون، لكنّهم كانوا يرونَ ذلك بأنفسهم. وفي ضوء برقٍ آخر، أبصر الشّاب أربعة رجالٍ متشبّثين بالصواري والدعائم؛ وخامسٌ يقف عند الدّفة المكسورة. هؤلاء الرّجال الذين رآهم، رأوه هم أيضًا بلا ريب، ذاك أنّ صيحاتٍ يائسة، يحملُها عصف الرّيح، كانت تبلغ مسمعه. فوق الصارية المنحنية كقصبة كانت مِزقُ شراع تصفق في الرّيح؛ وبغتةً انقطعت الأربطة التي كانت تشدّها، فاختفت غائصةً في ظلمات الليل السّحيقة، فكانت أشبه شيء بتلك الطيور البيض التي ترتسم على السحائب السّود.

في الآن نفسه، سُمع دويُ تحطّمٍ رهيب، وبلغت دانتِس أصواتُ احتضارٍ. مغروزًا مثل أبي الهول في صخرته، والتي منها كان يشرف على الهاوية، أبدى له برقٌ آخرُ المركبَ المحطّمَ، وبين الحطامِ رؤوسٌ بوجوه يائسة، وأذرع مرفوعةٍ إلى السّماء.

ثمّ ما لبث كلّ شيء أن غاص في اللّيل، ولم يدم المشهد الرّهيب أكثر ممّا يدومه برقٌ.

هرع دانتِس إلى سفح الصخور الملساء، مجازفًا بأن يسقط بدوره في الماء؛ تسمَّع وتبصّرَ، لكن من دون أن يلمح شيئًا: - لا صيحةَ ولا

أنين إنسانٍ؛ وحدها العاصفةُ، صنيعةُ الربّ العظيمةُ، استمرّت تزمجر في الرّيح وتزبد في الأمواج.

شيئًا فشيئًا بدأت الرّيح تهبّ؛ وساقت السّماءُ إلى الغرب سُحبًا رمادية، سحبًا، إن جاز لنا القولُ، بدّدتها العاصفةُ؛ وانقشع الأفق عن نجومٍ متلألئة أكثر من أيّ وقت مضى؛ ثمّ ما لبث أن ظهر، شرقًا، شريطٌ طويلٌ أحمر، راسمًا تموّجاتٍ كحلية؛ تقافزت الأمواج، وسرى على قممها ضوءٌ مباغتٌ، فحوّل لون تلك القمم الزبدية إلى لبدةٍ من ذهب.

ها قد انبلج الصّبحُ.

ظلَّ دانتِس ساكنًا أخرسَ أمام هذا المشهد العظيم، كأنّما يراه لأوّل مرّة. والحالُ أنّه بالفعل قد نسيَه منذ أن سُجن في قلعة إيف. استدار شطر الحصن متقصّيًا بنظرةٍ بعيدةٍ في آنٍ البرَّ والبحرَ.

انبثقت البنايةُ المظلمة من كنف الأمواج بتلك الهيبة الكاسحة التي تميّزُ الجمادات، تلك الهيبة التي تبدو أنّها تراقبُ وتحكم في آنٍ.

لعلّ السّاعةَ الآنَ الخامسة صباحًا؛ البحر ما انفكّ يهدأ.

قال دانتِس لنفسه: «بعد ساعتين أو ثلاث سيدخل السجّان زنزانتي، حيث سيجد جثمان صديقي، سيتعرّف عليه، سيبحث عنّي بلا جدوى، ثمّ يطلق صفّارات الإنذار. سيكشفون أمرَ الحفرة، الممرّ؛ سيحقّقون مع الرّجلين اللذين ألقيا الجثمان في البحر، واللذين لا بد أن يكونا قد سمعا الصيحة التي أطلقتها. وعلى الفور ستنطلق قوارب مليئةٌ بالجنود، في إثر السّجين الفارّ الذي لا بد أنه لم يبتعد. يدوي المدفعُ مُخطرًا السواحلَ بأنّه لا ينبغي إيواء رجلٍ عارٍ وجائع. سيُخطَر الجواسيس والعُمَدُ بمارسيليا، فيمشّطون الساحلَ، بينما يمشّط مدير قلعة إيف البحر. وإذّاك، مضطهَدًا في البحر ومحاصَرًا من البرِّ، ماذا سيكون مصيري؟ إنّي جائعٌ، إنّي أتجمّد من البرد، وقد تخلّيت حتّى عن السّكين لأنّها كانت تعوق سباحتي؛ وإنّي تحت رحمة أوّل مزارعٍ يطمع في عشرين فرنكًا يصيبُها بتسليمي؛ لم تعد

بي حيلةٌ، ولا حَزمٌ، ولا قدرةٌ على التّفكير. آه! يا إلهي! يا إلهي! إنّك لبصير بما لحقني من عذابٍ، وإنّك لقادرٌ على أن تمدّ لي العونَ الذي لا أقدر أن أمدّه لنفسي».

وفي اللّحظة التي تلا فيها دانتِس تلك الصّلاة الحَرَّى، مُيمّمًا وجهَه بقلقٍ شطرَ قلعة إيف، وقد دخل في ما يشبه الهذيان بباعثٍ من نفادِ قواه وتعطّل ذهنه؛ قُلنا في تلك اللحظة، لمح عند رأس جزيرة بوميغ سفينة صغيرةً تنشر شراعها المثّلث في الأفق، مثلَ نورسٍ يطيرُ ماسًّا اللّجةَ؛ سفينةً وحدها عينُ البحّار الدربة تقدر أن تعرفَ أنّها طرّادةٌ جنَويّة[1] على تلك المسافة وسط البحر. كانت آتية من ميناء مارسيليا وتوغِل في عرض البحر دافعةً بالزبد المتطاير أمام قيدومها الحادّ الذي يفتح طريقًا أسهل أمام جانبَيها الوثّابين.

صاح دانتِس لنفسه: «أوه! من يصدّق أنّني في نصف ساعةٍ كنت لألحق بهذه السّفينة لولا أنّي أخافُ أن أُسألَ، ويعرفوا أنّي هاربٌ، فيعيدونني إلى مارسيليا! ما العمل؟ ماذا أقول؟ أي قصّة أصطنعها فيصدّقونني؟ هؤلاء النّاس جميعهم مهرّبون، أنصاف قراصنةٍ. وبدعوى ممارسة الملاحة السّاحلية يمشّطون السواحل؛ وسيفضّلون بيعي على القيام بعملية عقيمة.

«لأنتظر»، قال في نفسه.

ثم أكمل محدّثًا نفسه: «لكن الانتظار أمرٌ مستحيل، إنّي أموت جوعًا، وفي سويعاتٍ سيُستنزف ما بقيَ فيَ من قوّة. ثمّ إنّ ساعةَ الزيارة تقترب؛ لم ينادَ للاستيقاظ بعدُ، وربّما لن يشكّوا في شيء. باستطاعتي أن أدّعيَ أنّي أحد البحارة الذين قضوا في تحطّم المركب الصّغير هذه الليلة. هذه

---

(1) الطرّادة Tartane، سفينة شراعية مميّزةٌ للبحر الأبيض المتوسّط، وتشير المعاجم إلى أنّها قد تكون مشتقّة من كلمة «طريدة» العربية، وقد فضّلنا نحت اسم طرّادة للدلالة عليها. والنسبة في جنوية تعود إلى مدينة جنوة الإيطالية.

القصّة لا يعوزها الصّدق؛ لن يأتي من يعارضني، فهم جميعًا قد غرقوا. فلأفعل».

وبينما يردّد ما سبقَ استدارَ دانتِس بعينيه نحو الموضع الذي تحطّم فيه المركب الصّغير، فأصابته رعدة. على إحدى الصّخور عَلِقت القبّعةُ الفريجية التي كان يعتمرها أحد البحارة الغرقى، وقريبًا منها كانت تطفو الأشلاء والأخشابُ الساكنة التي يتقاذفها البحر مع قاعدة الجزيرة.

وما هي إلا لحظةٌ حتّى كان دانتِس قد عزم أمرَه؛ قفز إلى البحر، وسبح باتّجاه القبّعة، فاعتمرها، وأمسك خشبةً وسار في الاتّجاه الذي يعترض فيه مسارَ السّفينة.

غمغم: «الآن، نجوتُ».

وأعادت إليه تلك القناعةُ قواه.

وما لبث دانتِس أن لمح الطرّادة تجري مغيّرةً اتّجاهها بين قلعة إيف وحصن بلانييه. فخشيَ أن يكون المركبُ بدلًا من أن يمشّط السّاحلَ، يتوغّل في عرض البحر، مثلما كان ليفعلَ لو أنّ وجهتَه كانت كورسيكا أو ساردينيا. لكن بالطّريقة التي كان يسير بها، ما لبث السابحُ أن أدرك أنّه يريد المرور، على دأبِ المراكب التي تقصد إيطاليا، ما بين جزيرة جاروس وجزيرة كالازِريني.

على أنّ المركبَ والسّابح كانا يقتربان من بعضهما تدريجيًا؛ لا بل في لحظةٍ اقترب المركب حتّى لم يعد يفصله عن دانتِس أكثر من ربع فرسخ. فكان أن ارتفع فوق الماء، وأخذ يحرّك قبّعته علامةً على مأزقِه؛ لكن لا أحد ممّن في السّفينة رآه، وقلبت السّفينة اتّجاهها وانخرطت في مسارٍ آخر. فكّر دانتِس في أن ينادي؛ لكنّه قاس بعينيه المسافةَ فأدرك أنّ صوتَه لن يبلغ السفينة قطّ، إذ سيضيع قبل ذلك في هواء البحر وهدير الأمواج.

هنّأ نفسه إذّاك على الاحتياط الذي كان قد اتّخذه، نقصد احتياطَ الاستلقاء على أحد الألواح. ذلك أنّه لربّما، بعد ما بلغه من وهنٍ، ما

كان ليستطيع البقاء على سطح الماء حتّى يلحق الطّرادة؛ والمؤكّد هو أنّ الطّرادة، إن مرّت من دون أن تراه، وهو أمرٌ ممكن، فإنّه لن يملك من الجهد ما يمكّنه من بلوغ الشطّ.

وعلى الرّغم من أنّ دانتِس كان متيقّنًا من الطّريق التي تسلكها السّفينة، إلا أنّه تابعها بعينيه وضربٌ من القلق يأكله، إلى أن رآها تقلب وجهتها وتعود باتّجاهه.

وتحرك هو باتّجاهها؛ لكن قبل أن يتلاقيا، بدأت السّفينة تقلب اتّجاهها.

وعلى الفور، وبجهدٍ خارقٍ، ارتفع دانتِس في الماء، حتّى كاد يقف فوقه، وأطلق واحدة من تلك الصّرخات الموجعة التي يطلقها البحّارة القانطون، صرخةً بدت كأنّها أنةٌ صادرةٌ عن أحد وحوش البحر.

وهذه المرة رأوه وسمعوه. توقّفت الطرّادة للحظات وأدارت الأشرعة صوبَه. وفي الوقت نفسه رآهم يتهيّأون لإنزال قاربٍ صغير إلى الماء.

وما هي إلا لحظة حتّى كان القارب يتّجه صوبه، يقوده رجلان، يضربان الماء بمجدافَيْهما. فتخلّى دانتِس عن اللّوح الذي قدّر عدم حاجته إليه بعد الآن، وسبح صوبهما، بكل ما أوتيَ من قوّة، حتّى يوفّر عليهما جهد نصف الطّريق.

على أنّ السّباح كان قد عوّل على قواه الخائرة؛ وإذّاك فقط أدرك الفائدة التي كان ينطوي عليها اللوح الذي صار يطفو ساكنًا على بعد مائة متر منه. بدأت ذراعاه تتخشّبان، وفقدت قدماه مرونَتهما، وصارت حركاته صلبة متشنّجة، وكان صدره يلهث.

أطلق صرخة أخرى، فضاعف المجدّفان طاقة حركتهما، وصاح به أحدهم بالإيطالية: تشجّع!

وقد وصلته الكلمة في الوقت الذي لم يعد يملك فيه قوّة ليُبقي نفسه على الماء، ومرّت من فوق رأسه موجةٌ فغطّته بالزّبد.

عاد إلى الظّهور يضربُ الماءَ بتلك الحركات غير المنتظمة واليائسة، حركات رجلٍ يغرق، فأطلق صيحةً ثالثة وأحسّ نفسَه يغوص في الماء كأنّما لا تزالُ قدمه مقيّدة إلى كرة الحديد القاتلة.

مرّ الماء من فوق رأسه، وعبر الماء أبصر السّماء الشّاحبة تطبعها بقع سوداء.

وبجهدٍ جهيدٍ عاد إلى سطح الماء. وخيّل إليه أنّهم يمسكونَه من شعره، ثمّ ما عاد يرى أو يسمع شيئًا، كان قد فقد وعيَه.

وعندما فتح دانتِس عينيه، وجد نفسه على جسر الطرّادة التي كانت تمخر العباب مواصلةً طريقَها؛ أوّل نظرةٍ صدرت عنه، كانت نظرةً مستكشِفة، تحاول تحديد مسار السفينة؛ وقد كانوا يمعنون في الابتعاد عن قلعة إيف.

كان دانتس منهكًا لدرجة أنّ صيحة الفرح التي أطلقها فُهمَت على أنها زفرة ألم.

وكما أسلفنا، كان مضطجعًا على جسر المركب، يفرك ملاحٌ أطرافَه بقماشٍ من صوف؛ وثانٍ (تعرّف عليه، إذ كان هو الرّجل الذي صاح به «تشجّع!») يُدخل في فمه فتحة قربة؛ وثالثٌ، بحّارٌ مسنٌّ، كان هو ربّان المركب والقائد عليها في آنٍ، ينظر إليه بإحساس الشفقة المشوب بالأنانية، ذاك الإحساس الذي يشعر به النّاس عمومًا تجاهَ مصيبة أخطأتهم اليومَ، لكن قد تصيبهم غدًا.

قطراتٌ من شراب الرُّم الذي كانت تحتويه القربة، أنعشَ قلبَ الشّاب، بينما كان الدّلك المتواصل، المنخرط فيه الملاح الجاثي أمامَه، يعيد إلى أطرافه مرونتها.

سأله قائد المركب بفرنسية ركيكة: – من أنت؟

فأجابه دانتِس بإيطالية ركيكة: أنا بحّارٌ مالطي؛ كنا قادمين من سرقوسة (إيطاليا)، محمّلين بالنّبيذ وزيت البانولين. وقد فاجأتنا عاصفة

اللّيلة الماضية عند رأس مورجيو، فتحطَمت سفينتنا على الصّخور التي ترونَها هناك.

– من أين أتيت؟

– من تلك الصّخور التي شاء ليَ حسن حظّي أن أتشبّث بها، في حين تهشّم رأسُ قبطاننا المسكين، وغرق رفاقي الثلاثة الآخرون. أحسب أنّي الناجي الوحيد، لقد لمحتُ مركبكم، وخشية أن أظلّ أنتظر طويلًا على هذه الجزيرة المعزولة هرعت إلى أحد أشلاء سفينتنا كي أحاول القدوم إليكم. شكرًا لكم، فقد أنقذتم حياتي؛ كنت على وشك الهلاك حين أمسكني أحد بحاريكم من شعري.

أجابه الملاحُ ذو السّحنة الصّريحة المنشرحة، التي يؤطّرها عارضان سوداوان كثّانِ: – إنّه أنا؛ لقد وصلنا في الوقت المناسب، إذ كنتَ مشرفًا على الهلاك.

أجابه دانتِس، باسطًا إليه يده: – أجل، أجل يا صديقي، وإنّي لأشكرك مرّةً أخرى.

قال الملاحُ: – يا إلهي! كنت تقريبًا متردّدًا في إنقاذك؛ ذاك أنّ لحيتك بطول ستّ بوصاتٍ، وشعرك الذي يبلغ طولُه قدمًا، يجعلانك تبدو في هيئة رجلٍ شريفٍ بقدر ما تبدو في هيئة قاطع طريق.

تذكّر دانتس أنّه بالفعل، منذ أن دخل قلعة إيف لم يحلق شعره أو يمشّط لحيته.

قال: – أجل، إنّه نذرٌ نذرتُه في نوتردام دِل بي لا غروتا، في لحظةِ خطرٍ، ألا أقصّ شعري أو لحيتي عشر سنين. واليومَ، حيث أكمل العشر سنينٍ، كدت أغرق في عيد ميلادي.

سأله القائد: – والآن، ما نحن صانعون بك؟

أجابه دانتِس: – وا أسفًا! اصنعوا بي ما شئتم. القارب الذي كنت أركبه ضاعَ، والقبطان هلك؛ وكما تروَن فقد نجوتُ من المصير نفسه،

لكنّي نجوتُ عاريًا تمامًا. لحسن الحظّ، أنا ملاّحٌ جيّدٌ، فاتركوني عند أوّل ميناء تنزلونَه، وسأجد لي عملاً على إحدى السفن التجارية.

- أَتعرفُ البحرَ المتوسّط؟

- إنّي أبحر فيه منذ طفولتي.

- أتحسنُ الرسوّ؟

- ليس ثمّة إلا قليلٌ من الموانئ، بما فيها الموانئ الأصعبُ، التي لا أستطيع دخولها بعينين مغمضتين.

قال الملاحُ الذي كان قد صاح بدانتِس يشجّعه: - حسنًا، إن كان ما يقوله هذا الرّفيقُ صدقًا، فما يمنع من أن يبقى معنا؟

ردّ القائد بنبرةٍ مشكّكة: - أجل، إن كان صادقًا، لكن في الحالة التي هو فيها هذا الشّيطان المسكين، بوسعه أن يعِد بالكثير، لكن عند الفعل من يدري ما يكون.

قال دانتِس: - سترى منّي أكثر ممّا وعدتُ به.

قال القائد ضاحكا: - أوه! أوه! سنرى ما يكون.

واصل دانتِس الكلامَ وهو يقف: - إلى أين أنتم ذاهبون؟

- إلى ليفورنو.

- وإذًا، بدلًا من أن تمروا في كلّ هذه الاتّجاهات التي تضيع عليكم وقتًا ثمينًا، لما لا تحاذون الرّيح ببساطةٍ؟

- لأنّنا إذّاك سنسير رأسًا صوبَ جزيرة ريون.

- ستجانبونها بما يفوق عشرين قامةً.

قال القائد: - فلتأخذ إذًا القيادةَ، فنحكم على علمك.

قصد الشّابُ الدّفة يجلس إليها، وتأكّد بضغطٍ خفيفٍ من أنّ المركبة تنقادُ؛ وإذ رأى أنّها تنقادُ، وإن لم تفعل ذلك بيُسر: - صاح: إلى الأذرع وحبال الأشرعة!

توجّه الرّجال الأربعة الذين كانوا يشكّلون الطّاقمَ إلى مواقعهم، بينما القائدُ يتابع بعينيه ما يجري.

واصل دانتِس: - اسحبوا!

نفّذ الملاحون الأمر.

- والآن، اربطوا الشّراع بإحكام!

نُفّذ الأمرُ، كما نُفّذ سابقاهُ، فصاًر المركبُ، بدلًا من أن يواصل سيرَهُ موّارًا، يتقدّم صوب جزيرة ريون، مرّ بجانبها، مثلما قدّر دانتِس، بمسافةٍ تقارب عشرين قامةً.

قال القائد: - برافو!

فردّد الملاحون: - برافو!

وتعلّقت العيون مُعجبةً بهذا الرّجل الذي وجدت نظرتُه حيلةً، وجسدُهُ حزمًا، ما كانا ظاهرَيْن عليه.

قال دانتِس وهو يترك الدّفة: - ها أنتم ترون، قد أكون مفيدًا لكم، أقلّه أثناء هذه الرّحلة. فإن لم ترغبوا بي بعد الوصول إلى ليفورنو، اتركوني هناك؛ وممّا آخذُه راتبًا في شهوري الأولى، سأدفع لكم ثمن مأكلي وما تقرضونيه من ملابس.

قال القائد: - حسنًا؛ يمكن أن نتّفق إن كان المقابل منطقيًا.

أجابه دانتِس: - رجلٌ برجلٍ؛ ما تعطيه للرّفاق أعطنيه، وكلّ شيء يكون على ما يرام.

قال الملاح الذي انتشل دانتِس من الماء: - هذا ليس عدلًا، لأنّك تفوقنا علمًا.

قال القائد: - لمَ تتدّخلُ. فيمَ يعنيك الأمر يا جاكوبو؟ كلٌّ حرٌّ في أن يخدم بالأجر الذي يراه مناسبًا لنفسه.

قال جاكوبو: - معك حقّ؛ إنّما هي فقط ملاحظةٌ أدليتُ بها.

- إذًا، الأجدر بك أن تعطي هذا الشّاب الباسلَ، العاري تمامًا، بنطالًا وسترةً، إن كنت تملك منها غير ما ترتديه.

قال جاكوبو: - كلاّ، لكنّ عندي بنطالًا وقميصًا.

أجابه دانتِس: - ولا أحتاج غير ذلك يا صديقي.

دلف جاكوبو عبر كوّة المركب، ثمّ صعد مجدّدًا حاملًا معه قطعتي ملابس، ارتداهما دانتِس بفرح لا يوصف.

سأله القائد: - والآن، هل يلزمك شيء آخر بعد؟

- كسرة خبز وجرعةٌ أخرى من هذا الرُّم الممتاز الذي ذقتُه؛ إذ مضى عليّ وقت طويل من دون أن أتناول شيئًا.

والحالُ أنّه قد مرّ عليه ما يقارب أربعين ساعةً من دون أن يأكل شيئًا.

أعطوا دانتِس قطعة خبز، وناوله جاكوبو القربة.

«إلى المسيرة!»، صاحَ القبطانُ وهو يستدير شطر قائد الدّفة.

ألقى دانتِس نظرةً في الاتّجاه نفسه وهو يحمل القربة إلى فمه، لكنّ القربةَ ظلّت في منتصف الطّريق.

تساءل القائد: - انظروا! ما الذي يحدث في قلعة إيف؟

وكانت سحابةُ دخانٍ بيضاء، سحابةٌ أثارت انتباه دانتِس، قد ظهرت تكلّلُ أسوار المعقل الجنوبية.

ثانية بعد ذلك، دوّى صوتُ انفجار بعيدٍ فدوى صداهُ على متن الطرّادة.

رفع الملاحون رؤوسهم ينظرُ بعضهم إلى بعض.

تساءل القائد: - ماذا يعني هذا؟

أجابه دانتِس: - لعل بعض المساجين هربوا اللّيلة الماضية، فأطلقت مدافع الإنذار.

ألقى القائد نظرةً على الشّاب الذي، وهو يقول كلماته تلك، كان قد

رفع يده بالقربة إلى فمه؛ لكنّه رآه يتلذّذُ طعم المُسكر الذي تحويه ببالغ الرضا والهدوء، ولو أنّ أدنى شكّ كان قد ساوره، لكان ماتَ في الحال.

قال دانِتس وهو يمسح بكمّ قميصه العرقَ المتلألئ في جبهته: - هو ذا لعمري رُمٌّ قويّ قوّةً شيطانية.

غمغم القائد وهو ينظر إليه: - في جميع الأحوال، إن كان هوَ، فخيرًا، إذ سأكون قد أضفت إلى طاقمي رجلًا أنوفًا.

بدعوى التّعب طلب دانِتس أن يجلس إلى الدّفة. فرح قائدُ الدّفة أن يعفى من مهماته، فوجّه نحو القائد نظرةً من عينيه، فأومأ إليه القائدُ برأسه أن بوسعه ترك الدّفة لرفيقه الجديد.

من موقعه الجديد استطاع دانِتس أن يبقي نظره على مارسيليا.

سأل دانتس جاكوبو الذي أتى يجلس بجانبه، وقد غابت عن أنظارهم قلعة إيف:

- في أيّ يوم من الشّهر نحن؟

أجابه جاكوبو: - الثامن والعشرون من شهر فبراير.

- من أيّ سنة؟

- كيف من أيّ سنة! أتسألني في أيّ سنةٍ نحن؟

- أجل، إنّي أسألك في أيّ سنةٍ نحن.

- هل نسيت في أيِّ سنةٍ نحن؟

قال دانِتس ضاحكًا: - وماذا تنتظر! لقد غشيني رعبٌ كبيرٌ اللّيلة الماضية، حتّى كدتُ أفقد صوابي؛ لدرجة أنّ ذاكرتي ظلّت مشوّشةً، لذا فأنا أسألك نحن في أيّ سنة؟

أجاب جاكوبو: - سنة 1829.

مرّت أربع عشرة سنةً كاملةً منذ أن سُجن دانِتس.

دخل قلعة إيف وهو ابن التّاسعة عشر وخرج منها يعدّ من السّنين ثلاثًا وثلاثين.

عبرت شفتيه ابتسامةٌ مريرة؛ وتساءل عمَّ قد يكون حلّ بمرسيدس أثناء تلك السّنين، حيث ستكون قد حسبته ميّتًا. ثمّ اشتعلت عيناه بوميض حقدٍ وهو يتذكّر الرّجال الثلاثة المدينين له بأسر طويلٍ قاسٍ. فكان أن جدّد، ضدّ دانغلار وفرنان وفيلفور، قسَمَ الانتقام الرّاسخ الّذي كان قد أقسمه في السّجن.

وهذه المرّة لم يكن القسم مجرّد تهديد عبثًا، إذ في تلك اللّحظة حتّى أرشقُ سفينةٍ شراعيةٍ ما كانت لتستطيع اللّحاق بالطّرادة الصّغيرة التي تمضي بأقصى سرعتها صوبَ ليفورنو.

22

المهرّبون

ولم يمضِ على دانتِس يومٌ، على متن السّفينة، حتّى كان قد خبِر ماءَها. فعلى الرّغم من أنّ ربّان **أميليا الشّابة** (كذلك كان اسم الطرّادة الجنوية) الكُفؤ، لم يتتلمذ على يد الأب فاريا، إلا أنّه كان يعرف تقريبًا كلّ اللغات التي يُتحدَّث بها حول البُحيرة العظيمة التي تُسمّى الحوض البحر الأبيض المتوسّط، كلّ اللغات، من العربية حتّى البروفنسالية[1]. وإذ كانت معرفته باللّغات تلكَ تجنّبه التعامل مع المترجمين، أولئك النّاس المزعجين دومًا وغير الكتومين أحيانًا، فإنّها كانت تمنحه تسهيلات كبرى في التواصل، سواء مع المراكب التي يلتقيها في البحر أو القوارب الصغيرة التي يحملها على امتداد الشّواطئ، أو، أخيرًا، مع الرّجال الذين لا اسم لهم، ولا وطنَ، ولا حالة ظاهرة، كما هو الدّأبُ دومًا على أرصفة الموانئ، يعتاشون من تلك الموارد الغامضة والخفيّة التي يجدر الاعتقاد في أنّها تأتيهم رأسًا من يد القدر، ما داموا لا يملكون أيّ وسيلةٍ للعيش ظاهرةٍ للعين المجرّدة. كان واضحًا إذًا أنّ دانتِس قد صعد سفينة مهرّبين.

لذا كان قائد السّفينة قد استقبل دانتِس على متن سفينته بشيء من التوجّس. لقد كان معروفًا لدى كلّ رجال الجمارك في السّاحل، وبما أنّه كان يحصل تبادلُ مكائد بينه وبينهم، فقد فكّر أوّل ما فكّر في أنّ

(1) لُغة أقليّة، جنوبَ فرنسا.

دانتِس مبعوث من عند مصلحة ضرائب الملح، التي دأبت على نهج هذا النهج الماكر لكي تخترق بعض أسرار المهنة. بيد أنّ الطريقة البارعة التي خرج بها دانتِس من الاختبار الذي وضعه فيه القائد، أقنعت القائد كلّ القناعة؛ ثمّ بعد ذلك، حين رأى ذاك الدّخان الخفيف يتماوج مثل سحابةٍ فوق قلعة إيف، وسمع من بعيدٍ صوت دويّ الانفجار، خطرت في نفسه للحظة فكرة أن يكون قد استقبل على متن سفينته ذاك الذي تطلَق المدافع على شرفه، كما تطلق للملوك أثناء خروجهم أو دخولهم؛ والحقّ يقال كان هذا الهاجس يشغل باله أقلّ ممّا يشغله هاجسُ أن يكون الرّجلُ جمركيًا؛ لكن ما لبث هذا الشكّ أيضًا أن تبدّد، كما تبدّد سابقه، ما إن رأى شدّة هدوء ضيفه.

كان لدانتِس إذًا امتياز معرفة من يكون ربّانه، من دون أن يعرف ربّانه من يكون هو؛ وكيفما هاجمَه البحّارة المحنّكون، أو رفاقُه، كان يضبط نفسه، فلم يحصلوا منه على اعتراف، معطيًا تفاصيل دقيقة عن نابولي ومالطة، اللتين كان يعرفهما كما يعرف مارسيليا؛ وبصرامةٍ، تعبّر عن قوة ذاكرتَه، كان يحفظ تفاصيل ما حكاه أوّل مرّة. وكان الجنَوي إذًا، مع ما يتمتّع به من شدّة حرصٍ، هو من وقع ضحيّة مكر إدمون الذي أفاده لطفه وحنكته الملاحية، وخاصّة دهاؤه في التّخفّي.

ثمّ لعل الجنوي أحد أولئك الرّجال العقلاء، الذين لا يعرفون إلا ما ينبغي عليهم معرفته، ولا يصدّقون إلا ما ينفعهم.

وفي ظلّ تلك الوضعية المتبادلة إذًا، وصلت السّفينة إلى مدينة ليفورنو.

وكان على دانتِس أن يجرّب أمرًا: - أن يتعرّف على نفسه؛ فطيلة أربعة عشر عامًا، قضاها في السّجن، لم ينظر إلى صورته؛ كان يحفظ صورةً دقيقةً عمّا كانَه شابًا، وكان عليه أن يتعرّف على نفسه الآن رجلًا.

وبالنّسبة إلى رفاقه، كان قد وفى بنذره. وبما أنّه كان، في ما مضى، قد رسا عشرين مرّةً في ليفورنو، فقد كان يعرف حلّاقًا في شارع سانفردينان. قصدَ الحلاق إذًا ليحلق شعره وذقنه.

نظر الحلاق بذهولٍ إلى هذا الرّجل ذي الشّعر واللّحية الكثيفين والسّوداوين، الشّبيه بأحد تلك الوحوش التي يرسمها تيتيان. ولم تكن بعدُ قد انتشرت آنذاك موضة إرسال الشّعر واللّحية إلى هذا الحدّ. بينما اليوم قد يدهش الحلاق من أنّ رجلًا أوتيَ قدرًا من فطنة وبسطة في الجسم، يحرم نفسه من ذلك.

شرع الحلاق الليفورنوي في العمل من دون أن يبديَ أيّ تعليق.

وحين أُنجزَ العملُ، وشعر دانتِس بذقنه حليقًا تمامًا، وصار شعره مقصوصًا إلى طولٍ طبيعي، طلب مرآةً، ونظر إلى نفسه فيها.

كان سنّه، كما أسلفنا، ثلاثةً وثلاثين عامًا، وقد خلّفت السنون الأربع عشرة التي قضاها في السّجن كبيرَ الأثر في ملامحه.

لقد دخل دانتِس السّجن، بوجهٍ مستدير ضاحك ومزهر، وجهِ رجلٍ سعيد، وجهٍ يعكس أنّ صاحبه شبّ في حياةٍ ميسّرة، ويأملُ في مستقبلٍ لا يقلُّ يسرًا عن ماضيه: - لكنّ كلّ ذلك تغيّر.

الوجه الدّائريّ استطالَ، والفم الضاحكُ اكتسب تلك الملامح الصارمة والجامدة التي تشي بالحزم؛ حاجباهُ تقوّسا تحت تجعيدة واحدة، مقطّبة؛ ووعيناه انطبعتا بحزنٍ عميق، حزنٍ يبرق، بين الفينة والأخرى، ببروقٍ كامدة، بالكراهية وبغض البشر؛ وبشرته التي ظلّت طويلًا بعيدة عن ضوء النّهار وأشعّة الشّمس، اتّخذت ذاك اللّون الكامد الذي يمنح ناسَ الشمال جمالًا أرستقراطيًّا، حين يحدّ وجوههم شعرٌ أسود؛ وفضلًا عن ذلك كان العلمُ الذي حازهُ يعكس في وجهه هالة من الفطنة المطمئنّة؛ ثمّ إنّه، فضلًا عن قامته الطّويلة بما يكفي، حازَ تلك الصلابة التي تميّز جسدًا يستجمعُ على الدّوام قواه في ذاته.

وخَلفَت أناقةَ تضاريس الجسم المعروقة الناحلة، صلابةُ التضاريس المستديرةُ القويّةُ العضلات. أمّا صوتُه، فقد غيّرته الصلوات، والصرخات، واللّعنات، فتارة تنطبع عليه نبرة عذوبة غريبة، وطورًا حدّة خشنة تكاد تكون شجنًا.

زد على ذلك أنّ عينيه كسبتا قدرة تمييز الأشياء ليلًا، كما تفعلُ عينا الضّبع والذئب.

ابتسم دانتِس وهو يتأمّل نفسه. كان من المستحيل أن يتعرّف عليه حتّى أقرب أصدقائه، هذا إن كان لا يزال لديه صديق: هو نفسه لم يتعرّف نفسَه.

كان ربّان **أميليا الشّابة**، حرصًا منه على أن يحافظ ضمن طاقمه على رجلٍ من قيمة دانتِس، قد عرض عليه نصيبًا ممّا سيجنيه معهم مستقبلًا، وقبلَ عرضَه؛ فكان أوّل ما حرص عليه، ما إن خرج من عند الحلّاق الذي أجرى على يديه ذاك التحوّل الأوّل، هو الدّخول إلى محلّ ثياب، وشراء زيّ بحار كامل. وهو زيّ، كما نعلم، بسيطٌ غاية البساطة: سروالٌ أبيض، وقميص مخطّط، وقبّعة فريجيّة.

وبذاك الزيّ رجع إدمون، وأعاد إلى جاكوبو قميصه وسرواله اللّذين كان قد استعارهما منه، وقابل ربّان **أميليا الشّابة**، الذي اضطرّ إلى أن يعيد على مسمعه مرّة أخرى قصّته. ولم يستطع الرّبان أن يتعرّف، في البحار الوسيم والأنيق الواقفِ أمامهُ، الرّجلَ ذا اللحية الكثيفة والشّعر المجنون والجسد المبتلّ بالماء، الذي كان قد استضافه عاريًا محتضرًا على متن سفينته.

مأخوذًا بحسن سمتِ الشّاب، جدّد الرّبان عرض تشغيله معه؛ لكنّ دانتِس الذي كان يجهّز لمشاريعه الخاصّة، لم يقبل بالعمل أكثر من ثلاثة أشهر.

وكان طاقم **أميليا الشّابة**، طاقمًا شديد النّشاط، وخاضعًا لأوامر قائدٍ

لم يعتد تضييع الوقت. فلم تكد تمر عليهم ثمانية أيّام في ليفورنو، حتّى كانت جوانب السّفينة مملوءة بقماش الموسلين المصبوغ، والقطن المحظور، والبارود الإنجليزي، والتبغ الذي أغفل مكتب التّبغ خَتمَه. وكان عليهم أن يُخرِجوا كلّ تلك البضاعة من ليفورنو، ويُنزِلوها بساحل كورسيكا، وهناك يتكفّل بعض السّماسرة بشحن البضاعة وإدخالها إلى فرنسا.

انطلقوا؛ وها إدمون يمخر مرّة أخرى عباب ذاك البحر اللازورديّ، أوّل الآفاق التي عرفها يافعًا، والتي ما انفكّ يراها في أحلامه أثناء فترة السّجن. وقد ترك عن يمينه غورغونيا، وعن شماله بيانوزا، وسار متقدّمًا صوبَ وطن باولي ونابليون.

وفي اليوم التالي، حين صعد القائد إلى جسر السّفينة مبكّرًا، على دأبه دومًا، ألفى دانتس متّكئًا على حاشية المركب يتأمّل بملامح غريبة ركامًا من صخور الصّوّان تغمرها الشّمس الطّالعةُ بنورٍورديّ: كانت تلكم جزيرة مونت كريستو.

تركت **أميليا الشّابةُ** الجزيرةَ عن ميمنتها بنحو ثلاثة أرباع فرسخٍ، وواصلت مسيرها صوب كورسيكا.

كان دانتِس يفكّر، وهو يتأمّل هذه الجزيرة ذات الاسم الرّنان بالنّسبة إليه، أنّه لا يحتاج إلا أن يقفز في الماء، وما هي إلا نصف ساعةٍ حتّى يكون قد بلغ الأرض الموعودة. لكن، ما الذي سيكون بوسعه أن يفعله هناك من دون عتادٍ يلتمس به كنزه، أو سلاح يذود به عن نفسه؟ ثمّ ما الذي سيقوله الملاحون؟ وماذا قد يخطر ببال القائد؟ كان عليه إذًا أن ينتظر.

ولحسن الحظّ، كان دانتِس يتقن الانتظار. لقد انتظر حريّته أربع عشرة سنةً؛ بوسعه إذًا الآن، وقد صار حرًّا، أن ينتظر الثروةَ ستّة أشهر أو سنةً.

أوَلم يكن ليرضى بالحريّة من دون غنىً، لو عُرضت عليه؟

ثمّ أليست تلك الثروة مجرّد خيال؟ خيال وُلد في الذهن المريض، ذهن الرّاهب المسكين فاريا، وقد مات معه؟

لكن رسالة الكاردينال سبادا تلك، كانت تتمتّع بدقّةٍ غريبة. وتلا دانتِس في ذاكرته الرّسالة من أقصاها إلى أقصاها، الرّسالة التي ما نسيَ منها كلمةً.

ثمّ أتى المساء؛ وقد رأى إدمون الجزيرة تصطبغ بكلّ الألوان التي يحملها الغروب معه، ثمّ تغيب في الظّلام، فتختفي عن أنظار الجميع؛ ما عداه هو، بنظرته الدربة على عتمة السّجن، ظلّ يرى الجزيرة قطعًا، إذ ظلّ وحدَه على الجسر.

وفي اليوم التالي، استفاقوا وقد بلغوا مستوى بلدية عَلّالية (كورسيكا). وقد قضوا اليوم يجولون في عرض البحر، ومساءً أوقدت الأضواء على الشطّ. ومن شكل الأضواء عرفوا قطعًا أنّ بوسعهم الرسوّ، إذ عُلّق فانوسٌ صغير على جناح المركب الصّغير، فاقتربوا حتّى صاروا على مرمى بندقيّة من السّاحل.

وكان دانتِس قد لاحظ أنّ قائد **أميليا الشّابة**، بباعثٍ من هذه الملابسات المهيبة قطعًا، قد وضع على أحد متّكآت السّفينة، بينما يقتربون، حنشيّةً[1] شبيهةً ببنادق المتاريس، بمقدورها، من دون أن تحدث ضجيجًا، أن ترسل رصاصةً جميلةً من تلك التي تُشترى منها أربعةٌ بجنيهٍ، ويبلغ مداها ألف متر.

بيد أنّ احتياطاته تلك الليلة ظلّت شكليّة ليس إلا؛ إذ مرّ كلّ شيء كأهدأ وألطف ما يكون. اقتربت ثلاثة قوارب بصوت هادئ من المركب الذي، تشريفًا لها بلا ريب، أنزلَ قاربَه الخاصّ؛ وبما أنّ عدد القوارب لم يكن يتجاوز خمسةً، فقد اجتهدت غايةَ الجهد، حتّى إنّه مع حلول الثانية صباحًا كانت البضاعة كلّها قد نُقلت من **أميليا الشّابة** إلى البرّ.

---

(1) مدفع صغيرٌ قديمٌ، يشبه في شكله الحنَش، ومن هنا تسميّته.

وبما أنّ قائد **أميليا الشّابة** كان رجلًا حقّانيًا، فقد وُزّعت المكافأة في اللّيلة نفسها: حصل كلّ رجلٍ على مائة جنيه توسكانيٍّ، أي ما يقاربُ ثمانين فرنكًا بنقدنا.

على أنّ الطّلعةَ لم تكن قد انتهت؛ إذ أقلعوا باتّجاه سردينيا. فقد كان عليهم إعادة تعبئة المركب الذي أفرغوه قبل قليل.

مرّت العمليّة الثانية كما مرّت سابقتها؛ وكانت **أميليا الشّابة** تغرق في السّعادة.

وكانت الحمولة الجديدة موجّهةً إلى دوقية لوكا[1]، وتكاد تقتصر على سيجار هافانا، ونبيذ شريش (خريز/ الأندلس) ومالَقة.

وهنا حدثت لهم مشكلةٌ مع مكتب ضريبة الملح، العدوّ الأزليّ لقائد **أميليا الشّابة**. سقطَ جمركيٌّ صريعًا، وأصيب ملّاحان. وكان دانتِس أحد الملّاحَين اللّذين أصيبا؛ اخترقت رصاصةٌ لحمَ كتفه اليسرى.

كان دانتِس تقريبًا سعيدًا بهذه المشادة، وشبه فرحٍ بالطّلقة التي أصابته. فقد أبانت له تلكما المعلمتان القاسيتان (المشادّة، والإصابة) أيّ عينٍ صار ينظر بها إلى الخطر، وأيّ قلبٍ صار يصبر به على الألم. لقد أبصر الخطرَ ضاحكًا، واستقبل الضربة مردّدًا قول الفيلسوف اليونانيّ: «أيّها الألم، إنّك لستَ شرًّا[2]».

وفضلًا عن ذلك كان قد فحص الجمركيّ الصّريع، وبباعث من حرارة دمه في المعركة، أو برودة مشاعره الإنسانية، لم يخلّف المنظر في نفسه إلا قليلَ أثرٍ. لقد كان دانتِس على الطّريق التي ارتضاها لنفسه، وكان يسير رأسًا صوبَ الهدف الذي يريد بلوغَه: كان قلبُه يتحجّر في صدره.

---

(1) كانت دويلة إيطاليةً ما بين 1815 و1847.

(2) ينسب القولُ إلى مذهب الرّواقيّين.

ثمّ إنّ جاكوبو، وقد رآه يسقط، ظنَّه هلَكَ، فهرع إليه، وأعانه على الوقوف، وإذ وقف، عالجه كما هو حريّ برفيق وفيّ.

لم يكن العالم إذًا بالخير الذي كان يراه به الدكتور بانغلوس[1]؛ لكنّه لم يكن أيضًا بالشّر الذي يراه به دانتِس، ما دام هذا الرجل، الذي لم يكن ليأمل في رفيقه إلا أن يرث حصّته من المكافآت، قد أحسّ بضيقٍ شديد وهو يظنّهُ ماتَ.

ولحسن الحظّ لم يمت دانتِس، كما أسلفنا، وإنّما فقط أصيبَ. وبفضل بعض الأعشاب التي جمعتها عجائز ساردينيات في ما مضى، وبعنَها للمهرّبين، اندمل الجرح سريعًا. أرادَ إدمون إذّاك أن يختبر جاكوبو، فعرض عليه حصّته من المكافآتِ نظيرَ عنايته به، لكنّ جاكوبو رفض غاضبًا.

ونتج عن هذا الضّرب من الولاء الودود الذي خصّ به جاكوبو إدمون منذ أوّل لحظةٍ رآه فيها، أن محضَه إدمون بعضًا من ودّ. على أنّ جاكوبو لم يكن يطلبُ أكثر من ذلك، فقد كان استشعرَ غريزيًا ذاك التفوّقَ الذي جاهدَ إدمون في إخفائه عن الآخرين. وبما منحه إدمون، كان البحّارُ الشّهمُ راضيًا.

لذا، أثناء النّهارات الطويلة على متن المركب، حين كان هذا يجري مطمئنًا على البحر اللازوردي، غير محتاج، بفضل الرّيح المواتية التي تنفخ أشرعته، إلا إلى عونِ قائد الدّفة؛ قلناً أثناء تلك النّهارات الطويلة، كان إدمون، يحمل خريطةً بحريّة بيده، يتقمّص دور المعلّم مع جاكوبو، تمامًا مثلما كان يفعل معه الرّاهب المسكين فاريا. فكان يريه زوايا اتّجاه السواحل، ويشرح له اختلافات البوصلة، ويعلّمه قراءة الكتاب الكبير المشرع فوق رؤوسنا، الكتاب الذي نسمّيه سماءً، والذي كتب الرّب في عرضه بحروف من لؤلؤ.

(1) معلّم كانديد في قصّة فولتير الفلسفية الشّهيرة «كانديد أو التّفاؤل».

وحين كان جاكوبو يسألُه:

- فيمَ يفيد نوتيًا مسكينًا مثلي، أن يتعلّم هذه الأشياء؟

قام إدمون يجيبُه: - من يدري؟ ربّما تكون يومًا ما قبطانًا على سفينةٍ: أولم يصِر مواطنُك بونابرت إمبراطورًا؟

وقد نسينا أن نقول إنّ جاكوبو كان كورسيكيًا.

انطوى شهران ونصف شهر في تلك السفريات المتتالية. وكان إدمون قد صار ملّاحًا ماهرًا، بقدر ما كان في ما مضى بحّارًا محنّكًا؛ وقد ربط علاقاتٍ مع كلّ المهرّبين في السّاحل؛ وحفظ كلّ الإشارات الماسونية التي يستخدمها أنصاف القراصنة أولئك، ليتعرّفوا على بعضهم.

وكان قد مرّ عشرين مرّة من أمام جزيرته، مونت كريستو، من دون أن يحظى في مرّة من تلك المرّات، بفرصة النزول إليها.

حزم أمره:

ما إن ينهي التزامَه مع قائد **أميليا الشّابة**، حتّى يستأجر زورقًا صغيرًا لحسابه (وكان دانتِس يستطيع ذلك، إذ جمّع في أسفاره المتعدّدة مئات القطع النقدية)، ومتحجّجًا بأيّ دعوى سيقصد جزيرة مونت كريستو.

وهناك سيقوم بأبحاثه بكامل الحريّة.

ليس بكامل الحريّة، إذ من المؤكّد أن يتجسّس عليه أولئك الذين سيوصلونه بالقارب.

لكن في هذا العالم على المرء أن يجازف بعض الشّيء.

لقد صيّرَ السّجنُ إدمون حذرًا، وكان يودّ لو أنّه لا يجازف بشيء.

وقد أعيا مخيّلَته تفكيرًا، فلم تسعفه، رغم خصوبتها، بوسيلةٍ لبلوغ جزيرته المنشودة، اللهم إلّا دفعهم إلى أخذه إليها.

وكان دانتِس يموج في هذا التردّد، حين أتاه الرّبان ذات يوم، وكانت ثقته فيه قد تعاظمت وودّ لو يستبقيه في خدمته، فأخذه من

ذراعه واصطحبه إلى مغارة فيا ديل أوليو، التي كانت المقرَّ الذي اعتاد الاجتماعَ فيه أباطرةُ التهريب بليفورنو.

ذلكم كان المكان الذي تُعقد فيه عادةً الصفقات التي تجري على السّاحل. وكان دانتِس قد ولج مرّتين أو ثلاثًا من قبل إلى هذه البورصة البحريّة؛ وإذ رأى كلّ أولئك القراصنة الصناديد الذين يجود بهم ساحلٌ يكاد محيطه يبلغ ألفي فرسخ تقريبًا، تساءَل أيّ قوّة قد يتملّكها مَنْ يقدر أن يصبّ اندفاع إرادته في كلّ هؤلاء الرّجال مجتمعين أو فرادى.

وهذه المرّة كانت المسألة تتعلّق بصفقةٍ كبيرة: صفقة سفينةٍ محمّلة بالبُسط التركية، وأقمشة الشّرق وكاشمير؛ وكان ينبغي إيجاد أرضٍ محايدة تتمّ فيها المبادلة، ومن ثمّ محاولة إنزال تلك البضائع على سواحل فرنسا.

وكانت المكافأة، في حال النّجاح، عظيمةً: خمسين إلى ستين بياسترا[1]، لكلّ رجل.

واقترح ربّانُ **أميليا الشّابة** أن ينزلوا بجزيرة مونت كريستو، باعتبار أنّها كانت قفرًا، ولا جندَ فيها أو جمارك، وتبدو كأنّما وضعت وسط البحر زمنَ آلهة الأولمب الوثنية، من طرف الإله مركور، إله التّجار واللّصوص، تلكما الطّبقتان اللّتان صرنا اليوم إلى الفصل بينهما أو أقلّه تمييزهما تمييزًا، بينما كانت الأزمنةُ الغابرة على ما يبدو تضعهما في طبقةٍ واحدة.

ولمّا سمع دانتِس اسم مونت كريستو، كاد يرقص فرحًا؛ فوقف ليتمكّن من إخفاء فرحته، وجال جولةً في المغارة الممتلئة دخانًا، حيث اجتمعت كلّ ألسن العالم لتتوحّد في لغة واحدةٍ، اللّغة الإفرنجية.

وعندما دنا مجدّدًا من المتفاوضَين، سمعهُما يقولان إنّهما سيُنزلان

---

(1) البياسترا Piastra، كانت العملة الرّائجة في حوض البحر الأبيض المتوسّط.

القلوعَ بجزيرة مونت كريستو، وأنّ الإبحار نحوها سيبدأ من الليلة المقبلة.

وإذ التمسا مشورةً من دانتِس، وافقهما الرّأيَ في أنّ الجزيرة تمنحُ كلّ أسباب الاطمئنان، وأنّ العمليات الكبرى يتطلّب نجاحُها سرعة التنفيذ.

لم يُغيّر إذًا شيء في البرنامج المتّفق عليه. اتّفقوا على أن ينطلقوا في غداة اجتماعهم، وأن يسعوا، ما دام البحر هادئًا والرّيح مواتية، إلى أن يوافوا في اليوم الذي بعدَه مياهَ الجزيرة المحايدة.

23

جزيرة مونت كريستو

أخيرًا، وبفضل حظٍّ لم يكن يرجوه، حظّ يصيبه أحيانًا أولئك الذين أرهقتهم طويلًا قسوة القدر، قلنا أخيرًا تمكّنَ دانتِس من أن يبلغ هدفَه بطريقة بسيطية وطبيعية، ويطأ بقدمه الجزيرة من دون أن يوقظ الشكوك في أيٍّ كان.

لم يعد يفصله عن انطلاقته المرتقبة إلا اللّيل.

وكانت تلك اللّيلة إحدى أحمِّ اللّيالي التي مرّت على دانتِس. فأثناء هذه اللّيلة عنّت بخاطره، واحدة تلو أخرى، كلُّ الحظوظ الجيّدة والسيّئة. وإن هو أغلق عينيه بدت له رسالةُ الكاردينال سبادا مكتوبةً بأحرفٍ وهّاجة على الجدار؛ وإذا ما غفا هنيهة رجّت ذهنَه الأحلام الأشدّ عبثيّة. كان ينزل في مغاورَ بلاطُها زمرّد، وجدرانها ياقوتٌ، وسقوفها ألماس. وكانت اللآليء تتساقطُ قطرةً قطرةً، كما ترشحُ عادةً المياه الجوفيّة.

وإدمون، راضيًا، مفتونًا، يملأ جيوبَه بالأحجار الكريمة؛ ثمّ لا يلبث أن يعود إلى الواقع، فتنقلب تلك الأحجارُ الكريمةُ أحجارًا وكفى. وإذّاك يحاول أن يعود إلى تلك المغارات العجيبة، التي بالكاد لمحها؛ بيد أنّ الطّريق تتلوّى في دوائر حلزونية لا نهاية لها: وها قد عاد المدخلُ لا مرئيًا. يحاولُ عبثًا في ذاكرته استحضار تلك الكلمة العجيبة والغامضة التي تفتح للصيّاد العربيّ باب مغارة علي بابا المذهلة. لكن بلا فائدة؛ الكنزُ المفقود قد غدا ملكًا لجنّ الأرض، بعدما كان قد أملَ لوهلةٍ في انتزاعه منهم.

وأتى الصّبح محمومًا قدْرَ ما كان اللّيلُ؛ لكنّه حمل معه المنطق يعينُ المخيّلةَ، واستطاع دانتِس أن يستقرّ على خطّةٍ كانت حتّى تلك اللّحظة مبهمةً وعائمةً في دماغه.

ثمّ حلّ المساءُ، ومع المساءِ استعداداتُ الانطلاق. وكانت تلك الاستعدادات بالنّسبة إلى دانتِس وسيلةً يخفي بها استثارتَه. وشيئًا فشيئًا، كان قد فرض على رفاقه تلك السّلطة، سلطة إدارتهم كأنّما هو صاحب المركب؛ وبما أنّ أوامره كانت دائمًا واضحةً ودقيقة وسهلة التنفيذ، فقد كان رفاقه يطيعونَه، ليس بسرعةٍ فقط، وإنّما أيضًا برضًا.

وقد كان البحّار الشّيخُ يتركُه يفعل ذلك. إذ كان قد أقرّ هو أيضًا بتفوّق دانتِس على باقي النوتيّة، لا بل وعليه هو نفسه. لقد كان يرى في الشّاب خليفته الطبيعي، ويأسَفُ لأنّه لم تكن لديه ابنةٌ، حتّى يربط دانتِس بذاكَ الرّباط الأسمى.

عند السّاعة السّابعة، كان كلّ شيء جاهزًا؛ وعند السّابعة وعشر دقائق كانوا يتجاوزون الفنار في اللّحظة نفسها التي أُضيء فيها الفنار.

كان البحر هادئًا: - الرّيح باردة تهبّ من الجنوب الشرقيّ، والسّفينة تبحرُ تحت سماءٍ صافية، حيث يضيء الرّبُ بدوره فناراته واحدًا تلو الآخر، تلك الفنارات التي كلّ واحدٍ منها عالمٌ بأكمله. أعلن دانتِس أنّ بإمكان الجميع الذّهاب إلى النّوم، وأنّه سيتكفّل بالقيادة.

وكان يكفي أن يعلن المالطيّ (هكذا كانوا يسمّون دانتِس)، عن ذلك، لكي يذهب الجميع إلى النّوم هانئين.

يحدث أحيانًا لدانتِس، وهو الذي ألقي به في عزلة العالم، أن يشعر بين الفينة والأخرى بالحاجة الملحّة إلى العزلة. وأيّ عزلةٍ أعظمُ وأكثر شاعريّة من عزلةِ مركبٍ يطفو منعزلًا على مياه البحر، يكتنفه ظلام اللّيل، في صمت الشّساعة وتحت بصر الربّ؟

هذه المرّة، كانت العزلةُ مأهولةً بالفِكَر، واللّيلُ تنيرُه الأوهامُ، والصمتُ ترجُّه الوعودُ.

وحين استيقظَ القائدُ، كانت السّفينةُ تسير باسطةً أشرعتها كلّها؛ ولم يكن ثمّة ولا قطعةُ قماشٍ واحدة لم تنفخها الرّيح؛ فكانوا يقطعونَ ما يفوق فرسخين ونصفًا في ساعةٍ واحدة.

وما انفكّت جزيرةُ مونت كريستو تتعاظمُ في الأفق.

أعاد إدمون دفّة القيادة إلى صاحبها، وذهب يستلقي بدوره على الحمّالة؛ لكن، على الرّغم من ليلته البيضاء، لم يقدر أن يغمض جفنه ولا لحظة.

وبعد ساعتين عاد إلى سطح السّفينة؛ كانت السّفينة تجاوزُ جزيرة إلبا. كانوا على مستوى جزيرة ماريسيانا وتحت جزيرة بيانوزا المنبسطة الخضراء. وقد صارت تُرى مرتفعةً في السّماء الصّافية ذروةُ مونت كريستو الوهّاجة.

أمر دانتِس قائد الدّفة بأن يدير الدّفة إلى الميسرة، حتى يترك بيانوزا عن يمينه؛ فقد حسب أنّ هذه العمليّة قد تقصّرُ المسافة بعقدتين أو ثلاث.

وحوالى السّاعة السّادسة، صارت تُرى، جزيرة مونت كريستو بأكملها. كانت تفاصيلها كاملة واضحة، بفضل الطّقس الرّائق الذي يميّز الضّوء الذي تسكبه أشعّة الشّمس ساعة غروبها.

كان إدمون يلتهم بعينيه ذاك الرّكام من الصّخور الذي يمرُّ عبر ألوانِ الغروب كلّها، بدءًا من الورديّ الفاقع وحتّى الأزرق الغامق؛ وبين الفينة والأخرى كانت تصعد إلى وجهه دفقاتٌ حارقة؛ كانت جبهته تتضرّجُ بالحمرة، وأمام عينيه تمرُّ سحابةٌ أرجوانيّة.

ولا حتّى مقامرٌ، يقامر بكلّ ما يملك، لم يكن ليحسّ القلق الذي كان يشعر به إدمون وهو في نوبات رجائه تلك.

ثمّ حلّ اللّيل. وفي السّاعة العاشرة ليلًا دخلوا الجزيرة. كانت **أميليا الشّابة** أولى السّفن الواصلة.

وعلى الرّغم من قدرة دانتِس على التحكّم في أهوائه إلا أنّه لم يستطع

تمالك نفسه. كان أوّل القافزين إلى الساحل؛ ولو أنّه جرؤ على أن يفعل مثل فعلة بروتوس لكان قبّل الأرضَ.

كان اللّيل حالكًا؛ لكن في الحادية عشرة ارتفع القمر في عرض البحر، وصار يسكب على كلِّ اختلاجةٍ فيه لونًا فضيًا؛ ثمّ، بقدر ما كان يرتفعُ، صارت أشعّتُه تنهالُ شلّالاتٍ بيضاءَ من نورٍ على ركام الصّخور، صخور هذه الجزيرة التي هي بمثابةِ بيليون (اليونانً) ثانية.

كانت الجزيرة مألوفةً لدى طاقم **أميليا الشّابة**، فهي محطّة اعتيادية بالنّسبة إليهم. أمّا دانتِس، فقد كان يمرّ منها في كلّ رحلةٍ من رحلاته إلى بلاد الشّام، لكنّه لم ينزل بها قطّ.

سألَ جاكوبو.

- أين سنقضي ليلتنا؟

فأجابه البحّارُ: - على متن الطّرادة.

- أوَليس أفضل لنا أن نقضيها في المغارات؟

- أيّ مغارات؟

- مغارات الجزيرة.

أجاب جاكوبو: - لا أعرف أيّ مغاراتٍ.

سال جبين دانتِس بعرقٍ بارد.

سألَ: - ألا توجد مغاراتٌ بمونت كريستو؟

- كلاّ.

ظلّ دانتِس لوهلةٍ دائخًا؛ ثمّ ما لبث أن فكّر في أنّ تلك المغارات قد تكون رُدمت منذ ذاك الزّمن، بفعل حادثٍ من الحوادث، أو لربّما يكون الكاردينال سبادا قد أغلقها إمعانًا في الاحتياط. المهم إذًا، والحالُ هذه، هو إيجاد الفتحة الضّائعة. ولا فائدة من البحث عنها ليلًا. فكان أن أجّل دانتِس إذًا بحوثه إلى الغد. ثمّ إنّ إشارةً كانت قد أومضت على بعد نصف فرسخٍ في البحر، وردّت عليها **أميليا الشّابة** بإشارة مماثلة، وكان ذلك علامةً على أنّ وقت البدء في العمل قد حان.

وإذ تلقّت السّفينة، الواصلة متأخّرةً، الإشارة التي كان هدفها تطمينها على أنّ المكانَ آمنٌ، وبوسعها أن تدنوَ، تقدّمت على الفور بارزةً بيضاء صامتةً كشبحٍ، وألقت مرساتها على مقربة من السّاحل.

وعلى الفور بدأ نقل البضاعة.

كان دانتِس يفكّر، وهو منهمك في العمل، في هتاف الفرح الذي يمكن أن يتسبّب به بين هؤلاء الرّجال، لو أنّه يفصح بصوتٍ عالٍ عن الخاطرة الملحّة التي تتردّد هامسةً في أذنه وقلبه. لكنه، على النّقيض من ذلك، بدلًا من أن يبوح بسرّه المذهل، كان يخشى أن يكون قد أفصح أكثّر ممّا ينبغي، وأن يكون قد أيقظ الشّكوك بسبب كثرة ذهابه وغيابه، وأسئلته المتكرّرة، وملاحظاته الدقيقة وانشغاله المتواصل. لكن لحسن الحظّ، من هذه النّاحية على الأقل، كان ماضيه المؤلم يعكس على صفحة وجهه حزنًا لا يمّحي، وأشعّة البهجة التي بالكاد تلمح خلَال تلك الغيمة، لم تكن في الواقع إلا بروقًا.

لم يكن أحدٌ يرتاب في شيءٍ، وحين تسلّح دانتِس، في اليوم التالي، ببندقيّة ورصاص وبارود، وأعلن عن عزمه الذهاب لقنص بعض من تلك الماعز البريّة التي تُرى قافزةً من صخرةٍ إلى صخرة؛ عزا الجميع رغبته تلك إلى شغفه بالصّيد والعزلة. وَحدَه جاكوبو أصرّ على مرافقته. ولم يعترض دانتِس خشيةَ أن يوقظ اعتراضُه الشّكوكَ. على أنّه ما إن سنحت له الفرصة لرمي إحدى الماعز وإردائها، حتّى أرسل جاكوبو يحملها إلى رفاقهما، ويدعوهم إلى طبخها، وأن يعلمه حين تنضج ويحين أوان أكلها، بطلقةٍ من البندقية في الهواء. ومن المفترض أن تكتمل الوجبةُ ببعض الفواكه الجافّة وقارورة من نبيذ مونت بولتشانو.

أكمل دانتِس مسارَه ملتفتًا خلفه، بين الفينة والأخرى.

وإذ بلغ قمّةَ صخرةٍ، لمح رفاقَه على بعد ألفِ قدمٍ تحته، وقد التحق

بهم توًّا جاكوبو وهم منهمكون في تحضير الطعام الذي أضيفت إليه الآنَ قطعةٌ مميّزة بفضل براعة إدمون.

نظر إليهم إدمون لحظة بالابتسامة العذبة الحزينة التي تميّز الرّجال المتفوّقين.

قال لنفسه: «بعد ساعتين سيرحل هؤلاء الرّجال، وقد كسبوا خمسين بياسترا، لكي يسعوا، مغامرين بحياتهم، في سبيل كسب خمسين أخرى؛ ثمّ يعودون وهم يملكون ثروةً قوامُها ستمائة جنيه، فيبدّدون ثروتهم تلك باعتداد السّلاطين وثقّة الأثرياء. اليومَ، حكمَ الأملُ بأن أزدري غناهم، الذي يبدو لي أشدّ درجات البؤس؛ وغدًا، قد تحكم الخيبةُ بأن أنظر إلى هذا البؤس بوصفه السّعادة الأسمى... أوّاه! كلّا، (صاح دانتِس)، ذلك ما لن يكون؛ إنّ العلّامة فاريا المعصوم من الزلل، لن يصيب في كلّ شيء لكي يخطئَ في هذا الأمر تحديدًا. ثمّ إنّ الموتَ سيّان وهذه الحياة الحقيرة البئيسة».

هكذا إذًا، لم يعد دانتِس، الذي كان منذ ثلاثة شهور فقط يطمح إلى الحريّة ولا يرجو سواها، قلنا لم يعد يقنع بها، وصار يصبو إلى الثراء؛ ولم يكن ذلك خطأ دانتِس، وإنّما هي مشيئة الربّ الذي إذ خلق الإنسان حدّ من قدراته، وجعل رغباته لا محدودة! على أنّه عبر طريقًا ضائعة بين جدارَيْن صخريّين، متّبعًا مسلكًا حفرَه التيارُ، مسلكًا على الأرجح لم تطأه قدمُ بشر من قبل، دنا دانتِس من الموضع الذي يفترض وجود المغارات فيه. متّبعًا ساحل البحر ومتفحّصًا أدنى التّفاصيل بانتباه كبير، ظنّ أنّه قد لاحظَ على بعض الصّخور ثلومًا أحدثتها يد إنسانٍ.

وإنّ الزمن الذي يلقي على كلّ الأشياء المادية معطفه، معطف الزّبد، مثلما يلقي على كلّ الأشياء المعنوية معطفه الثاني، معطف النّسيان، يبدو أنّه هذه المرّة قد وقّرَ هذه العلامات التي تبدو قد رسمت بنوع من الانتظام، على الأرجح بهدف الإشارة إلى أثرٍ ما؛ ومن حين إلى آخر

كانت تلك العلامات تختفي تحت حزم الآس التي تنمو يانعةً في شكل باقاتٍ محمّلة بالزّهور، أو تحت الأشنات الطفيلية. فيكون دانتِس آنذاك مضطرًا إلى أن يزيح الأغصان أو يزيل النّباتات الطحلبية، كي يجد الإشارات الدّالة التي تقوده وسط تلك المتاهة. ثمّ إنّ تلك الإشارات قد أحيت في إدمون الأمل. ما المانع في أن يكون الكاردينال هو من رسمها كي تكون، في حال ما إذا وقعت كارثةٌ لم يتوقّعها كاملةً، دليلًا يقودُ ابن أخيه؟ إنّ هذا المكان المنعزل هو أمثل موضعٍ قد يقصده من يريد إخفاء كنز. لكن، أليس من الممكن أن تكون هذه العلامات الغادرة قد جذبت انتباه أشخاصٍ آخرين غير ذاك الذي رُسمت لأجله، وبالتّالي لم تحفظ الجزيرة ذاتُ العجائب المخفية سرّها الرّائع؟

غير أنّه، على بعد ستيّن خطوةً من المرسى تقريبًا، بدا لإدمون، الذي كان لا يزال متواريًا عن زملائه بفضل تضاريس الأرض، أنّ الثلوم توقّفت؛ لكنّها لم تكن تؤدّي إلى أيّ مغارةٍ. قاعدة صلبة، هي الهدف الوحيد الذي يبدو أنّ الطّرق تقود إليه. فكّر إدمون في أنّه بدلًا من أن يكون قد بلغ نهاية مسعاه، هو لا يزال في البداية فقط؛ استدار على عقبيه، وسلك الطّريق المعاكسة.

أثناء ذلك كان رفاقه يحضّرون الطّعامَ؛ فيحملون الماء من النّبع، وينزلون الخبز والفواكه إلى اليابسة، ويطبخون الجديَ. وفي اللحظة التي سحبوه فيها من سفّوده المرتجل، لمحوا دانتِس، يقفز من صخرة إلى صخرة، خفيفًا جسورًا، كوعل؛ فأطلقوا ضربة بندقيّة لينبّهوه. غيّر الصيّاد فورًا اتجاهه، وقصدهم ركضًا. لكن في الوقت الذي كان فيه الجميع يتابعون بأعينهم، طيرانه المتهوّر، زلّت قدمه، كأنّما هي تؤكّدُ مخاوفهم؛ أبصروه يترنّح على قمّة صخرة، ثمّ يطلق صرخة ويختفي.

هبّوا إليه جميعًا مسرعين، إذ كانوا كلهم يحبونَه، رغم تفوّقه عليهم؛ وكان جاكوبو أوّل الواصلين.

ألفى إدمون، طريحًا، مدمّى، وشبه فاقدٍ الوعيَ؛ الرّاجح أنه قد تدحرج من علوّ اثني عشر إلى خمسة عشر مترًا؛ صبّوا في فمه قليلًا من الرُّم؛ وكان للعلاجُ الذي سبق أن أثبت فعاليّةً فيه، نفسُ الأثر الذي كان له في المرّة السّابقة.

فتح إدمون عينيه، فشكا لهم ألمًا فظيعًا في الرّكبة، وثقلًا في الرأس، ووخزًا لا يطاقُ في الكليتين. أرادوا نقله إلى الشّاطئ؛ لكن حين لمسوه، وإن كانت العملية تدارُ من طرف جاكوبو، صرّح لهم وهو يئنُّ أن لا طاقة له على تحمّل النّقل.

أدركوا أنّ لا إمكان لأن يشاركهم دانتِس الطعام؛ لكنّه أصرّ على أن يعود رفاقه، الذين لم تكن لديهم نفس الأسباب لاتّباعٍ الحمية، إلى موقعهم. أمّا بالنّسبة إليه هو، فقد ادّعى أنّه لا يحتاج إلا قسطًا من الرّاحة، وأنّهم حين عودتهم سيجدونه قد ارتاح.

لم يتركه البحارةُ يستعطفهم طويلًا: - كانوا جائعين، رائحةُ الجدي تصل حتّى أنوفهم، وذئاب البحر لا تتعامل في ما بينها بالشّكليات.

ساعةً بعد ذلك عادوا. وكلّ ما كان إدمون قد تمكّن من فعله هو أن يسحب نفسه مسافة عشر خطواتٍ تقريبًا، كي يستند إلى صخرة تغطيها الطحالب.

لكن، بدلًا من أن تكون آلامه قد سكنت، بدا أنّها زادت حدّة. والقبطانُ، الذي اضطرَّ إلى الذهاب صباحًا كي يفرغ حمولته على الحدود بين بييمونتيِ (إيطاليا) وفرنسا، بين نيس وفرجوس (فرنسا)، أصرَّ على أن يحاول دانتِس الوقوف. بذل دانتس جهودًا تفوق جهود البشر كي ينقاد إلى دعوة القبطان، لكن كلّما بذل جهدًا سقط شاكيًا ممتقعًا.

قال القبطان هامسًا: «لقد أصيب في الكُلى: ليكن ما يكون! إنّه رفيق طيّبٌ، ولا ينبغي أن نتركه؛ لنحاول نقله إلى الطّرادة».

لكنّ دانتِس قال إنّه يفضّل الموت في موضعه ذاك، على أن يتحمّل الآلام الفظيعة التي تسبّبها الحركة، وهو في حالة الضّعف تلك.

قال الرّبان: - لتكن مشيئتك، لكن لا ينبغي أن يُقال إنّنا تركنا بلا مساعدةٍ رفيقًا في بسالتك. لذا لن نرحل إلا مساءً.

أدهش هذا الاقتراحُ النوتيةَ غايةَ الدّهشة، لكن لا أحد منهم اعترض. لقد كان القائد رجلًا من الصّرامة بحيث هذه هي المرّة الأولى التي شهدوه فيها يتخلّى عن عمليّة، أو حتّى يؤخّر تنفيذها.

لذا لم يرد دانتِس أن يعاني من أنّهم خدمةً له خرقوا إحدى قواعد النّظام المفروضة على متن المركب.

قال للقائد: - كلّا، لقد كنت متهوّرًا، ومن العدل أن أدفع ثمن تهوّري. اتركوا لي مؤونةً من البسكويت، وبندقية، وقليلًا من البارود والرّصاص أقتل به الماعز، أو حتّى أدافع به عن نفسي، ومعولًا أبني به ما يشبه المأوى، إن أنتم تأخّرتم في العودة لأخذي.

قال القائد: - لكنّك ستموت جوعًا.

أجابه إدمون: - أفضّل ذلك على أن أعانيَ الآلام الفظيعة التي تسبّبها لي كلّ حركة.

استدار القائدُ شطرَ المركب، وهو يتأرجح بفعل بداية تجهيزه في المرسى الصّغير، وقد صار جاهزًا لينطلق في البحر ما إن تُستكمَل زينَتُه.

قال: - ما الذي تريدُه إذًا أيّها المالطي، لا نقدرُ أن نتركك هكذا، ولا نستطيع أن نبقى؟

صاح دانتِس: - اذهبوا! اذهبوا!

قال القائد: - سنغيب ثمانية أيّامٍ، بل أكثر من ذلك، سنضطرّ إلى تغيير طريقنا كي نعود إليك فنأخذك.

- أصغِ إليَّ، إذا ما صادفتم بعد يومين أو ثلاثة، قارب صيد أو غيره

قادمًا إلى هذه النّاحية، فأوصوه بي، وسأعطيه خمسًا وعشرين بياسترا كي يعيدني إلى ليفورنو. فإن لم تجدوا مركبًا، عودوا.

هزّ القبطانُ رأسَه.

قال جاكوبو: - اسمع، يا سيّدي بالدي، ثمّة وسيلةٌ لإرضاء الجميع؛ اذهبوا؛ وأنا سأبقى مع المصاب لأعالجه.

قال إدمون: - وستتخلّى عن نصيبك كي تبقى معي؟

أجابه جاكوبو: - أجل، ومن غير أسف.

قال إدمون: - إنّك فتّى شهمٌ يا جاكوبو، وسيكافئك الرّبُ على إرادتك الطيبة؛ لكنّي لا أحتاج أحدًا، شكرًا لك، يومٌ من الرّاحة أو يومان وسأشفى، وإنّي لآمل أن أجد في هذه الصّخور بعض الأعشاب المفيدة لعلاج الرّضوض.

وارتسمت على شفتَي دانتس ابتسامةٌ غريبة؛ شدّ على يد جاكوبو بحبّ، لكنّ قرارَه بأن يبقى وحدَه ظلّ ثابتًا.

ترك المهرّبون لإدمون ما طلبه، وابتعدوا، من دون أن يكفّوا عن الالتفات نحو رفيقهم غير ما مرّة، وفي كلّ مرّة يستديرون فيها كانوا يومئون إليه بأطيب الإشارات، فيردّ عليهم إدمون بيده فقط، إذ لم يكن يستطيع تحريك بقيّة جسده.

ثمّ حين اختفوا، همس دانتِس لنفسه ضاحكًا:

«عجيبٌ أن يصادف المرء كلّ هذه الصدّاقة، وهذا الإخلاص، لدى أناس من هذه الطّينة».

ثمّ إنّه جرّ نفسَه حتّى بلغ ذروة صخرةٍ يشرف منها على البحر، ومن مرتفعه ذاكَ تابع الطرّادة وهي تتمّ تجهيزَها، وترفع المرساة، وتتهادى بسلاسة مثل نورس يتهيّأ للطّيران، ثمّ تنطلق.

وما هي ساعةٌ حتّى اختفت تمامًا؛ أو على الأقلّ، صار متعذّرًا أن تُلمح من الموضع الذي كان فيه الجريح.

وإذّاك قام دانتِس، أشدّ خفّةً ومرونةً من الماعز المتقافز على تلك الصّخور البريّة بين شجيرات الآس والبطم؛ حمل بندقيّته بيدٍ، وبالأخرى حمل المعولَ، وركض باتّجاه تلك الصّخرة التي تفضي إليها المغاور التي لاحظها بين الصّخور.

وصاح، وقد خطرت بذاكرته قصّة ذاك البحّار العربيّ التي كان قد حكاها له الأب فاريا: «والآن، اِفتح يا سمسم!».

24

إبهار

كانت الشّمسُ قد بلغت ثُلثَ مسارها تقريبًا، وأشعّتُها تنسكبُ، حارّة وحيّةً، على تلك الصّخور التي تبدو هي نفسُها حسّاسةً تجاه الحرارة؛ آلافُ الجداجدِ، المتوارية بين نباتات الخلنج، تصرّ صريرَها الرتيب المتواصل؛ أوراقُ الآس والزيتون تهتزّ مرتعشةً، فيصدر عنها صوتٌ يكاد يكون معدنيًا؛ وكلّما خطا إدمون خطوةً على حجر الصّوان الساخن، كانت تفرُّ لخطْوِه سحالٍ تبدو كالزّمرّد؛ وبعيدًا على المنحدرات المائلة كانت تُلمحُ متقافزةً الماعزُ البريّة التي تجذب أحيانًا الصيّادين؛ بعبارةٍ واحدة: كانت الجزيرة مأهولةً، حيّةً، متحرّكة، ومع ذلك كان إدمون يحسّ بنفسَه وحيدًا بين يدي الربّ.

كان ينتابه إحساسٌ لا يدري كنهه، إحساس شبيه بالخشية: كان يشعر بانعدام الثقة في النّهار، ذاك الإحساس الذي يجعلنا نظنُّ أنّ عيونَ المتلصّصين تتابعنا.

وقد كان إحساسُه ذاك من القوّة بحيث إنّه في اللّحظة التي همَّ فيها ببدء العمل، توقّفَ، ووضع معولَه، وحملَ بندقيّتَه مجدّدًا، وتسلّق مرّةً أخيرةً الصخرةَ الأعلى بالجزيرة، ومن موضعه ذاك ألقى نظرةً واسعةَ المدى على كلّ ما يحيط به.

لكن ينبغي القولُ إنّ ما كان يجذب انتباهه، ليسَ تلك الكورسيكا الشّاعريّة التي يستطيع أن يميّزها حتّى بيوتها، ولا تلك الساردينيا شبه المجهولة التي تلتها، ولا الإلبا بذكرياتها المهيبة، ولا حتّى ذاك الخطّ

المتعذّر تمييزه الذي يمتدّ في الأفق والذي يفصح لعين البحّار الدّربة عن جنوة الرّائعة وليفورنو التّاجرة؛ كلّا: إنّ ما كان يستثير انتباهه هو المركب الشّراعي الذي كان قد انطلق فجرًا، والطرّادة التي أقلعت توًا.

كان أوّل المركبَيْن على وشك أن يختفي عند مضيق بونيفاتشو؛ أمّا الثاني، متّبعًا الطريق المعاكسة، فيسير بمحاذاة كورسيكا ويوشك أن يجاوزَها.

طمأنَ المشهَدُ دانتِس.

وكان أن أعاد عينيه صوب الأشياء التي تحيط به إحاطةً أكثرَ مباشرةً؛ ألفى نفسَه على القمّة الأعلى بالجزيرة؛ قمّة مخروطية هي بمثابة تمثالٍ بارد قاعدتُه الهائلة هي الجزيرة؛ تحته، لا بشر؛ حولَه، لا مركب؛ لا شيء إلا هذا البحرُ اللازورديّ الذي تضربُ أمواجُه حوافّ الجزيرة، فيلفُّها هذا الاصطدامُ الأبديّ بغلالة من فضّة.

إذّاك هبط بمشيةٍ سريعةٍ لكن حذرة: كان يخشى أن يصيبه ضمن هذه الملابسات حادثٌ شبيه بذاك الذي استطاع أن يتصنّعه ببراعةٍ وبقدرٍ كبير من التّوفيق.

كان دانتِس، كما أسلفنا، قد سار في الاتّجاه المعاكس للثلوم المتروكة على الصخور، فرأى أنّ هذا المسار يقوده إلى الجون المختفي كأنّما هو بِركةُ حوريّةٍ من الأزمنة الخوالي؛ وكان هذا الجونُ واسعًا بما يكفي عند فتحته وعميقًا بما يكفي عند وسطه، بحيث يستطيع أن يلجّه مركبٌ، من شاكلة مراكب السبيروناريس[1]، ويمكث فيه مختفيًا. وإذًا، متّبعًا خيط الاستدلال، ذاك الخيط الذي كانت يدُ الرّاهب فاريا تقوده به عبر متاهات الاحتمالات، خمّن أنّ الكاردينال سبادا، حرصًا منه على ألا يراه أحدٌ، كان قد ولج هذا الجون، فأخفى فيه مركبه، ثمّ تبع الخطَّ الذي تشير إليه الثلوم، وهناك، عند أقصى الخطّ وارى كنزَه.

(1) مركبٌ تجاريّ صغير، إيطالي، كان شائعًا إبّان القرنين 18 و19.

كانت تلك الفرضية هي ما أعاد دانِتس إلى جنب الصّخرة الدّائريّة.

على أنّ خاطرةً أقلقت بال دانِتس، وقلبت كلّ ما كان يعتملُ في ذهنه من أفكار: كيف أمكن تحريك هذه الصّخرة، التي تزنُ خمسة أطنانٍ أو ستّةً، من فوق القاعدة التي تستريح عليها، من دون الاستعانة بقوّة معتبرة؟

وفجأةً برقت في باله فكرة: «لعلَّ الصخرةَ بدلًا من أن تُرفَع قد أُنزِلت»، فانطلق إلى أعلى الصّخرة يبحث عن موضع قاعدتها الأولى.

وبالفعل، ما لبث أن لاحظَ منحدرًا استُحدِثَ؛ لقد انزلقت الصّخرةُ على قاعدتها وأتت تستقرُّ في هذا الموضع؛ وصخرةٌ أخرى، حجمُها حجمُ حجرٍ عاديّ، كانت قد استُخدمت كإسفينٍ لتحريكها؛ وقد عُدّلت مواضع الصّخور والأحجار، بحيث يختفي كلُّ أثرٍ للعلاقة بينها؛ وقد غطّت هذا الشّغلَ البيسطَ طبقةٌ نباتية، فنما فيها العشبُ، وامتدّت الطحالب، ونبتت بذور الآس والبطم، وصارَت الصّخرةُ تبدو ملتحمةً بالأرض.

أزاح دانِتس التراب بحذرٍ، فأدرك، أو حسبَ أنّه أدرك، كلّ ذاك الشّغل العبقريّ.

ثمّ انقضّ بمعوله على هذا الجدار الوسيط الذي لحمَه الزّمنُ.

بعد مجهود عشر دقائق انقضَّ الجدار، فانفتح نقبٌ يمكن أن تحشر فيه الذّراعُ.

قصد دانِتس أمتن زيتونةٍ استطاع إيجادَها، فقطعها، ثمّ أزال عنها أغضانها، وأدخلها في النقب جاعلًا منها رافعةً.

بيد أنّ الصّخرة كانت ثقيلةً جدًا، ومدعومةً بشدّة من الصّخرة الأدنى، بحيث يصعب على قوّة بشريّة، بما فيها قوّة هرقل، أن تزحزحها من موضعها.

فكّر دانِتس آنئذ أنّ ذاك الإسفين نفسه هو ما ينبغي التصدّي له.

لكن كيف؟

أجال بصره حواليه، مثلما يفعل من هو في ضيق؛ وقع بصره على قرن أروية[1] مليء بالبارود، كان قد تركه له صديقه جاكوبو.

ابتسم: - سيفعل الاختراع الجهنميّ فعلَه.

وبواسطة المعول حفر دانِتس، بين الصخرة العلوية، والصّخرة التي وُضعت عليها، فصنع مجرًى، على شاكلة ما يفعله جنود الحَفر حين يريدون تجنيب ذراع الإنسان كبير التعب، وملأه بالبارود؛ ثمّ لفّ منديله ومرّغه في الملح الصّخريّ، صانعًا منه فتيلًا.

أشعل النّار في الفتيل، وابتعد.

وسرعان ما وقع الانفجار: ارتفعت في لحظةٍ الصخرةُ العلوية بتأثيرِ القوّة الهائلة، وتفتّت الصّخرة السُفلى؛ وعبر الفتحة الصغيرة التي أحدثها دانِتس في البداية، خرج شعبٌ بأكمله من الحشرات المضطربة، وزحف ثعبانٌ عشبيّ عظيمٌ، هو حارسُ هذا الطّريق السريّ، بحلقاته المزرقّة، وانصرف.

اقترب دانِتس: الصخرةُ العلوية، وقد صارت بلا قاعدةٍ، تفضي إلى هاويةٍ؛ لفّ المنقِّبُ الجسورُ حولها، واختار الموضع الأشدّ اهتزازًا منها، ووضع رافعتَه في إحدى فتحاتها؛ ثمّ، على طريقة سيزيف، دفع الحجر بكامل قوّته.

ترنّحت الصخرة، التي كان قد زحزحها الانفجار؛ ضاعف دانِتس جهدَه. من رآه كان ليحسبه أحد أولئك المردة الذين كانوا يقتلعون الجبال ليحاربوا بها سيّد الآلهة. وانتهى المطاف بالصّخرة إلى أن طاوعته، فتدحرجت وقفزت، ومضت متسارعةً، ثمّ اختفت، غائصةً في البحر.

---

(1) خروف بريّ من فصيلة الظّباء الماعزية.

خلّفت موضعًا مستديرًا عاريًا، وكشفت عن حلقةٍ حديديّة مختومةً، وسط بلاطةٍ مربّعة الشّكل.

أطلق دانتِس صيحةَ فرحٍ وذهول: لم يسبق أن حصل أحدٌ على مثل هذه النّتيجة الرّائعة، من المحاولة الأولى.

أراد أن يواصل الشّغل؛ لكنّ قدميه كانتا ترتعدان ارتعادًا شديدًا؛ وقلبَه كان يدقّ بعنفٍ بالغ؛وغمامةً حارقةً جدًا كانت تغشى عينيه، فاضطرّ إلى التوقّف.

لم تدم لحظةُ التردّد تلك إلا كما يدوم برق. أدخل دانتِس ذراعَه في الحلقة، ورفعها بقوّة، فانفتحت البلاطةُ كاشفةً عمّا يشبه سُلّمًا يَمضي منغرزًا في ظلام مغارةٍ ما تنفكّ تزداد عتمةً.

ولو أنّ أحدًا آخر كان في مكان دانتِس لكان أطلق صيحات فرح؛ لكنّ دانتِس توقّف، شاحبًا، مرتابًا.

قال لنفسه: «حسنًا، انتبه يا رجل! بعدما اعتدتَ المحنَ، لا تدع يأسًا يصرعك؛ وإلا سيذهب كلّ ما عانيتَه سدى! فإنّما ينكسر القلبُ حين يتمدّد ويكبر بالآمال التي تأتيه كالأنفاس الحارّة، ثمّ بعد ذلك ينغلق ويتقلّص ببرد الواقع! لقد كان مجرّد حلم رآه فاريا: لم يخفِ الكاردينال سبادا أيَّ شيءٍ في هذه المغارة، وحتّى إن كان قد جاء أصلًا، فلرّبما قد أتى من بعده تشيزاري بورجا، المغامرُ الصّنديد، النهّابُ المظلمُ الذي لا يكلّ ولا يملّ، فاكتشف الآثار التي خلّفَها، وتبع الثلوم التي تبعتها أنا نفسي، ومثلي رفع هذه الصّخرة، وقبلي نزل، ولم يترك شيئًا وراءَه.»

ظلّ لوهلةٍ ساكنًا، يتفكّر، عيونه محدّقة في هذه الفتحة المظلمة التي لا قرارَ لها.

«على أنّني الآن، وإذ لم أعد أعتمد على أيّ شيء. الآن وقد أقنعت نفسي بلا جدوى الأمل. الآنَ قد صار ما تبقّى من هذه المغامرة عملَ فضولٍ لا أكثر، وهذا كلّ ما في الأمر.»

واستمرّ في موضعه ساكنًا متأمّلًا. «أجل، أجل، إنّ ما يجري لمغامرةٌ تبحث عن موضعها في الحياة المختلطة بين النّور والعتمة التي عاشها ذاك اللصّ الملكيّ، ضمن نسيج الأحداث الغريبة التي تؤلّفُ مسار وجوده المتلوّنَ؛ لا شكّ في أنّ هذا الحدث المذهل يرتبط ارتباطًا لا ينفصم مع ما تبقّى من حوادث؛ أجل، لقد أتى بورجا إلى هنا في ليلةٍ من اللّيالي، حاملًا مشعلًا بإحدى يديه، وبالأخرى سيفًا. وعلى بعد عشرين قدمًا منه، عند قاعدة هذه الصّخرة ربّما، وقف تابعان من أتباعه متجهّمَيْن ومتوّعدَيْن، يتقصّيان الأرض والسّماء والبحر، بينما سيّدهما يقتحمُ المكانَ، مثلما سأفعل أنا، راجًّا الظّلمات بذراعه الجسورة المتوهّجة.

«أجل؛ لكنّ التابعَيْن سيكونان قد اطلعا على سرّه، فما الذي فعله بهما شيزاري؟» تساءل دانتِس، ثمّ أجابَ نفسَه مبتسمًا: «فعلَ بهم ما كان يُفعل بحفّاري آلاريك[1]، أولئك الذين كانوا يُدفَنون مع من يدفنونَه.»

«لكن، لو أنّ بورجا أتى فوجد الكنز وأخذه؛ وهو الرّجل الذي كان يشبِّه إيطاليا بخرشوفة يأكلها ورقةً ورقةً، فإنّه كان أكثر إدراكًا بأهميّة الوقت من أن يضيعه في إعادة تلك الصّخرة إلى موضعها. فلأنزل!».

ونزلَ، وعلى شفتيه ابتسامةُ شكّ، يغمغم بالكلمة الأخيرة التي تلوذ بها حكمةُ البشر: - لعلَّ!...

على أنّه بدلًا من الظّلمات التي كان يتوقّع أن يجدها، بدلًا من أجواء كامدة وفاسدة، لم يرَ دانتِس إلا شعاعًا لطيفًا تحوّلَ إلى نهار مزرقٍّ؛ كان الهواء والضوء ينفذان ليس فقط من الفتحة التي أحدثَها، وإنّما أيضًا عبرَ شقوق صخرية لا تظهر من الأرض فوق، وخلَالها تُرى زرقةُ السّماء حيث تتراقص مرتعشةً أغصانُ البلّوط الأخضر وسيقان العلّيق الشّوكية المتسلّقة.

---

(1) ربّما المقصود الملك القوطي آلاريك الأوّل، الذي اشتهر بنهبه روما.

وبعد لحظاتٍ من مقامه في هذه المغارة، التي كان جوّها العامّ أميل إلى الدفء منه إلى الرّطوبة، وكانت بالأحرى عبقةً بالرّوائح، ودرجةُ حرارتها مقارنة بالحرارة على الجزيرة أشبهَ شيءٍ بدرجة حرارة أشعّة الشّمس مقارنةً بالشّمس؛ وإنّ بصر دانتِس المعتاد، كما أسلفنا، على الظّلمات، قد استطاعَ، بعد لحظاتٍ من نزوله المغارة، أن يسبر أركانَها الأقصى. كانت من حجر الصّوان، وجدرانُها اللمّاعةُ تتلألأ كالماس.

قال إدمون لنفسه باسمًا: «واأسفًا! هوذا قطعًا كلُّ ما تركه الكاردينال من كنوز؛ ولعلّ الرّاهب الطيّبَ، إذ رأى في منامه هذه الجدران البرّاقة قد غذّى في نفسه آمال الثراء تلك.»

استعادَ كلمات الوصيّة التي كان يحفظُها عن ظهر قلب: «**في أبعد رُكنٍ من أركان الفتحة الثانية**».

لم يكن دانتِس قد دخل سوى إلى المغارة الأولى، فكان عليه الآن أن يبحث عن الثانية.

وجّهَ دانتِس نفسَه: – من المفروض أن هذه المغارة الثانية تغور داخل الجزيرة. وكان أن فحص طبقات الحجارة، ثمّ أخذ يضرب جدارًا، بدا له أنّه سيكون الجدار الذي يستر الفتحةَ التي تمّ حجبُها إمعانًا في الاحتياط.

صلَّ المعولُ برهةً، مستخرجًا صوتًا كامدًا، من الحجر الذي أسالت طبيعتُه المتراصّةُ العرقَ من جبين دانتس؛ ثمّ ما لبث أن ظهر للحفّار العنيد أنّ تلك القطعة من الصوّان قد صارت تردّ بصدى أصمّ وأعمق من النّداء الذي يطلقُه معولُه؛ أدنى بصرَه الحادّ من الجدار، فأدركَ، ببراعة السّجين، ما لم يكن ربّما غيره ليدركَه: – ثمّة فتحةٌ.

على أنّه تجنّبًا لأن يقوم بمجهودٍ لا طائل منه، فإنّ دانتِس، وقد فعلَ ما فعله تشيزاري بورجا من قبلُ، أي حساب كلفة الزّمن، جسّ باقي الجدران بمعوله، وتفحّص الأرض بعقب بندقيّته، فنبش التراب في

المواضع التي اشتبه فيها، وإذ لم يجد شيئًا أو يدرك شيئًا، عاد إلى قطعة الجدار التي كانت تصدر الصّوت المطمئِنَ.

ضربَ مجدّدًا بقوّةٍ أشدَّ.

وإذّاك شهد شيئًا فريدًا، ذلك أنّه تحت ضربات آلته، كان يتشقّقُ ضربٌ من الطّلاء، شبيه بذاك الذي تُطلى به الجدران لتُرسمَ عليها الجداريات، ويتهاوى مفتّتًا، كاشفًا عن حجر مبيضّ رخو، شبيهٍ بأحجار بنائنا المعتادة. لقد أُغلقت فتحة الصّخرة بأحجار من طينةٍ أخرى، ثمّ طليَت الأحجار بذاك الطّلاء، وفوق الطّلاء قُلّدَ مظهرُ الصوّان وبريقُه.

إذّاك ضرب دانتِس بطرف معوله الحادّ، فغاص المعول في البوابة- الجدار، بنحو بوصةٍ.

كان ذلك الموضع الذي ينبغي له أن يحفر فيه.

وبباعثٍ من إحدى أعاجيب الطّبيعة البشريّة، كلّما كانت براهين صدق فاريا تتراكم، ممّا ينبغي أن يطمئنَ دانتِس، إلا وكان قلبُه المرهقُ يوغل في الشكّ، لا بل في التثبيط: إنّ تلك التّجربة الجديدة، التي كان يفترض أن تزيدهُ قوّةً جديدةً، سلبتهُ القوّة التي كانت لا تزال فيه: كان المعول يهوي، يكادُ ينفلت من بين يديه؛ فكان أن وضع المعولَ أرضًا، ومسح جبينه، ثمّ صعد باتجاه ضوء النّهار، معلّلًا نفسَه بضرورة تفحّص ما إذا كان ثمّة من يراقبه، لكنّه إنّما صعد، في حقيقة الأمر، لأنّه كان يحتاج إلى الهواء، لأنّه كان يشعر بأنّه سيغمى عليه. كانت الجزيرة خالية، والشّمسُ، وقد بلغت أوجها، تبدو كأنّما تحوطها بعينها اللاهبة؛ وفي البعيد، زوارق صيّادين صغيرة تنشر أشرعتَها في البحر الأزرق زرقة الياقوت.

لم يكن دانتِس قد تناولَ شيئًا بعد. لكن ما أبعد الأكلَ في لحظةٍ كهذه؛ شرب جرعة رُم ثمّ عاد إلى المغارة وقد استعادَ قلبُه حزمَه.

والمعولُ الذي كان يبدو له شديد الثقل عادَ خفيفًا من جديد؛ حملَه كأنّما يحمل ريشةً، وعاد إلى الشّغل بقوّة.

بعد بضع ضربات، انتبه إلى أنّ الأحجار لم تلصق فيما بينها، وإنّما فقط رُصّت بعضها لصق بعض، وغطّيت بالطّلاء الذي ذكرناه؛ أقحم طرف المعول في أحد الشّقوق، وضغط بثقله على يد المعول، فتابع فرِحًا صخرةً تتدحرج وتسقطُ عند قدميه.

ولم يكنُ على دانتِس إذّاك، سوى أن يستخرج كلّ صخرةٍ على النحو نفسه، متوسّلًا بطرف المعول، ليراها تتدحرج وتقع قرب سابقتِها.

منذ الفتحة الأولى التي أحدثها كان بإمكان دانتِس أن يلج؛ لكن بتردّده لحظاتٍ، فإنّما كان يؤخّرُ اليقينَ متشبّثًا بالأمل.

وفي نهاية المطاف، وبعد تردّد دامَ وهلةً، عبر دانتِس من المغارة الأولى إلى المغارة الثانية.

كانت المغارة الثانية واطئة أكثر من الأولى، وأشدّ منها عتمةً وأكثر إرعابًا؛ والهواءُ، الذي لم يدخُلها إلا من الفتحة المُحدَثَة توًّا، كانت رائحتهُ منتنةً نتانةً دُهش دانتِس من أنّه لم يصادفها في المغارة الأولى.

تركَ دانتِس الوقت لهواء الخارج يحيي ذاك الجوّ الميت، ثمّ دلف.

يسار الفتحة كان ثمّة ركنٌ سحيقٌ ومعتم.

لكنّنا قلنا آنفًا إنّه بالنّسبة إلى عين دانتِس لم تكن ثمّة ظلماتٌ.

جاس ببصره المغارةَ الثّانية: كانت فارغةً كالأولى.

إذا ما كان ثمّة كنز، فإنّه سيكون مدفونًا هناك، في ذلك الركن المعتم.

دقّت ساعةُ القلق؛ قدمين يحفرهما تحت الأرض: ذاك ما يفصل دانتِس عن أقصى درجات الفرح أو أقصى درجات الخيبة.

تقدّم باتّجاه الرّكن، وكمن اتّخذ قرارًا فجائيًا، انقضّ على الأرض بضراوة.

بعد الضربة الخامسة أو السّادسة، قرعَ الحديدُ الحديدَ.

حتّى ناقوس الخطر لا يمكن أن يُحدث في المرء الأثر الذي أحدثه فيه الصّوتُ الذي سمعه. قطعًا ما كان لشيء أن يجعله أكثر شحوبًا ممّا هو عليه الآن.

جسّ دانتِس الموضعَ الملاصق للموضع الذي يسمع فيه الصّوت، فواجه المقاومة نفسها، لكن من دون أن يسمع الصّوت نفسَه.

قال مخاطبًا نفسَه: «إنّه صندوق خشب يحوطه الحديد».

وفي تلك اللّحظة مرّ ظلٌّ سريعٌ حاجبًا ضوء النّهار.

تركَ دانتِس معولَه، وأمسك بندقيّتَه، ثم خرج من الفتحة إلى ضوء النّهار.

عنزةٌ برّيّة كانت قد دخلت عبر الفتحة الأولى، وها هي ترعى على بعد خطواتٍ منه.

كانت تلك فرصةٌ جيّدة ليضمن عشاءه، لكنّ دانتِس خشي أن يجذب دويّ الرّصاصة انتباهَ أحد.

فكّر برهةً، ثمّ قطع شجرةً صنوبرية، وذهب يُشعلُ النّار التي كانت لا تزالُ متوقّدةً، تلك النّار نفسهاحيث طبخ المهرّبون غداءهم، ثمّ عادَ حاملًا مشعلًا.

لم يكن يريد أن يفلت من بصره أيّ تفصيلٍ ممّا سيراه.

قرّب المشعل من الحفرة غير المكتملة، فعرف أنّه لم يخطئ: – لقد أصابت ضرباتُه على التّوالي حديدًا وخشبًا.

غرس شعلتَه في الأرض، ثمّ عاد إلى الشّغل.

في لحظةٍ انجلى موضعٌ طولُه ثلاث أقدام وعرضُه قدمان، واستطاع دانتِس أن يتبيّن فيه صندوقَ خشب محاطًا بالحديد المنقوش. وفي وسط الغطاء البرّاق، على صحيفةٍ فضيّة لم يتمكّن التراب من تعفيرها، كانت منقوشةً أسلحةُ عائلة سبادا، أي سيفٌ موضوعٌ واقفًا على درعٍ بيضاوية، على شاكلة الدّروع الإيطالية، وعلى السيّف قبّعة كاردينال.

وقد تمكّن دانتِس من التعرّف عليها، إذ سبق أن رسمها له الرّاهبُ فاريا عديد المرّات.

منذ هذه اللحظة قُطعَ الشّك باليقين. الكنز حقًّا هناك؛ فلا معنى لأن تُؤخذ كلّ هذه الاحتياطات، ويوضعَ في الأخير صندوقٌ فارغ.

وما هي إلا لحظة، حتّى عُرّيت كلّ جوانب الصندوق، ورأى دانتِس، تواليًا، سدادة الوسط، الموضوعة بين قفلين، ثمّ مقبضَيّ الجانبين. وكان كلّ ذاك منقوشًا، على نهج ذاك العصر الذي كان فيه الفنُّ يحوّلُ أبخسَ المعادن إلى معادن ثمينة.

أمسك دانتِس الصندوق من مقبضيه وحاولَ رفعَه. كان أمرًا مستحيلًا.

حاول أن يفتحه. كان القفلُ والمغلاق مغلقَيْن؛ كان يبدو أنّ الحارسين الأمينين يرفضان تسليم كنزهما.

أدخل دانتِس طرف المعول الحادّ، بين الصندوق وغطائه، وضغط بثقله على مقبض المعول، فانكسر غطاء الصندوق محدثًا صريرًا. أُحدث ثقبٌ واسعٌ في الألواح، صارت معه الحواشي الحديدية بلا فائدة، فسقطت بدورها وهي لا تزال ممسكةً بزواياها العنيدةِ تلك الألواحَ التي مسّها سقوطُها. وانفتح الصندوق.

سرَت في بدن دانتِس حمّى مدوّخة؛ أمسك بندقيّته، وجهّزها، ووضعها على مقربةٍ منه؛ أقفل عينيه، مثلما يفعل الأطفال، حتّى يُبصروا في خيالهم الوقّاد، نجومًا أكثر عددًا من تلك التي في السّماء الصّافية؛ ثمّ فتح عينيه وظلّ مشدوهًا.

كان الصندوق مقسّمًا إلى ثلاثة أجزاء.

في الجزء الأوّل تلمع عملات الذّهب ذات البريق الأصفر.

وفي الثاني، سبائك سيّئة الصّقل، وإن كانت مرصوفةً بعنايةٍ، سبائكُ لا يجمعها بالذّهب إلا الوزن والقيمة.

أمّا في الجزء الثالث، الذي كان مملوءًا إلى النّصف، فقد أخذ دانتِس

يحفن ملء كفيه، الجواهر، واللآلئ، وأحجار الزمرّد، التي كانت، كشلالاتٍ برّاقة، تطلِق، وهي تسّاقطُ بعضها فوق بعضٍ، صوتًا أشبه بصوت البَرَد على زجاج النّوافذ.

بعدما لمس، وقلّب، وغاص بيديه الواجفتين في قطع الذّهب والأحجار، قام إدمون، وأخذ يركض عبر المغارتين، وقد تملّكه الوجدُ الذي يتملّك رجلًا شارفَ الجنونَ. وثب إلى صخرةٍ يستطيع أن يشرفَ منها على البحر، فلم يلمح شيئًا؛ لقد كان وحيدًا، وحيدًا كلّ الوحدة، ومعه هذه الثروات التي لا تعَدُّ ولا تحصى، المذهلة، الرّائعة، والتي صارت في ملكه: لكن، أَمُستيقظٌ هوَ، أم تُراه يحلم؟ أهيَ رؤيةٌ هاربةٌ أم حقيقةٌ يعانقُها جسدًا لجسد؟

كان بحاجةٍ إلى أن يعيد النّظر إلى ذهبه، لكنّه كان يحسّ بأنّه لن يمتلك، في هذه اللّحظة، القوّة للتّحديق فيه. للحظةٍ، ضغط بيديه على قمّة رأسِه، كأنّما ليمنعَ صوابَه من أن يطير؛ ثمّ انطلق يجوب الجزيرة، من دون أن يتّبعَ خطًا محدّدًا، أمّا أن يتّبع طريقًا فليس من الممكن ما دامت الجزيرة من دون طرق؛ فكان يُجفل الماعزَ البريّة بركضه، ويرعب طيور البحر بصيحاته وحركاته. ثمّ عاد، عبر انعطافةٍ، والشكُّ لا يزال يخامره، إلى المغارة الأولى، ومنها إلى الثانية، فألفى نفسه أمام منجم الذهب والجواهر ذاك.

هذه المرة جثا على ركبتيه، شادًّا بيديه المتشنّجتين على قلبه المضطرب، وهو يصلّي صلاةً وحدَه الرّبُ يفهمها.

ثمّ ما لبث أن عاوده الهدوء، من دون أن تغادرَه السّعادةُ، إذ في تلك اللحظة فقط، بدأ يؤمنُ بسعده.

ثمّ إنّه انطلق إلى عدّ ثروته؛ كانت ألف سبيكة ذهبية، وزنُ كلّ واحدة منها رطلان أو ثلاثة، ثمّ خمسًا وعشرين قطعة عملةً ذهبيّة، تساوي كلّ واحدةٍ منها ثمانين فرنكًا من عملتنا اليومَ، تحمل كلّها نقش البابا إسكندر

السادس وسابقيه، وانتبه إلى أنّ هذا الجزء لم يكن فارغًا إلا إلى النّصف؛ ثمّ أخيرًا قاسَ كميّة الجواهر بيديه، فكانت عشر مرّاتٍ حِملَ كفّيه، بين أحجار كريمة ولآلئ، بعضُها صاغه أمهرُ صاغة ذاك العصر، ممّا يزيدها قيمةً، لا تقلّ عن قيمتها خامًّا.

رأى دانتِس أنّ جذوةَ النّار بدأت تنطفئ شيئًا فشيئًا. وخشيَ إن هو بقيَ في المغارة، أن يُؤخذ على حين غرّةٍ، فخرج متأبّطًا بندقيّته. كان عشاؤه قطعة بسكوت ورشفاتٍ من نبيذ. ثمّ إنّه أعاد الصّخرة إلى موضعِها، ونام فوقها ساعاتٍ قليلة، مُغلقًا باب المغارة بجسده.

كانت تلك الليلة ليلةً عذبةً ورهيبةً في آنٍ، شبيهةً بليلتين أو ثلاثٍ عرفهما في حياتِه من قبلُ هذا الرّجل ذو العواطف الجيّاشة.

25

الرّجل الغريب

طلع النّهار. وكان دانتِس يترقّبه منذ مدّة طويلة، بعينين مفتوحتَين. ومع أولى أشعّة النّهار تسلّق أعلى صخور الجزيرة ليتفقّد الأجواء؛ لم يلحظ وجود أيّ شيء في المحيط.

نزل دانتِس، رفع الصخرة، وملأ جيوبه بالأحجار، وأعاد قدر استطاعته ألواح الصندوق وأقفاله، وأهال عليه التراب، وداس على التراب، ونثر فوقه قليلًا من الرّمل، كي يبدو المكان الذي نُبش منذ قليل شبيهًا بما حوله؛ ثمّ خرج من المغارة، وأعاد البلاطة التي كانت تسدّها، وراكم على البلاطة أحجارًا مختلفةَ الأحجام؛ وبين الشّقوق خلال الأحجار صبّ شيئًا من الرّمل، وزرع فيها نباتاتَ الآس والخلنج، وسقى النّباتات المزروعة حديثًا بحيث تبدو شبيهة بتلك النّابتة منذ زمنٍ أقدمَ؛ ثمّ محا آثار الحفرفي جوانب المكان، وظلّ يترقّب بصبرٍ نافدٍ عودة رفاقه. والحالُ، أنّ الأمر لم يعد يحتمل الآن بقاءه في جزيرة مونت كريستو صارفًا وقته كتنّين يحرسُ كنزًا بلا طائل. لقد صار لزامًا عليه الآن أن يعود إلى حياة البشر، وأن يتّخذ في المجتمع المكانة والنّفوذ والسّلطة التي يمنحها الثّراء، بما هو القوّةُ الأعظمُ والأولى في مراتب القوى التي يملكها بنو البشر.

عاد المهرّبون في اليوم السّادس. وقد تعرف دانتِس من بعيدٍ على هيئة **أميليا-الشابّة** وطريقة سيرها. جرّ نفسه حتّى المرسى كأنّه فيلوكتيتوس[1]

(1) من أبطال الأساطير الإغريقية.

جريحًا، وحين نزل رفاقُه، أعلن لهم تحسّن حالِه، وإن كان لا يزال يشكو بعض الألم؛ ثمّ انطلق بدوره إلى سماع سرد مغامراتهم. لقد نجحوا في مهمّتهم حقّ نجاحٍ؛ لكن بالكاد كانوا قد فرغوا من إنزال البضاعة حتّى أتاهم خبر سفينةٍ من ذواتَي الصّاريّين، تابعةٍ لخفر تولون، قد غادرت الميناء وهي في طريقها إليهم. فكان أن انطلقوا من فورهم، آسفين ألّا يكون دانتِس معهم، فيَقودهم، وهو الذي كان بوسعه أن يضاعفَ سرعةَ إبحارهم. وبالفعل، ما لبثوا أن لمحوا المركب الملاحِقَ، لكنّ جناح اللّيل، واجتيازهم رأس كورسيكا، مكنّاهم من الإفلات. في المحصّلة، لم تكن الرّحلة سيّئةً؛ وجميعم، وخاصّةً منهم جاكوبو، كانوا يأسفون أنّ دانتِس ليس معهم فيغنم نصيبه من الأرباح البالغ خمسين بياسترا.

ظلّ دانتِس متكتّمًا، فلم يكن حتّى يبتسم لهم وهم يعدّدون المزايا التي كان ليكسبها لو أنّه وافق على مغادرة الجزيرة معهم؛ وبما أنّ السّفينة لم تكن قد عادت إلا لكي تأخُذه، فقد ركب مع رفاقه في المساء نفسه، وتبع ربّانَ سفينته إلى ليفورنو.

وفي ليفورنو قصَد يهوديًا، وباعه أربعًا من بين أصغر أحجاره، وقبض ثمنًا لكل واحدة منها خمسة آلاف فرنك. وكان من الممكن أن يتساءل اليّهوديُّ أنّى لبحّارٍ أن يحصل على جواهر مماثلة، لكنّه تحفّظ عن السؤال إذ ربح في كلّ واحدة منها ألف فرنك.

وفي اليوم التالي اشترى دانتس مركبًا جديدًا كلّ الجدّة، وأعطاه إلى جاكوبو، زيادةً على مائة قطعةٍ نقدية، حتّى يتمكّن الرّجل من تأمين طاقمٍ للمركب؛ وكان شرطُ عطيّتِه أن يذهبَ جاكوبو إلى مارسيليا فيتقصّى أخبار شيخ يسمّى لُوي دانتِس يقيم في طريق مييون، وأخبارِ شابّة تقيم في قرية الكتالان، واسمُها مرسيدس.

وكان قد حان دور جاكوبو ليظنّ نفسه يحلم؛ إذقال له دانتِس إنّه صار بحارًا بسبب نزوةٍ، ولأنّ عائلته كانت ترفض إعطاءه المال الذي يحتاجه؛

لكنّه إذ وصل إلى ليفورنو حصّل ثروةَ عمٍّ جعل منه وريثَه الوحيد. وقد كان تأدّب دانتِس الرّفيع يضفي على القصّة مصداقيّة، إلى درجة أنّ جاكوبو لم يشكّ لحظة في حقيقة ما يقوله صاحبُه.

ومن جهةٍ أخرى، بما أنّ التزام إدمون بالخدمة على متن **أميليا الشّابة** كان قد انتهى أمدُه، فقد طلب من ربِّه أن يسَرِّحه، وقد حاول ربُّه في البداية أن يثنيه عن قراره، لكن ما إن علم، مثلما علم جاكوبو، قصّةَ الإرث، حتّى فقَد كلّ رجاءٍ في إمكان ثني نوتيّه السّابق عن قراره.

في اليوم التالي أرخى جاكوبو الأَشرعة صوب مارسيليا: وكان يفترض أن يلتقي بدانتِس، بعد ذلك، على جزيرة مونت كريستو.

وفي اليوم نفسه ذهب دانتِس من دون أن يخبر أحدًا بوجهته، بعدما ودّع طاقم **أميليا الشّابة** بعطيّة مذهلةٍ، وودّع ربّانها قاطعًا الوعد بأن يبلّغه أخبارَه ذات يوم.

قصد دانتِس مدينةَ جنوة.

ساعة وصوله، كانوا يجرّبون يختًا صغيرًا طلبَه إنجليزيٌّ سمع أنّ أهل جنوة هم خيرُ صنّاع اليخوت في البحر الأبيض المتوسّط، فرغب في الحصول على يخت مصنوع هناك؛ وكان الإنجليزي سيعطيهم أربعين ألفَ فرنكٍ مقابله: فأعطاهم دانتِس ستّين ألفًا، شرطَ أن يُسلَّم اليخت في اليوم نفسه. وكان الإنجليزي قد قصد سويسرا في جولةٍ، بانتظار أن يُفرَغ من صنع يخته؛ ولم يكن متوَقَّعًا قدومُه قبل ثلاثة أسابيع أو شهر: ففكّر الصّانع أنّ لديه ما يكفي من الوقت ليشرع في تشييد يختٍ آخر بورشته. وكان أن اصطحبَ دانتِس الصّانع عند يهوديٍّ، وانسحبَ مع اليّهودي إلى داخل المحلّ، وبعدها عدَّ اليّهوديّ للصانع ستّين ألف فرنك.

عرض الصّانعِ على دانتِس خدماته، في أن يجمع له طاقمًا؛ بيد أنّ دانتِس شكره قائلًا إنّه اعتاد الإبحار منفردًا، وأنّ رغبتَه الوحيدة هي أن

يُجهَّزَ اليختُ، عند رأس السّرير في المقصورة، بخزنةٍ سريّة تتضمّن ثلاثة أقسام، كلّ قسم منها له مفتاحٌ سريّ. وأعطاه قياسات أقسام الخزنة، فجُهِّزت لِغدِهاً.

وبعد ساعتين، كان دانتِس يغادر ميناء جنوة تشيّعُه أنظار حشدٍ من الفضوليين تجمهروا ليشاهدوا السيّد الذي اعتاد على الإبحار بمفرده.

وقد أحسن دانتس القيادة غاية الإحسان؛ فبواسطة الدّفة، ومن دون حاجةٍ إلى تركها، تمكّن من أن يفعل بيخته ما شاء؛ فكان المركب يبدو كأنّما هو كائنٌ ذكيّ متأهّبٌ لتنفيذ أدنى أمرٍ يُصدر له، وقد أمّن دانتِس على أنّ الجنَويّين يستحقّون الصّيت الذي غدا لصيقًا بهم، صيتَ أمهر صنّاع السّفن في العالم.

تابع الفضوليّون بأعينهم السّفينة حتّى غابت، ثمّ بدأت أحاديثهم ساعيةً إلى معرفة مقصده. ففريق مال إلى الاعتقاد بأنّ كورسيكا هي المقصدُ، وفريقٌ راهنَ على أنّها إسبانيا، وثالثٌ دعم أنّ دانتِس ذاهبٌ إلى إفريقيا؛ ولم يخطر ببال أحد منهم أن تكون وجهته جزيرة مونت كريستو.

والحالُ أنّ مونت كريستو كانت هي مقصدَ دانتِس.

وصل حوالى نهاية الجزء الثاني من النّهار: كان اليخت مركبًا شراعيًا ممتازًا، فاستطاع أن يقطع المسافة في خمس وثلاثين ساعةً. وقد تمكّن دانتِس من أن يميّز مكان الوديعة، وبدلًا من أن يرسوَ في المرسى المعتاد، رسا في الجون الصّغير.

كانت الجزيرة خالية؛ ولم يبدُ أنّ قدمًا وطئتها، مُذ غادرها دانتِس؛ قصد كنزَه، فألفى كلّ شيءٍ كما تركَه.

وفي اليوم التالي كان قد نقل ثروتَه الهائلة إلى يخته، وأغلق عليها في الخزنة ذات الأقسام الثلاثة.

انتظر دانتِس ثمانية أيامٍ أُخَر. وأثناء أيّام الانتظار تلك، انشغل

بالتجوال بيخته حول الجزيرة، عاملًا على دراسته كما يدرس حوذيٌّ حصانًا. وما كادت الأيام الثمانية تنقضي حتّى كان يعرف كلّ ميزات يخته وكلّ عيوبه؛ فكان أن وعد نفسه بتحسين هاته وتصحيح تلك.

وفي اليوم الثامن أبصر سفينةً صغيرةً تقصد الجزيرة وقد نشرت كلّ أشرعتها، فتعرّف فيها مركبَ جاكوبو. أشار بإشارةٍ، فردّ عليها جاكوبو بإشارةٍ أخرى، وما هي إلا ساعتان حتّى رسا المركبُ لصق اليخت.

كان جاكوبو يحمل جوابًا حزينًا عن كلِّ سؤالٍ من السّؤالين اللذين حمّله بهما دانتِس.

الشيّخ دانتِس توفّي.

مرسيدس اختفت.

تلقّى دانتِس النّبأين بوجه هادئ؛ ثمّ ما لبث أن نزل إلى البرّ، ناهيًا الجميع عن أن يتبعوه.

وبعد ساعتَين عادَ. انتقل رجلان من رجال جاكوبو إلى اليخت كي يعيناه في قيادته، وأصدر أوامره بالتوجّه إلى مارسيليا. كان يتوقّع موت والده، لكن مرسيدس! ما الذي حلّ بها؟

لا يستطيع إدمون أن يعطيَ رجله تعليمات كافية، من دون أن يجازف بكشف سرِّه؛ ثمّ إنّ لديه معلوماتٍ أخرى يريد أن يتقصّاها، معلوماتٍ لا يمكن أن يعوّل في تقصّيها إلا على نفسه. وقد أخبرته المرآة في ليفورنو أنّه لا يخشى أن يُتعرَّفَ عليه، زد على ذلك أنّه قد صارت طوع يده الآن وسائلُ التنكّر. وفي الصّباح إذًا، دخل اليختُ مهيبًا إلى ميناء مارسيليا، يتبعه المركب الصّغير، وتوقّف قريبًا من المكان الذي كانوا قد أركبوه منه إلى قلعة إيف، مساءَ الذكرى المفجعة.

ولم يسلم دانتِس من بعض الارتجاف، وهو يرى دركيًا قادمًا صوبَه في قارب المراقبة الصحيّة. لكن دانتِس، بفضل الحزم الذي كسبَه، قدّم

لرجل السّلطة جواز سفر إنجليزيًا كان قد اشتراه في ليفورنو، ولأنّ هذه الوثيقة الأجنبية أكثر تقديرًا من نظيرتها الوطنيّة، فقد استطاع النزول إلى البرّ من دون مشاكل.

رأى دانتس، أوّل ما رأى حين وطئت قدمه رصيف كانبيير، أحدَ بحّارة **الفرعون**. وكان الرّجل قد خدم تحت إمرته، وكان وجوده إثباتًا يطمئنُ دانتِس على جدوى التّغييرات التي طالته. قصد إذن الرّجل رأسًا، وسأله أسئلةً عديدة أجابَ عنها من دون أن ينتابه ظلٌّ من شكٍّ، لا في كلمات دانتِس ولا في هيئته، فما تذكّر أبدًا أنّه قد سبق له أن التقى سائلَه.

أعطى دانتِس البحّارَ قطعةً نقدية شُكرًا له على ما مدّه به من معلومات؛ ثمّ لحظةً بعد ذلك، سمع الرّجل الشّهمَ يركض صوبَه.

استدار دانتِس.

قال البحّارُ: – عفوًا يا سيّدي، لكنّك قد أخطأت بلا ريب؛ لقد أردتَ أن تعطيني قطعةً من فئة أربعين فلسًا، فأعطيتني بدلًا منها ذهبيّةً نابوليونيّة مزدوجة.

قال دانتِس: – نعم، أنت محقّ، لقد أخطأتُ فعلًا؛ لكن بما أنّ صدقك يستحقُّ مكافأةً، هاك قطعةً ثانيةً أرجو أن تشرب بها أنت ورفاقك نخبًا على صحّتي.

نظرَ البحّارُ إلى إدمون وذهول عظيمٌ آخذٌ به، حتّى إنّه لم يفكّر في شكره؛ وشيّعه مبتعدًا، وهو يردّد: «لا بدّ أنّه أحد أباطرة الهند».

واصل دانتِس طريقَه، وكانت كلّ خطوة يخطوها تجيّشُ قلبه بمشاعر جديدة: كلّ ذكريات طفولته، تلك الذكريات التي يتعذّر محوها، ذكرياته الماثلة أبدًا في ذهنه، كانت هناك تنتصبُ عند كلّ ركن من أركان الساحات، عند زوايا كلّ شارع، وعند معابر كلّ مفترق طرق. وحين بلغ طرف شارع نُواي، ولمح ممشى ميّون، أحس بركبه تنحني، وكاد يسقط

تحت عجلات عربة. وأخيرًا، بلغ المنزل حيث كان يسكنُ والده. أزهار الزراوند وأبو خنجر اختفت من العليّة، حيث كانَت يدُ الرّجل الطيّب فيما مضى تعتني بها.

استند إلى شجرة، وظلّ لحظاتٍ متفكّرًا ينظر إلى آخر طوابق المبنى الصغير المسكين؛ ثمّ إنّه تقدّم صوب الباب، واجتاز العتبة، واستفسر عمّا إذا كان ثمّة موضع للإيجار بالمبنى، وعلى الرّغم من أنّ البيت في الطّابق الخامس كان مشغولًا، فإنّه ألحّ على البوّاب كي يصعد فيسأل سكّان البيت أن يسمحوا لغريبٍ بتفقّد الغرفتين اللتين كانتا تؤلّفانه. وكان السّاكنان شابٌ وشابّةٌ، لم يمضِ على عقد قرانهما سوى ثمانية أيامٍ.

وحين وقع بصره على الشّابين، أطلق دانتِس تنهيدةً حَرَّى.

عدا ذلك، لا شيء في البيت ذكّر دانتِس ببيت والده: لقد غيّروا ورق الحائط؛ واختفى كلّ الأثاث، صديق طفولة دانتِس، والذي كانت ذاكرته تحفظ أدنى تفاصيله. وحدها الجدران ظلّت كما كانت.

استدار دانتِس شطرَ السّرير، وكانت قطعة الأثاث تلك في موضعها نفسه حيث كانت أيامَ المستأجر السّابق؛ ورغمًا عن دانتِس اغرورقت عيناه بالدّموع: ذلكم هو المكان الذي فاضت فيه روح الشّيخ وعلى فمه اسمُ ولده.

ظلّ الشّابّان ينظران متعجّبَيْن إلى هذا الرّجل ذي الجبين الصّارم، والذي تفيض على خدّيه الدّموع من دون أن يرتجف وجهه. لكن، بما أنّ كلّ ألم يحمل في ذاته أسبابه، فإنّ الشّابّين لم يسألا الغريب أيّ سؤال؛ وإنّما اكتفيا بأن تراجعا إلى الخلف كي يتركاه يبكي على راحته؛ وحين همّ بالانصراف، رافقاه قائلين إنّ في وسعه أن يأتي متى شاء، وبيتهما سيكون مفتوحًا دائمًا في وجهه.

وأثناء مروره على الطّابق الذي يقع تحت طابقهما، توقّف دانتِس

أمام باب، وسأل إذا كان الخيّاط كادروس لا يزال يسكنُ هناك. فقال له البوّابُ إنّ الرّجل الذي يتحدّث عنه قد تورّط في مشاريع سيّئة، وأنّه اليومَ يديرُ نزلًا على طريق بلغارد في بلدية بوكير.

بعد نزوله، طلب دانتِس عنوانَ مالك المنزل في ممشى مييّون، وذهب إليه، وقدّم نفسه باسم اللورد فيلمور -كذا كان الاسم المكتوب في جواز سفره-، واشترى منه المنزل بمبلغ خمسةٍ وعشرين ألف فرنك؛ مبلغٌ يفوق قيمة المنزل الفعليّة بعشرة آلاف فرنك على الأقلّ، لكنّ دانتِس لو طُلب منه نصف مليون فرنكٍ ثمنًا للمنزل لدفعه فيه.

وفي اليوم نفسه أُخطِر الشّابان اللذان يسكنان في الطّابق الخامس، عن طريق كاتب العدل الذي هيّأ عقد الشّراء، أنّ مالك المنزل الجديد يخيّرهما أن يسكنا في أيّ شقّة يشاءان من شقق المبنى، من دون زيادة في ثمن الكراء؛ شرطَ أن يخليا الغرفتَين اللتين يشغلانهما.

لقد شغل الحدثُ الغريبُ سكّانَ ممشى مييّون، وخمّنوا تجاهه آلاف التخمينات، ولم يكن من بينها واحدٌ صحيح.

بيد أنّ ما اضطربت لهُ كلّ العقول واهتزت جميع النّفوس، هو أنّ الرّجل الغريبَ نفسه شوهدَ في المساء نفسه يتجوّلُ في قرية الكتالان، ويدخل منزلَ بحّارةٍ فقيرٍ، ويقضي ساعةً يسألُ عن أخبارٍ أناس كانوا قد رحلوا أو توفوا منذ خمسَ عشرة أو ستّ عشرة سنة.

وفي اليوم التالي تلقّى أهل الكوخ الذين كان قد حلَّ عندهم، وسألهم كلّ تلك الأسئلة، هديّةً مركبًا كتالانيًا جديدًا ومجهّزًا بالشّباك.

وقد ودّ أولئك النّاسُ الكرامُ شكرَ السّائل الغريب على كرَمه؛ لكنّه ما إن غادرهم حتّى شوهد، بعدما أعطى بعض التعليمات لبحارٍ، يغادرُ مارسيليا عبر باب آيكس.

26

نُزل جسر غار

إنّ من واتتهم، مثلي، فرصة أن يقطعوا مشيًا جنوبَ فرنسا، لابد وأنّهم لاحظوا في المنطقة بين بلغارد وبوكير، أي في منتصف المسافة تقريبًا بين القرية والمدينة، لكن بشكلٍ أقربَ إلى بوكير منه إلى بلغارد، قُلنا لا بدّ أنّهم قد لاحظوا نزلًا عُلّق فيه لوح صفيح يصرّ متّى هبّت أدنى نفحة ريحٍ، وعلى اللّوح رسمٌ فظيعٌ يمثّل جسر غار. هذا النّزلُ، إن اتّبعنا مجرى نهر رون، يقع على الجانب الأيسر من الطّريق، موليًا ظهره للنّهر؛ ويتوفّر النّزل على ما يُطلق عليه في لانغدوك تسميةُ بستان: – أي إنّ الجهة المقابلة لتلك التي يُفتح بابُها أمام الزّوارِ، تُفضي إلى موضع مسيَّج يحوي أشجارَ زيتون غير ناميةٍ، وبعض كروم التين التي لوّنَ الغبارُ أوراقَها بصبغةٍ من فضّة؛ وفي الفُرَج الفاصلة بين الأشجارِ ينمو الثوم والفلفل الحارّ والكرّاث؛ ثمّ أخيرًا، في أحد الأركانِ، شجرةُ صنوبرٍ عظيمة، كحارسٍ منسيّ، ترفع بكآبةٍ جذعها المرن، بينما قمّتها اليانعة تذوي تحت شمسٍ تبلغُ حرارتُها ثلاثين درجة.

كلّ تلك الأشجار، صغيرها وكبيرها، تميل منحنيةً طبيعيًا في الاتّجاه الذي تمرّ منه ريح الشّمال (المرسترال)، الرّيح التي هي إحدى آفات منطقة البروفانس الثلاث؛ والآفتين الآخرين، كما علمتم أم لم تعلموا، هما مجلس النّواب والبرلمان.

وهنا وهناك، على امتداد السّهل المحيط، الذي يشبه بحيرةً عظيمةً من ترابٍ، تنمو بعض سنابل الحنطة التي يزرعها بستانيّو البلد بدافع

الفضول قطعًا، والتي تصلح كلُّ واحدةٍ منها مجثمًا لحشرةٍ زيز تشيّعُ بأغنيتها الرتيبة المزعجة المسافرين التّائهين في هذه المرابع المقطوعة عن العالم.

منذ سبع سنواتٍ، أو ثمانٍ، تقريبًا، ظلّ يدير هذا النزل رجلٌ وامرأة، مختزلَين طاقم الشّغالين في خادمة تُدعى ترينيت، وعامل إسطبل يحمل اسم باكو؛ وكانا وحدهُما كافيَيْن للاستجابة لحاجات النُزل، منذ أن حُفرت قناةٌ تمتدّ من بوكير إلى إيغ-مورت، فجعلت تمرُّ منها السُّفُنُ والمراكبُ المسرعة.

هذه القناة، وكأنّما سعيًا منها إلى أن تجعل حسراتِ الشقيّ الذي أدّت إلى إفلاسه أقوى وأشدَّ، فقد مرّت من نهر رون الذي يرفدها والطّريق التي تغمُرها، أي على بعد مائة قدمٍ تقريبًا من النُّزل الذي خصصناهُ بوصفٍ أمين وإن كان موجزًا.

يمكن أن تُقدّر سنّ الرّجل الذي يدير هذا النُزل الصّغيرَ في أربعين إلى خمسٍ وأربعين سنةً، وهو رجلٌ طويل القامة، نحيفٌ وبارز العروق، عليه كلّ ما يميّز رجال الجنوب من سمات: عيناهُ طفوليّتان وبرّاقتان، أنفُه كأنف نسر، وأسنانُه بيضاء كأسنان حيوانٍ لاحم. وشعره الذي يبدو مصمّمًا على ألّا يستسلم للشّيب، على الرّغم من أولى أنفاس التقدّم في العمر التي هبّت عليه؛ وكذلك هو شأنُ لحيته التي تحوط وجهه كقلادةٍ سميكة ومجعّدة وبالكاد ترصّعها بعض الشعيرات البيضاء. بشرته، المدبوغة طبيعيًا، زادتها طبقةٌ من سخام اكتسبها اللّعينُ المسكين من وقوفه أمام عتبة بابه من الصّباح إلى المساء، منتظرًا وصولَ زبائن على الأقدام أو في عربات. انتظار يكاد ينتهي دائمًا بخيبة أمل، وأثناءه يكون الرّجلُ معرّضًا للشّمس الحارقة، لا يمنعُ أشعّتها عنه إلّا منديلٌ أحمرُ يعقده على رأسه على شاكلة البغّالين الإسبان. ولم يكن هذا الرّجل إلا غاسبار كادروس، الذي عرفناه سابقًا.

أمّا زوجتُه، التي كانت تحملُ قبل زواجها منه اسمَ مادلين راديل، فقد كانت امرأةً شاحبةً ونحيلةً وعليلة؛ أبصرت النّور نواحي آرل؛ وإن حافظت على بعض من آثارِ جمالِ أبناء بلدها البدائيِّ، فإنّها شهدت نفسها تذوي مُستهلَكةً في حمّىً صامتة من تلك الحمّيات المنتشرة بين الشّعوب المجاورة لأحواض إيغمورت ومستنقعات كامارغ. فكانت تظلّ إذًا على الدّوام جالسةً مرتعشةً في غرفتها بالطّابق الأوّل؛ إمّا ممدّدةً على أريكة، وإمّا مستندةً إلى سريرها، بينما زوجها عند الباب يضطلع بمهمّته المعتادة: مهمّةٌ يطيلها عن طيب خاطر، خاصّة وأنّه كلّما وجد نفسه رأسًا لرأس مع نصفه الآخر، نصفه المرّ، يكون مضطرًا إلى سماع شكاواها الأبديَّة ضدّ القدر، شكاوى لم يكن زوجها يردّ عليها إلا بكلماته الفلسفية: «اصمتي أيّتها الكاركونتية، إنّها مشيئةُ الربّ».

وأصلُ هذه التّسمية أنَّ مادلين راديل وُلدت في قرية لا كاركونت، الواقعة بين سالون ولامبيسك. والحالُ أنّه، سيرًا على نهج عادة أهل البلد في ألّا يسمّوا المرء أبدًا باسمه، وإنّما بلقب يطلقونه عليه، فإنّ زوجها اختار هذا اللقب بديلًا عن اسمها مادلين الذي يبدو أنعم وأرقّ من أن يتماشى مع لسانها الفظّ.

لكن على الرّغم من هذا الاستسلام المزعوم لتدابير القدر، إلا أنّه لا ينبغي أن نحسب أنّ صاحب النّزل لم يكن يحس بفداحة البؤس الذي ألقته فيه قناة بوكير اللعينة، وأنّه لا يعير اهتمامًا لشكاوى زوجته. لقد كان كجميع أهل الجنوب، رجلًا رصينًا ومستغنيًا عن كبير الحاجات، لكنّه كان مغرورًا فيما يتعلّق بالمظاهر؛ لذا كان الرّجلُ في وقت ازدهار أموره المالية، لا يتركُ أيّ فِرّادة[1] أو موكب تراسك[2] يمرّان، من دون أن يَبرُز

(1) احتفالية يتسابقُ فيها الرّجال على ظهور الخيل محاولين تعليم الخيول أو التيران الرّاكضة أمامهم بالحديد المحمّى.
(2) احتفالية من الفولكلور البروفانسالي، يعرض فيها حيوانٌ أسطوريّ من قشّ.

فيه هو والكاركونتية؛ هو في بدلة رجال الجنوب الخلّابة التي تجمع بين الأصلين الكتالاني والأندلسيّ، وهي في زيّ نساء آرل الجذّاب الذي تبدو أصوله راجعةً إلى اليونان والعرب؛ لكن ما لبثت أن اختفت، شيئًا فشيئًا سلاسل السّاعات، والحليّ، والأحزمة ذات الألوان العديدة، والصدريات المطرّزة، والجوارب ذات الحواشي الأنيقة، والنّعال ذات الأبازيم الفضيّة، وإذ لم يعد غاسبار كادروس قادرًا على أن يبدوَ في أبّهته الماضية، فقد تخلّى هو وزوجته عن كلّ مظاهر البذخ الدنيوية، وصار يكتفي، وقلبه يعتصر في صمتٍ، بأن يسمع ضجيج أفراحها يتردّد حتّى النّزل البائس الذي صار يحتفظ به كمأوى أكثر منه نُزلًا.

كان كادروس يقف، على عادته، أمام بابه، يجيل نظرته الكئيبة منتقلًا من عشبٍ عارٍ، تنقر فيه بعض الدّجاجات، إلى طرفَي طريقٍ خالية، تغور من إحدى طرفيها جنوبًا، ومن الآخر شمالًا؛ وفجأةً أجبره صوتُ زوجته الحادّ على ترك موضعه. دخل النُزل متبرّمًا وصعد إلى الطّابق الأوّل، من دون أن ينسى ترك الباب مشرعًا على مصراعيه، كأنّما يدعو المسافرين العابرين إلى ألّا ينسوه أثناء مرورهم.

وفي اللّحظة التي دخل فيها كادروس كانت الطّريق التي أتينا على ذكرها، والتي كانت تجوبها نظراتُه، عاريةً وخلاء بقدْر عري وخلاء الصّحراء في منتصف الظهيرة؛ كانت تمتدُّ بيضاءَ لا نهائيةً، بين صفّين من الأشجار الهزيلة، وكان واضحًا أنّ لا مسافرَ حرًا في اختيار ساعةٍ أخرى من النّهار، سيجازفُ بسَلك هذه الصّحراء الفظيعة في هذه السّاعة من النّهار.

لكن، وعلى الرّغم من كلّ الترجيحات السّابقة، فإنّ كادروس، لو كان بقي في موضعه، كان سيلمح فارسًا على صهوة جوادٍ قادمَين من ناحية بلغارد، بمشيةٍ مضبوطةٍ وأليفةٍ تشي بقوّة العلاقة الجامعة بين الرّاكب والمركوب. الحصانُ كان حصانًا مخصيًا، يمشي الهوينا

متهاديًا؛ والفارسُ كان راهبًا يرتدي السّوادَ ويعتمر قبّعةً ثلاثية الحواشي، على الرّغم من حرارة الشّمس الضّارية التي كانت إذّاك في تمام انتصاف اليوم؛ كانا يخبّان بسرعةٍ معقولة جدًا.

وإذ وصلا إلى الباب توقّفا؛ ويصعب الفصل فيما إذا كان الفارس هو من أوقف الحصانَ أم أنّ الحصانَ هو من أوقف الفارس؛ على أيّ حالٍ، ترجّل الرّجلُ عن صهوة جواده، وجرّ البهيمة من طرف اللّجام، وقادها ليربطها في بوابة خارجية متداعية؛ ثمّ تقدّم صوب الباب ماسحًا بمنديل قطنٍ أحمر العرق المتلألئ على جبينه. طرق الرّاهبُ الباب ثلاث مرّات بطرف العصا الحديد التي كان يحمُلها في يده.

على الفور نهض كلبٌ أسود وخطا خطواتٍ مطلقًا نباحه ومكشّرًا عن أنياب بيضاء حادّة: فعلان عدائيان يدلّان على قلّة احتكاكه بالبشر.

وعلى الفور هزّ وقعُ خطىً ثقيلة الدّرجَ الخشبيّ الممتدّ بطول الجدار، والذي كان ينزله، منحنيًاإلى الخلف، صاحب النّزل الذي يقفُ الرّاهبُ عند عتبته.

قال كادروس وقد أخذَت بمجامعه الدّهشة: - ها أنا ذا! ها أنا ذا! هلاّ خرست يا مارغوتان! لا تخف يا سيّدي، إنّه ينبح، لكنّه لا يعضّ. تريد نبيذًا أليس كذلك؟ حرارةٌ نذلةٌ هي! (ثمّ إذ انتبه إلى المسافر الذي أتاه، استدرك نفسَه) آه! آسف، لم أكن أعرف من الذي شرّفني بزيارته؛ ماذا تشتهي يا سيّدي الرّاهب؟ أنا طوعُ أمرك.

أخذ الرّاهبُ يتفرّس هذا الرّجل لثانيتين أو ثلاث بانتباهٍ غريب، لا بل بدا أنّه كان يسعى إلى أن يجرّ انتباه صاحب النّزل إليه؛ ثمّ إذ رأى أنّ ملامح الرّجل لا تشي بشيء اللهم إلا دهشته من عدم تلقّيه إجابةً، قدّرَ أنّ الوقت قد حان لكي يضع حدًا لهذه الدّهشة، فقال بنبرة إيطالية بيّنة:

– ألستَ الموسو[1] كادروس؟

أجاب المضيفُ وقد أدهشه السؤال أكثر ممّا أدهشه الصّمت: – بلى، إنّه أنا، خادمُك غاسبار كادروس.

– غاسبار كادروس... بلى، بلى.. أحسب أنّهما الاسم واللّقب الصّحيحان. ألم تكن تقيم فيما مضى بطريق مييّون، في الطّابق الخامس؟

– هو ذاك.

– وكنتَ خيّاطًا؟

– نعم. لكنّ الظّروف لم تعد جيّدة: إنّ الطّقس حارٌّ جدًّا في مارسيليا الخبيثة، إلى درجة أنّ النّاس قد ينتهي بهم المطاف إلى التّخلي نهائيًا عن الملابس. وعلى ذكر الحرّ، ألا تريد أن تنعش نفسك بمشروب يا سيّدي الرّاهب؟

– بلى، هاتِ قنينة من أجود خمورك، وسنستعيد الحديث، بعد إذنك، من حيث تركناه.

– كما تشاء يا سيّدي الرّاهب.

وكيلا يفلت فرصة بيع قنينةٍ من آخر ما بقي لديه من نبيذ كاهور، سارع كادروس إلى رفع سدادة كوّةٍ أُحدثت في الأرضية الخشب بهذه الغرفة من الطّابق الأرضيّ، التي كانت في آنٍ غرفةً ومطبخًا.

حين عاد بعد خمس دقائق ألفى الرّاهبَ جالسًا على كرسيّ مطبخ، مسندًا مرفقه إلى طاولةٍ مديدة، بينما مارغوتان، وقد بدا أنّه عقد صلحًا مع المسافر الفريد إذ سمعه، على غير العادة يطلبُ شيئًا، أراح على فخذه عنقَه الهزيل وعينه الكئيبة.

سأل الرّاهب مضيفَه، بينما المضيف يضع أمامه قنينة النّبيذ وكأسًا:

– هل أنت وحدك؟

---

(1) الموسيو: (السيّد) وقد نطقها بنبرة إيطالية، أي بضمّ السّين وحذف الياء.

- أوه، يا إلهي! نعم، إنّي أكاد أكون وحيدًا يا سيّدي الرّاهب، لأنّ زوجتي لا يمكن أن تساعدني بشيء، وهي المريضة على الدّوام: الكاركونتية المسكينة.

- آه، أنت متزوّج.

قالها الرّاهبُ مع ما يشي بالاهتمام، وهو يجيل في المكان نظرةً بدت كأنّما تقدّر قيمة الأثاث الوضيع في المنزل الفقير.

قال كادروس مطلقًا زفرةً: - تراني غير ثريّ يا سيّدي الرّاهب؟ لكن ما العمل؟ لا يكفي أن يكون المرءُ، في هذا العالم، شريفًا كي تزدهر ثروته.

حدّق فيه الرّاهب بنظرة ثاقبة.

استطردَ المضيفُ واضعًا يده على صدره وهازًّا رأسَه من أعلى إلى أسفل: - أجل، رجلٌ شريف؛ ليَ أن أفخر بهذا؛ والحال أنّ في عصرنا هذا ليس الجميع شريفًا.

قال الرّاهب: - إن كان ما تدّعيه صحيحًا فخيرٌ؛ لأنّي على قناعةٍ بأنّ المرء لا بدّ أن ينال جزاءَه عاجلًا أو آجلا، فإمّا أن يكافأ على خيره أو يعاقَبُ على شرّه.

أجاب كادروس بنبرةِ مرارة: - واجبك أن تقول ذلك يا سيّدي الرّاهب، واجبك أن تقوله؛ ولكلٍّ الحريّةُ في أن يصدّق ما تقوله أو لا يصدّقه.

- إنّك مخطئ يا سيّدي إذ تقول هذا، فلربّما أكون أنا نفسي بالنّسبة إليك الدّليل على ما قلتُه لك.

سأله كادروس دهشًا: - ما الذي تقصده؟

- ينبغي أن أتيقّن أوّلًا من أنّك الرّجل المنشود.

- أيّ حجّةٍ تريد منّي؟

- هل عرفتَ سنة 1814 أو 1815 بحّارًا يُدعى دانتِس؟

صاح كادروس، وقد اجتاحت وجهه حمرة أرجوانية، بينما عينا الرّاهب تتّسعان كأنّما لتحتويان مخاطبه:

- دانتِس؟ بالطّبع عرفتُ المسكين إدمون! حتّى إنّه كان من أعزّ أصدقائي.

- أجل، إنّي أحسب أن اسمه كانَ إدمون.

- بالطّبع كان اسم الفتى الصّغير إدمون، إنّي متيقّن من ذلك قدر يقيني من أنّ اسمي غاسبار كادروس. وما الذي فعلت الأيام بهذا المسكين إدمون، يا سيّدي؟ هل عرفتَه؟ ألا يزالُ حيًّا؟ هل هو حرٌّ؟ هل هو سعيد؟

- لقد مات في السّجن، أشدَّ يأسًا وأكثر بؤسًا من أولئك المحكومين الذين يسحبون خلفهم السلاسل في سجن تولون.

تبدّلت الحُمرةُ التي كانت قد اجتاحت وجه كادروس شحوبًا كشحوب الموت. استدار، ولمحه الرّاهب يمسح من عينه دمعةً بمنديل أحمرَ كان يتّخذه قبّعةً.

همس كادروس: - يا للفتى المسكين! هاك إذًا حجّةً على ما أقول لك يا سيّدي الرّاهب، حجّةً على أنّ الربّ لا ينعم بخيره إلا على الأشرار. إنّ العالم يسير من سيئٍ إلى أسوأ؛ ألا فلتُمطرنا السّماءُ بيومين من البارود وساعةٍ من النّار، وليُقضَ الأمرُ!

سأله الرّاهب: - يبدو أنّك كنت تحبّ هذا الشّاب من كلّ قلبك؟

- أجل يا سيّدي الرّاهب، وإن كنت ألوم نفسي لأنّي، للحظةٍ، حسدته على سعادته. لكنّي، أقسم لك بشرفي، أنّي منذ تلك اللحظة، وأنا أرثو لمصيره المشؤوم.

خيّم الصّمت لحظةً لم يكفّ الرّاهب فيها، بنظرتِه الثاقبة، عن مساءلة سيماء الرّجل.

واصل كادروس الكلام: - وهل عرفتَ المسكين إدمون؟

أجابَه الرّاهب: - لقد دُعيت إلى فراش احتضاره، لأمنحه العناية الدّينية.

سأله كادروس بصوت مختنق: - ما سبب وفاته؟

- ولأيّ سبب نموت في السّجن، حين نموت ونحن في الثلاثين من العمر، اللّهم ألّا بسبب السّجن نفسه؟

مسح كادروس العرق السائل على جبهته.

واصل الرّاهب الكلام: - الغريب في الأمر، هو أنّ دانتِس، وهو على فراش الموت، قد أقسم لي بأنّه حتّى لحظة وفاته تلك كان لا يزال يجهل سبب سجنه.

قال كادروس هامسًا: - حقًّا، حقًّا، ما كان بوسعه أن يعرف؛ إنّه لم يكذب عليك يا سيّدي الرّاهب.

- لذلك طلب منّي أن أعينَه على فكّ طلاسم مصيبته، تلك الطّلاسم التي لم يستطع فكّها بنفسه، وأن أنعش ذاكرتَه التي ربّما أصابها بعض الصّدأ.

كانت نظرةُ الرّاهب التي ما انفكّت تزدادُ ثباتًا، تلتهم التعبيرَ الكئيبَ الذي علا وجهَ كادروس.

واصل الرّاهب الكلام: - ثريٌّ إنجليزيّ، كان رفيقَ دانتِس في محنته، وغادر السّجن في العودةالثانية للملك؛ هذا الثريّ كانيملك جوهرةً ثمينةً جدًا، ولأنّ دانتِس كان قد أشرف عليه كما يشرف الأخ على أخيه، أثناء مرضٍ ألمّ به، فإنّه ترك له عربون عرفانٍ تلك الجوهرة. وبدلًا من أن يحاوِل دانتِس إغراء سجّانيه بالجوهرة، خصوصًا أنّهم قد يأخذوها منه ويغدرون به، فقد آثر الاحتفاظ بها بعنايةٍ، أملًا في الانتفاع بها إن هو غادر السّجن؛ ذلك أنّ الجوهرة وحدها كانت كفيلةً بأن تضمن له حياةً كريمةً.

سأله كادروس بعيون متّقدة: - هي إذًا كما تقول جوهرةٌ رفيعة القيمة؟

– كلّ شيء نسبيّ، بالنّسبة إلى دانتِس كانت رفيعة القيمة؛ إذ كان سعرها يقدّر بخمسين ألف فرنك.

– خمسون ألف فرنك! لقد كانت إذًا كبيرة بحجم بندقة؟

– كلّا، ليس تمامًا، لكنّك ستقسم بنفسك على قيمتها ما إن تراها، فأنا أحملها معي.

بدا كأنّ كادروس يفتّش تحت ملابس الرّاهب عن الوديعة التي تحدّث عنها.

أخرج الرّاهب من جيبه علبة صغيرة من جلد خشن أسود، وفتحها، وأرى كادروس الأعجوبة البرّاقة، وقد وُضعت فوق خاتمٍ بديعِ الشّغل.

– وهذه تساوي خمسين ألف فرنك؟

– من دون حساب قيمة الخاتم الذي يساوي الكثير.

ثمّ أقفل العلبة، ووضع في جيبه الجوهرة التي ظلّت تتلألأ في أعماق فكر كادروس.

سأله: – لكن كيف وصلت الجوهرة إلى ملكيّتك يا سيّدي الرّاهب؟ هل جعل منك إدمون وريثَه؟

– كلّا، لم يجعل منّي وريثَه، وإنّما منفّذ وصيّته. قال لي: «إنّ ليَ ثلاثة أصدقاء أعزّاء، وخطيبةً؛ وإنّي على يقين من أنّ أربعتهم يحسّون مرارة فقدي: أحد أولئك الأصدقاء اسمُه كادروس».

ارتجف كادروس. وأكمل الرّاهب حديثه متظاهرًا بأنّه لم يلحظ انفعالات كادروس، أمّا الثاني فاسمه دانغلار؛ والثالث، رغم كونه كان منافسي على قلب خطيبتي، ألّا أنّه كان يحبّني».

أضاءت ملامح كادروس ابتسامةٌ شيطانيّة، وندّت عنه حركةٌ تقاطع كلامَ الرّاهب.

فقال الرّاهب: – انتظر حتّى أكمل كلامي، وإذا ما كانت لديك ملاحظةٌ، فلتدلي بها فيما بعد.

وأكمل: - قال دانتِس: «والثالث، رغم كونه كان منافسي على قلب خطيبتي، إلاّ أنّه كان يحبّني، وكان اسمه فرنان أمّا خطيبتي، فلقد كانت تُدعى...». ما عُدتُ أذكر اسمَ خطيبته!

قاطعه كادروس: - مرسيدس.

قال الرّاهبُ بزفرةٍ مكتومة: - آه! أجل، هو ذاك اسمُها.

- ثمّ؟

قال الرّاهب: - هات كوز ماء!

هرع كادروس ينفّذ الأمرَ.

صبّ الرّاهبُ من ماء الكوز في كأسٍ وشربَ بضع جرعاتٍ. ثمّ سأل كادروس وهو يضع الكاس على الطّاولة: - أين توقّفنا؟

- الخطيبة كان اسمُها مرسيدس.

- أجل، صحيح. «فلتذهب إلى مرسيليا...»، ما زلت أتلو كلام دانتِس، فهمت؟

- تمام الفهم.

- «ولتبِع هذه الجوهرة، وتقسّم ما تحصّله من بيعها إلى خمسة أقسام، ثمّ وزّع الأقسامَ على أصدقائي الخمسة، الكائنات الوحيدة التي أحبّتني على هذه الأرض!

- لمَ خمسة أقسام؟ أنت لم تذكر سوى أربعة أشخاص!

- لأنّ الخامس مات، بحسب ما قيل لي... فقد كان خامسكم والد دانتِس...

قال كادروس، وقد بلغ من التأثّر مبلغًا بسبب ما يموج في نفسه من انفعالات:

- للأسف، نعم! للأسف، نعم! لقد مات الرّجل المسكين!

قال الرّاهبُ باذلًا جهدًا كبيرًا كي يوهم بعدم تأثّره: - لقد علمت بالنّبأ

في مرسيليا؛ لكن مضى على موته أمد بعيدٌ، بحيث لم أستطع معرفةَ التفاصيل... هل تعرف أنت شيئًا عن نهاية هذا الشّيخ؟

قال كادروس: - آه! ومن بوسعه أن يعرف ذلك أكثر منّي؟... لقد كان بابُ بيتي لصق باب بيت الرّجل الطيب... آه، بعد سنةٍ من الألم لفقدان ابنه، مات الشّيخ المسكين كمَدًا.

- لكن، ما كان سبب وفاته؟

- لقد شخّص الأطباء مرضه... كان مصابًا بالتهاب معوي، على ما أحسب؛ ومن يعرفونَه، قالوا إنّه ماتَ ألمًا... وأنا الذّي شهدت موتَه، أقول إنّه ماتَ...

توقّف كادروس عن الكلام.

فقال الرّاهب وقد اختنق صدره: - ماتَ من ماذا؟

- مات... مات جوعًا.

صاح الرّاهب قافزًا من المقعد الذي كان يجلس عليه: - مات جوعًا؟ مستحيل! مستحيل! حتّى أحقرُ الحيوانات لا تموت جوعًا! الكلاب الضّالة الهائمة في الشّوارع تجد يدًا عطوفًا ترمي إليها بكسرة خبز؛ بينما رجلٌ، مسيحيّ، يموت جوعًا وسط رجالٍ آخرين يدّعونَ أنّهم على دينه! مستحيل! أوّاه! مستحيل!

استأنف كادروس الكلامَ: - لقد قلتُ ما قد قلتُه!

أجابه صوتٌ قادم من الدّرج: - وإنّك مخطئ، ما شأنُك أنت؟

استدارا الرّجلان، فرأيا من خلال قضبان مستند الدّرج رأسَ الكاركونتية العليلَ؛ كانت قد أتت، وجلست عند العتبة الأعلى، مسندةً رأسها إلى رُكبتيها.

قال كادروس: - وما دخلك أنت يا امرأة؟ إنّ السيّد يطلب منّي معلومات، وواجبُ الأدب يفرض عليّ أن أجيبَه.

- أجل، لكن واجب الحذر يفرض عليك أن ترفض. ما أدراك إلامَ يريد أن يجرّك يا غبيّ؟

قال الرّاهب: - أريد أن أجرّه إلى غايةٍ خيرٍ، أؤكّد لك يا سيّدتي. ليس لدى زوجك ما يخشاهُ، ما دام يجيبُ صدقًا.

- ليس لديه ما يخشاه، أجل! دائمًا ما تجري الأمور على هذا النّحو: الوعود الجميلةُ ابتداءً، فالاكتفاء بالقول إن ليس لدينا ما نخشاه؛ ثمّ الانصراف من غير تنفيذ ما قُدّم من وُعودٍ؛ وأخيرًا، في صباح من الصّباحات تنزل المصيبةُ على رأس المساكين من دون أن يدروا لها سببًا.

- اطمئنّي سيّدتي، لن تأتيك أيّ مصيبةٍ من جهتي، أؤكّدُ لك.

غمغمت الكاركونتية كلماتٍ غير مسموعة، وتركت رأسها يهوي على ركبتيها، بعدما كانت قد رفعته لحظةً، واستمرّت ترتجفُ من الحمّى، تاركةً زوجها حرًا في إكمال سرده، لكن مع التموضُع بحيث لا تُفلت منها كلمةٌ ممّا يُقال.

أثناء ذلك، كان الرّاهب قد شرب رشفات ماء، واستعاد ثباتَه.

قال: - لكن، هل تخلّى الجميع عن ذاك الشّيخ المسكين، حتّى يموت تلك الميتة المهينة؟

- أوه يا سيّدي! لم تتخلَّ عنه مرسيدس الكتالانية، ولا تخلّى عنه السيّد موريل، بيد أنّ الشّيخ صار يحمل كراهيةً عميقةً لفرنان، فرنان نفسه الذي (وهنا ندّت عن كادروس ابتسامة متهكّمة) أسماه إدمون صديقًا.

- أَولم يكن كذلك؟

أتى صوتُ المرأة من الدّرج مغمغمًا: - غاسبار، يا غاسبار، حذارِ ممّا توشكُ أن تقولَه!

توقّف كادروس لحظةً، ثمّ من دون أن يعدّل الجواب الذي كان يتهيّأ لأن يقوله، قال:

- وهل يعقل أن يصادقنا من نسلبُه امرأتَه؟ إنّ دانتِس الذي كانَ يملك قلبًا من ذهب، كان يحسب جميع أولئك النّاس أصدقاء... المسكين

إدمون! الحقّ، خيرًا أنّه لم يعلم شيئًا ممّا جرى، وإلا لما استطاع ساعة احتضاره أن يسامحهم على ما فعلوه به... (أكمل كادروس بلغته التي لم يكن ينقصها شيءٌ من الشّعرية القاسية) ومهما قيل، فأنا أظلُّ أخشى لعنة الموتى أكثر ممّا أخشى كراهية الأحياء.

قالت الكاركونتية: - غبيّ!

استأنف الرّاهب الكلام: - هل تعلم إذًا، ما فعله فرنان بدانتِس؟

- هل أعلمه؟ أعتقد ذلك!

- تكلّم إذًا.

قالت المرأة: - غاسبار، افعل ما شئتَ، فأنت السيّد، لكن إن كنت تثق بي لا تقُل شيئًا.

قال كادروس: - هذه المرّة أظنّ أنّك على حقّ يا امرأة.

استأنف الرّاهب الكلام: - لا تريد إذًا أن تقول شيئًا.

قال كادروس: - ما فائدة الكلام! لو أنّ الصّغير كان لا يزال على قيد الحياة، فليأتِ إليّ، وسوف يعلم علم اليقين أصدقاءَه من إعدائه؛ لكنّه تحت التراب، كما قُلتَ، ولا سبيل لديه إلى الكراهية أو الانتقام، فلنغلق هذه القضيّة.

قال الرّاهبُ: - تريد منّي إذًا أن أعطيَ هؤلاء الرّجالَ الذين سمّيتَهم خونةً وأصدقاءَ مزيّفينَ مكافأةً قُيّضت للأوفياء؟

قال كادروس: - أجل، أنت محقّ. ثمّ فيمَ ستعنيهم اليومَ تركةُ دانتِس: مجرّد قطرةٍ في بحر!

عقّبت المرأة: - من دون أن تنسى أنّ هؤلاء الرّجال يستطيعون سحقك بحركة واحدة.

- كيف ذلك؟ هل صار هؤلاء الرّجالُ اليوم أغنياء ونافذين؟

- أنت لا تعرف إذًا مآلهم؟

- كلاّ، أخبرني أنت.

بدا كادروس متفكّرًا لحظةً، ثمّ قال: - كلّا، سيطول الحكي.

قال الرّاهب بنبرةٍ تنطوي على أشدّ اللامبالاة: - لك حريّة الصّمت يا صديقي، وإنّي لأحترم تردّدك؛ ثمّ إنّ ما تفعله الآن لا يفعله إلاّ إنسانٌ خيّرٌ. لنقفل هذا الموضوع إذًا. ما الذي كُلّفتُ به؟ كلّفت بعملٍ شكليّ بسيط. سوف أبيع إذًا هذه الماسة.

ثمّ إنّه أخرج العلبة من جيبه، وفتحها، وجعل الجوهرة تتلألأ أمام عيني كادروس المبهورتَيْن.

قال كادروس بصوتٍ أجشّ: - تعالي إذًا، فانظري، يا امرأة!

قالت الكاركونتية وهي تقوم من مجلسها وتنزل الدّرج بخطوةٍ على قدرٍ من الثبات: - إنّها ماسة! ما قصّة هذه الماسة؟

قال كادروس: - أوَلم تسمعي يا امرأة؟ إنّها ماسةٌ أورثنا الصّغير إيّاها: والده في المقام الأوّل، ثمّ أصدقاءه الثلاثة، فرنان ودنغلار وأنا، ثمّ خطيبته مرسيدس. الماسة تساوي خمسين ألف فرنك.

قالت: - أوه! يا للجوهرة الجميلة!

تساءل كادروس: - من حقّنا إذًا خُمس المبلغ؟

فأجابه الرّاهب: - أجل يا سيّدي، بالإضافة إلى حصّة والده التي أظنُّ أن لي صلاحية قسمتها عليكم أنتم الأربعة.

تساءلت الكاركونتية: - ولماذا على الأربعة؟

- لأنّ الأربعة هم أصدقاء إدمون.

غمغمت المرأة بدورها: - ليس الخائنون بالأصدقاء!

قال كادروس: - أجل، أجل، وهذا ما كنتُ أقوله: إنّ في مكافأة الخونة، لا بل المجرمين ربّما، انتهاكًا للحرُمات، أو حتّى تدنيسًا.

استأنفَ الرّاهب بهدوء، وهو يعيد الماسة إلى جيبه: - أنت من قرّر ذلك؛ والآن أعطني عناوين أصدقاء دانتِس كي أنفّذ وصيّته الأخيرة.

سال العرق قطراتٍ ثقيلةً على جبين كادروس؛ ورأى الرّاهب يقوم من مقعده ويتوجّه صوب الباب كي يلقيَ نظرةً على حصانه، ثمّ يعود.

كان كادروس وزوجته ينظران إلى بعضهما بعضًا بتعبير لا يوصف.
قال كادروس: - سوف تكون الماسة بأكملها لنا.
أجابته زوجته: - هل تعتقد ذلك؟
- لن يخدعنا رجلُ كنيسة.
قالت المرأة: - افعل ما بدا لك؛ أمّا أنا فلن أتدخّل في الأمر.
ثمّ عادت تصعد الدّرج مرتعشةً؛ أسنانها كانت تصطكّ رغم حرارة الجوّ الحارقة. وحين بلغت الدّرجة الأخيرة توقّفت لحظةً.
قالت: - فكّر في الأمر جيّدًا يا غاسبار!
أجابها: - لقد عزمت أمري.
صعدت الكاركونتية إلى غرفتها مطلقةً زفرةً؛ وسُمع السّقفُ يئنّ تحت وقع خطواتها، إلى أن بلغت مقعدها، فتهاوت بثقلها فيه.
سأله الرّاهب: - علامَ عزمتَ أمركَ؟
أجابه كادروس: - على أن أقول لك كلّ ما جرى.
قال الرّاهب: - أعتقد بأنّ هذا هو أفضل ما يمكن أن تفعله؛ ليس لأنّي أرغب في معرفة ما تخفيه؛ وإنّما لأنّك ستمكّنني من أن أوزّع تركة المرحوم كما ينبغي.
قال كادروس وقد التهب وجهه بحمرة الأمل والجشع.
قال الرّاهب: - إنّي مُصغ إليك.
قال كادروس: - مهلًا، قدّ يقاطعنا أحدٌ ونحن في اللحظة الأهمّ، ولن يكون ذلك جيّدًا؛ ثمّ يستحسن ألّا يعلم أحدٌ بأمر قدومك.
ثمّ قصد باب النّزل فأقفله، وإمعانًا في الاحتياط وضع عليه العارضة التي يضعها ليلًا.
وأثناء ذلك كان الرّاهب قد اختار موضعه ليتمكّن من سماع القصّة على راحته؛ فجلس في ركن بحيث يظلّ متواريًا في الظّل بينما الضوء ينصبُّ غامرًا وجه مخاطبه؛ وبرأس محنيٍّ ويدَيْن مضمومتين، أو بالأحرى متصلّبتين، كان متأهّبًا لأن ينصبّ بكامل اهتمامه.

قرّب كادروس مقعدًا وجلس إزاءه.

قال صوت الكاركونتية المرتجف، وكأنّما كانت ترى عبر الأرضية الخشب المشهد الذي يتحضّر: - تذكّر أنّي لم أدفعك إلى فعل أيّ شيء من هذا!

قال كادروس: - حسنًا، حسنًا، لنقفل هذا الموضوع، وحدي أتحمّل كلّ ما سيقع!

وبدأ الرّجل القصّة.

27

القصّة

قال كادروس: - قبل كلّ شيء، أرجو منك سيّدي أن تعدني بأمر.

أجابه الرّاهب متسائلًا: - أيّ أمر؟

- إذا ما استعملتَ يومًا التفاصيل التي سأسردُها عليك، أيّما استعمالٍ، فلا ينبغي أبدًا أن تقول إنّي أنا مصدرُها. ذاك أنّ المعنيّين بالأمر أغنياء ومتنفّذين، ولو أنّهم لمسوني ولو بطرف إصبعهم فسيحطّمونني كالزّجاج.

قال الرّاهب: - كن مطمئنًا، يا صديقي، إنّي راهبٌ، والاعترافات ترافقني إلى القبر؛ وتذكّر أنّنا لا ننشدُ غايةً سوى إنفاذ وصيّة صديقنا كما ينبغي؛ تحدّث إذًا من دون تحفّظ، ومن دون كراهية؛ قُل الحقيقة، الحقيقة كلّها: لم أكن أعرفك، وعلى الأرجح لن أعرف الأشخاص الذين سوف تحدّثني عنهم؛ ثمّ إنّي إيطاليّ ولستُ فرنسيًا؛ انتمائي إلى الرّب وليس إلى البشر، وسأعود إلى ديري الذي لم أغادره إلا لكي أنفّذ آخر وصايا رجلٍ محتضر.

بدا أنّ هذا الوعد الإيجابيّ قد طمأن كادروس.

- حسنًا إذًا! في هذه الحال سوف أقول أكثرَ، سأخبرك بكلّ شيء، إذ عليّ أن أفضح تلك الصّداقات الزّائفة التي كان يحسبها إدمون المسكين صادقةً.

قال الرّاهب: - لنبدأ بوالده رجاءً. لقد حدّثني إدمون كثيرًا عن هذا الشّيخ الذي كان يكنّ له حبًّا عظيمًا.

قال كادروس هازًّا رأسَه: - إنّها قصّةٌ حزينةٌ يا سيّدي؛ لعلّك مطّلع على بداياتها.

أجابه الرّاهب: - أجل، لقد حكى لي إدمون أشياء حتّى لحظة توقيفه في حانة صغيرة قرب مارسيليا.

- في حانة لاريزيرف! يا إلهي، أجل! ما زلت أرى الأمور كأنّها حاضرةٌ أمامي.

- ألم يحدث ذلك أثناء وليمة الخطبة؟

- بلى، والوليمة التي بدأت بالمرح انتهت نهاية حزينةً: - دخل علينا ضابط شرطة، يتبعه أربعة مسلّحين واقتيدَ دانتِس.

قال الرّاهب: - هنا حدود ما أعرفه يا سيّدي؛ ودانتِس نفسه لم يكن يعرف أكثر من ذلك، إلاّ ما كان يتعلّق بنفسه، لأنّه لم يرَ مرّةً أخرى قطّ أيّ شخص من الأشخاص الخمسة المذكورين، ولا سمع بأخبارهم.

«وإذًا، ما إن أُلقيَ القبض على دانتِس حتّى هرع السيّد موريل يستقصي أخبارَه: وكانت الأخبار حقًّا حزينةً. عاد الشّيخُ إلى منزله وحيدًا، وطوى ملابس الزّفاف باكيًا، وقضى النّهار بأكمله يذرع غرفته جيئةً وذهابًا، وحين حلّ المساء لم ينَم، إذ كنتُ تحتَ بيته، وظللت أسمع خطواته طول اللّيل؛ وينبغي أن أقول إنّني أنا نفسي لم أنَم تلك اللّيلة، إذ كان وجع الشّيخ يسبب لي ألمًا كبيرًا، وكلّ خطوةٍ يخطوها كانت تعصر قلبي، وكأنّما كان يضع قدميه على صدري.

«في اليوم التالي، أتت مرسيدس إلى مارسيليا تلتمس العفو من السيّد فيلفور: ولم تحصل على شيء؛ واستغلّت الفرصة لزيارة الشّيخ. وإذ ألفته كئيبًا مندحرًا، بعدما قضى ليلته من دون أن يريح جسده على السّرير ولا أكل شيئًا منذ اليوم السّابق، أرادت أن تأخذه عندها كي تعتني به؛ لكنّ الشّيخ لم يرضَ أبدًا بأن يذهب معها.

«ظلّ يقول: كلّا، لن أترك المنزل، لأنّ ولدي المسكين لا يحبّ أحدًا

قدر حبّه لي، فإن خرج من السّجن، سأكون أنا أوّل من يركض إليه ليراه. ما الذي سيقوله إن لم يجدني في انتظاره؟

«وكنتُ أنا أنصت إلى كلّ ذلك من ركني، إذ كنت أتمنّى أن تقنع مرسيدس الشّيخَ بالّذهاب معها؛ وقعُ تلك الخطوات فوق رأسي كلّ يوم، لم يكن يترك لي لحظةَ راحةٍ».

سأله الرّاهب: - لكن، ألم تصعد عند الشّيخ كي تواسيه؟

أجابه كادروس: - آه يا سيّدي! ليس بوسعنا أن نواسي إلا من يريد أن يواسى؛ وهو لم يكن يريد ذلك: ثمّ بدا لي أنّه كان، لسبب أجهله، ينفر من رؤيتي. وذات ليلةٍ بينما أنصت إلى شهقاته، لم أستطع المقاومة، فصعدت إليه، لكن حين وصلت إلى الباب، كان قد كفّ عن الشّهيق، كان يصلّي. ولن أقدر أن أصف لك أيّ كلماتٍ بليغةٍ وأيّ تضرّعاتٍ مثيرةٍ للشّفقة، كان يصوغها الشّيخ. كان الأمر يتجاوز الورع، يتجاوز الوجع؛ حتّى أنا مدّعي الورع، أنا الذي لا أحبُّ اليسوعيّين، قلت لنفسي يومها: الحقُّ أنّي سعيدٌ بوحدتي، سعيدٌ أنّ الربّ لم يعطني أطفالًا، فلو أنّي كنت أبًا وأحسستُ ألمًا كألم هذا الشّيخ، فلن أجد في ذاكرتي ولا في قلبي مثل ما يقوله هو للربّ، ولسوف أقصد البحر مباشرةً ألقي فيه بنفسي كي أضع حدًّا لعذاباتي.

غمغم الرّاهب: - أبتي المسكين!

«يومًا عن يوم، كان يزداد وحدةً وعزلة. وكثيرًا ما كان يأتي عنده السيّد موريل أو مرسيدس، لكنّ بابَه كان مغلقًا؛ وعلى الرّغم من أنّي كنت متيقّنًا من أنّه في البيت، إلا أنّه لم يكن يجيبُ أحدًا. وذات يومٍ حين استقبل مرسيدس، على غير عادته، وكانت الصبيّة المسكينة، الغارقة هي نفسها في اليأس، تحاول مواساته، قال لها: ثقي بي يا بنتي؛ لقد مات؛ وبدلًا من أن ننتظره، هو من ينتظرنا. إنّني سعيد، فأنا الأكبر سنًّا بيننا، وبالتّالي سأكون الأسرع إلى لقائه.

«ومهما بلغت طيبة الإنسان، لا بدّ أن ينتهي إلى الكفّ عن رؤية النّاس الذين تسبّب له رؤيتهم الحزنَ؛ وانتهى المطاف بدانتِس إلى أن عاش وحيدًا تمامًا: ما عدتُ أرى أحدًا يتردّد على بيته إلا أناسًا غرباءَ، يصعدون إليه ثمّ ينزلون برُزم لا يحكمون إخفاء ما بها؛ وقد أدركت من البداية ما كانت تلك الرزم: كان الشّيخ يبيع شيئًا فشيئًا ما يضمن به عيشه؛ وفي نهاية المطاف استنفد الرّجل الطيّب كلّ متاعه الفقير؛ وكان مدينًا بثلاثة أشهر من الإيجار، فهُدّد بالطّرد؛ طلب مهلة ثمانية أيّام، فمُنحَها. وأنا أعلم هذه التّفاصيل لأنّ مالك البيت دخل عندي بمجرّد الخروج من عنده.

«في أيام المهلة الثلاثة الأولى كنت أسمعه يتمشى على دأبه؛ لكن في اليوم الرّابع ما عدت أسمع شيئًا؛ هرعت إليه. كان الباب مغلقًا؛ لكن عبر فتحة القفل لمحته في حالٍ من الشّحوب قدّرتُ معها أنّه مريض، فأخطرت السيّد موريل، وركضت إلى مرسيدس. فهرع إليه كلاهما. أحضر السيّد موريل طبيبًا؛ شخّص الطّبيب التهابًا في المعدة وأمر بحميةٍ. كنت حاضرًا يا سيّدي، ولن أنسى ما حييت ابتسامةَ الشّيخ من أمرِ الطّبيب.

«مذّاك عاد الشّيخ إلى فتح بابه. فقد صارت له الآن ذريعةٌ جيّدة كي لا يتناول الطّعام: الطّبيبُ أمرَ بحمية».

أطلق الرّاهبُ ما يشبه التّنهيدة.

قال كاردوس: – هذه القصّة تثير اهتمامك يا سيّدي، أليس كذلك؟

أجابه الرّاهب: – بلى؛ إنّها قصّة مؤثّرة.

«عادت مرسيدس؛ وألفته في حالٍ من التدهور حتّى إنّها أرادت، كما أوّلَ مرّة، أن تصطحبه معها إلى بيتها؛ وكذلك كان رأيُ السيّد موريل الذي همّ بأن ينقله بالقوّة؛ لكنّ صراخ الشّيخ كان من القوّة بحيث أخافهما. ظلّت مرسيدس عند طرف سريره، أمّا السيّد موريل فانصرف

وهو يشير إلى الكتالانية بأنّه قد ترك مبلغًا من المال عند المدفأة. لكنّ الشّيخ رفض أن يأخذ أيّ شيءٍ، متحجّجًا بوصفة الطّبيب. وأخيرًا، بعد ثمانية أيّام من اليأس والصّوم، توفي الشّيخُ لاعنًا أولئك الذين كانوا سببًا في مصابه، وقائلًا لمرسيدس: إن قُدّر لك أن تَرَي صغيري إدمون، فأخبريه أنّي متُّ راضيًا عنه».

قام الرّاهبُ، ولفّ لفّتين في الغرفة وهو يمسك بيدٍ راجفةٍ حلقَه الجافّ.

- وتظنُّ أنّه مات...

أجاب كادروس: - جوعًا... يا سيّدي، مات جوعًا؛ متأكّد من ذلك قدرَ يقيني من أننا هنا معًا مسيحيّان.

تناول الرّاهبُ بيدٍ متشنّجةٍ كأسَ ماء لا يزال ممتلئًا إلى النّصف، وأفرغه في جوفه جرعةً واحدةً، ثمّ عاد إلى الجلوس محمرَّ العينين شاحبَ الخدّين.

قال بصوتٍ أجشّ: - اعترفُ بأنّها قصّةُ شقاءٍ عظيم!

- شقاءٌ عظيمٌ يا سيّدي، خاصّة أنّ يد الربّ لم تتدخّل فيها، وإنّما هي صنيعُ البشر وحدَهم.

قال الرّاهب: - هيّا، لننتقل إلى ما كان من أمر أولئك الرّجال؛ لكن (واصل بنبرةٍ تكاد تكون متوعّدة) ضع ببالك أنّك ملزمٌ بأن تخبرني الحقيقة كاملةً. حسنًا، من هؤلاء الرّجال الذين قتلوا الابن يأسًا والأبَ جوعًا؟

- هما رجلانِ كانا يحسدانه، يا سيّدي، الأوّل بباعثٍ من الحبّ، والثّاني بباعث من الطّموح، والرّجلان هما فرنان ودانغلار.

- وكيف تجلّى حسدهما؟ أخبرني!

- لقد وشيا بإدمون، باعتباره عميلًا بونابرتيًا.

- لكن أيّهما وشى به فعلًا، من منهما المذنب الفعليّ؟

- كلاهما يا سيّدي، فأحدهما كتب الرّسالة، والآخر أرسلها بالبريد.
- وأين كُتبت تلك الرّسالة؟
- في الحانة نفسها، قبل تاريخ الزّواج بيوم.
غمغم الرّاهب: - كذلك كان، كذلك كان. أيا فاريا! فاريا! للّه ما أخبَرَك بالرّجال والأمور!
سأل كادروس: - ماذا تقول يا سيّدي؟
- لا شيء، واصل!
الوشاية كتبها دانغلار، وكتبها بيسراه حتّى لا يُتعرَّفَ على خطّه، وفرنان هو من أرسَلَها.
صاح الرّاهب بغتةً: - لكنّك كنتَ هناك!
قال كادروس دهشًا: - أنا! من أخبرك أنّني كنت هناك؟
أدرك الرّاهب أنّه تسرّع وتمادى.
قال: - لا أحد، لكن كي تعرف كلّ هذه التّفاصيل حقّ المعرفة، ينبغي أن تكون شاهدًا عليها.
قال كادروس بصوتٍ مخنوق: - أجل، كنت هناك!
قال الرّاهب: - ولم تعترض على هذا الظّلم؟ أنت متواطئ معهم إذًا.
قال كادروس: - لقد أسكراني معًا، يا سيّدي، إلى درجة أنّي فقدت عقلي تقريبًا. لم أكن أرى الأمور إلا عبر ضباب. قلتُ كلّ ما بوسع رجل في وضعي أن يقولَه، لكنّهما كانا يجيبانني بأنّ الأمر مجرّد مزحة، وأنّهما سيقفان عند هذا الحد.
- وفي اليوم التالي، في اليوم التالي يا سيّدي شهدتَ بنفسك أنّ الأمر لم يكن مجرّد مزحة؛ ومع ذلك لم تقل شيئًا وأنت تراهم يلقون القبض على إدمون.
- أجل يا سيّدي، كنتُ هناك، وأردت أن أتكلّم، أن أقول كلّ شيءٍ، لكنّ دانغلار منعني؛ قال لي: «ماذا لو أنّ دانتِس حقًا مذنبٌ،

وأنّ السّفينة رست على جزيرة إلبا، وأنّه كلّف حقًا بإيصال الرّسالة إلى جماعة البونابرتيّين بباريس؛ إن وجدوا عنده رسالةً تدينُه، فإنّ كلّ من يدعمه سيُعتبر شريكًا له»؛ أعترف أنّي كنت أخاف السيّاسة كما كانت تمارسُ آنذلك؛ فصمتُّ، كان ذلك جبنًا منّي، أعترف بذلك، لكنّي لم أُجرِم.

– فهمت، أنت تهاونت وتركتهم يفعلون ما فعلوه، وهذا كلّ ما في الأمر.

– أجل سيّدي، وذاك هو النّدم الذي أجترّهُ ليلًا ونهارًا. أقسم لك أنّي كثيرًا ما أصلّي للربّ طالبًا الصّفح، خاصةً وأنّ الفعل الذي أقدمت عليه، الذنبَ الوحيد الذي ألوم نفسي عليه، هو بلا ريب سبب مِحَني كلّها. مِحَني كلّها تكفيرٌ عن لحظةِ أنانيةٍ، ولذا أقول دائمًا للكاركونتيّة: «اصمتي يا امرأة! الرّب هو الذي شاء لنا هذه الحياة».

وأخفض كادروس رأسَه، وعلى وجهه كلّ أمارات التوبة الصّادقة.

قال الرّاهب: – حسنًا، سيّدي، لقد تكلّمت بصدقٍ. ومن يؤنّب نفسَه على النّحو الذي فعلتَه، يستحقّ المغفرة.

– ولكنّ دانِتس ماتَ، ولم يسامحني.

قال الرّاهب: – لم يكن يعلمُ بما جرى...

– ولكن لعله قد صار الآن يعلمُ؛ يقالُ إنّ الأموات يعرفون كلّ شيء!

ران الصّمت لحظةً، قام أثناءها الرّاهب من مجلسه، وخطا خطواتٍ في المكان متفكّرًا؛ ثمّ عاد إلى موضعه وجلس.

قال: – لقد ذكرت مرّتين أو ثلاثًا اسم رجلٍ يدعى السيّد موريل. من هو هذا الرّجل؟

– كان هو مالك سفينة **الفرعون**، رئيس دانِتس.

– وأيّ دورٍ اضطلع به في هذه القصّة الحزينة؟

– دور الرّجل الشّريف، الشّجاع، العطوف يا سيّدي. عشرين مرّةً

حاول التدخّل لصالح إدمون؛ وحين عاد الإمبراطور، كتبَ، توسّلَ، توعّد، لدرجة أنّه مع الرّجوع الثاني للملك اضطُهد بوصفه بونابرتيًا. مرّاتٍ ومرّاتٍ، كما سبق أن قلتُ، أتى إلى بيت الشّيخ دانتِس راجيًا أن يصحبه، ويومًا أو يومين قبل وفاة الشّيخ كان قد ترك عند المدفأة، كما سبق أن قلتُ أيضًا، مبلغًا من المال قُضيَت به ديون الرّجل الطيّب، وأُقيمت مراسيم دفنه؛ ممّا مكّن الشّيخ المسكين من أن يموت كما عاش، أي من دون أن يسيء إلى أحد. وما زال الكيس الذي ترك فيه موريل المال بحوزتي، كيس بخيط أحمر كبير.

سأله الرّاهب: - وهذا السيّد موريل، هل لا يزال على قيد الحياة؟

- نعم.

- في هذه الحال سيكون رجلًا مباركًا من الربّ... لا بدّ أنّه ثريٌّ... وسعيد؟

ابتسم كادروس بمرارةٍ، وقال: - أجل، سعيدٌ، مثلي تمامًا.

صاح الرّاهب: - السيّد موريل شقيّ!

- يكاد يلامس البؤس يا سيّدي، لا بل يكاد يلامس العار.

- كيف؟

- أجل يا سيّدي، هذا هو الواقع: بعد خمسٍ وعشرين سنةً من العمل، وبعدما استطاع أن يبلغ مكانةً مشرّفةً في ميدانً التّجارة بمارسيليا، تعرّض السيّد موريل لإفلاسٍ تامّ. لقد خسر خمس سُفنٍ في سنتين، عانَى ثلاث أزماتٍ ماديّة رهيبةً، ولم يعد له من رجاءٍ إلا في سفينة **الفرعون** نفسها التي كان يقودها إدمون، والتي يُفترض أن تعود من الهند محمّلةً بالحرير والقماش. وفي حال ما إذا فشلت السّفينة، فشلَ سابقاتها، فسيحكم على موريل بالضّياع.

- وللشقيّ زوجة وأولاد؟

- أجل لديه امرأةٌ تجابه كلّ ما يقع كقدّيسةٍ؛ ولديه ابنةٌ كانت على

وشك الزّواج من رجلٍ تحبّه، لكنّ عائلة الشّاب ترفض زواج ابنها من ابنة رجلٍ على وشك إعلان إفلاسه؛ ولديه أيضًا ولدٌ ملازمٌ في الجيش؛ لكنّ كلّ هذا، كما تعلم، لا يخفّف آلام الرّجل المسكين بقدر ما يزيدها. لو أنّه كان بمفرده لأطلق على رأسه النّار وقُضي الأمر.

غمغم الرّاهب: - إنّه لأمرٌ فظيع!

قال كادروس: - هاك كيف يكافئ الربّ الفضيلة يا سيّدي. وانظر إليّ أنا، أنا الذي لم أرتكب في حياتي ذنبًا إلا ذاك الذي أقررتُ به، انظُر إلى البُؤس الذي أعيش فيه. أنا الذي بعدما شهدتُ وفاة زوجتي بسبب الحمّى، عاجزًا عن أن أفعل لها شيئًا، ها أنا ذا أموتُ جوعًا كما ماتَ والدُ دانتِس، بينما فرنان ودانغلار يسبحان في الذّهب.

- وكيف ذلك؟

- لأنّ أمورهما سارت على أفضل ما يكون، بينما أمور الرّجال الشّرفاء تسير على أسوء نحو.

- وما الذي حلّ بدانغلار؟ فهو المذنب الأوّل، أليس كذلك؟ المحرّض؟

- ما الذي حلّ به؟ لقد ترك مارسيليا؛ لقد صار، بتوصيةٍ من السيّد موريل الذي كان يجهل جرمه، كاتب ضبطٍ لدى مصرفيٍّ إسبانيّ؛ وإبّان الحرب الإسبانية، تكلّف بجزء من إمدادات الجيش الفرنسيّة وراكمَ ثروةً؛ وبهذه الثروة الأولى، دخل مجال الأعمال المالية، واستطاع أن يضاعف ثرواته أضعافًا مضاعفة؛ وإذ ترمّل، بعد وفاة ابنة المصرفيّ، تزوّج أرملةً، هي السيّدة نارغون، ابنة السيّد دو سرفيو، حاجب الملك الحاليّ، فصار يتمتّع بنفوذ لا حدّ له. صار مليونيرًا، ومُنح لقب بارون، بحيث يسمّى اليوم البارون دانغلار، ويملك قصرًا في شارع مونبلان، وستّة أحصنة في إسطبله، وعشرة خدمٍ في بيته، وما لا أدري له عددًا من الملايين في خزائنه.

قال الرّاهب بنبرةٍ فريدة: - آه! وهل هو سعيد؟

- أوه! سعيد؟ من بوسعه البتّ في أمر السّعادة؟ إنّ السّعادة والشّقاء ممّا تخفيه الجدران من أسرار؛ إن للجدران آذانًا، لكن ليس لها لسان؛ ولو أنّ الثروة العظيمة تكفي للسّعادة، فإنّ دانغلار رجلٌ سعيد.

- وماذا عن فرنان؟

- فرنان، قصّةٌ أخرى!

- لكن، كيف لصيّاد كتالاني فقير، بلا أملاك أو تربية، أن يُكوّنَ ثروةً؟ أعترفُ بأنّ الأمر يتجاوز مداركي.

- يتجاوز مدارك الجميع في الواقع، لا بدّ أنّ في حياته أسرارًا لا أحد يعلمها.

- لكن بأيّ سُلّم ظاهرٍ ارتقى حتّى قمّة هذه الثروة أو هذه المكانة؟

- ارتقى حتّى قمّتيهما معًا يا سيّدي، قمّة الثروة وقمّة المكانة.

- أهي حكايةٌ خيالية تحكيها لي الآن؟

سأحكي لك:

«الحقّ أنّ الأمر أشبه بالحكاية الخرافية، لكن أنصت وسوف تفهم. لقد أُلحق فرنان بالتّجنيد أيّامًا قبل عودة نابليون، وقد تركه البوربونيّون وشأنَه بقرية الكتالان؛ لكن مع عودة نابليون انطلقت مقاومةٌ مذهلة، وأُجبرَ فرنان على الخروج؛ وأنا أيضًا أجبرت على الخروج، لكن بما أنّني كنت أكبر سنًّا من فرنان، وكنت قد تزوّجتُ لتوّي، فقد أرسلتُ إلى السواحل فقط؛ أمّا فرنان فقد أُلحق بالفيالق المقاتلة، وعبَر الحدودَ صحبة فيلقه، وشارك في معركة ليني[1].

«وفي الليلة التالية للمعركة، كان يخفر باب جنرالٍ تجمعه علاقاتٌ

(1) جمعت الجيش البروسي بجزء من الجيش الفرنسي، تحت قيادة نابليون، بتاريخ 16 يونيو 1815.

سريّة بالعدو. وكان الجنرال ينوي الالتحاق بالإنجليز في تلك اللّيلة نفسها. وقد عرض على فرنان مرافقته؛ ووافق فرنان، وتبع الجنرال.

«إنّ ما كان يمكنه أن يحيل فرنانَ إلى المحكمة العسكرية، لو أنّ نابليون انتصر في الحرب؛ هو نفسُه ما صارَ بمثابةِ توصيةٍ قرّبته من آل بوربون[1]. عاد إلى فرنسا بكتفين عليهما نياشين ملازم ثانٍ؛ وبما أنّ رعاية الجنرال ظلّت تشملُه، فقد صار نقيبًا سنة 1823، إبّانَ الحرب الإسبانية، أي في الوقت نفسِه الذي كان فيه دانغلار يقوم بأولى مضارباته. كان فرنان إسبانيًا، لذا أُرسل إلى مدريد ليدرس ذهنية أبناء وطنه؛ وهناك التقى بدانغلار، فأعاد ربط الأواصر معه، ووعد جنرالَه بدعم يأتيه من ملكيّي العاصمة والمقاطعات، وتلقّى بدوره وعودًا، وقطع التزاماتٍ، وقاد كتيبته عبر طرق لا يعلمها سواه، عابرًا مغارات يحرسها الملكيّون، وأخيرًا أسدى إبّان تلك الحملة القصيرة خدمات كبيرةً، إلى درجة أنّه ما إن تمّ الاستيلاء على تروكاديرو (إسبانيا)، حتّى رُفِّع إلى درجة كولونيل، ووُشّح بوسام جوقة الشّرف، وخُلع عليه لقب كونت».

همس الرّاهب: - إنّه القدر! إنّه القدر!

- أجل، لكن أصغي فللحكاية بقيّةٌ.

«ما إن انتهت الحرب الإسبانية، حتّى بدا أنّ مسيرة فرنان مهدّدة بأن تتوقّف بسبب جوّ السلم الذي يسود أوروبا. وحدها اليونان كانت تحارب تركيا، بادئةً بحربها تلك مسارَ تحرّرها. وكانت العيون كلّها متّجهة صوب أثينا. كانت الموضةُ آنذاك مساندةَ اليونان. والحكومة الفرنسية، كما تعلم، لم تكن تحمي اليونانيين حماية مباشرةً، لكنّها كانت تسمح بالمبادرات الفردية. طلب فرنان الإذن بالذّهاب ليحارب تحت العلم اليونانيّ، وقد حصل على الإذن بذلك، مع البقاء دائمًا تحت قيادة الجيش.

---

(1) الأسرة الحاكمة بفرنسا وإسبانيا ما بين القرنين السّادس عشر والتّاسع عشر.

بعد مدّة من ذلك، علمنا أنّ الكونت دو مورسيرف -كذلك صار اسمُه- قد التحق بخدمة علي باشا، برتبة جنرال متعلّم. وقد قُتل علي باشا، كما تعلم؛ لكنّه قبل موته كان قد كافأ خدماتِ فرنان بعطيّة سخيّة، عاد بها إلى فرنسا، حيث حصّلَ رتبةَ فريق».

سأله الرّاهب: - بحيث صار اليوم...؟

- بحيث إنّه يملك اليومَ قصرًا فاخرًا في باريس، بشارع هيلدر، رقم 27.

فغر الرّاهب فاه، وظلّ لحظةً كالمتردّد، ثمّ جاهد نفسه وقال:

- ومرسيدس؟ لقد قيل لي إنّها اختفت.

أجابه كادروس: - أجل اختفت، مثلما تختفي الشّمس غروبًا، لتعاود الشّروق أشدَّ ألَقًا في اليوم التالي.

سأله الرّاهبُ بابتسامة متهكّمة: - هل كوّنت هي أيضًا ثروةً؟

- إنّ مرسيدس اليوم من أرفع السيّدات مكانةً في باريس.

قال الرّاهب: - واصل حديثك. يخيّلُ إليّ أنّني أستمع إلى رواية حلم. لكنّي رأيت بأمّ عينيَّ أشياء أعجب، حتّى إنّ ما تقصّه عليّ لا يثير عجبي.

«طعنَ مرسيدس بدايةً ألمُ فراق إدمون. وقد أخبرتك كم مرّةً قصدت السيّد دو فيلفور ترجوه المساعدة؛ ثمّ، وهي في غمرة ألمها، زيدَت ألمًا آخر؛ أقصد ألم رحيل فرنان، فرنان الذي كانت تجهل جرمَه وتعتبره أخًا لها. وبعد رحيل فرنان، بقيت وحيدةً. ومرّت عليها ثلاثة شهورٍ غارقةً في الدّموع؛ لا أخبار عن إدمون، ولا عن فرنان؛ ولا شيء أمام عينيها سوى شيخ يذوي في يأسه.

«وذات مساءٍ، بعد أن ظلّت جالسةً طيلة النهار، على عادتها، عند زاوية الطّريقين الواصلتين ما بين مارسيليا وقرية الكتالان، دخلت بيتها أشدّ انهزامًا ممّا كانت عليه: فلا حبيبها ولا صديقها عادَا من طريقَيْهما

المختلفتين؛ ولا وصلتها أنباءُ هذا أو ذاك. وفجأةً تهيّأ لها أنّها سمعت وقع خطواتٍ مألوفة؛ استدارت قلقة، فانفتح البابُ، وأطلّ منه فرنان ببدلته العسكرية التي عليها نياشين ملازم ثانٍ. لم يكن الرّجل يمثّل نصف ما تبكي عليه، وإنّما كان [على الأقل] جزءًا من حياتها الضائعة، وقد عادت إليها. أمسكت مرسيدس يدَي فرنان بحماسةٍ بالغة، حماسةٍ ترجمها هو إلى حبٍّ، في حين أنّها لم تكن تحمل سوى تعابير فرح من تبدّدت وحدتُه، وألفى في العالم صديقًا، بعدَ ساعاتٍ طوال من الحزن المتوحّد. ثمّ، والحقّ يقال، لم يكن فرنان يومًا مكروهًا من طرفها، هي لم تكن تحبّه وهذا كلّ ما في الأمر؛ قلب مرسيدس كان بأكمله ملكٌ لشخص آخرَ، وهذا الشّخص الآخرُ كان غائبًا... كان قد اختفى... لربّما كان ميتًا... لهذه الخاطرة الأخيرة، انفجرت مرسيدس بالشّهقات، ولوت ذراعيها ألمًا؛ لكنّ هذه الخاطرة التي كانت فيما مضى تطردها إذ يوحي بها إليها شخصٌ آخر، صارت تخطر ببالها الآن من دون إيحاء من أحد؛ ثمّ إنّ الشّيخ دانتِس ما انفكّ يردّد على مسمعها: «إنّ عزيزنا إدمون قد مات، لو لم يكن ميّتًا لكان قد عاد»، وقد مات الشّيخ، كما سبق أن قلتُ. وربّما لو أنّه ظلّ الشيخ حيًّا لما تزوّجت المرأة من رجلٍ آخر؛ إذ كان سينكر عليها عدم وفائها. وكان فرنان يدرك ذلك. لذا حين علم بموت الشّيخ، عادَ. وهذه المرّة كان برتبة ملازم ثانٍ. حين عاد أوّل مرّة لم يذكر لمرسيدس كلمةَ حبّ، لكن في الثانية ذكّرها بحبّه.

فطلبت مرسيدس من فرنان مهلة ستّة أشهر تنتظر فيها إدمون وتبكي فقدَه».

قاطعه الرّاهب بابتسامة مريرة: - لقد انتظرته إذًا ثمانية عشر شهرًا بالتّمام والكمال. وهل يطلب العاشق المحبوب أكثر من ذلك؟

ثمّ غمغم بكلمات الشّاعر الإنجليزي:

Frailty, the name is woman!

استأنف كادروس الكلام: «بعد ستّة أشهر أقيم حفل الزّفاف في كنيسة أكوول...».

قاطعه دانتس همسًا: - الكنيسة نفسُها حيث كان يُفترض أن تتزوّج دانتِس؛ تغيّر الخطيب، وهذا كلّ ما في الأمر.

«تزوّجت مرسيدس. لكن، وإن كان الجميع يراها هادئةً، إلا أنّ ذلك لم يمنع أن تسقط مغشيًا عليها حين مرّت من أمام الحانة التي شهدت، ثمانية عشر شهرًا قبل ذلك، خطبتَها إلى الرّجل الذي كانت لا تزال تحبّه لو جرؤت على النّظر في أعماق قلبها.

أمّا فرنان، فقد كان أسعدَ، لكنّه لم يكن أهدأَ، إذ رأيتُه آنذاكَ؛ كان يخشى عودة إدمون، لذا سارع إلى ترحيل زوجته والرّحيل معها؛ لقد كانت أرض الكتالان بالنّسبة إليه أرضًا تعجّ بالمجازفات والذكريات. ثمانية أيام إذًا بعد الزّفاف، رحلا».

- وهلً رأيت مرسيدس بعد ذلك؟

- نعم، رأيتُها ببربنيان، إبّان الحرب الإسبانية؛ حيث تركها فرنان؛ وكانت تسهر على تعليم ابنها.

سرَت في جسم الرّاهب رجفة: - ابنها؟

- نعم ابنها، الصّغير ألبير.

- لكن، لكي تعلّم ابنها، ألا يفترض أن تكون هي نفسها قد تلقّت تعليمًا؟ يبدو لي أنّي قد سمعت إدمون يقول إنّها ابنة صيّادٍ بسيط، جميلة لكن غير متعلّمة.

قال كادروس: - أوه! هل كان يجهل أمر خطيبته إلى هذا الحدّ! لقد كانت مرسيدس لتكون ملكةً، لو أنّ تيجان المُلك كانت توضع فقط على رؤوس أشدّ النّساء حُسنًا وذكاءً. لقد نمت ثروتُها، ونمت هي مع نموّها. تعلّمت الرّسم، وتعلّمت الموسيقى، وتعلّمت كلّ شيء. وبيني وبينك،

أظنُّ أنّها ما كانت تفعل كلّ ذلك إلا لتسلّي نفسها، إلا لتنسى، ولم تكن تملأ رأسها بكلّ تلك المعارف إلا لكي تحارب ما يعتمل في قلبها. لكن الآن سيكون كلّ شيء قد انتهى: لا بدّ أنّ المال والمكانة الاجتماعية قد سلّياها. إنّها غنيّة، إنّها كونتيسة، ومع ذلك...

سأله الرّاهب: - مع ذلك، ماذا؟

- مع ذلك، أنا متأكّد من أنّها ليست سعيدة.

- وما الذي جعلك تعتقد في هذا؟

- حسنًا، حين وجدتُ نفسي في ضيقٍ كبير، فكّرتُ في أنّ أصدقائي القدامى قد يمدّون لي يدّ العون. ذهبت عند دانغلار، فلم يستقبلني حتّى. ثمّ قصدتُ فرنان، فأرسل لي مائة فرنك مع خادمه.

- لم تقابل إذًا لا هذا ولا ذاك؟

- كلاّ، لكن السيّدة دو مورسيرف رأتني.

- كيف؟

- حين خرجتُ، سقطت عند قدميّ صرّة نقود، وكانت تحوي خمسًا وعشرين لويسيّة: - رفعت رأسي بسرعة، فرأيت مرسيدس تقفل الشّباك.

سأله الرّاهب: - ماذا عن السيّد فيلفور؟

- أوه! ذاك، لم يكن صديقي؛ لم أكن أعرفُه؛ فما كان لي أن أطلب منه شيئًا.

- لكن، ألا تعرف مصيره، وأيّ مغنم كسبَ من مصيبة إدمون؟

- كلّا؛ كلّ ما أعرفه هو أنّه بعد مدّةً يسيرة من القبض على دانتِس، تزوّج من الآنسة دو سان مِران، ثمّ ما لبث أن غادر مارسيليا. لا شكّ في أنّ الحظّ قد ابتسم له مثلما ابتسم للآخرين؛ لا شكّ في أنّه ثريٌّ كدانغلار ومكينٌ كفرنان؛ وحدي، كما ترى، بقيتُ فقيرًا، بائسًا، وحدي أهملني الرّب.

قال الرّاهب: - إنّك مخطئ يا صديقي، أحيانًا يبدو كأنّ الرّب يُهمل،

حين تكون عدالته ساكنةً؛ لكنّه يتدخّل في الوقت المناسب. وهاكَ الدّليلَ.

إذّاك أخرج الرّاهب الماسة من جيبه وعرضها أمام كادروس، قائلًا:

- خُذ يا صديقي هذه الماسة، إنّها لك.

صاح كادروس: - كيف! ليَ وحدي! أوه ياسيّدي، ألست تمزح معي؟

- كان يفترض أن تقسّم الماسة على أصدقاء إدمون جميعًا، لكنّ إدمون لم يكن له إلا صديقٌ واحدٌ، فلا معنى إذًا للقسمة. خُذ الماسة فبِعْها؛ إنّها تساوي خمسين ألف فرنك، وأحسبُ أنّ هذا المبلغ يكفي لانتشالك من بؤسك.

قال كادروس وهو يمدّ بخجلٍ يدًا إلى الماسة، ويمسح بالأخرى العرق عن جبينه: - أوه! لا تتلاعبْ يا سيّدي بسعادة رجلٍ أو يأسِه!

- أعرف ما السّعادة، كما أعرف ما اليأس، وأبدًا لن أتلاعب بمشاعر إنسانٍ. خُذ الماسة، لكن بالمقابل...

كان كادروس على وشك لمس الماسة، وإذا به يسحب كفّه.

ابتسم الرّاهب وواصل كلامه: - في المقابل، أعطِني صرّة الحرير الحمراء التي كان السيّد موريل قد تركها عند مدفأة الشّيخ دانتِس؛ ألم تقل لي إنّها لا تزال بحوزتك؟

دهِشًا غاية الدّهشة، قصد كادروس دولاب سندياٍن كبير، ففتحه، ثمّ أعطى الرّاهب صرّةً كبيرةً، من الحرير الأحمر الحائل اللون، وحولها حلقتان من نحاس كانتا فيما مضى مذهّبتين. أخذ الرّاهبُ الصرّةَ، وأعطاه بدلًا منها الماسة.

- أوه! يا سيّدي أنت رجلٌ ربّانيٌّ؛ فلا أحد كان على علم بأنّ إدمون قد سلّمك الجوهرة، وكان بإمكانك أن تحتفظ بها لنفسك.

ردّ الرّاهب بصوت مكتوم: - يبدو أنّك كنتَ لتفعلَ لو أنّك كنت مكاني.

ثمّ وقف، وأخذ قبّعته وقفّازيه، وقال: - كلّ ما قلتَه لي صدقٌ، وبإمكاني أن أثق في كلامك كلّ الثقة، أليس كذلك؟

قال كادروس: - سيّدي، إنّ في ركنٍ من هذا الجدار مسيحًا من خشب مبارك؛ وعلى هذه المنضدة إنجيل زوجتي: افتح الكتاب، وسوف أقسم لك عليه ويدي مبسوطة إلى المسيح، سوف أقسم لك بخلاص روحي، بإيماني المسيحيّ، أنّني ما قلت لك إلا الأشياء كما جرت، ويوم العرض على الديّان سوف تهمس الملائكةُ الكتَبَةُ في أذنه!

قال الرّاهب وقد أقنعته نبرة كادروس بصدق سريرته: - حسنًا، حسنًا، لينفعك الرّب بهذا المال! وداعًا، سأعود إلى ركني، بعيدًا عن الرّجال الذين يؤذي بعضم بعضًا.

وبعد أن تخلّص، بجهدٍ جهيدٍ، من اندفاعات كادروس المتحمّسة، رفع الرّاهب بنفسه عارضة الباب، وخرج. امتطى صهوة جواده، وحيّا مرّةً أخيرة ربّ النزل الذي كان مرتبكًا يصدر تحايا صاخبةً، وانطلق متّبعًا الطّريق نفسها التي كان قد اتّبعها أثناء قدومه.

وحين استدار كادروس وجد الكركونتية خلفه، شاحبةً مرتجفةً أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

قالت: - أصحيح ما سمعته؟

أجابها كادروس وهو يكاد يفقد صوابه من الفرح: - ماذا؟ تقصدين أنّه يعطينا الألماسة لنا وحدنا؟

- نعم.

- أجل، صحيح كلّ الصّحة، ما دامت الألماسة هنا.

تأمّلت المرأةُ الألماسةَ لحظةً، ثمّ قالت بصوتٍ مكتوم: - وماذا لو كانت مزيّفة؟

شحب كادروس وترنّح، وغمغم: - مزيّفة، مزيّفة... ولمَ يعطيني الرّجل ماسةً مزيّفة؟

- كي يعرف سرّك من دون أن يدفع شيئًا، يا غبيّ!

ظلّ كادروس لحظةً مذهولًا تحت ثقل هذا الافتراض، ثمّ قال بعد لحظةٍ، وهو يحمل قبّعته ويضعها فوق المنديل المربوط على رأسه: - أوه! سوف نتحقّق من الأمر عاجلًا.

- وكيف؟

- إنّه وقت المهرجان ببوكير؛ وثمّة صاغةٌ يأتون من باريس: - سأذهبُ فأريهم الألماسة. وأنت احرُسي البيت يا امرأة؛ سوف أعود في ساعتين.

انطلق كادروس من النزل، وسلك الطّريق المعاكسة لتلك التي كان قد سلكها الرّجل الغريب.

غمغمت الكركونتيّة وقد ظلّت بمفردها: - خمسون ألف فرنكٍ! إنّه مبلغ كبير، لكنّه ليس ثروةً!

28

سجلّات السّجن

غداة اليوم الذي وقع فيه، على طريق بلغارد في بوكير، المشهد الذي حكيناه؛ حضرَ إلى مكتب عمدة مارسيليا رجلٌ في الثلاثين، إلى الثانية والثلاثين، من عمره، يرتدي فراكًا أزرق عنبريًا[1]، وسراويل من ثوب النانكين وصدريةً بيضاء، وكان له في آنٍ مظهرُ البريطانيّين ولهجتُهم.

وخاطب العمدة قائلًا: - سيّدي، أنا الكاتبُ الأوّل بمؤسّسة **طومسون وفرانش** بروما. منذ عشر سنواتٍ ونحن نشتغل مع مؤسّسة **موريل وأبناؤه** بمارسيليا. ولدينا ما يقارب مائة ألف فرنكٍ مستثمَرَةٍ في أعمالنا المشتركة؛ وإنّنا غير مطمئنّين قياسًا إلى ما يروج عن وضعية مؤسّسة موريل: لذا أتيت خصّيصًا من روما كي أستعلم منك عن وضعيةَ هذه المؤسّسة.

أجابه العمدة: - سيّدي، أعلم بالفعل أنّه منذ أربع سنواتٍ أو خمس يبدو أنّ المصائبَ تلاحقُ السيّد موريل: لقد خسر تواليًا أربع سُفنٍ أو خمسًا، وتعرّض لثلاث أزماتٍ ماليّة أو أربع؛ لكن ليس مخوّلًا ليَ أن أعطي معلوماتٍ بخصوص وضعه الماليّ، على الرّغم من أنّي أنا نفسي لي عندَه عشرة آلاف فرنك. سَلني، بصفتي عمدةً، عن رأيي في السيّد موريل، وسوف أقول لك إنّه رجلٌ صادقٌ حدّ الصّرامة، وإنّه حتّى هذه اللحظة قد وفى بجميع التزاماته بدقّة مُثلى. هذا كلّ ما أستطيع قوله يا

(1) الفراك: زيّ أشبه بالسترة الطّويلة، كان يرتدى في المناسبات الرّسمية، واللون هنا درجةٌ من الأزرق منسوبةٌ إلى زهرة القنطريون العنبريّ.

سيّدي؛ وإن كنت تبغي معرفةً أكثر ممّا قلتُه، فاقصد السيّد بوفيل، مفتّش السّجون، القاطن بشارع نُواي، الرّقم 15؛ أظنّه يستثمر مائتي ألف فرنك لدى مؤسّسة موريل، وإن كان ثمّة ما يدعو إلى القلق، فسوف تجد لديه، على الأرجح إحاطةً بالأمر أكبر ممّا لديّ، بالنّظر إلى أنّ المبلغ الذي يستثمره يفوق بكثير المبلغ الذي أستثمره أنا.

بدا أنّ الإنجليزي يقدّر هذا الأدبَ الجمّ، فحيّا الرّجلَ، ثمّ خرج قاصدًا العنوان المذكور بتلك المشية المميّزة لأبناء بريطانيا العظمى.

كان السيّد دو بوفيل في مكتبه. وإذ رآه الإنجليزي ندّت عنه حركةُ دهشةٍ تدلّ على أنّها ليست المرّة الأولى التي يلقى فيها نفسه أمام الرّجل الذي أتى يزوره.

أمّا السيّد بوفيل، فقد كان في حالٍ من اليأس بحيث كان بديهيًا أنّ كلّ ملكاته العقلية، المستغرقة في ما يشغله الآن، لا تترك لذاكرته ولا لمخيّلته ترف التوغّل في الماضي.

سأله الإنجليزي، باللامبالاة المميّزة لأبناء جلدته، السؤال الذي كان قد طرحهُ من قبل على عمدة مارسيليا، وبنفس العبارة تقريبًا.

صاح دو بوفيل: - أوه! يا سيّدي! إنّ مخاوفك للأسف في محلّها، وإنّك في حضرة رجلٍ يائس. لقد استثمرت لدى آل موريل مائتي ألف فرنك: - وهذه المائتا ألف فرنك كانت مهر ابنتي التي كنت أعتزمُ تزويجها بعد خمسة عشر يومًا؛ المائتا ألف فرنك كان يُفترض أن تعادَ لي، مائة ألف يوم الخامس عشر من هذا الشّهر، ومائةُ ألف أخرى في الخامس عشر من الشّهر القادم. وقد أخطرتُ السيّد موريل برغبتي في أن أتسلّم المبلغ في الموعد المحدّد، وها قد أتاني منذ نصف ساعةٍ بالكاد، يخبرني أنّه في حال لم تعد سفينة **الفرعون** قبل الخامس عشر من هذا الشّهر، فسيكون من المستحيل عليه الوفاء بالتزامه.

قال الإنجليزي: - لكنّ الأمرَ أشبه ما يكون بالمماطلة.

صاح السيّد دو بوفيل يائسًا: - بل قُل إنّه أشبه ما يكون بإعلان الإفلاس!

بدا الإنجليزيّ متفكّرًا لحظةً، ثمّ قال:

- هذا الدّين إذًا يثير في نفسك مخاوفَ؟

- الحال أنّني أراه مالًا ضاعَ.

- حسنًا إذًا، أنا أشتريه منك.

- أنت؟

- نعم أنا.

- تشتريه منّي بخصم كبير قطعًا؟

- كلاّ، أشتريه منكَ بمائتي ألف فرنك؛ (وأضاف ضاحكًا) إنّ مؤسّستنا لا تقوم بمثل هذه الأعمال.

- وسوف تدفع؟

- نقدًا.

ثمّ إنّ الانجليزيّ أخرج من جيبه رزمة أوراقٍ نقديّة تقارب قيمتها ضعف المبلغ الذي كان يخشى بوفيل ضياعه. عبر وجه السيّد بوفيل بريق فرح، لكنّه جاهد في سبيل إخفائه. قال:

- سيّدي، إنّ من واجبي مع ذلك أن أنبّهك إلى أنّك، على الأرجح، لن تسترجع ولا ستّة بالمائة من قيمة هذا المبلغ الذي تصرفه.

أجابه الإنجليزي: - هذا ليس شأني؛ إنّها مشكلة مؤسّسة طومسون وفرانش التي أتصرّف باسمها. ربّما يرون أنّ من مصلحتهم تسريع إفلاس مؤسّسةٍ منافسة. كلّ الذي أعرفه أنّي مستعدٌّ أن أعُدَّ لك الآن المبلغَ الذي تطلبه، مقابل نقل الدّين إلينا؛ على أنّي سوف أطلب حقّي في عمولةٍ.

صاح بوفيل: - وكيف لا؟ هذا حقّك يا سيّدي. إنّ قيمة العمولة تكون بالعادة يا سيّدي واحد ونصف بالمائة: أتريد اثنين بالمائة؟ أتريد ثلاثة؟ أتريد خمسة؟ تريد أكثر؟ قُل؟

استأنف الانجليزيّ الكلام ضاحكًا: - سيّدي إنّني، شأني شأن المؤسّسة التي أنتمي إليها، لا أقوم بمثل هذه الممارسات؛ كلّا؛ عمولتي ستكون ذات طبيعةٍ مختلفة.

- تكلّم إذًا يا سيّدي، إنّي مُصغٍ إليك.

- أنت مفتّش سجن؟

- منذ أربعة عشر عامًا.

- وتحتفظ بسجّلات الدّخول والخروج؟

- بالتّأكيد.

- وإلى تلك السّجلات تضافُ ملاحظاتٌ عن السّجناء؟

- لكلّ مسجونٍ ملفّ.

- حسنًا يا سيّدي، لقد ربّاني في روما راهبٌ إيطاليّ، اختفى فجأةً. وقد علمت مؤخّرًا أنّه كان سجينًا في قلعة إيف، وأرغب في أن أعرف تفاصيل موته.

- ما اسمه؟

- الأب فاريا.

صاح السيّد دو بوفيل: - أوه! أذكره تمامًا! كان مجنونًا.

- يُقال.

- أوه! كان كذلك بالتّأكيد.

- ممكن؛ وكيف كان جنونه؟

- كان يدّعي أنّه يعلم موضع كنزٍ هائلٍ، وكان يعِد الحكومة بثروةٍ هائلةٍ إن وافقت على إطلاق سراحه.

- المسكين! وهل مات؟

- أجل يا سيّدي، منذ خمسة أشهر أو ستّةٍ تقريبًا، في فبراير الماضي.

- إنّك محظوظ بذاكرتك إذ تتذكّر التّواريخ بهذه الدّقة.

- أتذكّر هذا التّاريخ، لأنّ موت العجوز المسكين صاحَبَه حدثٌ فريد.

سأل الانجليزيّ بتعبير فضولٍ كان ملاحِظٌ مدقِّقٌ ليذهل من قراءته على وجهه البارد: - وهل بالإمكان معرفةُ هذا الحدث؟

- أوه! يا إلهي! أجل، يا سيّدي: كان محبسُ الرّاهبُ على بعد خمس وأربعين إلى خمسين قدمًا من محبسِ عميلٍ بونابرتيّ سابقٍ، أحدِ أولئكَ الذي ساهموا بالغ المساهمة في عودة الغاصب سنة 1815، رجل قويّ العزم، شديد الخطورة.

قال الإنجليزي: - حقًّا؟

- نعم؛ لقد أتيحت لي أنا نفسي فرصة النّزول إلى محبس هذا الرّجل سنة 1816 أو 1817، وما كان يُنزل إلى محبسه إلا برفقة عصبةٍ من الجنود: لقد خلّف الرّجلُ فيّ انطباعًا عميقًا، ولن أنسى وجهه ما حييت.

ابتسم الانجليزي ابتسامةً لا تكاد تدرَك، واستأنف الكلامَ: - وتقول يا سيّدي، إنّ المحبسَيْن...

- كانت تفصل بينهما مسافة خمسين قدمًا؛ لكن يبدو أنّ هذا المدعو إدمون دانتِس...

- الرّجلُ الخطيرُ كان اسمُه...

- نعم يا سيّدي، كان اسمه إدمون دانتِس؛ ويبدو أنّ هذا المدعو إدمون دانتِس استطاع أن يحصل على أدوات حفرٍ أو لعلّه صنعها بنفسه، إذ عُثر على نفق كان السّجينان يتواصلان عبره.

- لا بدّ أنّ النّفق قد أُحدث بغرض الهروب؟

- نعم؛ لكن، لسوء حظّ الحرّاس، أصيب الرّاهبُ فاريا بغيبوبة شلل ومات.

- فهمت؛ لا بدّ أنّ موته قد أوقف مؤقّتًا مشروع الهرب.

أجاب دو بوفيل: - أوقفه بالنّسبة إلى الميّت، لكن لم يوقفه بالنّسبة إلى الحيّ؛ لا بل على العكس، رأى دانتِس في موت صاحبه فرصةً للتّعجيل

بالفرار؛ لا شكّ في أنّه كان يعتقد بأنّ الموتى من السّجناء يُدفنون في مقبرةٍ عادية؛ فكان أن نقل الميّت إلى غرفته، ووضعه في سريره، واتّخذ مكانه في الكيس حيثُ كُفِّنَ، وانتظر لحظة الدّفن.

قال الإنجليزي: - إنّها وسيلةٌ تنطوي على مجازفةٍ، وتنمّ عن شجاعة.

- أوه! لقد أخبرتك يا سيّدي من قبل، إنّه رجلٌ خطير جدًا؛ ولحسن الحظّ، قد خلّص بنفسه الحكومة من الخطر الذي كانت تخشاهُ فيه.

- وكيف ذلك؟

- كيف؟ ألم تفهم؟

- كلّا.

- ليس بقلعة إيف مقبرةٌ؛ وإنّما يُلقى بالمساجين في البحر بعد أن تقيَّد أقدامهم بثقّالات من عيار ستّةٍ وثلاثين.

قال الإنجليزيّ، وكأنّما يشقّ عليه الفهم: - ثمّ؟

- ثمّ إنّهم قد قيّدوا قدميه إلى ثقّالةٍ من عيار ستّة وثلاثين، وألقوا به إلى البحر.

صاح الإنجليزي: - صِدقًا؟

واصل المفتّش: - نعم يا سيّدي، وهل تدرك أيّ ذهول كان ليشعر به الهارب وهم يلقون به من أعلى إلى الأسفل حيث الصّخور. وددت لو أرى وجهه في تلك اللحظة.

- لابدّ أنّها تجربةٌ صعبة.

قال السيّد دو بوفيل، وقد استعاد روَقانَ مزاجه إذ اطمأنّ إلى عدم ضياع المائتي ألف فرنك: - ما همّنا! ما همّنا! إنّي لأتخيّل تلك اللّحظة.

وانخرط في الضّحك.

قال الانجليزي - وأنا كذلك.

ثمّ جعل يضحك بدوره، لكن على طريقة الإنجليز، أي من طرف أسنانه.

استأنف الإنجليزيُّ الكلامَ، وكان أسبقَ الرّجلين إلى استعادة هدوئه:

- هكذا إذًا، مات السّجينُ غرقًا؟

- بكلّ تأكيد.

- بحيث تخلّص مدير السّجن في آنٍ من المجنون والعنيف؟ لكن، هل وُثّقَ الحدثُ؟

- نعم، نعم، شهادة الوفاة؛ فكما تفهمُ بوسع أقارب دانتِس، إن كانَ له أقارب، المطالبةَ بمعرفة ما إذا كان حيًّا أم ميتًا.

- بحيث إنّهم الآن يستطيعون أن يرثوه. هو ميّتٌ بالتّأكيد؟

- أوه! يا إلهي! أجل، بوسعهم الحصول على شهادة وفاته متى ما طلبوها.

- حسنًا إذًا، لنعُد إلى السّجلات.

- أجل، لقد أبعدَتنا القصّةُ عن موضوعنا. آسف.

- تأسف على ماذا؟ على القصّة؟ لا داعيَ للأسف، لقد أثارت القصّة اهتمامي.

- إنّها بالفعل مثيرةٌ للاهتمام. وإذًا، تريد يا سيّدي أن تطّلع على كلّ ما يتعلّق بالرّاهب المسكين، الرّاهب الذي كان اللّطفَ متجسّدًا؟

- سيسعدني ذلك.

- هيّا إلى مكتبي، وسأريك ذلك.

وانتقلا معًا إلى مكتب السيّد بوفيل. وكان كلّ شيءٍ بالفعل في أتمّ النّظام: كلُّ سجلٍ في رقمه، وكلّ ملفٍ في موضعه. أجلس المفتّشُ الإنجليزيَّ في مقعده، ثمّ وضع أمامه السجلّ والملفّ المتعلّقين بقلعة إيف، سامحًا له بأن يتصفّحهما، فيما جلس هو يقرأ الجريدة في ركنٍ من أركان الغرفة.

وجد الإنجليزيّ بسهولةٍ الملف المتعلّق بالأب فاريا؛ لكن يبدو أنّ القصّة التي حكاها له السيّد دو بوفيل كانت قد أثارته غاية الإثارة، إذ بعدما اطّلع على أجزائها الأولى، أكمل التقليب حتّى وصل إلى حزمة وثائق إدمون دانتِس.

وهناك وجد كلّ شيء في موضعه: الوشاية، واستعطاف موريل، وقرار دو فيلفور. طوى رسالة الوشاية بهدوءٍ ودسّها في جيبه، ثمّ قرأ التّحقيق، ووجد أنّ اسم نوارتييه لم يُذكر فيه، ثمّ مرّ على الطّلب المؤرّخ في العاشر من أبريل 1815، طلب موريل الذي كتبه بإيعاز من نائب وكيل الملك، وبالغَ فيه بحسن نيّةٍ، إذ كان نابليون هو الحاكمُ آنذاك، في تعداد الخدمات التي أسداها دانتِس إلى الإمبراطورية، خدمات جعلتها شهادةُ فيلفور غيرَ قابلةٍ للاعتراض.

وإذّاك فهم كلّ شيء. إنّ هذا الطّلب الموجّه إلى نابوليون، والذي احتفظ به فيلفور، قد صار بعد الرّجوع الثاني للملك، سلاحًا فتّاكًا في يد نائب وكيل الملك. لذا لم يدهش، وهو يتصفّح الملفّ، أن يجد هذه المذكّرة الملصقة به:

بونابرتي متعصّب: ساهم مساهمةً فعالة في الرّجوع من جزيرة إلبا.

إدمون دانتِس.

تُضربُ عليه سريّةٌ تامّة، ويخضع لمراقبةٍ صارمة.

وأعلى تلك الأسطر، بخطّ مغاير، كُتبت هذه الملاحظة:

بالنّظر إلى المذكّرة أسفله، لا يمكن فعلُ شيء.

على أنّه، إذ قارن بين الخطّ الذي كتبت به المذكّرة الملصقة وذاك الذي كُتبت به الشّهادةُ أسفلَ طلب موريل، أدرك الرّجلُ، بما لا يدع مجالًا للشكّ، أنّ الوثيقتين كتبتا بنفس الخطّ، أي إنّهما معًا من فعلِ يدِ فيلفور.

أمّا الملاحظة التي كُتبت على المذكّرة، فقد أدرك الإنجليزيّ أنّها من كتابة أحد مفتّشي السّجن ممّن أبدوا اهتمامًا عابرًا بوضعية دانتِس، لكن التعليمات التي بينّاها، جعلت من المستحيل عليه أن يحوّل اهتمامه إلى فعل.

كما قلنا آنفًا، فإنّ مفتّش السّجن، رغبةً في أن يترك تلميذ الرّاهب على

حريّته، ولكي لا يزعجه في بحثه، كان قد ابتعد وانشغل بقراءة جريدة الرّاية البيضاء.

لذا لم يرَ الإنجليزيّ يطوي رسالة الوشاية ويضعها في جيبه، رسالة الوشاية التي كان قد كتبها دانغلار تحت تعريشة الحانة، والتي كانت تحمل طابع بريد مارسيليا بتاريخ 27 فبراير، مرسَلة عند السّاعة السادسة مساءً.

لكن، والحقّ يقال، حتّى لو أنّه كان رآهُ، فقد كان يولي قليل اهتمام لهذه الورقة، وكبير اهتمام للأوراق الأخرى: للمائتي ألف فرنك؛ فما كان ليعترض على الإنجليزيّ مهما فعل.

قال الإنجليزيّ وهو يغلق السجلّ إغلاقًا ضاجًّا: شكرًا، لقد أصبتُ ما أردتُ؛ والآن عليّ أن أفي لك بوعدي؛ حرّر لي عقدًا بنقل وديعتك، واذكر فيه أنّك حصلت على المائتي ألف فرنك، وسوف أعدّها لك الآن.

ثمّ أخلى مكانه في مكتب السيّد بوفيل الذي جلس على مقعده بلا كلفةٍ، وعجّل بتحرير عقد النّقل المطلوب، بينما الإنجليزيّ يعدّ الأوراق البنكيّة عند حافةِ الخزانة.

29

مؤسّسةُ موريل

أيّما شخص كان قد ترك مارسيليا سنواتٍ من قبلُ، وكان مطّلعًا على مقرّ مؤسّسة موريل من الدّاخل، ثمّ قيّضَ له أن يعود إليه في الزمن الذي بلغته قصّتُنا، لسوفَ يقف على تغيير كبيرٍ طالَه. فبدلًا من مظهر الحياة والرّفاه والسّعادة، الذي كان يشعّ، إن جازَ التّعبير، من مؤسّسة في طور الازدهار؛ بدلًا من الوجوه البَهِجة المطلّة من وراء الأستار؛ بدلًا من العملاء المشغولين الذين يعبرون أروقته، وقد علّقوا يراعًا في آذانهم؛ بدلًا من الباحة المكتظّة بالطّرود، والضّاجة بصيحات سعاة البريد وضحكاتهم؛ سيجد الزّائرُ، من النّظرة الأولى، ما لا يوصف من مظاهر الحزن والموت. ففي هذا الرّواق الخالي، هذه الباحة القفر، لم يبقَ من العمّال العديدين الذين كانوا يملأون المكاتب فيما مضى، إلا عاملان اثنان: أحدهما شابٌّ في الثالثة والعشرين أو الرّابعة والعشرين من عمره، واسمه إيمانويل رايمون، وكان مغرَمًا بابنة السيّد موريل، فظلّ يشتغلُ في المؤسّسة على الرّغم من كلّ ما فعل والداه لكي يخرجاه منها؛ أمّا الثاني، فكان أمين صندوق مُسنًا، وكانَ أعور، ويسمّى كوكليس، لقبًا أطلقه عليه الشّباب ممّن كانوا يعمرون المكان الذي كان فيما مضى أشبه بقفيرِ نحل ضاجّ، وصار اليوم تقريبًا خاويًا على عروشه. وكان اللّقبُ الذي أُطلق على الشّاب، أي كوكليس، قد احتلّ موقع اسمه الحقيقي، بحيث لو أنّ مناديًا ناداه باسمه الحقيقيّ لما استدار إليه ملبيًا النداء.

كان كوكليس، الرّجل الشّهم، لا يزال في خدمة السيّد موريل،

وقد حدث في وضعيته تغيّر فريد. لقد ارتفع في آنٍ إلى منصب أمين الصندوق، وانخفض إلى مرتبة الخادم. إلا أنّ هذه الوضعية لم تغيّر شيئًا في كوكليس، الرّجل الطيّب، والصّبور، والمخلص؛ لكن الصّارم في كلّ ما يتعلّق بالحساب، النقطة الوحيدة التي قد يعارض فيها العالم كلّه، بما في ذلك السيّد موريل؛ إذ لم يكن يعرف إلا جدول الضّرب، الذي يحفظه عن ظهر قلب، ولا يمكن أن يخطئ فيه، بغضّ النّظر عن الموضع الذي قد يبدأ منه الحسابَ، أو مهما حاول المرء جعله يغلط.

ووسط الكآبة العامّة التي اجتاحت مؤسّسة موريل، كان كوكليس الوحيد الذي ظلّ لا مباليًا. لكن لا ينبغي لنا أن نخطئ التّقدير هاهُنا؛ إنّ لا مبالاته ليست وليدة انعدام إحساس، وإنّما على العكس من ذلك هي ثمرةُ قناعةٍ راسخة. فشأن الجَرذان التي تترك، واحدًا تلو آخر، المركبَ المحكوم بالغرق، بحيث إنّ هؤلاء الضيوف الأنانيّين يخلون المركب تمامًا؛ قلنا شأن تلك الجرذان، فإنّ حشد العمّال والتّجار الذين كانوا يستمدّون وجودَهم من مؤسّسة التاجر، قد تركوا واحدًا تلو آخرَ المكتب والمتجر؛ لكنّ كوكليس ظلّ يتابعهم وهم ينسحبون واحدًا بعد آخرَ، من دون حتّى أن يفكّر في سبب رحيلهم؛ لقد كان كلّ شيء بالنّسبة إلى كوكليس يُختزل، كما أسلفنا في مسألة أرقام. وطيلة العشرين سنةً التي قضاها عند موريل، كان يرى عمليات الدّفع تتمّ بشفافية وانتظام، فلم يكن ليستسيغ أن يتوقّف هذا الانتظام أو تعلّق عمليات الدّفع، إلّا كما قد يستسيغ طحّانٌ يملك مطحنةً يحرّكها نهرٌ غزيرٌ أن ينضبَ هذا النّهر. والحقّ، حتّى تلك اللّحظة لم يكن قد وقع ما من شأنه أن يمسّ اقتناع كوكليس. لقد تمّت العمليات المالية آخر الشّهر بدقّة صارمة. وكان كوكليس قد انتبه إلى خطأ ارتكبه السيّد موريل في الحساب، خطأ قيمته سبعون سنتيمًا، وفي اليوم نفسه أعاد إلى السيّد موريل الأربع عشرة قطعةً

نقدية[1] الفائضة، فكان أن أخذها منه ربُّ عمله بابتسامةٍ حزينةٍ، ورمى بها في درجٍ فارغ، قائلًا: - جيّد يا كوكليس، أنت درّةُ المحاسبين.

فانسحبَ كوكليس راضيًا كأشدّ ما يكون الرّضا؛ ذاك أنّ مديحًا يتلقّاه من السيّد موريل، درّة الشّرفاء بمارسيليا، لهُو إطراءٌ أشدُّ من لو أنّه حصل على خمسين قطعةً فضيّةً مكافأة.

لكن منذُ نهاية الشّهر تلك، التي كانوا قد جاوزوها مظفّرين، مرّت على السّيد موريل ساعاتٌ حالكة؛ فلكي يواجه نهاية الشّهر تلك كان قد جمّع كلّ موارده، كما أنّه، خوفًا من أن تتردّد في مارسيليا أخبار المحنة التي يمرّ منها، إذا ما رُؤيَ لاجئًا إلى مثل هذه الممارسات، فقد سافر بنفسه إلى بوكير ليحضر مهرجانها، فيبيع فيه بعضًا من حليّ زوجته وابنته، وجزءًا من مقتنياته الفضيّة. وبفضل هذه التضحية كان كلّ شيء قد سار، مرّةً أخرى، كما ينبغي بالنّسبة لمؤسّسة آل موريل؛ غير أنّ الصندوق ظلّ فارغًا. ورعبًا إزاءَ الإشاعات المنتشرة، انسحب المُقرضون بأنانيّتهم المعهودة؛ وأمام ضرورة قضاء المائة ألف فرنك المستحقّة للسيّد دو بوفيل في الخامس عشر من الشّهر الجاري، والمائة ألف فرنك التي سيلزمه قضاؤها منتصف الشّهر التالي، لم يكن السيّد موريل يملك أيّ أملٍ إلا أملَه في رجوع سفينة **الفرعون** سالمةً، بعدما وصلت سفينةٌ أخرى انطلقت معها في الوقت نفسه، وأعلمته بانطلاقِها.

على أنّ السّفينة التي كانَ منطلقُها، كمنطلق **الفرعون**، ميناءَ كالكوتا، كانت قد رست منذ خمسة عشر يومًا، و**الفرعونُ** بعدُ لم يظهر لها خبرٌ.

تلكم كانت الملابسات التي ضمنها أتى مبعوث مؤسّسة **فرانش وطومسون**، غداة لقائه الهامّ والسيّد بوفيل، اللقاء الذي بسطناه آنفًا؛ قلنا، ضمن تلك الملابسات حضر المبعوثُ إلى مؤسّسة موريل.

---

(1) أربع عشرة قطعةً نقدية من فئة خمسة سنتيمات، فيكون المجموع كما بيّن في السّطر السّابق: سبعين سنتيمًا.

استقبله إيمانويل. وكان الشّابُ يرتعب لمرأى كلّ وجهٍ جديدٍ، لأنّ كلّ وجه جديد كان يعلن عن دائنٍ جديد، يأتي مدفوعًا بالقلق ليسأل ربّ العمل. وقد أراد الشّابُّ أن يجنّبَ رئيسَه الإزعاج الذي قد تسبّبه له هذه الزيارة؛ فسأل القادم الجديد عن مرادِه، إلا أنّ الرّجلَ أجابه بأنّ الأمر لا يعنيه وأنّه يريد أن يتحدّث إلى السيّد موريل شخصيًا. نادى إيمانويل متنهّدًا كوكليس. برز كوكليس فأمره إيمانويل بأن يقتاد الغريب إلى السيّد موريل.

سار كوكليس في المقدّمة، يتبعه الغريب. على الدّرج صادفا صبيّة في السادسة عشرة أو السّابعة عشرة من عمرها، فنظرت إلى الغريب بقلق.

ولم ينتبه كوكليس إلى ذاك التعبير على الوجه، الذي لم يغب بالمقابل عن الغريب.

سألها أمين الصّندوق: – السيّد موريل في مكتبه يا آنسة جولي، أليس كذلك؟

أجابته الصبيّة متردّدة: – بلى، على الأقلّ بحسب ظنّي؛ انظر أوّلًا يا كوكليس، فإن وجدت أبي أعلمه بحضور السيّد.

أجابها الإنجليزي: – لا جدوى من الإعلام بحضوري يا آنسة، فالسيّد موريل لا يعرف اسمي. ليس على هذا الرّجل الكريم إلا أن يُعلم السيّدَ موريل بأنّي الكاتب الأوّل بمؤسّسة **فرانش وطومسون**، في روما، والتي تجمعها أعمالٌ بمؤسّسة السيّد والدكم.

شحبت الصبيّة وواصلت نزول الدّرج بينما واصل كوكليس والغريبُ صعودَهما.

دخلت إلى المكتب حيث يشتغل إيمانويل؛ بينما فتح كوكليس، بمفتاح كان يملكه وبواسطته يقتحم فضاءَ السيّد موريل، بابًا في زاوية من الطّابق الثاني، وأدخل الغريبَ إلى بهو استقبال، ثمّ فتح بابًا ثانيًا

وأغلقه خلفَه؛ وبعد لحظةٍ، ترك فيها الغريب بمفرده، عاد يعلمه أنّ بوسعه الدّخول على السيّد موريل.

دخل الإنجليزي، فألفى السيّد موريل جالسًا بوجه ممتقع أمام الخانات المرعبة بالسجل الذي دُوّنت فيه ديونه.

وإذ رأى الغريبَ، أقفَلَ السيّدُ موريل السجلّ، ووقف ودفع إلى الغريب بكرسيّ؛ ثمّ إذ تأكّد من جلوس الغريب، جلس بدوره.

إنّ أربعةَ عشر عامًا قد غيّرت التّاجر الكريم الذي بعد أن كان في الرّابعة والثلاثين عند بداية قصّتنا، ها هو ذا يشارف الخمسين من عمره: غزا الشّيب شعره، وحفرت جبينه تجاعيد الهمّ؛ ثمّ نظرتُه التي كانت فيما مضى ثابتة صارمةً، صارت الآن مبهَمةً ومتردّدةً، وتبدو كأنّما تخشى أن تضطرّ إلى مواجهةِ فكرةٍ أو إنسان.

نظر إليه الإنجليزي نظرة فضولٍ يخالطها الاهتمام.

قال موريل وقد بدا أنّ تمعّن الغريب فيه يزيده ارتباكًا:

- سيّدي، هل تودّ الحديث إليّ؟

- أجل يا سيّدي، أنت تعرف من طرف مَنْ أتيتك، أليس كذلك؟

- من طرف مؤسّسة **طومسون وفرانش** بحسب ما قاله لي أمين الصّندوق.

- الحقيقة ما قاله لك يا سيّدي. على مؤسّسة **طومسون وفرانش** مبالغ مستحقةٌ بفرنسا تدفعها الشّهر الجاري والشّهر القادم، حوالى ثلاثمائة ألف أو أربعمائة ألف فرنك؛ ولعلم المؤسّسة بدقّتك الصّارمة، فقد جمعت كلّ الأوراق التي استطاعت أن تجد عليها توقيعك، وكلّفتني أن استحصل منك المال، بقدر ما تتجمّع الأوراقُ، وأدفعه إلى مستحقّيه.

أطلق موريل زفرةً عميقةً، ومسح بيده على جبينه المتفصّد عرقًا.

قال: - وإذًا يا سيّدي، لديك كمبيالاتٌ تحمل توقيعي؟

- نعم يا سيّدي، والمبلغُ معتبرٌ.

سأله موريل بصوت جاهد في أن يجعله واثقًا: - وكم المبلغ؟

قال الإنجليزي وهو يخرج حزمة أوراقٍ من جيبه: - لكن قبل ذلك، هاك نقلًا لدين بقيمة مائتي ألف فرنك حرّره لصالح مؤسّستنا السيّد دو بوفيل، مفتّش السّجون. هل تقرّ بأنّك مدينٌ بهذا المبلغ إلى السيّد دو بوفيل؟

- أجل يا سيّدي، إنّها وديعةٌ وضعها في مؤسّستي، بفائدة أربعة ونصف بالمائة، منذ خمس سنواتٍ.

- وعليك أن تقضيها...

- نصفها في الخامس عشر من هذا الشّهر والنّصف الثاني في الخامس عشر من الشّهر الذي يليه.

- هو كذلك؛ ثمّ ها اثنان وثلاثون ألفًا وخمسمائة فرنكٍ حان وقت سدادها: وهي عبارة عن كمبيالات موقّعةٍ باسمك إلى طرفٍ ثالث باعها إلى مؤسّستنا.

قال موريل وحمرة العار تعتري وجهه، إذ فكّر في أنّها المرّة الأولى في حياته التي لا يستطيع فيها الوفاء بالتزامه: - أقرّ بها؛ هل هذا كلّ شيء؟

- كلاّ يا سيّدي، لدينا أيضًا هذه القيم العقارية التي يحقّ عليك قضاؤها نهاية الشّهر القادم، والتي فوّتتها لنا مؤسّسة باسكال ومؤسّسة وايلد وتورنر بمارسيليا؛ وقيمتها خمسة وخمسون ألف فرنك تقريبًا. فيكون المجموع: مائتان وسبعة وثمانون ألفًا وخمسمائة فرنكٍ.

يستحيل أن نَصِفَ المعاناة التي كان يعانيها التعيس موريل أثناء عملية الإحصاء والعدّ تلك.

ردّد آليًا: - مائتان ووسبعة وثمانون ألفًا وخمسمائة فرنكٍ.

أجابه الإنجليزي: - أجل يا سيّدي، (ثمّ بعد برهة صمت أضافَ)

على أنّي لن أخفيك يا سيّدي موريل، مع التأكيد على النّزاهة التي اتّصفتَ بها حتّى الآن، أنّ إشاعات في مارسيليا تروج، مفادُها أنّك لن تستطيع الوفاء بديونك.

إزاء هذه الصّراحة التي تكاد تكون وحشيّة، شحب وجهُ موريل غاية الشّحوب.

قال: - سيّدي، إلى حدود الآن، أي بعد أكثر من أربعٍ وعشرين سنةً قضيتها على رأس هذه المؤسّسة، ومن قبلها خمس وثلاثين سنةً أدار فيها شؤونَها أبي، لم يسبق أبدًا أن عُرضت وثيقةٌ موقّعةٌ من طرف موريل على أمين صندوقنا ولم يتمّ قضاؤها.

أجابه الإنجليزي: - أجل، أعلم كلّ هذا، لكن من رجلِ شرفٍ إلى رجلِ شرفٍ آخر، صارحني يا سيّدي: - هل ستدفعون هذه المستحقات بنفس الانضباط؟

انتفض موريل وأخذ ينظر إلى هذا الذي يكلّمه بثقة غير مسبوقة.

قال: - للأسئلة التي تُطرح بهذه الصّراحة، ينبغي تقديم إجابةٍ لا تقلُّ صراحةً. أجل يا سيّدي، سوف ألتزم بالدّفع في حال وصلت سفينتي، كما أرجو، في الوقت المناسب، إذ إنّ حمولتها ستفي بقضاء الدّيون التي تراكمت بسبب الحوادث التي توالت عليّ. لكن في حال ما إذا أصاب **الفرعونَ** مكروه، وهي آخرَ ما أعتمد عليه من موارد...

صعدت الدّموع إلى عينَي التاجر المسكين.

سأله مخاطبُه: - وإذًا، إذا ما خسرتَ آخرَ مواردك...؟

واصل موريل: - وإذًا يا سيّدي، قاس عليّ قولُ هذا... لكنّي، وكما اعتدتُ الشّقاءَ، سيكون عليّ أن أعتاد العارَ؛ وإذًا، سأكون مجبَرًا على تعليق قضاء ديوني.

- أما من أصدقاء لديك يعينونك في هذه الظّروف؟

ابتسم موريل بحزن.

قال: - أنت تعلم علم اليقين يا سيّدي أنّ في مجال الأعمال، ليس ثمّة أصدقاء، ثمّة فقط عملاء.

غمغم الإنجليزي: - أنت محقّ. وعليه، لم تعد تملك إلا أملًا واحدًا؟

- واحدًا ووحيدًا.

- أملك الأخير؟

- الأخير.

- بحيث إذا ما ضاع هذا الأمل...

- أضيعُ يا سيّدي، أضيع تمامًا.

- أثناء قدومي صادفتُ سفينةً دخلت لتوّها إلى الميناء.

- أعلم يا سيّدي. إنّ شابًا بقيَ وفيًا لي رغم سوء ظروفي، يقضي جزءًا من وقته على شرفةٍ بأعلى المؤسّسة، آملًا في أن يكونَ البشيرَ الذي يحمل لي الخبرَ السّعيدَ. وقد أخبرني بوصول السّفينة التي ذكَرتَها.

- وليست هي سفينتك؟

- كلاّ، إنّها سفينةٌ من بوردو، واسمُها **لا جيراند**؛ هي أيضًا قادمةٌ من الهند، لكنّها ليست سفينتي.

- لعلّها التقت **الفرعونَ**، فتستطيع أن تستقصيَ من أخبارها.

- ينبغي أن أصدقك القول يا سيّدي، أنّي أخافُ أن تصلني أخبار سفينتي الثلاثية الصواري، بقدر ما أخشى أن أظلّ في حالٍ من اللايقين. إنّ اللايقين يعني أنّه لا يزال ثمّة أمل. (ثمّ أضاف بصوت مخنوق) إنّ هذا التأخير ليس طبيعيًا؛ لقد انطلقت **الفرعون** من كالكوتا يوم 5 فبراير كان ينبغي أن تصل هنا منذ أكثر من شهر.

قال الإنجليزي وهو يصيخ بأذنه السّمعَ: - ما هذا؟ ما معنى هذا الضّجيج؟

صاح موريل وقد تملّكه الشّحوبُ: - أوه يا إلهي! ما الذي حدث؟

وبالفعل كانت ثمّة ضجّة كبيرةٌ في الدّرج؛ حركاتُ صعودٍ ونزول، بل وسُمعت صرخةُ ألم.

قام موريل وقصد الباب كي يفتحه، لكنّ قواه خانته، فتهاوى على مقعده.

ظلّ الرّجلان وجهًا لوجه، موريل يرتعد بكلّ أطرافه، والغريب ينظر إليه بشفقة. كفّت الضجّة؛ لكن كان يبدو أنّ موريل ينتظر شيئًا؛ الضجّة كان لها سبب، ولا بدّ أن تكون لها نتيجةٌ. بدا للغريب أنّه يسمع وقع خطواتٍ تصعد الدّرج بهدوء، ثمّ توقّفت الخطوات، خطواتُ رجالٍ كُثر، على بسطةالدّرج.

أُدخل مفتاحٌ في قفل الباب الأوّل، وسمع البابُ يصرّ من أُسسه.

غمغم موريل: - لا يملك مفتاح هذا الباب إلا شخصان: - كوكليس وجولي.

وفي اللّحظة نفسها انفتح البابُ الثاني، وظهرت الشّابةُ شاحبةً وخدّاها غارقان بالدّموع.

قام موريل مرتعدًا، واستند إلى ذراع مقعده، إذ لم يكن بمقدوره الوقوف على قدميه. أراد أن يسألها لكنّ الصّوتَ خانَه.

قالت الصبيّة وهي تشبك يديها: - آه يا أبي! اغفر لابنتك أن تكون نذير أخبار السّوء!

امتقع وجه موريل امتقاعًا فظيعًا؛ ارتمت دولي في حضنه.

قالت: - أوه يا أبي! يا أبي! صبرًا جميلًا!

سألها موريل بصوتٍ مختنق: - ضاعت **الفرعون**؟

لم تُجب الصبيّة، لكنّها أشارت مؤكّدة برأسها الملتصق بصدر والدها.

سألها موريل: - والطّاقم؟

- لقد نجا. أنقذته السفّينة البوردوية التي دخلت الميناء للتوّ.

رفع موريل يديه إلى السّماء بتعبير استسلام وعرفانٍ مهيبٍ.

قال: - أحمدك يا ربّ! على الأقلّ لست تصيب سوايَ!

على الرّغم من شدّة برود الإنجليزيّ، إلّا أنّ دمعةً ترقرقت في مقلته.

قال موريل: - ادخلوا، ادخلوا، أتصوّر أنّكم جميعًا بالباب.

وبالفعل، ما إن نطق كلماته تلك حتّى اندفعت السيّدة موريل إلى المكتب باكيةً، وتلاها إيمانويل؛ وفي أقصى الرّدهة كانت تُرى الوجوه القاسية لثمانية بحّارةٍ نصفَ عراةٍ. ولمرأى هؤلاء الرّجال، انتفض الإنجليزي؛ وخطا خطوةً كأنّما يريد أن يذهب إليهم، لكنّه ما لبث أن ألجم نفسَه، وغاب في الرّكن الأبعد والأشدّ عتمةً من المكتب.

قصدت السيّدة موريل المقعد تجلسُ عليه، وأمسكت بيد زوجها بين يديها، بينما ظلّت جولي ملتصقةً بصدره. أمّا إيمانويل فظلّ في منتصف الطّريق إلى الغرفة، وبدا كأنّما يربط بين الجمعَيْن: - أسرة موريل والبحّارة الواقفين على الباب.

سألهم موريل: - كيف حدث ما حدث؟

قال الشّابُ: - اقترب يا بِنِلون واحكِ ما وقع.

تقدّم النوتيّ المسنّ، الذي لوّحته شمس الاستواء، مقلّبًا بين يديه بقايا قبّعة. وكأنّما قد ترك مارسيليا أمس فقط وعاد من آيكس أو تولون، قال:

- صباح الخير يا سيّدي موريل.

قال التاجر، غير قادرٍ على منع ابتسامته خلَال دموعه: - صباح الخير يا صديقي، لكن أين القبطان؟

- أمّا القبطان يا سيّدي موريل، فقد بقيَ مريضًا في بالما (إسبانيا)؛ لكنّ حاله بإذن الرّب جيّدة، وما هي إلا أيّام حتّى يعود إلينا في صحّة جيّدة مثلي ومثلك...

قال موريل: - جيّد... والآن، قُل ما عندك يا بِنِلون.

نقل بِنِلون مضغة تبغه من خدّه الأيمن إلى خدّه الأيسر، وضع يده أمام فمه، استدارَ، وبصق في الرّدهة سيل لعابٍ طويل مُسودّ، ثمّ قدّمَ ساقَه، ومؤرجحًا خصره قالَ:

«كنّا يا سيّدي موريل نسير هكذا بين الرأس الأبيض ورأس بويادور، يدفعنا نسيمٌ عليلٌ، وبعدما أمضينا ثمانية أيّام في إبحارٍ هانئ، اقترب منّي القبطان غومار، وينبغي أن أقول هنا إنّني كنت أنا من يقود الدّفةَ، وقال لي: «أيّها الأبُ بِنِلون، ما ظنّك في السّحب التي تراها ترتفعُ هناك في الأفق؟»». وبالفعل كنت أنا في تلك اللحظة أتابع الغيوم التي أشار إليها. قلتُ: «ماذا أظنُّ يا قبطان! أرى أنّها تتراكم أسرعَ ممّا ينبغي لها، وأنّها أشدُّ سوادًا من أن تكون سحبًا لا تضمرُ شرًا». قال القبطان: «ذاك ظنّي أيضًا. وسوف آخذ احتياطاتي. نحن ننشر من الأشرعة ما يفوق القدر المناسب للرّيح التي ستهبُّ بعد قليل... هولا! إيه! اسحبوا الأشرعة المربّعة العليا، واخفضوا شراع المقدّمة!

«وقد أتت أوامره في وقتها؛ إذ ما كادت الأوامرُ تنفّذ، حتّى كانت الرّيح في إثرنا، وصارت السّفينة تميل. قال القبطان: «حسنًا! ما زال هناك من الأشرعة أكثر ممّا يلزم، لمّوا الشّراع الأكبر!». وما هي سوى خمس دقائق حتّى كان الشّراع الأكبر قد لُمَّ: وصرنا نسير معتمدين على شراع الميزان والشراع الأعلى والأشرعة المربّعة السّفلى. وقال لي القبطان: - حسنًا أيّها الأبُ بِنِلون، ما الذي يدعوك إلى أن تهزّ رأسَك؟

وأجبته: - يدعوني إلى ذلك أنّي ما كنتُ لأظلّ على هذه الطّريق لو كنتُ مكانك.

فقال: - أظنّك محقًّا أيّها العجوز، ستهبّ علينا عاصفةُ رياح.

أجبتُه: - آه يا قبطان! إنّ فرقًا كبيرًا بين عاصفة رياح، وبين ما يتحضّر هناك في الأفق؛ ذاك أني أظنُّ أنّ ما يتحضّرُ هناكَ هو عاصفةٌ فعليّةٌ، وإلّا فإنّي لا معرفة عندي ولا خبرة!

«أقصدُ أنّنا كنا نرى الرّيح آتيةً كما يأتي الغبارُ في مونترودون؛ ولحسن الحظّ كان مع القبطان رجلٌ خبيرٌ بها. فصاح القبطان: - اطووا مقدارَ قدّتين من الشّراع الأعلى! أرخوا حبل الشّراع، وجّهوا الصّاري مع الرّيح، اسحبوا الأشرعة العليا، ارفعوا المحامل على الصواري!

قال الإنجليزي: - هذه الإجراءات غير كافية في تلك الأنحاء؛ لو كنت مكانكم لأمرت بطيّ مقدار أربع قدّات، ولتخلّصت من شراع الميزان.

جعل الصّوتُ الحازمُ الرّنانُ الجميعَ ينتفض.

وضع بِنِلون يده فوق عينيه ونظر إلى هذا الرّجل الذي يضبطُ برباطة جأشٍ عملَ قبطانِه.

قال البحّارُ المسنُّ بشيءٍ من الاحترام: - لقد فعلنا ما هو أفضل يا سيّدي، طوينا قلوعَ السّفينة ووجهنا سيرَها مسرى الرّيح كي نجري أمام العاصفة. وعشر دقائق بعد ذلك طوينا الأشرعة الأمامية، وجعلنا السّفينة تسير من دون أيّ شراع.

قال الإنجليزي: - لقد كان المركبُ أقدمَ من يتحمّل مثل هذه المجازفة.

- وذاك تحديدًا سبب ضياعنا! بعد اثنتَي عشر ساعةً من بداية تأرجحنا، بعد أن أشهر الشّيطانُ أسلحتَه، انبثق سيلُ ماءٍ. قال لي القبطان: بِنِلون، أظنُّ أنّنا نغرق، سلّم إليّ الدفّة وانزل إلى قعر المركب.

فكان أن سلّمتُه الدفّة، ونزلتُ؛ كان الماء قد وصل أصلًا ارتفاع ثلاث أقدام. صعدت إلى سطح السّفينة صائحًا: «إلى المضخّات! إلى المضخّات!» آهٍ! كان الوقت حقًا قد فات! انخرطنا إلى الاشتغال؛ لكنّي أحسبُ أنّنا بقدر ما كنّا نسحبُ من ماءٍ، بقدر ما كانت المياه تزداد.

آه! يا إلهي، بعد أربع ساعاتٍ بلغ بي الأمر إلى القول: - ما دُمنا نغرق، فلنغرق، الإنسانُ لا يموت إلا مرّةً واحدة!

فقال القبطان: - أهذا النّموذج الذي تعطيهم أيّها المعلّم بِنلون؟ طيّب، انتظر، انتظر!

ذهب إلى مقصورة القيادة، وعاد حاملًا مسدّسين. وقال: - أوّل من يترك المضخّة، سأفجّرُ رأسَه!

قال الإنجليزي: - حسنًا فعلَ.

واصل البحار كلامه:

«لا شيء يبعث في النّفس الشّجاعة أكثر ممّا تفعلُ الأسبابُ الوجيهةُ، خاصّةٌ أنّه آنذاك كان قد صار جليًّا أنّ الرّيح قد هدأت، لكن كان جليًا بنفس القدر أنّ الماء يواصل الصّعود، وإن بدرجةٍ أقلّ، نحو بوصتين في السّاعة تقريبًا، لكنّه في جميع الأحوال كان يصعد. قد يبدو مقدارُ بوصتين لا شيء يذكر؛ لكن في اثنتي عشرة ساعة يكون الحاصل أربعًا وعشرين بوصةً، وأربع وعشرون بوصةً هي مقدار قدمَين. فإن أضفنا إلى القدمين الأقدام الثلاث التي كان قد بلغها مستوى المياه في السّفينة، فسيكون الحاصل خمس أقدام. والحال أنّ مركبًا بلغ مستوى المياه فيه خمس أقدام، يعتبرُ مركبًا مغمورًا بالماء.

قال القبطانُ: - حسنًا إذًا، يكفي هذا، فالسيّد موريل لن يكون لديه ما يلومونا عليه. لقد فعلنا ما في وسعنا كي ننقذ المركب؛ الآن، ينبغي الحرصُ على إنقاذ الرّجال. إلى القارب يا أبنائي، أسرعوا!».

واصل بِنلون الكلام:

«اسمع يا سيّدي موريل، إنّنا نحبُّ حقًا **الفرعون**، لكن مهما بلغ حبّ البحّار سفينَتَه، فإنّه يحبُّ روحَه أكثرَ. لذا لم نترك القبطانَ يكرّر قوله؛ خاصّةً وأنّ السّفينة كانت تبدو كأنّما تصرخ بنا: «هيّا عجّلوا بالرّحيل، عجّلوا بالرّحيل!»؛ ولم تكن **الفرعون** المسكينة تكذبُ، فلقد شعرنا بها حرفيًا تنهار تحت أقدامنا. إلى درجةٍ أنّه في لمح البصر كان القاربُ في البحر، وكنّا ثمانيتُنا فيه. وكان القبطان آخر النّازلين إلى القارب، أو

بالأحرى لم ينزل، وإنّما أنزلتُه أنا بالقوّة، إذ ألقيت به إلى الرّفاق، ثمّ نزلت بعده. وقد كان وقتَ النّزول بالفعل. فما إن قفزت، حتّى انفجر جسر السّفينة كأنّما انهال عليه قصفٌ شاملٌ من بارجة مزوّدة بثمانية وأربعين مدفعًا. عشر دقائق بعد ذلك، غاصت السّفينة من قيدومها، ثمّ من كوثلها، ثمّ أخذت تدور حول نفسها ككلبٍ يتعقّبُ ذيله. ثمّ، عموا مساءً يا رفاق، بروووو! لقد قضي الأمرُ، وصارتُ **الفرعون** في خبر كان!

«أمّا نحنُ، فبقينا ثلاثة أيّام لا نشربُ أو نطعم؛ لدرجة أنّنا صرنا نتحدّث في شأنِ تنظيم قرعةٍ نحدّد بها من سيصير طعامًا للآخرين، وإذا بنا نلمح سفينة **لاجيراند**: أخذنا نرسل إليها إشاراتٍ، فرأتنا، واتّجهت صوبنا، ثمّ أرسلت إلينا قاربها يستقبلنا. هوذا تفصيل ما حدث يا سيّدي موريل، أقسم إليك بشرفي! شرف بحّار! أليس صحيحًا يا رفاق؟».

سرت غمغمةٌ عامّةٌ موافِقةٌ مبيّنةً أنّ الرّاويَ قد حاز الإجماع بفضل صدقِ المضمون وروعة التّفاصيل.

قال موريل: - حسنًا يا أصدقاء، نِعمَ البواسل أنتم، ولقد كنت أعرف أنّ المصيبة التي حاقت بي ما من مذنبٍ فيها إلا سوء قدري. إنّها إرادة الربّ، لا إرادة البشر. لنقبل إرادة الربّ. والآن، بكم أنا مدينٌ لكم؟

- أوه! لنضرب صفحًا عن هذا الأمر يا سيّدي موريل.

قال التاجر بابتسامةٍ حزينةٍ: - بالعكس، فلنتحدّث فيه.

قال بنِلون: - حسنًا، راتب ثلاثة أشهر...

- كوكليس، ادفع مائتي فرنك لكلّ واحدٍ من هؤلاء الرّجال البواسل. (ثمّ واصل موجّها كلامه إليهم) لو أنّ الزمن كان غير الزّمن، لكنتُ قلتُ: «زِدهم مائتي فرنك عرفانًا لهم»، لكنّ الزّمن شقيٌّ يا أصدقائي، والنّقود القليلة التي بقيت بحوزتي لم تعد ملكي. فاعذروني إذًا، ولا تجعلوا هذا الأمر ينقص من مودّتكم لي.

بدا على وجه بنِلون تعبيرُ رقّة، قصد رفاقه، توشوشوا كلماتٍ، ثمّ عاد.

قال وهو ينقُل مضغة تبغه إلى الجانب الآخر من فمه ويبصق في الرّدهة بصقةً أخرى التحقت بسابقتها: - فيما يخصّ هذه المسألة...

- أيّ مسألة؟

- مسألة النّقود...

- نعم؟

- يقول الرّفاق إنّ خمسين فرنكًا تكفيهم الآن، وبوسعهم انتظار الباقي.

صاح موريل وقد مسّ عرضُهم قلبَه: - شكرًا يا أصدقائي، شكرًا! ما أشهمكم! لكن خُذوا نقودكم، خذوها، وإن وجدتم عملًا، فالتحقوا به، إنّكم أحرار.

خلّفت الجملة الأخيرة أثرًا مروّعًا في البحّارة البواسل. فصاروا ينظرون بعضهم إلى بعض بتعبير رعب. وكاد بِنلون الذي انقطع نفسه أن يبتلع مضغة تبغه، لولا أنْ أمسك بحلقه في آخر لحظة.

قال بصوت مختنق: - ماذا يا سيّدي موريل، هل تسرّحنا من العمل؟ أأنت غير راضٍ عن عملنا؟

قال التاجرُ: - كلّا يا أبنائي؛ كلا، لستُ غير راضٍ عن عملكم، بل بالعكس. إنّي لا أسرّحكم. لكن، ما العمل؟ لم يعد لي من سفينةٍ، فما حاجتي إلى بحّارة؟

قال بِنلون: - كيف لم يعد لك من مركب! حسنًا إذًا، سوف تطلبُ بناء سُفنٍ أخرى، وسوف ننتظرك. نحن والحمد للربّ نعرفُ معنى التّسكّع.

قال التاجر بابتسامةٍ حزينة: - لم يعد لي المالُ لبناء مراكب يا بِنلون، فلا أستطيع إذًا أن أقبل عرضكم الكريم.

- حسنًا، إن لم تعد تملك المال، فلا ينبغي أن تدفع لنا؛ لن يكون مصيرنا أسوأ من **الفرعون** المسكينة.

قال موريل مختنقًا من التأثّر: - كفى، كفى؛ اذهبوا رجاءً. ولسوف

نلتقي في ظروفٍ أفضل. (ثمّ أضاف موجّهًا كلامه إلى إيمانويل) رافق الرّجالَ يا إيمانويل، واحرص على تنفيذ ما طلبتُه.

قال بنِلون: - نرجو على الأقل ألّا يكون الأمرُ إلا وداعًا حتى لقاءٍ قريب؟

- أجل يا أصدقائي، هذا ما أتمنّاه؛ هيّا.

ثمّ أشار إلى كوكليس الذي تقدّمَ المسيرَ، فتبعه البحّارةُ، ثمّ في إثرهم جميعًا سار إيمانويل.

ثمّ قال التاجر لزوجته وابنته: - والآن، اتركاني لحظةً، فإنّ لي ما أتحدّث فيه مع السيّد.

ثمّ أشار بعينيه إلى وكيل مؤسّسة طومسون وفرانش الذي كان قد ظلّ واقفًا ساكنًا في ركنه طيلة المشهد السّابق، فلم يشارك فيه إلا بتلك الكلمات القليلة التي نقلناها. رفعت المرأة عيونهما إلى الغريب الذي كانتا قد نسيتا أمره تمامًا، ثمّ انسحبتا؛ على أنّ الشّابة، وهي تغادر الغرفة، رمت الرّجل بنظرةِ توسّل مهيب، قابلها الرّجل بابتسامةٍ كان ملاحظٌ موضوعيٌّ ليتعجّبَ إن رآها تضيءُ الوجه الباردَ. وظلّ الرّجلان بمفردهما.

قال موريل وهو يتهاوى على مقعده: - حسنًا يا سيّدي، ها قد رأيت بنفسك كلّ شيء وسمعت كلّ شيء، ليس ثمّة ما أقوله لك.

قال الإنجليزي: - رأيت يا سيّدي أنّ مصيبة جديدةً حلّت بك، مصيبةً لا تستحقّها، فتأكّدت عندي الرّغبة في أن أساعدك.

قال موريل: - أوه يا سيّدي!

واصل الغريب: - لنرَ إذًا يا سيّدي. أنا أحد دائنيك الرئيسيّين، أليس كذلك؟

- أنت، على الأقلّ، الدّائنُ صاحبُ الديون الأكثر استعجالًا.

- هل تريد تأجيلًا لتسديد الدّيون.

- إنّ بوسع تأجيلٍ أن ينقذ شرفي، وبالتّالي حياتي.
- كم تطلب تأجيلًا؟
تردّد موريل، ثمّ قال: - شهرين.
قال الغريب:
- حسنًا، سوف أمنحك ثلاثة.
- لكن، هل تعتقد بأنّ مؤسّسة **طومسون وفرانش**...
- اطمئنَّ يا سيّدي، أنا أتحمّل كامل المسؤولية. نحن اليوم في الخامس من يونيو.
- نعم.
- حسنًا، جدّد كلّ هذه الأوراق، واجعل تاريخ استحقاق ديونها الخامس من سبتمبر؛ في الخامس من سبتمبر على السّاعة الحادية عشرة صباحًا (وكانت السّاعة في تلك اللّحظة تشير إلى الحادية عشرة بالضّبط)، سآتي إليك.
قال موريل: - سأكون في انتظارك يا سيّدي، وسوف أدفع لك، أو أموت.
ونطق الكلمات الأخيرة بصوتٍ خافتٍ، بحيث لم يتمكّن الغريب من سماعها.
جُدّدت الأوراقُ، ومزّقت القديمةُ، وصار أمام التاجر المسكين ثلاثة أشهرٍ أخرى يلمّ فيها آخرَ موارده.
استقبل الإنجليزي تشكّرات موريل باللامبالاة المميزة لأبناء وطنه، ثمّ استأذن من التاجر، الذي رافقه حتّى الباب مغدقًا عليه الدّعوات.
عند الدّرج التقى بجولي. كانت الصبيّة تتظاهر بأنّها نازلةٌ، لكنّها في الواقع كانت تنتظره.
قالت شابكةً يديها: - أوه يا سيّدي!
قال الغريب: - آنستي، سوف تصلك يومًا ما رسالةٌ تحمل توقيع...

السّندباد البحريّ... فاتبعي بالحرف ما تمليه عليك الرّسالةُ مهما بدا لك غريبًا.

- حاضر يا سيّدي.

- هل تعدينني بأن تفعلي؟

- أقسم لك.

- حسنًا! وداعًا يا آنستي. ولتبقي دائمًا كما أنت، شابةً طيّبةً طاهرةً، ورجائي أن يكافئك الرّبُ بإيمانويل زوجًا.

أطلقت جولي صيحة مكتومةً، واحمرّ وجهها ككرزةٍ، وأمسكت بمسند الدّرج كي لا تسقط.

أمّا الغريبُ، فقد أكمل طريقه وهو يشير إليها تحيّةَ وداع.

في الباحة وجد بنِلون حاملًا حزمةً من ألف فرنكٍ في كلّ يدٍ من يديه، متردّدًا لا يدري هلِ يأخدها أو يتركها.

فقال له: - تعالَ يا صديقي، فإنّ عندي ما أقوله لك.

30

الخامس من سبتمبر

إنّ المهلة التي منّ بها وكيلُ مؤسّسة **طومسون وفرانش** على موريل، في الوقت الذي لم يكن يأمل فيها، قد بدت له واحدةً من تلك العلامات المبشّرة بأنّ السّعد سيعود ليقف بجانب التاجر معلنًا أنّ القدر قد أشاح عنه بمصائبه. وفي اليوم نفسه حكى لابنته وزوجته وإيمانويل ما جرى له مع الغريب، فعاد شيءٌ من الأمل، أو أقلّه شيءٌ من الطمأنينة، إلى كنف العائلة. غير أنّ السيّد موريل، للأسف، لم يكن مديونًا فقط لمؤسّسة طومسون وموريل التي راعت ظروفه خير مراعاةٍ. فكما سبق أن قال: «في ميدان التّجارة ليس ثمّة أصدقاءٌ وإنّما فقط عملاء». وحين يفكّر عميقًا فيما جرى لا يستطيع أن يجد تفسيرًا لتصرّف وكيل مؤسّسة **طومسون وفرانش** معه؛ فلم يكن يجد من تفسير إلا أنّ المؤسّسة بعد إمعانِ تفكير، قد راعت مصلحتها، ورأت أنّ الأفضل لها أن تساند عميلًا من عملائها فتستعيد بعد ثلاثة أشهر الدَّيْن الذي يقارب ثلاثمائة ألف فرنك، على أن تسرّع إفلاسه، فلا تغنم أكثر من ستّة أو سبعة بالمائة من رأسالمال.

ولسوء الحظّ، إمّا حقدًا أو عمىً، لم يفكّر باقي الدائنين بنفس النّحو الذي فكّر به أصحابُ **طومسون وفرانش**، لا بل إنّ منهم من فكّر عكس ذلك. قُدّمت إذًا الكمبيالات التي كتبها موريل على نفسه إلى أمين الصّندوق بدقّة صارمةٍ، وبفضل المهلة التي أمهلها الإنجليزيُ موريلَ، تمكّن كوكليس من دفع ما استُحقّ من ديونٍ. واستطاع كوكليس إذًا أن

يواصل الاستكانة إلى طمأنينته المقدّرة. وحده موريل كان يرى مرعوبًا أنّه لو كان ملزمًا بأن يدفع إلى بوفيل في الخامس عشر من هذا الشّهر الخمسين ألف فرنك، ثمّ في الثلاثين منه الاثنين وثلاثين ألفًا وخمسمائة فرنك المترتّبة عنها كفوائد، بالإضافة إلى دين مفتّش السّجون، لكان منذ هذا الشّهر في عداد الضّائعين.

كان الرّأي السّائد بين تجار مارسيليا جميعهم هو أنّ الرّجل لن يستطيع أن ينجو من كلّ الضّربات التي تتالت منهالةً عليه. فعمّ الذّهول حين رأوه نهايةَ الشّهر يقضي ديونه بنفس الدّقة المعهودة فيه. على أنّ الثّقة لم تعاوِد النّفوسَ، وأجمعَ الكلّ على إرجاء إفلاس التاجر المسكين إلى الشّهر المقبل.

قضى موريل الشّهرَ كاملًا في جهود مضنيةٍ لجمع ما تبقى من موارده. فيما مضى كانت الطلبات التي تحمل توقيعه، بغضّ النّظر عن التّاريخ المدوّن عليها، تحوزُ بالغ الثقة، لا بل إنّها كانت مطلوبةً. حاول موريل أن يفاوض للحصول على ديون بتسعين يومًا، لكنّ المصارف أقفلت في وجهه أبوابها. ولحسن الحظّ، كان لموريل بعض المداخيل التي يستطيع الاعتماد عليها. وقد حصّل تلك المداخيل، فكان قادرًا على أن يواجه بعضًا من التزاماته عندما أتى شهر يوليو.

عدا ذلك، لم تشهد مارسيليا مرّةً أخرى ظهور وكيل مؤسّسة **طومسون وفرانش**؛ غبَّ زيارته إلى السيّد موريل، أو يومًا بعد ذلك، كان قد اختفى. على أنّه، إذ لم يخالط بمارسيليا إلا العمدة، ومفتّش السّجون، والسيّد موريل، فإنّ مروره من المدينة لم يخلّف من الأثر إلا الذّكرى المبهمة التي انطبعت في نفوس الرّجال الثلاثة. أمّا نوتيّة **الفرعون**، فيبدو أنّهم قد وجدوا عملًا آخر، إذ اختفوا هم أيضًا.

القبطانُ غومار، بعدما صحّ من الوعكة التي أقعدته في بالما، عادَ إلى مارسيليا. وظلّ متردّدًا في أن يزور موريل: لكنّ التاجر، وقد بلغه خبرُ

عودته، ذهب إليه بنفسه. كان التاجر الشّهم يعرف مسبقًا، بفضل ما حكاه بنِلون، ما أبداه القبطان من شجاعة طيلةَ الوقت الذي استغرقته الكارثة التي حلّت بهم، فكان موريل هو من سعى إلى مواساة القبطان غومار. وحمل إليه راتبه الذي أبت نفسُه المطالبةَ به. وبينما ينزل الدّرجَ صادف التاجر بنِلون صاعدًا. وكان يبدو على الرّجل حسنُ التّصرف بما تقاضاه من مالٍ، إذ كان قد ارتدى حلّةً جديدةً كلّ الجدّة. لكن حين لمح قائدُ دفّة **الفرعون** ربَّ سفينته، بدا عليه الانزعاج؛ ركنَ إلى الزّاوية الأبعد من بسطة الدّرج، وأخذ ينقُل مضغة تبغه، تواليًا، بين حنكه الأيمن وحنكه الأيسر، وهو يديرُ عينين جاحظتين مرعوبتين، ولم يردّ إلّا بمصافحةٍ باهتةٍ على تحيّة موريل الذي مدّ إليه يده بمودّته المعهودة؛ وقد عزا التاجر انزعاج بنِلون إلى أناقة ملبسه. بديهيٌّ أنّ الرّجل الشّهم لم يسمح لنفسه بإنفاق ماله في رفاهية من هذا القبيل؛ والواضح أنّه التحقَ بطاقم مركبٍ آخر، وإنّه ليشعر بالخجل لأنّه لم يواصل الحداد على **الفرعون** بما يكفي. ولرّبما كان آتيًا الآن يُطلع القبطانَ غوما ى حظّه السّعيد، ويقترح عليه عرضًا من مشغّلِه الجديد.

قال موريل وهو يبتعد: - أيّها الرّجالُ البواسلُ، ليمحضكُم مشغّلكم الجديد قدْرَ ما كنت أمحضكم أنا من حبٍّ؛ وليكُن أسعد منّي حظًا!

وانقضى شهر أغسطس في محاولاتٍ لا تنقطع من طرف موريل لرفع قرضه السّابق، والحصول على قرض جديد. وفي العشرين من أغسطس عُلم في مارسيليا أنه قد استقلّ عربةَبريد، فقالوا إنّ الحسابَ كان مقرّرًا نهايةَ الشّهر، فاضطرّ إلى الرّحيل قبل الموعد المقرّر تجنبًا لنفسه حضورَ الحدث القاسي، مكلّفًا بالمهمّة سكرتيره إيمانويل وأمين صندوقه كوكليس. لكن، وضدًّا على كلّ التوقّعات، حين حلّ الواحد والثلاثون من غشت، فُتح صندوق المال كالمعتاد. وبرز كوكليس من خلف السيّاج، هادئًا كالحكيم هوراثيوس، وفحص بالعناية المعتادة

الوثائق التي قدّمت له، من الأولى إلى الأخيرة، وقضى الدّفعات المستحقّة بالدّقة المعتادة. لا بل أتى دَيْنان، توقّعهما موريل، وقضاهما كوكليس بالانضباط نفسه الذي قضى به الدّفعات المستحقّة على التاجر. لم يستطع النّاسُ أن يفهموا شيئًا، فأجّلوا إعلان الإفلاس، بذاك العناد المعتاد في المتنبّئين، حتّى نهاية شهر سبتمبر.

فاتح الشّهر عاد موريل: كانت العائلة جميعها تنتظره بقلقٍ عظيم؛ فمن سفره ذاك إلى بارس يفترض أن تنبثق طريقُ خلاصه الأخيرة. لقَد فكّر موريل في دانغلار، الذي صار اليوم مليونيرًا، بعدما كان بالأمس مدينًا له، ما دام كان هو من توسّط له عند المصرفيّ الإسبانيّ الذي بدأت عنده قصّة ثروته الهائلة. واليومَ، على ما يُقال، صار دانغلار يملك ستّة ملايين أو ثمانيةً خالصةً له، ويتمتّع برصيد مفتوح. بوسع دانغلار، والحال هذه، أن ينقذ موريل من دون أن يصرفَ فلسًا من جيبه. ما عليه إلا أن يضمنه في قرض، فينجو موريل بجلده. وكان موريل قد فكّر في دانغلار منذ زمن؛ غير أنّ ثمّة نفورًا غريزيًا لا يستطيع أن يتحكّم فيه، يجعله يؤجّل ما أمكنه اللجوء إلى هذه الوسيلة. وكان محقًا في تردّده، إذ ها هو ذا يعود من باريس مكسورًا يرزح تحت مهانة الرّفض.

على أنّ موريل، حين عودته، لم يبدِ أيّ شكوى أو اتّهام؛ قبّل زوجته وابنته باكيًا، ومدّ يدًا ودودًا إلى إيمانويل، ثمّ أغلق على نفسه باب مكتبه بالطّابق الثاني، وطلب كوكليس.

قالت المرأتان لإيمانويل: - هذه المرّة، انتهينا.

ثمّ بعد مناجاةٍ قصيرة بينهما، خلصتا إلى ضرورة أن تكتب جولي إلى أخيها، بثكنته في نيم، فتستدعيه ليحضر على الفور.

لقد كانت المرأتان المسكينتان تستشعران غريزيًا أنّهما محتاجتان إلى أن تستجمعا حولهما كلّ القوى الكفيلة بإعانتهما على ما يترصّدهما من خطر.

ثمّ إنّ ماكسمليان موريل، على الرّغم من أنّه لم يتجاوز الثانية والعشرين من عمره، كان له بالغ التأثير في أبيه.

كان شابًا حازمًا ومستقيمًا. وحين عنّ له أن يخطّ لنفسه مسارًا شخصيًا، لم يشأ والده أن يفرض عليه أيّ مسارٍ محدّد سلفًا، وتركه لاختياره الحرّ. فكان أن أفصح عن نيّته في الالتحاق بسلك الجيش. ونتيجةً لذلك، درس دراسةً رفيعةً، ودخل السلك العسكري من بوابة مباراة مدرسة البوليتيكنيك[1]، وخرج منها ملازمًا ثانيًا بالخطّ رقم 53. ومنذ سنةٍ وهو يحمل هذه الرّتبة، وقد تلقى وعدًا بأن يرقّع إلى درجة ملازم، ما إن تلوحِ أوّل فرصةٍ. وفي الفيلق يذكر اسم ماكسمليان موريل باعتباره الملاحظَ الصّارمَ، ليس فيما يخصّ الالتزامات المفروضة على الجنديّ فحسب، وإنّما أيضًا كلّ الواجبات المفروضة في الرّجل، ولم يكن ينادى إلا بلقب **الرّواقيّ**. ولا نحتاج إلى القول إنّ كثيرًا ممّن كانوا يستعملون هذا اللّقب، إنّما كانوا يردّدونه لأنهم سمعوه، وما كانوا يعرفون حتّى معناه.

كان إذًا ذاك هو الشّاب الذي تطلبُ أمّه وأخته عونَه في ظلّ الظّروف الصّعبة التي تستشعران اقترابها.

ولم تخطئ المرأتان تقدير هول الظّرف، إذ لحظةً بعد دخول موريل المكتب مع كوكليس، رأت جولي هذا الأخير يخرجُ شاحبًا مرتعدًا بوجهٍ مضطرب كلّ الاضطراب. وحين مرّ من أمام المرأتين أرادتا أن تستفسراه؛ لكنّ الرّجل الشّهم واصل طريقَه نازلًا السلّم بتعجّل، مكتفيًا بالصياح رافعًا ذراعيه إلى السّماء: - أوه يا آنسة! يا آنسة! أيّ مصيبةٍ عظيمة هي! من كان ليصدّق ما وقع!

ثمّ لحظةً بعد ذلك، رأته جولي يصعد مجدّدًا، حاملًا سجلّين ضخمين أو ثلاثةً، وحافظة أوراقٍ وكيس نقود.

---

(1) المدرسة المتعدّدة التكنولوجية، والمعروفة برمز X.

راجع موريل السجلّات، وفتح ملف الأوراق، وعدّ النّقود.

كلّ ما يملكه لا يتعدّى ستّة آلاف فرنك أو ثمانية، ومداخيله حتّى الخامس من الشّهر لن تتجاوز أربعة آلافٍ أو خمسةً؛ ممّا يعني أنّه يملك، على أقصى تقديرٍ، أربعة عشر ألف فرنكٍ، ينبغي أن يقضي بها دينًا يرتفع إلى مائتين وسبعة وثمانين ألف فرنك. لا بل ليس ثمّة حتّى ما يكفي لدفعةٍ أولى.

على أنّ موريل، حين نزل كي يتعشّى، بدا شديد الهدوء. وإنّ هدوءه ذاك قد أرعب المرأتين أكثر ممّا كانت لترعبهما أشدّ درجات الكآبة.

كان موريل قد درج على أن يخرج بعد العشاء؛ كان يقصد دارة الفينيقيّين حيث يشرب قهوته ويقرأ جريدة **السيمافور** (خطّ الإشارة): غير أنّه ذاك المساء، لم يخرج، ومكث في مكتبه.

أمّا كوكليس، فقد بدا ذاهلًا تمامًا. ظلّ قسمًا من النّهار جالسًا في الباحة على صخرةٍ، رأسه عارٍ يواجهُ شمسًا درجة حرارتها ثلاثونَ.

وحاول إيمانويل مواساة المرأتين، لكنّه كان خطيبًا سيّئًا. لقد كان الشّابُ على اطّلاع كبيرٍ بما يجري في بيت آل موريل، بحيث كان بوسعه أن يستشعر هول الكارثة الوشيكة.

حلّ المساء. ظلّت المرأتان ساهرتين، على أمل أنّ موريل حين سينزل من مكتبه، سوف يدخل عليهما؛ لكنّهما سمعتاه يمرّ من أمام الباب، بخطى خفيفة الوقع، مخافة أن يُنتبه إليه فيُنادى عليه. أصاختا السّمع، فأدركتا أنّه قد دخل غرفته وأغلق على نفسه البابَ من الدّاخل.

أرسلت السيّدة موريل ابنتها إلى الفراش؛ وبعدما انقضت نصف ساعة على انصراف جولي، قامت الأم من مكانها، وخلعت نعليها، ثمّ دلفت إلى البهو متجسّسةً من فتحة الباب على ما يفعله زوجها.

وفي البهو، لمحت شبحًا ينسحبُ. كان الشّبحُ جولي، وقد سبقت أمّها بباعثٍ من قلقها هي أيضًا.

قصدت الصبيّةُ السيّدةَ موريل. قالت: - إنّه يكتب.

تواطأت المرأتان من دون أن تنبسا بكلمة. انحنت السيّدة موريل على ثقب الباب. وبالفعل كان موريل يكتب؛ غير أنّ ما لم تلاحظهُ البنت، استطاعت الأمّ أن تلحظه: كان الرّجلُ يكتب على ورقٍ مخطّط. خطرت ببالها الخاطرة الرّهيبة: ربّما السيّد موريل يكتبُ وصيّتَه. انتفضت بكامل أطرافها، ومع ذلك استطاعت التحكّم في نفسها، فلم تقُل شيئًا.

في اليوم التالي، كان السيّد موريل يبدو شديد الهدوء؛ ظلّ في مكتبه على عادته، ونزل ليتغذّى على عادته؛ غير أنّه بعد العشاء أجلسَ ابنته بجانبه، وأخذ رأسها بين ذراعيه وضمّها إليه طويلًا.

وفي المساء قالت جولي لأمّها إنّه على الرّغم من مظهر أبيها الهادئ، إلا أنّها قد لاحظت أنّ قلبه كان يخفق بعنفٍ.

وانقضى اليومان التاليان على النّحو نفسه تقريبًا. ومساءَ الرّابع من سبتمبر، طلب السيّد موريل استعادة مفتاح مكتبه من ابنته.

ارتجفت جولي لطلبه الذي بدا لها نذيرَ شؤم. لمَ يا ترى طلب منها والدها المفتاح الذي طالما احتفظت به، وما كان يُسحَب منها أيّام طفولتها إلا عقابًا؟

أخذت الصبيّة تنظر إلى أبيها، ثمّ قالت: - أيّ خطأٍ اقترفتُه إذًا يا أبتِ، لتحرمني من المفتاح؟

أجابها الشقيُّ موريل، وقد تلألأ الدّمع في عينيه لمجرّد سماعه هذا السّؤال: - لا شيء يا طفلتي؛ لا شيء؛ أنا فقط بحاجة إليه.

تظاهرت جولي بأنّها تفتّش عن المفتاح، وقالت: - يبدو أنّني قد تركته في غرفتي.

خرجت، لكنّها، بدلًا من أن تقصد غرفتها، نزعلت عند إيمانويل تستشيره.

قال لها: - لا تُرجعي المفتاح إلى والدك، وغدا صباحًا لا تفارقيه ما استطعتِ.

حاولت أن تستفسر إيمانويل، لكنّه لم يكن يعرف شيئًا، أو لم يرد أن يقول المزيد.

طيلة ليلة الرّابع إلى الخامس من سبتمبر، ظلّت السيّدة موريل ملصقة أذنها على الجدار الخشب. وحتّى الثالثة صباحًا ظلّ وقع خطوات زوجها، وهو يذرع غرفته مهتاجًا، يتناهى إليها.

وحين دقّت الثالثة صباحًا فقط، ارتمى في سريره.

قضت المرأتان ليلتهما معًا. منذ الليلة الماضية وهما ترقُبان وصول ماكسميليان.

في الثامنة دخل السيّد موريل الغرفة. كان هادئًا، غير أنّ هياج الليلة الماضية كان يرتسم على وجهه الشّاحب المنكسر.

لم تجرؤ المرأتان على سؤاله عمّا إذا كان قد نامَ جيّدًا.

أبدى موريل من الحبّ لزوجته، ومن العطف لابنته، أشدّ ممّا أبداه طيلة حياته؛ فما كفّ عن ضمّ الصبيّة المسكينة والتّملّي فيها وتقبيلها.

تذكّرت جولي نصيحة إيمانويل، وأرادت أن تتبع والدها حين همّ بالخروج، لكنّه منعها برفق، قائلًا: - ابقي بجانب أمّك.

ألحّت عليه جولي، فقال: - نفّذي ما أطلب منكِ!

كانت تلكم المرّة الأولى التي يقول فيها موريل لابنته «نفّذي ما أطلب منكِ»! لكنّه قالها بنبرةٍ مفعمةٍ بالحنان الأبويّ، إلى درجة أنّها لم تجرؤ على أن تخطو خطوةً أخرى. ظلّت في مكانها، واقفةً، خرساءَ ساكنة. ولحظةً بعد ذلك، فُتح الباب مجدّدًا، وشعرت بذراعين تطوّقانها، وفم يقبّل جبينها. رفعت عينيها، وأطلقت صيحة فرح: - ماكسميليان! أخي!

ولسماع تلك الصّيحة ركضت السيّدة موريل، وارتمت في حضن ولدها.

قال الشابُّ، وهو ينقل بصره على التّوالي بين الأمّ وابنتها: - ماذا هنالك يا أمّي؟ لقد أرعبتني رسالتك، فهرعت إليكم.

قالت الأمّ وهي تشير إلى الشّاب: - جولي، أذهبي، فأخبري أباك أنّ ماكسميليان قد وصل.

انطلقت جولي خارج الشقّة، لكن ما إن بلغت أولى الدّرجات، حتّى وجدت رجلًا يحمل في يده رسالةً.

قال الرّجل بلكنةٍ إيطالية بيّنة: - أنت الآنسة جولي موريل، أليس كذلك؟

أجابت جولي متمتمة: - أجل، أنا هي؛ لكن ما الذي تريده مني؟ أنا لا أعرفك.

قال الرّجل وهو يمدّ إليها ورقةً: - اقرئي هذه الرّسالة.

تردّدت جولي.

قال الرّسول: - إنّ فيها خلاص والدك.

خطفت جولي الرّسالة من يده، وسارعت إلى فتحها، وقرأت:

«اذهبي من فورك إلى زقاق مييون، وادخلي المنزل رقم 15، واطلُبي من البوّاب مفتاح الغرفة في الطّابق الخامس، وادخلي الغرفة، ثمّ خذي من زاوية المدفأة صرّةً من حرير أحمر، فاحمليها إلى أبيك.

من المهمّ جدًا أن تفعلي كلّ ذلك قبل السّاعة الحادية عشرة.

لقد وعدتِني بالطّاعة العمياء، وإنّي لأذكّرك بوعدك.

السندباد البحريّ.

أطلقت الصبيّة صيحة فرح، ورفعت عينيها إلى الرّجل الذي أتاها بالرّسالة، كي تستفسره، لكنّه كان قد اختفى.

أعادت النّظر إذًا صوب الورقة كي تقرأها مرّة أخرى، فلاحظت أنّ بها تعليقًا، وقرأت:

من الضّروريّ أن تقومي بهذه المهمّة شخصيًا وبمفردك؛ فإن أتيت

إلى البوّاب مصحوبةً بشخصٍ آخر، فسوف يقول لك إنّه لا يعرف عمّا تتحدّثين.

أتى التّعليق ليفسد فرحة الصبيّة.

ألن يكون في الأمر ما تخشاه، أيكون فخًّا نُصب لها؟

كانت بباعثٍ من براءتها تجهل أيّ الأخطار تتهدّد فتاةً في سنّها، لكنّ المرء لا يحتاج معرفة الخطر حتّى يخشاه؛ لا بل إنّ ثمّة أمرًا جديرًا بالملاحظة: إنّ الأخطار المجهولة هي الأشدُّ مدعاةً للرّعب.

تردّدت جولي، ثمّ قرّرت طلب النّصح. على أنّها، بشعورٍ غريزي، لم تلجأ إلى أمّها أو أخيها، وإنّما قصدت إيمانويل.

نزلت إليه، وحكت له ما وقع لها يوم قدم عندهم وكيل مؤسّسة فرانش وطومسون، وحكت له واقعة الدّرج، وردّدت على مسامعه الوعد الذي كانت قد قطعته للرّجل، ثمّ أرَته الرّسالة.

قال إيمانويل: - عليك أن تذهبي يا آنسة.

غمغمت: - أذهب؟

- أجل، وسوف أصحبك.

قالت: - لكن ألم تدرك أنّ عليّ الذّهاب بمفردي.

أجابها الشّابّ: - سوف تكونين كذلك، أنا سأبقى أنتظرك عند ناصية شارع لاموزيه؛ وإن أبطأت بطءًا مريبًا لحقتُك، والويل لمن يحاول أذيّتك!

قالت البنت متردّدة: - ترى إذًا يا إيمانويل أنّ عليّ تلبية هذه الدّعوة؟

- أجل، ألم يخبرك الرّسول أنّ خلاص والدك متوقّف عليها؟

سألته الصبيّة: - لكن، قُل لي رجاءً أيّ خطرٍ يترصّده؟

تردّد إيمانويل لحظة، لكنّ رغبته في تشجيع الصبية على حسم أمرها جعله يقول:

- أصغي إليّ، إنّ اليوم هو الخامس من سبتمبر أليس كذلك؟

- بلى.

- اليوم على السّاعة الحادية عشرة سيكون والدك مجبَرًا على تسديد دين تُقاربُ قيمته ثلاثمائة ألف فرنك.

- أجل، نعرف ذلك.

- والحالُ أنّ ما بالصّندوق لا يتجاوز خمسة عشر ألفًا.

- ما الذي سيحدث إذًا؟

- ما سيحدث هو أنّ والدك، إن لم يجد من ينجده قبل الحادية عشرة من صباح اليوم، فإنّه سيكون مضطرًا إلى أن يعلن إفلاسه منتصف النّهار.

صاحت الصبيّةُ وهي تسحب الشّاب خلفها: - أوه! تعالَ! تعال!

وأثناء ذلك كانت السيّدة موريل قد أطلعت ابنها على القصّة كاملةً. وكان الشّابُّ يعلم جيّدًا أنّ ما تلاحَق من مصائب على أبيه، قد اضطرّه إلى اتّخاذ إجراءات تقشّفية كبيرة بالمؤسّسة؛ لكنّه كان يجهل ما وصلت إليه الأمور من سوء.

ظلّ محطّمًا. ثمّ فجأةً، انطلق خارج الشّقة، وصعد سريعًا الدّرج، إذ كان يحسب والده في مكتبه، لكنّه طرق البابَ عبثًا.

وبينما هو بباب المكتب، سمع باب الشقّة يُفتح، استدار فرأى والده. كان السيّد موريل، بدلًا من أن يصعد إلى مكتبه، قد لاذ بغرفته، وها هو يغادرها الآن.

أطلق موريل صيحة دهشة حين رأى ابنه، إذ كان يجهل قدومه. ظلّ ساكنًا في موضعه، ممسكًا بذراعه اليسرى شيئًا يخبّئه تحت كنزته.

نزل ماكسميليان الدّرج بسرعة، وارتمى يطوّق عنق أبيه؛ لكنّه ما لبث أن تراجع فجأةً، تاركًا يده اليمنى وحدها مستندةً إلى صدر والده.

قال وقد شحب شحوب الموت: - لمَ يا والدي تحملُ مسدّسَين تحت كنزتك؟

قال موريل: - أوه! هوذا ما كنت أخشاه!

صاح الشّاب: - أبي! أبي! بحقّ السّماء! قُل لي ما أنت فاعلٌ بالسّلاحَين؟

أجاب موريل مسمّرًا نظره في ولده: - ماكسميليان، يا ماكسميليان! أنت رجلُ شرفٍ؛ تعالَ معي، وسوف أخبرك.

صعد موريل إلى مكتبه بخطى سديدة، بينما تبعه ماكسميليان مترنّحًا. فتح التاجر الباب ثمّ أغلقه خلف ابنه؛ ثمّ عبر الرّدهة، ودنا من المكتب، ووضع المسدّسين عند حافة الطّاولة، وأشار بطرف إصبعه إلى سجّلٍ مفتوح.

على السجلّ كان مدوّنًا بدقة أين وصل الوضع.

كان على موريل أن يدفع خلال نصف ساعةٍ مائتين وسبعة وثمانين ألف فرنك.

كلّ ما يملكه خمسة عشر ألفًا ومائتين وسبعةٍ وخمسين فرنكًا.

قال موريل: - اقرأ.

وقرأ الشّابُ. وبعدما فرغ من القراءة، ظلّ برهةً كالمسحوق.

لم ينبس موريل بكلمة، وأيّ كلمة كان يمكن أن يضيفها فوق قرار الأرقام النّاجز؟

قال الشّاب بعد لحظة: - وهل فعلت كلّ ما في وسعك يا أبي لكي تتجنّب هذا المصير؟

- أجل.

- لا تنتظر أيّ مدخول؟

- كلّا؟

- استنفدت كلّ مواردك؟

- استنفدتها.

قال ماكسميليان بصوتٍ كئيب: - وبعد نصف ساعة يتلطّخ شرف اسمنا.

قال موريل: - الدّمُ يمحو العار.

- أنت محقٌّ يا أبي، وأنا أتفهّمك.

ثمّ مدّ الشّاب يده للمسدّسين وأردف: - واحدٌ لك، وواحد لي، شكرًا!
أوقف موريل يد ابنه، وقال: - وأمّك... وأختك... من سيطعمهما؟
سرت رجفةٌ في جسد الشّاب.
قال: - أتدرك يا والدي أنّك تطلب منّي البقاء على قيد الحياة؟
- أجل، لأنّه واجبك؛ أنت هادئٌ وقويّ يا ماكسميليان... ماكسميليان، أنت لست رجلًا عاديًا؛ إنّي لا أدعوك إلى شيءٍ، ولا أجبرك على شيء، إنّما فقط أقول لك: تأمّل وضعك مثلما قد يتأمّله رجلٌ آخر غيرك، ثمّ احكُم بنفسك.
فكّر الشّابُّ لحظةً، ثمّ مرق من عينيه تعبيرُ تصميمٍ مهيبٌ؛ لكنّه نزع، بحركةٍ بطيئة وكئيبة نياشينَه.
قال باسطًا يده إلى موريل: - حسنًا، لتمت بسلامٍ يا أبي! سوف أظلّ على قيد الحياة.
تحرّك موريل قاصدًا أن يرتمي عند ركبتي ابنه. لكنّ الشّاب سحبَه إليه، وضمّه، وللحظةٍ خفق القلبان النّبيلان لصق بعضهما.
قال موريل: - أنت تعلم أنّه ليس خطأي؟
ابتسم ماكسميليان.
- أعلم يا والدي أنّك أشرف رجلٍ عرفته طيلة حياتي.
- حسنًا، قُضي الأمر. فلتعد إلى جوار أمّك وأختك.
قال الشّابُّ وهو ينحني على ركبته: - باركني يا أبي!
أمسك موريل رأس ابنه بين يديه، وأدناه منه، وطبع عليه شفتيه مرّاتٍ عديدة.
قال: - أوه! أجل، أجل، أباركك باسمي وباسم الأجيال الثلاثة، أجيال الرّجال الشّرفاء، فلتسمع ما يقولونَه على لساني: إنّ البناء الذي هدمه الشّؤم، سيعيد بناءَه السّعدُ. حين يرى الدّائنون أيّ ميتةٍ متّ،

سيشفق عليك حتّى أشدّهم قسوةً؛ ولربّما أمهلوك الوقت الذي لم يمهلوني؛ فلتحرص إذًا على ألّا توصم سمعتك بالسّوء؛ اعمل، واجتهد، أيّها الشّاب، ناضل بشجاعةٍ وكدّ. عِش أنت وأمّك وأختك على الكفاف، حتّى ينمو الخير ويثمر على يديك. وفكِّر في أنّه سيكون يومًا جميلًا، يومًا عظيمًا، يومًا مهيبًا، يومُ عودتك للوقوف على قدميك مرّةً أخرى، اليوم الذي ستقول فيه من هذا المكتب نفسه: لقد مات والدي لأنّه لم يستطع أن يفعل ما أفعله أنا اليومَ؛ لكنّه مات هادئًا، هانئ البال، لأنّه مات وهو يعرف أنّني سأفعل ما أفعله.

صاح الشّابُ: - آه يا أبي! لو أنّك تستطيع أن تعيش!

- إن عشتُ تغيّرَ كلُّ شيءٍ؛ إن عشتُ انقلبَ تقديرُ النّاس تشكيكًا، وشفقتهم شراسةً؛ إن عشتُ لن أكون إلا رجلًا أخلف كلمته، رجلًا أخلّ بالتزاماته، لن أكون إلا رجلًا أفلسَ. أمّا إن متُّ يا ماكسميليان، فإنّ جثماني لن يكون إلا جثمان رجلٍ شريفٍ شقيّ. حيًّا سيتجنّبُ منزلي حتّى أخلص الأصدقاء؛ أما ميتًا فستشيّعني مارسيليا بأكملها حتّى مثواي الأخير؛ حيًّا، ستحمل مع اسمي العارَ؛ ميتًا، سترفع رأسَك قائلًا: أنا ابن الرّجل الذي قتل نفسَه لأنّه اضطرّ لأوّل مرةٍ أن يخلف كلمته.

أطلق الشّابُ تنهيدةً، لكنّه بدا حازمًا. كانت المرّة الثانية التي يتردّد فيها صدى الاقتناع، ليس في قلبه وإنّما في عقله.

قال موريل: - والآن اتركني وحدي، واحرص على إبعاد النّساء.

سأله ماكسميليان: - ألا تريد رؤية أختي مرّةً أخرى؟

كان لا يزال في صدر الشّابِ أملٌ واهٍ أخير، عندما عرض على والده هذا اللقاء. هزّ السيّد موريل رأسَه.

قال: - لقد رأيتها هذا الصّباح، وودّعتها.

قال ماكسميليان بصوتٍ متهدّج: - ألا توصيني بشيء يا أبي؟

- بلى، يا بنيّ، وصيّة مقدّسة.

- قل يا أبي.

- إنّ مؤسّسة **طومسون وفرانش** هي الوحيدة التي، بباعثٍ من الإنسانية أو الأنانية ربّما، فليس لي أن أقرأ ما في صدور النّاس، قلت هي الوحيدة التي أشفقت على حالي. وإنّ وكيلهم، الذي سيأتي خلال عشر دقائق، ليستحصل دينًا بقيمة مائتين وسبعة وثمانين ألف وخمسمائة فرنكٍ، قد منّ عليَّ، وليس أمهلني، بثلاثة أشهر. ليُقضَ دينُ هذه المؤسّسة قبل غيره من الديّون يا بنيَّ، ولتحفظ جميلَ الرّجل.

- حسنًا يا أبي.

- والآن، وداعًا مرّةً أخرى يا بنيّ؛ فلتنصرف إنّي أحتاج البقاء بمفردي. وستجد وصيّتي في درج المكتب بغرفة نومي.

ظلّ الشّابُ واقفًا، لا يتحرّك، تحثّه الإرادة ويخونه التّنفيذ.

قال الأبُ: - أصغ إليّ يا ماكسميليان، لنفترض أنّني جنديّ مثلك، وقد أتاني الأمر بأن أَنطلق في حملةٍ، وكنت تعرف أنت أنني مقتول لا محالة إن انطلقتُ، ألن تقول لي ما قلته لي قبل قليل: «اذهب يا أبي، لأنّ بقاءك عارٌ، وإنّ الموت أهونُ من العار!؟».

أجابه الشّابُ: - أجل، أجل.

ثمّ عانق موريلَ بذراعيه المتشنّجتين، وقال: - سأخرج يا أبي.

وانطلق خارج المكتب.

حين خرج ابنُه، ظلَّ موريل لحظةً واقفًا، مسمّرًا عينيه على الباب؛ ثمّ مدّ يدَه، فأمسك حبل جرس وقرعه.

وما هي إلا لحظةٌ حتّى ظهر كوكليس.

وكان الرّجل قد تبدّلَ؛ الأيامُ الثلاثة الماضية كسرته. كانت هذه الخاطرة: «مؤسّسة آل موريل ستوقف دفع الرّواتب»، قد أحنت ظهره أكثر ممّا كان يمكن أن تفعل عشرون سنةً لو أضيفت إلى عمره.

قال موريل بنبرةً يستحيل أن نحاكيها: - عزيزي كوكليس الطيّب، ابقَ

في البهو. وحين يصل الرّجلُ الذي أتى قبل ثلاثة أشهرٍ، وكيل **طومسون وفرانش**، أعلِم بوصوله.

لم يحر كوكليس جوابًا، اكتفى بإشارةٍ من رأسه، ثمّ ذهب يجلس في البهو، وانتظر.

تهاوى موريل على مقعده؛ تعلّقت عيناه بالبندول: لم تبق له إلا سبع دقائق؛ إنّ العقرب يدوربسرعةٍ مذهلة؛ كان يخيّل له أنّه يراه يسير مسرعًا.

إنّ ما كان يجري آنئذٍ، في تلك اللّحظة المهيبة، داخل عقل هذا الرّجل الذي يستعد لأن يفارق كلّ أحبابه، وهو بعدُ شابٌّ، بعدَ تفكيرٍ مميّزٍ وإن لم يكن صائبًا بالضّرورة؛ قلنا، ما كان يجري في عقله كان يستحيل أن نصفه. ولكي نكوّن فكرةً كان يلزمنا أن نرى جبينه الحازمَ وإن كان يتصفّدُ عرقًا، وعينيه المرفوعتين إلى السّماء رغم الدّموع التي بلّلتهما.

كان العقربُ لا يزالُ يسير، والمسدّسان معبّأين؛ مدّ يده، وتناول مسدّسًا، وهمس باسم ابنته.

ثمّ وضع السلاح القاتل، وتناول اليراع وكتب به بضع كلماتٍ.

ثمّ استدار نحو البندول؛ ما عاد يعدّ الدّقائق، وإنّما الثواني.

تناول السّلاح مرّةً أخرى، فمه مفتوحٌ وعيناه مسمّرتان بالعقرب؛ ثمّ ارتعد للصّوت الذي أحدثه بنفسه وهو يجهّز زند المسدس.

في تلك اللّحظة رشح جبينه بعرقٍ أبردَ، وعصرَ قلبَه قلقٌ أشدُّ فتكًا.

تناهى إليه صرير باب الدّرج. ثمّ انفتح بابُ مكتبه.

كان البندول على أهبة أن يدقّ السّاعة الحادية عشرة.

لم يلتفت موريل، كان ينتظر أن يسمع من كوكليس هذه الكلمات: «إنّه وكيل مؤسّسة **طومسون وفرانش**».

وأدنى السّلاحَ من فمه...

وفجأةً سمع صيحةً. كان صوت ابنته.

استدارَ فلمح جولي؛ أفلت المسدّس من يده.

صاحت الصبيّةُ بنفسٍ متقطّعٍ، وتكاد تموت من الفرحة: - لقد نجوتَ يا أبي، لقد نجوتَ...

ثمّ ارتمت بين ذراعيه، رافعةً في يدها صرّة حرير حمراءَ.

قال موريل: - نجوت! ماذا تقصدين يا ابنتي؟

- أجل نجوتَ! انظُر!

أمسك موريل الصرّة فارتجف، لأنّ ذكرى غائمة لاحت له من الشّيء الذي امتلكه ذات زمن.

كانت الصّرّة تحوي من جهةٍ مائتين وسبعةً وثمانين ألفًا وخمسمائة فرنكٍ، ممّا يعني أنّ دينَه قد قُضي. ومن جهة أخرى ماسة بحجم حبّة بندق، مع هاتين الكلمتين المكتوبتين في قطعة رقّ صغيرة:

«مهر جولي».

مسح موريل بيده على جبينه. كان يخال نفسه يحلم.

في تلك اللّحظة دقّ البندول السّاعةَ الحاديةَ عشرةَ.

كان النّاقوس يدقُّ كلّ ضربةٍ، كأنّما يضرب على قلبه بمطرقةٍ من رصاص.

قالَ: - اشرحي لي يا ابنتي. أين وجدتِ هذه الصرّة؟

- في منزلٍ بزقاق مييون، الرقم 15، بجانبِ مدفأةٍ بغرفة بسيطة بالطّابق الخامس.

صاح موريل: - هذه الصرّة إذًا ليست لك.

مدّت جولي إلى أبيها الرّسالة التي وصلتها صباح اليوم.

وبعد أن قرأ الرّسالة، سألها: - أكنتِ بمفردك في ذاك البيت؟

- رافقني إيمانويل يا أبي. وكان يفترض به أن ينتظرني عند ناصية شارع لاموزيه؛ لكن الغريب أنّي حين عدت لم أجده.

صاح صوتٌ في الدّرج: - سيّدي موريل! سيّدي موريل!

قالت جولي: - إنّه صوت إيمانويل.

وفي اللّحظة نفسها دخل إيمانويل، بوجهٍ قلَب ملامحَه الفرحُ والتأثّرُ.

صاح: - **الفرعون! الفرعون!**

- ما بها **الفرعون** يا إيمانويل؟ هل فقدت عقلك؟ نسيت أنّ **الفرعون** قد ضاعت!

- **الفرعون** يا سيّدي! لقد أُعلِمَ بدخولها الميناء!

تهاوى موريل على مقعده، خانته قواه، وعجز عقله عن استيعابِ تلاحقِ كلّ تلك الحوادث المذهلة والرّائعة التي لم يسبق لها مثيلٌ. غير أنّ ابنه دخل بدوره.

صاح ماكسميليان: - من أخبرك بأنّ **الفرعون** قد تحطّمت يا أبي؟ لقد أعلَم بها المرصدُ، وها هي تدخل الميناء.

قال موريل: - إن صحّ كلّ هذا يا أصدقائي، فينبغي أن نصدّق في حدوث معجزة من الربّ! مستحيل! مستحيل!

بيد أنّ ما كان واقعيًا، وإن كان غير قابلٍ للتّصديق، هو تلك الصّرّة التي كان يمسكها في يده، ورسالةُ الدَّين المقْضي، وتلك الماسة الرّائعة.

تساءل كوكليس بدوره: - آه! ما الذي تقصده بأنّ **الفرعون** تدخل الميناء؟

قال موريل: - هيا يا أبنائي، هيا لننظر الأمرَ، وليرفق بنا الربّ إن كان الخبرُ كاذبًا.

نزلوا جميعًا؛ وفي منتصف الدّرج كانت السيّدةُ موريل واقفةً تنتظر. لم تجرؤ المرأة المسكينة على أن تصعد.

وما هي إلا لحظة حتّى كانوا على الرّصيف.

كان ثمّة حشدٌ قد تجمهرَ في الميناء.

انفتح الحشد فاسحًا الطّريق للسيّد موريل؛ والأصواتُ كلّها تردّد: «**الفرعون! الفرعون!**».

وبالفعل حدث أمرٌ لا يصدّق: - مقابل قلعة سان جان كانت ثمّة

سفينةٌ تحمل على كَوثلها كلماتٍ بحروف بيضاء: **الفرعون** (موريل وابنه من مارسيليا)، سفينةٌ مطابقةٌ **للفرعون** الأصل، وتحمل نفسَ حمولتها، تلقي مرساتها وتطوي أشرعتها؛ وعلى جسرها القبطانُ غومار يصدر أوامره، والمعلّم بنِلون يشير إلى السيّد موريل بإشاراتٍ.

قُطع الشكُّ باليَقين: الحواسُ تشهدُ، وعشرة آلاف شخصٍ يدعمونَ شهادتها.

وبينما موريل وابنه يتعانقان على الرّصيف، وسط هتاف المدينة الشّاهدة بأكملها على المعجزة، كان ثمّة رجلٌ، بوجهٍ غطّت نصفَه لحيةٌ سوداء، مختفيًا خلف كشك خفير، يتابع المشهدَ برقّةٍ، مغمغمًا بهذه الكلمات: «فلتسعد أيّها القلبُ النّبيل؛ وليبارك الربّ لكلّ ما فعلتَه من خيرٍ، ولما ستفعله؛ وليبقَ عرفاني طيّ الكتمانِ، تمامًا مثل خيرك».

وبابتسامةٍ يستيقظُ فيها الفرحُ والسّعادة، ترك الرّجلُ مخبأه، ومن دون أن ينتبه إليه أحدٌ، لفرط ما كانوا جميعًا منشغلين بحدث اليوم، نزلَ أحد تلك السلالم الصّغيرة التي تعمل عمل رصيفٍ، ونادى ثلاث مرّاتٍ:

«جاكوبو! جاكوبو! جاكوبو!».

وإذّاك تقدّم صوبه قاربٌ صغيرٌ، فقاده إلى يختٍ فخم، صعد إليه بخفّة بحّارٍ؛ ومن موضعه في اليخت، نظر مرّة أخرى إلى السيّد موريل الذي كان يبكي من الفرحة وهو يصافح كلّ الحشد، ويشكر بنظرةٍ مبهمةٍ فاعلَ الخير المجهولَ، الذي يبدو أنّه يلتمسه في السّماء.

ثمّ قال الرّجل المجهول: «والآن، وداعًا أيّتها الطيبة، وأيّتها الإنسانية، وأيّها العرفان... وداعًا يا كلّ المشاعر التي يزهرُ بها القلبُ!... لقد تركت للقَدَرِ أن يجازيَ الأخيار... فليترك لي الجبّارُ موضعه لأعاقب الأشرار!».

وإذ قال قولَه ذاك، أشارَ إشارةً ما كان اليختُ ينتظر إلّاها ليتحرّك، فانطلق من فوره في البحر.

31

إيطاليا. السندباد البحريّ

حوالى بدايات سنة 1838، تواجد في فلورنسا شابان من صفوة المجتمع الباريسي، أحدهمااللورد ألبير دو مورسيرف، والثاني البارون فرانز ديبيناي. وكانا قد اتفقا على حضور كرنفال تلك السنة في روما، حيث كان فرانز، القاطن بإيطاليا منذ أربع سنوات، يقوم بدور الدليل بالنسبة إلى ألبير.

ولأنّ قضاء فترة الكرنفال في روما ليس بالأمر الهيّن، خاصة حين يكون المرء عازمًا على ألّا ينزل بساحة الشعب أو كامبو فاتشينو، فقد كتب الرّجلان إلى المايسترو باستريني، مالك فندق لندن، في ساحة إسبانيا، يسألانه أن يحجز لهما جناحًا مريحًا.

ردّ عليهما المايسترو باستريني بأنه لم يعد يتوفّر إلا على غرفتين ومكتب بالطابق الثاني، ورسمُ كراء ذلك كلّه لويسيّةٌ واحدة في اليوم. قبل الشابّان عرضه؛ ثمّ، رغبة في استغلال الوقت المتبقي أمامهما، انطلق ألبير إلى نابولي، بينما ظلّ فرانز في فلورنسا، وبعدما استمتع فترة من الزمن بالحياة التي تمنحها مدينة آل ميديتشي، وبعدما شبع تجوالًا في جنة عدن المسمّاة حدائق كاشيني، واستضافه رجالٌ رائعون هم فخر فلورنسا، انتابته الرغبة، وقد سبق له أن زار كورسيكا، مهد بونابرت، قلنا انتابته الرغبة في زيارة جزيرة إلبا، تلك الأرض التي شهدت لحظة فاصلة من حياة نابليون.

فكان أن فكّ، ذات مساءٍ، قاربًا من الحلقة الحديد التي تربطه الى

ميناء ليفورنو، ثمّ استلقى بمعطفه في قعر المركب، قائلًا للنوتيّين هذه الكلمات لا غير: «إلى جزيرة إلبا!»

ترك القارب الميناء كما يترك طائر البحر عشّه، وفي اليوم التالي نزل فرانز ببورتو فيرايو.

عبر فرانز الجزيرة الإمبراطورية بعدما اقتفى أثرًا أثرًا ما خلّفته فيها خطى العملاق، ثم قصد مارسيانا ينزِلُ بها. ثمّ ساعتين بعد تركه البرّ، عاد يبحر نازلًا صوب بيانوزا، حيث، أُكّد له، أنه سيجد في انتظاره أسرابًا لا عدّ لها من الحجل الأحمر. لم يكن الصيد موفّقًا. بالكاد استطاع فرانز أن يقتل بضع حجلات هزيلات، وكأيّ صيادٍ أتعب نفسه بلا فائدة، فقد صعد الشابُّ إلى مركبه منغَّص المزاج.

قال له قائد السّفينة: - آه! لو شئت الصيد يا صاحب السّعادة، فإنّي أعرف مكانًا عظيمًا.

- وأين ذلك؟

أجابه القائد وهو يشير بإصبعه إلى كتلة صخرية تنبثق من البحر المصبوغ بأبهى حلّة نيليّة: - هل ترى تلك الجزيرة هناك؟

أجاب فرانز عن سؤاله بسؤال: - أيّ جزيرة تلك؟

قال القائد الليفورنيّ: - إنها جزيرة مونت كريستو.

- لكنّي لا أملك تصريحًا للصيد على هذه الجزيرة.

- إنّك لا تحتاج تصريحًا يا صاحب السّعادة، فالجزيرة قفرٌ.

- أوه! اللعنة! جزيرة قفرٌ في قلب المتوسّط، ما أغربه من شيء!

- بل إنّه لشيءٌ طبيعيّ يا صاحب السّعادة: إن هذه الجزيرة ركامٌ من صخور، ولربّما على امتداد مساحتها ليس ثمّة قطعة أرض صالحة للزراعة.

- ولأيّ سلطة تنتمي هذه الأرض.

- إلى توسكانا.

- وأيّ الطرائد تعمرها.

- آلاف الماعز البريّة.

أجابه فرانز راسمًا على وجهه ابتسامة عدم تصديق: - ماعزٌ تعيش على لعق الصّخور!

- كلّا، إنّها ترعى نبات الخلنج، والآس والبطم العدسيّ، التي تنمو بين الصخور.

- وأين سأنام.

- تنام برًا في المغارات، أو على متن السفينة في معطفك. ثمّ إن شئت يا صاحب السّعادة نستطيع أن نرحل ما إن تفرَغ من الصيد؛ فأنت تعلم أننا نحسن الإبحار ليلًا كما نهارًا، وفي غياب الريح سنستعيض عن الأشرعة بالمجاديف.

وبما أن فرانز كان لا يزال أمامه ما يكفي من الوقت قبل لقاء صاحبه، وبما أنّه ما عاد يشغل باله بمسألة السكن في روما، فقد وافق على المقترح تعويضًا عن إخفاقه السابق.

وإذ أبدى فرانز موافقته، أخذ النوتيون على نحوٍ غريبٍ يتبادلون الكلام بأصواتٍ هامسة.

سألهم: - حسنًا، أيّ شيء جدّ، هل ظهر ما يمنع ذهابنا؟

أجابه القائد: - كلّا، لكن ينبغي أن ننبّهكم يا صاحب السعادة إلى أن الجزيرة يطبّق عليها حكمٌ غيابي.

- ماذا يعني هذا؟

- يعني أنّه، بما أنّ مونت كريستو غير مأهولة، وينزل بها أحيانًا مهرّبون وقراصنةٌ من كورسيكا أو ساردينيا أو إفريقيا، فإنّ أيّ إشارةٍ إلى نزولنا بالجزيرة ستجعلنا مجبَرين على البقاء ستّة أيّام بالحجر، حال وصولنا إلى ليفورنو.

- اللعنة! هنا ما يقلب الأمور رأسًا على عقب! ستّة أيّام! المدّة نفسها التي احتاجها الربّ ليخلق العالمَ. إنّها فترة طويلة يا أبنائي!

- لكن، من ذا الذي سيُخطِر السلطات بأنّ صاحب السّعادة قد نزل إلى مونت كريستو؟

صاح فرانز: - لست أنا.

وقال النوتيون: - ولا نحن!

- في هذه الحال، هيّا إلى مونت كريستو.

أصدر القائد أوامره بالتحرّك؛ فرُفعت الأشرعة باتجاه الجزيرة، وأخذ المركب يشقّ طريقه إليها. ترك فرانز الرجالَ يكملون عملهم، وحين اتّخذوا الطريق الصحيحة، وحين انتفخت القلوع بالريح النسيم، واتّخذ الملاحون الأربعة مواقعهم، ثلاثةٌ في القيدوم وواحدٌ عند الدفّة، عاد إلى وصل ما انقطع من حديث.

قال مخاطبًا القائد: - عزيزي غايتانو، أحسب أنك قد قلت لي قبل قليل إنّ جزيرة مونت كريستو تُستغَلّ مأوىً للقراصنة، ممّا يعني أنّها تتوفّر على نوع آخر من الطرائد غير الماعز.

- أجل يا صاحب السّعادة والحقّ ما قلتَه.

- كنت أعلم بالفعل بوجود مهرّبين، لكنّي كنت أحسب أنّه، منذ سقوط الجزائر وهدم الإيالة، ما عاد هناك وجود للقراصنة، اللهم إلا في روايات كوبر والقبطان ماريات.

- أنت مخطئ إذًا يا صاحب السّعادة. هنالك قراصنة مثلما هنالك رجالُ عصابات، مع أنّ رجال العصابات يفترض أن يكونوا قد أبيدوا على يد البابا ليون الثاني عشر، لكنّهم ما انفكّوا يعترضون سبيل المسافرين كلّ يوم حتى أبواب روما. أوَلم تسمع خبر مبعوث فرنسا لدى الكرسي الرسولي، والذي سُلب، منذ ستة أشهر بالكاد، أموالَه على بعد خمسمائة خطوة من فاليتري؟

- بلى، سمعت.

- حسنًا، لو أنّك يا صاحب السّعادة كنت تسكن ليفورنو مثلنا،

لسمعت بين الفينة والأخرى أن مركبًا صغيرًا محملًا بالبضائع، أو يختًا إنجليزيًا جميلًا، كان منتظرًا بباستيا أو بورتو فيرايو أو تشيفيتافيكيا، لم يصل إلى مقصده، ولا أحد يدري ما كان من مصيره، وأنّه بلا ريب قد تحطّم مصطدمًا ببعض الصخور. وإذًا، تلك الصخور التي صادفها في طريقه ما هي إلا مركب خفيض وضيّقٌ، على متنه ستّة رجالٍ أو عشرة، باغتوه أو نهبوه في ليلة عاصفٍ مظلمةٍ، عند منعطف جزيرة بريّةٍ قفرٍ، مثلما يوقف قطّاع الطّرق عربةَ بريدٍ وينهبونها في غابةٍ من الغابات.

قال فرانز وهو لا يزال ممدّدًا في قاربه: - لكن ما الذي يمنع هؤلاء النّاس الذين يتعرّضون للنّهب، من أن يشتكوا، لمَ لا يطلبون عند الحكومة الفرنسية، أو السردينية أو التوسكانية، القصاصَ من هؤلاء القراصنة؟

أجابَ غايتانو راسمًا على شفتيه ابتسامةً: - لِمَ؟

- أجل لِمَ؟

- لأنّ القراصنة يصعدون أوّلًا إلى السّفينة أو اليخت، فينقلون منها كلّ ما يعتبرونه جيدًا؛ ثمّ يعمدون إلى الطّاقم، فيقيّدون أيديهم وأرجلهم، ثمّ يربطون إلى عنق كلّ رجلٍ منهم كرة حديد من عيار 24، ثمّ يخرقون باطن المركب محدثين فيه حفرةً بقُطر برميل، ثمّ يصعدون إلى الجسر، فيغلقون فتحات إفراغ سفينة من الماء، وينتقلون إلى قاربهم. وبعد عشر دقائق، يبدأ المركبُ في الشّكوى والأنين، وشيئًا فشيئًا يغوص. يغوص أوّلا جانبٌ منه، ثمّ الجانب الآخر؛ ثمّ يستعيد توازنَه، ثمّ يغوص مجدّدًا، ويمضي غائصًا أكثر فأكثر. وفجأةً ينطلق ضجيجٌ أشبه ما يكون بدويّ مدفع: إنّه صوت الهواء يكسر جسر السّفينة. إذّاك يرتجّ المركبُ كأنّه غريق يقاومُ الماء، وكلّما قاوم ازداد ثقلًا. ثمّ لا يلبث الماء، وقد اشتدّ ضغطه في تجاويف المركب، أن ينفجر منطلقًا عبر الفتحات، كما ينطلق الماء من فتحة حوت هائل. وفي نهاية المطاف يطلق صيحةً أخيرةً، ويلتفّ حول نفسه لفّةً أخيرة، ويغور في الماء حافرًا في اللّجة دوّامةً

واسعةً تدور لحظةً، ثمّ تبدأ تذوي شيئًا فشيئًا إلى أن تَّمحيَ تمامًا؛ إلى درجة أنّه بعد خمس دقائق سيحتاج المرء عين الرّب ليقدر أن يبحث في الماء الهادئ عن المركب الهالك.

أضاف القائد مبتسمًا: أفهمت الآن، لمَ لا يعود المركب إلى الميناء، ولمَ لا يشتكي أحدٌ من الرّكاب عندَ السّلطات؟

ولو أنّ غايتانو كان قد حكى ما حكاهُ، قبلَ أن ينطلقوا، لكان فرانز أدار الأمر في رأسه مرّتين، على الأرجح، قبل أن يوافق؛ لكن بما أنّهم انطلقوا، فقد بدا له أنّ التّراجع سيكون علامةَ جبنٍ. لقد كان الشّابُ من طينة الرّجال الذين لا يركضون وراء المهالك، لكنّ إن عرض لهم خطرٌ من المخاطر، وقفوا في وجهه بدم باردٍ وحزم لا يلين. كان من الرّجال ذوي الإرادة الهادئة، أولئك الذين لا ينظرون إلى مخاطر الحياة إلا كما يُنظَرَ إلى خصم في نزالٍ، فيحسبون حركاته، ويدرسون قوتَه، ويتراجعون بما يكفي لالتقّاط أنفاسهم، لكن ليس بما يكفي ليُنعَتوا بالجبن، الذين يدركون بنظرةٍ واحدةٍ كلّ ما في صالحهم من مزايا، ويقتلون بضربةٍ واحدة.

استطردَ: - لقد عبرتُ صقلية وكالابريا، أبحرتُ شهرين في الأرخبيل، وما رأيتُ ظلَّ قاطع طريقٍ أو قرصانٍ.

قال غايتانو: - أنا لم أخبركَ يا صاحب السّعادة بكلّ ذلك رغبةً في ثنيك عن قرارك، وإنّما فقط أجبتك إذ سألتَني.

- أجل يا عزيزي غايتانو، وإنّ ما قلته لبالغُ الأهميّة. لذا، ما دُمت أريد أن أغنم أطولَ ما يمكن من الوقتِ، فهيّا إلى مونت كريستو.

على أنّهم كانوا يقتربون سريعًا من نهاية الرّحلة؛ كانت الرّيح جيّدةً والقاربُ يقطع ستّة أميالٍ إلى سبعة في السّاعة. وبقدر ما كانوا يقتربون من الجزيرة، كانت تبدو كأنّما تنبثق متعاظمةً في كنف البحر؛ وعبرَ الغلالة الرّائقة التي تنسجها آخرُ أشعّة النّهار، كانت العينُ تميّزُ، كقذائفَ في ماسورةِ مدفعٍ، تلكَ الصّخور المتراكمة بعضها فوق بعض، وبينها

حمرةُ نباتات الخلنج وخضرة الأشجار. أمّا النوتيون، فعلى الرّغم ممّا يبدو عليهم من ظاهرِ الهدوء، إلا أنّ حذرهم كان متيقّظًا، ونظراتهم تجوس متفحّصةً المرآة الشّاسعة التي ينزلقون فوقها، والتي لا تعمرها إلا بعض زوارق الصّيد متلألئةً في الأفق، بأشرعتها البيضاء، متأرجحةً كنَوارس على ذرى اللّجج.

لم يكن يفصلهم عن جزيرة مونت كريستو أكثر من خمسة عشر ميلًا، حين بدأت الشّمس تجنح إلى الغروب خلف كورسيكا التي تبرز جبالُها يمينًا، رافعةً إلى السّماء قممها السوداء؛ وها كتلة الصّخور، الشّبيهة بالمارد أدامستور[1]، تنتصب أمامه متوعّدةً القاربَ الذي يحجب عنها أشعّة الشّمس التي صار جزؤها العلويّ يتحوّل إلى اللّون الذهبيّ؛ وشيئًا فشيئًا أخذ الظّلُ يرتفع من البحر، وبدا أنّه يطردُ من أمامه آخر أشّعة النّهار الموشك على أن ينطفئ، ثمّ دُفع النّورُ حتّى القمّة المخروطية، وتوقّف عندها لحظةً، فصار المنظر أشبه بفوهة بركانٍ ملتهبة؛ وأخيرًا اجتاح الظلُّ، الذي ما انفك يتصاعدُ، القمّةَ تدريجيًا، مثلما اجتاح من قبلها السَّفحَ، فما عادت الجزيرةُ تبدو إلا كجبلٍ رماديّ ما انفكّ يزدادُ قتامةً. وما هي إلا نصف ساعةٍ حتّى أطبقَ الظّلامُ الدّامسُ.

لحسن الحظّ أنّ بحّارتنا كانوا في مناطقهم المعتادة، وكانوا يعرفون أدنى صخرة من هذا الأرخبيل التوسكاني؛ وإلا فإنّ فرانز ما كان خلوًا من كلِّ قلقٍ، وهم يسيرون وسط الظّلمات العميقة التي تلفّ القارب. كانت كورسيكا قد اختفت بكاملها، لا بل إنّ جزيرة مونت كريستو نفسها صارت لا تُرى، لكن كان يبدو أنّ النوتيين يتمتّعون، كحيوان الوشق، بالقدرة على الرؤية في العتمة، وما كان يبدو على الرّبان الممسك بالقيادة أدنى تردّد.

---

(1) ماردٌ ميثولوجي ينفخ العواصف.

كانت قد انقضت ساعةٌ تقريبًا بعد غروب الشّمس، حين خال فرانز أنّه قد لمح، على بعد ربع ميل إلى اليسار كتلة معتمة، لكن كان يستحيل عليه أن يميّزها، فآثر الصّمت على أن يثير حماسة البحارة، وفي النّهاية يجدون أنّ ما ظنّوه البرّ ما هو إلا سحبٌ عائمة. لكن فجأةً ظهر ضوءٌ عظيمٌ على الشّاطئ؛ يمكن أن تتشابه الأرض مع سحابةٍ، لكن النّارَ لم تكن شهابًا.

تساءل: – ما هذا النّور؟

قال القائدُ: – ششت! إنّها نارٌ.

– لكن، ألم تقُل إنّ الجزيرة غير مأهولةٍ؟

– قلت لك أنّ ليس بها ساكنةٌ قارّةٌ، لكنّها موضعٌ ينزلُ به المهرّبون.

– والقراصنة!

– والقراصنة كذلك؛ لذا أمرت الرّجال بأن يجتازوا الجزيرةَ، وها قد صارت النّارُ خلفَنا كما ترى.

قال فرانز: – لكنّ هذه النّارَ قد تكون علامةَ اطمئنانٍ أكثر منها إشارةَ قلق، ذاك أنّ رجالًا يخشونَ أن يُلمحوا، ما كانوا ليوقدوا نارًا.

قال غايتانو: – أوه! إنّ هذا لا يعني شيئًا، فإن استطعت أن تحكم وسطَ الظّلام، سترى أنّ وضعية النّار على الجزيرة لا تسمح برؤيتها لا من الشّاطئ، ولا من جزيرة بيانوزا، وإنّما فقط من عرض البحر.

– أتخشى إذًا أن تكون هذه النّارُ منبئةً برفقةِ سوءٍ؟

أجاب غايتانو وعيناه لا تزالان مسمّرتين بتلك النّجمة الأرضية: – ذاك ما ينبغي التحقّق منه.

– وكيف التحقّق؟

– سترى بأمّ عينيك.

ثمّ انخرط غايتانو في مشاوراتٍ مع رفاقه، وبعد خمس دقائق من النّقاش، أنجزوا صامتين مناورةً، استطاعوا بواسطتها أن يقلبوا، في لحظةٍ

مسارَهم؛ وكان أن عادوا أدراجهم سالكين الطّريق نفسَها التي كانوا قد سلكوها من قبل، وما هي إلا لحظاتٌ بعد مناورتهم حتّى اختفت النّارُ، حجبها فعلٌ ما على البرّ.

إذّاك عمد الربّانُ إلى توجيه الدفّةِ في اتّجاهٍ جديدٍ، ممّا جعل القارب يقترب من البرّ حتّى ما عادت تفصله عنه إلا حوالى خمسين قدمًا.

أنزل غايتانو الشّراعَ، فظلّ القارب راكنًا.

وقد جرى كلّ ما سبق بأشدّ ما يكون الصّمت، لا بل منذ أن غيّر القارب طريقَه لم تُنطَق على متنه كلمة.

لقد تحمّل غايتانو المسؤولية كاملةً، إذ كان هو المبادر إلى اقتراح الرّحلة. ولم يزح النوتيون الأربعة نظراتهم عنه، ممسكين بمجاذيفهم، ومتأهّبين للتجذيف بأقصى قوّتهم، وهو الأمر الذي، بفضل الظلام، لم يكن صعبًا.

أمّا فرانز فقد أعدَّ أسلحته ببرودة الدّم المعروفة فيه. كان بحوزته بندقيّتان من ذواتي الطّلقتين، وبندقيّة قربينة، فعبّأها جميعًا وتأكّد منها، ومكث منتظرًا.

أثناء ذلك، كان القائد قد نضا عن ظهره معطفَه وقميصَه، وشدّ سراويلَه حول كليتيه، وبما أنّه كان حافيَ القدمين، فلم يحتج أن يخلع نعلًا أو جواربَ. وما إن صار في لباسه الجديد، أو بالأحرى في لالباسه الجديد، وضع إصبعه على شفتيه إشارةً إلى رفاقِه أن اصمُتوا، ثمّ غاص في الماء، وسبح حتّى بلغ الشّاطئ بحذرٍ شديدٍ، إلى درجة أنّه كان يستحيل أن يُسمع من جهته أيّ ضجيج. غير أنّه كان من الممكن تتبّع أثره من الأخدود البرّاق الذي تخلّفه حركاته.

ثمّ ما لبث الأخدود نفسه أن امّحى، فكان بيّنًا أن غايتانو قد بلغ البرَّ.

ظلّ جميع من في القارب ساكنين لنصفِ ساعةٍ، وبعدها ظهرَ مجدّدًا الأخدود البرّاق، وكان هذه المرّة يسير في المنحى المعاكس، أي من

الشّاطئ نحو القارب. بعد لحظةٍ، وبضربتين من ذراعيه، كان غايتانو قد بلغ القاربَ:

سأله فرانز والنوتيون الأربعة معًا: - وإذًا؟

أجابهم: - ليسوا سوى مهرّبَين إسبانيين؛ ومعهما فقط قاطعا طريقٍ كورسيكيّان.

- وما الذي يفعله قاطعا طريق كورسيكيان مع مهرّبين إسبان؟

أجاب غايتانو بنبرةٍ مفعمةٍ بالرضا المسيحيّ: - إيه! يا إلهي! أعينوا بعضكم بعضًا. كثيرًا ما يلفَى قطّاع الطّرق أنفسهم محاصرين من طرف رجال الدّرك أو الشرطة العسكرية، فيصدف أن يجدوا قاربًا، وفي القاربِ فتيانٌ طيّبون من أمثالنا. فيسألوننا الضّيافةَ في منزلنا العائم. وهل نرفض نجدة شيطانٍ مسكين لاذَ بنا؟ نضيّفه إذًا، وحرصًا على السّلامة ننطلق في عرض البحر. لا يكلّفنا فعلُنا ذاك شيئًا، لكنّه ينقذ حياةَ، أو على الأقل حريّةَ، أحد أشباهنا، ممّن سيحفظ الجميلَ، ويردّه في أقرب فرصةٍ تعنُّ له، فيشيرُ علينا بمكانٍ آمنٍ نرسو فيه وننزل بضاعتَنا بعيدًا عن عيون الفضوليّين.

قال فرانز: - آه! أنت أيضًا إذًا مهرّبٌ يا عزيزي غايتانو؟

أجابه غايتانو بابتسامةٍ لا سبيلَ إلى وصفها: - إيه! وما العمل يا صاحب السّعادة؟ إنّ المرء يبحثُ عن رزقه هنا وهناك!

- أنت إذًا على معرفةٍ بالنّاس الذين يسكنون مونت كريستو في هذه اللّحظة؟

- شيئًا ما. إنّنا نحنُ معشرَ البحّارة، أشبهُ ما نكون بالإخوة الماسونيّين، نعرف بعضنا بعضًا من علاماتٍ بعينها.

- وتحسبُ أنّنا لن نقع في أيّ مشكلةٍ إن نحنُ نزلنا الجزيرةَ؟

- لا خوفَ علينا بالمرّة. إنّ المهرّبين ليسوا لصوصًا.

قال فرانز حاسبًا كلّ إمكانيات الخطر: - وقاطعا الطّريق الكورسيكيان...

قاطعه غايتانو: - يا إلهي! ليس ذنبهما إن كانا قاطعي طريقٍ، إنّه ذنبُ السّلطة.

- كيف؟

- لا شكّ أنّهما يلاحَقانِ لأنّهما **سلخا جلدَ** أحدهم، وليس لغير ذلك؛ وكأنّما ليس من طبيعة الكورسيكيّ أن ينتقم!

- ما الذي تقصده **بسلخ الجلد**؟ أتقصدُ القتلَ؟

- أقصدُ قتلَ عدوٍّ تحديدًا، ممّا يجعلُ الأمرَ مختلفًا.

قال الشّابُ: - حسنًا، هيّا نلتمسُ الضّيافةَ عندَ المهرّبين وقاطعَي الطّريق. هل تظنُّ أنّهم سيضيّفونَنا؟

- قَطعًا.

- كم عددهم؟

- أربعةٌ يا صاحب السّعادة، فإن أضفنا إليهم قاطعَيّ الطريق، صار المجموع ستّةً.

- هو إذًا نفسُ عددنا؛ وبالتّالي نحنُ متكافئون قوّةً في حالِ ما إذا أظهرَ أولئك الرّجال وجهًا لا يسرُّ، وبوسعنا أن نقارعهم. وإذًا، للمرّةِ الأخيرة، أقول: هيّا إلى مونت كريستو.

- حاضر يا صاحب السّعادة؛ لكن أتسمحُ لي مع ذلك بأن آخذ المزيدَ من الاحتياطات؟

- وكيف لا يا عزيزي! كُن حكيمًا مثل نسطور، وحذرًا مثل عوليس. لستُ أسمح لك بذلك فحسب، بل أحثّك عليه.

قال غايتانو: - صمتًا إذًا!

وصمت الجميع.

وبالنّسبة لرجلٍ مثل فرانز، رجل يقدّر كلّ شيءٍ حقَّ قدره، فإنّ الوضع وإن لم يكن خطيرًا جدًا فإنّه لا يخلو من خطورة. إنّه يوجد في أحلكِ الظّلماتِ، معزولًا، وسط البحر، مع بحّارةٍ لا يعرفونَه، ولا شيءَ يُلزمهم بالطّاعة له؛ رجالٌ يعرفون أنّه يخبّئ في حزامه بضعة آلافٍ من الفرنكات، وقد تمعّنوا مرّاتٍ ومرّاتٍ في أسلحته الجميلة، بباعثٍ من فضولٍ إن لم يكن حسدًا. ومن جهةٍ أخرى، هو مقدِمٌ على النّزول بجزيرةٍ تحمل اسمًا ذا نفحةٍ دينيّة قوية، ولكنّها لا تعِده، مع من فيها من مهرّبين وقطّاع طرق، إلا بجلجلة المسيح. زد على ذلك أنّ قصص المراكب المُغرَقة، التي بدت له مبالغًا فيها حين سمعها نهارًا، صارت تبدو له واقعيّةً الآن وقد حلّ الليل. لذا، محشورًا بين الخطَرين، اللذين قد يكونان محضَ وهمٍ، لم يكن يحيد ببصره عن رجاله، ويده على بندقيّته.

أثناء ذلك كان النّوتيون قد رفعوا مجدّدًا أشرعتهم وانطلقوا يعبرون الطّريق نفسها التي سبق أن عبروها قبل قليل. وخلَالَ العتمة كان فرانز، المعتاد شيئًا ما على الظّلام، يميّزُ ماردَ الغرانيت الذي يسير القاربُ بمحاذاته؛ ثمّ، بعد أن اجتازوا مرّةً أخرى طرف صخرةٍ، واستطاعوا أن يتبيّنوا النّارَ تتلألأ أشدَّ وهجًا من ذي قبل، وحول النّار يجلس خمسة رجالٍ أو ستّة.

كان مدى نورِ الموقد يغطّي نحو مائة قدم على البحر. حاذى غايتانو النّورَ، حريصًا في الآن نفسه على أن يُبقيَ القاربَ في الجزء المظلم من البحر؛ ثمّ حين صارَ في مواجهة الموقد مباشرةً، وجّهَ الصّارية نحوَه، واقتحم بشجاعةٍ دائرة النّورِ، مترنّمًا بنشيدِ بحّارٍ، يغنّيه منفردًا، ورفاقُه يردّدون خلفَه اللازمةَ ككورس.

وما إن انطلق النّشيد حتّى قام الرّجال الجالسون حول النّار، واقتربوا من حافة المرسى، وأعينهم مسمّرةٌ في القارب، محاولين جاهدين تبيُّن

قوّته وحدسَ نواياه. ولم يمض وقتٌ طويلٌ حتّى بدوا أنّهم قد فحصوا القارب بما يكفي، فعادوا يتحلّقون حول نارهم التي كانوا يشوون فوقها جذْيًا بأكمله، باستثناءِ رجلٍ واحدٍ منهم، ظلَّ واقفًا عند السّاحل.

وحين صار القاربُ على مسافة عشرين قدمًا من البرّ، أمسكَ الرّجل الواقف على السّاحل، آليًا، ببندقيّته في وضعية خفيرٍ ينتظرُ دوريةً، وصاح بلهجةٍ سَاردينية: - **من هناك!**

عبّأ فرانز بهدوءٍ سلاحَيْه.

تبادلَ إذّاك غايتانو مع الرّجلِ عباراتٍ لم يفهم منها المسافرُ شيئًا، لكنّها كانت تعنيه بالطّبع.

سأل القائدُ فرانزَ: - هل يريد صاحبُ السّعادة أن يفصح عن اسمه، أم يفضّلُ أن يظلَّ مجهولًا؟

أجابه فرانز: - ينبغي أن يظلّ اسمي مجهولًا تمامًا، قل لهم إذًا إنّني فرنسيٌّ يسافر لمتعته.

حين نقل غايتانو جوابَ فرانز، أصدرَ الخفيرُ أمرًا إلى أحد الرّجالِ المتحلّقين حول النّار، فقام من فوره، واختفى بين الصّخور.

بسط الصّمتُ يديه على الأجواء. وبدا الجميع منشغلًا بأموره الخاصّة: فرانز بنزوله، والنوتيون بأشرعتهم، والمهرّبون بجَديِهم، لكن وسط تلك اللامبالاة الظّاهرية، كانت النّظراتُ تُتبادَل.

عاد الرّجلُ الذي كان قد اختفى بين الصّخور، إلى الظّهور من الجانب المقابل لذاك الذي انطلق منه. أشارَ إلى الخفير بإيماءةٍ من رأسه، فاستدار الخفيرُ شطرَ المركب ونطق كلمةً واحدة: - S'accommodi.

إنّ هذه الـ S'accommodi، كلمةٌ إيطاليةٌ غير قابلةٍ للترجمة. إنّها تقول في آنٍ: تعالوا، ادخلوا، مرحبًا بكم، البيتُ بيتكم، أنتم أصحابُ المكان. إنّها مثل تلك الجملة التركية الشّهيرة عند موليير، تلك الجملة

التي كانت تدهشُ البورجوازي النّبيلَ لفرط ما تحمله من دلالاتٍ[1].

ولم يتركه النوتيون يضيفُ كلمةً أخرى. بأربع ضرباتٍ من مجاذيفهم وصل القارب إلى الشّاطئ. قفز غايتانو إلى البرّ، وتبادل كلماتٍ أخرى بصوت خافتٍ مع الخفير، ثمّ نزلَ رفاقه من المركب واحدًا بعد آخر؛ وفي الأخير أتى الدّور على فرانز. كان قد علّق إحدى بندقيّتيه على كتفه، بينما حمل غايتانو الأخرى، وأمسك نوتيٌّ بندقيةً قربينةً. لباسه الذي يحمل في آنٍ لمسة الفنّانِ والرّجلِ الأنيق، لم يُثِر في نفس الرّجال أيّ ريبة، وبالتّالي أيّ قلق. أرسوا القاربَ عند السّاحل، والتمسوا مكانًا مناسبًا ليحطّوا فيه؛ غير أنّ الاتجاه الذي ساروا فيه باحثينَ لم يرُق المهرّبَ الخفيرَ، إذ صاح بغايتانو: كلّا، ليسَ في هذا الاتّجاهِ فضلًا.

غمغم غايتانو معتذرًا، ومن دون أن يلجَّ في الكلام سلكَ الاتّجاه المعاكس، بينما قصدَ اثنان من النوتيين النّارَ يقبسونَ منها مشاعلَ ينيرون بها طريقَهم.

مشى الرّجالُ ثلاثين خطوةً تقريبًا، ثمّ توقّفوا عند موضع صغير مستوٍ تحوطه صخور قُدَّت على هيئةِ مقاعد هي أقرب شيءٍ إلى مرتَقَباتٍ يُجلسُ عليها للحراسة. وحول المكانِ في أرضٍ معشبة تنمو أشجار سنديانٍ قصيرة، نباتات آسٍ ذاتِ خوص كثيفة. خفض فرانتس مشعلًا، ولاحظ، من ركام الرّمادً في المكان، أنّه لم يكن أوّل من انتبه إلى

---

(1) في مسرحية البورجوازيّ النّبيل تتظاهر إحدى الشّخصيات بتكلّم التركية:
كليونتي: بِل–مِن.
كوفيل: يقولُ إنّك ستُجهَزُ وإيّاهُ على وجه السّرعة لحضور الحفل، كي ترى بعد ذلك ابنتك، وتُتمَّ الزّواجَ.
السيّد جوردان: قال كلّ ذلك في كلمتين؟
كولفيل: أجل، إنّ اللّغة التركية هكذا، تقول الكثير بكلماتٍ قليلة.(الفصل الرّابع، المشهد الرّابع).

الموضع المريح الذي حطّوا فيه، إذ كان يبدو أنّه مكانٌ مألوف لزائري مونت كريستو العابرين.

أمّا عن توجّسه ممّا سيقع، فقد كفَّ؛ فما إن حطّ قدمه على اليابسة، ورأى حفاوة الرّجال، أو أقلّه لا مبالاتهم، حتّى تبدّد همّه كلّه؛ وإذ شمّ رائحةَ الجدي الذي يشوى على النّار، انقلبَ خوفُه شهوةً.

أوحى إلى غايتانو بكلمتين ممّا صار يشغله، فأجابه البحّارُ بأنّ لا أفضل للمرء من عشاءٍ بسيطٍ حين يكون بحوزته، مثلما هو الشّأن بالنّسبة إليهم، خبزٌ ونبيذ وستّ حجلات، ونارٌ للشّواء.

أضافَ: - ثمّ، إن كانت رائحة هذا الجدي قد أثارتك يا سيّدي، فأستطيع أن أقصد هؤلاء الرّجال فأقايض قطعةً من شوائهم بفرخين ممّا لدينا.

أجابه فرانز: - افعل يا غايتانو، افعل، فقد وُلدتَ وفيك موهبةُ المساومة.

أثناء ذلك كان النوتيون قد اقتلعوا حزَمًا من أغصان الخلنج والسنديان الأخضر، وأوقدوها فصارت نارًا معتبرةً.

ظلّ فرانز ينتظر عودة ربّان القارب نافد الصّبر، متشمّمًا رائحةَ الجدي؛ وحينَ عاد الربّانُ كانت تعلو ملامحه أماراتُ انشغالٍ عظيم.

سأله فرانز: - وإذًا، ماذا هناك؟ هل رفضوا عرضنا؟

- بالعكس، إنّ قائدهم، وقد أخبرتُه أنّك شابٌّ فرنسيّ، يدعوكَ إلى العشاء معه.

قال فرانز: - رجلٌ متحضّرٌ هو إذًا هذا القائدُ، ولا أرى سببًا لرفض دعوته؛ خاصّةً وأنّني سأحمل معي نصيبي من العشاء.

- أوه! ليست هذه المشكلة، فهو لديه من العشاء ما يكفي ويزيد؛ وإنّما هو يفرض شرطًا غريبًا لكي يستضيفك عندَه.

- يستضيفني عنده؟ هل بنى منزلًا؟

- كلاّ، لكن عندَه أين يستضيفك، وإنّه مكانٌ مريحٌ على ما يؤكّدون.
- أنت تعرف إذًا هذا القائد؟
- سمعت به.
- خيرًا أم شرًا؟
- كلاهما.
- اللعنة! ما شرطه الفريدُ إذًا؟
- أن تضع على عينيك عصابةً، ولا تنزعها حتّى يدعوك هو إلى ذلك.

حاول فرانز أن يسبر ما أمكنه نظرة غايتانو كي يستشفّ ما تخفيه هذه الدّعوة.

فقال غايتانو مجيبًا عمّا خطر ببالِ فرانز: - آه اللعنة! أعلم أنّ الأمر يستحقّ التفكير.

قال الشّاب: - ما كنت لتفعل، لو كنت في مكاني.
- أنا ليس عندي ما أخسره. سأذهب.
- ستقبل؟
- نعم، ولو على سبيل الفضول.
- ثمّة إذًا ما يستدعي الفضول عند هذا القائد؟

قال غايتانو خافضًا صوته: - لا أدري ما إذا كان ما يتردَّدُ صحيحًا...

توقّف ونظر حوله كي يرى ما إذا كان ثمّة من يسمع حديثهما.

سأله فرانز: - ما الذي يُقالُ؟

- يُقال إنّ هذا القائدَ يسكن مغارةً تحت الأرض، يبدو قصر بِيتي (فلورنسا) لا شيء مقارنةً بها.

قال فرانز وهو يجلس: - يا له من حلم!

استأنفَ الربّانُ الكلامَ: - إنّه ليس حلمًا، وإنّما حقيقة! لقد دخلها مرّةً كاما، ربّانُ **سان فِرديناند**، وخرج منها مذهولًا كلَّ الذّهول، قائلًا إنّ ما فيها من كنوزٍ لا نظيرَ له إلا في الحكايات الخيالية.

قال فرانز: - آه! أتدري أنّك بكلامك هذا تُنزلني إلى مغارة علي بابا؟
- إنّما أقول لك ما قد قيل لي يا صاحب السّعادة.
- أنت إذًا تنصحني بالقبول؟
- أوه! لست أقول شيئًا! ليفعل صاحب السّعادة كما شاء، فأنا لا أريد أن أنصحه في وضعية كهذه.
فكّر فرانز لحظاتٍ، فرأى أنّ رجلًا يبلغ هذا الفحش من الثراء لن يطمع فيه هو الذي لا يحمل إلا بضعة آلافٍ من الفرنكات؛ وبما أنّه كان موعودًا، وسط كلّ ذلك، بعشاءٍ رائع، فقد قبل.
ذهب غايتانو يحملُ ردَّه إلى قائدٍ المهرّبين.
على أنّ فرانز، كما أسلفنا، لم يتخلَّ عن حذره؛ فأراد أن يحيط علمًا ما أمكنه بمضيفه الغريب والغامض. فقصد النوتيّ الذي كان أثناء حديثهما منهمكًا في تريش الحجلات بجديّةِ الرّجل الفخور بما يعمل، وسأله في أيّ وسيلةٍ نزلَ أولئك الرّجالُ الجزيرةَ، إذ ما كانت تُرى في الأرجاء سفينةٌ من أيّ نوع، لا قواربَ، ولا طرّادات، ولا مراكب بضائع.
أجابه النوتيّ: - لستُ قلقًا بهذا الصّدد، فأنا أعرفُ السفينة التي يركبونَها.
- أهي سفينةٌ جميلة؟
- أتمنّى لك يا صاحب السّعادة سفينةً في جمالها، تلفُّ بها العالم.
- وما قدرتُها؟
- مائةُ برميلٍ تقريبًا. عدا ذلك، هي مركبُ متعةٍ، يختٌ، كما يقول الإنجليز، لكنّه مع ذلك صمّم للإبحار في كلّ طقسٍ.
- وأين شيِّدَ؟
- لا علم لي بذلك. لكنّي أحسبه مركبًا جَنَويًا.
واصل فرانز أسئلته: - وكيف لرئيس مهرّبين أن يجرؤ على ركوبِ يختٍ شيّدَ لأغراضٍ تجارية في ميناء جنوة؟

أجابه النّوتي: - لم أقل إنّ صاحب اليخت مهرّبٌ.
- كلاّ؛ لكن يبدو لي أنّ غايتانو قال ذلك.
- غايتانو رأى الطّاقم من بعيد، لكنّه لم يتحدّث مع أحدٍ بعد.
- لكن، إن لم يكن الرّجلُ رئيس مهرّبين، فمن يكون؟
- رجلٌ ثريّ يسافرُ للذّاتِه.
فكّر فرانز في نفسه: - الرّجلُ لم يزد إلّا غموضًا ما دامَت الرّوايتان متناقضتين.
قال: - وما اسمُه؟
- عندما يُسأل عن اسمه يجيبُ أنّه يدعى السّندباد البحريّ. لكنّي أشكّ أن يكون اسمَه الحقيقي.
- السّندباد البحريّ.
- نعم.
- وأين يسكن هذا الرّجل؟
- في البحر.
- ومن أيّ البلاد هو؟
- لا أدري.
- هل قابلتَه؟
- بضع مرّاتٍ.
- وكيف هو؟
- سوف تحكم عليه بنفسك يا صاحبَ السّعادة.
- وأين سيضيّفني؟
- قطعًا في القصر تحت الأرض الذي حدّثك عنه غايتانو.
- أوَلم يأخذك الفضول، حين رسوتَ هنا وألفيت الجزيرة خاليةً، إلى أن تبحث عن مدخل هذا القصر السحريّ؟
- أوه! بلى يا صاحب السّعادة، وليس مرّةً واحدةً، وإنّما مرّاتٍ؛ لكن

دائما كانت بحوثنا تذهبُ سدىً. لقد فتّشنا المغارة من كلّ جانبٍ، فلم نعثر على أدنى مدخلٍ. ثمّ إنّ الباب، على ما يُقالُ، لا يُفتح بمفتاحٍ، وإنّما بكلمة سحرية.

غمغم فرانز: - يبدو، قطعًا، أنّني قد علقتُ في حكايةٍ من حكاياتِ **ألف ليلةٍ وليلة.**

قال صوتٌ من خلفِه، تعرّف فيه فرانز على صوتِ الغفير: - إنّ صاحبَ السّعادة ينتظرك.

كان القادمُ مصحوبًا برجلين من طاقم اليخت.

ردًّا على كلام مخاطبه، اكتفى فرانز بأن أخرج منديلَه الأبيضَ وعرضه أمامه.

ومن دون أن ينطق الرّجالُ كلمةً، عصبوا عينيّ فرانز بعنايةٍ بالغةٍ تعكس حرصهم الشّديدَ على ألّا يتمكّن الضّيفُ من التلصّص؛ وبعد ذلك دعوه يقسمُ بأنّه لن يُحاول البتّةَ نزعَ عصابته.

أقسَم. وإذّاك أمسك كلّ واحدٍ من الرّجلين بذارعٍ من ذراعَي فرانز، وذهبا يقودَانه في إثر الخفير.

وبعد أن مشوا ثلاثين خطوةً أدرك، من رائحةِ الجدي النّفاذة، أنّهم قد مرّوا من أمام الموقد؛ ثمّ واصلوا طريقهم خمسين خطوةً أخرى، سائرين في الاتّجاه الذي كانوا قد منعوا غايتانو من السيّر فيه. منعٌ صار له الآنَ ما يفسّرُه. وبعد وقتٍ قصيرٍ أدركَ، من تغيّر الطّقس، أنّهم قد دخلوا مغارة تحت الأرض؛ وبعد خطواتٍ سمع صريرًا، وبدا له أنّ الطّقس قد تغيّر مرّةً أخرى، فصار دافئًا وعَطرًا؛ ثمّ أحسّ قدميه تدوسانِ زربيّة كثيفةً وناعمةً؛ ثمّ تركه أدِلاّؤه. خيّمَ الصّمتُ لحظةً، ثمّ خرقَه صوتٌ قال بفرنسيّة سليمةٍ، وإن كانت بلكنةٍ أجنبيّة:

- مرحبًا بك عندي ياسيّدي، وبإمكانك أن تنزع منديلك.

وكما خمّنتُم، لم يمهل فرانز مضيفَه الوقتَ لكي يكرّرَ الدّعوةَ؛ نزع

المنديلَ، فألفى نفسه أمام رجلٍ سنّه بين الثمانية والثلاثين والأربعين، يرتدي لباسًا تونسيًا، أي شاشيةً حمراءَ مع شريط حرير أزرقَ طويلٍ، وسترةً من نسيج الصّوف مطرّزةً بالذّهب، وسراويل حمراء قانية عريضةً ومنتفخة، وجوارب من نفس لون السّراويل موشّاةٍ كما السّترة بالذّهب؛ وبُلْغة صفراء؛ ويتمنطق عند خصره بكشمير رائعٍ، وقد علّق على حزامه خنجرًا صغيرًا حادًّا ومائلًا. وإن ضربنا صفحًا عن شحوبه الشّديد، فقد كان الرّجلُ ذا وجهٍ بارز الجمال؛ كانت عيناه حادّتين ونافذتين؛ أنفه مستقيمٌ ولا يكاد يتجاوز مستوى الجبهة، ممّا يشي بانتمائه الخالص إلى الإثنية اليونانية، وكانت أسنانه بيضاء كاللؤلؤ، تبرزُ جميلةً تحت الشّارب الأسود الذي يؤطّرُها.

غير أنّ شحوبَه كان غريبًا؛ كان يبدو كمن أُغلِقَ عليه زمنًا طويلًا في مدفنٍ، فما استطاع أن يكسبَ بشرةَ الأحياء.

ومن دون أن يكون فارع الطّول، كان متناسق الجسم، وشأنَ رجال الجنوب كان قصير اليدين والقدمين.

على أنّ ما أدهش فرانز، الذي كان قد وصف رواية غايتانو بالحلم، هو فخامة الأثاث.

كانت الغرفة مفروشةً كلّها بأقمشة تركية قرمزيّةٍ وموشّاةٍ بزهور ذهبية. وفي أحد الأركانِ ما يشبه الأريكة يعلوها تمثال سيف عربيّ غمدهُ أحمرُ ومقبضه مرصّعٌ بحجارةٍ مذهلة؛ في السّقف عُلّقت ثريّا من زجاج البندقيّة جميلة الشّكل واللّون، وكانت القدمان تطآن زربيةً تركيّة تغوصان فيها حتّى الكاحلين: كانت هناك بواباتٌ أخرى جنب البوابة التي منها دخل فرانز، وأمامه بابٌ آخرُ يفضي إلى غرفةٍ ثانية تبدو مضيئةً إضاءةً رائعةً.

ترك المضيفُ ضيفَه لدهشته لحظةً؛ ثمّ إنّه قد كان يقابل التّحديق بالتّحديق، إذ ما كانت عينه تُفلتُ الشّابَ لحظةً.

ثمّ قال: - سيّدي، أعتذر إليك ألف مرّةٍ عن الاحتياطات التي فرضناها عليك، قبل أن تدخل عندي. لكن، بما أنّ هذه الجزيرةَ تكون في معظم الأحيانِ قفرًا، فإنّي، إن كُشف سرّي، لن أجد في المرة القادمة التي آتي فيها إلى هنا إلّا التّرابَ؛ وليس في ذلك ما يسرُّ، ليس أسفًا على ما ضاع من أموال، وإنّما لأنّي لن أجدَ قطُّ مكانًا آمنًا أنزلُ فيه كلّما أردت الانفصال عن أرض العالمينَ. والآن، سأحاول أن أكفّر عمّا وقع، وأقدّمُ إليك ما لم تكن تحسبُ وجودَه ممكنًا هنا، أقصد عشاءً لائقًا وسريرًا مقبولًا.

أجابه فرانز: - الحقُّ أقول يا مضيفي العزيز، لا ينبغي لك أن تعتذر عمّا فعلتَ. لطالما عرفتُ أنّ النّاس الذين يدخلون قصورًا سحريةً تُعصّب أعيُنُهم. تلك حالُ راوول في أوبرا **الهغنوت**، وصدقًا ليس لي أن أشكو، لأنّ ما أراهُ هنا هو تتمّةٌ لقصص **ألف ليلةٍ وليلة**.

- للأسف! سأقولُ لك ما قاله القائدُ لوكولوس: - لو علمتُ بزيارتك، لاستعددتُ لها. لكنّي أضع بين يديك ملاذي كما هو؛ وأقدّمُ لك عشائي كما هو. يا علي، هلّا قدّمت لنا الطّعامَ؟

وفي اللّحظة نفسها تقريبًا، ارتفعت البوابةُ وخرج منها نوبيٌّ أسودُ، لا يرتدي إلا ثوبًا أبيضَ، فأشار إلى سيّده بأنّ العشاء جاهزٌ، وبالإمكان الانتقال إلى قاعة الطّعام.

قال الغريب: - والآن، لا أدري إذا ما كنت تشاطرني الرأيَ، لكنّي أرى أنّ لا شيءَ أكثر إزعاجًا من أن يقضيَ شخصان ساعاتٍ طوالًا وجهًا لوجه من دون أن يعرفا بأيّ الأسماء يتنادَيان. لاحظ بأنّي أحترم حدود الضيافة فلا أجرؤ على أن أسألك عن اسمك أو لقبك؛ أرجو منك فقط أن تشير عليَّ بأي تسميةٍ تراها مناسبةً لأن أناديك بها طيلة هذا اللّقاء؛ أمّا أنا فأقول لك إنّ العادة جرت أن أُنادى السّندبادَ البحريَّ.

- وأنا سأقول، بما أنّني لا ينقصني إلا المصباحُ السّحريّ لأكون في موضع علاء الدّين، فلا أرى غضاضةً في أن تناديني علاء الدّين. هكذا

لن نخرج من أجواء الشّرق، إذ يغريني الاعتقادُ في أنّي قد طرتُ بفعلِ قوى جنيٍّ.

قال المضيف الغريب: - حسنًا يا سيّد علاء الدّين، لقد سمعتَ أنّ الطّعامَ قد قُدِّمَ، أليس كذلك؟ هلاّ تفضّلت إذًا بالدّخول إلى قاعة الطّعام؛ وإنّ خادمك المتواضع سيسير أمامك ليريك الطّريقَ.

ثمّ إنّ سندباد رفع البوابة ومرّ بالفعل أمام فرانز.

كان فرانز يمشي متنقلًا من سحر إلى سحر؛ المائدةُ أعدّت كأروع ما يكون. وإذ اطمأنَّ على هذه النّقطة المهمّة، رفع بصره جائلًا به حواليه. لم تكن قاعة الطّعام أقلّ روعةً من المخدع الذي تركه لتوّه؛ كانت كلّها من الرّخام، وعليها نقوشٌ عتيقةٌ من أغلى ما يكون، وعند طرفَي الحجرة المستطيلة كان ثمّة تمثالان رائعان يحملان على رأسيهما سلّتين. والسّلتان تحويان هرمَيْن من الفواكه البديعة؛ أناناس صقليّة، رمّان مالقة، برتقالٌ من جزر البليار، خوخ فرنسا وتمر تونس.

أمّا العشاء فكانَ فرخَ دراج محمّصًا، تحوطه طيور الشّحرور الكورسيكيّة، ولحم خنزير بريّ، ورُبع جدْي بصلصة التارتار، وسمكة طربوق عملاقةٍ رائعة، ولانغوست هائل. بين الأطباق الكبيرة كانت أطباقٌ صغيرة تحوي المقبّلات. وكانت الأطباق من الخزف اليابانيّ.

فركَ فرانز عينيه ليتأكّد من أنّه لم يكن يحلم.

وحدَه عليّ كان مسموحًا له بأن يُخدِّم عليهما، وكان يضطلع بمهمّته على أكمل وجه. مدح الضّيفُ للمضيفِ خادمَه، فأمّن المضيف على كلامه، وزادَ:

- نعم، إنّه جنيٌّ مسكينٌ يخدمني بتفانٍ. إنّه يتذكّر جيّدًا كيف أنقذت حياتَه، وبما أنّه حريصٌ على رأسه، على ما يبدو، فإنّه يحفظ لي بعض العرفان لأنّي حفظتُ رأسه له.

دنا عليٌّ من سيّده، وأخذ يده وقبّلها.

قال فرانز: - هل لي أن أسألَ يا سيّدي السندباد، عن الملابسات التي شهدت منك هذا الفعلَ الكريم؟

- أوه يا إلهي! إنّ الأمر من أبسط ما يكون. يبدو أنّ الرّجل الفَكِه كان قد اقترب من سرايا باي تونس أكثر ممّا ينبغي لرجلٍ من لونه؛ فكان أن أمر الباي بأن يُقطع لسانُه ويده ورأسه: اللّسان في اليومٍ الأوّل، واليد في اليوم الثاني والرأس في اليوم الثالث. لطالما وددتُ أن أستخدمَ رجلًا أخرسَ، فانتظرتُ أن يُنفّذ حكمُ اليوم الأوّل، كي أقصد الباي فأطلب منه رقبة عليٍّ مقابلِ بندقيّة زوجيّة كنتُ قد لاحظتُ من قبلُ ولع الباي بها. تردّد الرّجلُ لحظةً، إذ كان يحرص على إنفاذِ عقابِه. لكنّني زدتُ على البندقيةِ خنجرَ صيدٍ إنجليزيًا فلَلْتُ به ياتانَ[1] معاليه؛ فقرّر الباي العفوَ عن يد المسكين ورأسه، شرطَ ألّا تطأ قدمه تونس أبدًا. كان الشّرط بلا جدوى. فقد هرولَ الجاحدُ مختبئًا في عنبر حتّى أبعد نقطةٍ تُرى منها سواحل إفريقيا، ولم نتمكّن من إخراجه حتّى غبنا عن مرمى نظر القسم الثالث من العالم.

ظلّ فرانز للحظةً صامتًا متفكّرًا، يتساءلُ ما ينبغي أن يظنَّ في اللّطف القاسي الذي حكى به المضيفُ القصّةَ.

قال مغيّرًا الموضوع: - وشأنَ البحّار الشّريف الذي تحمل اسمَه، تقضي حياتك في السّفر؟

أجاب الغريب باسمًا: - أجل، إنّها أمنية تمنّيتُها في الزّمن الذي ما كنت أستطيع فيه أن أحقّقَها. وقد تمنّيت أمانيَ أخرى غيرها، أرجو أن أحقّقها واحدةً بعد أخرى.

وعلى الرّغم من أنّ سندباد قد نطق كلماته تلك بأشدّ ما يكون الهدوء، إلا أنّ عينيه قدحتا شررَ غضبٍ غريبًا.

قال فرانز: - لشدَّ ما عانيتً يا سيّدي؟

---

(1) الياتان أو الياغاتان خنجرٌ تركيّ.

انتفض الغريبُ، وحدّق فيه، ثمّ سأله: - أين ترىَ معاناتي؟

أجابه فرانز: - في كلّ شيء: في صوتك، في نظرتك، في شحوبك، بل حتّى في الحياة التي تحياها.

- أنا! إنّي لأحيا أسعد حياةٍ ممكنة، حياة باشا؛ أنا سيّد الخلق: يعجبني مكانٌ، فأبقى فيه؛ أملّه، فأرحل؛ أنا حرٌّ كالطّير، ولي أجنحةٌ مثله؛ بإشارة منّي يطيعني المحيطون بي. بين الفينة والأخرى أتسلّى بالسّخرية من عدالة البشر، فأخطف منها قاطع طريق تتعقّبه، أو مجرمًا تلاحقه. ثمّ، إنّ عندي عدالتي الخاصّة، عدالتي الرّافعة والخافضة، عدالة لا إرجاء فيها ولا استئناف، عدالةٌ تدين أو تعفي، ولا يهمّها أحد. آه، لو أنّك ذقت طعم الحياة التي أحياها، ما كنتَ أبدًا لترجو حياةً غيرها، ولما عدت أبدًا إلى العالم، إلا إن كان لديك مشروعٌ كبيرٌ تستكمله.

قال فرانز - مشروع انتقام! مثلًا.

حدّق الغريبُ في الشّاب ًبنظرةٍ من تلك التي تنفذ حتّى أعماق القلب والفكر. ثمّ سأل:

- ولمَ انتقام؟

أجابه فرانز: - لأنّك تبدو لي رجلًا اضطهده المجتمعُ، فصار لديه حسابٌ يصفّيه معه.

قال سندباد ضاحكًا ضحكته العجيبة التي تشفّ عن أسنانه البيضاء الحادّة: - وإذًا، لقد أخطأت التقدير يا سيّدي. إنّني رجلٌ اجتماعيّ، ولربّما رأيتني أقصد باريس يومًا من الأيّام لأنافس السيّد أبيرت[1] والرّجل ذا المعطف الأزرق القصير[2].

---

(1) أبيرت، نيكولاس أبيرت (1841-1749): تاجرٌ وطباخ ومصنّعٌ فرنسي شهير ينسب إليه ابتكار طريقة حفظ المواد الغذائية في القوارير الزجاجية.

(2) -لقب إدمي شامبيون (1852-1764): تاجر مجوهرات فرنسي، اشتهر بثرائه الفاحش وأعماله الخيرية.

- وستكون تلك المرّة الأولى التي تسافر فيها إلى باريس؟

- أوه! نعم. يبدو الأمر مستغربًا. لكنّني أؤكّد لك أنّ تأخّري عن زيارة باريس ليس غلطتي، وسيحين موعد زيارتها إن عاجلًا أو آجلا!

- وهل تنوي أن تعجّل بالموعد؟

- لا أدري بعد، إنّ الأمر يتعلّق بملابسات موضوعية وترتيبات غير مؤكّدة.

- أتمنّى أن أكون في باريس أثناء زيارتك لها، كي أحرص على أن أردّ لك شيئًا من الحفاوة التي خصصتني بها هنا في مونت كريستو.

- أقبل ضيافتك عن طيب خاطر؛ لكن للأسف، إن زرت باريس فسوف أزورها على الأرجح متخفيًا.

أثناء ذلك، كان العشاءُ يقدّمُ، ويبدو كأنّما لم يُحضَّر إلا للضّيف، إذ بالكاد مسّ الغريبُ بطرف أسنانه لقمةً أو لقمتين من الوليمة الرّائعة التي غنمَ منها الضيف غير المنتظَر ما طاب له.

ثمّ، في ختام الوليمة، حمل عليّ الفاكهة، أو بالأحرى تناول السلّتين من يدَي التمثالين، ووضعهما على الطّاولة. وبين السّلتين وضع كأسًا من الفضّة المذهّبة مقفلةٍ بغطاء من نفس المعدن.

وقد أثار فضولَ فرانز الحرصُ الذي حمل به عليٌّ الكأسَ. رفع الغطاء فرأى عجينًا أخضر يشبه مربّى الأنجليكا، لكنّه يجهله كلّ الجهل. أعاد الغطاء إلى الكأس، ومقدار جهله بما فيها لم ينقص عن مقدار جهله قبل أن يرفع الغطاءَ؛ ثمّ رفع عينيه إلى مضيفه، فرآه يبتسمُ لخيبته.

قال: - لا تستطيع أن تخمّن أيّ مادّة تحويها الكأسُ، والأمر يثير فضولك، أليس كذلك؟

- أقرُّ بذلك.

- حسنًا، إنّ هذا الشّيء الشّبيه بمربّى أخضر، ليس سوى طعام الآلِهة الذي كانت الإلَهة هيبي تقدّمه على مائدة جوبيتير.

- لكنّ طعام الآلهة هذا، لابدّ أن يكون قد فقدَ اسمه الإلهي واتّخذ اسمًا بشريًا، بعدما انتقل من مائدة الآلهة إلى مائدة البشر؛ كيف تسمّي اللّغة الدّارجةُ هذه المادّة التي لا أستطيبها؟

صاح سندباد: - إيه! هو ذا تحديدًا ما يكشف عن طبيعتنا الماديّة؛ كثيرًا ما نجانب السّعادة من دون أن نراها، من دون أن ننظر إليها، أو ننظر إليها ونراها من غير أن نتعرف عليها. هل أنت رجلٌ واقعيٌّ، وإلهك الذّهبُ؟ ذُق إذًا، وستفتحُ أمامك على مصراعيها مناجمُ بيرو، وغولكوندا والكجرات (الهند)؛ أنتَ رجلُ خيالٍ، شاعرٌ، ذُق وستمّحي أمامك حدود الممكن؛ ستنفتح أمامك حقول اللانهاية، ستجُول، حرَّ القلب والعقل، مضمارَ الأحلام الذي لا يحدّه شيء. أنت طموحٌ، تسعى وراء امتلاك الأراضي، ذُق وستصير في ساعةٍ ملكًا، ليس ملكًا على مملكةٍ صغيرة مختفية في ركنٍ من أركان أوروبا، مثل فرنسا أو إسبانيا أو إنجلترا، وإنّما ملكًا على العالَم، ملكًا على الكون، ملكًا على الخلق. سيُنصَّبُ عرشك على الجبل الذي حمل عيسى الشّيطانُ إليه؛ ومن دون أن تكون مضطرًا إلى مباركة الشّيطان، أو تقبّلَ مخلبَه، ستكون ملكًا، سيّدًا على كلّ ممالك الأرض. قُل، أليس مغريًا ما أعرضه عليك؟ أليس سهلًا، ما دمت لا تحتاج إلا أن تفعل هكذا؟ انظُر!

ثمّ إنّ الرّجل الغريبَ رفع بدوره غطاءَ الكأس الفضيّة المذهّبة، التي تحوي المادّة التي أغدق عليها بالمديح، وأخذ منها مقدار ملعقة صغيرة، ووضعها في فمه، ثمّ أخذ يتلمّظها مرخيًا رأسَه إلى الخلف، ومغمضًا عينيه نصف إغماضة.

ترك فرانز الوقت الكافي ليمتصّ طعامه المفضّل، ثمّ إذ رآه يستعيد انتباهه، قال له:

- لكن أخبرني، ما هذا الطّعامُ الثمين لهذه الدّرجة؟

- هل سمعت بشيخ الجبل[1] الذي أراد أن يغتال فيليب أغسطس؟

- بلا ريب.

- حسنًا، تدري أنّه كان يحكم واديًا غنيًا يشرف على الجبل الذي أخذَ منه اسمَه المميّز. في ذاك الوادي كانت ثمّة حدائقُ زرعها الحسن بن الصّباح، وفي تلك الحدائق أروقةٌ معزولة. هناك كان الحسنُ يُدخل أصفياءَه، وهناك، كما روى ماركو بولو، كان يُطعمهم نبتةً تحملهم إلى الجنّة، فيلفون أنفسهم في فردوس نباتهُ مزهرٌ أبدًا، وثماره ناضجةٌ على الدّوام، ونساؤه يبقين أبكارًا. غير أنّ ما كان أولئك الشّبابُ المحظوظون يعتبرونه حقيقةً، لم يكن في الواقعِ إلا حلمًا؛ لكنّه حُلمٌ من العذوبة والإسكار واللّذة، حتّى إنّ الرّجالَ يسلّمون الأجسادَ والأرواحَ لمن يمنحهم إيّاهُ، ويطيعونَ أوامرَه طاعتَهم أوامرَ الله، ويطعنون الضحيّة التي يعيّنُها لهم، حتّى لو كانت في آخر الدّنيا، ويموتون خاضعين إلى أفظع العذابات من دون أن يشتكوا، مؤمنينَ بأنّ الموتَ ليس إلا معبرًا إلى حياة اللّذة التي أذاقتهُم إيّاها من قبل هذه العشبةُ الموضوعة أمامك.

إذّاك صاح فرانز: - إنّه حشيش! أجل، إنّني أعرفُه، أو على الأقلّ أعرف اسمه!

- نعم، هو الحشيش، لقد أصبتَ التّسمية، من أجود حشيش الإسكندرية وأنقاه، من عند أبوغور، أفضل صانعي الحشيش، الرّجل المتفرّد الذي ينبغي أن يُقامَ له صرحٌ يكتب على مدخله:

عرفانًا من العالم

لتاجر السّعادة.

قال فرانز: - هل تعلم أنّي أرغب في أن أجرّب، لأحكم بنفسي علامَ مديحك المفرط؟

---

(1) الحسن بن الصباح: مؤسّس ما يعرف في الثقافة الغربية بطائفة الحشّاشين.

– احكُم بنفسك يا ضيفي العزيز، احكُم؛ لكن لا تنتظر نتيجةً من التّجربة الأولى. كما الحال في جميع التّجارب ينبغي أن تُمرَّن الحواسُ على الانطباع الجديد، عذبًا كان أم عنيفًا، حزينًا كان أم سعيدًا. إنّ الطّبيعة تقاوم هذا العنصر الإلهي، الطّبيعة التي لم تُخلق للسّعادة والمرح، والتي تتمسّك بأسباب الألم. ينبغي أوّلًا أن تنهزم الطّبيعة، ينبغي أن يحلّ الحلمُ محلّ الواقع؛ وإذّاك يصير الحلمُ السيّدَ الحاكم، يصير الحلم هو الحياة وتصير الحياةُ حلمًا. لكن أي فرقٍ يحدثه هذا التحوّل! ما يحدث هو أنّك حين تقارن آلام الوجود الواقعي مع ملذّات الوجود المصطنع، لا ترغبُ بعدها في العيشِ وإنّما في الحلم. حين تترك عالمك الخاصّ، كي ترجع إلى عالم الآخرين، سيبدو لك أَنّك قد انتقلت من ربيعٍ نابوليتانيّ إلى شتاءٍ لابيّ (شمال أوروبا)، سيبدو لك أنّك قد خرجت منَ الفردوس إلى الأرض ومن ملكوت السّماء إلى الجحيم. ذُق الحشيش يا ضيفي! ذُقه!

جوابًا على كلام مضيفِه، تناول فرانز الملعقة وأخذ من العجينة بقدرِ ما أخذ منها مضيفه، ووضعه في فمه.

قال بعدما ابتلع المربّى الإلهي: – اللّعنة! لا أدري ما إذا كانت النّتيجة المنتظرة ستكون بالرّوعة التي وصفتَها، لكنّ المذاقَ ليس شهيًا بالدّرجة التي ذكرتَها.

– هذا لأنّ أنسجتك لم تعتد بعدُ رهافة المادّة التي تتذوّقها. أخبرني:
– هل من أوّل مرّةٍ، استطبت مذاق المحار، والشّاي، والبيرة الإنجليزية، والكمأة، وكلّ الأشياء التي صرت تحبُّها فيما بعد؟ هل تتفهّم ذوق الرّومان الذين كانوا يُتبّلون طير الدّراج بالكلخ المنتن، أو الصّينيّين الذين يأكلون أعشاشَ السّنونو؟ كلّا! وإذًا، الأمرُ نفسه ينطبق على الحشيش. تناوله لثمانية أيّام متتالية، وسترى أنّ لا طعامَ يمكن أن يدانيَ رهافة هذا الطّعم الذي يبدو لك الآن فاترًا ومُثيرًا للغثيان. لننتقل إذًا إلى الغرفة

المجاورة، أي غرفتك، وهناك سيقدّمُ لنا عليّ القهوة والجبق[1].

قام الرّجلان، وبينما يصدر الرّجلُ الذي أسمى نفسه السّندباد، وسمّيناه كذلك بين الفينة والأخرى، حتّى نمنحه اسمًا على غرار ضيفِه، قلنا بينما يصدر الرّجل أوامرَ لخادمه، دلف فرانز إلى غرفة الانتظار.

وكانت غرفة الانتظار بسيطةَ الأثاث وإن لم تقلَّ غنىً عن غيرها من الحجرات. هيئتُها دائريّةٌ، وأريكةٌ هائلةٌ تسايرُ محيطَها. على أنّ الأريكة والجدران والسّقف والأرضية، جميعها كانت مغطّاةً بجلودٍ مذهلة، لطيفة وناعمة كأنعم ما تكون الزّرابي؛ كانت تلك الجلودُ فراءَ أسود الأطلس ذوات الألباد الكثيفة؛ وجلود نمورِ البنغال ذوات الخطوط الفاقعة، وجلود الفهود ذوات البقع البهيجة الشّبيهة بتلك التي ظهرت لدانِتس[2]، وأخيرًا فراء دببة سيبيريا وثعالب النرويج، وكانت تلك الفراء جميعًا موضوعة بعضها فوق بعض، بحيث يخال السّائر فوقها أنّه يسير على أرض كثيفة العشب أو سريرٍ حريريّ.

استلقيا معًا على الأريكة؛ كانت طوع يديهما جوابق من الياسمين والعنبر، جاهزةً للاستعمال، بحيث لا يدخّنُ المرء في الجبق الواحد مرّتين. تناول كلّ منهما جبقًا، أشعله له عليٌّ، ثمّ خرج يحضر القهوة.

سادت برهةُ صمتٍ، غاب خلالها سندباد في خواطره التي كان يبدو مهجوسًا بها حتّى في غمرة حديثه، وغاب فرانز في تلك التّخيلات الصّامتة التي يغوص فيها المرء دومًا حين يدخّن تبغًا رفيعًا، تبغًا يبدو أنّه يطرد مع دخانه كلّ هموم الذّهن، ويمنح المدخّن بدلًا منها كلّ أحلام النّفس.

أتاهما عليّ بالقهوة.

سأله المضيف: - كيف تشرب قهوتك؟ على الطّريقة الفرنسية

---

(1) غيلون تركيّ.

(2) يذكّر هنا المؤلّف بالبقع التي صوّرها الرّاهب فاريا لدانِتس على جلد تشيزاري بورجا.

أم التركية؛ مركّزة أم مخفّفة؛ بالسّكر أم من دونه؛ دافئة أم مغلية؟ لك الاختيار: توجد كلّ الأشكال.

أجاب فرانز: - أشربها على الطّريقة التركية.

فصاح المضيف: - مصيبٌ في اختيارك. وهو يدلّ على أنّك تميل إلى الحياة الشّرقية. آه! وحدهم المشارقة يعرفون فنّ العيش! (ثمّ أضاف بابتسامةٍ لم تخفَ على الشّاب)؛ حين سأتمم أعمالي في باريس، سأقضي ما تبقى من حياتي بالشّرق، فإن أردتَ رؤيتي، التمسني بالقاهرة أو بغداد أو أصفهان.

- لعمري، ذلك أيسر الأمور، إذ أشعر بأنّ أجنحةً كأجنحة النّسر تنبت لي، وبفضلها أستطيع أن أُلفّ العالمَ في أربع وعشرين ساعة.

- آه! آه! إنّما هو الحشيش يفعل فعلَه، فافتح جناحيكَ وحلّق في مناطق لا قِبَلَ لبشرٍ بها؛ لا تخشَ شيئًا، نحن هنا نحرسُك، وإن قُدِّرَ لجناحيك أن يذوبا في الشّمس، كما وقع لأجنحة إيكاروس، فستجدنا هنا نتلقّفك.

ثمّ قال لعليٍّ كلماتٍ عربيّة، فأشار هذا إشارة طاعةٍ وانسحب لكن من دون أن يبتعد. أمّا فرانز فكان يجري فيه تحوّل عجيب. كلّ التّعب الجسديّ الذي راكمه في يومه، وكلّ الهمّ الذي ولّدته في نفسه حوادثُ المساء، كان يتبدّد مفسحًا المجال لإحساس شبيه بتلك الرّاحة التي نعرفها قبيل النّوم. كان يبدو أنّ جسده قد حازَ خفّةً لا مادّية، وعقله استنار بطريقةٍ لم يعرف لها من قبل مثيلًا، بدا له أنّ قدرات حواسّه قد تضاعفت؛ وما انفكّ الأفق أمامه يتّسعُ، غير أنّه لم يكن ذلك الأفق المظلم الذي تغشاه موجة رعب، الأفق الذي كان قد رآه قبل أن يأخذه النّومُ، وإنّما أفقًا أزرق، شفيفًا، شاسعًا، يضاهي المحيطَ زُرقةً والشّمسَ بريقًا والنّسيمَ أريجًا؛ ثمّ وسط بحّارتِه، وأغانيهم الصّافية العذبة التي كان بالإمكان أن تصير لحنًا إلهيًا لو قُدِّرَ لها أن تقيَّدَ، رأى جزيرة مونت كريستو تبرز، ليس

كعقبةٍ متوعّدةٍ بين الأمواج، وإنّما كواحة ضائعة في الصّحراء؛ ثمّ، بقدر ما كان المركب يقترب، بقدر ما كانت الأغاني تزداد كثرةً، نغمٌ ساحرٌ وعجيبٌ يتصاعد من تلك الجزيرة الإلهية، وكأنّما جنيّةٌ مثل لورلي، أو ساحرٌ مثل أمفيون يريد أن يستدرج إليها روحًا أو يقيم فيها مدينةً.

أخيرًا، لامس المركبُ الضّفّة، لكن من دون أيّ جهدٍ، من دون أيّ اهتزازٍ، لامسها ملامسة الشّفاهِ الشّفاهَ، ودلف إلى المغارة من دون أن تتوقّفَ الموسيقى الفاتنة. نزلَ، أو بالأحرى هُيِّئَ إليه أنّه ينزل، بضع درجاتٍ، مستنشقًا هواءً منعشًا يضوع كالهواء الذي قد يحوط مغارة سيرسيه[1]، هواءً مضمّخًا بالعطور التي تغرق الذّهن في الأحلام، جوًّا من الكثافة بحيث يلهبُ الحواسَ؛ ورأى كلّ ما كان قد رآه قبل نعاسِه، من السندباد، مضيفه الرّائع، إلى عليّ، الخادم الأخرس؛ ثمّ بدا أنّ كلّ شيء يمّحي ويختلط أمام عينيه، كأنّه آخر الظلال المنبعثة من مصباح سحريّ أُطفئَ، وألفى نفسَه في الحجرة حيث التماثيل، غارقًا في العتمةً إلا من نور مصباحٍ عتيقٍ وشاحبٍ يسهر وسط الظّلامِ على نعاسه ولذّته.

كانت التماثيلُ نفسها، الفائضة بالانحناءات والشّهوة والشّعر. التماثيل ذوات العيون المُغوية، والابتسامات الفاتنة، والشّعور الغزيرة. فريني، وكليوباترا، وميسالينا، تلك المحظيات العظيمات الثلاث: ثمّ وسط تلك الظّلال الداعرة يتسلّلُ، مثلَ شعاعٍ صافٍ، مثل ملاكٍ مسيحيّ يقتحم الأولمب، وجهٌ من الوجوه العفيفة، ظَلٌّ من الظّلال الهادئة، رؤيا من تلك الرؤى العذبة التي تبدو كأنّما تحجب جبهتها العذراء تحت كلّ ذلك الدّنس الرّخامي.

بدا له إذّاك أنّ النّساء-التماثيل الثلاث قد جمّعت حبّها لأجل رجلٍ واحد، وأنّ هذا الرّجل كان هوَ، وأنّهنّ يقتربن من السّرير حيث يحلمُ،

(1) السّاحرة التي مسخَت رفاق عوليس في الأوديسا.

بسيقان ضائعة في الأثواب البيضاء الطّويلة، وحنجرة عارية، وشعر يتماوج كلُجّةٍ، ووضعيةٍ من تلك الوضعيات التي تفتن الآلهة، ويكابدها القدّيسون، ونظرةٍ من تلك النّظرات الثابتة الحادّة الشّبيهة بنظرة الثعبان للطّائر؛ وأنّه يستسلم لنظراتهنّ المؤلمة كعناقٍ، والشهيّة كقبلة.

هُيّئ لفرانز أنّه يغمض عينيه، وأنّه عبر النّظرة الأخيرة التي ألقاها حوله، لمح التمثال الدّاعر يتحجّبُ بالكامل؛ ثمّ انغلقت عيناه عن أشياء الواقع، وانفتحت حواسه على الانطباعات المستحيلة.

إذّاك بدأت لذّةٌ لا تنقطع، وحبٌّ لا ينتهي، شبيهًا بما وُعدَ به الأولياء. فدبّت الحياة في تلك الأفواه الحجرية كلّها، وسرت الحرارة في الصّدور جميعها، حتّى إنّ فرانز الذي يجرّب الحشيش لأوّل مرّة، كان يجد هذا الحبّ أقرب إلى الألم، وهذه اللّذة أشبه بتعذيب، حين يحسّ فوق فمه المائل مرورَ شفاه التماثيل البضّة الباردة، كأنّها حلقات ثعبانٍ؛ لكن، كلّما حاولت ذراعاه صدّ هذا الحبِّ الغريب، غاصت حواسُه في فتنة الحلم الغامض، حتّى إنّه بعد صراعٍ كاد يأخذ نفسَه، استسلم وانتهى به المطافُ إلى السّقوط لاهثًا، مستهلَكًا من التّعب، مستنفَدًا من اللّذة، مغمورًا بقبلات عاشقاته الرّخاميات وغارقًا في فتنةِ الحلمِ المذهل.

32

اِستِفاقة

حين استفاقَ فرانز، بدت له أشياء العالم الخارجيّ كأنّها جزءٌ من حلمه؛ ظنَّ نفسه في ضريحٍ بالكاد تتسلّل إليه أشعّة الشّمس، كأنّها نظرةُ شفقة؛ بسط يده فشعر بملمس الحجر؛ استقام في جلسته فألفى نفسه راقدًا على عباءته فوق سريرٍ من الخلنج الجافّ، الشّديد النّعومة والقويّ الرّائحة.

لقد اختفت الرّؤى بأكملها، وكأنّما تلك التماثيل لم تكن إلا أشباحًا غادرت أضرحتها أثناء حلمه، ثمّ فرّت حين استفاقَ.

خطا خطواتٍ صوب النّقطة التي يأتي منها ضوء النّهار؛ وقد حلّ محلَّ إثارة المنام هدوء الواقع. ألفى نفسه في مغارة، فتقدّم صوب فتحتها، وعبر البابَ المقوّس لمح السّماء الزّرقاء والبحر اللازورديّ. كان الهواء والماء يتلألآن في أشعّة الصّباح؛ وعلى الشّاطئ كان النّوتيون جالسين يتحدّثون ويتضاحكون؛ وعلى بعد عشر خطواتٍ من البحر كان القارب يتهادى مربوطًا إلى مرساته.

استلذّ للحظاتٍ النّسيمَ العليل الذي كان يمرّ على جبينه؛ أنصت إلى الضّجيج الواهن الذي تحدثه الموجة وهي تزحف على الشاطئ تاركةً فوق الصّخور دانتيلا من الزّبد الأبيض كالفضّة؛ استسلم بلا تردّد، بلا تفكيرٍ، إلى الفتنة الإلهية التي يلقاها المرء في أشياء الطّبيعة، خاصّةً حين يكونُ خارجًا لتوّه من حلمٍ عجائبيّ؛ ثمّ شيئًا فشيئًا بدأت حياة العالم الخارجيّ الشّديدة الهدوءِ والصّفاء والعظَمة، تذكّره بلا معقولية ما رآه في منامه، وتحوّلت مشاهداته إلى مجرّد ذكريات.

يتذكّر وصوله إلى الجزيرة، ومقابلة رئيس مهرّبين، وقصرًا تحت الأرضِ مليئًا بالعجائب، وعشاءً رائعًا وملعقة حشيش.

غيرَ أنّه، إزاء هذا الواقع السّاطع، بدا له أنّ سنةً على الأقل تفصل بينه وبين كلّ تلك الأشياء، لفرط ما كان الحلم في ذهنه ونفسه قويًا. وكان خيالُه يستحضر بين الفينة والأخرى أحد تلك الظّلال التي أضاءت بقبُلاتها ليلَه، فيجلسُها بين النّوتية، أو يعبر بها صخرةً، أو يؤرجحُها في المركب. عدا ذلك، كان باله خلِيًا وجسمه مرتاحًا: لا شيء يثقل ذهنَه، وإنّما بالعكس، تغمره راحةٌ شاملةٌ وقدرةٌ على امتصاص الهواء والشّمس أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

فكان أن اقتربَ من النّوتيين مرِحًا. وما إن أبصروه، حتّى قاموا من مجلسهم، واقترب منه القائد قائلًا:

– لقد أوصانا السيّد السّندباد بأن نبلّغك يا صاحب السّعادة تحيّاته، واعتذاره عن عدم تمكّنه من توديعكم؛ لكنّه يأمل أن تعذره حين تعلم أنّ أمرًا جللًا استدعى حضورَه في مالقة.

قال فرانز: – آه! ما وقع إذًا كان حقيقةً يا عزيزي غايتانو: – صحيحٌ إذًا أنّه كان ثمّة رجلٌ استقبلني في هذه الجزيرة، ومنحني استضافةً ملوكية، ورحل أثناء نومي؟

– صحيحٌ جدًا، حتّى إنّ يخته أمامك هناك يمخر عباب البحر بأقصى سرعة، وإذا ما حملت منظارك، فسترى على الأرجح مضيفك وسط طاقمه.

قائلًا كلماته تلك، أشار غايتانو بذراعه شطر سفينةٍ تسير في اتّجاه جنوب كورسيكا.

أخرج فرانز منظارَه، ووضعه على مستوى نظره، ثمّ وجّهه نحو النّقطة المشار إليها.

لم يكن غايتانو مخطئًا. على كوثل السّفينة، كان يقف الرّجل الغامضُ، مستديرًا إلى الجانب، وممسكًا في يده منظارًا مثل فرانز؛ لم

يكن يرتدي سوى الثوب الذي استقبل فيه ضيفه في اللّيلة السّابقة، وكان يحرّك منديله إشارةَ وداعٍ. وقد ردّ فرانز على الوداع بمثله، فحرّك هو أيضًا منديله.

بعد لحظةٍ، ارتسمت عند مؤخّر السّفينة سحابةُ دخانٍ خفيفة، ثمّ ما لبثت أن انفصلت عن المركب ومضت ترتفع بطيئةً صوب السّماء؛ ثمّ تناهى حتّى سمع فرانز دويٌّ واهنٌ، فقال غايتانو:

- هاك! هوَذا يقول لك: - وداعًا!

تناول الشّابُ قربينَته وأفرغ ذخيرتَها في الجوّ، بلا أملٍ في أن يعبر الدويّ المسافة الفاصلةَ بينَ الجزيرة وبين اليخت.

قال غايتانو:

- بمَ تأمرُ يا صاحب السّعادة؟

- أوّلًا، أن توقد لي مشعلًا.

أجاب القائد: - آه! أجل، أفهم! تريد أن تبحث عن مدخل البيت المسحور. بكلّ سرورٍ يا صاحب السّعادة، إن كانت تلك رغبتك. سوف أعطيك المشعلَ الذي طلبتَه. أنا أيضًا سبق أن تلبّستني الفكرة التي تتلبّسك الآن، وقد لاحقت خيالاتي ثلاث مرّاتٍ أو أربعًا، قبل أن أستسلم وأتخلّى عنها. (ثمّ أضاف موجّهًا الكلام إلى أحد رجاله): «جوفاني! أوقد مشعلًا وهاته لصاحب السّعادة».

أطاع جوفاني الأمر. أخذ فرانز المشعل ونزل إلى القبو، وفي إثره غايتانو.

تعرّف على الموضع الذي كان قد استيقظ فيه من نبات الخلنج الذي لا يزالُ متكسّرًا؛ لكنّه عبثًا أجالَ مشعله على مساحة القبو كلّها، ولم يجد شيئًا اللهمّ إلّا آثار دخان من حاولوا التّنقيب قبله بلا جدوى.

غير أنّه لم يترك شبرًا من الجدار الصوّان المنيع كالمستقبل، إلا وفحصه؛ فما من شقٍّ إلا وأعملَ فيه سكّينَه؛ وما من موضع بدا له

متزحزحًا إلا وضغط عليه آملًا في أن ينصاع لضغطه؛ لكنّ كلّ ذلك كان عبثًا، وأهدر بلا نتيجةٍ ساعتين في التّنقيب.

بعد ذلك الوقت المهدور استسلم؛ انتصرَ غايتانو.

وعندما عاد فرانز إلى الشّاطئ، لم يكن اليخت يظهر إلا كنقطةٍ بيضاء في الأفق، تناول منظاره، لكن حتّى بواسطة تلك الوسيلة ما كان بوسعه أن يتبيّن شيئًا.

ذكّره غايتانو بأنّه إنّما قدم إلى الجزيرة ليصيد الماعز، وهو الأمر الذي كان قد نسيه تمامًا. حمل بندقيّته وانطلق يجوب الجزيرة بهيئة الرّجل الذي يؤدّي واجبًا أكثر منها هيئة الرّجل الذي يستمتع، وما كاد يمضي ربع ساعةٍ حتّى كان قد أردى عنزةً ووعلين. غير أنّ تلك العنزات، وإن كانت بريّةً وحذرة كظباء الشّمواه، إلا أنّها كانت تشبه عظيم الشّبه ماعزنا المستألفَ، فلم ينظر لها فرانز باعتبارها طرائد. ثمّ إنّ أفكارًا أخرى، أفكارًا أهمّ وأقوى، كانت تستبدّ بذهنه.

منذ اللّيلة الماضية كان فعليًا بطلَ حكايةٍ من حكايات **ألف ليلةٍ وليلة**، ورغمًا عنه عادَ إلى المغارة.

ورغم أنّ محاولته التنقيبية الأولى كانت بلا فائدة، إلا أنّه انطلق في محاولة ثانية، بعدما طلب من غايتانو أن يشوي أحد الوعلين. وقد دامت المحاولة الثانية طويلًا بما يكفي، إذ لمّا عاد كان الوعل قد نضج، والغداء صار جاهزًا.

جلس فرانز في الموضع نفسه حيث كان يجلس يوم أمس حين أرسل إليه الرّجل الغامض يستضيفه، ولمح، مثل نورسٍ يتهادى على قمّة موجةٍ، اليختَ الصّغير يشقّ طريقه صوبَ كورسيكا.

قال لغايتانو: - قُلت لي إنّ السيّد السّندباد متّجهٌ إلى مالقة، لكن يبدو أنّه يتّجه رأسًا إلى بورتوفيكيو.

أجابه القائدُ: - ألم أقل لك إنّ بين طاقمه قاطعي طريقٍ كورسيكيَّيْن؟

- بلى، هو ذاهبٌ إذًا لينزلهما على السّاحل؟

صاح غايتانو: - نعم! إنّه رجلٌ لا يخشى الربّ ولا الشّيطان، كما يُقال، رجلٌ يستطيع أن يغيّر مسار رحلته بمقدار خمسين ميلًا كي يقدّم العون لمسكين.

- لكنّ مثل هذا العون قد يكلّفُه مشاكل مع سلطات البلاد التي يرسو فيها.

قال غايتانو ضاحكًا: - وماذا بعد؟ فيمَ تهمّه السُّلطاتُ هو؟ إنّه لا يقيم لها وزنًا! ليحاولوا ملاحقته إن شاؤوا. أوّلًا، يخته ليس سفينةً وإنّما طائرٌ، يتفوّق على سرعة الفرقاطة بمقدارِ ربع عقدة؛ ثمّ ما عليه إلّا أن يلقي بنفسه على السّاحل، أوَتظنُّ أنّه لن يجدَ أصدقاءَ حيثُما حلَّ؟

ما كان يستشفُّ من كلام غايتانو هو أنّ السيّد السّندباد ينعم بحظّ مصادقة جميع المهرّبين وقطّاع الطّرق في ساحل المتوسّط؛ مما يمنحه وضعيةً غريبة.

أمّا فرانز فما عاد هناك ما يستبقيه في مونت كريستو، بعدما فقد كلّ أملٍ في إيجاد مدخل المغارة، فاستعجل الغداء آمرًا رجالَه أن يحضّروا المركب لينطلقوا حالما يفرغ من طعامه.

وبعد نصف ساعةٍ كان على متن مركبه. ألقى نظرةً أخيرةً على اليخت الذي كان على وشك الاختفاء في خليج بورتوفيكيو. أعطى إشارة الانطلاق.

وفي اللّحظة التي انطلق فيها المركبُ، اختفى اليختُ. ومع اختفائه امّحت آخر صورةٍ تشهد بواقعية ما جرى ليلة أمس: كذا صار العشاء، والسندباد، والحشيش، والتماثيل، تنصهر جميعًا في حلم واحدٍ.

سار المركبُ النّهار واللّيل بأكملهما؛ وفي اليوم التالي، عندما أشرقت الشّمس، كانت جزيرة مونت كريستو هي ما اختفى هذه المرّة.

وما إن حطّت قدمُ فرانز على الأرض، حتّى نسيَ، مؤقّتًا على الأقلّ،

الحوادث التي عاشها مؤخّرًا، وما عاد يفكّر إلا في إتمام ملذّاته وأشغاله بفلورنسا، والالتحاق برفيقه الذي ينتظره في روما. فانطلق إذًا مساءَ السّبت، ووصل إلى ساحة الجمارك عبر عربة المراسلة.

كان مكان الإقامة، كما أسلفنا، قد حُجز مسبقًا، وما على فرانز إلا أن يقصد فندق المايسترو باستريني؛ غير أنّ ذلك لم يكن بالأمر الهيّن، إذ كانت الشّوارع تغصّ بحشد الزائرين، وروما تغلي بتلك الجلبة التي تسبق عادة الحوادث الكبرى.

والحالُ أنّ روما تشهد سنويًا أربعة حوادث كبرى: الكرنفال، والأسبوع المقدّس، وعيد الربّ، وعيد القدّيس بطرس. وبقيّة السّنة تسقط المدينة في خمولها الكئيب، في حالٍ وسطى ما بين الحياة والموت، تجعلها أشبه بمحطّةٍ بين هذا العالم والعالم الآخر؛ محطّة فاتنة، موقف شاعريّ ومميّز، سبق لفرانز أن توقّف فيه خمس مرّاتٍ أو ستًّا، وفي كلّ مرّةٍ يجد المدينة أروع وأعجب من ذي قبل.

أخيرًا تمكّن من أن يخترق الحشد الذي ما انفكّ يزداد كثافة وغليانًا، وأن يبلغ الفندق. وما كاد يسألُ حتّى أُجيبَ بالجواب المعتاد من سُوَّاق عربات الأجرة المحجوزة ومديري الأنزال الممتلئة: - لا مكان شاغرًا في فندق لندن. إذّاك أرسل بطاقته إلى المايسترو باستريني، وذكر اسمَ ألبير دو مورسيرف. نجحت وسيلتُه، إذ هرع المايسترو باستريني بنفسه إليه، معتذرًا عن الانتظار الذي اضطرّ إليه صاحبَ السّعادة، وموبّخًا خدمه، ومستلمًا المشعل من يد الدّليل الذي كان قد تولّى المسافرَ ويستعدُّ لأن يقوده عند ألبير، وإذا بألبير يأتي بنفسه لاستقباله.

كان الجناح المحجوز يتألّف من غرفتين صغيرتين ومكتب. والغرفتان معًا تطلّان على الشّارع، وهي خاصّيّة امتدحها المايسترو باستريني باعتبارها ميزةً كبيرة. أمّا بقيّة الطّابق، فقد استأجره شخصٌ

فاحش الثراء، يُظنُّ أنَّه صقيليّ أو مالطيّ؛ ولا يستطيع الفندقيُّ أن يحدّد بالضّبط بين الجنسيّتين انتماءَ المسافر.

قال فرانز: - ممتاز يا مايسترو باستريني، لكن يلزمني فورًا عشاءٌ كيفما كان، وعربةٌ للغد والأيام التي تليه.

قال الفندقيُّ: - أمّا العشاء، فسيقدّمُ لكما حالًا؛ وأمّا العربة...

صاح ألبير: - كيف! وأمّا العربة! لحظة، لحظة، لا تمازحنا يا مايسترو باستريني! تلزمنا عربة.

قال الفندقيّ: - سنفعل كلّ ما في وسعنا لنحصل لكما على عربة يا سيّدي، هذا كلّ ما أستطيع أن أقوله.

سأله فرانز: - ومتى نعرف الجوابَ؟

- غدًا صباحًا.

قال ألبير: - اللّعنة! سندفع سعرًا أعلى، وهذا كلّ ما في الأمر؛ نعلم كيف هي الأسعار، عند دريك أو آرون: خمسة وعشرون فرنكًا في الأيام العادية، وثلاثون أو خمسة وثلاثون أيّام الآحاد والأعياد؛ أضف قيمة السّمسرة: خمسة فرنكاتٍ لليوم الواحد، ممّا يجعلها أربعين فرنكًا في اليوم، ولنطوي هذه الصّفحة.

- أخشى أنّ سيّديَّ لن يتمكّنا من الحصول على عربةٍ حتّى وإن دفعا ضعف السّعر.

- لتُربط إذًا جيادٌ إلى عربتي؛ لقد أفسدها السّفر قليلًا، لكن لا بأس.

- لن نجد خيولًا.

إذّاك نظر ألبير إلى فرانز الذي كان موجّهًا إليه الجوابُ الذي عجز عن فهمه.

- أفهمتَ هذا يا فرانز! يقول إنّ لا خيول؛ لكن ألا نستطيع أن نستأجر خيولَ البريد؟

- لقد استُؤجرت كلّها منذ خمسة عشر يومًا، ولم يبقَ منها إلا حصانان ضروريان للخدمة.

سأل فرانز صديقه: - ما قولك في هذا؟

- أقول إنّي حين أواجه ما يتجاوز إدراكي، لا أقف عنده طويلًا، وأمرّ إلى شيءٍ آخر. هل العشاء جاهزٌ يا مايسترو باستريني؟

- أجل، يا صاحب السّعادة.

- حسنًا، لنتعشَّ أوّلًا.

قال فرانز: - لكن، ماذا عن العربة والخيل؟

- لا تقلق يا صاحبي، ستأتي لوحدها؛ يكفي أن نضع السّعر المناسب.

مورسيرف، بفلسفته العجيبة التي تجعله مؤمنًا بأنّ لا شيء مستحيلًا ما دامت محفظة النّقود مليئةً، تعشّى وخلد إلى سريره، ونام ملءَ جفونه، وحلم بأنّه يجوب الكارنفال بعربةٍ تجرّها ستّة خيولٍ.

33

عصابة الرّومانيّين[1]

في اليوم التالي، كان فرانز أوّل المستيقظين، وما إن استفاق حتّى قرع الجرسَ. وقبل أن يكمل الجرسُ اهتزازه، تقدّم لخدمته المايسترو باستريني بنفسه.

بادر المضيفُ إلى القول بنبرة المنتصر، قبل حتّى أن يسأله فرانز:

- حسنًا، لقد كنتُ محقًّا في كلامي أمس يا صاحب السّعادة، حين قلت لكم إنّني لا أستطيع أن أعدكم بشيء. منذ ثلاثة أيامٍ لم تبقَ عربةٌ واحدة شاغرة في روما بأكملها.

استأنف فرانز: - أجل، لمن هم في أمسّ الحاجة إليها.

وإذّاك دخل ألبير، وقال متسائلًا: - ماذا هناك؟ لا وجود لعربة؟

أجابه فرنز: - أجل يا صديقي العزيز، لقد حزرتَ من أوّل وهلة.

- إذًا، ما أروعها من مدينةٍ مدينتكم الخالدة هذه!

أجاب المايسترو باستريني محاولًا حفظَ مكانة عاصمةِ المسيحيّةِ في عيون زائرَيه: الحقّ، أنّه لا إمكان للحصول على عربة من صباح يوم الأحد وحتّى مساء يومِ الثلاثاء، لكن حتّى ذلك اليوم، قد تستطيع الحصول على خمسين عربةً لو شئت.

قال ألبير: - لا بأس بذلك؛ اليومَ الخميسُ، وحتّى يوم الأحد من يدري ما قد تأتي به الأيامُ؟

قال فرانز: - ستأتي بنحو اثني عشر ألف زائرٍ، يعقّدون الوضع أكثر.

---

(1) نسبة إلى مدينة روما.

قال مورسيرف: - لنغنم من الحاضر يا صديقي، ولا نُظلِم المستقبلَ.
سألَ فرانزُ: - هل سنحظى بنافذةٍ على الأقلّ؟
- نافذة تطلّ على ماذا؟
- على شارع السّاحة طبعًا!
أجابه المايسترو باستريني: - آه! نعم، نافذة! مستحيل، مستحيلٌ قطعًا! كانت قد بقيت نافذة واحدة في الطّابق الخامس من قصر دوريا، واكتراها أميرٌ روسيّ مقابل عشرين ترترة[1] في اليوم.
ظلّ الرّجلان يتبدلان النّظر ذاهلين، ثمّ قال فرانز مخاطبًا ألبير:
- حسنًا يا صديقي، هل تدري أفضل ما يمكن أن نفعله؟ أن نذهب لنحضر الكرنفال في البندقية، فهناك على الأقلّ، حتّى وإن لم نجد عرباتٍ سنركبُ الجندول.
صاح ألبير: - آه! كلّا، بربّك! لقد قرّرتُ أن أحضر كرنفال روما، وسأحضره ولو على عكّازَيْن.
صاح فرانز: - يالها من فكرةٍ عبقرية، خاصّة إن أردنا بلوغ الموكّولوتي[2]، فلنتخفّى في ثوب بولتشينيلا-مصّاص دماء[3]، أو بعض سكّان لاند (فرنسا)، وسنحرز نجاحًا منقطع النّظير.
- هل ترغبان يا صاحبَي السّعادة بعربةٍ حتّى الأحد؟
- طبعًا! هل تحسب أنّنا سنجوب شوارع روما على قدمَينا، كأنّنا كتَبَةُ حُجّابِ المحكمة؟
قالَ المايسترو باستريني: - سأعجّل بتنفيذ طلبِ صاحبَي السّعادة، غير أنّي أنبهكما أنّ العربة ستكلّفكما ستّة بياستراتٍ في اليوم.

---

(1) الواحدة من ترتر، وهو من الخرز الثمين.
(2) أثناء كرنفال روما كان احتفال الموكولوتي (الشّموع العطرة) ركنًا أساسيًا.
(3) -البولتشينيلا: إحدى شخصيات الكوميديا الإيطالية المرتجلة، وأصلها من المسرح النابوليتاني.

قال فرانز: - أمّا أنا، يا عزيزي السيّد باستريني، الذي لست مثل جارك المليونير، فأقول لك إنّه بالنّظر إلى كونها رابعَ مرّةٍ أزور فيها روما، فإنّي أعرفُ سعر العربات، في الأيّام العادية كما في أيّام الآحاد والأعياد. سنعطيك اثني عشر بياسترا مقابل اليوم وغدًا وبعد غد، وستكون قد حقّقت ربحًا لا بأس به.

قال المايسترو باستريني محاولًا الاعتراض: - لكن، يا صاحب السّعادة!

فقاطعه فرانز: - هيا يا مضيفنا العزيز، سأقدّم لك عرضًا يساوي ما طلبتَه، فهذا صديقٌ قديمٌ لطالما سرقَ منّي النّقودَ، ويسعى هذه المرّة أيضًا إلى أن يستلب منّي بعضًا منها بإعطائك مبلغًا أقلّ من الذي أقترحه عليك. أحذّرك: ستخسر الفرق بخطئك.

قال المايسترو باستريني بنبرة خطيبٍ إيطاليّ أقرّ بهزميته:

- لا تتعب نفسك يا صاحب السّعادة، سأبذل قصارى جهدي، وآملُ أن تنالَ ما يرضيكَ.

- رائع! هذا ما أسّميه قولًا وفعلًا.

- متى تريدان عربتكما؟

- بعد ساعة.

- خلال ساعةٍ ستكون عربةٌ بانتظاركما أمام الباب.

وبعد ساعةٍ بالفعل، كانت العربةُ تنتظر الشّابّين: - كانت مجرّد عربة نقلٍ بسيطةٍ، رفعتها الملابساتُ الرّاهنةُ إلى مصافِ العربات الفخمة؛ لكنْ، على ما بها من بساطةٍ سعدَ الشّابانِ أن وجدا مركبةً مماثلة يتجوّلان بها في الأيام الثلاثة المقبلة.

صاح الدّليلُ حين رأى فرانز يطلُّ بأنفه من النّافذة:

- يا صاحب السّعادة، هل أقرّبُ الكاروسة[1] من القصر؟

وعلى الرّغم من أنّ فرانز كان معتادًا على المبالغة الإيطالية، إلا أنّ ردَّ فعله الأوّلَ كان أن نظر حواليه، وتأكّد أنّ الرّجل بالفعل يقصده هو؛ كان فرانز هو صاحب السّعادة، والعربة البسيطة هي الكاروسة، وفندق لندن هو القصر. جملةٌ واحدة حملت كلّ عبقريّة التقريظ التي تميّز هذه الأمّة.

نزل فرانز وألبير. اقتربت الكاروسة من القصر. مدّ صاحبا السّعادة أقدامهما على المقاعد، وقفز الدّليل إلى الكرسيّ الخلفيّ.

- إلى أين يودّ صاحبا السّعادة أن نقودهما؟

قال ألبير كباريسيٍّ حقٍّ: - إلى كاتدرائية القديس بطرس بدءًا، ثمّ بعدها إلى الكولوسيوم.

غير أنّ ما لم يكن ألبير يعرفه هو أنّه يلزم يوم كاملٌ لرؤية كاتدرائيّة القديس بطرس، وشهرٌ بأكمله لدراستها. وبالتّالي انقضى النّهار في الكاتدرائيّة. وفجأة انتبه الصّديقان إلى أنّ الشّمس تميل جهة المغرب.

أخرج فرانز ساعته من جيبه، وكان عقرباها يشيران إلى الرّابعة والنّصف. فاتّخذوا طريقَ الفندق من فورهم. ولما بلغوا بابَه أمرَ فرانز الحوذي بأن يكون جاهزًا في تمام الثّامنة. إذ كان يريد أن يُري ألبيرَ الكولوسيوم في ضوء القمر، مثلما كان قد أراه كاتدرائيّة القدّيس بطرس في وضح النّهار. فعندما نُري صديقًا مدينةً سبق أن زرناها، نتصرّفُ مثل رجلٍ يشير إلى امرأةٍ كان عشيقًا لها من قبل.

وكان أن رسم فرانز للحوذيّ مسارَه: ينبغي أن يخرج من باب دِل بوبّولو، ويسير محاذيًا الجدار الخارجيّ ثمّ يدخل من باب سان جوفاني. فيظهر لهم الكولوسيوم من دون أيّ مقدّماتٍ، ومن دون أن تظهر على طريقه هضبة كابيتولين، والمنتدى، وقوس النّصر الرّوماني، وضريح أنطونيوس وفوستينا، فيَصغُر بسببها قدْرَه.

---

(1) تعريب لـ carrosse،وهي عربةٌ فخمةٌ تجرّها الأحصنة.

جلسوا إلى المائدة. كان المايسترو باسترينى قد وعد ضيفيه بوليمةٍ باذخة، وقدّم لهما عشاءً لا بأسَ به. ما كان ثمّة ما يعيبه.

وعند نهاية العشاء، دخل بنفسه. ظنّ فرانز بدايةً أنّ الرّجل أتى يسمع الثّناءَ، فتهيّأ لأن يُثني عليه، لكن ما كاد ينطق بأولى كلماته حتّى قاطعه:

- إنّي ليسعدُني ثناؤك يا صاحب السّعادة، لكنّ سماعه ليس هو الغرض من صعودي...

قال ألبير وهو يشعل سيجارةُ: - هل أتيت تخبرنا أنّك وجدتَ لنا عربةً؟

- ليس هذا. لا، بل يجدر بك يا صاحب السّعادة أن تضرب صفحًا عن هذا الأمر، وأن تقنع بما أوتيت. ففي روما إمّا تكون الأشياء ممكنةً أو لا تكون. حين قلنا لك إنّ الأمر غير ممكن، انتهى الكلامُ.

- إنّ الأمور في باريس أيسر. حين يقال لك إنّ الأمر غير ممكن تدفع ضعفَ سعره، وتحصل عليه في الحال.

قال المايسترو باسترينى وقد وخزه قليلًا كلامُ ألبير:

- إنّي لأسمع هذا الكلام من جميع الفرنسيّين، لستُ أفهم إذًا كيف يسافرون.

قال ألبير نافثًا ببرودٍ دخان سيجاره إلى السّقف، ومنقلبًا إلى الوراء على قائمتي مقعده الخلفيّتين: - على أنّ الحمقى والسّذج من أمثالنا، هم من يسافرون؛ أمّا العقلاء فلا يغادرون مساكنهم بشارع هيلدر، وشارع غان، ومقهى باريس.

وغنيٌّ عن القول إنّ ألبير كان يسكن في الشّارع المذكور أعلاه، وكان يقوم يوميًا بنزهاتٍ على الموضة، ويتعشّى كلّ مساءٍ في المطعم الوحيد الذي يتعشّى فيه المرء حين يكون على علاقةٍ جيّدة بالنُّدل.

ظلّ المايسترو باسترينى صامتًا لحظةً، وكان بيّنًا أنّه يتأمّلُ الجوابَ الذي لم يبدُ له قطعًا واضحًا وجليًا.

ثمّ قال فرانز بدوره قاطعًا تأمّلات مضيفه الجغرافية:
- لقد أتيتَ لغرض بعينه يا سيّدي، فهلاّ بيّنتَه لنا؟
- آه! أجل. هل طلبتما العربة للسّاعة الثامنة؟
- تمامًا.
- هل تنويان زيارة الكولوسيوم؟
- تقصد الكوليسيه[1]؟
- هما الشّيءُ نفسه.
- نعم.
- وهل طلبتما من الحوذي أن يخرج من باب بوبولو، ويسير بمحاذاة محيط الجدرانِ، ثمّ يدخل من باب سان جوفاني؟
- كذلك قلتُ.
- حسنًا، إنّ هذا المسار غير ممكن.
- غير ممكن!
- أو على الأقلّ، خطيرٌ جدًا!
- خطير! لماذا؟
- بسبب لويجي فامبا الشّهير.
سأله ألبير: - أوّلًا، يا مضيفَنا العزيز، من هو المدعو لويجي فامبا الشّهير هذا؟ قد يكون معروفًا في روما؛ لكن أؤكّد لك أنّه مجهولٌ في باريس.
- كيف! ألا تعرفونه؟
- لم يحصل لي الشّرف.
- ألم يسبق أن سمعت بهذا الاسم؟
- البتّة.

(1) من البيّن أنّ كلاً منهما ينطق الكولوسيّوم بلغته (الإيطالية/ الفرنسية).

- إنه رجل عصاباتٍ، يبدو آل ديسيراريس وآل غاسباروني مقارنةً به مجرّد أطفالٍ.

صاح فرانز: - حذار، يا ألبير! هوذا أخيرًا رجلُ عصاباتٍ بحقّ!

- أعلمك بداية يا مضيفي العزيز بأنّني لن أصدّق حرفًا ممّا ستقوله. وإذ بيّنتُ لك هذه النّقطة، أستطيع الآن أن أدعوك إلى أن تبدأ حكيك، هيّا ابدأ «كان ياما كان...» هيّا، تفضّل!

استدار المايسترو باستريني شطر فرانز الذي بدا له الأعقلَ. وينبغي أن نوفيَ الرّجل الشّهمَ حقّه. لطالما آوى في فندقه فرنسيّين، لكنّه أبدًا لم يستطع فهم بعض الجوانب من ذهنيّتهم.

قال بصوتٍ حادٍّ جدًا، موجّهًا الكلام إلى فرانز كما أسلفنا:

- يا صاحب السّعادة، إن كنت تنظر إليّ نظرتَك إلى كذّابٍ، فلا فائدة في أن أقول لك ما اعتزمتُ قوله؛ ما أستطيع أن أؤكّده لكَ هو أنّه في مصلحتيكما يا صاحبَي السّعادة.

أجاب فرانز: - إنّ ألبير لا يصفكَ بالكذّاب، وإنّما يقول إنّه لن يصدّقك، وهذا كلّ ما في الأمر. أمّا أنا فسأصدّقك، اطمئنَّ وتكلّم.

- لكنّك تدرك يا صاحب السّعادة أنّه يضع مصداقيتي موضع شكّ...

قاطعه فرانز: - عزيزي، إنّك أيسر تأثّرًا من كاساندرا التي كانت نبيّةً، ومع ذلك لم يصدّقها أحد؛ أمّا أنت فعلى الأقلّ متيقّنٌ من أنّ نصف سامِعيك يصدّقونَك. هيّا، اجلس وأخبرني عن أمرِ هذا السيّد المدعو فامبا.

- لقد قلت لك يا صاحب السّعادة، إنّه رجل عصاباتٍ لم نشهد له مثيلًا منذ ماستريّا الشّهير.

- طيب، ما علاقة رجل العصابات هذا بالأمر الذي أصدرته إلى حوذيَّ بأن يخرج من باب بوبّولو ويدخل عبر باب سان جيوفانّي؟

- بينهما وثيقُ الصّلة يا سيّدي، أظنُّ أنّكم تستطيعون الخروج من الباب الأوّل، لكنّكم لن تدخلوا من الثاني.

سأله فرانز: - لم؟

- لأنّه ما إن يحلّ اللّيل حتّى ينعدم الأمان على بعد خمسين مترًا من الأبواب.

صاح ألبير: - بشرفك؟

قال مايسترو باستريني وهو لا يزال متألّمًا من تشكيك ألبير في صدقه:

- سيّدي الفيكونت، إنّ ما أقوله ليس موجّهًا إليك وإنّما إلى رفيق سفرك الذي يعرف روما، ويعلم أنّ لا مزاح في هذه الأمور.

قال ألبير لفرانز: - عزيزي، ها مغامرةٌ جاهزةٌ تنتظرنا. لنملأ عربتنا بالمسدّسات والترومبلونات(1) والبنادق المزدوجة. وحين يأتي لويجي فامبا ليعتقلنا، نعتقله. ونقتاده إلى روما؛ ونقدّمه إلى قداسة البابا، وحين يسألنا عمّا يمكن أن يقدّمه لنا نظير خدمتنا الجليلة، نطلب ببساطةٍ عربةً بحصانين ممّا في حظائره، وهكذا نحضر الكرنفال في عربة؛ هذا من دون ذكر العرفان الذي سيخصّنا به سكّان روما، فيكلّلوننا في الكابيتولين، مثلما كلّلوا من قبل كورتيوس وهوراتيوس كوكليس ، منقذيّ الوطن.

وبينما ألبير ماضٍ في تدليله، كان يرتسم على وجه المايسترو باستريني تعبيرٌ متعذّر الوصف.

سأل فرانز صديقَه: - ومن أين لك بالمسدّسات والترومبلونات والبنادق المزدوجة التي ستملأ بها عربتك؟

- ليس قطعًا بين ذخيرتي، ذاك أنّهم في تيراتشينا قد جرّدوني من أسلحتي كلّها، حتّى الخنجر؛ وأنت؟

- أنا، فعلوا بي الشّيء نفسَه في أكوا-بندنتي.

قال ألبير وهو يشعل سيجاره الثاني: - آه! يا مضيفي العزيز، هل تعلم أنّ هذه التّدابير توافق هوى اللّصوص، ويبدو لي أنّها تقوم بدلًا منهم بنصف عملهم؟

---

(1) سلاح ناريٌّ، بين المسدّس والبندقية.

لا شكّ في أنّ المايسترو باستريني قد استثقل المزحةَ، إذ لم يُجب إلا نصف إجابةٍ، موجّهًا الكلام إلى فرانز، باعتباره العاقل الوحيد الذي يمكن أن يتفاهم معه.

- صاحبُ السّعادة يعلم أنّ ليس من العادة أن يدافع المرء عن نفسه حين يهاجمه قطّاع الطّرق.

صاح ألبير وشجاعته تتمرّد ضدّ فكرة الاستسلام من دون مقاومةٍ:

- كيف! ماذا تقصد بجرت العادة؟

- لأنّ كلّ دفاع هو بلا جدوى. ما العمل ضدّ دستة أشرارٍ يطلعون فجأة من حفرة أو كوخٍ أو خندقٍ، فينقَضّون عليك جماعة ويطرحونك أرضًا!

صاح ألبير: - اللعنة! سأقتل نفسي إذًا!

استدار الفندقيُّ شطر فرانز وعلى وجهه تعبير يقصد القول: - إنّ صديقك قطعًا مجنون!

استأنف فرانز الكلام: - عزيزي ألبير، إنّ جوابك مهيبٌ، ويضاهي قول كورنِي: «فليمُت![1]». غير أنّ هوراثيوس حين نطق عبارته تلك كان الأمر يتعلّق بخلاص روما، وكانت التضحية في محلّها. لكن بالنّسبة إلينا نحن، فلاحظ أنّنا نغامر بحياتنا إرضاءً لنزوةٍ تافهة.

صاح المايسترو باستريني: - بحق باخوس! هذا هو الكلام المعقول!

صبّ ألبير لنفسه كأسًا من نبيذ لاكريما كريستي، رشف منها رشفاتٍ صغيرة، مغمغمًا بكلام لا يبين.

استأنف فرانز الكلام: - حسنًا يا مايسترو باستريني، الآن وقد هدأ رفيقي، واطّلعتَ على نيّاتي المسالمة، لننظر من يكون لويجي فامبا هذا؟

---

(1) يقولها المؤلّف المسرحيُّ الفرنسيّ كورناي على لسان هوراثيوس.

أراعٍ هو أم أرستقراطيّ؟ شابٌّ أم شيخ؟ قصيرٌ أم طويل؟ صِفه لنا حتّى إن نحنُ لقيناهُ، مثلما وقع لجون سبوغار أو لارا[1]، عرفناهُ.

– لا أفضل منّي تسألُه عن لويجي فامبا يا صاحب السّعادة، لأنّني عرفتُه مُذ كان طفلًا؛ وذات يومٍ وقعتُ بين يديه، في طريقي من فيرّينتينو إلى ألاتري، فتذكّر عشرتنا القديمة وتركني أرحل، لا بل بالغ في إكرامي ولم يجعلني أدفع فديةَ إطلاق سراحي، وزادَ بأن أهداني ساعةً جميلةً بعدما حكى لي حكايته.

قال ألبير: – أرِنا السّاعةَ.

أخرج المايسترو باستريني من جيبِه ساعةً جميلةً ماركة بريغيه تحمل اسم صانعها، وطابع باريس وتاج الكونت.

قال: – ها هي ذي.

قال ألبير: – اللعنة! أهنّئك يا سيّدي، إنّ عندي واحدة مثلها تقريبًا –أخرج ساعته من جيب سترته– وقد كلّفتني ثلاثة آلاف فرنك.

قال فرانز وهو يسحب مقعدًا ويشيرإلى المايسترو باستريني أن يجلس: – ننتظرالحكايةَ الآن.

قال المضيف: – أتَسمحان يا صاحب السّعادة؟

قال ألبير: – طبعًا! أنت لست واعظًا يا عزيزي لتتكلّم واقفًا.

جلس الفندقيُّ، بعدما حيّا تحيّةَ احترامٍ كلاًّ من الرّجلين اللذين سيصيران مستمعيه، تحيّةً تشير إلى أنّه مستعدٌّ لأن يعطيهما ما يطلبانه من معلوماتٍ حول لويجي فامبا.

قال فرانز مقاطعًا المايسترو باستريني في اللّحظة التي كان سيفتح فيها فمه: – آه إذًا، تقول إنّك قد عرفت لويجي فامبا طفلًا؛ هو إذًا لا يزال شابًا؟

(1) يقصد على الأرجح شخصيّتين من شخصيات الكوميديا الإنسانية لبلزاك.

- وكيف! أظنُّ أنّه بالكاد يبلغ الثانية والعشرين! أوه! إنّه صنديدٌ سيمضي بعيدًا، كن على يقين من ذلك!

قال فرانز: - ما قولك في هذا يا ألبير؟ أليس جميلًا أن يحوز المرء مثل هذا الصّيت وهو لم يجاوز بعدُ الثانية والعشرين؟

- بلى، حتّى الإسكندر وقيصر ونابليون الذين ملأ صيتهم الدّنيا، لم يبلغوا في سنّه ما بلغه هو من شأن.

استأنف فرانز موجّهًا الكلامَ إلى مضيفه: - إذًا، البطلُ الذي سوف نسمع حكايته لا يتعدّى سنّه الثانية والعشرين.

- بالكاد بلغها كما أسلفتُ لحضرتكما.

- أطويلٌ هو أم قصير؟

- متوسّط القامة. تقريبًا بطول صاحب السّعادة (وأشار إلى ألبير).

فأجابه ألبير منحنيًا أمامه: - شكرًا على تشريفي بالمقارنة.

استأنف فرانز الكلامَ وهي يبتسم من فعل صاحبه: - هيّا يا مايسترو باستريني، إلى أيّ طبقة اجتماعية ينتمي؟

- لم يكن إلا راعيًا بسيطًا يشتغل في مزرعة الكونت سان فليتشي، الواقعة بين باليسترينا وبحيرة غابري. كان قد وُلد في بامينارا، والتحق في سنّ الخامسة بخدمة الكونت. أبوه، الذي كان بدوره راعيًا، كان يمتلك قطيعًا صغيرًا؛ ويعتاش ممّا يبيعه هنا في روما من صُوف خرفانه وحليب نعجاته.

«منذ طفولته المبكّرة كان فامبا يتمتّع بطبع غريب. ذات يوم، وهو في السّابعة من عمره، أتى إلى قسّ بالسترينا، ورجاه أن يعلّمه القرَاءة. وكان أمرًا صعبًا، إذ إنّ الرّاعي الصّغيرَ ما كان يستطيع أن يترك قطيعه. لكن الخوري الطيّب كان يذهب كلّ يوم لإلقاء الموعظة في قرية صغيرة أفقر من أن تستطيع دفع مستحقّاته، قريةٌ لا تملك حتّى اسمًا، وتُعرف بقرية دِل بُرغو. فتكرّم الخوري واقترح على لويجي بأن يتوقّف عنده في طريق

عودته، فيعطيه درسًا، مشدّدًا على أنّ الدّرس سيكون قصيرًا ويجدرُ به أن يغنم منه أقصى ما يستطيع.

قبِل الطّفلُ بفرح.

كلّ يومٍ، كان لويجي يقود قطيعه ليرعى على طريق بالستيرنا ببورغو؛ وكلّ يومٍ، في التّاسعة صباحًا، يمرُّ الخوري، فيجلس الطّفلُ والقسُّ عند حافة أخدودٍ، ويدرسُ الرّاعي الصّغير على يد الخوري.

ما كادت تنقضي ثلاثة أشهر حتّى صار يتقن القراءة. ولم يقف عند هذا الحدّ، صار يتوق إذّاك إلى تعلّم الكتابة. استعان القسّ بأستاذ خطّ في روما، كتبَ له ثلاثة نماذج أبجدية؛ واحدٌ بخطّ كبيرٍ، وآخر بخطّ متوسّط، وثالث بخطّ دقيق؛ وبيّن لصاحبنا أنّه إن حاكى نموذج الحروف على لوحةٍ، باستخدام آلة سيتعلّم الكتابة.

في المساء نفسه، وبعد أن أدخل القطيعَ إلى الحظيرة، أخذ الصّغيرُ فامبا مسمارًا كبيرًا، قدّه، وطرقه، وبراه، حتّى صيّره أشبه ما يكون بيراع بدائيّ. وفي اليوم التالي، جمع عددًا من الألواح وبدأ الشّغلَ. وما هي إلاّ ثلاثة أشهرٍ حتّى تعلّم الكتابة. ولدهشة الخوري من عمقِ ذكائه وتأثّره بتفانيه، أهداه دفاتر عدة، وحزمةًمن أرياشٍ، ومطواةً.

لقد حان وقت دراسة جديدة، لكنّها دراسة لا تشبه في شيءٍ سابقتها. ثمانية أيّام بعد ذلك، صار يتحكّم في الرّيشة كما يتحكّم في قلمه البدائيّ.

ثمّ قصَّ الخوري خبرَه على كونت سان فيليتشي، فأراد هذا أن يرى الرّاعي الصّغير، وجعلَه يكتب ويقرأ أمامَه، ثمّ أمر مدبّرَ بيته بأن يسمح للصّغير أن يأكل مع الخدم، وأن ينالَ أجرةً شهريةً قطعتَين من فئة البياسترا. وبتلك النّقود أمكن لويجي فامبا أن يشتري كتبًا وأقلامًا. والحالُ أنّه استطاع أن يطبّق على كلّ شيءٍ تلكَ المرونةَ في المحاكاة التي كانت تميّزهُ. ومثلما كان الفنان جيوتو يفعل طفلًا، انطلق صاحبنا يرسم على ألواحه نعجاته، والأشجارَ والمنازلَ. ثمّ، بحدّ مطواته، صار يحفرالخشبَ فيمنحه كلَّ الأشكالِ. وكذلك كان قد بدأ بينيللي، النّحاتُ الشّهير.

وكانت صبيّةٌ، في السّادسة أو السّابعة من عمرها، أيّ بالكاد أصغر من لويجي، ترعى نعجاتٍ في مزرعة قريبة من بالسترينا؛ وكانت يتيمة، وُلدت في فالمونتون، واسمُها تيريزا. فكان الطّفلان يلتقيان، فيجلسانِ جنبًا إلى جنب، ويتركان قطيعَيْهما يختلطان ويرعيان معًا، وينصرفان هما إلى الحديث والضّحك واللّعب؛ ولمّا يحلّ المساء، يفصلان خراف الكونت سان فيليتشي عن خراف البارون سيرفيتري، ويقصدُ كلّ من الطّفلين طريقَه متواعدَين على اللّقاء في الصّباح التّالي.

وغداة ذلك يوفيان الوعدَ؛ فكبرا وربيا جنبًا إلى جنب. بلغ فامبا الثانية عشرة من عمره، والصّغيرة تيريزا الحادية عشرة. وأثناء ذلك نمت غرائزهما الطبيعية.

وإلى جانب حسّه الفنيّ الذي هذّبَه لويجي فامبا قدرَ ما استطاعَ في عزلته، فقد كان يتقلّب ما بين الحزن والبهجة، والحماسة والقلق والغضب والهوى، وكان دائمَ السخرية. لم يستطع أحدٌ من فتيان بامبيرانا، أو بالسترينا، أو فالمونتون، أن يتحكّم فيه، أو حتّى يصير رفيقًا له. ذاك أنّ طبعه المبادرَ، واستعداده المتطلّبَ الذي لا يعرف التنازل، قد أبعد عنه كلّ بادرة صداقةٍ أو وِدّ. وحدها تيريزا كانت تتحكّم، بكلمةٍ منها فقط، في ذاك الطّبع العنيد الذي يصيرُ طيّعًا في يد امرأةٍ، وإن كان يتصلّب في يد رجل، أيّ رجلٍ كان، حتّى ليكاد ينكسر.

وعلى النّقيض منه، كانت تيريزا حيويّة ومتيقّظة ومرحة، لكن مفرطةً في الغنج؛ فكانت قطعتا البياسترا اللتان يتقاضاهما لويجي من عند مدبّر الكونت سان فيليتشي، مع القليل الذي يربحه الشّابُ من بيع منحوتاته إلى تجار الدّمى في روما؛ كان كلّ ذلك يُصرف على أقراط من لؤلؤ، وعقود من كريستالٍ، ومشدّات ذهب. وبفضل إسرافِ رفيقها في الكرم، كانت تريزيا أجملَ فلّاحات ضواحي روما، وأشدّهنّ تأنّقًا.

ظلّ الصبيّان يكبران، وهما يقضيان النّهارات معًا، مستسلمَين دونما

مقاومةٍ إلى غرائزهما الطبيعية البدائية. وفي أحاديثهما، وأمانيهما، وأحلامهما، كان فامبا يرى نفسه دائمًا قائدًا على سفينة، أو جنرالًا في جيش أو حاكمًا على إقليم؛ وترى تيريزا نفسها ثريّةً، ترتدي أجمل الفساتين وتتبعها خادماتٌ في ملابس خدم. ثمّ بعد أن يمضيا نهارهما في تطريز مستقبلهما بتلك الزخارف المجنونة البرّاقة، يفترقان ويسلك كلّ منهما طريقه معيدًا خرفانه إلى إسطبلها، فينزلان من علياء أحلامهما إلى مهانة وضعهما الحقيقي.

ذات يومٍ قال الرّاعي الشّابُ لمدبّر الكونت إنّه لمح ذئبًا يخرج من جبال سابينٍ ويحوم حول قطيعه. فأمر له المدبّر ببندقية: وذاك ما كان فامبا يريده. وصدفةً كانت تلك البندقية بندقيّة بريتشيّة ممتازةً، وتحمل الرّصاصات نفسها التي تحملها قربينةٌ إنجليزيّة؛ غير أنّه في ذات يوم، بينما الكونت يحاول القضاء على ثعلبٍ مصاب، كسرَ عقبها، فألقوا بها إلى المهمَلات. ولم يكن ما بها من كسرٍ ليعيق نحاتًا دربًا كفامبا. ففحص البندقية حاسبًا ما ينبغي له أن يبدّله لتصير في مستوى نظرِه، ثمّ صنع لها عقبًا جديدًا تملأه تواشٍ رائعة، بحيث إنّه لو أراد أن يهبط إلى المدينة فيبيع العقبَ وحدَه لكسَب من بيعه خمسة عشر أو عشرين بياسترا. لكنّ الشّابَ لم يكن يفكّر في ذلك، إذ لطالما كان حلمه امتلاك بندقيّة. ففي جميع البلدان التي تشترطُ فيه الحريّةُ الاستقلالَ، تكون أوّل حاجةٍ يحسّها كلُّ قلب شجاع، وكلّ إرادةٍ قويّةٍ، هي الحصول على سلاح يضمن في آنِ الدّفاع عن النّفس والمبادرة إلى الهجوم، ويجعل من يحملُه مَخُوفًا مُهابَ الجانب.

مُنذ تلك اللّحظة قصَرَ فامبا اللّحظات التي كانت تبقى له بعد العمل في التمرّن على البندقية؛ اشترى بارودًا ورصاصًا، وصار كلّ ما يصادفه بمثابة هدفٍ لرمياته: جذوع أشجار الزيتون البائسة، الهزيلة والرّمادية، التي تنمو على سفح جبال سابين؛ الثعلب الذي يغادر وجاره مساءً

كي ينطلق في صيده الليليّ، والنّسرُ المحلّق في الجوّ. وما لبث أن صار سديدَ الرّمي حتّى أنّ تريزيا تجاوزت الجزَع الذي كانت تحسّه لدويّ الرّصاص، وصارت تستمتع بمتابعة صاحبها وهو يعبّئُ البندقيّة بالطّلقات، فيصيب بها الأهداف بدقّة كأنّما يضع الطلقة فيها بيده.

وذات مساءٍ خرج بالفعل ذئبٌ من غابة التّنوب التي اعتاد العشيقان الجلوس بقربها. وما كاد الذّئبُ يتقدّم عشر خطواتٍ حتّى كان قد أُردِيَ صريعًا. وفخورًا بإنجازه، حمل فامبا الحيوان على كتفيه وساقه إلى المزرعة.

لقد صنعت تلك التّفاصيل كلّها للويجي صيتًا في المزرعة وما حولها؛ إنّ الرّجل الخارق حيثما حلّ يجد معجبين. كانوا يتحدّثون عن الرّاعي الشّاب بوصفه أشجع وأمهر وأقوى كانتيدينو[1]عرفته المنطقة؛ وعلى الرّغم من أنّ تيريزا حازت صيتًا أوسع من فامبا، إذ كانت تُعَدُّ أجمل الصبايا في منطقة سابين، إلا أنّ لا أحد جرؤ على أن يبادرها بكلمة حبٍّ، إذ كان الجميع يعرف أنّها معشوقة فامبا. على أنّ الشّابين لم يتصارحا بعشقهما قطُّ. لقد ربيا وكبرا جنبًا إلى جنبٍ على شاكلة الأشجار التي تتشابك جذوعها في التراب، وأغصانها في الجو، ويختلط أريجها في السّماء؛ غير أنّ رغبتهما في أن يلتقيا ظلّت هي هي لا تتبدّلُ؛ رغبتهما تلك انقلبت حاجةً، وكان بوسعهما أن يتقبّلا الموت على أن يفترقا يومًا واحدًا.

بلغت تيريزا السّادسة عشرة من عمرها، وفامبا السّابعة عشرة. وأثناء ذلك بدأ ينتشر خبر عصابةٍ من قطّاع الطّرق تنتظم بجبل ليبيني. لم تكن ممارسة قطع الطّريق قد استُؤصلت تمامًا من ضواحي روما. يحدث أن يختفي القادة، لكن ما إن يظهر قائدٌ حتّى تلتئم حوله العصابةُ.

---

(1) مزارع بالإيطالية.

وكان الشّهيرُ كوكوميتو، الذي لوحقَ في أبروتسو بعدما طُرد من مملكة نابولي التي قاد فيها حربًا فعليةً، قد عبر نهر غاريليانو على شاكلة مانفريد، فأتى يلوذ بين سونينو وجوبرنو على ضفاف أمازيني. وكان الرّجل هو من يعمل على تشكيل عصابةٍ ستسير على نهج ديتشيزاريس وغاسباروني، ولن تفتأ أن تتجاوزهما. اختفى كثير من شباب باليستيرنا وفراسكاتي وبامبيرانا. وسرى القلق بشأنهم، ثمّ عُلمَ خبر التحاقهم بعصابة كوكوميتو.

وبعد فترةٍ زمنية، صار كوكوميتو حديث الجميع. كانوا يُلحقون بقائد العصابة هذا صفات الطّموح المبهر والوحشية الطّافحة.

ذات يوم، خطف صبيّةً، كانت ابنةَ مسّاحِ الأراضي بفروزينوني. قوانينُ العصّاباتِ وضعيّةٌ: الشّابة لمن خطفَها أوّلًا، ثمّ يأتي الدّور على البقيّة بالقرعة؛ وعلى المسكينة أن تشبع نزوات العصابة بأكملها، حتّى يتركها المجرمون أو تموت. وحين يكون الأبوان ثريّين بما يكفي لافتدائها، يرسل رسولٌ يفاوض على الفدية؛ رأسُ الصبيّة في كفّ المبعوث. إن رُفضت الفدية فالحكم ناجزٌ لا استئناف فيه.

وكان عشيق الصّبيّة المذكورة من ضمن رجال كوكوميتو: واسمه كارليني. وإذ تعرّفت على الشّاب، بسطت يدها إليه، وظنّت نفسها نجت. لكن المسكين كارليني، حين تعرّف عليها، انكسر قلبه إذ كان يعرف المصير المهيّأ لمعشوقته. غير أنّه لما كان من خلصاء كوكوميتو، وقد شاركه الأخطار منذ ثلاث سنواتٍ، وأنقذ حياته من قبلِ بطلقة من مسدّسه أصاب بها عدوًا كان ينحني عليه بحربة بندقيّته موشكًا أن يطعنه بها؛ قلنا إذ كان الشّابُ كلّ ذلك، فقد تأمّلَ في قائده الشّفقةَ.

انتحى كارليني بالقائد جانبًا، بينما الشّابةُ قد جلست مستندةً إلى جذع صنوبرة ترتفع وسط فرجة في الغابة، وغطّت رأسها بشعرها على

طريقة التسريحة الرّائعة للفلّاحات الرّومانيات[1]، وأخفت وجهها عن عيون قطّاع الطّرق الشّبقة. وحكّى الشّاب لقائده كلّ شيء: غرامياته مع الأسيرة، قسَم الوفاء الذي تبادلاه، وكيف أنّه، مذ التحق بالعصابة، صار يلتقيها كلّ ليلةٍ في خربة يضربان فيها موعدًا.

وذاك المساء تحديدًا كان كوكوميتو قد أرسل كارليني إلى قرية مجاورة فأخلف الموعد مع الفتاة؛ وصدفة تواجد كوكوميتو بمكان اللّقاء، فاختطف الصبيّة.

توسّل كارليني إلى قائده أن يمنّ عليه باستثناءٍ، فيرحم ريتا، مشدّدًا على أنّ والدها غنيّ وسيدفع مقابلها فديةً معتبرةً.

بدا أنّ كوكوميتو قد انصاع إلى توسّلات صديقه، فكلّفه بأن يجد راعيًا يحمّلونه الرّسالة إلى والد ريتا بفروزينوني. إذّاك دنا كارليني من الصّبية جذلًا، وأخبرها أنّها قد نجت، وطلب منها أن تكتب إلى والدها رسالةً تخبره فيها بما جرى، وتعلمه بأنّ الفدية قد تحدّدت في ثلاثمائة بياسترا. وأُمهل الأب اثنتي عشرة ساعةً، أي إلى غاية السّاعة التّاسعة من صباح اليوم الموالي.

وما إن كُتبت الرّسالة حتّى هرع بها كارليني إلى السّهل باحثًا عمّن يحملها. هناك وجد راعيًا شابًا يحرس قطيعه. إنّ رُسُل قطاع الطّرق المعتادين هم الرّعاة الذين يعيشون بين المدينة والجبل، بين الحياة البريّة والحياة المدنية. وانطلق الرّاعي الشّاب من فوره قاطعًا الوعد بأن يبلغ فروزينوني في أقلّ من ساعة.

عاد كارليني مسرورًا إلى عشيقته يخبرها الخبرَ السّارَ. الفى عصابته في الفرجة مسرورين يتعشّون على ما غنموه من المزارعين على سبيل

---

(1) إنّما النّسبة رومانيّ ورومانيّةٌ ورومانيّون هنا وما يتبعه، إلى روما المدينة وليس الإمبراطورية الرّومانية، ما لم يتوضّح من السياق غير ذلك.

التحيّة؛ ووسط الوجوه المرحة بحث عبثًا عن كوكوميتو وريتا. سأل عنهما فأجابه الرّجال بقهقهة صاخبة؛ فسرى على جبينه عرقٌ باردٌ، وأحسّ بشعره يتصلّب قلقًا.

أعاد السّؤال ثانيةً، فأتاه الجوابُ من أحد الرّجال، إذ ملأ بنبيذ أورفييتو كأسًا ثم مدّها إليه قائلًا:

- في صحة الصنديد كوكوميتو والحسناء ريتا!

في تلك اللّحظة خيّل إلى كارليني أنّه قد سمع صيحة امرأة. فخمّن كلّ شيء. أمسك الكأس فحطّمها على وجه الرّجل الذي مدّها إليها، ثمّ انطلق في اتّجاه الصّيحة. وبعد مائة خطوةٍ، عند استدارة دغلٍ، وجد ريتا مغشيًا عليها بين ذراعيّ كوكوميتو. وإذ انتبه كوكوميتو إلى وجود كارليني، قام وفي كلّ يد من يديه مسدّس. وتبادل قاطعَيّ الطّريق النّظر لحظةً: أحدهما على شفتيه ابتسامة الشّبق، والثاني على جبينه شحوب الموت.

كان النّاظر إليهما ليخال أنّ شيئًا رهيبًا سيحدث، لكنّ ملامح كارليني ما لبثت أن لانت، ويده التي كانت قد اتّجهت إلى أحد المسدّسين في حزامه، عادت أدراجها متأرجحةً عند جانبه.

كانت ريتا ممدّةً بين الرّجلين.

والقمر يضيء المشهد.

قال كوكوميتو: - حسنًا، هل أنجزت المهمّة التي كلّفتك بها؟

أجاب كارليني: - أجل يا قائدي، وغدًا قبل التّاسعة صباحًا سيكون والد ريتا هنا ومعه النّقود.

- ممتاز. في انتظار ذلك سوف نقضي ليلة ممتعة. إنّ هذه الصّبية مليحةٌ، والحقُّ أنّك تملك ذوقًا رفيعًا يا مايسترو كارليني. وبما أنّني لست أنانيًا، فهيا بنا الآن، لنعد إلى رفاقنا فنجري قرعةً لمعرفة من سيتمتّع بها الآن.

سأله كارليني: - قررت إذًا أن تُخضعها للعرف؟

- ولمَ ستكون هي استثناءً؟

- لقد ظننتُ أنّ توسّلاتي...

- وفيمَ تفوق أنت غيرك؟

- معك حقّ.

استأنف كوكوميتو ضاحكًا: - لكن لا تقلق، عاجلًا أو آجلًا سيأتي عليك الدّور.

عضّ كوكوميتو أسنانه حتّى كادت تنكسر.

قال كوكوميتو وهو يخطو خطوةً صوب الرّجال: - هيّا، ألن تأتي؟

- أنا قادم...

ابتعد كوكوميتو من غير أن يغيب عن ناظره كارليني، إذ إنّه بلا شكّ كان يخشى أن يطلق على ظهره الرّصاص. لكن لا شيء في قاطع الطّريق الشّاب كان يوحي بالعداء. كان واقفًا، شابكًا ذراعيه أمام ريتا التي لا تزال مغشيًا عليها.

لوهلةٍ ظنّ كوكوميتو أنّ الشّاب قد يحملها بين ذراعيه ويهرب بها، لكن ما همّه الأمرُ وقد قضى منها وطره؟ ثمّ إنّ ثلاثمائة بياسترا مبلغ تافه لن يضيره خسارتها. فواصل طريقه صوب الفرجة؛ ولدهشته وصل كارليني تقريبًا في نفس اللّحظة التي وصل فيها هو.

صاح الرّجال جميعًا وقد لمحوا قائدهم: - القرعة! القرعة!

وكانت عيونهم جميعًا تلمع مجونًا وثمالةً، بينما لهيبُ الموقد يلقي على وجههم ظلالًا محمرّةً تضفي عليهم هيأة شياطين.

كان طلبهم مشروعًا [في عرفهم]؛ لذا أشار القائد برأسه إشارة الموافقة. وضعوا في قبّعةٍ أوراقًا تحمل أسماء الجميع، بما فيهم اسم كارليني، وتقدّم أصغرهم سنًا ليسحب من بين الأسماء اسمًا. وكانت الورقة المسحوبة تحمل اسم ديافولوتشو. وهو الرّجل نفسه الذي كان

قد قدّم إلى كارليني كأسًا في صحّة القائد، فردّ عليه كارليني التحيّة بأن كسر الكأس على وجهه. فشجّ وجهه بجرحٍ يمتدّ من الصّدغ إلى الفم ويتدفّق دمًا.

لما رأى ديافولوتشو أنّه الرّجل الذي اصطفاه الحظّ، قهقه ضاحكًا. وقال: - أيّها القائد، منذ قليل رفض كارليني أن يشرب نخبًا في صحّتك؛ فاطلب منه أن يشرب نخبًا في صحّتي، فلربّما كانت كلمتك مسموعةً لديه أكثر من كلمتي.

توقّع الجميع من كارليني انفجارًا؛ لكن أمام عظيم دهشتهم تناول الشّاب كاسًا وقنينةً، ثمّ ملأ الكأس وقال بصوتٍ هادئ تمامًا:

- في صحّة ديافولوتشو.

وأفرغ محتوى الكأس في جوفه من دون أن ترتجف يده. ويعد ذلك جلس أمام النّار، قائلًا:

- أين حصّتي من العشاء؟ لقد أصابتني الرّحلة التي قمت بها بالجوع.

صاح رجال العصابة: - يحيا كارليني!

- هذا ما نسمّيه التّرف وفق ما تقتضيه الصّداقة.

ثمّ إنّهم تحلّقوا مجدّدًا حول النّار، بينما ديافولوتشو يبتعد.

أخذ كارليني يأكل ويشرب كأنّ شيئًا لم يقع. وكان رجال العصابة ينظرون إليه مندهشين لا يفهمون شيئًا من لامبالاته، حتّى سمعوا خلفهم وقع خطواتٍ ثقيلة، فاستداروا ولمحوا ديافولوتشو حاملًا بين ذراعيه الفتاة. كان رأسُها إلى الخلف، وشعرها منسدلًا يكاد يلامس الأرض. وبقدر ما كانا يتقدّمان صوب النّار كان يزداد وضوحًا شحوبُ البنت كما شحوب حاملها.كان حضورهما غريبًا ومهيبًا إلى درجة أنّ الجميع استدار شطر كارليني الذي كان يواصل الأكل والشرب هادئًا غير عابئ بما يجري حوله.

واصل ديافولوتشو التقدّم إلى الوسط وهو صامت صمتًا عميقًا، ثمّ

وضع ريتا عند قدمَي القبطان. وإذّاك تمكّن الجميع من الوقوف على سبب شحوب الصبيّة: كانت ثمّة سكّين مغروزةٌ حتّى النّصل تحت نهد ريتا الأيسر.

استدارت الأنظار كلّها إلى كارليني: كان غمد السّكين عند حزامه فارغًا.

قال القائد: - آه! آه! أفهم الآن لمَ بقيَ كارليني في الخلف.

كلّ طبيعةٍ هائجة إلا وهي قابلة أن تقدّر الفعل الشّجاع؛ وعلى الرّغم من أنّ لا أحد من قطّاع الطّرق كان ليفعل ما فعله كارليني إلا أنّهم تفهّموه.

قال كارليني وهو يقوم من مقامه ويدنو من الجثمان ويده على مقبض أحد مسدّساته:

- وإذًا هل لا يزال هناكمن ينازعني هذه المرأة؟

قال القائد: - كلّا، إنّها لك!

إذّاك حملها كارليني بين ذراعيها وأخذها بعيدًا عن الضّوء المشعّ من نار الموقد.

عيّن كوكوميتو حرّاسًا كعادته، ثمّ خلد الرّجال إلى النّوم حول الموقد متلفّعين بمعاطفهم. وعند منتصفِ اللّيل نبّه أحد الحرّاس الرّجالَ، وما هي إلا لحظة حتّى كان كوكوميتو والرّجال واقفين على أقدامهم.

كان القادمُ والد ريتا أتى يدفع فديتها بنفسه. فقال مخاطبًا كوكوميتو وهو يمدّ إليه كيس نقود:

- هاك الثلاثمائة بياسترا. أعد إليّ طفلتي.

لكن القائد من دون أن يأخذ النّقود أشار إليه بأن يتبعه. أطاعه الشّيخ؛ وابتعد الرّجلان تحت الأشجار التي تتسلّل من بين أغصانها أشعّة ضوء القمر. ثمّ توقّف كوكوميتو ومدّ يده مشيرًا إلى شخصين متعانقين أسفل شجرةٍ:

- هاك! اطلب ابنتك من كارليني، فمطلوبك لديه.

ثمّ عاد إلى رفاقه.

ظلّ الشّيخ ساكنًا مسمّر العينين. كان يحسّ مصيبةً عظيمةً، هائلةً، رهيبةً تحلّق فوق رأسه. ثمّ خطا خطوة صوب الكتلة المعمّاة التي لم يكن يستطيع تبيّنها.

لوقع خطاه رفع كارليني بصره، وبدأت ملامح الشّخصين تتميّز في عينيّ الشّيخ.كانت امرأة مضطجعة على الأرض وراسها على ركبَتَي رجل يجلس مائلًا عليها؛ ولما رفع الرّجل رأسَه كشف عن وجه المرأة التي كان يضمّها إلى صدره.

عرف الشّيخ ابنتَه، وعرف كارليني الشّيخَ.

قال رجل العصابات لوالد ريتا: - كنت أنتظرك!

أجابه الشّيخ: - ماذا فعلت أيّها الشقيّ؟

ثمّ نظر برعبٍ إلى ريتا، شاحبةً، مدمّاةً، وفي صدرها سكينٌ مغروزة. شعاعٌ من ضوء القمر ينزل عليها ويضيئها بنوره الشّاحب.

قال: - لقد اغتصب كوكوميتو ابنتَك، ولأنّني كنت أحبّها قتلتُها، لأنّها كانت منذورة لأن تكون لعبةً يتسلّى بها كلّ أفراد العصابة.

لم ينطق الشّيخ كلمةً، وصار شاحبًا كطيف.

قال كارليني: - والآن، إن كنتَ تراني مخطئًا، فانتقم لها.

ثمّ إنّه استلّ السكّين من نهد الصبيّة وتقدّم يمدّه إلى الشّيخ وقدنزع سترته وكشف صدره عاريًا.

قال الشّيخ بصوتٍ مخنوق: - خيرًا فعلتَ، عانقني يا بنيَّ.

ألقى كارليني بنفسه منتحبًا بين ذراعَي والد عشيقته. وكانت تلك أوّل دموع يذرفها الرّجل الدمويُّ.

قال الشّيخ: - والآن ساعدني في دفن ابنتي.

أتى كارليني بمعوَلين، وانطلق الأب والعاشق يحفران الأرض أسفل شجرة سنديان يفترض أن تجلِّلَ أغصانُها الكثيفة قبر الصبيّة. وحين حُفر

القبرُ، قبّل الأب ابنته أوّلا، ثمّ فعل العاشق مثل فعله؛ وحملا الصبيّة من قدميها وكتفيها، وأنزلاها القبر.ثمّ جثيا معًا جنبًا إلى جنب وتلوَا صلاة الجنازة. وبعد أن فرغا من الصّلاة، أهالا عليها التراب حتّى امتلأ القبر.

ثمّ مدّ الشّيخُ يده إلى كارليني وقال: - أشكرك يا بنيّ! الآن، اتركني وحدي.

قال الشّاب: - ولكن...

- دعني وحدي، إنّه أمر.

أطاع كارليني الأمر، والتحق برفاقه، وتلفّع بمعطفه، ثمّ ما لبث أن بدا عليه الاستغراق في النّوم كحالِ الآخرين.

ساعةً قبل مطلع النّهار ايقظ كوكوميتو رجاله وأمرَ بالرّحيل. لكن كارليني لم يرد أن يرحل قبل أن يعرف ما كان من أمر والدِ ريتا. توجّه إلى المكان الذي كان قد خلّف فيه الشّيخ. ألفاهُ مشنوقًا في غصنٍ من أغصان السنديانة التي تظلّل قبر ابنته. اقسم إذّاك على قبر الصبيّة وجثمان الشّيخ أن ينتقم لهما معًا.

غير أنّه ما استطاع لقسمه وفاءً؛ إذ يومين بعد ذلك قُتل الشّابُ في معركة مع بعض الحرس.

العجيب أنّ الرّصاصة التي أردته كانت قد أصابته في موضع بين كتفيه، رغم أنّه كان يواجه العدوَّ مُقبلًا. لكنّ العجبَ بَطُلَ حين أشار أحد الرّجال إلى أنّ كوكوميتو كان متموضعًا خلف كارليني بعشر خطواتٍ حين سقط هذا صريعًا.

صبيحة رحيلهم من غابة فروزينوني كان القائد قد تبع رجُلَه في العتمة، وسمع القسم الذي قطعه، ولأنّه كان رجلًا شديد الحيطة فقد استبق العدوَّ.

تُحكى عن هذا القائد الرّهيبِ عشرُ حكايات غير هذه، لا تقلّ عنها

غرابةً. وعليه، من فوندي إلى بيروتجا، كان الجميع يرتعبُ لذكر اسم كوكوميتو.

ولطالما كانت تلك القصص موضوعًا لأحاديث لويجي وتيريزا. كانت الصبيّة ترتعد لتلك الحكايات؛ بيد أنّ فامبا كان يطمئنها بابتسامةٍ منه، ونقرةٍ على بندقيّته المعبّأة جيّدًا بالرّصاصة؛ فإن لم تسكن نفسُها، كان يشير لها إلى غرابٍ من الغربان الجاثمة على جذعِ شجرةٍ ميّتٍ بعيدًا منهما بمائة قدمٍ، ويصوّب على الطّائر، ثمّ يسدّد، فيسقط الطّائرُ تحت ساق الشّجرة.

ومرّ الزّمان: وكان الشّابّان قد اتّفقا على أن يتزوّجا حين يبلغ فامبا العشرين من عمره وتيريزا التّاسعة عشرة. وبما أنّهما كانا يتيمين، فلم يكونا يحتاجان موافقةً إلا من سيّديهما، وقد طلباها بالفعل فأُجيبا إلى طلبهما.

وذات مساءٍ كانا يتحدّثان في أمور مستقبلهما، فسمعا صوت ثلاث طلقاتٍ؛ ثمّ خرج من بين الأشجار، في الموقع حيث اعتادا الرّعي، رجلٌ وركض صوبهُما.

وإذ صار على مرمى الصّوتِ منهما، صاح فيهما:

- إنّي مُطاردٌ، فهل أجدُ عندكما مأوىً؟

أدرك الشّابان حقّ الإدراك أنّ مخاطبهما قاطعُ طريقٍ، غير أنّ بين الرّاعي وقاطع الطّريق في روما مودّة تجعلُ الأوّل دائم الاستعداد لخدمة الثاني. لذا بادر فامبا، من دون أن ينبس بكلمة، إلى الصّخرة التي تسدّ باب مغارتهما السريّة، فأزاحها كاشفًا المدخل الذي لا يعلمه غيره وتريزيا، وأشار إلى الغريب أن يلوذ بالملجأ الخفيّ، ثمّ إذ دخل الرّجلُ أغلق خلفه الصّخرة وعاد يجلس بقرب تيريزا. وعلى الفور ظهر عند حافّة الغابة أربعة من رجال الشّرطة على صهوات جيادهم؛ ثلاثة منهم يقْتفُون أثر الهاربَ، والرّابعُ يسحبُ قاطع طريقٍ آخرَ من عنقه.

استكشف الرّجال الأربعة المجالَ بنظرةٍ واحدةٍ فلمحوا الشّابين. توجّهوا إليهما خببًا، وسألوهما.

أجاب الشّابان بأنّهما لم يريا شيئًا.

قال قائد الرّجال: - مؤسفٌ، ذاك أنّ من نقتفي أثرَه هو رئيسهم.

لم يستطع الشّابان مقاومة أن يصيحا معًا:

- كوكوميتو؟

أجابهما القائدُ: - نعم؛ وبما أنّ مكافأةً قدرُها ألف قطعةٍ رومانية قد رُصدت لمن يقبض عليه، فقد كنتُما لتحصّلا خمسمائةٍ لكل منكما لو أنّكما ساعدتُما في القبض عليه.

تبادل الشّابان نظرةً، توقد خلالَها في نفس القائدِ الأملُ. إنّ خمسمائة قطعة رومانية هي ثلاثة آلاف فرنك، وإنّ ثلاثة آلاف فرنك لثروةٌ معتبرةٌ بالنّسبة إلى يتيمين مقبلين على الزّواج.

قال فامبا: - أجل، إنّه لأمرٌ مؤسفٌ، لكنّنا لم نره.

إذّاك ضرب الرّجالُ الأرض في اتّجاهات مختلفةً، لكنّ أبحاثهم ذهبت سدىً. ثمّ ما لبثوا أن اختفوا جميعًا فهرع فامبا إلى الصّخرة يزحزحها، فخرج من المغارة كوكوميتو.

كان الرّجلُ قد تابع المحادثة بين الشّابين ورجال الشّرطة، خلال شقّ باب المغارة، وقرأ في وجهَي لويجي وتيريزا حزمًا على أن لا يشيا به، فأخرج من جيبه صرّة مليئةً بقطع نقديّة وقدّمها إليهما. لكن، بينما عينا تريزا تلمعان وهي تفكّر في كمّ المجوهرات الثمينة والملابس الجميلة التي سيكون بمقدورها أن تشتريها بفضل صرّة النّقود، رفع فامبا رأسَه بأنفة.

لقد كان كوكوميتو شيطانًا ماكرًا، شيطانًا اتّخذ لبوسَ قاطع طريقٍ بدلًا من لبوس ثعبان؛ عرف في تيريزا أمارات حوّاءَ، ودخل الغابةَ وهو يستدير صوب منقذَيه غير ما مرّة.

مرّت أيّامٌ عديدةٌ لم يظهر فيها لكوكوميتو أثرٌ ولا سُمع له خبر. وكان موعد الكارنفال يقترب. أعلن كونت سان فيليتشي عن إقامة حفل تنكّريّ عظيمٍ، دُعي إليه عليّة النّاسِ في روما. وكانت تيريزا تتوق إلى أنْ تحضر الحفلَ. وقد التمس لويجي لها ولنفسه عندَ مدبّر المنزل الحضورَ متخفّيين بين الخدم، فأجيبَ إلى ما طلبَ.

وكان الكونت إنّما قد أقام الحفلَ إسعادًا لبنته كارميلا التي كان يمحضها حبًا كبيرًا. وكانت ابنته كارميلا هذه مساويةً لتيريزا سنًا وقامةً، غير أنّ الرّاعية كانت تفوقها حسنًا.

مساء الحفل اعتنت تيريزا بزينتها خيرَ عنايةٍ، وتحلّت بأثمن مشدّاتها قيمةً وأشدِّ خرزِها بريقًا. كانت على سمتِ نساء فراسكاتي (إيطاليا). أمّا لويجي فقد ارتدى ما اعتاد فلّاحو روما ارتداءَه أيّام العيد من ملابس مزركشةٍ. وقد اختلطا معًا، كما أُذِن لهما، بالخدم والفلاحين.

كان الحفلُ رائعًا. لم تكن الفيلّا وحدَها مضيئةً وهّاجةً، وإنّما عُلّقت كذلك آلافُ المصابيح بأشجار الحديقة. وما لبث أن امتلأ القصر وفاض على الشّرفات، وفاضت الشّرفات على المماشي.

في كلّ زاويةٍ، نُصّبَ جوقٌ، ومُدّت سُمط الأطعمة والأشربة؛ كان المتنزّهون يتوقّفون، فتتشكّلُ الحلقاتُ ويُشرعُ في الرّقص حيثما طاب للمرء الرّقص.

كانت كارميلا تلبس على طريقة نساء سونينو، قلنسوةً مطرّزةً باللآلي، وفي شعرها مشدّاتٌ من ذهب وجواهر، وحزامًا من حرير تركيّ مزيّنٍ بورود كبيرة. قميصها وتنّورتها من كاشمير، وصدريّتُها من موسلين هنديّ؛ وكانت أزرار صدارها أحجارًا كريمةً. وكانت معها اثنتان من رفيقاتها، ترتدي إحداهما على طريقة نساء نيتونو، والثانية على شاكلة نساء ريتشيا. ويرافق الصبايا أربعةُ شباب من أغنى عائلات روما وأنبلها، بذاك التحرّر الإيطالي الذي لا نظير له في أيّ بلدٍ آخر. وكانوا يرتدون،

على التّوالي، زيّ فلاحيّ ألبانو، وفيليتري، وتشيفيتا كاستيلانا، وسورا. وغنيّ عن القول إنّ ملابس الفلاحين، كما ملابس الفلاحات، تلك كانت تبرقُ ذهبًا وأحجارًا.

وقد عنَّ ببال كارميلا أن تؤلّفَ رباعيًا منسجمًا، غير أنّه كانت تنقص الجماعةَ امرأةٌ. أجالت النّظر حواليها فلم تجد بين المدعوات امرأةً تماثلها ورفيقَتيها ملبسًا. أشار لها كونت سان فيليتشي إلى تيريزا المتأبّطة ذراع لويجي بين الفلّاحات.

سألته كارميلا: - هل تسمح بذلك يا أبي؟

فأجابها: - طبعًا، ألسنا في وقت الكرنفال!

مالت كارميلا على أذن شابٍ ممّن يرافقونها وهمست له بكلمات وهي تشير بإصبعها إلى تيريزا. تابع الشّابُ بعينيه الاتّجاه الذي تومئ به إليه اليدُ الجميلة، ثمّ انطلق يدعو تيريزا إلى الالتحاق بالرّباعيّ الذي تسعى إلى تشكيله ابنةُ الكونت.

شعرت تيريزا بما يشبه الجمرَ على وجهها. سألت لويجي بعينيها: وما كان ثمّة من إمكانٍ للرّفض. أرخى لويجي ذراع تيريزا ببطءٍ، وابتعدت الصبيّة متأبّطة ذراع فارسها الأنيق، ثمّ اتّخذت، يغمرها الاضطرابُ، مكانها في الرّباعيّ الأرستقراطيّ.

بالنّسبة إلى فنانٍ، قطعًا يُفترض أن يكون زيّ تيريزا المضبوط والصّارم مختلفًا عن كارميلا وصاحباتها، غير أنّ تيريزا كانت صبيّة لعوبًا مغناجًا؛ كان جنونها يجنُّ أمام الموسلين المطرّز، وأقفال الأحزمة، ونظرتُها تذهُل أمام بريق الكاشمير، وتفقد صوابها أمام لمعان الياقوت الأزرق والماس.

أمّا لويجي فقد أحسّ في نفسه انبثاق شعورٍ لا قبل له به: - شعور أشبه ما يكون بألم صامتٍ يعضّ قلبه، ثمّ من قلبه يسري مرجّفًا في عروقه حتّى يستولي على سائر جسده؛ كان يتابع بعينيه أدنى حركة تندّ عن تيريزا

وفارسها؛ حين تلامست يداهما أحسّ غليانًا في جسده، شرايينه تضربُ بعنفٍ، وكان يبدو كأنّما ناقوسٌ يقرع في أذنيه. وحين كانا يتبادلان الحديث، وإن كانت تيريزا تنصتُ خجولًا خافضةَ العينين، كان لويجي يقرأ في عينيّ الشّاب الوسيم المتّقدتين كلامَ الغزل، فيشعر بأنّ الأرض تميد به، وأنّ كلّ الأصوات القادمة من أغوار الجحيم تهجس في أذنه بخواطر القتل والاغتيال. وخشيةَ أن يستسلم إلى جنونه، تشبّث بإحدى يديه بالسيّاج الذي كان يقف مستندًا إليه، وبحركةٍ متشنّجةٍ قبض بيده الأخرى على الخنجر ذي المقبض المنحوت في حزامه، والذي كان قد أخرجه تقريبًا بأكمله، بغير انتباهٍ، من غمده.

كان لويجي يشعر بالغيرة! كان يحسّ بأنّ تيريزا قد تفلت من بين يديه بباعثٍ من طبعها المغناج المتغطرس. على أنّ الفلّاحة الشّابّة، الخجول وشبه المرعوبة بدايةً، ما لبثت أن استعادت الرّشد.

لقد قلنا إنّ تيريزا كانت جميلةً، لكنّها كانت كذلك طيّبة القلب، تلك الطّيبة الطّبيعية التي تفوق قوّةً طيبتنا الفاسدة المتضعضعة. كانت تقريبًا هي محطّ الإعجاب ضمن الرّباعيّ، وعلى الرّغم من أنّها كانت تغبط ابنة كونت سان فيليتشي، إلا أنّنا لا نملك أن ننكر أنّ كارميلا قد شعرت بالغيرة منها.

ثمّ أعادها فارسها إلى حيث كان قد أخذ يدها أوّل مرّة، مغدقًا عليها بالإطراء، هناك حيث كان لا يزال ينتظرها لويجي. ومرّتين أو ثلاثًا، أثناء الرّقص، كانت الصّبية قد ألقت بنظرها على حبيبها، فألفته مخطوف الوجه متشنّج الملامح. لا بل في مرّة منها وقع بصرُها على سكّينه، نصف المسحوبة، فأوهج حدُّ النّصلِ عينيها كبريق منذرٍ بكارثةٍ. لذا حين عادت أمسكت بذراع عشيقها وهي في حالٍ شبه راجفةً.

وكان الرّباعيّ قد حصد نجاحًا مبهرًا، فكان بديهيًا أن يعادَ مرّةً أخرى؛ اعترضت كارميلا؛ غير أنّ كونت سان فيليتشي ترجّى ابنتَه بلطفٍ، حتّى

انتهت إلى الموافقة. وعلى الفور تقدّم أحد الفرسان صوب تيريزا التي كان من غير الممكن أن تتمّ الرّقصة من دونها؛ لكنّ الفتاة كانت قد اختفت. ذلك أنّ لويجي ما كان يأنس في نفسه القدرة على تحمّل تجربة أخرى، فكان أن سحب تيريزا، بشيءٍ من الإقناع وشيء من القوّة، صوب نقطة أخرى من الحديقة. وقد رضخت له تيريزا مكرهةً؛ لكنّها إذ تفرّست في وجه الشّاب المصدوم، أدركت من صمته ورعدتِه العصبيّة، أنّ شيئًا ما غريبًا يحدث بداخله. هي نفسها لم تكن في منأى عن الاضطراب الباطنيّ، وعلى الرّغم من أنّها لم تأتِ سوءًا إلا أنّها كانت تشعر بأنّ من حقّ لويجي أن يلومها: علامَ؟ لا تدري؛ لكنّ جهل الأسباب لم يمنعها من أن تحسّ بأنّ لوم لويجي مستحقّ. غير أنّ لويجي، ولعظيم دهشتها، ظلّ صامتًا، وما عبرت شفتيه كلمةٌ طيلة ما تبقى من السّهرة. على أنّه، حين طردَ بردُ اللّيل المدعويين من الحدائق، وأُقفلت أبواب الفيلا عليهم لكي يتواصل الحفلُ بالدّاخل، اقتاد لويجي تيريزا؛ وإذ كانت تهمّ بدخول مسكنها قال:

- تيريزا؛ قولي لي: - فيمَ كنت تفكّرين حين كنت ترقصين قبالة الكونتيسة الصّغيرة سان فيليتشي؟

قالت الصبيّة بمطلق الصّراحة: - كنت أفكّر في أنّني قد أعطي نصف حياتي نظير الحصول على فستانٍ مثل فستانها.

- وبمَ كان يهمس لك فارسك؟

- كان يقول لي إنّ الحصول على الفستان يتوقّف عليّ وحدي، ولا أحتاج لذلك إلا أن أقول كلمة واحدة.

أجابها لويجي: - هو محقّ. هل ترغبين فيه حقًا بالصّورة التي تصفينها؟

- أجل.

- حسنًا، سوف تحصلين عليه!

مندهشةً رفعت الصبيّة رأسَها كي تسألَه؛ لكنّ وجهه كان كالحًا ورهيبًا حتّى إنّ الكلام تجمّد في شفتيها. ثمّ إنّ لويجي، إذ نطق بكلامه ذاك، سار مبتعدًا. وظلّت تيريزا تتبعه بعينيها في اللّيل بقدر ما استطاعت أن تميّزه. ولما اختفى دخلت مسكنها متنهّدةً.

في تلك اللّيلة نفسها وقع حادث عظيمٌ، قطعًا بسبب طيش أحد الخدم الذي أهمل إطفاء الأنوار؛ فنشبت النّارُ في فيلا سان فيليتشي، حتّى أتت على جناح الحسناء كارميلا. وإذ أيقظت الصبيّةَ وسط اللّيل أنوارُ اللّهبِ، قفزت من سريرها، وتلفّعت بروبها، وحاولت أن تهرب من الباب؛ لكنّ الرّواق الذي كان يفترض أن تمرّ عبرَه كان قد سقط فريسة النّيران. فدخلت غرفتها مرّةً أخرى، وأخذت تصيح بأعلى صوتها طالبةً النّجدة؛ فإذا بنافذتها الواقعة على علوّ عشرين قدمًا من الأرض، تُفتَحُ فجأةً؛ ويهبّ منها فلاّحٌ شابٌّ، فيحملها بذراعيه؛ وبقوّة وسدادٍ خارقَيْن يتجاوزان طاقة البشر، أنزلها على عشب الحديقة، حيث سقطت مغشيًا عليها. وحين استعادت وعيها، كان والدها يقف أمامها، وكلّ الخدم حولها يسعفونها. جناحٌ بأكمله من الفيلا أكلته النّيران؛ لكن فيمَ يهمّ ذلك، ما دامت كارميلا سليمةً معافاة. وبحثوا في كلّ مكانٍ عن منقذها، لكنّ المنقذ لم يظهر؛ سأل الجميع عنه، لكن لا أحد رآه. أمّا كارميلا فكانت من الاضطراب بحيث إنّها ما استطاعت التّعرف عليه. أما الكونت، وهو الغنيّ فاحش الغنى، فلم يرَ في الخسائر التي سبّبتها النّيرانُ شيئًا يذكرُ، اللّهم إلا الخطرَ الذي تعرّضت له ابنته، وأفلتت منه بمعجزةٍ، ممّا جعله ينظر إليه كإشارة رضا من القدر أكثر منه علامة شؤم.

غداة ذلك، وفي السّاعة المعتادة، التقى الشّابان عند طرف الغابة. كان لويجي أوّل من وصل. أتى يستقبل الصبيّة مرحًا؛ بدا أنّه قد نسيَ مشهد أمس تمامًا. أمّا تيريزا فكان يبدو عليها التفكّر، لكن إذ رأت لويجي في تلك الحال، فقد عاودتها اللامبالاة المرحة المعتادة فيها حين لا يعكّر صفو

مزاجها نازعٌ من النّوازع. وتأبّط لويجي ذراع تيريزا واقتادها حتّى المغارة. وهناك توقّف. أدركت الصبيّة أنّ ثمّة شيئًا مذهلًا، فثبّتت النّظر فيه.

قال لويجي: - تيريزا، أمس قلت لي إنّك قد تعطين أيّ شيءٍ مقابل الحصول على زيٍّ كذاك الذي كانت ترتديه ابنة الكونت؟

أجابته تيريزا بذهول: - أجل، لكنّني كنت حمقاءَ إذ تمنّيت أمنيةً مماثلةً.

- وأنا أجبتك: حسنًا، سوف يكون لك ما طلبت.

قالت الصبيّة ودهشتها تتعاظم كلّما نطق لويجي كلمةً: - أجل. لكنّك قطعًا قد أجبت كذلك لتُدخل إلى نفسي السّرور.

أجابها بغطرسةٍ: - لم يسبق لي أن وعدتك بشيء لم أفِ به. ادخلي المغارة وارتدي زيّك.

«ثمّ إنّ لويجي أزاح الصّخرة عن باب المغارة وأشار لتيريزا إلى المغارة المضاءة بشمعتين متّقدتين عند كلّ جانبٍ من جانبيّ مرآةٍ رائعة؛ على الطّاولة البسيطة التي صنعها لويجي بنفسه، كان موضوعًا عقد اللؤلؤ والمشدّات الماسية؛ وعلى كرسيّ بجانبها بقيّةُ الزيّ.

أطلقت تيريزا صيحة فرح، ومن دون أن تسأل عن مصدر الزيّ أو تشكر لويجي، انطلقت داخل المغارة التي تحوّلت إلى غرفة زينة.

أعاد لويجي خلفها الصّخرة، إذ رأى عند قمّة هضبة، كانت تمنع من يقف خلفها من رؤية بالسترينا، مسافرًا على جواده قد توقّفَ لحظةً كالمتردّد لا يعرفُ طريقَه، وإذ أبصر الغريب لويجي حرّك جواده صوبَه.

لم يخطئ لويجي التقديرَ؛ إنّ المسافر الذاهب من بالسترينا إلى تريفولي لم يكن متأكّدًا من طريقه. وقد بيّن له الشّابُ الطّريقَ؛ لكن بما أنّ الطريق لن تلبث أن تنقسم، بعد مسافة ربع ميل، إلى ثلاثة طرقٍ، وقد يخطئ المسافر الطّريق الصّحيحة بينها، فقد رجا الرّجلُ لويجي أنْ يكون له دليلًا.

نزع لويجي معطفه ووضعه أرضًا، وألقى على كتفه قربينته، وإذ تحرّر من ثقل ملبسه انطلق أمام المسافر بتلك الخطى السّريعة المعروفة في أبناء الجبال، الخطى التي بالكاد يستطيع حصانٌ أن يسايرها. وما هي إلا عشر دقائق حتّى كان لويجي والمسافر عند مفترق الطّرق الذي كان قد أشار إليه الرّاعي الشّاب. وإذ وصلا هناك، بسط لويجي يده بحركة مهيبة، كأنّه إمبراطور، مشيرًا إلى الطّريق التي ينبغي للمسافر سلوكها من بين الطرق الثلاث:

- هي ذي طريقك يا صاحب السّعادة، لن تخطئها الآن.

قال المسافر وهو يمدّ إلى الرّاعي قطعًا نقدية: - وها مكافأتك.

أجابه لويجي: - شكرًا، إنّما أنا أقدّم خدمةً ولستُ أبيعها.

قال المسافر، وقد بدا معتادًا على هذا الفرق الذي يميّز خنوع رجال المدينة عن اعتداد الفلاّحين: - ولكنّك وإن كنت ترفض مقابلًا ماديًا، فلابد أن تقبل هديّة.

- تلك مسألة أخرى.

- حسنًا إذًا، هاك هاتين الترترتين، فخُذهما إلى خطيبتك، لتتّخذهما حلقين في أذنها.

أجابه الرّاعي الشّاب: - وأنت، خُذ هذا الخنجر، فلن تجد خنجرًا نُحتَ مقبضه أفضل منه، حتّى لو جبتَ المنطقة من ألبانو إلى تشيفيتا كاستيلانا.

قال المسافر: - أقبلُ عطيّتك، لكنّني سأصير أنا المدين لك، لأنّ الخنجر يفوق الترترتين قيمةً.

- ربمّا كان الأمر كذلك بالنّسبة إلى تاجر، أمّا بالنّسبة إليّ أنا الذي صنعته بنفسي، فبالكاد يساوي بياسترا واحدًا.

سأله المسافر: - ما اسمك؟

أجاب الرّاعي: «لويجي فامبا» بالنّبرة نفسها التي كان يمكن أن يقول بها: «الإسكندرُ المقدونيّ» ثمّ أضاف: - وأنت؟

قال المسافر: «أنا، السندباد البحريّ».
أطلق فرانز ديبيناي صيحة دهشة:
- السندباد البحري!
استأنف الرّاوي كلامَه:
«أجل، ذاك كان الاسمَ الذي قدّم به المسافر نفسَه».
قاطعه ألبير: - ماذا عندك تجاه هذا الاسم؟ إنه اسمٌ جميلٌ، وعليّ الاعتراف بأنّ مغامرات هذه الشّخصية لطالما أمتعتني في طفولتي.
لم يلحّ فرانز في القول. لقد أيقظ في نفسه اسم «السّندباد البحري» الكثير من الذّكريات، مثلما حدث أمس مع اسم الكونت مونت كريستو.
قال مخاطبًا المضيف: - هيا واصل.
- وضع فامبا الترترتين بلامبالاة في جيبه، وعاد رويدًا سالكًا الطّريق التي أتى منها. ولما بقي بينه وبين المغارة مائتا خطوةٍ أو ثلاثمائة، خيل إليه أنّه قد سمع صيحة.
توقّف يتسمّع من أي اتّجاه أتت الصّرخة. وبعد هنيهةٍ تناهى إليه اسمُه واضحًا. كانت الصّرخة آتية من ناحية المغارة. وقفز مثل ماعز شمواه، وجهّز بندقيّته راكضًا، وبلغ في أقلّ من دقيقة قمّة الهضبة المقابلة للهضبة التي كان قد لمح فوقها المسافر. هناك بلغت سمعه صيحاتُ النّجدة واضحةً.
أجال البصر في الفضاء الذي كان هو مهيمنًا عليه: - كان ثمّة رجلٌ يختطف تيريزا، مثلما اختطف ديانيرا السنطورُ نيسوس.كان الرّجل، المتّجه صوب الغابة، قد قطع ثلاثة أرباع المسافة بين المغارة والغابة.
قاسَ فامبا المسافة الفاصلة؛ كان الرّجل يسبقه بمائتي خطوة على الأقلّ، لم يكن ثمّة من إمكان للّحاق به قبل أن يبلغ الغابة. توقّف الرّاعي الشّاب كأنّما تجذّرت قدماه في التّربة. ثبّت مقبضَ بندقيّته على كتفه، ورفع ببطءٍ الماسورة صوب المختطِف، وتابعه لحظةً في حركته، ثمّ

أطلق النّار. فتوقّف المختطف لحظةً خاطفةً؛ ثمّ انثنت ركبتاه وسقط ساحبًا معه تيريزا في سقوطه. لكن ما لبثت تيريزا أن قامت واقفة، بينما ظلّ المختطف ساقطًا أرضًا ينتفض انتفاض النّزع.

انطلق فامبا من فوره صوب تيريزا، إذ ما لبثت الصبيّة أن سقطت على بعد عشر خطواتٍ من مختطفها، فخشي فامبا أن تكون الطّلقة التي أردت عدوّه قد أصابت أيضًا خطيبتَه. إنما لحسن الحظّ لم يكن شيءٌ من ذلك، إنّما هو فقط الرّعبُ قد شلّ قوى تيريزا. ولمّا اطمأنّ لويجي على سلامتها، استدار صوب المصاب. وكان الرّجل قد قضى، لاويًا فمه من الألم، وقد تصلّب شعره تحت عَرَق النّزع، وظلّت عيناه جاحظتين متوعّدتين.

دنا فامبا من الجثّة، وتعرّف على كوكوميتو.

منذ اليوم الذي أُنقذ فيه قاطع الطّريق من طرف الشّابيْن، وقع في غرام تيريزا وأقسم أن تكون له. ومذّاك صار يترصّدها؛ واغتنم الفرصة حين تركها صديقها لكي يُري المسافرَ طريقَه، فاختطفها، وكان يظنّها قد صارت ملكه، وإذا برصاصة فامبا تخترق قلبَه.

نظر فامبا لحظةً إلى الجثّة من دون أن يرتسم على وجهه أيّ تعبير، أمّا تيريزا فما جرؤت على الاقتراب من قاطع الطّريق إلا بخطًى بطيئة، وألقت نظرةً متردّدة إلى الجثّة من فوق كتف عشيقها.

بعد برهةٍ استدار فامبا شطر عشيقته وقال:

– آه! آه! لقد ارتديت زيّك، جميل؛ حان الوقت لكي أتزيّن أنا أيضًا.

والحال أنّ تريزا كانت قد ارتدت من رأسها إلى قدميها زيّ ابنة كونت سان فيليتشي.

حمل فامبا جسد كوكوميتو بين ذراعيه ودخل به المغارة، بينما أخذت تيريزا دورها في الحراسة. وإذّاك مرّ مسافرٌ آخرُ، فتنبّه إلى شيء غريب: راعيةٌ ترعى نعاجها مرتديةً فستانًا من الكاشمير، وقرطين وعقدًا من

لؤلؤ، ومشدّات من ألماس، وأزرار من ياقوت وزمرّد. لا شكّ أنّ الرّجل قد خال نفسه عاد إلى زمن فلوريانوس[1]، وحال عودته إلى باريس كان سيؤكّد أنّه قد التقى راعية جبال الألب[2] جالسةً عند سفح جبال سابين.

بعد حوالى ربع ساعة خرج فامبا بدوره من المغارة. ولم يكن زيّه أقلّ أناقةً من زيّ تيريزا. كان يرتدي قميصًا من مخمل أحمر عقيقيّ، أزراره ذهبيّة منقوشة، وصدريةً من حرير مطرّز، وحول عنقه شالٌ رومانيّ، وحزام خرطوش مزيّنٌ بأكمله بالذّهب والحرير الأحمر والأخضر؛ وسراويل من مخمل أزرق سماويّ ربطت عند الرّكبة بحلقات من ألماس، وطمّاق من جلد البقر توشيه ألف زخرفةٍ، وقبّعة تحوطها الشّرائطُ من كلّ لونٍ؛ ومن حزامه تتدلّى ساعتان، وفي حزامه الخرطوش وُضع خنجرٌ رائعٌ.

أطلقت تريزا صيحة إعجابٍ. لقد كان فامبا في زيّه ذاك أشبه شيءٍ برسْمةٍ ليوبولد روبرت أو شنيتز[3]. وكان قد ارتدى زيّ كوكوميتو بأكمله. انتبه الشّاب إلى الأثر الذي خلّفه في نفس خطيبته، فارتسمت على شفتيه ابتسامة فخر.

قال: – والآن، هل أنت على استعداد لأن تشاركيني مصيري كيفما كان؟

صاحت الشّابة بحماسة: – آه، أجل!

– وأن تتبعيني حيثما ذهبتُ؟

---

(1) المقصود على الأرجح القدّيس فلوريانوس، وهو قديس شفيع بولندي (250م–304م)

(2) ربّما يلمح ألكسندر دوما هنا إلى لوحة جوزيف فيرني (1789–1714) الشّهيرة «راعية جبال الألب».

(3) لويس ليوبولد روبرت، وجون فيكتور شنيتز، وهما على التّوالي رسّامان من فرنسا وسويسرا.

- أتبعك حتّى آخر الدّنيا.
- حسنًا، أمسكي بذراعي، ولنرحل، فما عاد لدينا من وقتٍ نضيّعه.

تأبّطت الصبيّة ذراع عشيقها، من دون حتّى أن تسأله إلى أين هما ذاهبان؛ إذ بدا لها في تلك اللّحظة وسيمًا، أَنوفًا، وقويًّا كإلهٍ. ثمّ انطلقا معًا صوب الغابة، وما هي إلا دقائق حتّى كانا قد اخترقا طرفها. وغنيٌّ عن القول إنّ فامبا كان خبيرًا بكلّ طرق الجبل؛ فانطلق بلا تردّد، وإن كان لا يملك أيّ طريقٍ مشقوقةٍ يهتدي بها، وإنّما يلتمس سبيله متّبعًا الأشجار والأدغال فقطّ؛ مشيا كذلك ما يقارب ساعةً ونصف.ثمّ بلغا الموضعَ الأشدّ كثافة في الغابة. كان ثمّة جدول ماءٍ جفّ قاعه يقودُ إلى مغارة عميقة. اتّخذ فامبا طريقًا غريبةً، طريقًا محشورة بين ضفّتين، ومعتمةً بظلال الصنوبر الكثيفة، طريقًا يبدو النّزول فيها أوعر من النّزول في طريق الجحيم التي ذكرها فرجيليوس.

أصاب تيريزا الجزع من منظر المكان الموحش والقفر، فالتصقت بدليلها، من دون أن تنبس بكلمة؛ لكن لمّا رأته يسير واثق الخطى، ووجهه يشعّ بهدوء عميقٍ، واتتها القوّة هي نفسها لإخفاء انفعالاتها. وفجأةً، على بعد عشر خطوات منهما، برز أمامهما رجلٌ بدا كأنّما انفصل عن شجرةٍ كان يختفي خلفها، وصوّب سلاحه نحو فامبا صائحًا:
- لا تتقدّم خطوةً بعدُ! وإلا مُتَّ!

رفع فامبا يديه في حركة مستخفّةٍ، بينما التصقت به تيريزا عاجزةً عن إخفاء رعبها، وقال:
- ماذا؟ هل تمزّقُ الذّئابُ بعضها بعضًا؟

سأله الخفير: - من تكون؟
- أنا لويجي فامبا راعي مزرعة سان فيليتشي.
- وماذا تريد؟

- أريد أن أكلّم رفاقك المتواجدين هناك خلف جبل روكا بيانكا.

- اتبعني إذًا، أو بالأحرى، ما دمتَ تعرف أين هم رفاقي فلتذهب أمامي.

ابتسم فامبا مستخفًّا باحتياط قاطع الطّريق، ثمّ مرّ إلى الأمام مع تريزا، وواصل الطّريق بنفس الخطى الواثقة الهادئة التي قادته حتّى هناك. وبعد خمس دقائق أشار لهما قاطع الطّريق أن يتوقّفا. فأطاع الشّابان أمره. صاح قاطع الطّريق ثلاث صيحاتٍ يحاكي بها صوتَ الغراب. أجابَ نداءَه نعيبٌ، فقال:

- حسنًا تستطيع المواصلة.

واصل لويجي وتيريزا السّير. لكن بقدر ما كانا يوغلان في المسير بقدر ما كانت الصبيّة تلتصق راجفةً بعشيقها؛ الحالُ أنّه خلال الأشجار كانت تبرز الأسلحة وتلمع ماسورات البنادق.

كانت فرجة روكا بيانكا تقع على قمّة جبل صغير كان فيما مضى بركانًا، بركانًا خمد قبل أن يفر رومولوس وروميوس من ألبي ويشيّدا روما.

بلغ لويجي وتيريزا القمّة وألفيا نفسيهما في لحظة واحدةٍ أمام نحو عشرين قاطع طريق.

قال الخفير: - ها شابٌ أتى يلقاكم، ويريد أن يكلّمكم.

أجاب الرّجل الذي يضطلع بمهمّة القيادة في غياب القائد:

- وماذا يريد أن يقول؟

قال فامبا: - أريد أن أقول إنّي أشعر بالملل من رعي الغنم.

قال نائب القائد: - آه! أفهمك، وقد أتيت تسألنا الانضمامَ إلى صفوفنا.

صاح العديد من قطّاع الطّرق المنحدرين من فيروسينو وبامبرانا وأنانيي، وقد عرفوا لويجي فامبا: - مرحبًا به!

- نعم، لكنّي أتيت أسألكم شيئًا آخر غير الانضمام إليكم.
قال قطّاع الطّرق بدهشة: - ماذا أتيت تسألنا؟
قال الشّاب: - جئتُ أطلب منكم أن تجعلونني قائدًا عليكم.
قهقه الرّجالُ بأعلى صوتهم.
سأله نائب القائد: - وماذا فعلت لتطمح إلى نيل هذا الشّرف؟
- لقد قتلت زعيمكم، وجرّدته من ملابسه التي أرتديها كما ترونَ، وأحرقت فيلا سان فيليتشي كي أهديَ خطيبتي فستان زفاف.
ساعة بعد ذلك كان لويجي فامبا قد انتُخب قائدًا بدلًا من كوكوميتو».
قال فرانز مستديرًا شطر ألبير: - والآن يا صديقي ما تظنُّ في حقّ المواطن لويجي فامبا؟
أجابه ألبير: - أقول إنّه مجرّد أسطورة، لم توجد قطّ.
سأله باستريني: - ما معنى أسطورة؟
أجابه فرانز: - سيطول الشّرح يا مضيفي العزيز. وتقول إذًا إنّ المايسترو فامبا يمارس مهنته في أرباض روما؟
- ويمارسها بضراوة لم يبلغها قطّ قاطع طريقٍ من قبله.
- وهل حاولت الشّرطةُ حقًا الإيقاع به؟
- ما العمل! إنّه على وفاق في آنٍ مع رعاة السّهل، وصيّادي نهر التّيبر، ومهرّبي السّاحل. تلتمسه الشّرطة في الجبل، فينزل النّهر؛ تلاحقه في النهر، فيوغل في عرض البحر؛ ثمّ بغتةً حين يظنّون أنّهم سيظفرون به في جزيرة جيليو أو غوانوتي أو مونت كريستو، يظهر فجأةً في ألابانو أو تيفولي أو ريتشيا.
- وما يفعلُ بالمسافرين؟
- آه! يا إلهي! الأمر بسيط. على حسب المسافة من المدينة، يمهلهم ثماني ساعاتٍ، أو اثنتي عشرة ساعةً أو يومًا لكي تُدفع فديتهم؛ ثمّ إذ تنتهي المهلة، يزيدهم ساعةً من فضله. وما إن تدقّ الدّقيقة السّتون من

تلك السّاعة، ولا تكون النّقود قد وصلت، حتّى يفجّر رأسَ الأسير برصاصة، أو يغرز في قلبه خنجرًا، ويُقضى الأمرُ.

سأل فرانز رفيقه ألبير: - وإذًا، هل لا تزال تريد الذّهاب إلى الكولوسّيوم عبر الطّرق الخارجية.

قال ألبير: - طبعًا، إنّها أجمل الطّرق.

في تلك اللّحظة دقّت السّاعة التّاسعة، ففُتح البابُ ودخل منه الحوذيّ.

قال: - إنّ العربة تنتظركما.

- حسنًا، إلى الكولّوسيوم إذًا!

- عبر بوّابة دل بوبولو يا صاحبيّ السّعادة، أم عبر الأزقّة؟

صاح فرانز: - عبر الأزقّة بحقّ السّماء! عبر الأزقة!

قال ألبير وهو ينهض بدوره مشعلًا سيجاره الثالث: - آه يا عزيزي فرانز! كنت أظنّك أشجع من هذا!

وإذّاك نزل الشابّان الدّرج وصعدا إلى العربة.

34

شبح

توصّل فرانز إلى حلّ وسط يستطيع بموجبه ألبير بلوغ الكولّوسيوم من غير أن يمرّ بأيّ خربة من الخرائب العتيقة، وبالتّالي يبلغان العملاق من دون أن يُنقِصه الاقترابُ التدريجيّ ذرّةً من أبعادِه الهائلة. كانت الطّريق المقترحة هي أن يمرّوا من سيستينا، ويعبروا في زاوية قائمةٍ من أمام كنيسة سانتا ماريا ماتجوري، فيبلغوا عبر نهجِ أوبانا وسان بييترو إن فينكولي نهجَ الكولّوسيوم.

زد على ما سبق أنّ هذا الطّريق يمتاز بميزةٍ أخرى: ميزة أن يخفّف فرانز من الانطباع الذي خلّفته فيه الحكاية التي قصّها عليه المايسترو باستريني، والتي اختلطت في نفسه مع لقائه بمضيفه الغريب في مونت كريستو. فكان أن استند بمرفقه إلى ركنه في العربة، وغرق في التّساؤلات التي طرحها على نفسه ولم يجد لها أجوبةً عند أحد.

شيءٌ آخر ذكّره بصديقه السّندباد البحريّ: تلك العلاقات الغامضة التي تجمع المهرّبين بالنّوتيين. إنّ كلام المايسترو باستريني عن لَوْذ فامبا بمراكب الصيّادين والمهرّبين، قد ذكّر فرانز بالمجرمَين اللذين ألفاهما يتعشّيان مع طاقم اليخت الصّغير الذي انحرف عن طريقه ورسا ببورتوفيكيو فقط لكي ينزلهما برًّا. إنّ الاسم الذي يتّخذه مضيفه على مونت كريستو، والذي نطقه مضيفه في فندق إسبانيا، إنّما يؤكّد له أنّ الرّجل يضطلع بمهمّته الخيرية نفسها على سواحل بيومبينو، وتشيفيتافيكيا، وأوستي، وغريت، مثلما يفعل على سواحل كورسيكا

وتوسكانا وإسبانيا؛ حتّى إنّ فرانز، إن أسعفته الذّاكرة، قد سمعه يذكر اسمي تونس وباليرمو، وفي ذلك الحجّة على أنّ الرّجل يدير شبكة علاقات واسعة.

لكن، مهما بلغ تأثير تلك السّوانح في نفس الشّاب، إلا أنّها تلاشت حالما ارتفع أمامه شبح الكولّوسيوم معتمًا هائلًا، عبر الفتحات التي يلقي القمرُ خلالها أشّعته الطّويلة الشّاحبة السّاقطة من عيون الأشباح.

توقّفت العربة على بعد خطواتٍ من نافورة ميتا سودانس. وتقدّم الحوذيّ يفتح البابَ؛ قفز الشّابّان إلى الأرض فألفيا نفسيهما أمام مرشدٍ بدا كأنّما خرج من تحت الأرض. وبما أنّ مرشد الفندق كان قد تبعهما فقد صار معهما الآن مرشدان. على أنّه يستحيل للمرء أن يتجنّب في روما رفاهية الحصول على مرشد. ففضلًا عن المرشد العامّ الذي يستولي عليك ما إن تدقّ قدمك عتبة الفندق، فلا يتركك حتّى تغادر المدينة، ثمّة مرشدٌ عند كلّ أثر من الآثار بالمدينة، مرشد سيُبيّن لك تقريبًا كلّ شقفةٍ من شقوف الصّرح.

لكم إذًا أن تتصوّروا هل المرشدون هم ما ينقص الكولّوسيوم، مأثرةَ روما بامتياز، المأثرة التي جعلت مارتياليس[1] يقول:

«ألا فليكُفَّنَّ منف[2] عن الافتخار بمعجزة الأهرام البربرية، ولتصمت الأغاني في مديح عجائب بابل؛ فكلّ شيء ينبغي أن يخضع أمام عظمة المدرّج الذي أقامه قيصر، كلّ أصوات الثّناء ينبغي أن تجتمع لتفخر بهذا الصّرح».

لم يحاول فرانز وألبير البتّة التملّص من سطوة المرشدين. خاصّة وأنّ الأمر سيكون صعبًا، ما دام المرشدون وحدهم مسموح لهم بأن يجوبوا

---

(1) هو على الأرجح الشّاعر الرّوماني ماركوس فاليريوس مارتياليس (القرنان الأوّل والثاني الميلاديّان).

(2) الإله الفرعوني منف ويسمّى كذلك منفر أو ممفِس.

الأثر حاملين مشاعل. لم يبديا إذًا أيّ مقاومة، واستسلما إلى دليليهما بأيادٍ وأقدام مقيّدة.

كان فرانز يعرف تلك الجولة، إذ سبق له أن خاضها عشر مرّاتٍ من قبل. لكن بما أنّ رفيقه، المستجدّ، كان يطأ لأوّل مرةٍ بقدمه صرحَ الإمبراطور فلافيوس فيسبازيانوس، فلا بد لي من الإقرار بأنّه على الرّغم من ثرثرة المرشدين الجاهلة، فقد كان الشّاب شديد الأعجاب بما يراه.

فالحالُ أنّ المرء إن لم يسبق له رؤية الكولّوسيوم، لا يستطيع أن يحيط بعظمة هذا الرّسم الذي ضاعفت من أبعاده أنوار هذا القمر الجنوبيّ الشّاحب الذي تبدو أشعّته مثل غسقٍ غربيٍّ. وما إن خطا فرانز المتفكّرُ مائة خطوةٍ تحت البوابات الدّاخلية، حتّى ترك صاحبه في عهدة المرشدين، إذ لم يكن ألبير يريد أن يفوّت زيارةَ أيّ ركنٍ من أركان المكان، بدءًا من حفرة الأسود، إلى مأوى المحاربين، ومنصّة قيصر، والدّرج المتهدّم نصفه؛ تركهم إذًا يكملون طريقهم المنتظمة، وقصد عمودًا يستظلُّ بظلّه، أمام فرجة تسمح له بأن يحوط ببصره الصّرح الصوّانيّ في كامل عظَمَته.

قلتُ إنّ فرانز كان جالسًا هناك، منذ ما يقارب الرّبع ساعةٍ، متواريًا في ظلّ عمودٍ، منشغلًا بمراقبة ألبير رفقة حاملَيّ مشعلين، وقد خرجوا لتوّهم من فوميتوريوم[1] يقع في الطّرف الآخر من الكولّوسيوم، يسيرون كأنّهم ظلالٌ تتبع وهجًا مستنقعيًا، نازلين درجةً درجةً صوب الأماكن المخصّصة للسيّدات، فإذا به يهيّأ إليه أنّه قد سمع من أعماق الصّرح صوت تدحرج حجرٍ اقتُلع من الدّرج الواقع قبالة الدّرج الذي سلكه هو ليصل إلى الموضع حيث يجلس. بالطّبع ليس بالشّيء النّادر أن ينقلع حجرٌ تحت وطأة الزّمن فيتدحرج في الهاوية؛ لكن هذه المرة بدا له أنّ ما

(1) ممرّ مسقوف يقع تحت المدرجات الرّومانية، ويسمح بتيسير حركة المشاهدين.

حرّك الحجر ليس الزّمن وإنّما فعلُ فاعل، وأنّه يسمع وقع أقدامٍ يتناهى حتّى موضعه، حتّى وإن كان صاحبها يبذل كلّ ما في وسعه ليكتمه.

وبالفعل، ما هي إلا لحظة حتّى برز رجلٌ، وأخذ يخرج تدريجيًا من الظلّ بقدر ما كان يرتقي الدّرجَ المضاءةِ فتحتُه بضوء القمر، بينما درجاته تغوص في الظلام بقدر ما تنزل. كان واردًا أن يكون الرجل مسافرًا مثله، يفضّل التأمّل متفرّدًا على ثرثرة المرشدين العبثية، وبالتّالي ما كان في ظهوره شيءٌ يثير القلق؛ لكن بالنّظر إلى التردّد الذي كان يصعد به آخر الدّرجات، وطريقة توقّفه لمّا بلغ الأرضية، بحيث بدا كأنّما يتسمّعُ، فقد كان بديهيًا أنّه قد أتى إلى هناك لغاية بعينها، وأنّه ينتظر أحدًا.

بحركة غريزية توارى فرانز، ما أمكنه، خلف العمود. على بعد عشر أقدامٍ من الموضع الذي يوجدان فيه معًا، كان يغوص السّقف المعقود، وكانت ثمّة فتحة دائرية شبيهة بفتحة بئر، تسمح برؤية السّماء المملوءة نجومًا. حول تلك الفتحة، التي ربّما كانت تتسلّل منها منذ مئات السّنين أشعّة القمر، تنمو أجماتٌ رؤوسُها الخضراء الواهنة تبرزُ في أفق السّماء الكامدة، بينما نباتات متسلّقة طويلة وأغصان لبلاب عظيمة تزحف على الأرضية وتمضي غائرةً تحت السّقف المعقود، كأنّما هي حبالٌ عائمة.

كان الشّخص الذي أثار حضورُه الغامض انتباهَ فرانز، يقف في موضعٍ نصف بين النّور والعتمة، بحيث لم يكن ثمّة ما يكفي من النّور لتحديدٍ ملامحه، ولا ما يكفي من العتمة ليتعذّر تحديد زيّه: - كان متلفّعًا بمعطفٍ بنيّ كبير وألقى جزءًا كبيرًا منه على كتفه اليسرى بحيث يغطّي أسفل وجهه، بينما تغطّي أعلاهُ قبّعته ذات الحواشي العريضة. وحدهُ طرف ملابسه كان مضاءً بالنّور المائل الذي يمرّ عبر الفتحة، فيسمح للنّاظر أن يميّز سروالًا أسودَ يغطّي حذاءه الطّويل المبرنق. إنّ الرّجل إذًا ينتمي إلى الطّبقة الأرستقراطية أو أقلّه إلى عليّة القوم.

كان الرّجل واقفًا هناك منذ دقائق، وقد بدأت تظهر عليه علامات نفاد

الصّبر، وإذا بصوتٍ خافت يتردّد من الشّرفة العليا. وفي اللّحظة نفسها ظهر ظلٌّ في النّور، ثمّ برز رجلٌ عند فتحة المدخل، وغاص ببصره الثاقب في الظّلمات، فلمح الرّجلَ المتلفّع بالمعطف؛ وعلى الفور قبض على قبضةٍ من النّباتات المتسلّقة واللبلاب الزّاحف، وانزلق بها حتّى بلغ ارتفاع ثلاثة أقدامٍ أو أربع، فقفز بخفّة على الأرض. وكان هذا الذي قفز يرتدي زيًا كاملًا من منطقة ترانستيفيرا.

قال بلهجة أهل روما: - اعذرني يا صاحب السّعادة، لقد أبطأت عنك. بيد أنّي لم أتأخّر سوى دقائق. فللتوّ دقّت بكاتدرائية القديس يوحنّا اللاترانيّ السّاعة العاشرة.

أجاب الغريب بنبرة توسكانية خالصة: - لم تتأخّر، وإنّما أنا من أتى قبل موعده، لذا لا تحتاج اعتذارًا، فحتّى لو أنّك تأخّرت عن موعدك، كنت سألتمس لك العذر في سبب يفوق طاقتك.

- إنّك محقّ يا صاحب السّعادة، لقد أتيت لتوّي من قلعة سان أنجلو، وشقّ عليّ الحديث إلى بيبو.

- ومن بيبو هذا؟

- إنّه موظّف أخصّه بعطيّة لكي يبلغني بما يدور في قلعة صاحب القداسة.

- آه! آه! أرى أنّك رجل حريص يا عزيزي!

- وما العمل يا صاحب السّعادة! لا يدري المرء ما الذي يمكن أن يحصل؛ لربّما وقعتُ يومًا في الفخّ كهذا المسكين بيبينو؛ وسأحتاج يومها لجرذ يقضم بعضًا من حبال شَرَكي.

- خلاصةُ القول، بماذا أخبرَك؟

- ستشهد المدينة، على دأبها دائمًا في افتتاح المناسبات الكبرى، عمليّتَي إعدام. أحد المحكومين سيُضرَب بالهراوة، وهو رجلٌ بائسٌ اغتال راهبًا، ولا يستحقّ منّا أيّ اهتمام. أمّا الثاني فستُضرب عنقه، وهو

المسكين بيبينو.

- وماذا تتوقّع يا عزيزي، إنّكم تثيرون الرّعب، ليس في نفس الحكومة المحليّة، وإنّما في الممالك المجاورة أيضًا، لذا يريدون أن يعطوا بكم العبرة.

- لكن بيبينو لا ينتمي أصلًا إلى عصابتي؛ إنّه مجرّد راعٍ مسكين لم يرتكب جرمًا، سوى إمدادنا ببعض المؤن.

- ممّا يجعله شريكًا لكم. علمًا أنّه سيحظى ببعض الاعتبار: - إذ بدلًا من أن يعذّبوه قتلًا، مثلما قد يفعلون بك إن وقعت في أيديهم، فإنّهم سيكتفون بقطع رأسه بالمقصلة. في المحصّلة سيقدَّم عرضٌ يلائم كلّ الأذواق، سيستمتع الشّعب بأكمله.

قال الرجل ذو الزيّ الترانستيفيري: - هذا من دون أن نحسب العرض الذي أجهّزه لهم، والذي لا يتوقّعونه.

فأجابه صاحب المعطف: - اسمح لي يا صديقي أن أقول إنّه يبدو لي أنّك على وشك ارتكاب حماقة.

- إنّي مستعدٌّ أن أفعل أيّ شيءٍ في سبيل إنقاذ المسكين الذي وقع في هذا المطبّ خدمةً لي. بحقّ العذراء! سأعتبر نفسي جبانًا إن لم أفعل شيئًا إنقاذًا للفتى الشّهم.

- ماذا أنت فاعل؟

- سأضع نحو عشرين رجلًا حول سقالة المقصلة، وحين يقتادونه إليها، سأعطي إشارةً، فننقضّ جميعًا بالخناجر على الحرّاس وننتزعه من بين أيديهم.

- أرى أنّ ما تعتزمه يتطلّبُ الكثير من التوفيق، أظنّ أنّ خطّتي أفضل من خطّتك.

- وما خطّتك يا صاحب السّعادة؟

- سأعطي شخصًا أعرفُه عشرة آلاف بياسترا، فيؤجّل إعدام بيبينو

إلى السّنة التالية، ثمّ أثناء السّنة سأرشي شخصًا آخر بألفٍ غيرها، وأهرّبه من السّجن.

- أمتأكّد أنت من نجاح خطّتك؟

أجاب صاحب المعطف بالفرنسيّة: - بحقّ الشّيطان!

فسأله صاحب الزيّ الترانستيفيري: - ماذا تقول؟

- أقول إنّي أثق في نفسي وحدي وذهَبي، أكثر ممّا قد أثق في كلّ رجالك وخناجرهم، ومسدساتهم وقربيناتهم وبنادقهم. فاتركني أفعل.

- ليكن؛ لكن إن فشلتَ، سنكون دائمًا متأهّبين.

- ظلّوا متأهّبين كما يحلو لكم، لكنّي متأكّد من أنّني سأنقذه.

- موعد تنفيذ الحكم بعد غدٍ، فاحذر. لستَ تملك إلا يوم غد.

- حسنًا، لكنّ اليوم الواحد يتألّف من أربع وعشرين ساعةً، كلّ ساعة منها تساوي ستّين دقيقة، وفي كلّ دقيقة منها ستّون ثانيةً؛ وبوسع المرء أن يفعل الكثير في ستٍّ وثمانين ألفًا وأربعمائة ثانية.

- كيف لنا أن نعرف أنّ خطّتك قد نجحت يا صاحب السّعادة؟

- الأمر بسيط. لقد اكتريت الشرفات العليا الثلاث بمقهى روسبولي؛ إن تمكّنت من توقيف الحكم سأعلّق على النافذتين الجانبيّتين علمين من الدّمقس أصفرين، بينما على الثانية علمًا من دمقس أبيض عليه صليب أحمر.

- اتّفقنا. ومن سيوصل قرار إيقاف الحكم؟

- أرسل إليّ رجلًا من رجالك متنكّرًا في زيّ حارس سجن، وسأعطيه إيّاه. بفضل زيّه سيتمكّن من أن يتقدّم حتّى السّقالة، وهناك سيسلّم الورقة إلى رئيس الأخوية، فيسلّمها هذا بدوره إلى الجلّاد. وفي انتظار ذلك أَوصل الخبرَ إلى بيبينو، كي لا يموت خوفًا أو يفقد صوابَه، فنكون قد ضيّعنا النّقود هباءً.

قال الفلّاح: - أصغي إليّ يا صاحب السّعادة، إنّ ولائي لك، وأنت

تعلم هذا، أليس كذلك؟

– ذلك ما أرجوه.

– وإذًا، إن أنقذت بيبينو سيتحوّل هذا الولاء إلى طاعة.

– انتبه إلى ما تقوله يا عزيزي، فقد أذكّرك بكلامك ذات يومٍ، ولربّما احتجت أنا أيضًا خدماتك مستقبلًا...

– ستجدني إذّاك في خدمتك، كما خدمتني أنت في هذه السّاعة؛ فحتّى إن كنتَ في آخر الدّنيا، ما عليك إلا أن تكتب إليّ: «افعل كذا»، فأفعل...

قال الغريب: – صه! إنّي أسمع ضجيجًا.

– إنّهم سيّاحٌ يزورون الكولّوسيوم في ضوء المشاعل.

– لا ينبغي أن يرونا معًا؛ فبغضّ النّظر عن أنّ صداقتك تشرّفني، إلا أنّ رؤيتنا معًا، والاطّلاع على ما يجمعنا من علاقةٍ، سيفقدني شيئًا من مصداقيتي.

– ستوقف الحكم إذًا؟

– موعدنا الشّرفة الوسطى وعليها علم أبيضُ من دقمس بصليب أحمر.

– فإن لم تحصل على القرار؟

– تجد على الشّرفات الثلاثِ ثلاثةَ أعلامٍ صفراء؟

– وإذّاك؟

– إذّاك استعملوا خناجركم كما يحلو لكم، وبعد إذنك، سأكون حاضرًا هناك كي أراكم تفعلون.

– إلى اللّقاء يا صاحب السّعادة، أعتمد عليك، فاعتمد عليّ.

ثمّ إذ نطق صاحب الزيّ الترانستيفيري بكلماته تلك، اختفى عبر السّلم، بينما الغريب، وقد غطّى وجهه بمعطفه أكثر من ذي قبل، خطا على بعد خطوتين من فرانز، ثمّ نزل إلى الحلبة عبر المدرّجات الخارجية.

ثانية بعد ذلك، سمع فرانز اسمَه يتردّد تحت القباب، وكان ذاك ألبير

يناديه. فانتظر حتّى تأكّد من ابتعاد الرّجلين، ثمّ أجابَ، إذ كان يخشى أن يجعلهما يدركان بأنّهما خلّفا وراءهما شاهدًا، وإن لم يكن قد تبصّرَ وجهَيهما إلا أنّه قد أحاط بكلّ ما قالاهُ سمعًا.

عشر دقائق بعد ذلك كان فرانز يطوي طريقَ الرّجوع صوب فندق إسبانيا، منصتًا بشرودٍ بالغ إلى الإنشاء العالِم الذي يتلوه عليه ألبير، عن بلينيوس وكلبرنيوس[1]، بخصوص الشّباك المزيّن بأشواك حديدية تمنع الحيوانات الضواري من أن تهجم على المتفرجّين. تركه يكمل حديثه من دون أن يعارضه؛ كان يتعجّل الاختلاء بنفسه ليتمكّن من التفكير دونما مشوّش فيما جرى أمامه.

من بين الرّجلين اللذين كان شاهدًا على حديثهما، كان أحدهما غريبًا، وهي المرّة الأولى التي يسمعه فيها أو يراه، أمّا الثاني، فليس متأكّدًا من أنّه لم يقابله من قبل؛ وعلى الرّغم من أنّ الرّجل ظلّ يخفي وجهه بمعطفه، إلا أنّ نبرة صوته التي سمعها أوّل مرّة أثارت انتباهه بحيث يصعب عليه نسيانها. في عباراته المتهكّمة تحديدًا كان ثمّة شيءٌ من الحدّة والرّنين جعله يرتجف في مكمنه بالكولّوسيوم، مثلما سبق أن ارتجف في مغارة مونت كريستو. لذا كان موقنًا كلّ اليقين أنّ الرّجل ليس سوى السّندباد البحريّ.

ولو أنّ الأمر جرى ضمن ملابساتٍ أخرى، لما قاوم فرانز الرّغبة في أن يظهر ويتعرّف على الرّجل؛ لكن الحديث هذه المرّة كان خطيرًا وشديد الخصوصية، بحيث إنّه لو طلع على الرّجلين لما أعجبهما الأمر؛ لذا ما استطاع إلا أن يترك الرّجل يبتعد، كما أسلفنا، لكنّه أقسم أنّه إن لاحت له الفرصة مرّة أخرى، لن يتركه يفلت كما أفلته هذه المرّة.

كان فرانز مشوّش الذّهن إلى درجة أنّ النّوم جافاه. فقضى ليلته

---

(1) من أعلام الحضارة الرومانية اللاتينية، أولهما عالم طبيعي وتاريخي شهير (بلين الأكبر)، وثانيهما شاعر.

يقلّب في ذهنه الملابسات التي شهدت لقاءه برجلِ المغارة وغريب الكولّوسيوم، ونفسُه تنازعه إلى مطابقة الرّجلين وجعلَهما رجلًا واحدًا؛ وكلّما أوغل فرانز في التفكير ترسّخ عنده هذا الرّأي.

لم ينم إلا مطلع النّهار، فكان أن استيقظ متأخّرًا. وكان ألبير قد اتّخذ، كما يليق بباريسيّ حقّ، تدابير سهرته. أرسل يطلب حجز مقصورةٍ في مسرح أرجنتينا. أمّا فرانز فكانت لديه الكثير من الرّسائل يكتبها إلى فرنسا، فترك العربة إلى ألبير النّهار بأكمله.

في الخامسة مساءً عاد ألبير؛ كان قد حمل رسائله المستعجلة، وقد حصل على دعوات السّهرات كلّها، وزار روما.

نهارٌ واحد كان يكفي ألبير للقيام بكلّ ذلك. لا بل واستفسر عن المسرحية التي تُعرض والممثلين الذين يؤدّونَها. وكانت المسرحيةُ تحمل عنوان باريسيانا؛ والممثلونَ أسماءَ: كوسيلي، وموریاني ولاسبيتش. واضح إذًا أنّ صاحبَيْنا لم يكونا تعيسَيْن، إذ سيحضران إحدى أفضل الأوبرات التي ألّفها مؤلِّفُ أوبرا **لوتشا دي لامرمور**[1]، يؤدّيها ثلاثةٌ من أشهر الممثّلين في إيطاليا.

لم يتعوّد ألبير أبدًا مسارح ما وراء الجبال[2]، المسارح التي لا يذهب فيها المتفرّج إلى لقاء الجوق، والتي لا تتوفّر على شرفات أو مقصورات مكشوفة؛ كان ذلك أمرًا شاقًا بالنّسبة إلى رجلٍ يملك شرفته الخاصة في مسرح ليبوف، وجزءًا من مقصورة بالأوبرا. غير أنّ ذلك لم يمنعه من أن يتزيّن زينةً مذهلة كلّما قصد الأوبرا رفقة فرانز، وإن كانت زينةً

---

(1) يقصد غايتانو دونيزيتي، وقد ألّف الأوبرا المذكورة (عروس لامرمور) سنة 1835.

(2) تعبير بائد كان يقصد به ما يقع وراء الجبال أو من يسكن وراء الجبال (تحديدًا جبال الألب)؛ فالمقصود إذًا الإيطاليّ بالنّسبة إلى الفرنسي والألماني، والفرنسي والألمانيّ بالنّسبة إلى الإيطاليّ.

ضائعةً عبثًا، إذ ينبغي القول إنّ الرّجل، وهو أحد أعظم ممثلي الموضة في العالم الباريسي، طيلة الأربعة أشهر التي حرث فيها شوارع روما، لم يحظَ بمغامرةٍ واحدة. وكان ألبير يحاول أحيانًا أن يمازحه بهذا الصدّد؛ لكن في العمق كان حزينًا لأجله، إذ إنّ ألبير إنّما قصد إيطاليا لهذا الغرض تحديدًا، إذ كان يظنّ أنّه سيحصد نجاحًا باهرًا، ويعود إلى باريس ليحكي مغامراته في شارع غان.

للأسف! لا شيء من ذلك تحقَّق. كانت الكونتيسات الجميلات الجنوياتُ، والفلورنسيات، والنابوليتانياتُ وفيّاتٍ، ليس للزّوج وإنّما للعشيق، وقد خرج ألبير من رحلته بهذه القناعة. على الأقلّ الإيطاليات أوفى في خيانتهنّ من الفرنسيات. ولا أريد أن أقول إنّه ليس في إيطاليا، كما في كلّ مكانٍ، استثناءات. ولم يكن ألبير فارسًا شديد التأنّق فحسب، وإنّما كان أيضًا رجلًا ذكيًّا؛ بالإضافة إلى أنّه كان فيكونت: نبيل محدثٌ بلا شكّ؛ لكن من ذا الذي لا يزال يهتمّ اليوم إلى هذا الأمر، فيمَ يهمّ أن ترجع النّبالة إلى سنة 1399 أو سنة 1815! وفوق ذلك كلّه كانت مداخيله خمسين ألف جنيه. وكان ذاك مبلغًا يفوق ما تحتاجه الموضة في باريس. فكان ثمّة إذًا شيءٌ من المهانة في أن يَعبُر كلّ تلك المدن من غير أن ينتبه إليه أحد. على أنّه كان ينوي أن يستدرك الأمر بكرنفال روما، إذ من المعروف أنّ هذا الاحتفال هو في جميع البلدان الذي تحتفل به مناسبةُ حريّة، يطلق فيها أشدُّ المتزمّتين العنانَ لبعض الأفعال المجنونة. لكن، بما أنّ موعد الكرنفال كان مقرّرًا في الغد، فقد كان لزامًا على ألبير أن ينشر بيانه التمهيديّ قبل الافتتاح.

ولأجل ذلك اكترى مقصورة من أشدّ مقصورات المسرح بروزًا، وتزيّن قبل ذهابه إليها زينةً لا تشوبها شائبة. وكانت المقصورة في الصفّ الأوّل الذي هو نظير الشُّرفة عندنا. عدا ذلك كانت باقي الطّوابق جميعها ذات طابع أرستقراطيّ، ولذلك تسمّى صفوف النّبلاء. فالمقصورة

المعلومة، التي يمكن أن تأوي اثني عشر شخصًا من غير أن يتزاحموا، كلّفت الصّديقين أقلّ ممّا قد تكلّفهما مقصورة أربعة أشخاصٍ في مسرح أمبيغو[1].

وكان ألبير يربّي أملًا آخر: لو استطاع أن يفوز بقلب رومانية حسناء، فسيقوده الأمر تلقائيًا إلى الفوز بمقعدٍ في عربتها، وبالتّالي سيشرف على الكرنفال من أعلى سيارة أرستقراطية، وشرفةٍ أميرية. تلك الاعتبارات مجتمعةً، كانت تجعل ألبير لعوبًا أكثر من أيّ وقتٍ مضى. كان يولي الممثلين ظهره، ويميل بنصف جسده من الشّرفة متطلّعًا إلى النّساء الحسناوات بواسطة منظارٍ بطول ستّ بوصات. ومع ذلك لم تجُدْ أيّ امرأةٍ عليه بنظرةٍ، حتّى وإنْ كانت نظرة فضولٍ.

الحالُ أنّ الجميع كانوا يتحدّثون في أمورهم، وأعمالهم، وغرامياتهم، وملذّاتهم، وفي شأن الكرنفال الذي سيفتتح غداة أسبوع الآلام المقبل، من دون أن يُبدوا أيّ اهتمامٍ بما يجري حولهم، لا بالممثلين، ولا بالمسرحية، اللّهم إلا لحظاتٍ معيّنة يستدير فيها الجميع لينصتوا إلى مقطع ينشده كوزيللي، أو ليصفّقوا لإحدى حركات موریاني اللامعة، أو يهتفوا لسبيتش قائلين «برافو»: ثمّ لا تلبث الأحاديث أن تواصل طريقها الاعتيادية.

نحو نهاية المشهد الأوّل، انفتح بابُ مقصورة ظلّ مغلقًا حتّى تلك اللّحظة، وشهد فرانز دخول امرأةٍ كان قد تشرّف بمعرفتها في باريس، وظنّها لا تزال بفرنسا. انتبه ألبير إلى الحركة التي ندّت عن صديقه إذ شهد هذا الظّهورَ، فاستدار شطرَه، وقال:

- هل تعرف هذه المرأة؟

- نعم؛ ما رأيك؟

---

(1) مسرح أمبيغو الكوميدي، تأسّس بباريس سنة 1769 وهدم سنة 1966.

- جميلة يا عزيزي، وشقراء. أوه! ما أجمله من شعر! أهيَ فرنسية؟
- إنّها من البندقية.
- وتسمّيها؟
- الكونتيسة ج.

صاح ألبير: - أوه! إنّي أعرفها بالاسم؛ يقال إنّها ذكيّة بقدر ما هي جميلة. يا إلهي، حين أفكّر في أنّي كان يمكن أن أتعرّف عليها في حفل السيّدة دو فيلفور، حيث كانت حاضرة، وأهملتُ ذلك، ما أغباني!

سأله فرانز: - تريدني أن أصلح الأمر؟

- كيف! هل تعرفها بما يكفي لكي تقودني إلى مقصورتها؟

- تشرّفتُ بالحديث إليها ثلاث مرّاتٍ أو أربعًا فقط؛ لكنّك تعلم أنّها مرّات كافية لكي تجعل ذهابنا عندها أمرًا لائقًا.

وفي تلك اللّحظة لمحت الكونتيسةُ فرانز فأشارت إليه بيدها محيّيةً، فأجاب تحيّتها بأن أحنى رأسه احترامًا.

قال ألبير: - آه! يبدو لي أنّ علاقتك بها جيّدة جدًا؟

- الحقّ أنّك مخطئ، ومثل خطئك هذا هو ما يكبّدنا نحن الفرنسيين سمعتنا السيّئة في الخارج، أقصد سمعةَ أنّنا نُخضع كلّ شيء لوجهة نظرنا الباريسية. والحال يا صديقي أنّه في إسبانيا، وفي إيطاليا خاصّةً، لا ينبغي أن تفسّر الحميمية بين النّاس بأنّها تحرّرٌ في العلاقات. إنّما هي المودّة جمعتنا بالكونتيسة، وهذا كلّ ما في الأمر.

سأله ألبير ضاحكًا: - جمعتكما المودّة القلبية؟

أجابه فرانز بجديّة: - بل مودّة العقل.

- وما كانت المناسبة؟
- زيارة إلى الكولّوسيوم، شبيهة بتلك التي قمنا بها معًا.
- زيارة في ضوء القمر؟
- نعم.
- وحدكما؟

- تقريبًا!
- وتحدّثتما...
- عن الأموات.

صاح ألبير: - آه! كان إذًا حديثًا مسلّيًا جدًا! أمّا أنا إن قُدّر لي شرف التنزّه مع الكونتيسة، فأعدك بأن لا أحدّثها إلا عن الأحياء.

- ولربّما تكون مخطئًا.
- في انتظار ذلك، هلاّ عرّفتني عليها، كما وعدتني؟
- سأفعل ما إن ينزل السّتار.
- اللّعنة! ما أطول هذا المشهد الأوّل!
- أنصِت إلى المقطع الختامي، إنّه جميل جدًا، وكوزيللي يغنّيه بروعة.
- أجل، لكن ياله من عذاب!
- إنّ سبيتش تعبّر عن أعلى درجات المأساوية!
- لن تُدرك المأساوية حتّى تسمع زونتاغ وماليبران[1]...
- ألا ترى أنّ الطريقة التي يغنّي بها مورياني ممتازة؟
- لا يعجبني أن يغني الأسمر على طريقة الأشقر.

قال فرانز وهو يستدير، بينما ألبير يواصل نظراته المختلسة: - آه! يا عزيزي، لشدّ ما يصعب إرضاؤك!

ثمّ أخيرًا، نزل السّتار، فتهلّل الفيكونت دو مورسيرف، وحمل قبّعته، وسرّح شعره على عجلٍ بيديه، وسوّى ياقته وأكمامه، وأشار إلى فرانز أن ينتظره.

وإذ أشارت الكونتيسة إلى فرانز إشارةً أبلغته بها أنه مرّحبٌ به في

---

(1) هونربيت زونتاغ (1805-1854)، وماريا فيليتشيا غارسيا الملقّبة بماليبران (1808-1836)، مغنّيتان: فرنسية وإسبانية.

مقصورتها، لم يتأخّر في تلبية رغبة صديقه، فدارا معًا حول المسرح نصف الدّائريّ، فرانز في المقدّمة يليه ألبير الذي استغلّ المسافة التي قطعاها في تسريح الطيّات التي خلّفتها حركاته في ياقة قميصه وحواشي لباسه. طرق فرانز باب المقصورة رقم 4 التي كانت تشغلها الكونتيسة.

وعلى الفور قام الشّاب الذي كان جالسًا إلى جانبها مُفسحًا المجال إلى القادم الجديد، الذي سيفسح بدوره مكانه لمن يأتي بعده، كما تقتضي العادة عند الإيطاليّين.

قدّم فرانز للكونتيسة ألبير باعتباره أحد أبرز شبابنا من حيث وضعه الاجتماعي ومستوى ثقافته؛ ولم يكذب في ذلك، إذ إنّ ألبير كان يُعتبر في أوساطه فارسًا لا يعابُ. وأضاف أنّ الفيكونت قد شعر بالتّقصير لأنّه لم يستغلّ فرصة تواجد الكونتيسة في باريس ليتعرّف عليها، فحمّله مهمّة أن يُصلحَ خطأه. وإنّها لمهمّة يضطلع بها راجيًا من الكونتيسة أن تغفر له جرأته، إذ هو نفسه يحتاج مَنْ يقدّمه إليها.

أجابت الكونتيسة بتحيّة طيّبة لألبير، ومدّت يدها إلى فرانز. وبدعوةٍ منها جلس الأوّل في الموضع الشّاغر بجانبها، بينما انتحى الثاني خلفها في الصفّ الموالي.

وجد ألبير موضوعًا شائقًا للحديث: - موضوع باريس. فأخذ يحدّث الكونتيسة عن معارفهما المشتركين. أدرك فرانز أنّ صديقَه على الطّريق الصّحيحة، فتركه يواصل، وطلب منه منظاره الهائل، وأخذ بدوره يتفحّص الصالة. في مقصورة تقع على الصفّ الثالث أمامهما، كانت تجلس بمفردها امرأةٌ جميلةٌ جدًا، ترتدي زيًا إغريقيًا، وكانت ترتديه بارتياحٍ بالغٍ بحيث لا يشكّ النّاظر إليها في أنّه زيّها الاعتياديّ. خلفها، ترتسمُ هيئةُ رجلٍ يستحيلُ تبيّنُ وجهه.

قاطع فرانز حديث ألبير والكونتيسة، ليسألها عمّا إذا كانت تعرف الحسناء الألبانية التي كانت من الجمال بحيث لن تثير اهتمام الرّجال

فحسب، وإنّما كذلك النّساء.

قالت الكونتيسة: - كلّا، كلّ ما أعرفه هو أنّها في روما منذ بداية الموسم؛ إذ منذ افتتاح المسرح، وأنا أراها تأتي، لم تفوّت أيّ عرضٍ، تارةً يصحبها الرّجلُ الجالس معها الآن، وأحيانًا يرافقها خادمٌ أسودُ.

- كيف ترينها يا كونتيسة؟

- جميلةً جدًا. لا شكّ في أنّ ميدورا[1] ستكون على صورة هذه المرأة.

تبادل فرانز والكونتيسة ابتسامةً. واستأنفت حديثها مع ألبير، بينما عاد هو إلى مراقبة ألبانيّته.

رُفع السّتار عن عرض الباليه. وكان عرضًا من عروض الباليه الإيطالية الجيدة، صمّمه هنري الشّهير، الذي طبق صيته آفاق إيطاليا، ثمّ أتى صيته ذاك ليضيع في المسرح البحريّ[2]. إنّه عرض باليه من تلك العروض التي يتحرّك فيها الجميع، من الشّخصية الرئّيسيّة وحتّى آخر كومبارس، في اللّحظة نفسها، فيرفعون جميعًا في الوقت نفسه هذه الذّراع أو تلك القدم. وكان يطلق على هذا الباليه اسم: بوليشكا.

وكان فرانز شديد الانشغال بيونانيّته الحسناء، بحيث لم يكن ليعير بالًا لعرض الباليه مهما كان العرض مثيرًا للاهتمام. أمّا هي فكان يبدو عليها الاستمتاع بالعرض أيّما استمتاع، في تضادٍ تامٍّ مع رفيقها الذي لم يكن يبدي أيّ مبالاةٍ به، وظلّ طيلة مدّة العرض الكوريغرافيّ التحفة، غارقًا في نومٍ هانئٍ مبهج، على الرّغم ممّا كان حوله من صخب الأبواق والصّنوج.

ثمّ انتهى الباليه أخيرًا، وسط تصفيقٍ غامرٍ من جمهورٍ منتشٍ. وبفضل

---

(1) ربّما تقصد بطلة أوبرا فيردي «القرصان» التي أُلّفت انطلاقًا من قصيدة للّورد بايرون بنفس العنوان.

(2) أو مسرح فونتادور بباريس.

عادة الإيطاليّين قطعَ حفلات الأوبرا بعروض باليه قصيرة، تكون لحظات ما بين المشاهد قصيرةً جدًا، لكنّها تمنح المغنّين فرصة الاستراحة وتغيير ملابسهم بينما الرّاقصون ينفّذون حركاتهم.

انطلق إذًا مفتتحُ المشهد الثاني؛ ومع أولى ضربات ريشة قائد الأوركسترا، رأى فرانز النّائمَ ينهض ببطءٍ، ويدنو من الإغريقية التي استدارت لتبادله كلماتٍ، ثمّ يعود للاستناد على واجهة المقصورة.

كان وجه المحادث لا يزالُ في الظلِّ، فما استطاع فرانز تبيّن ملامحه.

رُفع السّتار، وكان لازمًا أن يجذب انتباهَ فرانز الممثّلون، فتركت عيناه لحظةً مقصورة اليونانية الجميلة لتنظرا صوب خشبة العرض. وكما علمنا، بدأ الفصل بمشهد الحلم: باسترينا، نائمةً، تحلم، فتفصح أمام أدزو بسرّ حبّها أوغو؛ يمرُّ الزّوجُ المخونُ بأطوارِ غضب الغيرة جميعها، إلى درجة أنّه، إذ يقتنع بخيانة زوجته، يوقظها ليُعلن عليها نيّته الانتقامَ.

إنّ هذا المشهد الثانيّ واحدٌ من أجمل المشاهد التي كتبها يراعُ دونيزيتي الخصب، وأقواها تعبيرًا وأشدّها رعبًا. وهذه المرّة الثالثة التي يسمعه فيها فرانز، وعلى الرّغم من أنّه ليس سمّيعَ موسيقى، إلا أنّ المشهد قد خلّف فيه بالغ الأثر. وبالتّالي كان على وشك أن ينخرط في التّصفيق مع الجمهور، وإذا بيديه، وهما على وشك أن تلتقيا، تظلّان مسمّرتين ومتباعدتين، وكلمة «برافو» التي كان موشكًا على أن يطلقها، تذوي في فمه.

وقف رجلُ المقصورة، وأنار الضّوءُ وجهه، فتعرّف فرانز على ساكن مونت كريستو الغامض، ذاك الرّجل الذي خال الشّابُ أنّه قد تعرّف على قامته وصوته في خرائب الكولّوسيوم.

ما من شكّ بأنّ المسافر الغريب يسكن في روما. ولا ريب في أنّ ظهور الرّجل قد خلّف في سحنة فرانز بالغ الاضطراب، إذ إنّ الكونتيسة

نظرت إليه، فقهقهت متسائلةً عمّا به.

أجابها فرانز: - سيّدتي الكونتيسة، سألتك منذ قليل عمّا إذا كنت تعرفين تلك المرأة الألبانية، أمّا الآن، فأسألك عمّا إذا كنت تعرفين زوجها.

أجابته الكونتيسة: - لا أعرفه إلا بقدر ما أعرفها.

- ألَم تنتبهي إليه قطّ؟

- هذا حقًّا سؤالٌ فرنسيٌّ خالص! إنّك تعلم علم اليقين أنّنا نحن الإيطاليات لا نرى في العالم رجلًا سوى الرّجل الذي نحبّه!

أجابها فرانز: - أنت محقّة.

قالت وهي تضع منظار ألبير على عينيها، وتوجّهه إلى المقصورة: - على أيّ حالٍ، يبدو صاحبنا ميّتًا دُفنَ حديثًا في قبره أو جثّةً خرجت من قبرها بإذن الحفّار، إذ إنّه شاحبٌ شحوبًا فظيعًا.

قال فرانز: - إنّه لونُه الفعليّ، لطالما كان هكذا.

سألته الكونتيسة: - أنت تعرفه إذًا؟ أنا إذًا من ينبغي أن يسألك عنه.

- أظنّ أنّني التقيته من قبل، أخالني أعرفه.

قالت وهي تحرّك كتفها الجميلة كأنّما سرَت في عروقها رجفةٌ:

- الحقّ أنّ من يرى وجهَ رجلٍ مماثلٍ، لن ينساه أبدًا.

لم يكن الأثر الذي خلّفه الرّجلُ إذًا في نفس فرانز استثناءً، ما دام شخصٌ آخر قد أحسّ به مثله.

سأل فرانز الكونتيسةَ بعدما نظرَت نظرةً أخرى: - ما ظنّك إذًا بالرّجل؟

- ظنّي أنّه اللّورد روثوين[1] بشحمه ولحمه.

---

(1) شخصية من ابتكار الكاتب الأنجليزي جون بوليدوري، وتعدّ من أبكر مصّاصي الدّماء في الأدب الإنجليزي.

والحقّ أنّ هذه الذكرى من الشّاعر بايرون[1] قد صدمت فرانز: - لو كان لإنسان أن يقنعه بوجود مصّاصي الدّماء، فهو هذا.

قال فرانز وهو يقف: - ينبغي أن أعرف من يكون.

صاحت الكونتيسة: - أوه! كلّا، لا تتركني، إنّي أعتمد عليك في إيصالي، وأستبقيك.

قال فرانز وهو يميل على أذنها: - كيف! هل أنت حقًّا خائفة؟

قالت: - اسمع، لقد أقسمَ لي اللورد بايرون بأنّه يؤمن بمصّاصي الدّماء، وقد صوّر لي وجوههم بدقّة! وأقول لك إنّ الوصف ينطبق تمام الانطباق على وجه صاحبنا: شعر أسود، عينان تبرقان بلهيبٍ غريب، شحوبٌ مميت؛ ثمّ لاحظ أنّه ليس مع امرأةٍ ككلّ النّساء، وإنّما مع أجنبية... يونانية، منشقّة... لا شكّ في أنّها ساحرةٌ مثله. أرجوك لا تذهب. غدًا إن شئتَ انطلق في إثره متقصّيًا، أمّا اليوم فأعلمك أنّي لن أتركك تفعل.

ألحّ فرانز، فقامت واقفةً وقالت: - أصغِ إليَّ، إنّي ذاهبةٌ، لا يمكنني أن أنتظر حتّى نهاية العرض، عندي ضيوفٌ بالبيت. فهل ستنقصك الشّهامة وترفض رفقتي؟

لم يكن فرانز يملك إجابةٍ إلا أن يأخذ قبّعته، ويفتح البابَ ثمّ يمدّ ذراعه للكونتيسة. وكذاك فعل.

كانت الكونتيسة في غاية الانفعال؛ وفرانز نفسه لم يكن يقدر أن يقاوم ضربًا من الرّعب الخرافيّ، خاصّة وأنّه بخلاف رعب الكونتيسة لم يكن ردّ فعلٍ غريزيّ، بقدر ما هو نتيجةُ ذكرى عاشها.

---

(1) اللورد بايرون، ومبرّر وروده هنا أنّ جون بوليدوري انطلق في كتابته من مسوّدة خطّها بايرون أثناء إقامة جمعتهما معا والزّوجين شيلي، ثمّ إنّ جون بوليدوري إشهارًا لكتابه وقّعه بداية باسم بايرون، وقد نفى الشّاعر اللّورد نسبةَ الكتاب إليه.

شعر بأنّها كانت ترتجف ساعة صعدت العربة، فصحبها حتى بيتها. ولم يكن ببيتها أحد، ولا كان بانتظارها ضيوف، فلامها على ادّعائها.

قالت: - الحقُّ أنّي لا أشعر بنفسي في حالٍ جيّدة، وأحتاج أن أبقى بمفردي، ذاك أنّ مرأى الرّجل المعلوم قد هزّ كياني.

حاول فرانز الضّحك.

قالت: - لا تضحك؛ ثمّ إنّك لا ترغب في الضّحك. وعِدني بشيء.

- أعدك بما تشائين، ما عدا التخلّي عن فكرة تقصّي هويّة الرّجل. إنّ لي من الأسباب، التي لا أستطيع البوح بها، ما يكفي لأن أرغب في معرفة من يكون، ومن أين أتى وإلى أين هو ذاهب.

- من أين أتى، أجهلهُ؛ لكن إلى أين هو ذاهب، أستطيع أن أخبرك: - إنّه بلا ريب ذاهب إلى الجحيم.

- لنعد إلى الوعد الذي تريدين منّي أن أقطعه لك يا كونتيسة.

- آه! عُد مباشرة إلى فندقك، ولا تحاول تقصّي هويّة الرّجل؛ إنّ الأسباب لترتبطُ بين من نتركهم وبين من نذهب إليهم، فلا تكن السبب الذي يربطني به. وغدًا لك أن تتعقّبه ما شاء لك، لكن أبدًا لا تعرّفني به، وإلا قتلتني رعبًا. والآن أودّعك، راجيةً لك نومًا هنيئًا، إذ أعرف أنّ ثمّة شخصًا آخر لن ينام.

وإذ قالت الكونتيسة قولها ذاك تركت فرانز، وهو في حيرة من أمره، لا يدري هل تلاعبت به، أم أنّها فعلًا أحسّت بالرّعب الذي تدّعيه.

عندما دخل فرانز إلى الفندق وجد صديقه ألبير في روب النّوم، مستلقيًا بلذّةٍ على أريكةٍ، يدخّن سيجارَه.

- آه! هذا أنت! صدقًا، لم أكن أتوقّع عودتك قبل الغد.

- عزيزي ألبير، أنا سعيد بهذه الفرصة التي سمحت لي مجدّدًا بأن أعيد عليك القولَ إنّك مخطئٌ تمامًا في ظنّك بالنّساء الإيطاليات. مع أنّ خيباتك الغرامية يفترض أنّها بدّدت لديك هذا الظنّ.

- ماذا تتوقّع! إنّ تلك الشّيطانات المسمّيات نساءً لا يتركن للمرء فرصةً ليفهمهنّ! يتأبّطن ذراعك، يحدّثنك بصوتٍ خافت، يجعلنك تصحبهنّ حتّى منزلهن؛ لو أنّ باريسيةً فعلت ربع ذلك لضاعت سمعتها.

- إيه! لأنّ النّساء تحديدًا، في البلاد التي تتردّد فيها كلمة سِي[1]، كما يقول دانتي، ليس لديهن ما يخفينه، ولأنهنّ يعشنَ في النّور، فإنّهن يتصرّفن على سجيّتهنّ. ثمّ لقد رأيتَ بنفسك أنّ الكونتيسة قد خافت حقًّا.

- خافت ممّ؟ من الرّجل الشّريف الذي كان يجلس قبالتنا، ومعه اليونانية الجميلة؟ لقد أردت أن أقف على حقيقتهما حين خرجا، وقابلتهما في البهو. لا أدري أيّ شيطانٍ وسوس لكما بتلك الأفكار في حقّهما! إنّه شابٌّ وسيمٌ، وأنيقٌ، وواضحٌ أنّه قد اتّخذ لباسه بفرنسا من عند بلان أو هومان؛ صحيحٌ أنّه شاحبٌ بعض الشّيء، لكنّ الشّحوب علامةُ تميّز.

ابتسم فرانز، إذ كان ألبير يعتدّ كثيرًا بشحوبه.

قال فرانز: - ومع ذلك أنا مقتنع بأنّ قلق الكونتيسة منه ليس بالأمر الهيّن. هل تكلّم أمامك، هل سمعت شيئًا من كلامه؟

- لقد تكلّم لكن بالرّومايّيك. عرفت اللّهجة من بعض الكلمات اليونانية المحرَّفة. ينبغي أن تعلم يا صديقي أنّني أيّام المدرسة كنت متفوّقًا في اليونانية.

- كان يتكلّم إذًا بالرّوماييك؟

- على الأرجح.

غمغم فرانز: - ما من شك أنّه هو.

- ماذا تقول؟...

- لا شيء. ماذا كنت تفعل هنا؟

- كنت أحضّر لك مفاجأةً.

---

(1) كلمة «نعم» بالإيطالية Si.

- أيّ مفاجأة؟
- أنت تعرف أنّ من المستحيل أن يحصل المرء على عربة؟
- اللعنة! ما دمنا قد فعلنا كلّ ما في وسع بشرٍ أن يفعل في سبيل ذلك.
- حسنًا، لقد اهتديت إلى فكرةٍ رائعة.
نظر فرانز إلى ألبير نظرته إلى رجلٍ لا يثق كثيرًا في فطنته.
قال ألبير: - عزيزي، إنّك تتكرّم عليّ بنظرةٍ تستحقّ منّي أن أطالبك بتعويض عنها.
- أنا مستعدٌ لذلك يا صديقي، إن كانت فكرتك عبقريةً كما تدّعي.
- أصغِ إليّ.
- أصغَي إليك.
- ما من طريقةٍ للحصول على عربة إليس كذلك؟
- كلا.
- ولا خيول؟
- ولا خيول.
- لكن نستطيع الحصول على كارة[1]؟
- ربّما.
- وثَورَين؟
- ربّما.
- وإذًا يا عزيزي! إليك ما سنفعله. سأزيّنُ العربة، وسوف نلبس لباسَ فلّاحَين نابوليتانيَّين، وسوف نجسّد في الواقع لوحة الرّسام ليوبولد روبرت الرّائعة. وإذا وافقت الكونتيسة على أن ترتدي زيّ امرأةٍ من بوزول أو سورينتي، فإنّها ستكمل معنا التنكّر، وإنّها على قدرٍ كافٍ من الجمالِ لكي يعتبرها النّاظرُ نسخةً أصليةً عن المرأة وطفلها[2].

(1) عربة من عجلتين تحمّلُ عليها البضائع.
(2) يقصد على الأرجح لوحة الأمّ السّعيدة للفنّان المذكور.

صاح فرانز: - إلهي! هذه المرّة أصبتَ يا عزيزي ألبير، وإنّها حقًّا لفكرةٌ عبقرية.

- ووطنيّةٌ. فيها بعثٌ للملوك الكسالى[1]، يا عزيزي. آه! يا سادتي سكّان روما، أتحسبون أنّنا كنّا سنركض على أقدامنا مثل لازارونيّين[2]، لأنّكم تفتقرون إلى العربات والخيول؛ حسنًا! إنّنا قادرون على الابتكار.

- هل أطلعت أحدًا غيري على فكرتك المظفّرة؟

- أطلعت عليها مضيفَنا. لمّا دخلتُ، طلبتُه وأفصحت له عن رغبتي. وقد أكّد لي أنّ لا أسهل من ذلك؛ أردت أن أطلي قرون الثورين باللون الذهبيّ؛ لكنّه قال إنّ الأمر سيحتاج ثلاثة أيّامٍ. علينا إذًا أن نستغني عن هذا التّفصيل.

- وأين هو؟

- من؟

- مضيفنا؟

- ذهب يبحث عن مطلوبنا. فإن انتظر إلى الغد قد يكون الوقت فاتَ.

- وبالتّالي سيأتينا بالجواب هذا المساء؟

- إنّي بانتظاره.

وفي تلك اللّحظة انفتح البابُ وأطلّ المايسترو باستريني برأسه.

قال: - أتسمحان؟

صاح فرانز: - بالطّبع نسمح.

قال ألبير: - وإذًا هل حصّلت الكارة والثورين اللّذين طلبناهما؟

---

(1) حرفيًا تعني الملوك «الذين لا يفعلون أيّ شيء»، وهي تسمية أُطلقت لاحقًا على حكم سلالة من الملوك الإفرنج (فرنسيين) الذين حكموا بعد داغوبير الأوّل ابتداءً من سنة 639.

(2) من لازاروني، وهي كلمة إيطالية تحيل على معنى إنجيلي: المجذومون، وصارت تطلق بالعموم على من كان غير ذي شأنٍ.

أجاب بنبرة الرّاضي عنه نفسه كلّ الرّضا: - لقد وجدتُ ما هو أفضل.
قال ألبير: - آه يا مضيفي العزيز، حذار فإنّ الأفضلَ عدوُّ الجيدِ!
قال المايسترو باستريني بنبرةٍ واثقة: - لتحكم بنفسك يا صاحب السّعادة.
تساءل فرانز بدوره: - لكن، ماذا هناك؟
أجاب صاحب الفندق: - تعلمان أنّ الكونت مونت كريستو يسكن وإيّاكُما في نفسِ الطّابق؟
- أظنُّ ذلكَ، ما دمنا بفضله نسكن محلًا أشبهَ بسكن طالبَين بشارع سان نيكولا دو شاردونيه.
- حسنًا، لقد علم بالمأزق الواقعَيْن أنتما فيه، فعرض عليكما مقعدين في عربته وموضعين في شرفاته بفندق روسبولي.
تبادل ألبير وفرانز النّظرَ.
تساءل ألبير: - هل لنا أن نقبل عرض هذا الغريب، عرض رجلٍ لا نعرفه؟
وسأل فرانز مضيفَه: - من يكون هذا المدعو كونت مونت كريستو؟
- من صفوة صقيلية أو مالطة، لا أدري تحديدًا، لكنّه نبيل كأحد أفراد آل بورغس، وغنيّ كمنجم ذهب.
قال فرانز لألبير: - يبدو لي أنّ الرّجلَ لو كان على الرّفعة التي يدّعيها مضيفُنا، لأبلغنا عرضه بطريقةٍأخرى، لكان أرسل إلينا خطابًا، أو...
وفي تلك اللّحظة طُرق البابُ.
قال فرانز: - اُدخُل.
برز عند عتبة باب الغرفة خادمٌ يرتدي زيًا شديد الأناقة.
قال: - من طرف الكونت مونت كريستو إلى السيّد فرانز ديبيناي، والفيكونت ألبير مورسيرف.
ثمّ مدّ الرّجلين ببطاقتين، وواصل الكلام: - إنّ سيّدي الكونت مونت

كريستو يطلب من سيادتكم الإذن بأن يزوركم غدًا صباحًا؛ ويطلب أن تشرّفوه بمعرفة أيّ السّاعات تناسبكم لاستقباله.

قال ألبير لفرانز: - الحقّ ما عاد لدينا ما نلومه عليه.

أجاب فرانز: - قُل للكونت إنّنا نحن من يتشرّف بزيارته.

انسحب الخادمُ.

قال ألبير: - هذا ما نسمّيه قمّة اللّباقة؛ إنّك محقّ يا مايسترو باستريني إنّ هذا الكونت مونت كريستو على درجة عاليةٍ من الرّفعة.

سأل المضيف: - هل ستقبلان العرض؟

أجاب ألبير: - وكيف لا؟ مع أنّي والحق أقول، أسِفٌ على الكارة والثّورين والحصّادين؛ ولولا أنّ في الشّرفة بقصر روسبولي تعويضًا عن خسارتنا، لرجّحتُ فكرتي. ما قولك يا فرانز؟

- قولي إنّه بالنّسبة إليّ أنا أيضًا، شرفات روسبولي هي ما يحسم الأمر.

والحالُ أن عرض الشّرفتين بقصر روسبولي قد ذكّر فرانز بالحديث الذي كان شاهدًا عليه بخرائب الكولّوسيوم، نقصد الحديث بين الرّجل الغريب والرّجل ذي الزيّ الترانستيفيري، والذي بموجبه تعهّد صاحب المعطف بأن ينقذ رأسَ أحد رجالِ مُحاوره. فإن كان رجل الخرائب هو عينه رجل الشّرفة الذي شغل باله كلّ الشّغل، فإنّها فرصةٌ لإرواء فضوله.

قضى فرانز قسمًا من اللّيل يحلم باللّقاءَين اللّذين كان شاهدًا عليهما، ويمنّي النّفسَ بالغد. غدًا يفترض أن يتّضح كلّ شيء؛ وهذه المرّة لن يحول شيءٌ بينه وبين كشف حقيقة مضيفه الكونت مونت كريستو، اللهمّ إلا إن كان صاحبنا يملك خاتم جيجياس، فيمكّنه من مَلكة الإخفاء. وكان أن استفاق قبل السّاعة الثامنة. أمّا ألبير الذي، بخلاف صديقه، لم يكن من المبكرين فقد واصل النّوم ما طاب له.

نادى فرانز مضيفَه، فلبّى النّداء بتذلّله المعتاد.

قال له: - أليس يفترض أن تجري اليومَ وقائعُ إعدامٍ يا مايسترو باستريني؟

- بلى يا صاحب السّعادة؛ لكن إن كنت تسأل عن ذلك رغبة في الحصول على شرفةٍ تشاهد منها الإعدام، فأقول لك إنّك قد تأخّرت.

- كلا، ليست تلك رغبتي؛ ثمّ إنّي لو وددتُ أن أشاهد الإعدام لوجدتُ مكانًا على جبل بينتشو.

- أوه! ظننتُ أنّك يا صاحب السّعادة لن ترغب في أن تختلط بالسّوقة في ذاك المسرح الطّبيعيّ المفتوح.

قال فرانز: - لن أذهب على الأرجح؛ لكنّني أريد معرفة بعض التفاصيل.

- أيّ تفاصيل؟

- أريد أن أعرف عدد المحكومين، وأسماءهم ونوع العقاب الذي سيتعرّضون له.

- طلبُك أتى في خير وقتٍ يا صاحب السّعادة! فللتوّ جاؤوني بالتافوليتي.

- وماهي هذه التافوليتي؟

- إنّها ألواحٌ من خشب تعلّقُ عند زوايا الشّوارع عشيّة الإعدامات، وفيها تلصق أسماء المحكومين وسبب الحكم عليهم وطريقة عقابهم. والغاية منها دعوةُ المؤمنين إلى الصّلاة للمذنبين بالتّوبة النّصوح.

سأله فرانز بنبرة متشكّكة: - وقد أتوك بهذه التافوليتي كي تصلّي مع المؤمنين؟

- كلّا يا صاحب السّعادة، لقد اتّفقت مع المكلّف بإلصاق الإعلانات، فصار يأتيني بها كما يُؤتاني بملصقات الحفلات، هكذا يحاطُ بها علمًا نزلائي، ممّن يرغبون في حضور الإعدامات.

صاح فرانز: - آه! أيّ غايةٍ رفيعةٍ هي!

أجابه المايسترو باستريني باسمًا: - لي أن أفخر بأنّي أفعل كلّ ما في وسعي إرضاءً للنّبلاء الأجانب ممّن ينعمون عليّ بثقتهم.

- ذاك ما وقفتُ عليه يا مضيفي! وثق بأنّ ذاك ما سأردّده على مسامع الجميع. وفي انتظار ذلك أرغب في أن أرى إحدى تلك التافوليتي.

قال المضيف وهو يفتح البابَ: - لا أسهل من ذلك، لقد علّقت إحداها في الرّدهة.

ثمّ خرج ونزع التافولاتة، وعرضها على فرانز.

وإليكم الترجمة الحرفية للملصق الشُّؤم:

ليكن في علم الجميع أنّه في يوم الثلاثاء 22 فبراير، الموافق لأوّل أيّام الكارنفال، وبقرار من محكمة لاروتا، سينفّذُ بساحة البوبّولو، حكمُ الإعدام في المدعو أندريا دوندولو، المتّهم بقتل المبجّل تشيزاري تيرليني، كاهن كنيسة القدّيس يوحنّا اللاترانيّ؛ وبالمدعو بيبينو، الشّهير بروكا بريوري، المتّهم بالتّواطؤ مع المجرم لويجي فامبا ورجال عصابته.

الأوّل سيعدم ضربًا بالهراوة.

والثاني سيضربُ عنقه.

ندعو الأرواح المؤمنة إلى أن تصلّي للرّب أن يُنعم على الشقيّين بتوبةٍ نصوح.

كان ذلك حقًّا ما سمعه فرانز أوّل أمس بخرائب الكولّوسيوم، ولم يتغيّر في البرنامج شيء: أسماء المحكومين، وتهمّهما، وأشكال عقابهما، كانت كما هي.

على الأرجح إذًا لم يكن الترانستريفيري إلا لويجي فامبا، والرّجل ذو المعطف غير السّندباد يواصلُ هنا في روما سياحاته بعيدًا عن البشر، مثلما يفعل في بورتوفيكيو أو تونس.

على أنّ الوقت كان يمرّ، وها قد بلغت السّاعة التّاسعة، وذهب فرانز

يوقظ ألبير، وإذا به لعظيم دهشته يراه خارجًا من غرفته وقد ارتدى ملابسه. إنّ الكرنفال قد وثب إلى ذهنه، فأيقظه قبل الموعد الذي كان يفترضه صاحبه.

قال فرانز مخاطبًا مضيفَه: - حسنًا، الآن وقد صرنا جاهزين معًا، هل تظنُّ يا عزيزي السيّد باستريني أنّنا نستطيع الذّهاب عند الكونت؟

- أوه! بكلّ تأكيد! إنّ من عادة الكونت أن يبكر، ولا أشكّ في أنّه قد استيقظ منذ ساعتين.

- ولا ترى حرَجًا في أن نذهب عنده في هذه السّاعة؟

- كلّا.

- في هذه الحال، إن كنت مستعدًّا يا ألبير...

أجابه ألبير: - مستعدٌ تمامًا.

- هيًا إذًا نشكر جارنا على كرمه.

- هيّا.

لم يكن فرانز وألبير بحاجة إلا إلى أن يقطعا الردهة، فتقدّم الفندقيُّ أمامهما، وقرع البابَ.

فتح البابَ خادمٌ. قال الفندقيُّ: «السينيوران الفرنسيان».

انحنى الخادمُ تحيّةً، وأشار لهما بأن يدخلا. عبرا غرفتين مؤثّثتين بأثاثٍ فخم ما ظنّا أن يجدا له مثيلًا في فندق المايسترو باستريني، ثمّ بلغا صالونًا كاملَ الأناقة. بساطٌ تركيّ فُرش فوق الأرضيّة الخشب، وأرائك من أشدّ من تكون الأرائك رفاهًا، عليها وسائد مستديرةٌ ومساندُ مائلةٌ. وعلى الجدران عُلّقت لوحاتٌ رائعةٌ أبدعها معلّمو الرّسمِ الكبارُ، وبينها قطع سلاح مُبهرة؛ وعلى المداخل تتماوج زرابيُّ هائلةٌ.

قال الخادم: - هلّا تكرّم أصحاب السّعادة بالجلوس، سوف أعلم سيّدي الكونت.

ثمّ اختفى عبر أحد الأبواب.

وفي اللّحظة التي فُتح فيها البابُ تناهى إلى سمع الصّديقين رنينُ قيثارةٍ تركيّة، ثمّ ما لبث أن أنطفأ: - إنّ الباب الذي انغلق ما إن انفتح لم يسمح بأن يدخل إلى الصالون إلا نفحة بسيطة من نغم.

تبادل ألبير وفرانز النّظرات، ثمّ انصرفا إلى تأمّل ٱلأثاث واللّوحات والأسلحة. وبدا لهما كلّ شيءٍ، حين نظرا إليه مرّةً ثانيةً، أجمل ممّا بدا لهما أوّلَ نظرةٍ.

سأل فرانز صديقه: - وإذًا ما قولك فيما ترى؟

- الحقّ يا عزيزي، أقول إنّ جارنا إمّا أن يكون أحد رجال المال ممّن غنموا الفرصة في انخفاض القيم المالية بإسبانيا، وإمّا أنّه أميرٌ يسافرُ متخفيًا.

قالفرانز: - صه! ذاك ما سنكشفه، إذ ها مضيفنا قادمٌ.

وبالفعل تناهى إلى سمع الزائرين صرير مصراع باب؛ وعلى الفور تقريبًا ارتفعت الزربية، كاشفةً عن وجهِ مالكِ تلك الخيراتَ كلّها.

تقدّم إليه ألبير، بينما ظلّ فرانز مسمّرًا في موضعه.

لم يكن الدّاخلُ إلا الرّجل ذا المعطف، وغريبَ المقصورة، والمضيف الغامضَ في جزيرة مونت كريستو.

35

المازولاتة[1]

قال الكونت مونت كريستو وهو يدخل: - سيّديَّ، تقبّلا منّي فائق الاعتذار، إذ لم أكن المبادر إلى الزيارة، لكنّي ظننتُ أنّ من غير اللائق أن آتيكما في ساعةٍ مبكرة. ثمّ إنّكما قد أبلغتماني بأنّكما ستزورانني بنفسَيْكما، فالتزمت باقتراحكما.

قال ألبير: - نحن مدينان لك، أنا وفرانز، بألف شكر يا سيّدي الكونت؛ لقد أخرجتنا من مأزقٍ فعليّ؛ لقد كنّا بصدد ابتكار أشدَّ المركبات خياليّةً، حين أتتنا دعوتُك الكريمة.

أجاب الكونت وهو يشير للشّابين أن يجلسا على أريكة: - إه! يا إلهي! إنّما هو خطأ هذا البليد باستريني ما جعلني أترككما طويلًا في ضيقكما! لم يأتِ أمامي قطّ على ذكر مأزقكما، أنا المنعزل هنا متربّصًا أن تلوح الفرصة للتعرّف على جيراني. وما إن علمت أنّ بإمكاني أن أخدمكما، حتّى رأيتما بأيّ سرعةٍ لبّيت النّداءَ، وعرضت عليكما خدمتي.

انحنى الرّجلان. ولم يكن فرانز قد وجد بعد أيّ كلمةٍ يقولها؛ لم يكن قد اتّخذ بعد أيّ قرار، وبما أنّ الكونت لم يشِ بما يفيد أنّه يريد التعرّف على فرانز أو أن يتعرّفَه فرانز، فقد حار الشّابُ لا يدري هل يلمّحُ إلى ما كان من لقائهما في الماضي، أو يترك الآتي من الأيام يحملُ له المزيد من البراهين. ثمّ إنّه وإذ كان متيقّنًا من أنّ الكونت هو الرّجل الذي شاهده أمس في المقصورة، فإنّه في المقابل كان لا يزال متشكّكًا بالنّسبة إلى

(1) الإعدام ضربًا بالهراوة.

هويّة غريب الكولّوسيوم؛ فاستقرّ رأيُه على أن يترك الأيّام تفصح عمّا يأتي، وألّا يفاتح الكونت مباشرة بخصوص ما مضى. زد على ذلك أنّه كان متفوّقًا على الكونت، لقد كان يعرفُ سرّه، في حين ليس لديه هو ما يخفيه. على أنّه قرّر أن يجرّ الحديث إلى نقطةٍ يمكن أن تفيد في تجلية بعض الشّكوك.

قال: - سيّدي الكونت، لقد تكرّمت علينا بمقاعد في عربتك وفي شرفاتك بقصر روسبولي؛ فهل تستطيع أن تخبرنا الآن كيف يمكننا أن نحصل على مكانٍ كيفما كان، مثلما يُقال هنا في إيطاليا، يطلُّ على ساحة دِل بوبّولو؟

أجاب الكونت بنبرةٍ لا مباليةٍ وهو يخصّ مورسيرف باهتمامٍ بالغ: - آه! ألن تشهد ساحة دل بوبولو اليومَ شيئًا من قبيل إعدام؟

أمّن فرانز موافقًا، وهو يرى الكونت قد بلغ بنفسه النّقطة التي كان يودّ أن يجرّهُ إليها.

- مهلًا، مهلًا، أظنّ أنّي قد طلبت من مدبّر منزلي أمس الاهتمام بالأمر؛ ربّما قد أنفعكم في هذا أيضًا.

مدّ يدَه إلى حبل جرسٍ، وسحبه ثلاثًا.

قال لفرانز: - هل سبقَ أن اهتممت بتدبير الزّمن، وسبل تسهيل تنقّل الخدم في البيت؟ لقد قمتُ بدراسةٍ في الموضوع: حين أقرع الجرس مرّةً، يكون نداءً لخادم غرفتي؛ ومرّتين لكبير الخدم، وثلاثًا لمدبّر المنزل. وبهذه الطّريقة لا أضيّع دقيقةً أو كلمة. ها هو مدبّرُ المنزل.

وإذّاك دخل رجلٌ في الخامسة والأربعين إلى الخمسين من عمره، بدا لفرانز مطابقًا للمهرّب الذي دلّه على باب المغارة، لكنّ الرجلَ بدا كأنّما لم يتعرّف البتّة على فرانز.

قال الكونت: - سيّد برتوتشو، هل اعتنيت كما أمرتك أمس بأن تجد لي شرفةً على ساحة دل بوبّولو؟

أجاب المدبّر: - أجل يا صاحب السّعادة، ولكنّ الأوان كان قد فات.

قال الكونت مقطّبًا الحاجب: - كيف! ألم أقل لك إنّي أريد شرفةً؟

- وكذلك كان يا صاحب السّعادة، لقد حصلت لك على الشّرفة التي كان قد استأجرها الأمير لوبانييف؛ لكنّني اضطررت إلى أن أدفع مقابلها مائة...

- حسنًا، حسنًا يا سيّد برتوتشو، جنّب السيّدين هذه التفاصيل؛ لقد حصلت على الشّرفة، وهذا كلّ ما يهمّ. أعطِ الحوذيّ عنوان المكان، وانتظر أسفل الدّرج لكي تقودنا. يكفي؛ هيّا.

ألقى المدبّرُ التحيّةَ وخطا خطوةً لينصرفَ، فاستمهله الكونت:

- آه! سَل باستريني عمّا إذا كان قد استلم التافوليتة، واطلب إليه أن يرسل إليّ ببرنامج الإعدام.

أجابه فرانز وهو يسحب مذكّرته من جيبه: - لا حاجة إلى ذلك؛ لقد اطّلعت على تلك الألواح ونقلتُ محتواها، وها هو.

- حسنًا، بإمكانك أن تنسحب يا سيّد برتوتشو، لا أحتاجك. فقط أخبرنا حين يجهز الطعام. (ثمّ أضاف وهو يستدير شطر الشّابين): هل سيشرّفني السيّدان بقبول دعوتي إلى الغداء؟

قال ألبير: - لكن يا سيّدي قد يكون في الأمر إفراطًا في استغلال كرمك.

- كلاّ، بالعكس، سيسرّني أن تقبلا دعوتي، ولا بدّ أن تعيدا ليّ الدّعوةَ في باريس يومًا، إمّا أحدكما أو كلاكما. ضع يا سيّد برتوتشو مائدةً لثلاثة أشخاص.

أخذ المفكّرة من يد فرانز. وواصل بنبرة من يقرأ الإعلانات الصّغيرة:

- قلنا إذًا، إنّه في يومه 22 فبراير، سينفّذُ حكمُ الإعدام في المدعو أندريا دوندولو، المتّهم بقتل المبجّل تشيزاري تيرليني، كاهن كنيسة القدّيس

يوحنّا اللاترانيّ؛ وبالمدعو بيبينو، الشّهير بروكا بريوري، المتّهم بالتّواطؤ مع المجرم لويجي فامبا ورجال عصابته... هَمم! الأوّل سيعدم ضربًا بالهراوة. والثاني سيضربُ عنقه.

ثمّ استأنف الكلامَ بنبرته المعتادة: - أجل، هكذا كان يفترض أن تجري الأمور؛ لكنّي أحسب أنّ تغييرًا طرأ في ترتيب المراسم.

ندّت عن فرانز زفرة تعجّب، فاستأنف الكونت الكلام:

- أجل، لقد كنت أمس في بيت الكاردينال روسبيليوزي، حيث قضيت السّهرة، أظنّهم كانوا يتحدّثون عن توقيف تنفيذ حكمٍ أو شيءٍ من هذا القبيل.

سأله فرانز: - توقيف حكم أندريا روندولو؟

أجاب الكونت بلامبالاة: - كلّا، الآخر... (وألقى نظرةً على المفكّرة كأنّما ليتذكّر الاسم)، بيبينو، المعروف بروكا بريوري. سيحرمكما ذلك من حضور إعدامٍ بمقصلة، لكن يتبقى لكما الإعدامُ بالهراوة وهو إعدام مثير للاهتمام إنْ شهده المرء أوّل مرّة، أو حتّى ثانية مرّة؛ بينما الإعدام الأوّلُ، والذي لا شكّ أنّكما على دراية به، بسيطٌ لديه، ومتطابقٌ، ليس فيه ما يخرق المتوقّعَ. إنّ نصْلَ المقصلة لا يخطئ طريقَه، لا يرتجف، لا يضربُ عبثًا، لا يعاود المحاولة ثلاثين مرّةً كما فعلَ الجنديّ الذي ضرب عنق كونت شاليه، والذي قد يكون الكاردينال ريشيليو هو من اختاره لتنفيذ الحكم. (ثمّ أضاف بنبرةٍ مشمئزّة) آه! لا تذكرا لي الأوروبيّين حين يتعلّق الأمر بإنفاذ الأحكام؛ إنّ الأوروبيّين لا يفقهون بهذا الصدد شيئًا، ويمكن القول إنّهم لا يزالون في طفولة القسوة أو ربّما هم في شيخوختها.

أجابه فرانز: - الحق يا سيّدي الكونت، إنّ المرء ليظنُّ أنّك قد أجريت دراسةً مقارنةً بين الشّعوب فيما يتعلّق بمسألة التّعذيب.

أجاب الكونت ببرود: - القليل فقط من أشكال التعذيب لم أحضرها.

- وهل وجدت متعةً في حضور هذه العروض الفظيعة؟

- كان أوّل إحساس انتابني هو النّفور، ثمّ اللامبالاة، وأخيرًا الفضول.

- الفضول؟ إنّها كلمةٌ رهيبةٌ لو تعلم!

- لماذا؟ ليس ثمّة في الحياة إلا قضيّةٌ واحدةٌ مهمّة: ألا وهي الموت؛ وإذًا! أليس مثيرًا للاهتمام دراسةُ مختلف الطّرق التي يمكن أن تغادر بها الرّوحُ الجسدَ؛ وكيف تتحكّمُ الطّبائع والأمزجة، بل وحتّى أخلاقُ بلدٍ من البلدان في تقرير الطّريقة التي يتحمّل بها الأفراد هذا المرور الأسمى من الوجود إلى العدم؟ أمّا أنا فأقول لك، بقدر ما يشاهد الواحدُ منّا لحظات الموت، بقدر ما يصير الموت يسيرًا عنده. لذا أقول لك إنّ الموتَ عقوبةٌ، لكنّه ليس قصاصًا.

قال فرانز: - لم أفهمك جيّدًا؛ هلاّ بيّنت لي الأمرَ، إذ لا أستطيع أن أصف لك إلى أيّ حدٍ يثير كلامك فضولي.

قال الكونت وقد تلوّن وجهه بالحقد، مثلما قد يتضرّج لون شخص آخر بالدّم: - أصغي إليّ؛ في حال ما إذا أهلكَ رجلٌ ما، في عذاباتٍ فظيعةٍ، أباك أو أمّك أو حبيبتك، أو أيّ شخص من الأشخاص الذين حين يُقتَلعون من قلبك يخلّفون فيه فراغًا أبديًا وجرحًا داميًا؛ في هذه الحال، هل القصاص الذي يعوّضك به المجتمع يكون كافيًا؟ هل يكفيك أن يعبر حديد المقصلة بين قاعدة قذال القاتلِ وعضلات كتفيه؟ أيَجبُر ألمكَ أن يشعر بالألم الجسديّ، لثوانٍ، ذاك الذي سبّب لك الآلام النّفسيّة لسنواتٍ؟

أجاب فرانز: - أجل، أعرف أنّ عدالة البشر غير كافية، ولا يمكن أن تعوّض الإنسانَ. كلّ ما تستطيعه هو أن تعاقب الدّمَ بالدّم، وهذا كل شيء؛ لا ينبغي أن نطالبها إلا بما تستطيعه.

استأنف الكونت الكلامَ: - بل وأزيدُك، وأقدّم لك مثالًا ملموسًا، إنّ المجتمع حين يصابُ في فردٍ من أفراد القاعدة التي ينبني عليها، ينتقمُ من الموت بالموت؛ لكن أليس ثمّة ملايين الحالات التي يمكن أن

تتمزّق فيها أحشاء الفرد من دون أن يعير المجتمعُ ذلك أيّ اهتمام، أو يُمنحَ الضحيّةُ إمكان الانتقام الذي ذكرناه قبل قليل؟ أليس ثمّة جرائمُ يعتبر إزاءها خازوق الأتراك أو قوارب الفُرس[1] أو ليُّ الأوصالِ عند الإيراكوي[2]، عقابًا لطيفًا؟ أجب، ألا توجد جرائم من هذا النّوع؟

أجاب فرانز: - أجل، وعقابًا لها شُرّع النّزالُ.

صاح الكونت - آه! النّزالُ، إنّها لعمري طريقةٌ مرحة لكي يبلغ المرء مرادَه، إن كان مراده الانتقام! رجلٌ يختطف منك حبيبتك، رجلٌ يغوي زوجتك، رجلٌ يعبث بشرف ابنتك؛ حياةٌ بأكملها كانت تنتظر نصيبها من السّعادة التي وعد بها الربُّ كلَّ إنسانٍ، فحوّلها رجلٌ إلى كينونةٍ من ألم، وبؤسٍ وخزي؛ وتحسبُ نفسك انتقمتَ إذ غرزتَ سيفك في صدر الرّجل الذي غرز في عقلك الجنون وفي قلبك الألم، أو أطلقت على رأسه رصاصةً؟ هذا من دون أن نغفل أنّه في أكثر الأحيان هو من يخرج من النّزال منتصرًا، فتُنقّى أمام المجتمع صفحتُه، ويغفر له الربُّ نوعًا ما. كلّا، كلّا، لو كان لي أن أنتقم، فليست هذه الطّريق التي سأسلكها.

سأله ألبير بدوره، مندهشًا من أن يصدر عن الكونت موقفٌ مماثلٌ: - هكذا إذًا، لا تؤيّدُ النّزالَ؟ لن تخوض نزالًا؟

قال الكونت: - أوه! بلى! قد أخوض نزالًا بسبب حيفٍ، أو شتيمة، أو تكذيبٍ، أو وشاية، وسأخوضه بقدرٍ بالغ من اللامبالاة، إذ بفضل السّداد الذي حزته بطول تمرين الجسد واعتيادِ الأخطار، فإنّي شبه متيقّن من أنّني سأقتل خصمي. أوه! بلى! سأخوض النّزال لأجل ذلك كلّه؛

---

(1) كان الفرس يعمدون إلى قاربين أجوفين، فيضعون بينهما المحكوم مربوطًا عاريًا، ويجبرونه على ابتلاع العسل واللبن إلى أن يصيبه الإسهالُ وكذلك يدهنون بالعسل أطرافه الخارجة من ثقوب في القوارب، فتنقضّ عليه الحشرات ويموت بينها متعفّنًا.

(2) تسمية رابطة من مجموعة قبائل من سكّان أمريكا القدامى.

لكنّ ألمًا بطيئًا، عميقًا، لانهائيًا، أبديًا، سوف أجازيه ما استطعتُ بألم مماثل: - العين بالعين والسنّ بالسنّ، كما يقول المشارقة، معلّمونا في كلّ الميادين، أولئك الذين اصطفاهم الخالق واستطاعوا أن يصنعوا حياةً من أحلام وجنّةً واقعية.

قال فرانز: - لكن ضمن هذه النّظرية التي تصير بموجبها قاضيًا وجلّادًا في آنٍ، لا يمكنك أن تبقى عند مستوًى يبعدك من نير العدالة. إن الحقد أعمى، والغضب طائشٌ ومن يسقي كأسَ الانتقام قد يشربُ المرَّ.

- نعم، إن كان فقيرًا وأخرق؛ كلّا، إن كان مليونيرًا وسديدًا. ثمّ إنّ أسوأ مصير قد يواجهه هو أن يخضع للعقاب الذي تحدّثنا فيه قبل قليل، العقاب الذي أحلّته الثورةُ الفرنسيةُ المحبّةُ للإنسان محلَّ تقطيع الأوصال وعجلة الكسر[1]. وإذًا! فيمَ يهمّه هذا العقاب بعد أن حاز انتقامَه؟ الحقّ أنّني مستاء بعض الشّيء من كون هذا البائس بيبينو لن يُقطع رأسُه مثلما قيل، إذ كنتما لتقفا على الوقت الذي تستغرقه العملية، وتدركا ما إذا كان الأمر يستحقّ الحديث. لكن، أيّ حديث فريد هذا الذي نخوضه يومَ الكارنفال! كيف وصلنا إلى هنا؟ آه! تذكّرت. لقد طلبتما منّي موضعًا في شرفتي؛ حسنًا، لكما ما طلبتما؛ لكن، هيا إلى المائدة أوّلًا، إذ ها هم آتون يعلمونني بأنّ الغداء قد جُهِّز.

وبالفعل، فتح خادمٌ بابًا من أبواب الصالون الأربعة، ونطق بهذه الكلمات المهيبة: «**Al suo commodo**[2]**!**».

وقف الشّابان وقصدا غرفة الطّعام.

وأثناء الغداء الذي كان رائعًا وقُدّمَ أرفعَ تقديمٍ، ظلّ فرانز يحاول النّظر

---

(1) تقطيع الأوصال بأن تشدّ أطراف المحكوم إلى جياد أربعة، ويركض كلّ جواد في اتّجاه فتتقطّع أوصال المحكوم؛ وعجلة الكسر، عجلة عربةٍ كبيرة يوثق إليها المحكوم ثمّ تكسّرُ عظامه.

(2) متى ما شئتَ.

إلى عيني ألبير كي يقرأ فيهما الأثر الذي لا يشكّ في أنّ كلام مضيفهما قد خلّفَه؛ لكن، ربّما بباعثٍ من لامبالاته المعتادة لم يعر ألبير كلامَ الكونت أهميّةً تذكر؛ أو لعلّ موقف الكونت من النّزالِ قد واطأ بينهما؛ أو ربّما ما وقع من حوادث أوردانها سابقًا، هو ما ضاعف من هواجس فرانز، وما كان ألبير لينشغل البتّة بما قاله المضيف؛ لا بل إنّ ألبير انطلق يغنم من الأكل ما طاب له، بعدما ألفى نفسه لأربعة أشهر أو خمسة محكومًا بالمطبخ الإيطاليّ، أي محكومًا بواحدٍ من أردأ المطابخ في العالم. أمّا الكونت فبالكاد كان يمسّ كلّ طبقٍ؛ كان يبدو كأنّما بجلوسه إلى المائدة مع ضيفيه، إنّما كان يقوم بفعلٍ يفرضه عليه واجب الضيافة لا أكثر، وأنّه ينتظر رحيلهما كي يتناول طعامًا آخر غريبًا وفريدًا. وذاك ما جعل فرانز يتذكّر رغمًا عنه الرّعب الذي كان الكونت قد خلّفه في نفس الكونتيسة ج، حين رأته بالمقصورة، فظنّته مصّاص دماء.

عندما فرغوا من الطعام، أخرج فرانز ساعته، فقال له الكونت:

– ماذا تفعل؟

أجابه فرانز: – نستميحك عذرًا يا سيّدي الكونت، لدينا الكثير من الأشغال لنقوم بها.

– أيّ أشغال؟

– ليس لدينا بعد ثيابٌ تنكّريةٌ، والتنكّر اليومَ ضروريّ.

– لا تشغلا بالكما بذلك، عندنا، على ما أظنّ، في ساحة دِل بوبولو غرفةٌ خاصّةٌ. سآمر بأن تأتيكما الملابس التي تطلبانها، وهناك نغيّر ملابسنا على الفور.

صاح فرانز: – بعد الإعدام؟

– بلا شكّ، بعده أو أثناءه، كما تشاءان.

– قبالة سقالة الإعدام؟

– إنّ سقالة الإعدام جزءٌ من العرض.

قال فرانز: - لقد فكّرت مليًا يا سيّدي الكونت؛ أشكرك على كرمك، لكنّني سأكتفي منه بمقعدٍ في عربتك وآخر في شرفتك؛ أمّا المكان الذي عرضته عليّ في الشّرفة المطلّة على ساحة دِل بوبولو، فأقول لك إنّك حرٌّ في أن تفعل به ما تشاء.

أجابه الكونت: - لكنّك ستضيع على نفسك مشهدًا جديرًا بالاهتمام.

- سوف تحكي لي التّفاصيل فيما بعد، وإنّي على ثقة من أنّ سماع سرد المشهد من فمك لن يقلّ روعةً عن حضوره في الواقع. ثمّ إنّي قد حاولت غير ما مرّة حضور مشهد إعدامٍ، لكنّني لم أستطع قطّ حسم أمري؛ وأنت يا ألبير؟

- أنا قد حضرت إعدام كاستانغ[1]؛ لكنّي كنت مشوّشًا يومها، إذ وافق يومُ تخرّجي من الكوليج، وكنّا قد قضينا الأمسية في أحد الكاباريهات.

- ثمّ إنّ حضور إعدام في باريس ليس حجّةً لتفويته في الخارج. إنّما نسافر لنتعلّم؛ حين نغيّر الأرضَ، نغيّرها لنرى. فكّر إذًا أيّ ملامح سيتّخذها وجهك حين يسألك أحدهم: كيف يتمّ الإعدام في روما؟ فتجيبه: لا أدري. ثمّ يقال إنّ المحكومَ نذلٌ شنيعٌ، قتل بمِحراك جمر كاهنًا ربّاه كابن له. اللعنة! حين يقتل المرء رجل كنيسة، ينبغي أن يختار سلاحًا لائقًا، سلاحًا أشرف من محراك جمر، خصوصًا حين يكون الرّاهب في منزلة الوالد. لو أنّكما سافرتما إلى إسبانيا، كنتُما لتحضرا مصارعة الثيران، أليس كذلك؟ احسباها إذًا مصارعةً هذه التي سنحضرها؛ تذكّرا عروض السيرك الرّومانية، وحملات الصيّد حيث كان يُقتل ثلاثمائة أسدٍ، ونحو مائةٍ من الرّجال. تذكّرا الثمانين ألف متفرّجٍ، وهم يصفّقون بأياديهم، والأمّهات الحكيمات اللّواتي كنّ يصطحبن

---

(1) طبيب ومجرم فرنسي أعدم بالمقصلة سنة 1823، كان يسمّم ضحاياه، واشتهر بأنّه أوّل من استعمل المورفين في القتل.

بناتهنّ في سنّ الزّواج؛ فكّرا في العذراوات الحسناوات بأكفّهنّ البيض وهنّ يحرّكن الإبهامَ إشارةً إلى: هيّا، لا تتبلّد! أجهز على هذا الرّجل الذي هلكَت ثلاثةُ أرباعه.

قال فرانز: - هل ستذهب يا ألبير.

- طبعًا يا عزيزي، لقد كنت متردّدًا مثلك، لكنّ بلاغة الكونت أقنعتني.

قال فرانز: - لنذهب إذًا ما دمتَ تريد؛ لكنّني في طريقنا إلى ساحة دِل بوبولو، أريد أن أعرّج على نهج إل كورسو؛ هل هذا ممكن يا سيّدي الكونت؟

- ممكن سيرًا على الأقدام، وغير ممكن بالعربة.

- سأذهب إذًا على قدميَّ.

- هل من الضروريّ أن تمرّ عبر شارع دِل كورسو؟

- أجل، ثمّة شيء ينبغي أن أراه.

- حسنًا، لنذهب عبر شارع إل كورسو، سأرسل العربة تنتظرنا في ساحة دِل بوبولو، عبر نهج دِل بابوينو؛ ثمّ إنّني يناسبني المرور من شارع كورسو، لأرى هل نُفّذ ما أصدرتُه من أوامرَ.

قال الخادم وهو يفتح البابَ: - يا صاحب السّعادة، إنّ رجلًا في زيّ موظّفي السّجن، يطلبُ مقابلتك.

- آه! نعم، أعرف من يكون، هلا تفضّلتما يا سيِّدايَ إلى الصّالون، حيث تجدان على الطّاولة الوسطى سيجارًا هافانيًا فاخرًا، وسأوافيكما بعد برهة.

قام الشّابان وخرجا من أحد البابين، بينما خرج الكونت من الباب الثاني، بعدما جدّد لضيفيه الاعتذار.

كان ألبير من كبار هوّاة السيجار، فكان يعتبر نفسه قد قام بما يشبه التّضحية إذ قبل أن يُحرم، طيلة مدّة إقامته بإيطاليا، من سيجار مقهى باريس. فكان أن دنا من الطّاولة وأطلق صيحة فرحٍ وهو يرى أمامه سيجارًا حقًّا.

سأله فرانز: - وإذًا، ما قولك في الكونت مونت كريستو؟

أجاب ألبير وعليه أمارات الدّهشة من سؤال صاحبه: - ما قولي! أراه رجلًا جذّابًا، يشرّف منزله كأفضل ما يكون، رجل رأى كثيرًا، ودرس كثيرًا، وتأمّل كثيرًا؛ رجلٌ على مذهب بروتوس الرّواقيّ، (ثمّ أضاف وهو ينفث مفتونًا نفثة دخانٍ صعدت إلى الفضاء في شكل لولبيّ)، وفوق كلّ ذلك إنّ لديه سيجارًا فخمًا.

ذلكم كان رأي ألبير في الكونت؛ على أنّ فرانز كان يعلم أنّ ألبير قد اعتاد ألّا يكوّن رأيًا في الرّجال والأشياء إلا بعد عميق تفكيرٍ، فلم ينثني عن محاولة تغيير رأيه.

قال: - لكن، ألم تلاحظ شيئًا فريدًا؟

- أيّ شيء؟

- العناية التي كان يتفرّس بها فيك.

- أنا؟

- أجل أنت.

فكّر ألبير. ثمّ قال وهو يطلق زفرة: - آه! ليس في ذلك ما يدفع للاستغراب. منذ ما يقارب سنةً وأنا غائبٌ عن باريس، لابدّ أنّ ملابسي صارت من العالم الآخر، ولربّما حسبني الكونت بروفنساليًا. صوّب رأيَه يا صديقي، وأخبره عند أوّل فرصةٍ تلوح أنّه مخطئٌ.

ابتسم فرانز؛ لحظةً بعد ذلك عاد الكونت.

قال: - ها أنا ذا يا سادة، وقد أصدرت الأوامر؛ ستذهب العربة في طريقها إلى ساحة دِل بوبولو، وسوف نذهب نحن، إذا شئتُما، عبر شارع دِل كورسو. خُذ بعضًا من السّيجار يا سيّد مورسيرف.

قال ألبير: - بكلّ سرور، ذاك أنّ سيجاركم الإيطالي أردأ من سيجار مصلحة التّبغ. حين تأتي باريس سوف أردّ إليك كلّ هذا.

- عطية مقبولة؛ أنوي أن أذهب إلى باريس بضعة أيّام، وما دمتَ قد

أذنتَ لي، فسوف أطرق بابك. هيّا يا سادة، لم يعد لدينا وقتٌ نضيعه؛ مرّت نصف ساعةٍ بعد الزّوال.

نزلوا ثلاثهم. ثمّ تلقّى الحوذيّ آخر الأوامر من سيّده، وانتهج طريق بابوينو، بينما صعد الرّاجلون عبر ساحة إسبانيا، ونهجِ فراتينا، ممّا قادهما رأسًا بين قصر فيانو وقصر روسبولي. وكانت عينا فَرانز معلّقتين بنوافذ القصر الثاني، إذ لم ينسَ الإشارةَ المتّفق عليها في الكولّوسيوم بين رجل المعطف والترانستيفيريّ.

سأل فرانز الكونت بنبرةٍ طبيعيّة جدًّا: - أيّها نوافذك؟

وإذ لم يكن بوسعه أن يدرك ما يرمي إليه الشّابُ من سؤاله فقد أجابه بلا مبالاة بالغة: - الثلاثُ العليا.

ارتفعت عينا فرانز على الفور إلى النّوافذ الثلاث. كانت النّافذتان الجانبيّتان مزيّنتين برايَتين صفراوين، بينما عُلّقت بالنّافذة الوسطى رايةٌ بيضاءُ عليها صليبٌ أحمر. لقد أوفى رجلُ المعطف بالعهد الذي قطعه للترانستيريفيّ، وما عاد ثمّة مجالٌ للشكّ: رجلُ المعطف هو حقًّا الكونت.

كانت الشُّرفات الثلاث لا تزال فارغةً. وعدا ذلك كانت التحضيرات متواصلةً في كلّ جانب؛ فكراسٍ توضعُ، ومنصّاتٌ تُنصَب، وشرفاتٌ تمَدُّ. وليس بإمكان الأَقنعة أن تبرُزَ، والعربات أن تتحرّك، إلا متّى قُرِع النّاقوس؛ لكن كان يُستشعَر بالأقنعةِ كامنةً خلف كلّ النّوافذ، والعرباتِ خلف كلّ الأبواب.

واصل فرانز وألبير والكونت نزولَ شارع كورسو.

وبقدر ما كانوا يقتربون من ساحة الشّعب[1]، كان الحشد يزدادُ كثافةً، وفوق الرّؤوس كانَت تبرز مرتفعةً معلمتانِ: المسلّة التي يعلوها صليبٌ

---

(1) ساحة دِل بوبّولو المتقدّم ذكرها.

وتشير إلى مركز السّاحة، وقبل المسلّة، بالضّبط عند النقطة البصرية التي تلتقي فيها الشّوارع الثلاثة: بابوينو وكورسو وريبيتا، كان يبرز عمودا السقالة المنصوبة.

عند زاوية الشّارع وجدوا مدبّر منزل الكونت، في انتظار سيّده. إنّ الشّرفة التي اكتراها الكونت بمبلغٍ مهولٍ ولم يُرِد قطعًا أن يفصح عنه إلى ضيفيه، تقع في الطّابق الثاني من القصر الكبير الواقع بين شارعَي دِل بابوينو والمونتي بانتشو؛ لقد كانت، كما أسلفنا، ضربًا من مقصورة الزّينة تفضي إلى غرفة نوم؛ وحين يُغلق باب غرفة النّوم، يصير المكترون كأنّما في بيتهم؛ على الكراسي وُضعت أزياء تنكّر بيّاس[1] من ثوبِ ساتانٍ أبيض وأزرق، من الأناقة بمكانٍ.

قال الكونت لضيفيه: - بما أنّكما قد تركتما لي حريّة اختيار الأزياء، فقد اخترت لكما هذين. لأنّهما أوّلًا أفضل ما سيُرتدى هذه السّنة من أزياء؛ ثمّ لأنّ ثوبهما هو الأنسبُ لحفلات الحلوى، من حيث إنّ بقع الدّقيق لا تظهر فيه.

لم يكن فرانز ينصتُ إلى كلام الكونت إلا على نحوِ مبهَم، وبالتّالي لم يقدّر حقّ قدرها الخدمةَ الجديدة التي مَنَّ بها عليه الكونت؛ إذ كان اهتمام الشّاب بأكمله منصبًّا على المشهد الذي يُعرض في ساحة دِل بوبّولو، وعلى الآلة الرّهيبة التي كانت في تلك السّاعة أهمّ معلم فيها.

كانت تلك المرّة الأولى التي يشاهد فيها فرانز مقصلةً؛ ونستعمل هاهُنا كلمة مقصلة لأنّ الماندايا الرّومانية كانت مماثلةً كلّ المماثلة لآلتنا القاتلة[2]. الفرق الوحيد بين الآلتين أنّ النّصل الهلاليّ في الآلة الرّومانية يسقط من مسافةٍ أقرب.

---

(1) من الشخصيات الفكاهية في المسرح الإيطالي الجوّال.

(2) آلة قطع الرّؤوس الرّومانية تسمّى الماندايا، ويقول دوما «آلتنا القاتلة» لأنّ اسم المقصلة في الفرنسية مشتق من اسم مخترعها.

على الخشبة التي يُمَدّ عليها المحكوم، كان يجلس رجلان يأكلان في انتظار الإعدام، وبحسب ما استطاع فرانز أن يبصر، كان الرّجلان يتناولان مقانق وخبزًا؛ رفع أحدهما الخشبة، وأخرج منها قارورة نبيذ، فشرب منها جرعةً ثمّ ناولها رفيقه؛ الرّجلان كانا معاونَيّ الجلّاد! وكان مرآهما وحده كافيًا ليشعر فرانز بالعرق يرشح من منابت شعره.

إنّ المحكومَيْن اللّذين نُقلا مساءً من كارتشيري نويفي (المحابس الجديدة) إلى الكنيسة الصّغيرة سانتا ماريا دِل بوبّولو، قد قضى كلّ منهما اللّيلة في رعاية قسيسين، في كنيسة مغلقة بسياج، يجول أمامها خفرٍ يتغيّرون على مدار السّاعة. وعند كلّ جانبٍ من الكنيسة يمضي صفٌّ من الحرس حاملين بنادقهم ممتدًا حتّى الصّقالة، ثمّ يستدير حولها، مفسحًا طريقًا بعرض عشر أقدام تقريبًا، وحول المقصلة مساحة عرضها نحو مائة قدم. وكان ما تبقّى من السّاحة مبلّطًا برؤوس الرّجال والنّساء. والكثير من النّساء كنّ يحملن أطفالهنّ على أكتافهنّ. وكان أولئك الأطفال، بتجاوزهم الحشد طولًا متموقعين في أفضل موضع.

كان مونتي بانتشو يبدو أشبه شيءٍ بمسرح رحبٍ مُلئت مدرّجاته عن آخرها بالمتفرّجين؛ وكانت شرفتا الكنيستين الواقعتين عند زاويتَي شارع دِل بابوينو وشارع دي ريبيتا قد احتشدتا بالفضوليّين من ذوي الحظوة؛ ودرجاتُ الأبهاءِ المعمّدة تبدو كلجّةٍ مصطخبةٍ مزركشة ما ينفكُّ مدٌّ متعاظمٌ يدفع بها صوب البوابة. وفي كلّ نتوءٍ من الجدار، يمكن أن يجلس فيه إنسانٌ، قامَ تمثالٌ حيٌّ متحرّكٌ.

كان الكونت إذًا محقًّا في كلامه، ليس في الحياة ما هو أكثر مدعاةً للفضول من الموت. وعلى الرّغم من مهابة اللّحظة وما تفرضه من صمتٍ، إلا أنّ صخبًا عاليًا كان ينطلق من الحشد؛ صخَبًا قوامه الضّحكات والصّفير وصيحات المرح؛ كان بيّنًا إذًا أنّ كلام الكونت قد

صدق في هذه النّاحية أيضًا، وأنّ هذا الإعدام ليس في المحصّلة بالنّسبة للشّعب إلا انطلاقة الكرنفال.

وبغتةً صمت الصّخب كأنّما بمفعول سحر، إذ انفتح بابُ الكنيسة. ظهرت في المقدّمة جماعةٌ من السّجانين، وقد تقنّعوا بأكياس رمادية لا تبرز من وجوههم إلا العينين، يمسكون بأيديهم شمعةً موقدة؛ وفي رأس الجماعة يسير القائدُ. وخلف السجّانين يأتي رجلٌ عظيمُ القامة. وكان الرّجُل عاريًا إلا من سروال قماشٍ رَبط إلى يساره سكّينًا كبيرةً مخفيّةً في غمدها؛ وعلى كتفه اليمنى كانَ يحمل قطعة حديد ثقيلةً. كان الرّجل الجلّادَ. وفضلًا عن ملبسه الآنف ذكره كان ينتعل صندلًا يحزمه إلى قدميه بحبالٍ.

خلف الجلاد يسير، وفق الترتيب الذي يفترض أن يتبعه الإعدام، بيبينو، ثمّ أندريا. وكلّ منهما يرافقه قسّان. ولم تُعصّب عينا أيّ من المحكومَيْن. كان بيبينو يمشي بخطى واثقةٍ بما يكفي؛ لا ريب في أنّه قد علم بما يحضّر له. أمّا أندريا فكان يستند بكلّ ذراع على قسّ. وكلاهما كان يقبّل من حين إلى آخر الصّليب الذي يعرضه المعترفُ.

وكان مرأى المشهد السّابق كافيًا لكي يشعر فرانز بقدمَيه تهويان تحته؛ نظر إلى ألبير، فألفاه شاحبًا كقميصه، وبطريقةٍ آليةٍ طوّح بسيجاره بعيدًا، وإن لم يكن قد دخّن إلا نصفَه. وحده الكونت ظلّ باردًا. لا بل أكثر، بدا أنّ خدَّيْه الشّاحبين يوشكان أن يصطبغا بحمرةٍ خفيفة. تمطّى أنفه كأنّما هو أنف حيوانٍ ضَارٍ يتشمّم ريح الدّم، وانفتحت شفتاه قليلًا، فافترّتا عن أسنانه البيضاء الصّغيرة الحادّة كأنّها أسنان ابن أوى. ومع ذلك كلّه كان وجهه قد اكتسى بتعبير عذوبةٍ باسم، لم يرَه فرانز قطّ عليه؛ عيناه على الخصوص كانتا مفعمتين بالدّماثة واللّطف.

أثناء ذلك كان المحكومان لا يزالان يواصلان التقدّم صوب السّقالة، وبقدر ما كانا يتقدّمان، كانت ملامح وجهَيْهما تتّضح. بيبينو كان شابًا

في الرّابعة والعشرين إلى السّادسة والعشرين من عمره، نظرتُه حرّةٌ وشرسة. كان يرفع رأسه عاليًا ويبدو كأنّما يتشمّم الهواء ليتبيّن من أيّ طريقٍ سيأتي مخلّصُه. أمّا أندريا، فكان سمينًا وقصيرًا: وجهه، القاسي بدناءةٍ لم يكن يفصح عن سنّه؛ لكن قد تكون سنّه في حدود الثلاثين. وفي السّجن، أعفى لحيته. شعره كان ينزلُ على إحدى كتفيه، وقدماه ينثنيان تحته. كان يبدو أنّ كيانه كلّه يخضع لحركة آلية لا تملكُ إرادتُه من أمرها شيئًا.

قال فرانز للكونت: - أظنّك قد أخبرتني أنّه لن يكون ثمّة إلا إعدامٌ واحد.

فأجابه ببرود: - أخبرتك بالحقيقة.

- ومع ذلك، ها محكومان.

-أجل؛ لكن من بين الرّجلين، واحدٌ مشرفٌ عاى الموت، والثّاني لا يزال أمامه عمرٌ طويلٌ يعيشه.

- يبدو لي أنّه لو كان ثمّة عفوٌ قادمٌ، فإنّ الوقت يكاد يفوت.

قال الكونت: - بالفعل، وها العفو قادمٌ.

وبالفعل، في اللّحظة التي كاد فيها بيبينو يبلغ عتبة المقصلة، برز سجّانٌ، بدا أنّه متأخّرٌ، واخترق سياج الحرّاس، من دون أن يعترض طريقَه أحد، وتقدّم صوب رئيس الأخوية، وقدّم له ورقةً مطويةً على أربع. لم تكن نظرةُ بيبينو الحادّة تفلت أيّ تفصيل؛ فتح رئيس الأخوية الورقة، وقرأ فحواها، ثمّ رفع يده.

قال بصوتٍ واضحٍ عالٍ: - ليتبارك الربّ ويتقدّس اسمه! أحد المحكومين حصل على العفو.

صاح الحشد بصوتٍ واحدٍ: - العفو! ثمّة عفو!

إذ سمع أندريا تلك الكلمة، كاد يقفز، ورفعَ رأسَه. وصاح: العفو عمّن؟

أمّا بيبينو فظلّ ساكنًا، صامتًا ولاهثًا.

قال رئيس الأخوية: - عُفيَ عن بيبينو، المسمّى روكا بريوري.

ثمّ مدّ الورقة إلى قبطان العساكر الخفر، فقرأها هذا، ثمّ أعادها إليه.

صاح أندريا وقد خرج كليًا من السّبات الذي كان يبدو غارقًا فيه: - العفو عن بيبينو! لمَ العفو عنه وليس عنّي أنا؟ ينبغي أن نموت معًا؛ لقد وُعدتُ بأنّه سيموت قبلي، لا حقّ لكم في قتلي وحدي، لا أريد أن أموت وحدي!

ثمّ أفلت من ذراعَيّ الرّاهبين، وأخذ يتلوّى، ويصيح، ويحمرّ ويقوم بجهودٍ هوجاء كي يتحرّر من الحبال التي تقيّد يديه.

أشار الجلّاد إلى معاونَيْه، فقفزا من السّقالة، وانقضّا على المحكوم.

سأل فرانز الكونتَ: - ماذا يجري؟، إذ إنّ كلّ ما كان يحدث على السّاحة، كان يجري بلهجة روما، فلم يفهم الشّيء الكثير.

قال الكونت: - ماذا يجري؟ ألم تفهم؟ ألم تدرك أنّ هذا المخلوق البشريّ الذي هو على وشك الموتِ، غاضبٌ لأنّ مثيلَه لن يموت معه ولو تُركَ الأمر له لمزّقه بأظفاره وأسنانه، بدلًا من أن يتركه ينعم بالحياة التي سيُحرَمُ منها هو. آه لبني البشر! بني البشر! جنسٌ من التّماسيح! كما قال كارل مور (أضاف وهو يشدّ على قبضتيه ويوجّههما نحو الحشد)، نعم إنّي لأعرفكم الآن حقّ المعرفة، ما أخلقكُم بأنفسكم!

والحال أنّ أندريا ومعاونَيّ الجلّاد كانوا يتعفّرون في التّراب، والمحكوم يواصل الصّراخ: - ينبغي أن يموت، أريده أن يموت! لا حقّ لكم في قتلي وحدي!

استأنفَ الكونت الكلام وهو يمسك كلّ واحدٍ من ضيفيه بيَدٍ: - انظرا، انظرا، لعمري ما أعجبَ هذا المنظر، هاكم رجلًا كان مستسلمًا لمصيره، رجلًا كان يسير إلى السّقالة، صحيح أنّه كان سيموت كجبانٍ، لكنّه كان سيموت من دون مقاومة أو عِتاب. أتدريان ما الذي كان يمنحه

بعضًا من القوّة؟ أتدريان ما الذي كان يواسيه؟ أتدريان ما الذي كان يصبّره على عذابه؟ ذاك أنّ أحدًا آخر كان يشاركه ضيقه؛ أحدًا آخر كان سيموت مثله؛ أحدًا آخر سيموت قبله! قودا كبشَيْن إلى المقْصَب، قودا عجلين إلى المذبح، وأفهِما أحدهما أنّ الآخر لن يُقتل؛ سيثغو الكبش فرحًا، سيخور العجل مرحًا؛ لكن الإنسان، الإنسان الذي خلقه الربُّ على صورته، الإنسان الذي فرض عليه الرّبُ حبَّ القريب قانونًا أوّلَ، قانونًا أسمى، قانونًا أوحد. الإنسان الذي وهبه الربُّ صوتًا يعبّر به عن فكره، أيّ صرخةٍ سيطلقها ما إن يعلم أنّ رفيقَه نجا؟ سيجدِّفُ. المجدُ للإنسان، تحفةِ الطّبيعة، ملك الخلق!

ثمّ انخرط الكونت في قهقهةٍ، لكنّ ضحكه كان ضحكًا رهيبًا يبيّنُ أنّ الرّجلَ قد قاسى الأمرّين ليستطيعَ الضّحك على هذا النّحو.

أثناء ذلك كان الصّراع متواصلًا، وكان المنظر رهيبًا. حمل المعاونان أندريا على السّقالة؛ صار الحشدُ كلّه عدائيًا تُجاهه، وأخذ الجميع يصرخون بصوتٍ واحدٍ: «الموت! الموت!».

ارتمى فرانز إلى الخلف؛ بيد أنّ الكونت شدّ ذراعه وأبقاه أمام النّافذة. وقال له: - ماذا تصنع؟ أهي الشّفقة؟ إنّها لعمري في محلّها! لو سمعت الصّياح على كلبٍ مسعورٍ، فإنّك ستأخذ بندقيّتك، وتنطلق في الشّارع، وسوف تقتل دونَ رحمةٍ الحيوان المسكين الذي لا ذنبَ له سوى أنّه قد عُضَّ من طرف كلبٍ آخرَ، ويحاول أن يفعَل ما فُعل به. وها أنت الآن تشفق على رجلٍ لم يعضّه أحدٌ، ومع ذلك قتل من أحسن إليه، والآن إذ صارعاجزًا عن القتل لأنّ يديه مقيّدتان، يريد أن يشهد موت رفيقِ أَسرِه، رفيق شقائه! كلّا، كلّا، انظر، انظر.

وكأنّما صارت التوصية بلا فائدةٍ، إذ كان فرانز يبدو كأنّما قد فُتن بالمشهد الرّهيب.

كان المعاونان قد رفعا المحكوم على السّقالة، وعلى الرّغم من

جهوده، وعضّاته، وصيحاته، استطاعا أن يجثياه على ركبتيه. وأثناء ذلك كان الجلّاد قد تموضع جانبًا، والهراوة على استعداد؛ وإذّاك، بإشارةٍ من الجلاد ابتعد المعاونان. أراد المحكوم أن يقف، لكن قبل أن يسعفه الوقت، انهالت الهراوةُ على صدغه الأيسر؛ سُمع صوتٌ ثقيلٌ مكتومٌ، وسقط المضروبُ كثور، وجهُه إلى الأرض، ثمّ بضربةٍ معاكسةٍ استدار على ظهره. إذّاك ألقى الجلاّدُ الهراوةَ، واستلّ سكّينه من نطاقه، وبضربةٍ واحدةٍ شقّ حنجرتَه، ثمّ صعد فورًا على بطنه وأخذ يدعكه بقدميه. وكلّما عفسه انطلق من عنقه رشاشُ دم.

وهذه المرّة، لم يستطع فرانز المقاومة، فاستلقى إلى الخلف، وقصد أريكةً وتهاوى عليها نصف مغشيٍّ عليه. وظلَّ ألبير واقفًا، لكن بعينين مغمضتين، متعلّقًا بأستار النّافدة. أمّا الكونت فظلّ واقفًا، مظفّرًا كأنّه إبليس.

36

كرنفال روما

حين استعاد ألبير وعيه، وجد ألبير يشربُ كأسَ ماءٍ يدلُّ شحوب وجهه على أنّه كان في أمسّ الحاجة إليه، والكونت منخرطًا في لبس زيّه التنكّريّ. ألقى آليًا عينيه على السّاحة؛ كان كلّ شيء قد اختفى: السّقالة، والجلّادُ، والضّحايا؛ لم يبقَ إلا الشّعبُ هائجًا، صاخبًا، مرحًا؛ ساعةُ مونتي تشيتوريو التي لا تدقّ إلا لموت البابا أو افتتاح الكرنفال التنكّريّ، دقّت دقّاتٍ كاملةً.

سأل ألبير الكونتَ: - حسنًا، ما الذي حدث؟

أجابه الكونت: - لا شيء، لا شيء البتّة، كما ترى؛ فقط ابتدأ الكرنفال، لنعجّل بارتداء ملابسنا.

عقّب فرانز: - الحقّ أنّه من كلّ المشهد الرّهيب لم يبقَ إلا أثرٌ كأثر حلمٍ.

- هو بالفعل ليس إلا حلمًا، ليس إلا كابوسًا رأيته.

- أجل، بالنّسبة إليّ هو كذلك، لكن بالنّسبة إلى المحكوم؟

- بالنّسبة إليه كذلك لا يعدو الأمر حلمًا، الفرق أنّه هو ظلّ نائمًا، بينما أنت استيقظتَ، ووحده الربُّ يعلمُ أيّكما أسعدُ؟

سأله فرانز: - وبيبينو، ما حلّ به؟

- بيبينو ولدٌ عاقلٌ، لا يتبع عاطفته، وعلى النّقيض من عامّة النّاس الذين يغضبون إن لم يُكثرت لأمرهم، كان هو سعيدًا إذ شهد اهتمام الجميع ينصبُّ على رفيقه؛ النّتيجةُ أنّه استغلّ البلبلة العامّة، كي ينسلّ

بين الحشد ويختفي، من دون حتّى أن يشكر القسّين الشّهمَيْن اللذين رافقاه. يبدو أنّ الإنسانَ حيوانٌ جاحدٌ وأنانيٌّ... لكن، ارتدي ملابسك؛ اتّبع مثال السيّد دو مورسيرف.

والحال أنّ ألبير كان منهمكًا بشكلٍ آليّ في لبس سراويلَ من نسيج التّافتا، فوق سرواله الأسود وحذائه الطّويل المبرنق.

سأله فرانز: - وإذًا يا ألبير! أأنتِ منكبٌّ على حماقةٍ؟ أجب صراحةً!

- كلّا، لكن الحقّ أنّي الآن أهدأُ نفسًا بعدما شهدتُ الواقعة، وصرتُ أتفهّم ما كان يقوله سيّدي الكونت. ما إن نَحضُر هذا المشهد مرّةً، حتّى يصير المشهد الوحيد الذي يمكن أن يحرّك فينا الأحاسيس.

قال الكونت: - فضلًا عن أنّها المناسَبة الوحيدة التي تسمح لنا بأن ندرس طباع النّاس؛ ما إن نرتقي أولى الدّرجات صوب السّقالة، حتّى ينتزع الموتُ القناع الذي تقنّعنا به طيلة حياتنا، ويظهر وجهنا الحقيقيُّ سافرًا. ينبغي الاعتراف بأنّ وجه أندريا لم يكن بهجةً للنّظر... الوغدُ الشّنيع!... لنرتدِ ملابسنا يا سادة، لنرتدِ ملابسنا!

كان ليكون عبثًا ألّا يحتذيَ فرانز حذوَ صاحبيه. فارتدى لباسَه، ووضع قناعه الذي لابدّ أنّه لم يكن أشدّ شحوبًا من وجهه.

وإذ فرغ الرّجالُ من زينتهم، نزلوا. كانت العربة تنتظرهم مليئةً بالنُّثار[1] وباقات الورود. التحقوا بالرّكب. ولا أشقّ من تصوّر التناقض التّام الذي حدث. فبدلًا من مشهد الموت المظلم الصّامت، اكتست ساحة دِل بوبولو بمظهر احتفالية مجنونةٍ صاخبة، حشدٌ من الأقنعة كان يخرج متدفّقًا من كلّ جانبٍ، منفلتًا من كلّ باب، نازلًا من كلّ شرفةٍ؛ والعربات تنبثق من كلّ أركانِ الشّارع، محمّلةً بـ[عددٍ] من بييرو، وأرلوكان[2]،

(1) ما يُنثر من وريقات وقصاصات ملوّنة أثناء الاحتفالات.

(2) شخصيات هزلية من المسرح الفكاهي الشّعبي الأوروبيّ، ويشير الكاتب إلى الطّريقة التي تقنّع بها كلُّ المحتفلين في الكرنفال.

والترانستيفيريين، والدومينوس، والماركيزات، والفرسان، والفلّاحين. وكان الجميع يتضاحكون ويتبادلون الإيماءات، ويتقاذفون بالبيض المغموس طحينًا، والنُّثار، وباقات الورود؛ قاذفين بالكلام والقذائفِ الأصدقاءَ والغرباء، من يعرفونه ومن لا يعرفونه، من دون أن يحقّ لأحدٍ أن يغضب، ومن دون أن يفعل أحدٌ شيئًا إلا الضّحك.

وكان فرانز وألبير كمَن أُريدَ لهما التسلّي عن ألم كبير، فأُخذا إلى حفلِ عربدة؛ وبقدر ما كانا يشربان ويثملان، بقدر مًا كانًا يشعران أن جدارًا سميكًا يُضرب بين حاضرهما وماضيهما. كانا لا يزالان يريان، أو بالأحرى لا يزالان يشعران بظلالِ ما شهداه. لكن شيئًا فشيئًا، وبقدر ما كان السّكر يأخذ بهما، كانا يشعران أنّ العقل المترنّح سيتركهما. كانا يشعران بالحاجة الغريبة إلى أن يأخذا نصيبهما من هذا الضّجيج والصّخب والدّوار. حفنةٌ من نُثار أصابت مورسيرف من عربةٍ مُجاورة، وإذ ملأَتْه رملًا، هو ورفيقيه، ووخزت عنقه وكلّ الجزء من وجهه الذي لم يكن يغطّيه القناعُ، وكأنّما ألقي عليه مائةُ دبّوس، فدفعه الأمر إلى الانخراط في الصّراع الذي كانت تخوضه كلّ الأقنعة التي صادفها. نهض بدوره وسط العربة، وحفن ملء يدَيْهِ من الأكياس؛ وبكلّ ما فيه من سدادٍ وقوّةٍ، رمى جيرانَه بالبيض وحلوى الملبّس. وكان ذلك بمثابة الإعلان عن المعركة. امَّحت من ذهن الصّديقين ذكرى ما شهداه قبل نصف ساعةٍ، لفرط ما سلّاهما العرض المفتوح أمامهما مزركشًا ضاجًّا ومجنونًا. أمّا الكونت مونت كريستو، فلم يبدُ عليه، كما أسلفنا، التأثّرُ ولو للحظةٍ.

لنتصوّر شارع كورسو الجميلَ الكبير، تحفُّه من أقصاه إلى أقصاه القصور بطوابقها الأربعة أو الخمسة، وقد زُيّنت شرفاتها كلّها بالزّرابي؛ وفي تلك الشرفات والنّوافذ ثلاثمائة ألف متفرّج، ما بين سكّان روما، وإيطاليّين من مناطق أخرى، وأجانب أتوا من أقاصي العالم الأربعة: اجتمعت الأرستقراطية كلّها، الأرستقراطية بالولادة، أرستقراطية المال،

أرستقراطية العبقرية؛ ونساءٌ حسناوات، يتدلّيْن هنّ أيضًا، بتأثيرٍ من فتنة العرض، من الشرفات والنّوافذ، فيُمطرنَ العربات المارة بوابلٍ من نُثار، ويكافَأنَ مقابله بباقاتِ زهور؛ جوٌّ مشحونٌ بحلوى الملبّس نازلَةً وباقاتَ الورود صاعدةً؛ ثمّ على بلاط الأزقّة، حشدٌ بهيجٌ، متدفّقٌ، مجنونٌ، بملابس حمقاء: حبّاتُ ملفوفٍ ضخمةٌ تجوب الطّرقات، رؤوس ثيرانٍ تخورُ فوقَ أجساد بشريّة، كلابٌ يبدو أنّها تمشي على قائمتيها الخلفيّتين؛ ووسط كلّ ذلك يُرفَع قناعٌ، وفي غمرة منظرٍ أشبه بغواية القدّيس أنطوان كما تخيّلها كايو[1]، تبرزُ عشتروتٌ حسناءُ يُريدُ من يراها أن يتبعها، لكن تفصلها عنه وحوشٌ أشبه بما يراه الحالمُ في كوابيسه؛ قلتُ لنتصوّر كلّ ذلك، ولن نحوز إلا فكرةً ضئيلةً عن كرنفال روما.

عند اللّفّة الثانية أوقف الكونت العربة واستأذن من رفيقيه الانصرافَ، تاركًا العربةَ تحت تصرّفهما.

رفع فرانز بصرَه. كانوا مقابل قصر روسبولي؛ وعند النّافذة الوسطى، تلك التي كانت قد عُلّقت فيها رايةٌ بيضاء بصليبٍ أحمرَ، كان زيُّ دومينو أزرقَ، لم يحتج فرانز كثيرًا من الجهد ليتمثّل تحتَه جسدَ اليونانية الحسناء التي شهدها في مسرح أرجنتينا.

قال الكونت وهو يقفز إلى الأرض: - أيها السادة، حين تملّان من دور الممثّلين، وتريدان تقمّص دور المتفرّجين، فكما تعلمان إنّ نوافذي طوع أمركما. في انتظار ذلك، رهن تصرّفكما حوذيَّ وعربتي، وخدمي.

لقد فاتتنا الإشارة إلى أنّ حوذي الكونت كان يرتدي جلد دبّ أسود، مماثلٍ لزيّ أودري في مسرحيّة **الدبّ والباشا**[2]، وأنّ الخادمَين الواقفين خلفَ العربة كان كلّ منهما يرتدي زيّ قردٍ أخضرَ، مناسبٍ تمامًا لقدّه، وقناعَين بنوابض يكشّران بهما في وجه المارّة.

---

(1) الرّسامُ الفرنسي جاك كايو (1635-1592).

(2) كتبها الدراماتورجيّ الفرنسيّ الشّهير أوجين سكريب، وعُرضت أوّل مرّة 1820.

شكر فرانز الكونت على عرضه السخيّ، أمّا ألبير فكان مستغرقًا في تغنّج مع عربةٍ مليئةٍ بفلاحاتٍ رومانيات، أوقفتها حادثةٌ من تلك الشّائعة في المواكب. ولسوء حظّه استأنف الموكبُ المسير، وبينما تنزل عربته هو صوب ساحة دِل بوبولو، كانت العربة التي أثارت انتباهه تصعد نحو قصر البندقية.

قال لفرانز: - آه! يا عزيزي! ألم ترَ؟

سأله فرانز: - ماذا؟

- اُنظر، تلك العربة الماضية محمّلةً بالفلاّحات الرومانيات.

- كلّا.

- أقول إذًا، إنّي متأكّد من أنّهنّ نساءٌ مليحاتٌ.

- يا لسوء حظّك إذ تضع قناعًا يا عزيزي ألبير، إنّها فرصةٌ لا تعوّض لتستدرك خيبتك في العشق.

أجابه ألبير نصف ضاحك، نصف مقتنع: - أوه! أرجو ألّا ينصرم الكرنفال من غير أن يكافئني بتعويض.

وعلى الرّغم من رجاء ألبير ذاك، إلا أنّ يومه مرّ من دون مغامرةٍ تذكر، اللهم إلّا التقاءه مرّتين أو ثلاثًا بعربة الفلّاحات المذكورة. وفي مرةٍ منها، انفكّ قناع ألبير، صدفةً أو ربّما بتدبيرٍ منه. وإذّاك أخذ ما بقيَ من باقة أزهارٍ ورمى به في العربة. ولا ريبَ في أنّ إحدى النّساء المليحات، استشفّها ألبير تحت زيّ الفلاحات الجميل، قد أثّرت فيها لباقته، إذ لمّا التقت العربتان مجدّدًا، ردّت على باقتِه بباقةِ بنفسج. بادر ألبير إلى الباقة. ولمّا لم يكن لفرانز من داعٍ يحمله على الاعتقاد في أنّ الباقة قد أُلقيَ بها إليه، فقد ترك ألبير يستولي عليها. بهيئةٍ منتصرة وضع ألبير الباقةَ في عروة قميصه، وواصلت العربة مسيرتها المظفّرة.

قال له فرانز: - طيّب، ها هي بدايةُ مغامرةٍ!

أجابه: - اسخَر ما طاب لك، لكنّي أحسب الأمر صحيحًا، لذا لن أترك الباقة أبدًا.

قال فرانز ضاحكًا: - إنّها لعمري علامةٌ تعرفك بها!

ثمّ إنّ الدّعابة ما لبثت أن انقلبت جِدًا، إذ لمّا صادف فرانز وألبير، مدفوعين دائمًا بالموكب، مرّةً أخرى عربةَ الكانتادينات[1]، ورأت المليحةُ التي ألقت إليه بالباقة، باقتها في عروة قميصه، صفّقت له محيّيةً.

قال فرانز: - برافو، عزيزي! برافو! أمورك تتحضّر على أفضل ما يرامُ! أتريد منّي أن أتركك؟ هل تفضّل أن تكون بمفردك؟

أجابه ألبير: - كلّا، لنتجنّب التسرّع؛ لا أريد أن أبدو أحمقَ ينجرف خلف أوّل إشارةٍ، يستسلم لموعدٍ تحت السّاعةِ، مثلما نقول في عروض البال بالأوبرا. إن كانت الفلاحة الحسناء تريد أن تذهب أبعد، فسوف نلقاها أو بالأحرى تلقانا هي غدًا. إذّاك ستومئ إليّ بإشارةٍ، وسأرى ما أنا فاعلٌ.

قال فرانز: - الحقّ يا عزيزي ألبير، أنت حكيمٌ كنسطور وحذرٌ كعوليس؛ وإذا ما أرادت سيرسيه أن تمسخك حيوانًا ما، فعليها أن تتحلّى بالكثير من القوّة والسّداد.

كان ألبير محقًّا. لقد قرّرت الحسناء المجهولة ألّا تذهب أبعد في مغامرتهما ذاك اليوم؛ إذ على الرّغم من أنّ الشّابّين قد لفّا لفّاتٍ كثيرةٍ بعد ذلك، إلا أنّهما لم يصادفا مرّة أخرى العربة التي ظلّا يبحثان عنها بعينيهما. لا بدّ أنّها اختفت من أحد الأزقّة الجانبية.

فكان أن رجعا إلى قصر روسبولي، غير أنّ الكونت أيضًا كان قد اختفى هو ومن كان يلبس الدومينو الأزرق. على أنّ النّافذتين اللتين عليهما رايةٌ صفراء، كانتا مشغولتين من طرفِ أناسٍ، لا بدّ أنّ الكونت قد دعاهم.

(1) المزارعات بالإيطالية.

وفي تلك اللّحظة دقّت السّاعةُ التي أعلنت من قبل بدايةَ الكرنفال التنكّريّ، معلنةً نهايتَه. انفرط عقدُ موكب شارع كورسو على الفور، واختفت العربات عبر الأزقّة الجانبية.

كان فرانز وألبير في تلك اللّحظة إزاءَ نهج ماراتّي. نهجه الحوذيُّ على الفور، من دون أن يقول أيّ شيء، وسار محاذيًا قصر بولي، حتّى بلغ ساحة إسبانيا، وتوقّف أمام الفندق.

أتى المايسترو باستريني يستقبل ضيوفَه عند عتبة الباب.

وكان أوّل ما حرص عليه فرانز هو أن يستفهم عن الكونت ويعتذر من أنّه لم يأته في الوقت المناسب، لكنّ باستريني طمأنه مؤكّدًا أنّ الكونت قد طلب عربةً أخرى، وأنّ العربة قد ذهبت إليه وأتت به من قصر روسبولي. وقد كلّفه الكونت بأن يعطي الصّديقين مفتاح مقصورته في مسرح أرجنتينا. سأل فرانز ألبير عن مشاريعه، لكنّ ألبير كانت لديه مشاريع كبيرة ينفّذها قبلَ أن يفكّر في الذّهاب إلى المسرح؛ وبالتّالي، بدلًا من أن يجيب صديقَه، سأل المايسترو باستريني عمّا إذا كان يستطيع أن يأتيه بخيّاطٍ.

سأله الفندقيّ: - خيّاطٌ، وفيمَ يريدُه ضيفُنا؟

أجابه ألبير: - كي يصنع لنا قبل متمّ الغد أزياء فلّاحين رومانيّين، تكون أنيقةً قدر الإمكان.

صاح باستريني: - أن يخيط لكما قبل متمّ الغد ملابس فلاحين رومانيّين، ولشخصين؟ اعذرني في القول يا صاحب السّعادة، لكن هوذا حقًّا مطلبٌ فرنسيّ؛ لباسَين؟ في الوقت الذي لن تجد فيه خياطًا يقبل في مهلة ثمانية أيّام، أن يخيط ستّة أزرارٍ في صدرية، حتّى لو دفعتما نظير كلّ زرٍ قطعةً ذهبيّةً!

- يعني أنّ عليّ أن أعدل عن رغبتي في الحصول على الملابس التي أشتهيها؟

- كلّا، لأنّنا سنجد لكما هذه الملابس جاهزة، امهلني إلى الغد، وما إن تستفيق حتّى تجد رهن إشارتك مجموعةً من القبّعات، والسّترات، والسّراويل، ممّا يسرّك.

قال فرانز لألبير: - عزيزي، لنقصد الكونت، فلقد برهن لنا أنّه خير من يُلجأ إليه؛ لنتعشَّ إذًا هانئين، ثمّ لنذهب بعد العشاء لمشاهدة **الإيطالية في الجزائر**[1].

- حسنًا، لنذهب فنشاهد الإيطالية في الجزائر، لكن تذكّر يا مستر باستريني أنّني والسّيد (أشار إلى فرانز) نصرّ على أن نحصل غدًا صباحًا على الملابس التي طلبناها.

أكّد الفندقيُّ لنزيلَيْه مجدّدًا ألّا يقلقا، وأنّ طلبهما مجابٌ؛ وإذّاك صعد ألبير وفرانز كي يتخلّصا من زيّهما التنكّري.

وبينما ينزع ألبير زيَّه، شدّ بقوّةٍ على باقة البنفسج: - كانت تلك علامة تدلُّ عليه غدًا. جلس الصّديقان إلى المائدة؛ ولم يستطع ألبير طيلة العشاء أن يكبح نفسه من المقارنة بين مستوى طبّاخ السيّد باستريني، وطبّاخ الكونت مونت كريستو. وعلى الرّغم من التّحفّظ الذي يبديه فرانز تجاه الكونت، إلا أنّه لم يملك إلا الإقرار بأنّ المقارنة بين الرّجلين بعيدةٌ، وأنّ كفّة طبّاخ الكونت راجحة.

عند تقديم التحلية، سأل الخادمُ الشّابين متّى يرغبان في أن تأتيهما العربة. تبادل ألبير وفرانز النّظرات. كانا يخشيان أن يبدوَا متطفّلين. أدرك الخادمُ ما يدور في ذهنيهما.

قال: - إنّ صاحب السّعادة الكونت مونت كريستو، قد أصدر أوامره بأن تظلّ العربة طيلة النّهار تحت تصرّف سيادتكما؛ ليس في الأمر إذًا أيّ حرجٍ يا سيّدايَ.

---

(1) الإيطالية في مدينة الجزائر، أوبرا روسيني، ألّفها سنة 1813.

قرّر الشّابان أن يغنما وسعهما من كرم الكونت، فطلبا أن تحضّر العربة، بينما يغيّران زينتهما النّهارية بزينة ليلية، وذلك لفرط ما فسدت زينتهما بسبب المعارك التي خاضاها.

وما إن تمّ لهما ذلك حتّى قصدا مسرح أرجنتينا، واستقرّا في مقصورة الكونت.

أثناء المشهد الأوّل دخلت الكونتيسة ج إلى مقصورتها؛ وكان أوّل ما ألقت إليه بصرها، المقصورةُ التي كانت قد لمحت فيها الكونت بالأمس، فلمحت هناك ألبير وفرانز الذي كانت قد أفضت إليه قبل أربعٍ وعشرين ساعةٍ برأيٍ منكرٍ في الكونت.

ظلّت توجّه إلى فرانز منظارها بإصرار، حتّى رأى فرانز أنّ من القسوة الإبطاء عن إرواءِ فضولها؛ لذا استغلّ الرّفيقان الامتياز الذي يحظى به المتفرّجون في المسارح الإيطالية، أقصد امتياز أن يجعلوا من مقصوراتهم صالات استقبال، وقصدا مقصورة الكونتيسة لتحيّتها. وما إن دخلا غرفتها، حتّى أشارت إلى فرانز أن يتّخذ موضعه في المكان الشّرفيّ. أمّا ألبير فجلس في المقعد خلفها.

وبالكاد منحت فرانز الوقت ليجلس، وقالت: - وإذًا، يبدو أنّك لم تُضِع الوقت لتتعرّف على اللّورد روثوين الجديد، وها أنتما صرتما أعزَّ الأصدقاء؟

أجاب فرانز: - على الرّغم من أنّني لا أستطيع الادّعاء بأنّنا قد بلغنا من الحميميةِ المبلغَ الذي تشيرين إليه، إلا أنّني لا أنكر أنّنا قد أفدنا النّهار بأكمله من كرمه.

- ماذا؟ طيلة النّهار؟

- إنّه لعمري التّعبير الصّحيح. لقد قبلنا دعوته إلى الغداء هذا الصّباح، وطيلة الاحتفالية التنكريّة جُبنا شارع كورسو في عربته، وها نحن مساءً نشاهد الحفل من مقصورته.

- تعرفانه إذًا؟
- نعم ولا.
- كيف ذلك؟
- إنّها قصّةٌ طويلة.
- ستقصّها عليّ؟
- سوف تخيفك جدًا.
- هذا سبب إضافيٌّ لتقصّها.
- انتظري إذًا أن تبلغ القصّة خاتمتها.
- ليكن، إنّي أحبُّ القصص المكتملة. في انتظار ذلك، كيف اتّصلتما؟ من عرّفك عليه؟
- لا أحد؛ هو من أتى يعرّفنا على نفسه.
- متى كان ذلك؟
- أمس، حين افترقنا.
- بوساطة من؟
- يا إلهي، بالوساطة المبتذلة، وساطة صاحب الفندق.
- هو إذًا مثلكما مقيمٌ في فندق إسبانيا؟
- لا يشاركنا الفندق نفسه فحسب، وإنّما أيضًا الطّابق نفسه.
- ما اسمه؟ إذ لا بدّ أنّك قد عرفت اسمَه؟
- حقّ المعرفة، اسمه الكونت مونت كريستو.
- أيّ اسم هذا، إنّه ليس اسمَ عائلةٍ.
- كلاّ إنّه اسم جزيرةٍ اشتراها.
- وهو كونت؟
- كونت توسكانيٌّ.

أجابت الكونتيسة، وهي بنت عائلةٍ من أعرق العوائل في البندقيّة: - طيّب، سنبتلعه مثلما ابتلعنا غيره! وأيّ الرّجال هو؟

- اسألي الفيكونت دو مورسيرف.

قال الكونتيسة: - هل سمعت يا سيّدي، إنّه يحيلني عليك.

أجابها ألبير: - سيشقّ عليّ يا سيّدتي عدم الاعتراف بلطفه؛ إنّ صديقًا جمعتنا به علاقة عشر سنواتٍ، لن يفعل لنا ما فعله الكونت؛ لا بل إنّه فعل كلّ ذلك بأريحيّةٍ ولطفٍ ودماثةٍ، تشير إلى انتمائه الرّفيع.

قالت الكونتيسة ضاحكة: - طيّب، سترى أنّ صاحبنا مصّاصَ الدّماء، ليس إلا أحد محدثي الغنى، يريد التّكفير عن أمواله، واتّخذ لارا[1] كيلا نخلط بينه وبين روتشيلد. وهي هل رأيتها؟

- سألها فرانز مبتسمًا: - من تقصدين؟

- اليونانية الحسناء.

- كلاّ. أحسب أنّنا سمعنا أمس عزف قيثارتها، لكنّها لم تظهر أبدًا.

قال ألبير: - تقصد بقولك إنّها لم تظهر أبدًا، إنّها تقصّدت الغموضَ. فمن تراك تحسبُ إذًا الخيال الذي لمحناه أمس مرتديًا لباس الدومينو عند النّافذة حيث عُلّقت الرّايةُ البيضاء؟

سألته الكونتيسة: - وأين كانت هذه النّافذة؟

- في قصر روسبولي.

- كان للكونت إذًا ثلاث شرفاتٍ بفندق روسبولي؟

- أجل. هل مررتِ بشارع كورسو؟

- طبعًا مررت.

- وإذًا، لابدّ أنّكِ قد لاحظتِ على شرفتين رايتين صفراوين، وعلى الثالثة راية بيضاء بصليبٍ أحمر؟ إنّ تلك الشّرفات الثلاث هي شرفات الكونت.

---

(1) لم أجد أيّ تفسير لهذا الاسم، لعلّها تقصد عشيقة اللورد بايرون، التي كتب فيها إحدى قصائده الشّهيرة.

– آه! الرّجلُ إذًا فاحش الثراء، هل تعرفان كم تكلّفُ ثلاث شرفاتٍ مدّة أيام الكرنفال الثمانية، وفي قصر روسبولي، أي أفضل موضعٍ في شارع كورسو؟

– مائتي قطعة رومانية، أو ثلاثمائة.

– بل قُل ألفين أو ثلاثة آلاف.

– آه، حقًّا!

– وأين تقع جزيرته هذه التي تكفل له هذه المداخيل الفاحشة؟

– جزيرته؟ إنّها لا تدرُّ عليه ملّيمًا.

– لمَ اشتراها إذًا؟

– إشباعًا لرغبة.

– هو إنسانٌ مميّزٌ إذًا؟

قال ألبير: – الحقّ أنّه بدا لي غريبًا. لو أنّه كان يسكن باريس، ويتردّد على حفلاتنا، لقيل لك يا عزيزي، إمّا أنّه مهرّجٌ يستعرضُ، أو أنّه شيطانٌ مسكينٌ أضاعَهُ الأدبُ؛ الواقع أنّه قد قام هذا الصّباح بخرجتين أو ثلاثٍ قمينةٍ بديديه أو أنتوني(1).

في تلك اللّحظة دخل زائرٌ، واتّباعًا لما تمليه اللّياقة، أخلى فرانز موضعَه للقادم الجديد؛ ولم ينتج عن الوضع الجديد تغيير الأمكنة فقط، وإنّما أيضًا تغيير موضوع الحديث.

ساعةً بعد ذلك عاد الصّديقان إلى الفندق. وكان المايسترو باستريني قد تكلّف بإعداد أزيائهما التنكّرية التي سوف يرتديانها في الغد، ووعدهما بأنّهما سيكونان في غاية الرّضا عمّا فعله.

وبالفعل، صباح اليوم التالي، على السّاعة التّاسعة صباحًا، دخل

---

(1) يحيل دوما هنا على الأرجح على شخصيات من أعماله، خاصّة شخصية أنتوني التي سمّى بها إحدى مسرحياته، وتحمل بعضًا من ملامح الكونت مونت كريستو.

الفندقيُّ غرفةَ فرانز رفقة خيّاطٍ محمّلٍ بثمانٍ إلى عشر قطع من أزياء الفلاّحين الرّومانيّين. اختار الصّديقان زيّين متشابهين، يكادان يناسبان قدَّيْهما، وكلّفا الفندقيّ بأن يخيط لهما ما يقارب عشرين مترًا من الشّرائط التي تُعقد حول القبّعات، وأن يأتيهما بشاليّ حريرٍ ألوانهما فاقعة من التي اعتاد عامّةُ الشّعب التزيّن بهفي مثل هذه المناسبات.

وكان ألبير يتحرّق لأن يرى كيف سيبدو عليه زيّهُ: سترة وسراويل من مخمل أزرق، وجواربُ تحتيةٌ مطرّزة الحواشي، ونعل بحلقاتٍ، وصدرية من حرير. لم يكن لألبير إلا أن يبتهج بحيازة هذا الزيّ الرّائعٍ؛ وحين انعقد حزامه حول خصره الأنيق، ومالت قبّعته إلى الجانب قليلًا، فهوت على كتفه الشّرائطُ المعقودة، لم يجد فرانز بُدًّا من أن يعترف بأنّ الزيَّ يلعبُ دورًا كبيرًا في التفوّق الجسديّ الذي نُصبغُه على بعض الشّعوب. وانظر حال الأتراك، بعدما كانوا فيما مضى بديعي المنظر في أرديتهم الطّويلة الزّاهية الألوان، كيف انقلبوا اليوم شنيعين بأثواب الريدنجوت الزرقاء المزرّرة، والسّراويل اليونانية التي تضفي عليهم هيئة قناني خمرٍ مختومة بختم أحمر.

أثنى فرانز الثناء السّابق على ألبير الذي كان يقف أمام المرآة يبتسم ابتسامةَ رضًا لا مثيلَ لها.

وكان الشّابان كذلك، إذ دخل عليهما الكونت مونت كريستو.

قال: - سيّدايَ، مهما بلغت متعةُ الرفقةِ، إلا أنّ الحريّة تبقى أمتع منها. لذا أتيت اليوم أخبركما بأنّي أضع العربة التي ركبتماها أمس، رهنَ إشارتكما اليومَ والأيام الثمانية التالية. لا ريب في أنّ فندقيّنا قد أخبركما بأنّي أملك ثلاثة أو أربعةً غيرها هنا في فندقه، وبالتّالي لستما تحرمانني من شيء. استعملاها إذًا كما يطيب لكما، إمّا لتستمتعا أو لتقضيا مآرب أخرى. وإن كان لنا ما نقوله، فإنّ موعدنا في قصرِ ريسبولي.

تردّد الشّابان، لكن لم يكن لهما حقًا من سببٍ فعليّ لأن يرفضا عرضًا يسرّهما. انتهى المطاف بهما إذًا إلى الموافقة.

ظلّ معهما الكونت مونت كريستو ما يقارب ربع ساعةٍ يتحدّث في كلّ الأمور بيسر بالغ. كان، كما لاحظنا من قبلُ، متمكّنًا من كلّ التيارات الأدبيّة في كلّ البلدان. وإنّ نظرةً خاطفةً على جدران صالونه قد أكّدت لفرانز وألبير أنّ الرّجل من هواة جمع اللّوحات. وبضع كلماتٍ عابرة منه، بلا ادّعاءٍ، بيّنت لهما أنّ له اطّلاعًا على مجالات العلوم؛ وكان يبدو على وجه التخصيص مهتمًا بميدان الكيمياء.

لم يكن الصّديقان ينويان ردَّ استضافة الطعام التي كان الكونت قد خصّهما بها. أيّ مزحةٍ هي أن يردّا على وليمته الباذخة بالطّعام المتواضع الذي يعدّه طاهي المايسترو باستريني؟ فاتحاه في الأمر مباشرةً، وتقبّل اعتذارهما تقبُّلَ المقدِّر للباقتهما.

كان ألبير سعيدًا بأفضال الكونت، وكان الحصول على العربةِ تحديدًا يملأ نفسَه حبورًا. كانت نصبَ عينيه الفلاّحات المليحات؛ وبما أنّهن قد ظهرنَ أمس في عربةٍ شديدة الأناقة، فلا غضاضة في أن يظهر في عربةٍ تضاهيها أناقةً.

في الواحدة والنّصف نزل الشّابان؛ وقد اهتدى الحوذيّ والخادمان إلى أن يضعوا ملابس الخدمة فوق جلود الحيوان التي كانوا يرتدونها بالأمس، فزاد منظرهمُ شناعةً على شناعةٍ، استحقوا عليها مديح فرانز وألبير. وقد حرص ألبير على أن يعلّق باقة البنفسج الذّابلة في عروته.

وما إن دقّت السّاعة أولى دقّاتها حتّى انطلقوا وهرعوا إلى شارع كورسو عبر نهج فيتوريا. وعند دورتهم الثانية انطلقت باقةُ بنفسج طريّة من عربةٍ محمّلةٍ بفلاّحاتٍ، وسقطت في عربة الكونت، فتبيّنً ألبير وصديقه أنّ فلاّحات أمس قد غيّروا أزياءهم، وأنّهم إمّا صدفةً، أو نتيجة شعورٍ مماثل لذاك الذي حرّكه، قد أخذوا نفس الملابس التي أخذها هو.

وضع ألبير الباقة الطريّة مكان الأخرى، لكنّه احتفظ بالباقة الذّابلة في يده؛ وحين التقت العربتان مجدّدًا، رفع الباقة بحبٍّ نحو شفتيه. حركةٌ لم تبهج صاحبة الباقة فقط، وإنّما أبهجت أيضًا رفيقاتها المجنونات.

ولم يكن النّهار بأقلّ صخبًا من سابقه. لا بل إنّ ملاحظًا متفحّصًا كان ليتبيّن زيادةً في الضّجيج والمرح. وللحظةٍ لُمح الكونت في شرفته؛ لكن ما إن عادت العربة مرّةً أخرى حتّى كان قد اختفى. ولا نحتاج قولًا إنّ الملاعبات بين ألبير والفلاّحة صاحبة باقة البنفسج قد دامت طيلة النّهار.

ومساءً حين عادا إلى الفندق، وجد ألبير في انتظاره رسالةً من السّفارة؛ ذُكرله فيها أنّه سيتشرّف بزيارة صاحب القداسة. في كلّ زيارة له إلى روما، كان ألبير يتلمّس هذا المطلب، وفي كلّ مرّةٍ كان يُجابُ إلى ما طَلب. وبدافع من تديّنٍ وعرفانٍ في آنٍ، لم يكن يريد أن يزور عاصمة المسيحية من غَير أن يعرِض امتنانه على أعتابِ أحد خلفاء القدّيس بطرس، ممّن جمعوا كلّ الفضائل.

فلم يكن له ذلك اليوم أن يفكّر في الكرنفال؛ ذاك أنّه على الرّغم من الطّيبة التي يفيض بها صاحب القدّاسة الشّيخ النّبيل المدعو غريغوار السّادس عشر، إلا أنّ من يتهيّأ إلى أن ينحنيَ أمام قداسته، لابد أن تختلج نفسُه بعميقِ التأثّر.

وعند خروجه من الفاتيكان، عاد فرانز مباشرةً إلى الفندق، متجنّبًا حتّى المرور من شارع كورسو. كان ذهنُه مثقلًا بكنز من الأفكار التقيّة التي يكفي الاتّصال بمرح الكرنفال المجنون لكي تدنَّسَ.

في الخامسة وعشر دقائق عاد ألبير. كان في قمّة سعادته؛ كانت الفلاّحةُ قد استعادت زيّ أمس، وحين صادفت عربتُها عربةَ ألبير، نزعت عن وجهها القناع. كانت مليحة.

هنّأ فرانز ألبير خالص التّهنئة؛ واستقبل الصّديقُ التّهاني استقبال من يستحقّها. وقال إنّه قد عرف من بعض علامات الأناقة الأصيلة أنّ

الحسناءَ الغريبة تنتمي إلى أرفع طبقات الأرستقراطية. وقد قرّر أن يكتب لها غدًا.

وبينما يسرّ ألبير لصديقه بما سبق، لاحظ فرانز أنّ صديقه يريد أن يطلب منه شيئًا ويتحرّج من ذلك. فألحّ عليه أن يُفصح عمّا في نفسه، قائلًا إنّه لن يألوَ جهدًا في بذلِ أيّ تضحيةٍ إسعادًا لصاحبه. تمنّع ألبير المدّةَ التي تفرضُها اللباقة فقط،ثمّ اعترف لصاحبه بأنّه يأمل في أن يستأثر وحده بالعربة في اليوم التالي.

لقد قدّر ألبير أنّ الفلّاحة الحسناء، إنّما كشفت قناعها عن وجهها لأنّ صاحبَه غابَ. وندرك أنّ فرانز لم يكن من الأنانية بحيث يوقف ألبير في منتصف مغامرةٍ واعدة. وكان يعرف حقّ المعرفة طبع صاحبه الذي لا يكتم عنه صغيرةً ولا كبيرة، لذا كان متيقّنًا من أنّ ألبير سيطلعه على أدنى تفاصيل مغامرته؛ وبما أنّه منذ سنتين أو ثلاث وهو يجوب إيطاليا، ولم يعرض له قط أن انخرط في مغامرةٍ مماثلة، فكان يرجو أن يكون صاحبه سبيلًا يطّلع عبرها على مجريات هذه الأمور. فكان أن وعد ألبير بأنّه سيكتفي في اليوم التالي بمشاهدة العرض من شرفات قصر روسبولي.

وبالفعل، في اليوم التالي ظلّ ينظر إلى صديقه وهو يمرّ بالعربة. كان يحمل في يده باقةَ ورودٍ هائلةً، لا شكّ في أنه اتّخذها وسيلةً لإيصال رسالته الغرامية. ثمّ انقلب هذا الاحتمال إلى يقين حين رأى فرانز فيما بعد الباقة نفسها في يد حسناء ترتدي ثوب ساتان ورديًا.

ولما حلّ المساء لم يعد الأمر لهوًا وإنّما هذيانًا. لم يكن ألبير يشكّ في أنّ الحسناء سترد عليه بنفس الطّريقة. وقد سعى فرانز إلى أن يتمّ على صديقه جميلَه، فقال له إنّ الضّجيج صار يرهقه، وإنّه لن يشاركه الاحتفال غدًا، إذ قرّر أن يقضي يومه في تدوين ملاحظات.

ثمّ إنّ ألبير لم يخطئ التّقديرَ: مساء اليوم التالي رآه فرانز يدخل إلى الغرفة بقفزة واحدة، يهزّ آليًا مربّع ورقٍ يحمله من أحد زواياه.

قال: - وإذًا، هل كنتُ مخطئًا؟

صاح فرانز: - هل أجابتك؟

- اقرأ.

وقد نطق كلمته تلك بنبرةٍ يستحيلُ وصفها. أخذ فرانز الورقة وقرأ فيها:

مساء الثلاثاء، ترجّل من عربتك مقابل نهج الباباوات، واتبع الفلّاحة الرومانية التي سوف تنزع منك شمعتك[1]. وحين تبلغ أوّلى درجات كنيسة القديس جاكومو، احرص على أن تعقد رباطًا ورديًا على كتفك اليسرى فوق زيّ المهرّج، كي تتمكّن من التعرّف عليك.

إلى حين ذلك، لن تراني مرّةً أخرى.

أوصيك بالصبر والكتمان.

وحين أنهى فرانز قراءة الرّسالة قال له ألبير: - ما قولك إذًا يا صديقي العزيز؟

- أقول يا صديقي إنّ الأمر يتّخذ شكلَ مغامرةٍ

- ذاك أيضًا رأيي، وأخشى أنّك ستضطرّ إلى ان تحضر بمفردك الحفل الرّاقص بمنزل دوق براتشانو.

وكان كلٌّ من الصّديقين قد توصّل بدعوةٍ من المصرفيّ الرومانيّ الشّهير.

قال فرانز: - حذار يا عزيزي ألبير، كلّ الطّبقة الأرستقراطية ستكون حاضرة عند الدّوق؛ وإن كانت حسناؤك المجهولة فعلًا من الطّبقة الأرستقراطية، فلا يمكنها أن تغيب عن الحفل.

- ظهرت أم لم تظهر، لن يتغيّر رأيي فيها. هل قرأت الورقة؟

- نعم.

---

(1) شمعة الموكوليتو، وهي شموع ملوّنة يحتفل بها في كرنفال روما.

- وتعرف بساطة التّعليم الذي تتلقاه نساء الميتزو تشيطو[1]؟ كذلك كانت تسمّى الطّبقة البورجوازية.

أجاب فرانز: - أجل.

- وإذًا، أعد قراءة الرّسالة، وجِد فيها خطأً واحدًا، لغويًا أو إملائيًا.

الحقّ أنّ الخطّ كان جميلًا والرّسالة خاليةً من الأخطاء.

قال فرانز لألبير وهو يعيد إليه الورقة مرّةً ثانيةً: - أنت المختارُ.

- اسخر ما بدا لك، وتندّر ما طاب لك، إنّما أنا مغرمٌ.

صاح فرانز: - أوه! يا إلهي! إنّك تخيفني! وأرى أنّني لا أخشى الذّهاب بمفردي إلى حفل الدوق فحسب، وإنّما قد أعود إلى فلورنسا وحدي.

- أقول لك إن كانت غريبتي لطيفةً بقدر ما هي مليحة، فإنّي أنوي البقاء في روما ستّة أسابيع على الأقلّ. أحبُّ روما، ثمّ لطالما أبديت إعجابًا خاصًا بالأركيولوجيا.

- لقاءٌ آخر أو لقاءان، مثل هذا، وسأراك عضوًا في أكاديمية النّقوش والآداب.

لا شكّ في أنّ ألبير كان سيجادل في أحقيّته في كرسيّ أكاديميّ، إلا أنّ الخادم أتى يعلمهما بأنّ الطّعام جاهزٌ. والحالُ أنّ العشق عند ألبير لا يتعارض والشّهيّةَ المفتوحة. فهرع وصديقه إلى المائدة، تاركَين إلى ما بعد العشاء إمكان استئناف النّقاش.

بعد العشاء، أُعلما بحضور الكونت مونت كريستو. منذ يومين لم يقابله الشّابان. قال المايسترو باستريني إنّ عملًا مستعجلًا قد استدعى ذهابه إلى تشيفيتافيكيا. كان قد انطلق أوّل أمس مساءً، وعاد منذ ساعة فقط.

---

(1) الطّبقة المتوسّطة.

كان الكونت يبدو جذابًا؛ إمّا أنّه قد لاحظ الأمر على نفسه، فألجمها، أو أنّ المناسبة لم توقظ في نفسه الذكريات التي تجعل كلامه ينطق بنبرةٍ مريرة. المهم أنّه كان يبدو هذه المرّة مثل جميع النّاس.

كان الرّجلُ بالنّسبة إلى فرانز لغزًا. قطعًا إنّ الكونت لا يشكّ في أنّ الشّاب قد عرفَه، لكنّه لم يشر البتّة إلى لقائهما السّابق. ومن جهته، كلّما انتابت فرانز الرّغبة في أن يُلمّح إلى لقائها السّابق، ألجمَه التفكيرُ في الإحراج الذي قد يسبّبه لرجلٍ أغرقه وصاحبَه بأفضاله؛ فظلّ إذًا على تحفّظه منه.

لقد علم الكونت أنّ الصّديقين أرادا أن يحجزا مقصورةً في مسرح أرجنتينا، فأُخبرا أنّ كلّ المقصورات قد حُجزت؛ لذا أتاهما بمفتاح مقصورته؛ كان ذلك على الأقل السبب الظّاهريّ من وراء زيارته.

تمنّع الصّديقان بعض الشّيء، خشية أن يكونا بقبولهما يحرمان الكونت من مقصورته، لكنّه أجابهما بأنّه سيكون ذلك المساء في مسرح بالّي، وبالتّالي ستضيع المقصورة هدرًا إن لم يستغلّها أحد. فقبِل الصّديقان.

وكان فرانز قد اعتاد في وجه الكونت هذا الشّحوبَ الذي هاله منه أوّلَ مرّةٍ. ولم يستطع إلا أن يقرّ بملاحة وجه الكونت الذي لا يعيبه غير هذا الشّحوب، أو لرّبما كان الشّحوب ميزتَه الأكبر. كان الكونت يبدو بطلًا فعليًا من أبطال لورد بايرون، فما استطاع فرانز أن يمنع نفسه من تخيّل رأسه فوق كتفَي مانفريد أو تحت قبّعة لارا. كانت في جبهته تلك التجعيدة التي تعكس غَمًّا مقيمًا، وفي عينيه ذاك الضّوء البارق الذي يخترق أعمق النّفوس ويقرأ ما فيها؛ وكانت له تلك الشّفتان السّاخرتان اللتان تمنحان الكلمات التي تخرج منهما نبرةً مميّزةً تجعلها تنحفرُ عميقًا في ذاكرة من يسمعُها.

لم يكن الكونت شابًا؛ كان في الأربعين من عمره على الأقلّ، ومع

ذلك كان يبدو متفوّقًا على الشّابّين اللذين يوجد بمعيّتهما. في الواقع، ثمّة شبهٌ أخيرًا يجمع بين الكونت وبين شخصيات اللورد بايرون: الجاذبية.

لم يكن ألبير يخفي سعادته بالحظّ الذي صادفه وصديقه إذ التقيا برجلٍ من طينة الكونت. أمّا فرانز فكان أقلّ حماسةً، ومع ذلك كان يخضَع للتّأثير الذي يُخضِع له الرّجل المتفوّقُ كلّ المحيطين به. كان يفكّر في نيّة الكونت زيارة باريس، كما أفصح غير ما مرّة، ويقول في نفسه إنّ رجلًا بطبعه المتفرّد، ووجهه المميّز وثروته الهائلة، لابدّ أن يخلّف عظيم الأثر في عاصمة فرنسا. ومع ذلك لم يكن يرغب في أن يتواجد في فرنسا حين يزورها الكونت.

مرّ المساء مثل الأماسي التي تجري عادة في مسارح إيطاليا، أي سهرةٌ انقضت ليس في الاستماع إلى الموسيقى، وإنّما في تبادل الزيارات بين المقصورات والأحاديث. أرادت الكونتيسة ج أن تجرّ الحديث إلى موضوع الكونت، لكنّ فرانز أخبرها أنّ لديه شيئًا جديدًا يطلعها عليه، وعلى الرّغم ممّا أبداه ألبير من مظاهر التّواضع الخادع إلا أنّه قصّ على الكونتيسة خبر الحدث العظيم الذي يشغل بال الصّديقين منذ ثلاثة أيّام. وبما أنّ تلك القصص ليست بالحدث النّادر في إيطاليا، والعهدةُ هنًا على المسافرين، فإنّ الكونتيسة صدّقت كلام ألبير بلا تردّد، وهنّأته على ما اعتبرته بداية مغامرةٍ تعد بنهايةٍ مُرضية سعيدة.

ثمّ تفرّقوا متواعدين على اللقاء في حفل دوق براتشانو الذي دُعيت إليه روما بأكملها.

وقد أوفت سيّدةُ باقة البنفسج بكلمتها، فلم تظهر في اليوم التّالي، ولا في اليوم الذي بعده. ثمّ أخيرًا حلّ الثلاثاء، آخر أيّام الكرنفال وأشدّها صخبًا. يوم الثلاثاء تفتح المسارح في العاشرة صباحًا؛ إذ ما إن تبلغ الثامنة مساءً حتّى تدخل روما في أيّام الصّوم. يوم الثلاثاء، كلّ من لم يشارك في

الاحتفالات بسبب ضيق وقتِه أو قصر ذاتِ يدِه أو فتور حماسته، ينخرطُ في العربدة الجماعية، ويسهم بصخبه وحركته في الصّخب والحركة العامّين.

من السّاعة الثانية وحتّى الخامسة، وفرانز وألبير يتبعان موكب العربات، ويتبادلان حفنات ملبّس مع الموكب السائر في الطّريق المعاكسة، والراجلين السائرين بين قوائم الأحصنة وعجلات العربات، من غير أن يقع وسط هذه الفوضى العارمة أيّ حادث، أو ملاسنة أو شجار. إنّ الإيطاليّين في هذا الجانبِ أميزُ الشّعوب. الحفلات عندهم حفلاتٌ بحقّ. وإنّ مؤلّف هذه القصّة، الذي سكن إيطاليا خمس سنواتٍ أو ستًا، لا يتذكّر البتّة أنّه قد شهد حدثًا من ذلك يخدش احتفاليةً من الاحتفالات، على خلاف ما يحدث عندنا نحنُ، إذ إنّ تلك الحوادث هي النّتائج النّهائية الضّرورية لاحتفالاتنا.

كان ألبير يتبختر في زيّ المهرّج الذي يرتديه. وعلى كتفه عقَد الشّريط الورديّ النازلةِ أطرافُه حتّى عرقوبَيْه. وحتّى لا يقع أيّ خلطٍ بينه وبين صديقه احتفظ فرانز بزيّ الفلاّح الرّومانيّ. وبقدر ما كان المساء يسير متقدّمًا، بقدر ما كانت الجلبة تمضي محتدّةً؛ لم يكن على كلّ البلاط الأرضيّ، أو العربات، أو الشّرفات فمٌ واحدٌ مقفلٌ، أو ذراعٌ واحدةٌ خاملةٌ؛ كان الأمر حقًّا عاصفةً بشريةً قوامُها رعدٌ من الصّيحاتِ ووابلٌ من الملبّس، والباقات، والبيض، والبرتقال، والزهور.

وفي السّاعة الثالثة، كان خفقُ طبول الصّفيح من ساحة الشّعب، باتّجاه قصر فينيسيا، والذي بالكاد استطاع أن يخترق صخب الجلبة العامّة، قلنا كان خفق طبول الصّفيح بمثابة إعلانٍ عن أنّ السباقات على وشك أن تبدأ. إنّ السّباقات، شأنها شأنُ الشّموع من الطقوس المميّزة لآخر أيام الكرنفال. ما إن يُسمع ضجيجها، حتّى يوقِف موكبُ العربات فورًا مسيرَهُ، وتلوذ كلّ عربةٍ بالشّارع الجانبيّ الأقرب لمكان تواجدها. وكلّ تلك الأمور تجري بسدادٍ وسرعةٍ مذهلين، من غير أن تنخرط

الشّرطة في تنظيم ذلك. ويستند المارّةُ إلى جدران القصور، ثمّ يتناهى إلى الأسماع ضجيج صاخبٌ، ضجيج سنابك خيولٍ وقعقعة سيوف. سريةُ مشاةٍ، وخمسة عشر من عساكر الجبهة يجوبون خببًا طول شارع كورسو، كي يفسحوا المجال أمام خيول الرّهان. وحين وصلت السريّةُ إلى قصر البندقية، خفق الطّبل مرّةً أخرى منذرًا بخلوّ السّاحة وجاهزيّتها.

وعلى الفور تقريبًا، وسط هتافٍ هائلٍ، شاملٍ، خارقٍ، لُمحتِ كبرقٍ خاطفٍ سبعة جيادٍ أو ثمانية تحثُّها هتافاتٌ ثلاثمائةً ألف شخصٍ، وسياطُ الحديد الذي تنهال على ظهورها؛ ثمّ دوّى مدفع قصر سانت آنج ثلاث مرّات: وكان ذلك إعلانًا عن فوز الحصان رقم 3. وعلى الفور، ومن دون انتظار إشارةٍ أخرى، تحرّكت العرباتُ، عائدةً إلى شارع كورسو من كلّ الأزقّةِ، مثل الجداول التي تصبّ دفعةً واحدةً في قعر النّهر الذي تغذّيه، واستأنف الدفق الهائلُ حركتهُ أشدّ من ذي قبل، بين الضّفتين الصُوّانيّتين.

على أنّ عنصرًا جديدًا اختلط بالحشد، مضيفًا إليه جلبته وحركيّته: اقتحم باعةُ الموكولي المشهدَ. إنّ الموكولي والموكولوتّي شموعٌ تختلفُ من حيث الحجم، بدءًا من شمعة القدّيس باسكال العظيمة، وحتى شموع القِباء التّافهة، وهي شموع تُدخل اللاعبين على مسرح الكرنفال في لعبة لها قاعدتان اثنتان:

1 - أن تحافظ على شمعتك مشتعلة.

2 - أن تحاول إطفاء شمعة غيرك.

إنّ الموكوليتي كالحياة. لم يجد المرء إلا طريقة وحيدةً يمرّرها بواسطتها؛ وهذه الطّريقة يستقيها من الرّب. لكنّه أبدع آلاف الطّرق لانتزاعها؛ وصحيحٌ أنّ الشّيطان قد أعانه قليلًا في هذه المهمّة الجلَل. توقد الموكوليتي بتقريبها من نار ما، كيفما كانت. لكن من بوسعه أن يصف آلاف الطّرق التي ابتُدعت لإطفاء الموكوليتي؟

هرع الجميع إذًا إلى اقتناء شمعة، وكذلك فعل كلّ من فرانز وألبير.

كان اللّيل يدنو بسرعة؛ وقد بدأت تتعالى الصّيحاتُ الحادّة: - إلى الشّموع! يردّدها ألفُ متزعّم؛ وفوق الحشد بدأت تلمع نجمتان أو ثلاث. وكان ذلك بمثابة إشارةٍ. وما هي إلا عشر دقائق حتّى تدفّق خمسون ألف نور يتلألأ نازلًا من قصر البندقية إلى ساحة الشّعب، وصاعدًا من ساحة الشّعب إلى قصر البندقية.

كان يبدو الأمر أشبه شيءٍ بعرض وهجٍ مستنقعيّ. لا يمكن للمرء أن يحيط علمًا بما نصفه، ما لم يرَه بنفسه. تخيّلوا النّجوم كلّها وقد تركت السّماء وأتت إلى الأرض تختلط في رقصةٍ مجنونة. وكلّ ذلك تصاحبه صيحاتٌ لم تَسمع مثلها أذنٌ في ما تبقى من رقعةِ البسيطة. الحقّ أنّ هذه هي اللّحظة التي ينعدم فيها التميز الطبقيّ، فالحمّالُ يتعلّق بالأمير، والأمير بمواطن الترانستيفيريّ، والجميع ينفخ، ويطفئ ويشعل. ولو أنّ إيّول[1] ظهر في تلك اللّحظة، لنصّب نفسه ملكًا على الموكولي، وجعل أكيلون[2] وريثًا ووليًا لعرشه.

استمرّت الملاحقات المجنونة المذهلة ما يقارب ساعتين؛ وكان شارع كورسو مضاءً بحيث يستطيع المرء أن يميّز وجوه الواقفين في الطوابق حتّى الرّابع منها. وكلّما مرّت خمس دقائق كان ألبير يسحب ساعته؛ وأخيرًا أشارت عقاربها إلى السّابعة. وكان الصّديقان تحديدًا أمام نهج البابوات؛ قفز ألبير من العربة، وفي يده شمعته. اقترب منه مقنّعان أو ثلاثة، راغبين في إطفاء شمعته، لكنّه كملاكم ماهرٍ دفعهم واحدًا تلو آخر، ليسقطوا على بعد عشر أقدامٍ منه، وواصل ركضه صوب كنيسة القدّيس جاكومو.

---

(1) سيّد الرّيح في الميثولوجيا اليونانية.

(2) إله الرّيح عند الرّومان، واسمه يطلق أيضًا على ريح الشّمال.

كانت درجاتها مليئةً بالفضوليّين والأقنعة التي صارعته لإطفاء الشّمعة في يده. تابع فرانز بعينيه ألبير، ورآه يضع قدمه على أولى الدّرجات؛ ثمّ على الفور تقريبًا امتدّت نحوه ذراع مقنَّع يرتدي الزيّ المعلوم الذي ترتديه الفلاحةُ صاحبةُ الباقة، ومن دون أن يبدي فرانز هذه المرّة أيّ مقاومةٍ، تركها تأخذ شمعته.

كان فرانز أبعد ممّا يمكن أن يسمح له بأن يسمع الكلمات التي تبادلها ألبير والفلاّحة، ولكن المؤكّد أنّها لم تكن كلماتٍ عدائيةً، ما دام قد شاهدهما يبتعدان متأبّطين ذراعَيّ بعضهما بعضًا. تابع تقدّمهما وسط الحشد، لكن ما إن بلغا نهج ماتشيلو حتّى أضاعهما.

فجأةً انطلق رنينُ الجرس المُعلن نهاية الكرنفال، وفي الآن نفسه انطفأت الموكولي جميعًا، كأنّما بفعل ساحر. كان الأمر أشبه بنفخة ريحٍ هائلةٍ قوّضت كلّ شيء. ألفى فرانز نفسه وسط أحلكِ الظّلمات. وفي الآن نفسه صمتت الأصواتُ جميعًا، كأنّما النّفخة القويّة التي ذهبت بضوء الشّموع، ذهبت أيضًا بالأصوات. لم يعد يُسمع إلا صوتُ عجلات العربات تحمل المقنّعين إلى بيوتهم؛ وما عادت تُرى إلا الأضواء النّادرة المتلألئة خلف خصاص النّوافذ.

لقد انتهى الكرنفال.

37

مدافنُ سان سيبستيان

لربّما، طيلة حياته لم يشعر فرانز بإحساسٍ ممزّقٍ كهذا الذي يحسّه الآن، مرور سريع خاطف من الفرح إلى الحزن؛ يمكن القول إنّ روما قد تحوّلت بنفخةٍ سحريّةٍ من جنيٍّ ليلٍ، إلى مدفنٍ هائل. وبصدفةٍ زادت الحلكةَ شدّةً، كان القمرُ في المحاق، ولن يبزغ إلاّ حوالى الحادية عشرة مساءً؛ فكانت الشوارع التي عبرها الشّابُ غارقة في أحلك الظلمات. عدا ذلك، كان المسار قصيرًا، وما هي إلا عشر دقائق حتّى توقّفت عربته، أو بالأحرى عربة الكونت قبالة فندق لندن.

كان العشاء بانتظاره؛ وبما أنّ ألبير قال إنّه لن يعود باكرًا، فقد جلس فرانز إلى المائدة من دونه. ولأنّ المايسترو باستريني اعتاد رؤية الشّابين معًا، فقد استقصى عن ألبير، فاكتفى فرانز بأن أخبره أنّ ألبير قد تلقى أوّل أمس دعوة، فذهب يلبيها. إنّ انطفاء المصابيح بغتةً، والصمت الذي أعقب الضجيج، كلّ ذلك قد خلّف في نفس فرانز ضربًا من الضّيق لا يخلو من قلق. فكان أن تعشى صامتًا، على الرغم من العناية المفرطة التي أبداها له مضيفه، إذ دخل عليه مرّتين أو ثلاثًا يسأله إذا كان يحتاج شيئًا.

قرّر فرانز أن ينتظر ألبير مهما تأخّر. طلب أن تُجهَّز عربته في الحادية عشرة، راجيًا المايسترو باستريني أن يُعلمه متى ما ظهر ألبير أثناء ذلك. دقت الحادية عشرة وألبير لميعُد. ارتدى فرانز ملابسه وانطلق بعد أن أعلم مضيفَه بأنّه سيقضي الليلة عند الدوق براتشانو.

إنّ منزل الدوق من بين أجمل المنازل في روما؛ زوجته، إحدى أواخر ورثة آل كولونو، تُشرّف منزلَها كأفضل ما يكون التشريف، فتحظى الحفلاتُ التي تقيمها فيه بشهرة أوروبية. وقد حلّ فرانز وألبير في روما حاملَين رسالة توصية إلى الدّوق؛ لذا فإنّ أوّل سؤال طرحه على فرانز هو سؤاله عمّا حلّ برفيق سفره. أجابه فرانز بأنه قد فارقه قُبيل انطفاء الشّموع، وأنّه أضاعه عند نهج مارتشيلو.

سأله الدوق: - لم يعد إذًا؟

أجاب فرانز: - انتظرته حتى هذه الساعة.

- وهل لديك علمٌ بالمكان الذي كان يقصده؟

- كلّا، ليس بالضّبط؛ لكنّني أحسبه ذهب في موعد.

قال الدوق: - اللعنة! إنّه يوم غير مناسب، أو بالأحرى هي ليلة غير مناسبة للبقاء في الخارج حتى وقت متأخّر، أليس كذلك يا سيّدتي الكونتيسة؟

هذه الكلمات الأخيرة كانت موجّهةً للكونتيسة ج... التي وصلت للتوّ متأبّطةً ذراع السيّد تورلونيا شقيق الدوق.

أجابته الكونتيسة: - بل إنّني لأجدها ليلةً ساحرةً؛ وإنّ الحضورَ لن يشتكوا إلا من شيء واحدٍ: أنّها ستمرّ سريعةً.

استأنف الدوق الكلام باسمًا: - لا أقصد الموجودين هنا، فهؤلاء لا يخشون خطرًا، اللهم إلا خطر الوقوع في حبّك الذي يترصّد الرّجال، وخطر الإصابة بمرض الغيرة من جمالك الذي يتهدّد النّساء؛ إنّما أنا أتحدّث عن أولئك الذين يجوبون شوارع روما.

سألته الكونتيسة: - بحقّ السّماء، من ذا الذي قد يذرع شوارع روما في هذه السّاعة، ما لم يكن يقصد الحفلَ الرّاقص؟

أجابها فرانز: - صديقنا ألبير دو مورسيرف الذي تركته في أثر مجهولته، نحو السّابعة مساءً، ولم أرَه بعدها.

- كيف كيف؟ ألا تعرف أين هو؟
- لا علم لي البتة.
- هل يحمل معه أسلحته؟
- يرتدي زيّ مهرّج.

قال الدوق لفرانز: - ما كان ينبغي لك أن تسمح له بالذّهاب، وأنت الأعلم منه بروما.

أجابه فرانز: - أوه! كأنّك تطلب منّي أن أوقف حصان الرّهان رقم ثلاثة الذي فاز اليوم بالسّباق؛ ثمّ ماذا يمكن أن يقع له؟

- من يدري؟ إنّ اللّيل حالك، ونهر التيبر قريبٌ من نهج ماتشيلو.

أحسّ فرانز برجفةٍ تسري في عروقه، إذ رأى الدّوق والكونتيسة متّفقَيْن في هواجسهما.

قال: - لذا، أعلمتهم في الفندق بأنّني سأقضي اللّيلة عندكم يا سيّدي الدّوق، وسوف يُعلمونني متى ما عاد.

قال الدّوق: - وها بالمناسبة أحدُ خدمي يبدو كأنّه يبحث عنك.

لم يكن الدوق مخطئًا، فإذ لمح الخادمُ فرانز اقترب منه:

قال: - يا صاحب السّعادة، إنّ مدبّر فندق لندن يقول إنّ رجلًا ينتظرك هناك، حاملًا إليك رسالة من عند الفيكونت مورسيرف.

صاح فرانز: - حاملًا رسالةً من الفيكونت؟

- أجل.
- ومن الرّجل؟
- لا أعرف.
- لَمَ لم يأتي بها إليّ هنا؟
- لم يعطني الرّسول أيّ تفسير.
- وأين الرّسول؟
- لقد انصرف ما إن لمحني أدخل صالة الرّقص لأبلغك.

صاحت الكونتيسة: - أوه! يا إلهي! أسرع إليه يا فرانز! ربّما وقعت للمسكين حادثةٌ.

قال فرانز: - سأهرع إليه.

سألته الكونتيسة: - هل ستعود لتطمئننا؟

- أجل إن لم يكن الأمر خطيرًا، وإلا فإنّني لا أدري ما سيحلّ بي أنا نفسي.

قالت الكونتيسة: - وفي جميع الأحوال، توخَّ الحذر.

- أوه! اطمئنّي!

أخذ فرانز قبّعته وانطلق مسرعًا. وكان قد صرف عربته بعد أن أمر الحوذيّ أن يعود بعد ساعتين؛ لكن لحسن الحظّ فإنّ قصر براتشانو الذي يطلّ من جهةٍ على شارع كورسو، ومن جهةٍ ثانية على ساحة قداسة الحواريّين، كان يقعُ على بعد عشر دقائق بالكاد عن فندق لندن. ولمّا اقترب فرانز من الفندق، لمح رجلًا واقفًا وسط الشّارع، فلم يشُكّ لوهلةٍ في أنّه رسول ألبير. وكان الرّجل مغلّفًا بمعطفٍ كبير. قصده فرانز، ولعظيم دهشته كان الرّجل هو المبادرَ إلى الكلام.

قال الرّجل وهو يتراجع إلى الخلف كمن يتّخذ حذره:

- ماذا تريد يا صاحب السّعادة؟

سأله فرانز: - ألستَ من يحمل رسالةً من عند الفيكونت مورسيرف؟

- هل أنت القاطنُ عند باستريني يا صاحب السّعادة؟

- نعم.

- أنت رفيق سفر الفيكونت يا صاحب السّعادة؟

- نعم.

- وما اسمك يا صاحب السّعادة؟

- البارون فرانز دييناي.

- الرّسالة إذًا بالفعل مبعوثةٌ إليك يا صاحب السّعادة.

سأله فرانز وهو يستلم منه الرّسالة: - هل يستوجبُ الأمر ردًّا؟
- نعم، ذلك على الأقلّ ما يرجوه صديقك.
- اصعد عندي إذًا وسوف أكتب لك ردًا.
قال الرّسول ضاحكًا: - أفضّل الانتظار هنا.
- لم؟
- سيدرك صاحب السّعادة السبب حين يقرأ الرّسالة.
- سأوافيك هنا إذًا؟
- بلا ريب.
صعد فرانز؛ وعلى السلّم التقى المايسترو باستريني.
سأله الفندقيّ: - وإذًا؟
أجابه فرانز: - وإذًا ماذا؟
- هل لقيتَ الرّجل الذي كان يودّ أن يبلّغك رسالةً من عند صديقك؟
أجابه: - نعم لقيتهُ، وقد أعطاني هذه الرّسالة، أَوقِد النّور في غرفتي رجاءً.

أصدر الفندقيّ أوامره إلى أحد الخدم أن يسبق فرانز حاملًا شمعةً. لقد ميّزَ الشّابُّ في المايسترو باستريني شمائلَ الفزع، فلم يزده ذلك إلا تحرّقًا لقراءة رسالة ألبير. دنا من الشّمعة ما إن أُشعلت، وفتح الورقة المطوية. كانت الرّسالة مكتوبةً بخطّ ألبير، وموقّعةً من طرفه. وقد قرأها فرانز مرّتين لفرط ما خرق محتواها أفقَ توقّعه.

وهي ذي الرّسالة ننقلها كما هي بالحرف:

صديقي العزيز، ما إن تستلم هذه الرّسالة، تفضّل بأخذِ حافظتي الموجودة في درج الخزنة المربّعة، وفي الحافظة ستجد خطاب رصيدي؛ فإن لم يكن الرّصيد كافيًا أضف إليه من عندك. واقصد تورلونيا، فاصرف خطاب الرّصيد في الحال إلى أربعة آلاف بياسترا، ثمّ أعطِ ما تحصّل لك إلى حامل الرّسالة. لابدَّ أن يصلني الملغ من غير إبطاءٍ.

لن أزيد التأكيد، إذ أثق فيك مثلما تثق فيّ.

P. – S. I believe now to italian banditti[1].

ألبير دو مورسيرف.

وتحت هذه الأسطر كانت مكتوبة بخطّ غريبٍ هذه الكلمات الإيطالية:

Se alle sei della mattina le quattro mille piastre non sono nelle mie mani, alle sette ilcomte Alberto avrà cessato di vivere.

LUIGI VAMPA[2].

وهذا التّوقيعُ الثاني قد فسّرَ لفرانز كلّ شيء، وأدرك لماذا امتنع الرّسول عن الصّعود معه؛ إذ كان الشّارع يبدو له أأمن من غرفة فرانز. لقد وقع ألبير بين يدي رئيس العصابة الشّهير الذي لطالما رفضَ التّصديق بوجوده.

لم يكن لديه وقتٌ يضيّعه. هرع إلى الخزنة، فتحها، وفي الدرج المعلوم وجد الحافظة، وفي الحافظة خطابَ الرّصيد: - كان الرّصيد في الجملة ستمائة ألف بياسترا، لكنّ ألبير كان قد صرف منها ثلاثمائة ألف. أما فرانز فلم يكن يملك أيّ خطاب رصيد؛ فبما أنّه كان يسكن في فلورنسا، ولم يأتِ إلى روما إلا ليقضي فيها سبعة أيام، فقد اكتفى بأن حمل معه نحو مائة لويسيّة، ومن المائة بقي بحوزته ماً لا يربو على الخمسين. كان إذًا يلزم من سبعمائة إلى ثمانمائة بياسترا حتّى يتمكّن فرانز من إتمام المبلغ المطلوب. وصحيحٌ أنّ فرانز يستطيع في حالٍ مماثلة أن يلجأ إلى السيّدين تورلونيا.

---

(1) ملحوظة: الآن صرتُ أومن بالعصابة الإيطالية.

(2) إن لم تصلني الأربعة آلاف بياسترا في السّاعة السّادسة، فإنّ الكونت ألبيرتو سيلقى مصرعه في السّابعة.

كان يتهيّأ إذًا لأن يعود إلى قصر براتشانو دونما إبطاءٍ، وإذا بفكرةٍ نيّرةٍ تُشرق في ذهنه. فكّر في الكونت مونت كريستو. وكان يتأهّب لأن يطلب السيّد باستريني، فإذا به يلمحه ماثلًا بشخصه عند عتبة بابه:

قال له بحدّة: - عزيزي المايسترو باستريني، هل تظنّ بأنّ الكونت مونت كريستو في بيته الآن؟

- أجل فقد عاد للتوّ.

- وهل تظنّه قد خلد إلى فراشه؟

- لا أظنّ ذلك.

- اقرع بابه إذًا، واستأذن لي في مقابلته.

فعل المايسترو باستريني كما طُلب منه؛ وبعد خمس دقائق عاد يقول لفرانز إنّ الكونت في انتظاره.

عبر فرانز البهو، وأدخله خادمٌ عند الكونت. كان في مكتبه الصّغير الذي لم يدخله فرانز من قبل، وحولَه أرائك. تقدّم الكونت إليه وقال:

- إه! أيّ ريحٍ طيّبةٍ حملتك إليَّ في هذه السّاعة؟ هل أتيت تشاركني العشاء؟ سيكون هذا من لطفك.

- كلّا، لقد أتيت أحدّثك في أمرٍ خطير.

قال الكونت وهو ينظر إلى فرانز نظرتَه العميقة المعتادة: - أمر خطيرٌ! أيّ أمر؟

- هل نحن بمفردنا؟

ذهب الكونت حتّى الباب، ثمّ عاد. وقال: - وحدنا تمامًا.

مدّ إليه فرانز الرّسالة، قائلًا: - اقرأ.

قال الكونت: - آه! آه!

قال فرانز: - هل وَعيتَ السّطور المكتوبة بالأسفل؟

- أجل أجل:

Se alle sei della mattina le quattro mille piastre non sono

nelle mie mani, alle sette ilcomte Alberto avrà cessato di vivere.

LUIGI VAMPA

- وما قولك في هذا؟

- هل تملك المبلغ المطلوب؟

- أجل، إلا ثمانمائة بياسترا.

قصد الكونت خزنتَه، فتحها، وسحب درجًا مليئًا بالذّهب.

وقال لفرانز: - أتمنّى أنّك لن تهينني وتطلب المبلغ من شخصٍ غيري؟

أجابه فرانز: - ها أنت ترى أنّني قصدتك مباشرةً قبل أيّ شخص آخر.

- وأشكرك على ذلك؛ تفضّل خُذ.

وأشار إلى فرانز بأن يحفن من الدرج.

سأل فرانز وهو يحدّق بدوره في الكونت: - هل من الضّروريّ أن نعطيَ لويجي فامبا هذا المبلغ؟

- اللعنة! احكم بنفسك. إنّ التعليقَ واضحٌ.

قال فرانز: - يبدو لي أنّك لو بحثتَ، فقد تجدُ طريقةً تبسّط المفاوضات بيننا.

سأله الكونت دهشًا: - أيّ طريقة؟

- مثلًا، نذهب معًا عند هذا المدعو لويجي فامبا، ولا أشكّ في أنّه لن يرفض إطلاق سراح ألبير، إن طلبت منه أنت ذلك؟

- أنا؟ ولمَ تظنُّ أنّ كلمتي ستكون مسموعةً عند قاطع الطّريق هذا؟

- ألم تؤدّي له خدمةً لن ينساها أبدًا؟

- أيّ خدمةٍ؟

- ألم تنقذ حياةَ بيبينو؟

– آه! آه! ومن أخبرك بهذا؟

– فيمَ يهم ذلك؟ المهم أنّني أعرف.

ظلّ الكونت للحظةٍ صامتًا مقطّب الحاجبين.

– وإن ذهبتُ للقاء فامبا، هل سترافقني؟

– إن لم تكن صحبتي تضايقك؟

– حسنًا، ليكن ما شئت؛ إنّ الطّقسَ جميلٌ، وإنّ نزهةً في ريف روما لا يمكن إلا أن تكون مفيدةً لنا.

– هل نأخذ معنا أسلحة؟

– لماذا؟

– والنّقود؟

– لا حاجة بنا إليها. أين الرّجل الذي حمل الرّسالة؟

– في الشّارع.

– ينتظر الجوابَ؟

– أجل.

– ينبغي أن نكوّن فكرةً عن المكان الذي نقصده؛ سأنادي عليه.

– لا فائدة. لقد رفض الصّعود معي.

– رفض الصّعود عندك، لكن عندي أنا الأمر مختلف؛ سيوافق بلا مشقّة.

قصد الكونت نافذة مكتبه المطلّة على الشّارع، وصفّر بطريقة خاصّة. انفصل صاحبُ المعطف عن الجدار وتقدّم حتّى وسط الشّارع. قال الكونت بنبرةٍ كأنّما يخاطبُ بها أحد خدمه: «اصعد!». أطاع الرّسول الأمر بلا إبطاءٍ أو تردّد، لا بل بسرعة، ثمّ خطا درجات العتبة الأربع، ودخل إلى الفندق. وما هي إلا خمس دقائق حتّى كان عند باب المكتب.

قال الكونت: – آه! هذا أنت يا بيبينو!

لكنّ بيبينو بدلًا من أن يجيبَ الكونت، جثا على ركبتيه، وأمسك بكفّ الكونت يغمرها بالقبل.

قال الكونت: - آه! لم تنسَ بعدُ أنّني أنقذتُ حياتكَ، مع أنّه قد مرّت ثمانية أيّام على ذلك. غريب!

أجابَ بيبينو بنبرةٍ تحملُ عظيمَ الامتنان: - كلاّ يا صاحب السّعادة، ولن أنسى ذلك ما حييت أبدًا.

- أبدًا، يعدُّ زمنًا طويلًا! هيّا انهض وأجب.

ألقى بيبينو على فرانز نظرةً قلقةً.

قال الكونت: - بوسعك أن تتكلّم في حضور صاحب السّعادة، إنّه صديقٌ لي. (ثمّ استدار شطر فرانز وأضاف بالفرنسيّة)، هل تسمح لي بأن أسمّيكَ صديقي، فذاك أمرٌ لا بدّ منه كي نحوز ثقة هذا الرّجل.

قال فرانز: - تستطيع الحديث أمامي، أنا صديقٌ للكونت.

قال بيبينو وهو يستدير جهة الكونت: - جيّدٌ إذًا، لتسألني يا صاحب السّعادة، وسوف أجيبُك.

- كيف وقع الفيكونت ألبير في يد لويجي؟

- يا صاحب السّعادة، لقد صادفَت عربةُ الفرنسيّ مرّاتٍ عديدةً عربةَ تيريزا.

- عشيقة القائد؟

- نعم. لقد غازلها الفرنسيّ؛ واستمتعت تيريزا بمجاراته؛ ألقى إليها الفرنسيُّ بباقاتٍ، فردّت عليها بباقاتٍ. وكلّ ذلك بالطّبع تمّ بموافقة القائد الذي كان في العربة نفسها.

صاح فرانز: - كيف! هل كان لويجي فامبا في عربة الفلاّحات الرّومانيات؟

- نعم، كان هو من يقود العربةَ متنكّرًا في زيّ حوذيّ.

سأله الكونت: - ثمّ؟

- ثمّ إنّ الفرنسيّ نزعَ قناعَه؛ وفعلت تيريزا مثلَه، بموافقةٍ من القائدِ دائمًا؛ طلب الفرنسيُّ موعدًا، فأعطتهُ تيريزا موعدًا؛ غير أنّه بدلًا من تيريزا، بيبيو هو من كان بالانتظار على عتباتِ كنيسة القدّيس جاكومو.

قاطعه فرانز مجدّدًا: - كيف! تقصد تلك الفلّاحة التي انتزعت من يده شمعته؟

أجابه بيبينو: - كان ذاك غلامًا في الخامسة عشرة من عمره؛ لكن لا شيء يدعو صاحبك إلى الخجل، لقد سقط من قبله كُثر.

قال الكونت: - وبيبيو أخذه خارج الأسوار؟

- تمامًا، كانت هناك عربةٌ تنتظر في آخر نهج ماتشيلو؛ صعد إليها بيبيو، ودعا الفرنسي إلى أن يفعل مثله؛ ولم يحتجّ، إذ مدّ إليه الفرنسيُّ يمناه بلباقةٍ، وصعد العربة، وجلس بجانبه. قال له بيبيو آنذاك إنّه سيأخذه إلى فيلا تقع في ضواحي روما. فأكّد له الفرنسيّ أنّه مستعد لأن يتبعه حتّى آخر الدّنيا. وعلى الفور صعد الحوذيّ في طريقَ ريبيتا، وسلك باب سانباولو؛ ولمّا توغّلوا مائتي قدمٍ في الرّيف، وإذ بدأ الفرنسيّ يتجرّأ، أخرج بيبيو مسدّسين ووضعهما على عنقه؛ وعلى الفور أوقف الحوذيُّ الأحصنة واستدار صوبهما حاذيًا حذوَ بيبيو. وفي الآن نفسه خرج أربعةٌ من أصحابنا، كانوا متوارين عند ضفّتي ألمو، وانقضوا على أبواب العربة. وقد أراد الفرنسيُّ أن يهرب، حتّى إنّه قد شدّ بخناق بيبيو، على ما قيل لي، لكن أيّ شيءٍ يستطيعه المرء إزاء خمسة أشخاصٍ مسلّحين. اضطرّ إذًا إلى الاستسلام؛ أجبره الرّجالُ على النّزول من العربة، وعلى أن يسير معهم بمحاذاة النّهر الصّغير، وقادوه إلى تيريزا ولويجي اللذين كانا ينتظرانه في مدافن سان سيبستيان.

قال الكونت وهو يستدير صوبَ فرانز: - قصّةٌ وأيّ قصةٍ هي! ما قولك يا سيّدي، وأنت العارف؟

- أقول إنّها قصّة طريفةٌ لو أنّها وقعت لشخصٍ آخر غير المسكين ألبير.

قال الكونت: - الواقع أنّك لو لم تجدني هنا، لكلّف الأمرُ صديقَك ثروةً معتبرةً؛ لكن فلتطمئنّ، سيكتفي بدفع الثمن من خوفه.

قال فرانز: - وهل ما زلنا سنذهبُ لتخليصه؟

- وكيف! خاصّةً وأنّ الموضع الذي يتواجد فيه خَلاّبٌ. هل تعرف مدافن سان سيبستيان؟

- كلاّ، لم يسبق لي أبدًا أن نزلتُ إليها، لكنّني كنت أمنّي النّفس بذلك.

- حسنًا، ها الفرصةُ قد لاحت، ولن تجدَ أبدًا خيرًا منها. هل العربة معك؟

- كلّا.

- لا بأس؛ من عادتنا أن نترك دائمًا عربةً جاهزةً، ليلًا ونهارًا.

- جاهزة؟

- نعم، أنا كائنٌ كثير النّزوات؛ ينبغي أن أقول لك إنّه قد يحدث أحيانًا، بعد أن أفرغ من عشائي، أو فورَ أن أستيقظ، أن تستبدَّ بي الرّغبةُ في الذّهاب إلى منطقةٍ ما من العالم، فأنطلقُ من فوري.

رنّ الكونت الجرس رنّةً، فظهر خادمه.

- أخرج العربة الجاهزة، وانزع عنها المسدّسات الموضوعة في جيوبها، ولا داعي لأن توقظ الحوذيّ، عليّ سيقود بنا.

وما هي إلا لحظة حتّى سُمع صوت العربة تقف أمام الباب.

سحب الكونت ساعتَه.

قال: - نصفُ ساعةٍ بعد منتصف اللّيل، بإمكاننا أن ننطلق عند الخامسة صباحًا وسنصل في الموعد؛ لكن ربّما كانت نتيجةُ تأخّرُنا ليلةً سيّئةً يقضيها صاحبُكَ. الأجدر إذًا هو أن نهرع إلى صديقك ننتقذه من أيدي المجرمين. هل لا تزالُ مصرًا على مرافقتي؟

- أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

- حسنًا، هيّا إذًا.

خرج فرانز والكونت، وفي إثرهما بيبينو. وفي الباب وجدوا العربةَ. كان عليٌّ جالسًا في المقعد. وتعرّف فرانز على عليّ، على العبد الأخرس الذي خدمه في مغارة مونت كريستو.

صعد فرانز والكونت إلى العربة، وكانت عربةَ كوبّيه[1]، واتّخذ عليٌّ موضعه بجانب بيبينو. وانطلقت خيلُ العربةِ عَدْوًا. وكان عليٌّ قد تلقّى الأوامر مسبقًا، إذ سلك شارع كورسو، وعبر الكامبو فاكينو، فصعد شارع سان غريغوريو، ثمّ وافى باب سان سيبستيان؛ وهناك أراد حاجبُ الباب أن يمنعهم، لكنّ الكونت أبرز له تصريحًا من حاكم روما يسمح له بأن يخرج من المدينة ويدخل منها متّى ما شاء، ليلًا ونهارًا؛ فُتح في وجههم الحاجزُ، وتلقّى الحاجبُ لويسيّةً نظيرَ جهدِه، ومرّت العربة.

كانت الطّريق التي سلكتها العربةُ هي طريق آبيا القديمة، تحفُّها القبورُ من كلّ جانبٍ. ومن حين إلى آخر، وفي ضوء القمر الصّاعد، كان يخيّل لفرانز أنّه يرى خفيرًا يبرز من خرابةٍ، لكن، على الفور يتبادل معه بيبينو إشارةً، فيعود ليغوص في الظلّ.

وقُبيل قوس كاراكلّا توقّفت العربة، وفتح بيبينو البابَ، فنزل الكونت وفرانز.

قال الكونت لرفيقه: - عشر دقائق ونصل.

ثمّ انتحى ببيبينو جانبًا وأمرَه بأمرٍ ما، وعلى الفور انطلق بيبينو بعدما تزوّد بمصباحٍ أخذَه من صندوق العربة.

انقضت خمس دقائق أُخر، تابع خلالها فرانز الرّاعيَ يتوغّل في

---

(1) عربة مربّعة صغيرة، تكون مغلقةً، وبها عددٌ قليلٌ من المقاعد (مقعدان في الغالب).

خندقٍ وسط التضاريس التي تشكّل الأرض المهتزّةَ لسهل روما، ثمّ يختفي وسط تلك الأعشاب المحمرّة التي تبدو كأنّها لبدة أسدٍ عملاق.

قال الكونت: - الآن، لنتبعه.

سلك الكونت وفرانز الأخدود نفسَه، فقادهما بعد نحو مائة قدمٍ إلى منحدرٍ مائلٍ في قعر وادٍ صغير.

ولم يمضِ من الوقت الكثير حتّى لُمح رجلان يتناقشان في الظلّ.

سأل فرانزَ الكونت: - هل ينبغي أن نواصل المسير، أم نتوقّف؟

- لنواصل السّير، فلابدّ أنّ بيبينو قد أعلم الخفير بوصولنا.

وبالفعل، كان أحدُ الرّجلين بيبينو والآخرُ رجلٌ وُضع على رأسِ المراقبة. اقترب فرانز والكونت، فحيّاهما قاطع الطّريق.

قال بيبينو مخاطبًا الكونت:

- هلاّ تبعتني يا صاحب السّعادة، إنّ مدخل المدافن على بعد خطوات من هنا.

قال الكونت: - حسنًا، سر أمامنا.

وبالفعل، خلف دغل كثيفٍ ووسط بضعة صخورٍ كانت هنالك فتحةٌ بالكاد يستطيعُ إنسان المرورَ منها. انزلقَ بيبينو أوّلًا عبر ذلك النّقب؛ لكنّه ما كاد يخطو بضع خطواتٍ حتّى اتّسعَ الممرّ الأرضيّ. فتوقّف، وأوقد مشعلَه، واستدارَ يستقصي من يتبعه. رأى في المقدّمةِ الكونت يدخل فيما يشبه فتحةَ سرداب، وخلفَه فرانز. منحدرٌ ناعمٌ كان يخترق المكانَ الذي يمضي متّسعًا بقدر ما يُتوغَّل فيه؛ لكن بالرّغم من اتّساعه ظلّ فرانز والكونت مجبرين على التقدّم فيه منحنيَين وبالكاد يستطيعان السّير جنبًا إلى جنب. تقدّما كذلك نحو خمسين قدمًا، ثمّ أوقفتهما صيحةٌ: «Qui vive ?»، وفي الآن نفسه شهدا وسطَ الظّلام انعكاسَ مشعلهما يبرقُ في ماسورةِ قربينة.

صاح بيبينو: «أصدقاء!».

وتقدّم بمفرده ثمّ همس بكلماتٍ إلى هذا الخفير الثاني الذي حيّا الزائرين كما حيّاهما سابقه، وأشار إليهما أنْ يكمِلا السير. وخلف الخفير كان هناك سلّمٌ بنحو عشرين درجة؛ نزل فرانز والكونت الدّرجات العشرين، فألفيا نفسيهما في ما يشبه مدارَ طُرقٍ جنائزيًا. خمس طرق تفترق كأشعّةٍ منبثقةٍ من نجمةٍ، والجدرانُ المحفورةُ فيها كُوى متقابلةٌ على هيئةِ توابيت، كانت تدلُّ على أنّهم صاروا أخيرًا داخل المدافن.

في إحدى النّقوب التي لا يمكن سبر غورها، كانت تبدو بعضُ انعكاسات الضّوء.

وضع الكونت يده على كتف فرانز وقال له: - هل ترغب في أن ترى معسكر قطّاع طرقٍ في حالة استراحة؟

أجابه فرانز: - بالتّأكيد.

- حسنًا، تعالَ معي... أطفئ المشعل يا بيبينو.

أطاع بيبينو الأمر فألفى الكونت وفرانز نفسيهما في ظلمةٍ حالكة؛ غير أنّه على بعد خمسين مترًا تقريبًا منهما، واصلت التّراقص على امتداد الجدران بعض الأشعّة المحمرّة التي صارت أوضح مُذ أطفأ بيبينو مشعلَه.

تقدّما بهدوء، الكونت يقود فرانز كأنّما حُبيَ ملكة الإبصار في الظّلام. ثمّ إنّهم بقدرِ ما كانوا يقتربون من مصدر تلك الانعكاسات التي يهتدون بها، بقدر ما كان فرانز يميّزُ طريقَه بشكلٍ أيسر. ثمّ عبروا من ثلاثة أقواسٍ، وكان أوسَطُها بابًا. وكانت هذه الأقواسُ تنفتحُ من جانبٍ على البهو حيث يوجد فرانز والكونت، ومن جانبٍ آخر على غرفة مربّعة تحفّها كوىً كتلك التي ذكرناها آنفًا. ووسط تلك الغرفة ترتفع أربعةُ أحجارٍ كانت في مضى مذبحًا، كما يدلّ على ذلك الصّليب الذي لا يزال يعلوها. قنديلٌ وحيدٌ، معلّق على أحد الأعمدة، يضيءُ بضوءٍ شاحبٍ ومتماوجٍ المشهد الغريب الماثل أمام عيون الزائرَيْن المتواريَين في الظلّ.

كان ثمّة رجلٌ يجلس، مستندًا بكوعه إلى ذلك العمود، وكان منهمكًا في القراءة، موليًا ظهرَه للأقواس التي من فتحتها كان ينظر إليه القادمان.

كان ذلك رئيس العصابة لويجي فامبا. وحوله كان يُرى نحو عشرين لصًّا، مجتمعين، كلّ كما شاء، فبعضهم استلقى على معطفه، وبعضهم تكوّم فوق ما يشبه مصاطبَ من حجر موجودة في كلّ مكانٍ حول تلك الكُوى التي كنّا قد ذكرناها؛ كلّ رجلٍ من أولئك الرّجال جعلَ قربينتَهُ طوعَ يده.

في أقصى المكان كان ثمّة خفير، يبدو كظل، يجوب الفضاء بالطّول والعرض، أمام فتحةٍ لم تكن ترى إلا لأنّ الظّلاَمَ حولَها كان أشدّ كثافةً. وحين ارتأى الكونت أنّ فرانز قد أشبعَ نظره من اللّوحة الخلّابة أمامه، رفع سبّابته إلى شفتيه علامةَ الصّمت، ثمّ صعد الدّرجات الثلاث التي تقود من الرّدهة إلى مهجع اللّصوص، ثمّ دخل الغرفة عبر القوس الأوسط، وتقدّم صوب فامبا الذي كان مستغرقًا في القراءة إلى درجة أنّه لم ينتبه إلى وقع خطى الكونت.

«من هناك!»، صاح الخفير الذي كان يبدو أقلّ انشغالًا من فامبا، ولاحظ في ضوء المصباح ظلًّا يتعاظمُ خلف القائد.

وإذ سمع فامبا الصّيحة السّابقة، وقف بسرعةٍ، واستلّ في اللّحظة نفسها من حزامه مسدّسًا. وما هي إلا لحظةٌ حتّى كان قطّاع الطّرق جميعًا واقفين مستعدّين، وعشرون قربينةً تصوّب فوهاتها إلى الكونت.

قال الكونت بصوتٍ هادئ تمامًا، من دون أن يختلج وجهه بارتعاشةٍ:

– وإذًا، يا عزيزي فامبا، تبدو لي هذه أفضل طريقةٍ يمكن أنتستقبل بها صديقًا.

صاح القائد: «انزلوا أسلحتكم!»، وهو يشير آمرًا بإحدى يديه، بينما بالأخرى نزع قبّعته احترامًا. ثمّ استدار نحو الشّخصية الفريدة التي كانت تهيمن على هذا المشهد، وقال:

- عفوك يا سيّدي الكونت، لكنّني ما كنتُ أتصوّر أن تشرّفني بزيارتك، فلم أتعرّف عليك.

قال الكونت: - يبدو لي أنّ ذاكرتك قصيرة المدى يا سيّد فامبا، ولست تنسى وجوه النّاس فحسب، وإنّما أيضًا تنسى العهود التي تقطعها لهم.

سأل فامبا بنبرة الرّجل الذي يلتمس إصلاح خطأِه: - وأيّ عهدٍ قطعتُ لك يا سيّدي الكونت؟

- ألم نتّفق على أنّ نفسي، كما نفوس أصدقائي، محرّمةٌ عندك؟

- وفيمَ تُراني نقضتُ هذا العهد يا صاحب السّعادة؟

واصل الكونت بنبرةٍ ارتعد لها فرانز: - لقد خطفتَ هذا المساء الفيكونت ألبير دو مورسيرف، ونقلتَه إلى هنا، صديقيَ الفيكونت الذي يشاركني الفندق نفسَه، والذي جاب شارع كورسو طيلة الكرنفال في عربتي، ومع ذلك، أكرّرُ، خطفتَه ونقلتَه إلى هنا (وأخرج من جيبه الرّسالة) وطلبت فيه فديةً كأنّه أيّ كان.

قال القائد وهو يستدير شطر الرّجال الذين تراجعوا جميعًا أمام نظرته: - لمَ لم تنبّهوني إلى الأمر؟ لمَ جعلتموني أنقض كلمتي تُجاه سيّدي الكونت الذي أرواحنا جميعًا بيده؟ قسَمًا بدم المسيح، إن عرفتُ أنّ أحدكم كان على علمٍ بأنّ هذا الرّجلَ صديقُ الكونت، سأفجّر رأسَه بيديَّ هاتين.

قال الكونت وهو يستدير شطر فرانز: - ألم أقُل لك إنّ في الأمر سوء تفاهم؟

سأله فامبا قلقًا: - ألست وحدَك؟

- معي الرّجلُ الذي أرسلتم إليه بالرّسالة، وقد أردتُ أن أبرهن له أنّ فامبا رجلٌ يحترم كلمتَه. (ثمّ قال لفرانز) تعالَ يا صاحب السّعادة، هذا لويجي فامبا سيخبرك بنفسه بأسفه للخطأ الذي وقع.

اقترب فرانز، وخطا القائد خطواتٍ باتّجاهه.

قال قائد العصابة: - مرحبًا بك عندنا يا صاحب السّعادة، لقد سمعتَ ما قاله الكونت، وما أجبتُه به. وسأضيف: - إنّني لا أريد، نظير الأربعة آلاف بياسترا التي حدّدتُها كفديةٍ، أن يحدث ما حدث.

قال فرانز وهو يجيل البصر حولَه بقلقٍ: - لكن أين السّجين؟ إنّني لا أراه.

قال الكونت وهو يقطّبُ حاجبَه: - أرجو ألّا يكون قد أصابَه مكروه.

قال فامبا وهو يشير إلى الغور الذي كان يحرسه الخفير: - السّجينُ هناك، وسوف أخبره بنفسي أنّه حرّ.

تقدّم القائدُ صوب الموضع الذي أشار إليه، وتبعه فرانز والكونت.

سأل فامبا الخفيرَ: - ماذا يفعل السّجين؟

فأجابه: - الحقّ أقول يا قائدي، لا علم لي؛ منذ ساعةٍ لم أسمعه يتحرّك.

قال فامبا: - تعال يا صاحب السّعادة!

صعد الكونت وفرانز سبع درجاتٍ أو ثماني، يسبقهما القائدُ، ثمّ فتح فامبا قفلًا ودفع الباب.

إذّاك، وفي ضوءِ قنديلٍ شبيه بذاك الذي كان يضيءُ المهجَع، بدا ألبير متلفّعًا في معطفٍ أعاره إيّاه أحد رجال العصابة، مستلقيًا في إحدى زوايا المحبس، وغارقًا في سباتٍ عميق.

قال الكونت وعلى شفتيه تلك الابتسامة المميّزةُ: - طيب! لا بأسَ به، بالنّسبة إلى رجلٍ يُفترض أن يعدم في السّابعة صباحًا.

أخذ فامبا يتأمّلُ ألبير النّائمَ بقدرٍ من الإعجاب؛ كان واضحًا أنّ شجاعة الرّجل قد أثّرت فيه. وقال: - أنت محقّ يا سيّدي الكونت، هذا الرّجل بالفعل صديقك.

ثمّ اقترب من ألبير ومسّ كتفه قائلًا: - هلّا استيقظتَ فضلًا يا صاحب السّعادة؟

بسط ألبير ذراعيه، ثمّ فرك جفنيه وفتح عينيه.

قال: - آه! هذا أنت أيّها القائد؛ كان يجدر بك أن تتركني أنام، كنت غارقًا في حلم جميل: رأيتُني في بيت تورلونيا، أراقصُ الكونتيسة ج.

سحب ساعته التي تُركت له ليقف بنفسه على الزّمن الذي مرّ من ساعة أسره.

- إنّها الواحدة والنّصف صباحًا! لم أيقظتني بحقّ الشّيطان في هذه السّاعة؟

- أيقظتك لأقول لك إنّك حرٌّ يا صاحب السّعادة.

أجاب ألبير بنبرةٍ خالية من أيّ انفعالٍ: - يا عزيزي، احفظ لما تبقّى من عمرك هذه الحكمة عن العظيم نابليون: «لا توقظوني إلا للأخبار السيّئة». فلو أنّك تركتني أنعم بالنّوم، لكنت أتممتُ رقصتي مع الكونتيسة ج. ولحفظتُ لك هذا الجميل إلى الأبد... هل دُفعت فديتي؟

- كلّا يا صاحب السّعادة؟

- كيف تقول إذًا إنّني حرّ؟

- لقد أتى يخلّصك شخصٌ لا أستطيع لأوامره رفضًا.

- أتى حتّى هنا؟

- نعم، حتّى هنا.

- آه، بحقّ السّماء، إنّه فعلًا شخصٌ ودود وصديق حقيقي.

أجال ألبير البصر حولَه فلمحَ فرانز.

قال له: - هذا أنت يا عزيزي فرانز، لقد دفعك الوفاء إذًا حتّى هنا؟

أجابه فرانز: - كلا، ليس أنا. إنّما هو جارنا الكونت مونت كريستو.

قال ألبير بمرح وهو يعدّل ياقته وكُمّيه: - آه، بحقّ السّماء! إنّك حقًا رجلٌ لا مثيل له، وإنّي أعتبر نفسي مدينًا لك طيلة حياتي، لسببين اثنين: أوّلا العربة، وثانيًا إنقاذ حياتي.

ثمّ إنّه مدّ يدَه إلى الكونت الذي شعر برجفةٍ وهو يمدّ إليه يدَه، لكنّه مدّها مع ذلك.

وكان قائدُ العصابة يتابع المشهدَ كلّه مذهولًا؛ فهو بالطّبع معتاد على رؤية أُسرائه يرتجفون أمامه، وها هو الآن يجابه رجلًا بمزاجٍ ساخرٍ، لم يرتجف أمامه البتّة. أمّا فرانز فقد سعد غاية السّعادة لأنّ ألبيرً قد حفظ، حتّى وهو أمام قائد عصابةٍ، شرفَ الوطن.

قال له: - عزيزي ألبير، إن عجّلتَ، فلا يزال أمامنا ما يكفي من الوقت لنتمَّ السّهرة عند تورلونيا؛ وستستأنفُ رقصتك من حيث تركتَها، وهكذا لن يبقى في نفسك شيءٌ تجاه السنيور لويجي الذي عاملنا، طيلة ما جمعنا به، معاملةَ الرّجل الشّهم.

أجابه: - آه! حقًّا، وبوسعنا أن نصل إلى هناك في غضون ساعتين. سنيور لويجي، هل هناك أيّ إجراءٍ شكليٍّ ينبغي القيام به كي نستأذن منك يا صاحب السّعادة؟

- كلّا، أنت حرٌّ كالهواء.

- في هذه الحال، لتنعم بحياةٍ طيّبةٍ سعيدة؛ هيا بنا يا سادة، هيّا!

ثمّ إنّ ألبير تبعَ فرانز والكونت اللّذين عبرا القاعة الرّحبة المربّعة؛ وكان أفرادُ العصابة جميعًا واقفين، حاملين قبّعاتهم في أيديهم.

قال القائد: - بيبينو، هاتِ المشعل.

سأله الكونت: - ماذا تنوي أن تفعل؟

أجابه القائد: - سأوصلكم؛ فهذا أبسط تشريفٍ قد أخصّك به يا صاحب السّعادة.

وأخذ المشعل من يد الرّاعي، ثمّ سارَ متقدّمًا ضيوفَه، لا كما يفعل خادمٌ يؤدّي خدمةً، وإنّما كملكٍ يتقدّمُ سفراءَ.

ولمّا وصلوا إلى الباب، انحنى أمامهم، وقال: - والآن يا سيّدي

الكونت، أجدّد لك اعتذاري، وأرجو أنّه لم يبقَ في نفسك شيءٌ بسبب ما وقع؟

أجابه الكونت: - كلّا يا عزيزي فامبا؛ ثمّ إنّك كفّرت عن خطيئتك بطريقةٍ غايةٍ في الرّقيّ، حتّى إنّنا نكادُ نشكرك على أنّك ارتكبتها.

قال القائد وهو يستدير جهة الشّابين: - سيّدايَ! ربّما بدا لكما عرضي غير جذّاب؛ لكن إن وددتما يومًا معاودة زيارتي، فعلى الرّحب والسّعة.

حيّا فرانز وألبير القائد، ثمّ خرج الكونت أوّلًا، وفي إثره ألبير، وظلّ فرانز في ذيلهما.

قال فامبا باسمًا: - هل لديك ما تودّ أن تطلبه منّي يا صاحب السّعادة؟

أجابه فرانز: - نعم، أعترف بذلك. لديّ فضولٌ أن أعرفَ أيّ كتابٍ كنتَ تقرأهُ حين وصلنا.

أجابه رئيس العصابة: - **تعليقات قيصر**[1]، إنّه كتابي المفضّل.

صاح ألبير: - وإذًا، ألن تأتي؟

أجابه فرانز: - بلى، ها أنا ذا.

ثمّ خرج بدوره من ذاك السّرداب.

خطا الرّجال الثلاثة خطواتٍ في السّهل. ثمّ عاد ألبير إلى الخلف قائلًا: - آسف، مهلًا، هلّا سمحت أيّها القائد؟

وأخذ من يد فامبا المشعل، فأشعل به سيجاره. ثمّ قال: - والآن يا سيّدي الكونت، لنحثّ السّير ما أمكنَ، فإنّي أرغب أشدّ الرّغبة في إتمام السّهرة ببيت الدّوق براتشانو.

وجدوا العربة حيث كانوا قد تركوها؛ قال الكونت لعليٍّ كلمةً عربيّةً واحدةً، فانطلقت الخيول بأقصى سرعتها.

---

(1) تعليقات يوليوس قيصر على الحرب الغالية، ألّفه الإمبراطور الرّوماني بنفسه، باستثناء الجزء الثامن الذي ألّفه بعد وفاته أولوس هيرتيوس.

وحين دخل الصّديقان ساحة الرّقص، كانت ساعةُ ألبير تشير إلى الثانية بالضّبط.

أحدثت عودتهما جلبةً؛ لكن بما أنّهما كانا معًا، فقد تبدّد فورًا كلُّ القلق الذي كان يعتمل في نفوس الحضور تُجاه ألبير.

قال الفيكونت مورسيرف وهو يتقدّم نحو الكونتيسة: - سيّدتي، أمس تكرّمتِ ووعدتِني برقصة، وها قد أتيت وإن متأخّرًا أطالب بوعدك الكريم؛ وها صديقي، الذي تعرفين مدى صدقه، سيؤكّد لك أنّني لم أتأخّر إلّا عنوةً.

وإذ كانت الموسيقى آنذاك قد انطلقت معلنةً بداية رقصة فالس، فقد طوّق ألبير بذراعه خصر الكونتيسة واختفى معها وسط دوّامة الرّاقصين.

أمّا فرانز، فكان، في أثناء ذلك، منشغلًا يفكّر في الرّجفة التي سرت في جسد الكونت مونت كريستو بأكمله حين اضطرّ، بمعنى ما، إلى أن يمدّ يده إلى يد ألبير.

38

الموعد

لمّا استيقظ ألبير في اليوم التالي، كان أول ما نطق به أنّ اقترح على فرانز زيارة الكونت؛ وكان قد شكره عشية ذلك، لكنّه كان مدركًا أنّ خدمة مثل تلك التي قدّمها له الكونت تستوجب الشكر مرّتين. ولم يشأ فرانز الذي صار يحسّ تجاه الكونت بانجذاب يخالطه الخوفُ، أنّ يترك صديقه يذهب بمفرده عند هذا الرّجل، فرافقَه؛ أُدخل الرجلان إلى الصالة، وبعد خمس دقائق دخل عليهما الكونت.

قال ألبير وهو يتقدّم نحوه: - سيّدي الكونت، اسمح لي أن أقول لك اليوم، ما لم أُحسن قوله أمس. لن أنسى أبدًا الملابسات التي قدّمتَ لي فيها عونَك، وسوف أذكر ما حييت أنّني مدين لك بحياتي أو أكاد.

أجابه الكونت ضاحكًا: - جاري العزيز، أنت تبالغ. إنّما أنت مدين لي بمبلغ صغير من مصروف سفرك، لا يتعدّى عشرين ألف فرنك، وهذا كلّ شيء؛ تَرى إذًا إنّ الأمرَ لا يستحقّ الذكر. ومن جهتي أدين لك بالتهنئة على ما أبديتَه من ثبات ولامبالاة.

قال ألبير: - ما العمل يا سيدي الكونت؛ لقد أدركت أنّني تورطت في شجارٍ في غير محلّه، وأن الأمر سيستتبع مبارزةً، وأردت أن أوصل لأولئك المجرمين رسالة. النّاس في العالم أجمعه يتصارعون، غير أنّ الفرنسيين وحدهم من يتصارعون وهم يضحكون. على أنّي إذ أشعر أنّني مدين لك بالكثير، فقد أتيت أسألك عما إذا كان بوسعي، أنا أو أيّ من أصدقائي أو معارفي، تقديم خدمةٍ لك. والدي، الكونت دو مورسيرف،

وهو من أصول إسبانية، له مقامٌ رفيع في فرنسا وإسبانيا، وقد أتيت أضع نفسي وكلّ أحبائي في خدمتك.

قال الكونت: - الحقّ أقول لك يا سيّدي مورسيرف إنّني كنت أنتظر عرضك هذا، وأقبله بكلّ فرح. كنت أنوي أصلًا أنّ أطلب منك معروفًا كبيرًا.

- أيّ معروف؟

-لم يسبق لي قطّ أن زرت باريس! لا أعرف باريس...

صاح ألبير: - حقًا! كيف أمكنك أن تعيش حتّى الآن من غير أن تزور باريس؟ مذهل!

-ولكنّه واقع؛ غير أنّني أشاطرك الإحساس أنّه من المستحيل أن يعيش المرء في جهلٍ عن عاصمة العالم المتقدّم. لا بل أكثر، لربّما كنتُ لأقوم بهذا السفر الضروريّ منذ زمن، لو كان لي شخص أعتمد عليه هناك في إقحامي ضمن هذا العالم الذي لا أملك فيه أي معارف.

صاح ألبير: - أوه! رجلٌ مثلك تعوزه المعارف!

- هذا من لطفك، لكن ما دمت لا أرى في نفسي من ميزةٍ اللهم إلا إمكان أن أنافس السيّد أغوادو والسيّد روتشيلد بوصفي مليونيرًا؛ وما دمت لا أنوي الذهاب إلى باريس للمضاربة في البورصة، فإنّني قد أحجمت عن القيام بهذه الخطوة. أمّا الآن وقد عرضتَ عليّ خدمتك، فإنّني عازمٌ على الذهاب. حسنًا، هل تلتزمُ يا عزيزي السيّد مورسيرف (وهنا أرفق الكونت كلامه بابتسامة مميّزة)، هل تلتزم، حين أزور باريس، بأن تفتح في وجهي أبواب هذا العالم الذي سأكون فيه غريبًا غربة هورونيٍّ[1] أو كوشونيٍّ[2].

(1) نسبةً إلى هورون من قبائل كندا الأصليين.

(2) نسبةً إلى كوشون وهي منطقة بفييتنام كانت فيما مضى مستعمرة فرنسية.

أجابه ألبير: - أوه! إن كان هذا فقط يا سيدي الكونت فعلى الرحب والسّعة! خاصة يا سيّدي (ولا تسخر يا عزيزي فرانز) أنّني قد تلقّيت رسالة من باريس هذا الصباح وفيها ذكرُ زواجٍ مرتقبٍ يربطني بعائلةٍ رفيعةِ المقامِ واسعةِ النّفوذ في باريس.

قال فرانزَ ضاحكًا: - اتّحادٌ عن طريق الزواج.

- أوه! يا إلهي، نعم! وبالتالي عندما ستأتي إلى باريس ستجدني رجلًا مستقرًا، وربّما ربّ عائلة. وكلّ ذلك سيتماشى مع جاذبيتي الطبيعية، أليس كذلك؟ على أيّ حال، أعيد وأكرّر أنّني، أنا وكلّ ذويّ، تحت أمرك جسدًا وروحًا!

قال الكونت: - أقبل عرضك، إذ أقسمُ لك أنّني ما كنت أنتظر إلا هذه الفرصة كي أنجز مشاريع أجترُّها منذ زمن طويل.

لم يشكّ فرانز البتّة في طبيعة المشاريع التي يُلمح إليها الكونت، والتي سبق أن ألمحَ لها في مغارة مونت كريستو، فأخذ يحدّق في الكونت محاولًا أن يستقرئ في هيئته أي شيءٍ يشي بالنيّات التي تقوده إلى باريس؛ لكن شقَّ عليه أن ينفذ إلى روح الرّجل، خاصّةً وأنّه كان يغلّف نياته تلك بابتسامة.

استأنف ألبير الكلام، سعيدًا بأنّه سيخدم رجلًا مثل مونت كريستو: - لكن، أليس هذا يا سيّدي الكونت مجرّد مشروع من تلك المشاريع التي نبنيها في الخيال، لكن ما إن نُشيّدها على الرّمال حتى تهبّ عليها الرّيح فتهدمها؟

قال الكونت: - كلّا، بشرفي؛ أريد أن أذهب إلى باريس. يجب أن أذهب.

- ومتى ذلك؟

- متى ستكون أنت هناك؟

قال ألبير: - أنا! أوه! في غضون خمسة عشر يومًا أو ثلاثة أسابيع على أبعد حدٍّ؛ فقط ما تلزمه العودةُ من وقت.

قال الكونت: - حسنًا، أمنحك ثلاثة أشهر. ها أنت ترى بأنّني لا أقيّدك.

صاح ألبير بفرح: - وبعد ثلاثة أشهر سوف تدقّ بابي؟

- هل تريد أن أحدّد معك موعدًا باليوم والساعة؟ أعلمُك أنّني رجلٌ دقيقٌ غاية الدقّة.

-موعد باليوم والسّاعة، هذا أمر يناسبني تمامًا.

قال الكونت: - حسنًا إذًا. (ثمّ مدّ يده إلى يومية معلّقة جانب المرآة) نحن اليوم في 21 فبراير (وسحب ساعته) والسّاعة العاشرة والنصف صباحًا. هل يناسبك أن تنتظرني يوم 21 أبريل القادم عند الساعة العاشرة والنصف صباحًا؟

قال ألبير: - ممتاز، ستجد الطعام جاهزًا.

- عنوان بيتك؟

- شارع هيلدر، الرقم 27.

- هل تقيم وحدك، يعني ألن أسبّب لك إزعاجًا؟

- أسكن في قصر والدي. لكنّني أتّخذ جناحًا مستقلًا في أقصى الحديقة.

- حسنًا.

أخذ الكونت مذكّرته وكتب فيها «شارع هيلدر، الرقم 27. 21 أبريل القادم عندالساعة العاشرة والنصف صباحًا». ثم قال وهو يعيد المذكرة إلى جيبه: - والآن، فلتطمئنّ، لن يكون عقربًا بندولك أكثر دقّة منّي.

سأله ألبير: - هل سنلتقي قبل رحيلي؟

- على حسب: - متى ترحل؟

- أنطلق غدًا، في الخامسة مساءً.

- في هذه الحال أقول لك وداعًا. عندي شغلٌ في نابولي، ولن أعود إلا مساء السبت أو صباح الأحد. (ثمّ أضاف مستديرًا صوب فرانز) وأنت يا سيّدي البارون هل سترحل بدورك؟

- نعم.
- إلى فرنسا؟
- كلاّ، إلى البندقية، سأبقى في إيطاليا سنةً أخرى أو سنتين.
- لن نلتقي إذن في باريس؟
- أخشى أنّني لن أحظى بهذا الشّرف.

قال الكونت وهو يمدّ يدًا إلى كلّ من الصديقين: - حسنًا يا سيّداي، سفرًا طيّبًا.

وكانت تلك المرة الأولى التي يمسّ فيها فرانز يدَ هذا الرّجل، وقد ارتجف إذ كانت اليدُ باردةً كأنّها يدُ ميّت.

قال ألبير: - لنكّرر للمرّة الأخيرة؛ لقد وعدتني وعدَ شرف: شارع هيلدر، الرقم 27. 21 أبريل القادم عند الساعة العاشرة والنصف صباحًا؟

أعاد الكونت الكلام بعدَه: - شارع هيلدر، الرقم 27. 21 أبريل القادم عند الساعة العاشرة والنصف صباحًا.

ثمّ إنّ الشّابين قدما التحية إلى الكونت وخرجا.

وفي الطريق إلى الغرفة قال ألبير لفرانز:

- ما بك؟ تبدو مهمومًا.

أجابه فرانز: - نعم، أعترف بذلك. إنّ الكونت رجلٌ غريب في أمره، وإنّي لأنظر بعين القلق إلى الموعد الذي ضربه لك في باريس.

صاح ألبير: - تنظر بقلق إلى موعدنا! هل جُننتَ يا عزيزي فرانز؟

- ما العمل؟ مجنون أم غير مجنون، لقد قلتُ ما أفكر به.

استأنف ألبير الكلام: - اصغِ إليّ، وجيّدٌ أنّ الفرصة قد سنحت لي كي أقول هذا: لطالما وجدتُك بارِدًا تجاه الكونت. في حين لم نرَ منه نحن إلا خيرًا. هل ثمّة شيء تلومه عليه؟

- ربّما.
- هل سبق أن صادفته في مكانٍ ما قبل لقائنا به هنا؟

- هوذا.
- وأين؟
- هل تعدني بأنّك لن تبوح بكلمةٍ ممّا سأخبرك به؟
- أعدك.
- وعد شرفٍ؟
- وعد شرفٍ.
- طيّب، فاسمَع إذًا.

ثمّ إنّ فرانز قصّ على ألبير رحلتَه إلى جزيرة مونت كريستو، وكيف وجد فيها طاقم مهرّبين، وبين المهرّبين قاطعَي طريقٍ كورسيكيّين. وتوقّف عند كلّ التّفاصيل التي تضمّنتها دعوةُ الكونت إلى مغارته، حيثُ أراه ليلةً من ليالي **ألف ليلة وليلة**؛ وقصّ عليه ما كان من أمر العشاء والحشيش والتماثيل واختلاط الواقع بالحلم، وكيف أنّه ساعةَ استيقاظه لم يجد من كلّ ما سبقَ أثرًا يدلّ عليه، إلا اليختَ الصّغير وهو يمخر عباب الماء باتّجاه بورتوفيكيو. ثمّ عرّج بالكلام على روما، وليلة الكولّوسيوم، وما دار من حوارٍ بين الكونت وفامبا، الحوار الذي كان هو شاهدًا عليه، وكان مضمونُه تخليص بيبينو من المقصلة، وذكر له أنّ الكونت قد تعهّد بتخليص الرّاعي الشّاب، وقد أوفى الرّجل بعهده، وذاك ما وقف عليه قرّاؤنا بأنفُسهم. حتّى وصل به إلى مغامرة اللّيلة الآنفة، والمأزق الذي ألفى فيه نفسه حين أعوزته ستّمائة أو سبعمائة بياسترا يكمل بها مبلغَ الفدية؛ وكيف واتته الفكرةُ أن يتوجّه إلى الكونت، فتمخّضت الفكرةُ عن نتيجةٍ مذهلةٍ ومُرضية.

وكان ألبير ينصت إلى فرانز بكامل انتباهه. وحين فرغَ من قصّته قال له: - حسنًا أين فيما حكيتُه، ما يمكن أن نلومَ الرّجل عليه؟ الكونت رحّالةٌ، وهويمتلك يختًا لأنّه ثريّ. واذهب إلى بورثموت أو ساوثهمبتن، فقِف بنفسك على ما يملأ الموانئ من يخوتٍ يهوى أصحابُها ما يهواه

الكونت. ولكي يكون له موضعٌ يستريح فيه من أسفاره، ولا يضطرّ إلى أكل هذه الفظاعات التي ما انفكّت تسمّمُنا، أنا منذ أربعة أشهرٍ وأنت منذ أربع سنواتٍ؛ وكيلا يضطرّ إلى النّوم على أسرّةٍ حقيرةٍ يجافي الرّاقدُ عليها النّومُ، أثّث الرّجلُ لنفسه موضعًا في مونت كريستو. وحين أثّث أرضَه، خشيَ أن تستوليَ عليها حكومة توسكانا، فاشترى الجزيرة وعمّد نفسَه باسمها. عزيزي، نقّب في ذاكرتك، وأخبرني كم عدد النّاس الذين تعرفهم، ممّن يتّخذون أسماء أملاكٍ لم تكن لهم قطّ؟

قال فرانز: - وماذا عن قاطعَيّ الطّريق الكورسيكيّين اللّذين ركبا معه يختَه؟

- حسنًا، وما وجه العجب في ذلك؟ أنت خير من يعرف أنّ الكورسيكيّين ليسوا لصوصًا، وإنّما هم بالجُملةِ هاربون بسبب فانديتا[1]، نُفوا من مدنهم أو قُراهم؛ بإمكان المرء إذًا أن يقابلهم من دون أن تتلطّخ سمعتُه. أمّا أنا فأقول لك إنّي لو قيّض لي الذّهابُ إلى كورسيكا، فقبل أن أزور الحاكم أو الوالي، سأسعى إلى التعرّف على عصابة كولومبا، إن كان بالإمكان التعرّف عليهم؛ فأنا أجدهم جذّابين.

واصل فرانز الاحتجاج: - وماذا عن فامبا وعصابته؟ أليس هؤلاءِ لصوصًا، يقطعون الطّريق على النّاس؟ أرجو أنّك لن تنكر. ما قولك في النّفوذ الذي يتمتّع به الكونت عند هؤلاء النّاس؟

- أقول يا سيّدي، إنّني مدينٌ على الأرجح لهذا النّفوذ بحياتي. فلست أنا في نهاية المطاف من سينتقده. بدلًا إذًا من أن أرميَ فعلَه بالجرمِ العظيم، فإنّني سألتمس له عذرًا، ليس لأنّه أنقذ حياتي، فقد يكون في الأمر شَيء من المبالغة، وإنّما لأنّه وفّر علينا أربعة آلاف بياسترا، وهي كما تعلم تساوي أربعةً وعشرين ألف جنيه من مصروف سفرنا، وهو

---

(1) يأتي تفصيلها وشرحها في فصل قادمٍ يحمل اسمها عنوانًا.

مبلغٌ مهمٌ في السّفر وإن كان ليبدو غير ذي أهميّةٍ لو أنّنا كنّا في فرنسا؛ وهذا ما يؤكّد (وهنا ضحك ألبير) أنّ لا كرامة لنبيٍّ في بلده.

- حسنًا، ها قد أصبتَ كبد المشكل؛ من أيّ بلدٍ ينحدر الكونت؟ ما لُغته الأمّ؟ ما مصادر عيشه؟ كيف حصّل هذه الثروة الفاحشة؟ كيف كان القسمُ الأوّل من حياته، ذاك القسمُ الذي أرخى على القسم الثاني ظلالَ الكآبة والانعزال؟ هذا ما أريد أنا أن أعرفه.

قال ألبير: - عزيزي فرانز، حين توصّلتَ برسالتي ارتأيتَ أنّنا بحاجةٍ إلى نفوذ الكونت، فقصدتَه تقول له: إنّ ألبير دو مورسيرف، صديقيَ، واقعٌ في خطر كبير؛ ساعدني على إنقاذه منه! أليس كذلك؟

- بلى.

- فهل سألك هو: - من يكون ألبير دو مورسيرف هذا؟ من أين أتى اسمُه؟ من أين حصّل ثروته؟ ما مصادر عيشه؟ ما بلاده؟ أين وُلد؟ هل سألك شيئًا من ذلك؟

- كلاّ، إنّي أقرُّ بذلك.

- لقد أتى، وهذا كلّ ما في الأمر. أنقذني من بين يديِّ السيّد فامبا؛ هناك حيثُ كنتُ على الرّغم من ملامحيِ الهازئة، كما قلتُما ليَ، في أسوإِ حالٍ. وإذًا يا عزيزي، حين يقدّم إليّ رجلٌ معروفًا بهذا الحجم، ثمّ يطلب منّي مقابلَه خدمةً هيّنةً، خدمةً نقدّمها إلى أيّ أميرٍ روسيّ أو إيطاليّ يمرّ في باريس، أي أن أقدّمَه إلى المجتمع الباريسي، ثمّ تأتي أنت وتريدني أن أرفض طلبَه! أليس هذا عين الجنون؟

وينبغي القول إنّه على خلاف المعتاد كانت الحجج كلّها هذه المرّة تدعمُ رأيَ ألبير.

استأنفَ فرانز الكلامَ زافرًا: - في نهاية المطاف، افعلِ ما بدا لك يا عزيزي الفيكونت؛ إذ عليّ الاعتراف بأنّ كلّ ما تقوله مخاتلٌ، مع أنه يبدو صادقًا؛ لكن هذا لا يلغي أنّ الكونت يظلّ رجلًا غريبًا.

- إنّ الكونت مونت كريستو رجلٌ انعزاليّ. ولم يطلعك على الغاية من زيارته إلى باريس. طيّب، لعلّهُ ذاهبٌ لينافس على جوائز مونتيون[1]؛ وإن لم يكن يحتاج لكي يفوز بالجائزة إلا إلى صوتي وصوت الرّجل القبيح الذي يمنح الجوائز، فسوف أعطيه صوتي طواعيةً، وأضمن له الصّوتَ الآخر. والآن، لنطوِ هذا الموضوع، ولنتناول طعامنا، ثمّ لنقصد كاتدرائيّة القدّيس بطرس في زيارةٍ أخيرة.

وكان ما اقترحه ألبير؛ وفي اليوم التالي على السّاعة الخامسة بعد الزّوال، افترق الصّديقان: ألبير مورسيرف عائدًا إلى باريس، وفرانز ديبيناي قاصدًا البندقية يقضي فيها خمسة عشر يومًا. على أنّ ألبير قبل أن يصعد إلى العربة، أعطى خادمَ الفندق بطاقةً يسلّمها للكونت، لفرط ما كان يخشى أن يُخلفَ ضيفُه المنتظرُ الموعدَ، وكان مكتوبًا في البطاقة:

الفيكونت ألبير دو مورسيرف

وبقلّم الرّصاص: - **21 أبريل القادم عند الساعة العاشرة والنصف صباحًا. الرقم 27، شارع هيلدر.**

(1) مجموعة جوائز أُحدثت بمبادرةٍ من جان باتيست أوغي دو مونتيون، وتمنحها الأكاديميّة الفرنسية وأكاديمية العلوم. وفروعها تحديدًا ثلاثةٌ (العلوم والآداب والفضيلة).

ألكسندر دوما

كونت مونت كريستو

في قصة رومانسية، وعلى خلفية الحقبة النابليونية وانقسامات المجتمع الفرنسي بين أنصار الملكية وأنصار نابليون، كتب ألكسندر دوما رائعته "كونت مونت كريستو"، لتتحول إلى واحدة من الأعمال العظيمة في تاريخ الأدب، وتحظى بشهرة وانتشار واسعَيْن منذ صدورها في العام 1844. وتُعاد طباعتها وترجمتها إلى كل لغات العالم، مرة بعد مرة، لتتكرّس كواحدة من الأعمال الكلاسيكية الكبرى.

إدمون دانتس، الشاب الطموح والمَرِح، يتعرّض لمكيدة تؤدي إلى اعتقاله يوم تحقق فرحته بالزواج من حبيبته الجميلة مرسيدس. ويقع بين يدي قاضٍ يودعه السجن من دون محاكمة ليُسجَن ظلمًا لأربعة عشر عامًا في أشد الظروف قساوةً. لكن الأب فاريا المتهم بالجنون يفتح له باب الأمل من طريق غير متوقَّع.

يفرّ إدمون دانتس من سجنه الانفرادي معرِّضًا نفسه للموت، لكنه ينجو. يخرج ليرى أن الذين أدخلوه السجن ظلمًا صاروا شخصيات كبيرة عن طريق الكذب والغشّ. يبدأ كونت مونت كريستو عملية انتقام متقنة الصنع في سياق رسم صورة للمجتمع الفرنسي في تلك الفترة.

إن دار التنوير لتفخر بتقديم هذا العمل العظيم لأول مرة في ترجمة كاملة إلى اللغة العربية، ترجمة بذل فيها محمد آيت حنا جهدًا كبيرًا لتوضيح الوقائع والشخصيات الكثيرة التي يذكرها دوما في هذه الرواية المليئة بالإحالات على التاريخ والفلسفة والميثولوجيا.

... كتابات دوما هي قمة الفن. لن يستطيع، ولم يستطع أحد من قبل، أن يتجاوز إبداعه في قصصه الرومانسية ومسرحياته.

جورج برنارد شو

لا أعتقد أنه يوجد كتاب تستطيع أن تعيش معه جوًا رومانسيًا صافيًا مثل هذا الكتاب.

روبرت لويس ستيفنسون

التنوير
daraltanweer.com
بيروت • القاهرة • تونس